دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

رواية الجزء الأول



دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

الجزء الأول

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

الكتاب: الإخوة كارامازوف ـ الجزء الأول

المؤلف: دوستويفسكي

الترجمة: فارس غصوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: حزيران ٢٠١٦

ISBN:978-9953-71-748-7

المحتويات

القسم الثاني

القسم الثالث

ملاحظة المؤلف

أشعر أنني في حالة من الارتباك وأنا أبدأ سرد قصة حياة بطل روايتي ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. أريد القول: إنني أعلن، حقاً، أن ألكسي فيودوروفتش هو بطل روايتي. بيد أنني في وضع يمكّنني من معرفة أن هذا الإنسان هو كل شيء عدا كونه رجلاً كبيراً، مما يحدو بي إلى توقُّع أسئلة لا مفرَّ منها، مثل: ماذا لدى ألكسي فيودوروفتش من مميَّز حتى اخترته ليكون بطل روايتك؟ ما الذي قام به من أعمال خاصّةٍ نادرة؟ ممَّن ولماذا هو ذائع الشهرة؟ لماذا ينبغي أنا القارىء أن أضيّع وقتي لأتعرَّف أحداث حياته؟

السؤال الأخير هو الأكثر حرجاً، لأنني لا أستطيع أن أردَّ عليه إلا بجواب واحد: «ستجدون ذلك، ربما، في الرواية». لكن ماذا إذا قرأوا الرواية ولم يجدوا فيها ما أقول وإذا ما بقوا على اختلاف في الرأي معي فيما يتعلق بشخصية ألكسي فيودوروفتش المميزة؟ أقول ذلك لأن الحزن في القلب وأنا أستشعر به. بالنسبة إلي، إنه رجل فذّ، غير أنني أشك، فعلاً، في الوصول إلى إثبات ذلك للقارىء. في الحقيقة إنه رجل عظيم لكنه غير محدَّد بعد وليس بالوضوح الكامل. ومن المستغرب إذاً، في عصر مثل عصرنا، أن نفرض على الناس مثل هذا الوضوح. هناك أمر، على ما أعتقد، خارج الشك إلى هذا الحد أو ذاك هو أنه رجل غريب الأطوار لا بل فريد حقاً. لكن واقع أن يكون غريب الأطوار أو فريداً هو أمر يسيء أكثر مما يدفع إلى الاهتمام، خاصة عندما يجهد كل الناس ليوحِّدوا خصوصياتهم ويلتمسوا بعض الوضوح في هذه الفوضى

الشاملة المشتركة. والفرادة في أغلب الأحيان هي حالة خاصة وتميُّز. ألا تعتقدون ذلك؟

وبعد، إذا كنتم لا توافقون على هذه الفرضية الأخيرة وتجيبونني: «لا»، أو «ليس دائماً»، فذلك يجعلني شديد الثقة بما يتعلق بأهمية بطلي ألكسي فيودوروفتش. لأن الغريب وحده ليس هو «دائماً» حالة خاصة وتفرُّداً فحسب بل عكس ذلك، أعتقد أنه قد يحمل في ذاته نواة حقيقة عصره بينما الآخرون جميعهم يبتعدون عنها كأنما دفعتهم هبّة ريح عابرة فأبعدتهم، فترة وجيزة، عن القاعدة على حين غرَّة...

كان بإمكاني ألّا أتوسع في هذه التعليلات الغامضة وغير الهامّة، وأن أبدأ، بمنتهى البساطة، بدون مقدّمة؛ كانت ستحظى روايتي، على كل حال، برضى القارىء. لكن المصيبة أنني أعرض قصة حياة واحدة في روايتين. والرواية الأساسية هي الثانية لأنها تتضمّن أعمال بطلي في عصرنا، وأعني في الفترة المحدّدة والمعاصرة التي نعيشها. فالرواية الأولى جرت أحداثها قبل ثلاثة عشر عاماً وهي ليست في الواقع رواية بل إنها، تحديداً، فترة بسيطة من مرحلة شباب بطلي. ومن المستحيل أن أتخلّى عنها لأن هناك أشياء كثيرة في الرواية الثانية يتعذّر فهمها. ولكن، على هذا النحو، فإن صعوباتي الأولى سوف تتعقد أكثر فأكثر. إذا كنت أنا، أي كاتب السيرة، أعتقد أن رواية واحدة، إن حدث ذلك، هي كثيرة على بطل متواضع وغير محدّد، فكيف يمكنني أن أتقدّم بروايتين وكيف لي أن أفسِّر مثل هذا الادّعاء؟

بما أنني أتيه في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة اتخذت القرار بأن أضعها جانباً بدون حلول. ومن البديهي أن القارىء ثاقب الفكر قد يتوقَّع ما أهدف إليه، منذ البداية، وتثور ثائرته عليّ متسائلاً لماذا أهدرت، من أجل لا شيء، كل هذه الكلمات العقيمة والوقت الثمين. عن كل ذلك أقدِّم جواباً واحداً

محدداً: أهدرت كلاماً عقيماً ووقتاً ثميناً لسببين هما اللياقة أولاً ثم المكر. ولن يجدي القول إنني حذّرت القارىء من هذا الأمر أو ذاك. لاحظوا، إنني مسرور بأن روايتي تنقسم بذاتها إلى قصتين مع الاحتفاظ «بالوحدة الأساسية للمجموع»: بعد قراءة القصة الأولى، يستطيع القارىء أن يحكم بنفسه إذا ما كان ذلك يستحق العناء، من وجهة نظره، أن ينخرط في قراءة القصة الثانية. طبعاً، ما من أحد مجبر على أيّ شيء. في وسع المرء أن يتخلّى عن الكتاب بعد قراءة الصفحتين الأوليين من القصة الأولى ولا يعود إلى قراءته أبداً. لكن، يوجد، مع ذلك، قرّاء يتمتعون بالرهافة بحيث يقرأون الكتاب حتى النهاية لكي لا يقعوا في حكمهم المتجرّد: أعتقد أن هذا هو شأن النقاد الروس، مثلاً، فأنا أرتاح إليهم؛ ورغم ما يتّصفون به من دقة واستقامة في الرأي فإنني أقدِّم لهم حجة مشروعة بأن يتوقفوا عن قراءة الفصل الأول من الرواية. حسن، هذه هي كل مقدّمتي. أعترف أنها لا تفيد شيئاً. وبما أنني كتبتها، فلتبقَ.

ولننتقل الآن إلى الموضوع.

القسم الأول

الكتاب الأول

قصة عائلة صغيرة

I

فيودور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسي فيودوروفتش كارامازوف الابن الثالث لفيودور بافلوفتش كارامازوف المالك العقاري في مقاطعتنا والذي كان معروفاً جداً في زمنه (واسمه لا يزال حتى اليوم حاضراً في ذاكرتنا) بسبب وفاته المأسوية والمبهمة التي حدثت منذ ثلاث عشرة سنة، تلك الوفاة التي سوف أتناولها في مقطع محدّد من هذا الكتاب. والآن سأكتفي بالقول عنه هذا «المالك العقاري» (كما يُسمّى عندنا على الرغم من أنه لم يُقم في ملكيته طوال حياته) شيئاً واحداً ألا وهو أنه كان ينتمي إلى هذا النموذج الغريب الذي نجده مع ذلك، غالب الأحيان. أريد القول هذا النموذج من الناس الذين ليسوا رديئين ومنحطّين فحسب بل في الوقت نفسه، لا يفيدون لشيء، إنما يعرفون، بشكل عام، كيف يديرون أعمالهم الموروثة وأعمالهم هم فقط، على ما أعتقد. انطلق فيودور بافلوفتش، مثلاً، من لا شيء. كان من صغار الملّاكين العقاريين، يأكل تارة عند هذا أو ذاك، يعيش على موائد الناس، ومع ذلك، وُجدت لديه ثروة، بعد موته، قيمتها مئة ألف روبل من الفضة عداً ونقداً. وفي الوقت نفسه، استمرَّ طوال حياته واحداً من أولئك الشاذين غريبي الأطوار في كل مقاطعتنا. وأكرر

القول، إن ذلك لم يكن غباءً منه. فهؤلاء الشاذون، بأكثريتهم، كانوا من الدهاة وليسوا أغبياء أبداً. لكن الأمر هو أنهم لا يفيدون لشيء. وفضلاً عن ذلك فهم يشكلون فئة خاصة وطنية.

لقد تزوج مرتين وأنجب ثلاثة أبناء: البكر هو ديمتري فيودوروفتش، من زوجته الأولى، والاثنان الآخران هما إيفان وألكسي، من زوجته الثانية. كانت زوجة فيودور بافلوفتش الأولى متحدّرة من عائلة وافرة الغنى، من أسرة ميوسوف الأرستقراطية العريقة، وكان أفرادها هم أيضاً، ملاكين عقاريين في مقاطعتنا. كيف حدث، بالضبط، أن فتاة شابة ذات مهرٍ كبير ورائعة الجمال تتمتع بذكاء خارق ومليئة بالحيوية، كالكثيرات عندنا في الجيل الراهن.

لكن كما كان ذلك نادراً في الجيل السابق، استطاعت أن تتزوج من رجل تافه «طِرح» كما يسمّيه كل الناس في ذلك الوقت، لن أجهد نفسي كثيراً في تفسير ذلك الأمر. والواقع أنني عرفت فتاة من الجيل القديم الذي سبق جيلنا، جيل «الرومنسيين»، بقيت سنين طويلة تهيم بحبّ رجل كان بإمكانها أن تتزوجه بسهولة ورويّة، وانتهت، مع ذلك، إلى أن تتصور في مخيلتها جميع العقبات الشائكة التي تحول بينهما. وذات ليلة عاصفة رمت بنفسها من أعلى جرفٍ عميق جداً فقضت نحبها ضحية لنزواتها الخاصة وذلك لهدف أوحد هو أن تتشابه مع أوفيليا بطلة شكسبير. حتى هذا الجرف الذي اختارته وأحبّته، منذ زمن طويل، أنه أقلّ جمالاً ولو كان شاطئاً مبسطاً لأُمكن ألّا يقع حادث الانتحار هذا. هذه قصة واقعية، ويجب الاعتقاد أن في حياتنا الروسية منذ هذين الجيلين الأخيرين أو الثلاثة، وقع الكثير مثل هذه الأحداث. وعلى المنوال نفسه، كان زواج أديلاييدا إيفانوفنا ميوسوفا هو أيضاً صدى لمؤثرات خارجية

«وغضب فكرة أسيرة»(*). ربما أرادت بذلك أن تعبّر عن استقلالها النسوي وأن تتحدَّى الأحكام الاجتماعية وأن تتحرر من استبداد أسرتها وجنسها. وقد أقنعها خيالها ولو للحظة وجيزة، بأن فيودور بافلوفتش على الرغم من كونه إنساناً طفيلياً، وكان مع ذلك، واحداً من أشجع الرجال وأكثرهم طرافة في عصر الانتقال هذا نحو مستقبل أفضل، بينما لم يكن، في الحقيقة، إلا مهرّجاً شريراً وحقيراً. والمثير في هذا الأمر هو أن الزواج كان مجرد عملية اختطاف، افتتنت بها أديلاييدا إيفانوفنا. بينما كان فيودور بافلوفتش مهيَّأً، بشكل خاص، بحكم وضعه الاجتماعي إلى هذا النوع من المغامرات، لأنه كان يرغب بكثير من الحماسة والشغف أن تتوفر له فرصة نجاح في الحياة مهما تكن الوسيلة. فالتسلُّل إلى أسرة رفيعة المقام والحصول على مهرٍ جيد كانا يغريانه إلى حد كبير. أما بالنسبة إلى الحبّ المتبادل فيبدو أنه لم يكن له أي وجود لا من جهة الخطيبة ولا من جهته هو، رغم جمال أديلاييدا إيفانوفنا بحيث إن تلك حالة كانت فريدة في نوعها في حياة فيودور بافلوفتش كلها، هو الذي بقي طوال حياته ملتهب العواطف يمكن أن يعشق في طرفة عين أيَّ امرأة يتعرّف إليها، شرط أن يُشجَّع على ذلك. والحالة هذه، فقد كانت أديلاييدا إيفانوفنا تلك المرأة الوحيدة التي لم تُثر لا رغبته ولا عواطفه.

أدركت أديلاييدا إيفانوفنا بعد الاختطاف فوراً أنها لا تشعر نحوه إلا بالاحتقار، وهكذا برزت عواقب هذا الزواج بسرعة رهيبة. ورغم أن أسرتها قد سارعت إلى قبول هذا الأمر ولم ترفض أن تدفع المهر الذي يعود إلى الهاربة، فبدأت حياة الزوجين تصبح مضطربة تتخلّلها المشاكل. وقيل إن

(*) نص من قصيدة شهيرة لميخائيل ليرمنتوف: «احترس من نفسك...» (المترجم)

الزوجة الشابة أظهرت، في هذا الظرف، نبلاً ورفعةً لم يأتِ بمثلهما فيودور بافلوفتش الذي استطاع، كما نعرف اليوم، أن يدبِّر أموره فوراً ويأخذ كلَّ ثروتها دفعة واحدة، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل. فما إن قبض هذا المبلغ الزهيد حتى كانت هي قد فقدت رأس مالها نهائياً. القرية والمنزل الفخم الذي كانت تملكه في المدينة، وهما من ضمن المهر، فقد بقي سنين طويلة يحاول بكل قواه أن ينقلهما إلى اسمه بسند قانوني، وكان يمكن أن ينجح في ذلك، بدون شك، لأن ما كانت تحسّ به المرأة تجاه زوجها من احتقار واشمئزاز، بتوسّلاته الوقحة في كل لحظة وبمطالبته المستمرة، كان قد حضَّها على التنازل له عن القرية والمنزل. لكن لحسن الحظ، أن أسرة أديلاييدا إيفانوفنا قد تدخلت في الوقت المناسب لتضع حداً لهذه المكائد.

وعُرف من مصدر موثوق به أن معارك حقيقية جرت بين الزوجين. وقيل إن فيودور بافلوفتش لم يكن المنتصر في تلك المعارك بل كانت أديلاييدا إيفانوفنا ذات الطباع الحادة والجريئة وصاحبة البشرة السمراء والمزاج النزق والبنية القوية المدهشة. وأخيراً، انتهى الأمر بأن هجرت المنزل الزوجي وهربت من فيودور بافلوفتش مع طالب إكليريكي يعمل مدرِّساً ويعيش في فقر مدقع، تاركة لزوجها أمر الاهتمام بابنه ميتيا الذي له من العمر ثلاث سنوات. واستغلّ فيودور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله مجموعة من النساء وراح يشرب الخمر من دون رادع حتى السكر. أثناء ذلك، راح يطوف في المقاطعة كلها شاكياً والدموع في عينيه، لكل من يصادفه في طريقه أن أديلاييدا إيفانوفنا قد هجرته ويروي شقاءه لجميع الناس. كان وهو يقوم بذلك لا يتورّع عن أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل يحمرّ وجه الزوج خجلاً

منها. والغرابة في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثّل أمام الملأ هذا الدور المضحك، دور الزوج الذي خانته زوجته. وكأنما يسرُّه أن يكون في هذه الحالة، فهو يصف المصيبة مضيفاً إليها مزيِّناً لها. فكان بعضهم يقول له ساخراً منه: «يبدو عليك يا فيودور بافلوفتش أنك قد حزت ترقية، فأنت تبدو مسروراً جداً رغم شقائك». حتى أن الكثيرين منهم كانوا يضيفون أنه كان مسروراً من هذه العودة إلى لعب دور المهرّج، ويتظاهر عمداً بأنه لا يرى ما يبعث في وضعه على الضحك، وذلك كي يزيد ما يتّصف به هذا الوضع من طابع هزلي. ومن يدري مع ذلك؟ ربما كان ذلك نوعاً من السذاجة. وأخيراً، نجح الرجل في اكتشاف أثر زوجته الهاربة. كانت المسكينة في بطرسبرغ. انتقلت إليها مع صاحبها المدرِّس وتحررت فيها بشكل كامل. اضطرب فيودور بافلوفتش فوراً لدى سماعه هذا النبأ وقرّر الذهاب، على وجه السرعة، إلى بطرسبرغ. لماذا؟ هو نفسه، لا يعرف السبب. كان يمكن، ربما، أن يذهب إلى بطرسبرغ. لكنه عندما اتخذ هذا القرار شعر فوراً أنّ من حقِّه أن يسكر بإفراط كي يملك الشجاعة على القيام بهذه الرحلة. وبينما كان يسكر، وصله خبر وفاتها في بطرسبرغ عن طريق أسرتها. توفيت المرأة فجأة في غرفة تحت سطح أحد المنازل. ويقول بعضهم إنها ماتت بداء التيفوس، والبعض الآخر يقول إنها قضت من «الجوع». عندما تلقّى فيودور بافلوفتش خبر وفاة زوجته كان في حالة سكرٍ شديد. ويقال إنه راح يركض في الشوارع رافعاً ذراعيه إلى السماء، صائحاً: «الآن حرَّرت عبدك يا ربّ!»(*) وتقول رواية أخرى إنه بكى

(*) إنجيل القديس لوقا، II، ٢٤ - ٣٠. يتعلق الأمر بيوم حضوره إلى الهيكل. وتتم تلاوة هذه الكلمات في الطقس الأرثوذكسي أثناء صلاة المساء.

بكل جوارحه وكأنه طفل صغير، بحيث إذا رآه أحدهم أشفق عليه رغم ما يبعث في النفس من تقزز. قد تكون الروايتان صحيحتين، بمعنى أن الرجل قد اغتبط بتحرره، ولكنه في الوقت نفسه، بكى على محررته. إن الناس، في أغلب الأحيان، وحتى المتوحشين من بينهم، هم أكثر سذاجة وبساطة مما يمكن أن نتصوّر. وهذا ينطبق علينا نحن أيضاً.

II

التخلُّص من ابنه الأول

نتصوَّر، طبعاً، أي أب ومرب يمكن أن يكونه مثل هذا الرجل. وبوصفه أباً، قد حدث له ما كان يجب أن يحدث، أي إنه تخلّى كلياً عن الطفل الذي أنجبه من أديلاييدا إيفانوفنا ليس لأنه يضمر له كرهاً أو لأنه يكنّ له حقداً من حيث إنه زوج مخدوع بل لأنه نسيه كلياً. وبينما كان يزعج كل الناس بدموعه وشكاواه وحوَّل منزله إلى بيت للدعارة، اهتمّ بالطفل ذي الثلاث السنوات، خادم أمين يدعى غريغوري، ولولاه لما وُجد أحد يستبدل له قميصه الصغير. أضف إلى ذلك أن عائلة أمّ ميتيا، هي أيضاً في بادىء الأمر، قد نسيت الطفل. كان جدّ الطفل السيد ميوسوف، والد أديلاييدا إيفانوفنا قد بارح هذا العالم. وكانت زوجته التي أصبحت أرملة، جدَّة الطفل، قد انتقلت إلى موسكو وهي تعاني مرضاً شديداً. وكل شقيقاتها قد تزوّجن. فبقي الطفل ميتيا سنة كاملة، مع الخادم غريغوري في كوخ خشبي للخدم. والأرجح أن الأب لو تذكّر ابنه (وهو لا يمكن أن ينسى وجوده) لأسرع بطرده من ذلك الكوخ لأن الطفل يزعجه في مجونه. لكن حدث أن عاد من باريس، أحد أبناء عمّ المرحومة

أديلاييدا إيفانوفنا، ويدعى بيوتر (Piotr) ألكسندروفتش ميوسوف، الذي كان عليه أن يعيش سنوات عديدة في الخارج وكان يومذاك شاباً فتيّاً، ولكنه من نوع خاص مختلفٍ عن سائر أفراد أسرة ميوسوف. متنور نشأ وترعرع في العواصم الكبرى فضلاً عن كونه أوروبياً بأسلوب حياته وقد بقي حتى آخر حياته ليبرالياً على طراز سنوات ١٨٤٠ - ١٨٥٠؛ كانت له صلة بأكثر الرجال المفكرين ليبراليةً في زمننا، سواء في روسيا أو في الخارج، وقد عرف برودون وباكونين معرفة شخصية. وبعد كل هذا المطاف من جولته، كان يحلو له، بصورة خاصة، أن يستعيد ذكريات مشاعره خلال الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط/ فبراير في العام ١٨٤٨ التي اندلعت في باريس، وكان يحلو له أيضاً أن يعرِّف المستمعين إليه، في هذه المناسبة، أنه وجد نفسه وراء المتاريس. كانت تلك إحدى ذكرياته الأكثر بهجة في شبابه. كان يملك ثروة خاصة تقدَّر في ذلك العصر بألف نفس حسب المعايير القديمة. وكانت أملاكه الشاسعة تقع بالقرب من مدينتنا الصغيرة وتحاذي أراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه بيوتر ألكسندروفتش، منذ شبابه الأول، أي بعد أن ورث هذه الأراضي فوراً، قضيَّةً طال أمدها، وهي تتعلق بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابة أو غير ذلك. لست على معرفة بكل التفاصيل، وتلك قضية تافهة في ذاتها ولكن اعتبر أن من واجبه كمواطن وكإنسان مثقّف أن يقاضي «الإكليروس». فلما علم بكل قصة أديلاييدا إيفانوفنا التي كان يتذكرها، بدون شك، حتى إنه كان قد التقى بها فيما مضى، وعلم بوجود الطفل ميتيا، قرّر أن يتدخل في الأمر رغم احتقاره لفيودور بافلوفتش وما كان يشعر به إزاء تصرّفاته من استنكار؛ التقى في هذه الظروف، للمرة الأولى، فيودور بافلوفتش فأبلغه

صراحةً وبوضوح أنه يرغب في أن يهتمّ بتربية الطفل. وتوجَّب عليه أن يروي، لاحقاً، كأنما يريد أن يبرز أخلاق فيودور بافلوفتش، أن هذا الأخير، عندما تكلّم معه عن ميتيا، بدا عليه، في أول الأمر، أنه لا يعرف أيَّ طفل يعني، وبدت عليه الدهشة من أن يكون له ابن صغير يقيم في مكان ما في منزله. يمكن أن تكون قصة بيوتر ألكسندروفتش تحمل بعض المبالغة، فممَّا لا شك فيه أنه لم يبتعد كثيراً عن الحقيقة. أما في الواقع فإن فيودور بافلوفتش كان طوال حياته يحبّ أن يمثّل وأن يظهر فجأة في دور غير متوقع، دون أن يكون لذلك سبب، ودون أن يجني فائدة، بل ربما أصابه ضرر، جراء ذلك، في كثير من الأحيان. وتلك سمة نجدها لدى عدد كبير من الناس، وربّما يكون بعضهم على جانب وافر من الذكاء، فهي ليست وقفاً على فيودور بافلوفتش وحده. وعالج بيوتر ألكسندروفتش الأمور بعزم وحزم، فتمَّ تعيينه وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيودور بافلوفتش)، لأنه، رغم كل شيء، هناك بقية من إرث تركته الأم بعد وفاتها، وهو منزل وقطعة أرض صغيرة. وهكذا، انتقل ميتيا ليعيش في كنف هذا العم الذي لا عائلة له. فأسرع عائداً إلى باريس ليقيم فيها مدَّة طويلة بعد أن رتَّب أموره وتقاضى ريع أراضيه وعهد بالطفل إلى إحدى بنات أعمامه وهي سيّدة من موسكو. وحدث أنه خلال إقامته في باريس قد نسي كلياً، هو أيضاً، الطفل، سيّما بعد ثورة شباط/ فبراير تلك الشهيرة التي أثرّت في خياله حتى أصبح غير قادر على نسيانها إلى آخر أيامه. وتوفيت السيّدة الموسكوفية فانتقل ميتيا إلى منزل إحدى بناتها التي تعهّدته وكانت متزوجة. أعتقد أنه غيَّر مكانه بعد ذلك للمرة الرابعة. لكنني لا أريد أن أسترسل الآن في ذكر هذه التفاصيل سيّما وأنني سوف أتحدث بإسهاب عن هذا الابن الأول من أبناء

فيودور بافلوفتش. أما الآن، فحسبي أن أتوقف على بعض الإشارات التي لا بدَّ منها والتي بدونها لا أستطيع أن أبدأ سرد روايتي.

بادىء ذي بدء، إن ديمتري فيدوروفتش هذا كان الوحيد من بين أبناء فيودور بافلوفتش الثلاثة، الذي كان مقتنعاً بأنه يملك ثروة صغيرة ستعود إليه عندما يبلغ سنّ الرشد فيصبح مستقلاً. وقد قضى عمر المراهقة والسنوات الأولى من شبابه في حياة ملؤها الاضطراب. وقبل أن ينهي دراسته الثانوية دخل مدرسة عسكرية وأُرسل بعد ذلك إلى القفقاس ونال ترقيةً، لكنه تورط في مبارزة فجُرِّد من رتبته، ثم ترقّى مجدداً، وغرق في حياة المجون فبدّد مبالغ ضخمة، ولم يبدأ بتلقّي أموال من أبيه فيودور بافلوفتش إلا عندما بلغ سن الرشد وكان غارقاً في الديون. ولم يعرف أبوه فيودور بافلوفتش إلا بعد أن بلغ سن الرشد، وذلك عندما قدم إلى مدينتنا، لأول مرة، يناقش أباه في شأن ميراثه. ويبدو أنه نفر من أبيه دفعة واحدة فمكث عنده فترة وجيزة، ثم عاد راجعاً بعد أن حصل منه على مبلغ من المال وعقد معه اتفاقاً غامضاً للحصول على ريع أرضه تباعاً دون أن يتمكن من إقناع أبيه على أن يحدّد له قيمة الأرض وإيرادها (هذه نقطة ملحوظة). أدرك فيودور بافلوفتش منذ المرة الأولى (وهذه أيضاً نقطة يجب تسجيلها) أن لدى ميتيا فكرة مبالغة وغير صحيحة عن ثروته. لقد كان فيودور بافلوفتش بالغ السرور لأسباب خاصة به؛ وقد استنتج أن الفتى كان طائشاً مندفعاً في أهوائه ونافد الصبر مستعجلاً، ويكفي أن تعطيه أي مبلغ حتى يهدأ على الفور ولو موقتاً. هذا ما راح فيودور بافلوفتش يستغله، أي التخلص من ابنه بإعطائه دفعات صغيرة يرسلها إليه من حين إلى آخر. حتى عندما، نفد صبر ميتيا وعاد إلى مدينتنا بعد أربع سنوات لينهي مسألة الإرث،

مرة ثانية ونهائية مع أبيه، أصيب بالدهشة عندما علم أنه لم يعد يملك شيئاً. حتى أنه كان من الصعب أن يدقق في الدفعات التي أخذها من والده والتي أصبحت تتجاوز قيمة الأرض الموروثة فأصبح هو المدين لأبيه وليس أبوه مديناً له. وكانت دهشته رهيبة أكثر عندما علم أنه بموجب الاتفاق الذي عقده مع أبيه أصبح لم يعد له الحق بالمطالبة بشيء. صُعق الفتى وشعر أنه خُدع وأنّ أباه يكذب عليه فثارت ثائرته حتى أصبح كمن فقدَ صوابه. هذه هي الحالة التي أدّت إلى الكارثة التي تشكل موضوع روايتي الأولى التمهيدية، أو بتعبير أفضل، قصَّتها الخارجية. ومع ذلك، وقبل الانتقال إلى هذه الرواية يجب أن أتكلّم عن ابنيْ فيودور بافلوفتش الآخرين شقيقي ميتيا وأن أفسّر من أين جاءا إلى هذه الحياة.

III

الزواج الثاني
والابنان الثانيان

بعد أن رتب فيودور بافلوفتش مسألة طفله ميتيا تزوّج مرّة ثانية بسرعة. استمر هذا الزواج الثاني ثماني سنوات. وزوجته الثانية، صوفيا إيفانوفنا، كانت هي أيضاً فتاة في مقتبل العمر من إقليم آخر حيث ذهب لفترة قصيرة للقيام ببعض الأعمال التي كان يشارك فيها يهودي حقير. واسترسل فيودور بافلوفتش في الفسق والشراب والمجون، ولم يتوقف أبداً عن الاهتمام برأس ماله، فعرف دائماً كيف يتدبَّر أعماله الصغيرة بنجاح حتى وإن كان ذلك بشكل قذر. كانت صوفيا إيفانوفنا «يتيمة صغيرة» بدون عائلة منذ طفولتها، وهي ابنة شماس غير معروف! نشأت في منزلٍ ثريّ لمحسنة ومربِّية قاسية القلب في آن، سيدة أرستقراطية عجوز، أرملة الجنرال فوروخوف. لا أعرف كل التفاصيل لكنني سمعت همساً، أن هذه اليتيمة القاصر، المسكينة اللطيفة المتواضعة التي لا حول لها، وُجدت، ذات يوم، تحاول أن تشنق نفسها بمسمار في غرفة المؤونة لشدّة ما تحملت من قسوة الغضب والنزوات المستمرة من تلك العجوز التي لم تكن في الظاهر شريرة، ولكنها، في الواقع، امرأة جعلها الفراغ

مستبدة لا تحتمل. طلب فيودور بافلوفتش يد الفتاة فاستعلموا عنه ورفضوه. ومرّةً جديدة، وكما في الزواج السابق، اقترح على الفتاة اليتيمة أن يختطفها. والأرجح أنها لم تكن لتوافق أبداً على الزواج به لو علمت تفاصيل حياته بدقّة. لكن المسألة جرت في إقليم آخر. وماذا يمكن لفتاة في السادسة عشرة أن تدرك أنه من الأفضل أن ترمي نفسها في النهر على أن تبقى في منزل المحسنة إليها. وهكذا انتقلت الفتاة المسكينة من منزل محسنة إلى منزل محسن. وهذه المرة، لم يقبض فيودور بافلوفتش فلساً واحداً، لأن «الجنرالة» غضبت ولم تعطه شيئاً غير أنها لعنت الاثنين معاً. وهو لم يكن يتوقع أن يقبض شيئاً في هذه المرة، ولم يكن يغريه إلا جمال الفتاة البريئة الرائعة، خاصة ما تتمتع به من براءة أحدثت تأثيراً ملتهباً في نفس هذا الرجل الماجن الذي لا يهتم إلا بالجمال الأنثوي المبتذل. «تانك العينان الصغيرتان البريئتان قد اخترقتا نفسي على الفور كحدِّ الموسى»: كان يردّد ذلك، فيما بعد، بضحكته القذرة المعروفة عنه. ويجوز أيضاً أن ذلك الافتتان لم يكن لدى ماجنٍ مثله إلا وجهاً من وجوه اللذة الجسدية. ولأنه لم يكسب أيّ تعويض مالي، لم يكن فيودور بافلوفتش يشعر بأي حرج تجاه زوجته، فاستغلَّ شعورها بأنها «مذنبة» تجاهه هو الذي «أنقذ» حياتها، مستغلاً، بالإضافة إلى ذلك، ما يتصف به طبعها من لطافة وتواضع، وداس أبسط قواعد الحياة الزوجـية. فراح يقيم حفلات المجون في منزله، بحضور زوجته، ويجمع فيه نساءً عاهرات. أستطيع أن أذكر، كسمة مميزة، أن الخادم غريغوري، الرجل السكوت والغبي والعنيد أيضاً، الذي كان يكره سيّدته السابقة، أديلاييدا إيفانوفنا، قد انحاز، في هذه المرة، إلى السيدة الجديدة، يدافع عنها ويختصم مع فيودور بافلوفتش، بشكل غير لائق من خادم. حتى إنه، ذات مرة، وضع حداً لحفلة ماجنة وطرد بالقوة أولئك المومسات اللواتي استقدمهنّ إلى المنزل. بعد ذلك، أصيبت

هذه المرأة التعيسة الشابة التي عانت من الإرهاب منذ طفولتها، أصيبت بمرضٍ نسويّ عصبي ينتشر، غالباً، في أوساط الطبقة الشعبية وبين الفلّاحات اللواتي يُسمَّين بسبب هذا المرض «النساء المولولات». ومع هذا المرض الذي يصيبها بنوبات هستيرية رهيبة، كانت المريضة تعاني، أحياناً، حالةً من الجنون. لكنها أنجبت ابنين لفيودور بافلوفتش، هما إيفان وألكسي، الأول بعد سنة على زواجها، والثاني ألكسي بعد ولادة الأول بثلاث سنوات. وعندما ماتت، كان عمر الصغير ألكسي ثلاث سنوات؛ وإني أعرف، مهما يبدو هذا الأمر غريباً، أن ذكرى أمه عاشت في ذهنه طوال حياته ولو بشكل يشبه الحلم طبعاً. كان مصير هذين الطفلين، بعد موتها، كمصير الابن الأول ميتيا. نسيهما والدهما وهجرهما كلياً، فضمَّهما غريغوري إليه، في كوخه الخشبي. وفي ذلك الكوخ، اكتشفتهما «الجنرالة» العجوز المهووسة التي كانت محسنة لأمّهما ومربّية لها. في ذلك الوقت، كانت لا تزال على قيد الحياة. وخلال تلك السنوات الثماني لم تستطع أن تنسى الإهانة التي أُلحقت بها. كانت، في تلك الفترة، تتابع أخبار «حبيبتها صوفيا»، واستعلمت عن كل التفاصيل، فلما عرفت بنبأ مرضها الخطير والبيئة المتوحشة الفاضحة التي تحيط بها، قالت بصوت عالٍ مرتين أو ثلاثاً، أمام صديقاتها إنها غلطتها، «والله وحده مَن يعاقبها على نكرانها الجميل».

بعد ثلاثة أشهر بالضبط على وفاة صوفيا إيفانوفنا، ظهرت «الجنرالة» فجأة في مدينتنا الصغيرة واتجهت على الفور إلى منزل فيودور بافلوفتش. وإن كانت إقامتها لم تتجاوز نصف الساعة في مدينتنا، لكنها وجدت الوقت الكافي لتقوم بأشياء كثيرة. كان ذلك عند المساء؛ وفيودور بافلوفتش الذي لم تره منذ سنوات، أسرع إلى استقبالها وهو في حالة سكرٍ بعض الشيء. يقال إنها، في طرفة عين، مذ رأته، وبدون أي تفسير عاجلته بصفعتين قويتين

مدوّيتين، دون أيّ تردد، ثم، بدون كلام، أمسكته من شعره وهزَّته ثلاث مرات، واتجهت به إلى الكوخ حيث يوجد الطفلان. وإذ لاحظت، من النظرة الأولى، أنهما لم يستحمّا منذ أمد طويل وأنّ ملابسهما الداخلية كانت متّسخة، وجَّهت إلى غريغوري أيضاً صفعة أخرى، قائلة له إنها ستأخذ الولدين إلى منزلها، ثم انطلقت بهما كما كانا بعد أن لفَّتهما بغطاء ووضعتهما في عربتها ورجعت بهما إلى المدينة. تقبَّل غريغوري هذه الصفعة كعبدٍ مطيع دون أن ينبس بكلمة بل رافق السيدة النبيلة حتى العربة، وقال لها بتأثر وهو ينحني بكل قامته: «إن الله سيكافئها بسبب هذين اليتيمين». «وأنت، رغم ذلك، أبله». قالت له «الجنرالة» صارخة وهي تهمّ بالانصراف. وبعد أن تفحص فيودور بافلوفتش كل العملية وجد أن كل شيء قد جرى كما يجب. ثم لم يرفض، بعد ذلك، أيَّ عقبة ووقَّع اتفاقاً رسمياً مع «الجنرالة» على أن يُربَّى ولداه في منزلها، أما بالنسبة إلى الصفعات التي تلقّاها فقد طاف وهو يتباهى بها في المدينة كلها.

توفيت «الجنرالة»، بعد ذلك بزمن قصير وأورثت كلاً من الطفلين مبلغ ألف روبل في وصيتها التي نصّت على أنّ هذا المبلغ «مخصَّص لتعليمهما فقط، ولا يجوز أن ينفق منه شيء إلا عليهما شرط أن يكفيهما حتى بلوغ سن الرشد لأن هذا المبلغ الكبير يكفي لإعالة طفلين مثلهما؛ فإذا اعتقد بعض الهواة أن هذا الإرث غير كافٍ فليدفعوا النقص من جيوبهم هم»، الخ. إنني لم أقرأ شخصياً الوصية ولكن قيل لي إنها تضمنت أموراً غريبة من هذا القبيل وإنها كُتبت بشكل طريف. والوارث الرئيسي الذي آلت إليه أموال العجوز كان رجلاً شريفاً ورئيس نبلاء المقاطعة، هو إيفيم بتروفتش بولينوف. وبعد أن تواصل مع فيودور بافلوفتش اكتشف أن هذا الرجل لن يدفع فلساً واحداً لتعليم ولديه (رغم أن فيودور بافلوفتش لم يرفض ذلك مباشرة إنما اقتصر على المماطلة وربّما الاستزادة في أقوال عاطفية. عندئذ، قرر إيفيم بتروفتش

أن يهتم بالولدين شخصياً، وتعلّق، بصورة خاصة، بأصغرهما ألكسي فربّاه في عائلته نفسها خلال سنوات، أرجو من القارىء أن تبقى هذه النقطة في ذهنه منذ البداية. فإذا تمكّن هذان الشابان أن يحظيا في حياتهما كلها بتربية حسنة وثقافة ملائمة فيعود الفضل، في ذلك، إلى إيفيم بتروفتش، هذا الإنسان الأكثر نبلاً وإنسانية وهو من النوع الذي نادراً ما نقع على مثيل له. احتفظ بالألف روبل التي ورثها كلّ من الولدين من «الجنرالة» وعندما بلغا سن الرشد كان الألف، بفضل الفوائد، قد أصبح ألفين. لقد تعهَّد تربية الولدين من أمواله الخاصة وأنفق عليهما أكثر من الألف روبل طبعاً. لن أدخل هنا في سرد تفاصيل حياتهما خلال الطفولة والمراهقة وسأكتفي بالمحطات الأساسية. عن الابن البكر إيفان، أقول إنه أصبح على مرّ الزمن مراهقاً يتّصف بالتجهُّم والانطواء على الذات، ولم يكن خجولاً بل كان يبدو أنه أدرك منذ العاشرة من عمره أنه يعيش هو في كنف عائلة وإحسان شخص آخر. وأنّ أباهما من النوع الذي يخجل المرء التحدّث عنه. أظهر هذا الصبي في عمر مبكر (هذا ما يقال على الأقل) قدرات خارقة وتفوّقاً في الدراسة. إنني لا أعرف كل التفاصيل، لكنني أعرف أن الصبي غادر عائلة إيفيم بتروفتش وهو في الثالثة عشرة تقريباً والتحق بمدرسة ثانوية في موسكو، وهناك أقام في «بانسيون» لست أدري أيّ عالم في التربية ذي خبرة وذائع الشهرة، كان صديق الطفولة لإيفيم بتروفتش. وقد حكى إيفان بنفسه، فيما بعد، أن ذلك كلّه يعود إلى ما يتصف به إيفيم بتروفتش «من اندفاع لأعمال الخير» قد شجعته فكرة أنّ هذا الصبي ذو مواهب فائقة يجب أن يهتمّ به عالم تربية عبقري. لكن إيفيم بتروفتش والمربّي العبقري كانا قد انتقلا كلاهما من هذه الدنيا حين أنهى الفتى دراسته في الثانوية، فالتحق بالجامعة. ولأن إيفيم بتروفتش لم يعرف أن يتخذ تدابيره والألف روبل التي أوصت بها «الجنرالة» المهووسة للطفلين والتي أصبحت، بفضل الفوائد، ألفين، تأخر

استلامهما بسبب الكثير من الاجراءات الشكلية والآجال التي لا بدّ منها في بلادنا. اضطرَّ الشاب خلال السنتين الأوليين اللتين قضاهما في الجامعة، أن يكسب رزقه بنفسه ويؤمّن حاجاته لكي يتابع دراسته. وجدير بالذكر أنه لم يحاول أن يكتب لأبيه ربما عن كبرياء وإما عن احتقار له أو بالتالي لأنّ عقله الهادىء قد أشار إليه ألّا ينتظر مساعدة جدّية من أبيه. على أية حال، حافظ الشاب على هدوئه، واستطاع، في نهاية المطاف، أن يجد عملاً، بدأ، أول الأمر، بإعطاء دروس بأجر قدره فلسان ثم استطاع أخيراً، بالسعي من إدارة تحرير للصحف إلى إدارة أخرى، أن يكتب مقالات مقتضبة من عشرة أسطر، عن حوادث الشارع، موقَّعة باسم «شاهد عيان». إن تلك المقالات المقتضبة، حسبما يقال، كان لها جانب فضولي ولاذع بحيث لاقت نجاحاً كبيراً. بذلك أظهر هذا الشاب تفوّقه العملي والثقافي على أولئك الشبّان الكثيرين، من الجنسين، الذين يعيشون في عوز في عواصمنا ويحاصرون إدارات التحرير من الصباح حتى المساء، دون أن يحسنوا ابتكار شيء غير تكرار طلبهم الدائم، وهو أن يكلَّفوا بالترجمة عن اللغة الفرنسية أو نسخ المقالات. ولما تمرَّس إيفان فيدوروفتش بالتحرير تابع عمله ونشر خلال السنوات الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات ذات شأن عرض فيها للعديد من المؤلفات ذات مواضيع متخصّصة فأصبح معروفاً في الأندية الأدبية. إلا أنه لم ينجح بأن يجذب إليه فجأة انتباه حلقة واسعة من القراء إلا في أواخر تلك الفترة، فصار عدد كبير منهم يذكرونه دائماً. وما إن أكمل دراسته الجامعية واستلم الألفي روبل وبدأ يستعد للسفر إلى الخارج. حتى نشر ذات يوم في إحدى كبريات صحفنا اليومية مقالاً غريباً جذب إليه نظر غير المتخصصين من القراء، خاصة وأن المقال يتناول موضوعاً ليس له أي صلة بما انصرف اليه الشاب من دراسات علمية. فقد تناول مقاله مسألة كانت موضع نقاش دائم

ألا وهي، محكمة الكنيسة وبعد أن تفحص عدداً من الآراء التي تناولها هذا الموضوع، عبّر عن آرائه الشخصية. تميز مقاله، بصورة خاصة، باللغة التي كتب بها كما بالخاتمة التي آل إليها وقد اتصفت بأنها غير متوقعة. والحال هذه، فإن عدداً كبيراً من رجال الإكليروس اعتبروا الكاتب واحداً منهم. وفي الوقت عينه، أعرب ليس العلمانيون فقط وإنما عدد كبير من الملحدين أيضاً عن تأييدهم وقدّموا له التهاني. في نهاية المطاف استنتج بعض الأشخاص ثاقبي البصيرة أن المقال ليس سوى مزاح ومهزلة. وإذ أذكر هنا هذه الحالة، بشكل خاص، فذاك أن المقال قد دخل في حينه إلى ديرنا الشهير الذي يولي مسألة محكمة الكنيسة اهتماماً بالغاً. لقد أحدث ذهولاً عاماً. وبعد أن كُشف عن اسم الكاتب، اهتم الناس بكونه من مدينتنا، وابن «هذا فيودور بافلوفتش بالذات». وفجأة، وفي تلك اللحظة، ظهر الكاتب شخصياً في مدينتنا.

ماذا جاء يفعل إيفان فيدوروفتش عندنا؟ أذكر جيداً أنني طرحت هذا السؤال على نفسي منذ تلك اللحظة وأنا أحس بنوع من القلق. فهذه الزيارة المشؤومة التي كانت مصدراً لوقوع أحداث عديدة، بقيت في ذهني زمناً طويلاً لا بل استمرت أمراً مبهماً لم أتمكن من فهمه أبداً. وعلى وجه العموم، كان مستغرباً أن يقرر شاب يتمتع بهذه المعرفة وبهذه الكبرياء وهذا الحذر، المجيء فجأة إلى منزل سيّئ السمعة إلى منزل والد تجاهله طوال حياته ولم يتعرّف إليه وحتى إنه نسي وجوده. ويعلم الإبن أن أباه الذي كان سيرفض في أي ظرف، إعطاء ابنه بعضاً من المال إذا ما طلب منه ذلك، كان يخاف دائماً من أن يطلب منه ابناه، إيفان وألكسي، ذات يوم، بعض المال الواحد تلو الآخر. وها هو الشاب يقيم في منزل مثل هذا الأب، ويقضي فيه شهراً ثم آخر، ويتفاهمان على أفضل وجه. ولم يدهشني هذا الأمر أنا وحدي بل أدهش الكثيرين أيضاً. وكان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف الذي سبق وتحدثت

عنه، أحد أقارب زوجة فيودور بافلوفتش الأولى يومذاك يقيم عندنا في قطعة الأرض التي يملكها بالقرب من المدينة، قادماً من باريس بعد أن اتخذها مقراً له نهائياً. أذكر أن هذا الأخير كان من أشد الناس دهشةً حين التقى الشاب إيفان، فأولاه اهتمامه وصار يشعر بالمنافسة معه في ما يتعلق بالعلم والثقافة مع شيء من الألم كان يخفيه. ويقول لنا، غالباً، في تلك الفترة عندما يتكلم عنه: «إنه رجل ذو كبرياء، ليس صعباً عليه كسب رزقه؛ فماذا جاء يفعل هنا؟ من الواضح أنه لم يقصد والده للحصول على بعض المال لأنّ والده لن يعطيه شيئاً. أما لكي يعاقر الخمرة ويسترسل في المجون فذاك ليس من عادته. ومع ذلك، أصبح الوالد لا يستطيع التخلي عنه لشدة تعلُّقه به». هذا صحيح. ومن الواضح أن الشاب كان يؤثِّر في والده ويبدو أن هذا الأخير كان يطيعه أحياناً رغم كونه لا يتمتع بطبع اجتماعي، ويكون أحياناً شرساً، وقد بدأ الوالد يحسّن في سلوكه بعض الشيء.

ولم يُعرف إلَّا فيما بعد أن إيفان فيدوروفتش قد جاء بناءً على طلبٍ من أخيه البكر ديمتري فيدوروفتش الذي دعاه ورآه للمرة الأولى رغم مراسلته له قبل رحيله إلى موسكو لمعالجة قضية هامة تتعلق بديمتري فيدوروفتش. ماذا كانت تلك القضية؟ سيعرف القارىء كلّ تفاصيلها في حينه. وإن يكن، ومنذ تلك اللحظة وأنا على علم مسبق بذلك الظرف الخاص، بدا لي إيفان فيدوروفتش لغزاً محيّراً، وبقيت زيارته مهما قيل عنها، أمراً لا تفسير له.

أضيف أيضاً أن إيفان فيدوروفتش كان يبدو للناس أنه الوسيط والموفِّق في الخلاف بين والده وأخيه البكر ديمتري فيدوروفتش الذي كان يخطط لخلاف مع والده لا بل لإقامة دعوى قضائية ضده.

إن هذه العائلة الصغيرة، أكرر القول، قد وجدت ذاتها مجتمعة للمرة الأولى في حياتها وأن بعض أفرادها لم يسبق لهم أن تلاقوا يوماً من الأيام.

فالابن الأصغر ألكسي فيدوروفتش كان الوحيد الذي أقام منذ عام في مدينتنا التي قدم إليها قبل أخويه. وعن ألكسي هذا بالضبط يصعب عليّ أن أتحدث في هذه القصة التي هي بمثابة تمهيد للرواية قبل أن أضعه في صلب الأحداث. مع ذلك، ينبغي أن أكتب عنه أيضاً، مقدّمة لكي أوضّح سلفاً أمراً غريباً هو، أنني مرغم على أن أقدّم بطلي للقارىء منذ المشهد الأول للرواية في لباس مترهِّبٍ مبتدىء. أجل، إنه يسكن في ديرنا منذ عام، ويبدو أنه يتهيأ للاعتكاف فيه طوال حياته.

IV

الابن الثالث، أليوشا

لم يكن يومذاك قد بلغ العشرين من عمره (كان أخوه إيفان في الرابعة والعشرين، بينما أكبر الأخوين ديمتري كان في الثامنة والعشرين). قبل كل شيء، أعلن أن الشاب أليوشا لم يكن متعصباً دينياً ولم يكن، في رأيي، صوفياً البتة. وأعبّر مسبقاً عن رأيي الحاسم فيه: إنه بمنتهى البساطة، إنسان صديق للبشرية، نضج منذ نعومة أظفاره؛ وإن هو اختار طريق الدير فذلك لأن هذا الطريق بدا له في تلك الفترة الطريق الوحيد الذي ينبغي أن تنطلق فيه حياته، والمكان المثالي لخلاص نفسٍ تطمح، بعيداً عن البغض في هذا العالم إلى الارتماء في نور الحب وإذا كانت تلك الطريق قد اجتذبته فذلك بفضل التقائه كائناً يعتبره غير عادي، واحد من رهبان ديرنا، هو زوسيما العجوز الذي تعلَّق به الشاب تعلّقاً فيه كل الحرارة التي تملأ قلبه العطِش. لكنني لا أنكر أن هذا الشاب، حتى في تلك الفترة، كان غريب الأطوار جداً، وكان كذلك منذ المهد. بالمناسبة فقد سبق أن ذكرت، في هذا الشأن، أنه بعد وفاة أمه وهو في الرابعة من عمره، احتفظ بذكراها طوال حياته؛ يرى وجهها ويشعر بملاطفاتها. وكان يقول: «كما لو أنها كانت حاضرة في الحقيقة أمامي أو تقريباً». هذا النوع

من الذكريات يُحفر في النفس (وهذا ما يعرفه الجميع) حتى في سنّ أصغر، حتى في الثانية من العمر. لكنها، في مثل هذه الحالة، لا تكون إلا مثل نقاط من الضوء تخرج من العتمة أو مثل زاوية صغيرة من لوحة كبيرة جداً انطفأ معظمها وامَّحى إلا تلك الزاوية الصغيرة. احتفظ الشاب بذكرى أمسية هادئة من إحدى أمسيات الصيف، ونافذة مفتوحة، وأشعة مائلة ترسلها الشمس أثناء المغيب (وأكثر ما يتذكر هو من تلك الأشعة المائلة). وفي إحدى زوايا الغرفة إيقونة وسراج صغير يشتعل أمامها. وأمام الإيقونة تركع الأمّ وقد أصيبت بنوع من الهستيريا وهي تطلق صراخاً حاداً وأنات موجعة، تمسكه بذراعيها، وتشدّه إلى صدرها بقوة حتى تؤلمه، وتبتهل إلى أمّ الله أن تحميه وأن ترعى هذا الطفل الذي تمدُّه الأم بذراعيها إلى الإيقونة كأنما لتحميه أم الله. وفجأة تظهر ممرِّضة وتنتزعه من بين يديها وهي في ذعر بالغ. هذه هي اللوحة! ويحتفظ أليوشا أيضاً منذ تلك اللحظة بذكرى وجه أمه: وكان يقول إن وجهها كان مروِّعاً لكنّه رائع الجمال، على قدر ما استطاع أن يتذكر. نادرون هم الذين أحبَّ أن يتحدث معهم عن هذه الذكرى، كان في طفولته وفي عمر المراهقة قليل التحدث عن نفسه، لم يكن ثرثاراً، وليس ذلك عن حذر أو خجل ولا عن تجهُّم في طبعه، لا، بعكس ذلك تماماً، بل بسبب شيء آخر وكأنه نوع من الهمّ الداخلي، الشخصي الذي لا يتعلق بالآخرين بل به شخصياً، وهذا الأمر كان ينسيه حتى وجود الآخرين. مع ذلك، كان يحب الناس. لقد عاش حياته كلها في ثقة كبيرة بالناس؛ وما من أحد أبداً كان يعتبره رجلاً ساذجاً. كان في داخله شيء يُشعر الآخرين بأنه لا يريد أن ينصِّب نفسه حكماً على الناس ويرفض أن يدين أحداً (وهكذا بقي طوال حياته). ويمكن الاعتقاد أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه، ولكن بمرارة كئيبة في غالب الأحيان. وفوق ذلك، لا يدهشه شيء ولا يخيفه شيء وذلك منذ مطلع صباه. وفي منزل والده، الذي

كان ماخوراً للدعارة، كان يكتفي بالسكوت، وهو في التاسعة والعشرين من العمر، محافظاً على طهارته، يبتعد صامتاً إذا أحسَّ بأنه لا يستطيع تحمّل رؤية هذا المشهد أو ذاك، دون أن يُظهر شيئاً من الاحتقار أو الإدانة لأي شخص. أما والده، الطفيلي القديم، الذي كان سريعاً إلى إدراك الإهانة والشعور بها، فقد استقبله، في بادىء الأمر، بشك وحذر، وشعر تجاهه بمشاعر لا تحمل من الودّ الكثير (إنه مفرط في الصمت تجاهي ومسرف في التفكير دون كلام)؛ لكنه أخذ بعد أسبوعين تقريباً يعانقه ويضمّه بين ذراعيه. صحيح أنه كان يقوم بذلك بدموع السكران ومشاعر السكر، مع ذلك، كان واضحاً أنه يحبّه بصدق وبعمق، كما لم يحب أيّ رجل أبداً.

على كل حال، كان جميع الناس يحبّون ذاك الشاب، حيثما وجد، وذلك منذ طفولته الأولى. وعندما كان يعيش في منزل المحسن إليه ومربّيه إيفيم بتروفتش بولينوف، بلغ من تعلّق كل أفراد العائلة به أنهم اعتبروه واحداً منهم تقريباً، وقد دخل ذلك المنزل وهو لا يزال في عمر من المستحيل إطلاقاً، تصوّر وجود مكر مقصود لديه ورياء، أو فنّ الممالأة والإرضاء، موهبة جعل الآخرين يحبونه. سيما وأن هذه الموهبة في إيقاظ حب خاص قد ولدت معه. وهكذا كان الأمر نفسه في مدرسته أيضاً فكان في ظاهره من الأولاد الذين لا بدَّ أن يوقظوا في رفاقهم الحذر، ويجلبوا لأنفسهم سخرية رفاقهم، لا بل عداوتهم. فهو على سبيل المثل، كثيراً ما كان يعتزل فيغرق في التأمل. كان يحب أن ينزوي في زاوية ما لكي يقرأ بعض الكتب. ومع ذلك، فقد أحبّه رفاقه؛ حتى إنه بقي طوال حياته المدرسية أثير رفاقه دون منازع. نادراً ما كان يتحمس إنما كان لا يبدو مرحاً. يكفي أن تنظر إليه حتى تعرف أنّ ذلك لا يعود إلى نفوره من الناس بل لأنه شخص ذو نفس هادئة. وكان يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه وربّما هذا هو السبب في أنه كان لا يخاف أحداً. لكن الصِّبْية سرعان

ما أدركوا أنه لا يتباهى بشجاعته بل يظل بسيطاً منطلقاً على سجيته كأنما لا يشعر بجرأته؛ ولا يحتفظ أبداً بذكرى إساءة أصابته أو إهانة ألحقت به. وغالباً ما كان يبادر إلى التحدث مع الشخص الذي أساء إليه أو أهانه، وذلك بعد الحادثة بساعة واحدة فقط؛ فكان يبدو في حديثه حينئذ من الثقة بالنفس ما يُشعر الآخر بأن شيئاً لم يحدث بينهما. كان لا يبدو عليه أنه نسي الإساءة أو سامح مقترفها عمداً بل كان يرى أن الاساءة لم تحدث وذاك ما يعجب له الصِّبية ويسحرهم على الفور. لم تكن فيه إلا سمة واحدة أغوت زملاءه، في كل صفوف المدرسة، من الصف الأول حتى الأخير، هي أن يمازحوه ليس عن سخرية مؤذية بل لأن ذلك كان يضحكهم. كانت تلك السمة نوعاً من الخجل المتعلق بالاحتشام الشديد. كان ينفر من الأحاديث ومن بعض الألفاظ التي يتبادلها التلامذة عن النساء؛ ومع الأسف إن هذه الأحاديث والألفاظ التي تجري في المدرسة يستحيل استئصالها. ثمة تلامذة ذوو نفس وقلب طاهرين ما يزالون أولاداً صغاراً، غالباً ما يجدون لذة في التحدث عن هذه الأمور، بصوت مرتفع أحياناً، ويصفون مشاهد قد يخجل حتى الجنود التفوّه بها. بيد أن هؤلاء يجهلون أو لا يفهمون، في حالات كثيرة، أموراً أصبحت في أيامنا هذه عادية أو مألوفة عند الأولاد الصغار من أبناء الطبقة المثقفة والطبقة الراقية. وأعتقد أن هذا الأمر لا يجوز أن يُصنف فجوراً أو تهتكاً فهو ليس خروجاً عن الأخلاق بل هو نوع من الإباحية اللفظية التي يروق التلامذة أن يعتبروها دلالة رهافة في الذوق وجرأة جديرة بالتقليد. وعندما لاحظ التلامذة أن «أليوشكا كارامازوف» كان يسدّ أذنيه بسرعة عندما يباشرون بالحديث عن هذه الأمور صاروا يتحلّقون حوله ويتفوّهون بكلمات نابية وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة، فيما كان هو يتخبط بينهم ويقع على الأرض ويغطي وجهه دون أن يقول لهم كلمة واحدة ودون أن يغضب بل يتحمل الإساءة دون أن

ينبس بكلمة. وفي النهاية، ورغم كل شيء، تركوه وشأنه، وتوقفوا عن معاملته «كبنت صغيرة» لا بل قد حلّ محل السخرية نوع من العطف عليه. وبالمناسبة، كان دائماً من بين التلامذة الممتازين في المدرسة غير أنه لم يكن الأول أبداً.

بعد وفاة إيفيم بتروفتش بقي أليوشا سنتين في مدرسة المقاطعة. وسافرت زوجة إيفيم بتروفتش الحزينة بعد موته فوراً إلى إيطاليا مع عائلتها التي لم تكن تتألف إلّا من الجنس النسائي بينما انتقل أليوشا إلى منزل سيدتين لم يسبق أن رآهما من قبل، تربطهما بعائلة إيفيم بتروفتش قربى بعيدة. أما التكاليف فلم يكن يعرف الكثير عنها. هناك سمة أخرى في طبعه ومن أكثر السمات بروزاً وهي أنه لم يكن يهمه أبداً أن يعرف من يعيله بالضبط. من هذه الناحية، كان النقيض المطلق لأخيه البكر إيفان فيدوروفتش الذي عاش في التقتير خلال السنتين الأوليين من دراسته في الجامعة، يعيش من عمله ويشعر منذ طفولته أنه يعيش على حساب الآخرين في منزل أحد المحسنين إليه. مع ذلك، من المستحيل، على ما أعتقد، أن ندين بقساوة هذه السمة الغريبة في طبع أليوشا، لأن كل من يعرفه، ولو قليلاً، يقتنع فوراً عندما يطرح هذا السؤال، بأنه كان واحداً من أولئك الشبان الذين يشبهون بسطاء القرية، أولئك الذين إذا هبطت عليهم ثروة ضخمة من المال لم يترددوا في أن يعطوها لأول من يسألهم ذلك أو أن ينفقوها إما لعمل الخير وإما ربما لنصَّاب حاذق يطلبها منهم. وبشكل عام، كان كل شيء يجري وكأن أليوشا لا يعرف قيمة المال، وبالطبع، يجب أن يُفهم هذا الكلام مجازاً لا بمعناه الحرفي. عندما كان يُعطى مصروفه الذي لم يكن يطلبه أبداً، كان يبقى المال معه طوال أسابيع أحياناً لا يعرف ماذا يفعل به، وأحياناً أخرى ينفقه بسرعة رهيبة ويختفي كله في طرفة عين. وكان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف رجلاً دقيقاً جداً في شؤون المال وذا نزاهة بورجوازية. بعد أن لاحظ ألكسي، ذات يوم، قال عنه القول المأثور: «إن هذا

الشاب، بدون شك، هو الإنسان الوحيد في هذا العالم، الذي إذا تركته فجأة وحيداً وبدون فلس واحد في وسط مدينة تعدُّ مليون نسمة، وهو لا يعرفها، لا يضيع ولا يموت من الجوع ولا من البرد، لأن كل الناس، وفي لحظة واحدة، يقدّمون له المأكل والمسكن، وإذا لم يُعط مسكناً فهو يتدبّر أمر سكنه وحده في لحظة قصيرة ولا يكلّفه ذلك أيَّ جهد ولا أيَّ مذلّة، والشخص الذي يأويه لا يشعر بإزعاج إطلاقاً بل، على العكس، يجد في ذلك سروراً».

لم يكن قد أنهى دراسته في الليسيه. وكان عليه أن يقضي سنة كاملة فيها عندما أعلن فجأة، ذات يوم، لتينك السيدتين أنه سيذهب إلى منزل والده لأمر خطر بباله. لامته السيدتان كثيراً ورفضتا، بادىء الأمر، السماح له بالذهاب. كانت الرحلة تكلّف قليلاً من المال، ولم تسمح له السيدتان أن يرهن ساعة اليد ـ وهي هدية من عائلة المحسن إليه قبل سفرها إلى الخارج، لكنهما زوَّدتاه بمبلغ من المال وأعطيتاه ملابس شخصية وثياباً داخلية. إلا أنه، أرجع إليهما نصف المبلغ قائلاً إنه حريص على السفر في الدرجة الثالثة. ولدى وصوله إلى مدينتنا الصغيرة رفض الإجابة عن الأسئلة الأولى التي طرحها عليه والده: «ماذا أتى بك الآن قبل أن تنجز دراستك؟» وبدون جواب مباشر أظهر، كما قيل، تأملاً غير عادي مما عُرف عنه. وعُلم فيما بعد، أنه كان يفتش عن قبر أمه. وقد اعترف هو نفسه، على الفور، أنه لم يأتِ إلّا لهذا الهدف. ولكنني، أشكّ، بأن يكون هذا السبب الحقيقي. فالأكثر احتمالاً أنّ السبب الحقيقي هو أنه في تلك الآونة، كان يجهل هو ذاته ذلك، ولم يعرف أن يشرح ما هو الدافع الذي برز فجأة في نفسه ودفعه بشكل لا يُقاوم في مثل هذا الطريق الجديد، غير المعروف، والذي لا مفرَّ منه. لم يتمكن فيودور بافلوفتش من أن يرشده إلى المكان الذي دفنت فيه زوجته الثانية لأنه لم يزر قبرها منذ وُضع النعش فيه، ونظراً إلى الزمن الطويل الذي انقضى، فقد امَّحى مكان القبر كلياً من ذاكرته.

في ما يختص بفيودور بافلوفتش، فقد عاش مرحلة طويلة خارج مدينتنا. بعد موت زوجته الثانية بثلاث سنوات أو أربع ذهب إلى جنوب روسيا وانتهى به الأمر في أوديسا حيث عاش سنوات عديدة متتالية. وقد تعرَّف، في بادىء الأمر، على حدِّ قوله: «بكل أنواع اليهود»، وأخيراً، لم يعد يعاشر اليهود فقط بل كان يُستقبل في «منازل العبريين». ويجدر الاعتقاد أنه، في تلك الفترة، قد عرف كيف يطوّر قدرته على تكديس المال وسلبه. ولم يرجع، بصورة نهائية، إلى مدينتنا إلا قبل وصول أليوشا بثلاث سنوات. ولاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه شاخ بشكل غريب بينما لم يبلغ سنّ الشيخوخة بعد. وكان يتصرّف بشكل ليس أكثر نبلاً بل أكثر وقاحة، فرأينا مثلاً أن هذا المهرّج القديم أصبح يحوِّل الآخرين إلى مهرّجين. وصار يتعاطى الفجور مع النساء، ولا أستطيع القول كما كان يفعل في السابق، بل بطريقة تثير الاشمئزاز أيضاً. وسرعان ما فتح في مقاطعتنا كلها خمارات جديدة. ومن الواضح أنه كان يملك ربما مئة ألف روبل أو أقل من ذلك. وبدأ كثيرون من سكان المدينة والمقاطعة كلها يقرضونه، فوراً، أموالاً لقاء فوائد مرتفعة، وهذا أمر طبيعي. بدا كأنه أبله، كأنه فقدَ توازنه في الفترة الأخيرة، وفَقدَ ثقته بنفسه، وقد أُصيب بنوع من الخبل فهو ما إن يبدأ في أمر ما حتى ينتقل إلى غيره، ويبدو مشتت الفكر، وغالباً ما يفرط في السكر وكان خادمه المعروف غريغوري الذي هو أيضاً قد شاخ بعض الشيء يقوم بدور المربي. إذن، لقد عانى فيودور بافلوفتش الكثير من المتاعب الصعبة. لكن وصول أليوشا أثَّر فيه من الناحية النفسية وكأنه أيقظ في هذا العجوز الذي شاخ قبل الأوان، ما كان يكمن في نفسه منذ زمن بعيد. وكان غالباً ما يقول لأليوشا وهو ينظر إليه: «هل تعلم»، إنك تشبهها، أقصد «المولولة» (hurleuse) هكذا كان يسمّي زوجته المتوفاة والدة أليوشا. وأخيراً، دلَّه الخادم غريغوري إلى قبر «المولولة» الصغير. ورافقه إلى مقبرة المقاطعة ودلَّه

على شاهدة من المعدن، في زاوية غير مكشوفة، رخيصة الثمن وفيها شيء من الذوق، كُتب عليها اسم وأصل وعمر وسنة وفاة المرحومة، وحُفر عليها في الأسفل، بضعة أبيات من شعر قديم كان يستخدمه الجميع وتُزيَّن به قبور أبناء الطبقة المتوسطة. وفوجىء بأن هذه الشاهدة كانت قد وُضعت بفضل اهتمام غريغوري، وهو نفسه الذي وضعها على قبر «المولولة» المسكينة ودفع ثمنها بعد أن ألحّ عشرات المرات على فيودور بافلوفتش مذكراً إياه بوجود هذا القبر الصغير، وبعد ذلك، سافر فيودور بافلوفتش إلى أوديسا غير عابىء ليس بالقبر فحسب بل بذكرياته كلها. لم يبدِ أليوشا أيّ انفعال شخصي أمام قبر أمه فاكتفى بالاستماع إلى ما رواه غريغوري عن وضع هذه الشاهدة، وبقي بضع لحظات ورأسه غارق بين كتفيه دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. ومنذ ذلك اليوم لم يعد إلى زيارة المقبرة، وربَّما خلال السنة بكاملها. لكن هذا الحدث أثَّر في فيودور بافلوفتش وأحدث فيه ردّة فعل غير متوقعة. فأخذ، فجأة، ألف روبل وانطلق إلى ديرنا يطلب أن تُقام صلوات على راحة نفس زوجته. لكن، ليس زوجته الثانية أمّ أليوشا، «المولولة»، بل زوجته الأولى أديلاييدا إيفانوفنا التي كانت تضربه. وفي مساء ذلك النهار عينه، أفرط في السكر وشتَم الرهبان بحضور أليوشا. فهو بعيد جداً عن أن يكون رجل دين، فهو لم يشعل شمعة واحدة بخمسة «كوبيكات» أمام إيقونة. إن أشخاصاً من هذا النوع يجتاحهم سيل من المشاعر والأفكار الغريبة.

سبق وقلت إن وجهه تغضّن كثيراً. كان وجهه، في تلك الفترة، يحمل شيئاً يشهد بقوة على طابع وجوهر حياته كلها. بالإضافة إلى الجيوب الطويلة والمتورّمة التي برزت تحت عينيه الصغيرتين اللتين هما دائماً وقحتان خدرتان ساخرتان، وإلى التجاعيد الصغيرة العميقة التي ظهرت على وجهه الصغير المشحِم، وكانت جوزة عنقه متطاولة وسمينة تتدلّى تحت ذقنه الدقيق

كأنها صرّة فتضفي على وجهه سيماء شهوانية منفِّرة. أضف إلى ذلك، فماً نهماً ومتمدداً وأهدلَ تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء متفتتة تقريباً. يتناثر اللعاب من فمه كلما تكلّم. هذا، وكان هو نفسه يتندَّر على وجهه، وأعتقد أنه كان راضياً عنه. كان يشير في كلامه، بصورة خاصة، إلى شكل أنفه الكبير لكن الدقيق جداً والبارز التقوُّس. كان يقول: «هذا أنفٌ رومانيّ حقاً، ويقول في الوقت نفسه إن جوزة عنقه تشبه رأس نبيلٍ روماني حقيقي في عصر الانحطاط». كان معجباً بوجهه، ظاهرياً.

بعد أن وجد، بسرعة، قبر أمّه، أعلن أليوشا لوالده فجأة أنه يريد الدخول إلى الدير وأنّ الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً. وأضاف أن ذلك هو رغبته المطلقة وهو يطلب علناً السماح الأبوي. وكان العجوز يعرف مسبقاً أنّ الراهب الناسك زوسيما الذي وجد خلاصه في محبسة الدير، قد أثّر، بصورة خاصة، في «ابنه الطيب».

ـ طبعاً، غمغم بعد أن استمع إلى طلب أليوشا دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. بشكل رزين من دون أن يفاجأ. إنه أشرف راهب بينهم. إذن، إلى هناك تريد أن تذهب يا بنيَّ الطيب! كان نصف سكران وفجأة ابتسم ابتسامته الطويلة المخمورة التي لا تخلو من المكر ولا من الخبث المخمور. هِمْ، أنا، أحسست أنك سوف تنتهي إلى هذا الأمر. هل تتصوّر؟ كنت تسعى إلى ذلك بالضبط! في الواقع، إنك تملك ألفَي روبل هما لك، وهذه بائنتك (dot)، أما أنا، يا ملاكي، فلن أتخلّى عنك أبداً، والآن أيضاً، سأدفع لهم مبلغاً ما، إذا طلبوا مني ذلك. لأنهم إذا لم يطلبوا مني شيئاً، فأيُّ نفعٍ من إجبارهم على ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ لأنك أنت تنفق المال مثل عصفور الكناري. تكفيك حبَّتان صغيرتان في الأسبوع. هِمْ! أتعلم؟ هناك في الدير لديهم ضيعة صغيرة خارج

المدينة. والكلّ يعرف أنها لا تضمّ شيئاً إلّا «نساء الدير». وهنَّ يقمن فيه، ولهذا السبب يسمّونهنّ هكذا. وعددهنّ ثلاثون امرأة، كما أعتقد. لقد زرت المكان. أتعلم؟ إنه لأمر شائق، في نوعه طبعاً، من ناحية التنوع. العيب الوحيد هو أن النساء هن روسيّات فقط ولا توجد بينهنّ فرنسيّة واحدة. ومن السهل استقدام أجنبيات، لأن الإمكانات لا تعوزهم لكي... ومتى عرفت الفرنسيّات ذلك جئن على الفور. أما هنا، فلا يوجد شيء من ذلك. ليس لديهم «نساء دير». وعدد الرهبان مئتان فقط. يا للعفّة! إنهم لا يصومون. أعترف أن... هِمْ! أتريد أن تكون راهباً؟ أنا، في الحقيقة، أرثي لحالك، يا أليوشا، صدّقني، إنني أحبك. هل تعلم؟ إسمع، هذا عمل جيّد. سوف تصلّي لأجلنا نحن الخطأة لأننا قد اقترفنا خطايا كثيرة على هذه الأرض. إنني أتساءل دائماً: «من سيصلّي لي إذن؟ هل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان؟ يا ولدي الصغير اللطيف، أنا، من هذه الناحية، غبيّ، إنه أمر بشع. ربّما لا تصدّقني؟ بشع. صدّقني! أنا، مهما أكن غبياً في هذه الأمور، لكنني أفكّر فيها. وتساءلت: «من المستحيل أن تنسى الشياطين التقاطي عندهم بكُلّاباتها عندما أموت». حسناً. كُلَّابات؟ من أين تأتيهم الكُلّابات؟ ممَّ صُنعت هذه الكُلَّابات؟ من حديد؟ من الذي يصنعها؟ هل لديهم مصنع هناك أو ماذا؟ أراهن أن الرهبان هناك في الدير يفترضون أن في الجحيم يوجد سقف. حسناً، أنا أؤمن بوجود الجحيم ولكن بدون سقف. هكذا، تكون ألطف وأكثر ثقافة وأقرب إلى اللوثرية. هذا ما أريد قوله. لأنه، في النهاية، أليس الشيء نفسه، بسقف أو بدون سقف؟ هذه المسألة كلها ملعونة. أليس كذلك؟ انظر أين تكمن! لأنه: إذا لم يكن ثمة سقف، لا توجد كُلّابات، وبدون وجود كُلّابات، كل ما تبقّى، بالتالي، لا يصدَّق. إذاً، من الذي

سيجرني بالكلّاب، هذا إذا جروني؟ ماذا سيحدث إذاً في تلك اللحظة؟ أين هي الحقيقة إذاً في هذا العالم؟ يجب اختراع كل ذلك، اختراع هذه الكلّابات من أجلي أنا خصيصاً، من أجلي وحدي فقط؛ لأنك لو عرفت يا أليوشا، لأنني القذارة التي يمكنني أن أقوم بها!...

ـ لا، ليس لديهم كلّابات. قال أليوشا بصوت عذب وجادّ وهو يراقب والده بانتباه.

ـ صحيح. صحيح. لا يوجد إلا ظلال كلّابات. أعرفُ. أعرفُ. هناك فرنسي يصف الجحيم بما يلي: «رأيت ظلَّ حوذيّ كان ينظّف ظلَّ عربة بظلِّ فرشاة»(*). أنت تعرف، يا صغيري، لماذا لا توجد كلاّبات؟ سوف تقضي بعض الوقت عند الرهبان، ستغنّي شيئاً آخر. أنظر. فتّش أنت عن الحقيقة وارجع إليَّ وأخبرني. فيكون الذهاب إلى العالم الآخر أسهل، لأنني أكون قد عرفت ماذا يوجد هناك. سيناسبك العيش عند الرهبان أكثر مما في منزلي مع عجوز سكّير ومع هؤلاء الصبيَّات ... أنت، على الأقل، مثل ملاك، لن يمسَّك شيء. أخيراً، آمل أن لا يمسَّك شيء، ولهذا السبب، أسمح لك، وهذا رجائي الأخير. فالشيطان لم يأكل رأسك بعد. ستشتعل، ستنطفىء، ستشفى، ثم ستعود إليّ. وأنا، سأنتظرك. أنا أشعر جيداً أنك الإنسان الوحيد على هذه الأرض، الذي لم يدنّي، يا صغيري الطيّب، أشعر بذلك. وهل يمكن أن لا ألاحظه!

وانفجر بالبكاء. كان عاطفياً. كان شريراً وعاطفياً.

(*) هذا الاستشهاد هو باللغة الفرنسية في النص الأصلي

«j'ai vu l'ombre d'un cocher, qui, avec l'ombre d'une brosse, frottait l'ombre d'une carosse».

V

الزهاد المتوحدون (Starets)(*)

ربّما اعتقد بعض القراء أن الشاب الذي أتكلم عنه مريض، ذهولي الطبع وذو شخصية ضعيفة، حالم، شاحب اللون، نحيل الجسم ضعيف يفتقد النشاط. على العكس، كان أليوشا، في تلك الفترة، مراهقاً في التاسعة عشرة، طويل القامة مورَّد الخدين، ساطع النظر، يشعّ عافية، وكان جميل الوجه مستقيماً، له قامة أكثر من متوسطة، وشعره بنّي غامق وجهه مستطيل، عيناه براقتان متباعدتان قليلاً ذواتا لون رمادي داكن. إنه مفرط في التفكير وهو، ظاهرياً، هادىء جداً، ربّما يقال إن الخدّين المتورّدين لا ينفيان لا التعصّب ولا التصوّف. أما أنا فأعتقد أن أليوشا كان واقعياً أكثر من أيّ رجل آخر. طبعاً، في الدير، كان يؤمن كلياً بالمعجزات، ولكن المعجزات، في رأيي، لا تزعزع، إطلاقاً، إنساناً واقعياً. فليست المعجزات هي التي تدفع رجلاً واقعياً

(*) ستاريتز (Starets): كلمة روسية تعني «عجوز، مسنّ»، اسم أعطي في روسيا القديمة لبعض النسّاك أو الحجاج، المعتبرين كأنبياء أو صانعي معجزات، وغالباً ما يختارهم الناس كمرشدين روحيين.

إلى الإيمان. فالواقعي الحقيقي، إن كان غير مؤمن، سيجد دائماً في ذاته القوة والقدرة على عدم الإيمان بالمعجزة. وإذا ما وجهته معجزة كواقع لا يمكن دحضه، يرفض تصديق حواسه ولا يقبل هذا الواقع. وإذا قرّر، أخيراً، أن يقبل هذا الواقع، يقبله لكونه حدثاً طبيعياً كان يجهله من قبل. فالمعجزة، لدى الواقعي، ليست هي التي تولّد الإيمان، إنما تولد من الإيمان. قال توما الرسول إنه لا يؤمن قبل أن يرى. وعندما رأى قال: «أنت ربّي وإلهي!» هل المعجزة هي التي دفعته إلى الإيمان؟ أغلب الظنّ أنْ لا، فهو لم يؤمن سوى لأنه يريد أن يؤمن، وكان قد آمن كلياً، من قبل، في أعماق كيانه عندما كان يقول: «لن أؤمن طالما لم أرَ».

ربّما يقال إن أليوشا كان محدوداً قليل الثقافة لم يكمل دراسته في الثانوية، الخ. صحيح أنه قطع دراسته في الليسيه، لكن أن يقال إنه غبيّ ومحدود فذلك غير عادل أبداً. وأكرر ما سبق أن قلت: إذا كان قد اختار هذا الطريق، فذاك لهذا السبب البسيط وهو أن هذا الطريق، في تلك الفترة، هو الذي قدم له فجأة مثال الخلاص لنفس تتحرق للخروج من الظلمات إلى النور. أضف إلى أنه كان شاباً من أبناء جيلنا تقريباً شريفاً في طبيعته، يطلب الحقيقة ويفتش عنها ويؤمن بها. فلما اكتسب الإيمان ألحَّ فوراً، بكل قوة روحه، على تقدُّم روحي سريع مع رغبة جامحة بأن يضحّي بكل شيء في سبيلها، حتى لو كانت حياته ذاتها. وإن كان هؤلاء الشبان، مع الأسف، لا يعرفون أن التضحية بالحياة هي ربما أسهل التضحيات في عدد كبير من الحالات، وأن يضحّي المرء، مثلاً، بخمس سنين أو ستّ من شبابه المندفع لدراسة صعبة وشاقّة، وللعلوم، ولو ليضاعفو عدة مرات قواه الذاتية ذاته في خدمة هذه الحقيقة عينها وهذا التقدم الذي أحبوه ونذروا أنفسهم لإنجازه، هذه التضحية، وهذا ما يتأكد يومياً، هي بالنسبة إلى الكثير من الناس، تفوق بكثير قواهم. ولم يختر أليوشا إلّا

هذه الطريق التي هي نقيض كل الطرق الأخرى ولكن بالتعطُّش نفسه لتقدُّمٍ سريع. وما إن اقتنع بعد تفكير عميق، بأنّ الله وخلود النفس موجودان بشكل طبيعي، حتى قال في سرِّه: «أريد أن أعيش للخلود ولا أقبل المساومة على النصف». وبالطريقة نفسها، بالضبط، اقتنع بأنه إذا لا وجود لله ولا للخلود أصبح على الفور من الملحدين والاشتراكيين (لأن الاشتراكية ليست المسألة العمالية فقط أو مسألة ما يُسمَّى بـ «الدولة الرابعة». لا، إنها، في الأساس، مسألة الإلحاد، مسألة التجسد الحديث للإلحاد، مسألة برج بابل القديمة، الذي يشيد بدون الله، ليس لبلوغ السموات من الأرض بل لإنزال السموات إلى الأرض). وبدا لأليوشا أنه من الغريب والمستحيل العيش كما في السابق، فقد قيل: «أعطِ كل شيء واتبعني إذا أردت أن تكون كاملاً». فقال أليوشا في نفسه، عندئذ: «لا أستطيع أن أعطي روبلين اثنين مقابل كل شيء». ومقابل «اتبعني»، أذهب إلى القداس. ربّما احتفظ بذكريات من طفولته الأولى تتعلق بديرنا المجاور للمدينة حيث استطاعت أمّه أن تصطحبه إلى القداس، وربّما أيضاً أن تكون تلك الأشعة المائلة للشمس الغاربة أمام الإيقونة التي كانت أمه «المولولة» ترفعه بذراعيها باتجاهها قد تركت فيه أثراً بالغاً. ربّما لم يأت إلى مدينتنا، في تلك الفترة، إلّا لكي يتحقق من أمرٍ ما، هل يعطي «كل شيء» الآن أيضاً أم يعطي روبلين فقط. وكان قد التقى في الدير ذلك الناسك...

هذا الناسك، كما سبق أن أشرت أعلاه، هو الزاهد زوسيما. لكن يتوجب عليَّ أن أقول هنا بضع كلمات عمّا يمثِّله، بوجه عام، هؤلاء النسّاك في أديرتنا، وآسف، في الحقيقة، لأنني لا بالمعرفة الراسخة ولا بالاطلاع الكافي. لذلك سأحاول أن أفسّر الأمر ببضع كلمات وبشرح سطحي. قبل كل شيء، يؤكد المختصّون أن الزهاد المتوحدين والمؤسسة التي يمثلونها لم يظهروا في أديرتنا الروسيّة إلّا حديثاً، منذ زمن لا يتعدّى المئة سنة، بينما

وُجدت المؤسسة في الشرق الأرثوذكسي كله، وبصورة خاصة في سيناء وفي جبل آثوس منذ أكثر من ألف سنة. ويؤكدون أنها، عندنا في روسيا، قد وُجدت أو لنقل يجب أن تكون قد وُجدت بالضرورة بعد كوارث التاريخ الروسي، من غزو التتار والاضطرابات الداخلية وانقطاع العلاقات بالشرق بعد الاستيلاء على القسطنطينية، وقد غمرها النسيان عندنا واختفى نساكها. ولم ترَ النور مجدداً عندنا إلّا في نهاية القرن الماضي بفضل جهود أحد كبار النسّاك (هكذا يسمونهم)، وهو الناسك بابيسي فيليتشكوفسكي وتلامذته، ولكن، منذ ذلك الوقت، وبعد ما يقرب من المئة سنة، لم يعد النساك موجودين إلّا في عدد صغير من الأديرة، لا بل عانوا، أحياناً، من الاضطهادات وكأنهم بدعة جديدة في روسيا. ازدهرت هذه المؤسسة عندنا، في أرضنا الروسية، في منسكٍ شهير، هو كوزلسكايا أوبتينا. متى وبواسطة مَنْ دخلت ديرنا (؟) أيضاً، لا أعرف، لكنه كان يقال إنهم في التعاقب الثالث للنساك الذين كان آخرهم زوسيما، والذي كان يشرف على الموت تقريباً بسبب المرض، بينما لا يُعرف من سيحلّ محلّه. إن هذه المسألة كانت هامة بالنسبة إلى ديرنا، لأنه حتى ذلك الوقت، لم يكن لديه شيء يمنحه الشهرة: فلا رفات قديسين شهداء ولا إيقونات عجائبية، ولا أساطير مرتبطة بتاريخنا. لم يكن يعكس مآثر تاريخية ولم يُسهم في أي عمل تجاه وطننا. لقد ازدهر وأصبح شهيراً في روسيا كلّها بفضل النساك الذين كانوا يجتذبون الحجاج الذين يأتون إلى منطقتنا من مسافات تبعد آلاف الفراسخ. فمن هو إذاً الناسك؟ إنه الناسك الذي يسيطر على نفسك وإرادتك وبإرادته هو ذاتها. تختار ناسكاً وتتنازل عن إرادتك وتعطيه إياها بطاعةٍ مطلقة متنازلاً كلياً عن «أَنَاكَ». والذي يختار هذا الطريق مدرسةً لهذه الحياة الرهيبة إنما يقوم بذلك، طوعاً، أملاً في أن يتغلَّب، بعد طريق طويل، على ذاته ويصبح سيّد نفسه لكي يكون، في النهاية، قادراً

بالطاعة على أن يصل إلى حرية كاملة، حرية تجاه نفسه، ولكي يتجنب مصير أولئك الذين عاشوا حياتهم ولم يتوصلوا إلى معرفة أنفسهم. وهذا الاختراع، أعني مؤسسة النساك، ليس مجرد أمر نظري إنما هو نشأ في الشرق من ممارسة يعود تاريخها إلى أكثر من ألف سنة. فالواجبات تجاه الناسك لا علاقة لها «بالطاعة» المألوفة التي كانت موجودة دائماً في أديرتنا الروسية. وهنا، يقوم اعتراف أبدي من كل الذين يرتبطون بالراهب، وصلة لا تنفصم بين الذي يربط وبين المرتبط به. يُحكى، على سبيل المثل، أن مبتدئاً، في الأزمنة الأولى من المسيحية، لم يخضع لأوامر فرضها عليه ناسكه، فتركه وهجر الدير وسافر إلى بلاد أخرى من سوريا إلى مصر. وهناك، بعد أن بلغ تقدُّماً روحياً كبيراً، استطاع، أخيراً، أن ينال التعذيب والموت شهيداً في سبيل إيمانه. والحالة هذه، عندما دفنت الكنيسة جسده معتبرة إياه قديساً، صاح الشمَّاس فجأة: «فليخرج الموعوظون!» (Catéchumènes) فطار النعش من مكانه وفي داخله جسد الشهيد، إلى خارج الكنيسة (الهيكل)، وتكرّر ذلك ثلاث مرات. وعرف أخيراً أن هذا الرجل القديس الذي عانى التعذيب، خالف، في ما مضى، نذر الطاعة وهجر ناسكه. فلذلك، لا يمكن أن ينال الغفران رغم عظمة تقدُّمه الروحي بدون أن يأذن ناسكه بذلك. وعندما استدعي الناسك للمساعدة أعفاه من نذره للطاعة. عندئذ، تمَّ دفنه. طبعاً لم يكن كل ذلك سوى أسطورة قديمة. ولكن، إليكم قصة حديثة واقعية: اعتكف أحد النسَّاك، الذين كانوا يعيشون في عصرنا، في جبل آثوس. وفجأة أمره مرشده الناسك بأن يترك جبل آثوس الذي تعلَّق به كأنه قديس القديسين وكملجأ أمين للسلام، من عمق أعماق روحه وصار يفضّله على كل ما عداه. أمره أن يذهب، في بادىء الأمر، إلى القدس ليحجَّ إلى الأماكن المقدسة، ثم يعود إلى شمال روسيا، إلى سيبيريا. قال له: «هناك مكانك وليس هنا». حزن الراهب حزناً شديداً واستبدَّ به الألم فذهب

إلى القسطنطينية، إلى رئيس البطاركة وتوسَّل إليه أن يعفيه من نذره للطاعة. أجابه البطريرك بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، رغم رتبته، وبأنه لا توجد في العالم أي سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب الذي فرضه عليه ناسكه. هكذا إذاً، تتمتع هذه المؤسسة بسلطة يمكن أن تصبح بدون حدود ومغلقة. ولهذا السبب تعرَّض أتباع هذا النظام في عدد كبير من أديرتنا، للاضطهاد في أول الأمر، لكن النسّاك كسبوا بسرعة احترام الشعب لهم. وهكذا كان نساك ديرنا يستقبلون زواراً يتوافدون جماعات غفيرة من بسطاء الناس ومن نبلاء القوم يظهرون لهم إعجابهم ويعترفون لهم بشكوكهم وخطاياهم عندما رأى خصوم النساك ذلك، اشتكوا وادَّعوا أنه بهذه الطريقة إنما يُفسد بشكل جائر وتافهٍ سرُّ الاعتراف، مع أن ما كان يبوح به الراهب المبتدىء أو العلماني لهؤلاء النساك، من أعماق نفسه، يناقض سرّ الاعتراف. في نهاية المطاف، استقرَّت، أخيراً، هذه المؤسسة وانتشرت، شيئاً فشيئاً في الأديرة الروسية. يجب القول أيضاً إن هذا السلاح الذي يعود إلى أكثر من ألف عام، والذي يهدف إلى تحقيق إصلاح روحي للإنسان يرفعه من العبودية إلى الحرية وإلى الكمال الأخلاقي، يمكن أن يتحول سلاحاً ذا حدَّين وأن يولِّد لدى بعضهم، كما أعتقد، لا تواضعاً وسيطرة كاملة على الذات بل تكبُّراً شيطانياً يؤدي إلى استعباد النفس وليس إلى تحريرها.

كان الناسك زوسيما في الخامسة والستين من عمره، يتحدَّر من عائلة ملَّاكين عقاريين، وقد انخرط في العسكرية، وهو في ريعان شبابه، وعمل ضابطاً أعلى في القفقاس. بدون أي شك، أدهش أليوشا بنوعية روحه المميزة. كان أليوشا يقيم في الغرفة نفسها التي يعيش فيها الناسك الذي أحبَّه كثيراً فارتضى أن يكون بقربه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أليوشا، وهو يعيش في الدير، لم يكن قد ارتبط بعد بشيء، ويستطيع الذهاب حيث يشاء، ويغيب عن

الدير أياماً بكاملها. وإن هو ارتدى جبَّة الراهب فإنما فعل ذلك طوعاً حتى لا يتميز بشيء عن الرهبان الآخرين في الدير. ومن الواضح أنه كان يحبّ ذلك. ولعلَّ مخيلة أليوشا المراهقة قد تأثرت بقوة بالسلطة والمهابة اللتين كانتا تحيطان دون توقف بناسكه. وكان كثيرون يقولون إن زوسيما العجوز الذي استقبل، خلال سنوات طويلة، هذا العدد من الذين كانوا يجيئون إليه فيفتحون له قلوبهم متعطشين إلى نصائحه وإلى كلامه صانع المعجزات، اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس والآلام والتمنيات، حتى أصبح، قادراً منذ أول نظرة على أن يحزر هدف مجيء الشخص المجهول والرغبة التي تجيش في نفسه وأيّ نوع من الآلام يعذّب ضميره، فيدهش ويبعث الاضطراب في مَنْ يرونه لأول مرة حتى ليكاد يلقي في قلوبهم الذعر قبل أن يتفوّهوا بكلمة واحدة. مع ذلك، لاحظ أليوشا أن عدداً كبيراً من الأشخاص، جميعهم تقريباً، الذين يدخلون على العجوز لأول مرة، من أجل حديث حميم، كان يبدو عليهم القلق عند وصولهم، وعندما يخرجون كانوا جميعهم تقريباً يخرجون رابطي الجأش، فرحين سعداء. ومما أثر في أليوشا، بشكل غريب، هو أن العجوز لم يكن قاسياً أبداً. بالعكس. كان دائماً فرحاً في أسلوبه. وكان الرهبان يقولون إنه يحبّ، بصورة خاصة، أولئك الذين تحمل ضمائرهم عدداً أكبر من الآثام، وإنه يعطف على الذين هم أكثر خطايا. ومن بين الرهبان، حتى في أواخر حياة العجوز، أفراد يكرهونه ويشعرون تجاهه بالحسد ولكنّ عددهم كان قليلاً، ويلزمون الصمت رغم أنَّ بينهم عدداً من شخصيات شهيرة وهامّة في الدير، كمثل الناسك، الذي كان من أقدم نسَّاك الدير والذي اشتهر بالصوم والصمت بصورة غير عادية. بالرغم من كل شيء، انحاز أكثرية الرهبان إلى الناسك العجوز نهائياً وكان من بينهم من يحبّونه من صميم القلب بل إن منهم من أخلصوا له إلى درجة التعصّب. وكان هؤلاء يقولون بصراحة،

وبصوت خفيض، إنه قديس، وهذا ما لا شكَّ فيه، وكانوا يتنبأون أن تحدث بعد وفاته، معجزات مباشرة ومجد عظيم سيحظى به الدير، في مستقبل قريب. وكان أليوشا، هو أيضاً، يؤمن، بدون أي شك، بالقوة العجائبية للناسك، تماماً كما كان مقتنعاً بقصة النعش الذي طار إلى خارج الكنيسة. ورأى أليوشا كم كان عدد الزوار كبيراً يصلون مع أولادهم المرضى أو أقاربهم البالغين يسألون الناسك أن يضع يديه عليهم ويقرأ بعض الصلوات، ويعودون سريعاً، وبعضهم في اليوم التالي، فيرتمون على قدميْ العجوز والدموع ملء عيونهم يشكرونه على شفاء أمراضهم. هل كان الشفاء حقيقياً أو مجرد تحسُّن في حالة المرضى؟ لم يكن هذا السؤال، بالنسبة لأليوشا موجوداً لأنه كان يؤمن بعمق بقوة معلمه الروحية، وكانت عظمته كأنها نصر له ذاتيّ. كان قلبه يرتجف فرحاً عندما يخرج العجوز لمواجهة جمهرة الناس الحجاج البسطاء القادمين من أقاصي روسيا والذين ينتظرون خروجه عند مدخل المنسك لكي يروه وينالوا بركته. كانوا ينحنون أمامه ويقبّلون رجليه والأرض التي يمشي عليها. كان الراهب الناسك يحدّثهن ويقرأ صلاة قصيرة ويباركهن قبل أن يصرفهن. وفي الآونة الأخيرة، وبسبب تفاقم المرض لم يعد يملك القوة للخروج من حجرته، فكان الحجاج، ينتظرون خروجه أياماً متتالية. بالنسبة لأليوشا، لم يكن يستغرب أن يحبّه الحجاج إلى هذا الحدّ، وأن يرتموا أمامه ويبكوا من الانفعال عندما يرون وجهه. كان يدرك تماماً بأنّ نفساً متواضعة كنفس الشعب الروسي البسيط، التي يرهقها العمل والبؤس، ويضنيها الظلم الدائم والخطيئة المستمرة، أن نفساً كهذه، لا توجد بالنسبة إليها حاجة أقوى من أن تجد مكاناً مقدساً أو قديساً تسجد أمامه خاشعة: «إذا كنا نحن نعيش في الخطيئة والكذب والتجربة، فلا يزال، يوجد على الأرض، في مكان ما، قديس، كائن أسمى هو الذي يملك الحقيقة وهو يعرف الحقيقة، إذن، لم تمت الحقيقة بعد على

الأرض، ربّما بين يوم وآخر، ستمرّ من عندنا أيضاً ويعود ملكها على الأرض كما هو موعود». كان أليوشا يعرف أن الشعب كان يحسّ، على هذا النحو، هو يفهم ذلك. أما كون الناسك هو ذاك القديس الرائع، وحارس الحقيقة الإلهية بنظر الشعب فذلك ما لا يشكّ فيه لحظة واحدة، وكان إيمانه به لا يقلّ عن إيمان الفلاحين الباكين مع زوجاتهم المريضات اللواتي يمددْن أطفالهن إلى الراهب الناسك. ولعلَّ يقينه من أنّ الراهب الناسك سيكون للدير، بعد وفاته، مصدر مجدٍ خارق وأقوى من يقين أيّ راهب آخر في الدير. وبشكل عام، في هذه الآونة الأخيرة، كان يزخر بنوع من حماسة داخلية عميقة تلهب قلبه. وكان لا يقلقه أبداً أن يبقى هذا الناسك، رغم كل شيء، الأوحد أمامهم: «على كلّ حال، إنه قديس، وسرُّ بعثِ جميع البشر، يكمن في قلبه، هذه القدرة التي ستكفل إقامة الحقيقة على الأرض ويصبح جميع الناس قديسين يحبّون بعضهم بعضاً، ولن يكون ثمة فقراء ولا أغنياء ولا متكبرون ولا مستذلّون، سيصبحون جميعاً كأبناء الله، وسيسود الملكوت الحقيقي للمسيح». ذلك كان الحلم الذي يملأ قلب أليوشا.

يبدو أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الوقت قد أثَّر في نفس أليوشا تأثيراً شديداً. لقد تفاهم مع أخيه ديمتري فيودوروفتش، مع أنه الأخير الذي وصل، أسرع مما مع أخيه الشقيق إيفان. كان يرغب إيفان عن كثب، ولكن لم يحدث بينهما أيّ تقارب. رغم أن الأخير كان يقيم هناك منذ شهرين، وكانا يلتقيان غالب الأحيان، كان أليوشا يبقى صامتاً كأنه ينتظر شيئاً ما أو يخجل من شيء ما. أما إيفان الذي لاحظ نظراته المتفرسة والفضولية، أصبح لا يوليه اهتماماً. لاحظ أليوشا ذلك مع نوع من الاضطراب فعزا ذلك إلى الفرق بينهما في السنّ وفي التربية. لكن أليوشا كان يفكر في شيء آخر: فهذه الفضولية وقلّة اكتراث إيفان ناشئتان ربّما عن سبب لا يزال أليوشا يجهله،

كان يبدو له أن إيفان منهمك البال دائماً بشيء ما، بمسألة داخلية ومهمة، وأنه يطمح إلى بلوغ هدفٍ صعب جداً فلا يلهيه عنه الاهتمام بأخيه وكان أليوشا يفكر في شيء آخر أيضاً: ليس هناك نوع من الاحتقار تجاه هذا المبتدئ الصغير احتقارعالِم ملحد لراهب مبتدىء صغير؟ كان أليوشا يعرف أن أخاه ملحد. ومثل هذا الاحتقار ـ إذا وجد ـ قد لا يزعج أليوشا، وبالرغم من ذلك كان أليوشا ينتظر، وبقلقٍ فيه شيء من الغموض، اللحظة التي يقرر فيها أخوه التقرُّب منه. أما أخوه ديمتري فيودوروفتش فكان يتحدث عن أخيه باحترام بالغ ويتكلم عنه بنوع من الحماسة الاستثنائية، ومنه عرف أليوشا كل تفاصيل العلاقة الهامة التي توثقت بين الأخوين، في الآونة الأخيرة، هذه العلاقة الحميمة، فشدَّت أحدهما إلى الآخر. وكانت الأصداء الحماسية التي يبديها ديمتري تجاه أخيه إيفان تكتسب المزيد من الدلالة في نظر أليوشا خاصة أن ديمتري كان بالمقارنة بإيفان رجلاً بدون ثقافة، والاثنان معاً يشكلان مفارقة في الطبع والشخصية يجعل من المستحيل تصور رجلين أكثر تناقضاً منهما.

في تلك الفترة بالذات حصل اللقاء العائلي أو بتعبير أفضل، اجتماع العائلة بكل أفرادها المتنافرين في غرفة العجوز زوسيما، فترك في نفس أليوشا تأثيراً كبيراً. والحجة التي اتخذت لعقده كانت خاطئة. ففي تلك اللحظة بالضبط بلغ الخلاف القائم بين ديمتري فيودوروفتش ووالده فيودور بافلوفتش حول الإرث وتصفية الحساب ذروته، وتفاقمت العلاقات المتوترة بين الوالد وابنه بحيث أصبحت لا تحتمل. يبدو أن فيودور بافلوفتش، هو الذي اقترح على سبيل المثال فكرة عقد الاجتماع في غرفة الناسك زوسيما، دون أن يتدخَّل هذا الأخير مباشرة، ربما تضفي مكانة هذا الإنسان المحترم وشخصيته جوّاً يهدّىء النفوس ويصالح القلوب. وفكَّر ديمتري فيودوروفتش، الذي لم يسبق أن زار الناسك، والذي لم يره أبداً، تصوَّر، طبعاً،

أن الهدف من هذا الاجتماع هو تخويفه منه ومع ذلك، وافق ديمتري على هذا التحدي لأنه كان ضمناً يلوم ذاته على الحدّة العنيفة التي كان يواجه بها والده في الفترة الأخيرة. وتجدر الإشارة إلى أنه ما كان يقيم في منزل والده، مثل أخيه إيفان، وإنما كان يقيم وحيداً في الطرف الآخر من المدينة. حدث، أثناء ذلك، أنّ بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف الذي كان يقيم في مدينتنا حينذاك، تحمّس بصورة خاصة لرأي فيودور بافلوفتش. وهو ليبرالي على طراز سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠، ومفكر حرّ وملحد، قد ساهم، ربما عن سأم، في هذه المسألة بشكل فعّال، وربّما عن مزاحٍ طائش في السخرية. ورغب، فجأة، أن يرى الدير و«القديس»، وإذ كان النزاع بينه وبين الدير على تثبيت حدود ملكيته وحدود ملكية الدير، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر، لم يكن قد حُسم والدعوى لا تزال قائمة سارع إلى انتهازهذه المناسبة بذريعة أنه يريد أن يتّفق مع رئيس الدير، لأنه ليس من وسيلة لحلّ الخلاف إلّا حبّياً. وزائر بهذه النيَّة الطيبة من الممكن أن يُستقبل بشكل ألطف من الاستقبال الذي سوف يلاقيه لو ذهب إلى الدير بدافع الاستطلاع فحسب. أتاحت هذه الاعتبارات المتعددة تحريك بعض المؤثرات داخل الدير وأثَّرت في الناسك المريض الذي أصبح منذ فترة لا يبارح غرفته ويرفض بسبب سوء حالته استقبال الزوار الذين اعتادوا القدوم إليه؛ ووافق على الاجتماع وحُدّد يوم اللقاء. وقال الراهب الناسك لأليوشا مبتسماً: «مَن فوَّضني كي أكون الحكَمَ بينهما؟».

عندما علم أليوشا بشأن هذا اللقاء غاص في اضطراب شديد. إذا كان ثمة أحد من بين هذين الرجلين المتخاصمين المتنازعين سوف يأخذ هذا الاجتماع بجدّية فهو، بدون أدنى شك، أخوهما ديمتري. أما الآخرون فسيذهبون إلى الدير بدوافع طائشة وسخيفة قد تسيء إلى العجوز. هذا ما كان يدركه أليوشا

بحقّ. فأخوه إيفان والسيد ميوسوف جاءا إلى الدير بداعي الفضول. وليس مستبعداً أن يكون في نيّة والده تمثيل مهزلة ساخرة. لزم أليوشا الصمت، وهو يحس ذلك، لأنه كان يعرف جيداً والده. فهذا الفتى كان أشدَّ ذكاءً مما يتصور بعض الناس. وكان ينتظر اليوم المحدَّد منقبض القلب بدون شك، كان في أعماق نفسه يتمنى أن تنتهي هذه النزاعات العائلية بشكل أو بآخر. لكنّ همّه الأساسي كان الراهب الناسك: كان يرتعد قلقاً عليه وحرصاً على مجده، ويخشى أن يلحقوا به الإهانة، ويخشى، بصورة خاصة، السخريات اللطيفة المهذبة التي يعتمدها ميوسوف وغمزات الاحتقار التي يمكن أن يقوم بها أخوه المثقف إيفان؛ وهكذا، كان يتصور الأمر. أراد، في لحظة ما، أن يجازف ويُعلم الراهب الناسك، ويقول له شيئاً ما عن هؤلاء الأشخاص الذين سيأتون لزيارته، لكنه فكَّر في الأمر ولزم الصمت؛ أراد في عشية اليوم المحدَّد أن يبلغ أخاه ديمتري بواسطة صديق لهما أنه يحبه كثيراً وهو يعتمد على وعده. وبقي ديمتري محتاراً في شأن هذه الرسالة لأنه لم يستطع أن يتذكر بماذا وعد أخاه، ثم أجابه في رسالة خطية بأنه سوف يبذل كل جهوده لكي لا تقع أيُّ «سفالة». وأضاف إنه رغم احترامه العميق للعجوز ولأخيه إيفان، إلّا أنه كان واثقاً بأنّ في الأمر فخاً أو مهزلة منحطة، وختم بقوله: «أفضِّل أن أبلع لساني على أن أقول ما يؤذي هذا الرجل القديس الذي تحترمه أنت كثيراً.» لكن الرسالة لم تكن لتطمئن أليوشا.

الكتاب الثاني

اجتماع في غير موضعه

I

الوصول إلى الدير

كان يوماً رائعاً، حاراً ومضيئاً. كنّا في نهاية شهر آب/ أغسطس. وكان اللقاء قد حُدِّد مع الناسك مباشرة بعد القداس الأخير حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف؛ ومع ذلك، لم يصل زوَّارنا إلى الدير في موعد القداس بل وصلوا، تحديداً، بعد الخروج من الكنيسة. وصلوا في عربتين. كان بيوتر ألكسندروفيتش ميوسوف في المركبة الأولى وهي عربة متأنقة يجرُّها جوادان رائعان، يصحبه أحد أقاربه البعيدين وهو شاب، في العشرين من عمره يدعى بيوتر فومتش كالغانوف كان يتهيأ للدخول إلى الجامعة. أما ميوسوف الذي كان الشاب يعيش، بصورة مؤقتة، عنده، فكان يصطحبه معه إلى الخارج، إلى زوريخ أو فيينّا، ليلتحق بالجامعة هناك وينهي دراسته. لم يكن الشاب قد اتخذ قراره بعد. كان واجماً شارد الذهن. كان وجهه لطيفاً، متين البنية، طويل القامة، في نظرته ثبات غريب: مثل كل الأشخاص الشاردين يحدّق إليك أحياناً بنظرة حادة وطويلة، ومع ذلك، فهو لا يراك أبداً؛ كان رجلاً سكوتاً، وأخرق قليلاً، وأحياناً يتحمس ـ إذا وُجد مع شخص حميم ـ فيتحول فجأة إلى ثرثار بشكل رهيب. ملتهب وضحوك، والله يعلم أحياناً لماذا. لكن هذه الحماسة تختفي

بسرعة كما شبَّت فجأة. كان حسن الهندام دائماً، على شيء من التأنق. وهو يملك ثروة شخصية وينتظر مواريث أضخم. أصبح هو وأليوشا صديقين.

وصل فيودور بافلوفتش وابنه إيفان في عربة مستأجرة، قديمة جداً، يجرّها حصانان أشهبان عجوزان لا يقارنان بحصانيّ ميوسوف. وتأخر ديمتري فيدوروفتش رغم أنه قد أُبلغ بالموعد منذ العشية. ركن الزائران عربتهما بالقرب من السور ودخلا الدير سيراً على الأقدام. يبدو أنّ أحداً من هؤلاء الزائرين ما عدا فيودور بافلوفتش لم يسبق له أن رأى الدير من قبل. أما ميوسوف الذي لم يدخل كنيسة منذ ثلاثين سنة، كان يتطلع حواليه بعين فضوليّة متظاهراً بعدم الاهتمام. لكن لم يجذب انتباه فكره الملاحِظ إلّا مبنى الكنيسة والمباني العادية المشتركة في داخل الدير، وهي مبانٍ لا تحمل شيئاً من جمال فنّ العمارة. كان المؤمنون يخرجون من الكنيسة وهم ينزعون قبعاتهم ويرسمون إشارة الصليب. كما كان يوجد أيضاً بعض المسافرين المتحدرين من طبقة اجتماعية عليا، وسيدتان أو ثلاث، وجنرال عجوز جداً. توقفوا جميعهم أمام الفندق. وفوراً احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين، ولكنَّ أحداً لم يعطهم شيئاً. وحده بتروشا كالغانوف أخرج من حافظة نقوده قطعة عشرة كوبيكات وسارع يدسّها مضطرباً، والله يعلم لماذا، في يد إحدى الفقيرات وهو يغمغم بسرعة: «توزَّعوها جميعاً بالتساوي». لم يبد له أحد من رفاقه ملاحظة بهذا الشأن، فما كان له إذن أن يحمرّ خجلاً، ولكنه لاحظ ذلك فازداد اضطراباً.

كان ذلك غريباً، على كل حال؛ في الحقيقة كان يجب أن ينتظرهم أحد. وربَّما مع بعض الاهتمام: فالأول تبرَّع مؤخراً للدير بألف روبل في الفترة الأخيرة، بينما الثاني كان ملّاكاً غنياً جداً وعلى جانب وافر من الثقافة، مرتبطون جميعهم به خاصة في ما يختص بحقوق الصيد في النهر إذا حسمت

الدعوى لصالحه. ومع ذلك لم تكن توجد أيّ شخصية رسمية لاستقبالهم. ألقى ميوسوف نظرةً ذاهلة على حجارة القبور المجاورة للكنيسة وأراد أن يقول إن هذه القبور الصغيرة يجب أن تكون قد كلّفت العائلات مبلغاً طائلاً لكي يدفنوا موتاهم في مكان «مقدَّس» مثل هذا. ولكنه آثر الصمت؛ فالسخرية البسيطة الليبرالية تحوّلت لديه إلى غضب. فغمغم فجأة وكأنه يكلّم نفسه:

ـ لا يعلم إلّا الشيطان هنا إلى من سنتوجّه في هذه الفوضى، وعلينا مع ذلك أن نسرع فالوقت يمضي...

وفيما هم في هذه الحيرة، رأوا سيداً متقدّماً في السنّ يقترب منهم؛ كان أصلع، يرتدي معطفاً فضفاضاً صيفياً وعيناه صغيرتان لطيفتان. نزع الرجل قبعته وقدَّم نفسه إليهم جميعاً بصوت معسول قائلاً ماكسيموف الملّاك العقاري من منطقة تولا. وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال:

ـ إن الناسك زوسيما يسكن في الصومعة، في الصومعة المنزوية، على مسافة أربعمئة قدمٍ من الدير تقريباً. بعد الغابة الصغيرة، الغابة الصغيرة...

ـ أعرف هذا، أجابه فيودور بافلوفتش، وراء الغابة، أليس كذلك؟ ولكننا نسينا الطريق المؤدي إليه لأننا لم نأتِ إلى هنا منذ زمن بعيد...

ـ حسناً، هناك، من الباب، ثم بخطّ مستقيم إلى الغابة الصغيرة... الغابة الصغيرة. هيّا بنا. هل أستطيع أن... إنني أنا أيضاً، أنا أيضاً... الطريق من هنا، من هنا...

خرجوا من السور وساروا في الغابة الصغيرة. كان ماكسيموف، في الستين من عمره، يسير إلى جانبهم، بل الأحرى، يكاد يركض إلى جانبهم وهو يتفرّس فيهم جميعاً بنوع من الفضول.

ـ ، قال ميوسوف بقساوة، إننا ذاهبون إلى هذا الراهب الناسك لأمر

يتعلّق بنا وحدنا، وقد حصلنا على موعد لمقابلته، لذلك نحن شاكرون لك لأنك أرشدتنا إلى الطريق، لكننا نطلب منك ألّا تدخل معنا.

ـ أنا، لقد سبق ورأيته... لقد رأيته... «إنه فارس عظيم». (بالفرنسية في الأصل).

وصفّق الملّاك بأصابعه في الهواء.

ـ الفارس، أيّ فارس؟ سأل ميوسوف مستغرباً.

ـ العجوز، العجوز العظيم، هذا العجوز... شرف هذا الدير ومجده... زوسيما، هذا العجوز الذي...

راهب قصير القامة، كان يركض باتجاه السائرين،شاحب اللون جداً ومعتلّاً. توقف فيودور بافلوفتش وميوسوف. وخاطبهم الراهب بعد أن انحنى أمامهم بتهذيب حتى كاد رأسه يبلغ مستوى الحزام:

ـ إن الأب، رئيس الدير، يرجوكم، بمنتهى التواضع، أيها السادة، أن تشرّفوه لدى عودتكم جميعكم من الصومعة لتناول طعام الغداء لديه. المائدة جاهزة في الساعة الواحدة ليس أكثر. ثم التفت نحو ماكسيموف وأضاف: وأنت أيضاً مدعو.

ـ طبعاً، طبعاً! هتف فيودور بافلوفتش وقد طار فرحاً بهذه الدعوة اسمع لقد تعهّدنا جميعنا بأن نتصرّف هنا بلياقة... ستأتي أنت أيضاً يا بيوتر ألكسندروفتش؟

ـ طبعاً، طبعاً! فأنا حريص على أن أرى كل عاداتهم في هذا المكان. لكن الشيء الوحيد الذي يقلقني هو أنني في صحبتك يا فيودور بافلوفتش!

ـ أجل. إن ديمتري فيدوروفتش لم يصل بعد؟

ـ سيكون ذلك جيداً وإن لم يصل أبداً! أتعتقد أنه يسرني أن أجد نفسي

مقحماً في هذه المسائل القذرة، وأن أتحمَّل رفقتك؟ إذاً، سنكون إلى المائدة، أشكر الأب الرئيس. قال ذلك وهو يلتفت إلى الراهب.

ـ لا، فأجاب الراهب من واجبي أن أرافقكم. أنا باقٍ معكم لأنني مكلّف اصطحابكم إلى الراهب الناسك.

فقال الملَّاك ماكسيموف في هذه الحالة، سأكون عند رئيس الدير خلال ذلك الوقت. أنا ذاهب إلى الأب الرئيس فوراً.

ـ إن الأب الرئيس مشغول في هذه الساعة، و قال الراهب بلهجة مترددة ولكن كما تريد...

ـ يا له من مزعج، هذا العجوز القصير قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملّاك ماكسيموف يتجه راكضاً نحو الدير.

ـ إنه يذكّرني بفون زوهن(*) قال فيودور بافلوفتش.

ـ هذا كل ما لديك أن تقول... بماذا يشبه فون زوهن؟ أنت، أنت بالذات، هل رأيت فون زوهن؟

ـ رأيت صورة له. لا يشبهه بملامح وجهه، لا، بل بشيء يصعب تحديده، إنه شديد الشبَه بفون زوهن. هو نسخة ثانية عن فون زوهن. أنا، تكفيني نظرة واحدة ألقيها على وجهه لكي أعرفه.

الواقع: إنك خبير، لكن لا تنسَ يا فيودور بافلوفتش أنك أنت بالذات، منذ لحظة، قد وعدت بأن يكون سلوكك جيداً، لا تنسَ. أذكّرك بهذا. تماسك. إذا بدأت بلعب دور المهرّج فأنا لا أرغب في أن يضعانا، أنا وأنت، في سلة واحدة هنا... هل ترى الرجل الذي يتكلم مع الراهب، أخشى الدخول معه عند أناسٍ شرفاء.

(*) سيشرح فيودور بافلوفتش بعد بضع صفحات من هو فون زوهن.

ارتسمت على شفتيّ الراهب القصير النحيليتين الذاويتين ابتسامة لا تخلو من بعض الخبث، لكنه لم يجب بشيء، ومن الواضح أنه تعمّد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية. فقطّب ميوسوف حاجبيه أكثر فأكثر.

«ليقطع الشيطان رؤوسهم بالسيف جميعاً، هم مجرد واجهة تكونت خلال قرون، لكنها في الحقيقة، شعوذة وكلام فارغ». قال ميوسوف في نفسه.

ـ هذا هو المنسك، لقد وصلنا! السور وباب المدخل مغلقان. صاح فيودور بافلوفتش.

وراح يرسم إشارة الصليب، أمام صور القديسين المعلَّقة فوق وحول المدخل. وقال:

ـ لكل دير نظامه. هنا، في هذا المنسك ثمة خمسة وعشرون قديساً، القديسون الذين ينشدون خلاصهم، يقضون وقتهم ينظرون الواحد إلى الآخر، ويأكلون الكرنب. ولكن ما من امرأة واحدة تجتاز هذا الباب. هذا هو الشيء العجيب هنا. هذه هي الحقيقة. إلّا أنه قيل لي إنّ العجوز يستقبل هنا بعض السيدات. وتوجّه بالكلام فجأة إلى الراهب القصير:

ـ النساء المنتميات إلى عامة الشعب، إنهنّ هنا، أنظر هناك. إنهنّ راقدات قرب الرواق ينتظرن. أما فيما يختص بسيدات المجتمع الراقي فقد شيدت لهنَّ فوق الرواق، لكن خارج السور، غرفتان صغيرتان، نرى نوافذهما من هنا؛ يدخل الناسك إليهما من باب داخلي متى سمحت له صحته، دون أن يجتاز السور طبعاً. مثلاً، ثمة سيدة ملّاكة من منطقة خاركوف، السيدة خوخلاكوفا، تنتظر، الآن، مع ابنتها المريضة. لقد وعد الناسك برؤيتهما رغم أنه قد أصبح ضعيفاً، منذ فترة، وأصبح بالكاد يخرج ليرى الناس.

ـ إذن، هناك ممرّ يؤدي من المنسك إلى مقر السيدات. فلا تظنَّ أيها الأب

المحترم أنني أطلق الكلام كيفما شاء، فالأمر هو هكذا تماماً. أنت تعرف أنه في جبل آثوس، إذا كنت على علم بذلك، لا يمنعون زيارات النساء فقط بل، وبشكل عام، أيّ مخلوقة من الجنس الأنثوي. فلا دجاجات صغيرات ولا إوزة ولا عجلة صغيرة...

ـ فيودور بافلوفتش، سأعود إلى منزلي وسأتركك هنا، وحدك، سوف يرمونك خارجاً، إنني أحذرك.

ـ بماذا أزعجك يا بيوتر ألكسندروفتش؟ أنظر، صاح، وقد تقدَّم خطوة واحدة إلى داخل المنسك، أُنظر إلى وادي الورود هذا، حيث يسكنون!

في الواقع، ومع أنه ليس موسم الورد، فهناك عدد كبير من أزهار الخريف، رائعة كما هي نادرة، في كل مكان حيث يمكن أن تُزرع. إنها يد ماهرة، على ما يبدو، تهتمّ بها. توجد أحواض أزهار في أسوار الكنائس وبين المقابر. والبيت الصغير حيث توجد غرفة الناسك، بيت من خشب، بكل بساطة، مع رواق أمام المدخل، هو أيضاً محاط بالأزهار.

ـ هل كان الأمر على هذه الحال مع الناسك السابق، فارسونوفي؟ فهو، كما يقال، لم يكن يحب الأناقة، كان يغضب من جنس النساء ويوجّه إليهن ضربات بعصاه. قال فيودور بافلوفتش وهو يقترب من درج المدخل.

ـ صحيح أن العجوز فارسونوفي كان يبدو أحياناً، وكأنه بريء، لكن رويت عنه حماقات كثيرة. إنه لم يضرب أبداً أيّ شخص بعصاه. أجاب الراهب القصير. والآن، أيها السادة، انتظروا دقيقة واحدة وسأُبلغ عن وصولكم.

ـ فيودور بافلوفتش، أحذّرك للمرة الأخيرة، تصرّف بشكل لائق وإلّا جعلتك تدفع الثمن. تمتم ميوسوف مرة ثانية.

ـ أتساءل لماذا أنت ثائر الأعصاب أوَ هل أنت خائف من خطاياك الصغيرة؟ أجاب فيودور بافلوفتش بسخرية يُعرف عن العجوز أنه يقرأ في

الأعين، هكذا يقال، وأنه يعرف لماذا يأتي الناس إليه. وما هذه الأهمية التي توليها لرأيهم، أنتَ، الباريسي، السيد المتقدم جداً، إنك تدهشني، لا بأس!

لكن الوقت، لم يفسح في المجال لميوسوف للإجابة عن هذه السخرية؛ ودعوهم للدخول. فدخل متوتر الأعصاب.

«حسناً، الآن، أعرف نفسي، إنني متوتر الأعصاب، سأناقش... سأبدأ بالحماسة، ـ سأخفض من قدري ومن قيمة أفكاري».

II

المهرّج العتيق

دخلوا الغرفة في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه الناسك قادماً من غرفة نومه الصغيرة. كان في الغرفة ناسكان من رهبان الدير ينتظران فيها خروج العجوز، الأب المسؤول عن المكتبة والأب باييسي، وهو رجل مريض رغم أنه ليس طاعناً في السنّ، وهو عالم شهير، كما يقال عنه، كما كان هناك، أيضاً شابّ في الثانية والعشرين من العمر تقريباً، ينتظره واقفاً في زاوية الغرفة (بقي واقفاً ولم يجلس)، يرتدي سترة مدنية، إكليريكي، وسيصبح لاهوتياً. والدير والجمعيّة الدينية معاً يهتمان به، لست أدري لماذا. كان شاباً طويل القامة، نضر الوجه، عريض الوجنتين، له عينان صغيرتان ضيّقتان تعبِّران عن ذكاء وانتباه. وكان وجهه ينم عن احترام ولياقة. حتى إنه لم يسلّم على الزائرين الذين دخلوا الغرفة مباشرة، وكأنه لا يحسب نفسه من مستواهم بل شخصاً ثانوياً ومرؤوساً.

خرج الناسك زوسيما من غرفته يصحبه مترهّب مبتدىء وأليوشا، نهض الراهبان فسلّما عليه بانحناءة حتى لامست أصابعهما الأرض، وقبَّلا يديه بعد أن باركهما، ثم ردَّ عليهما السلام بالانحناءة نفسها. جرى هذا الاحتفال بكثير من المهابة لا كما يجري طقس يومي، بل، بنوع من الانفعال. وشعر

ميوسوف، مع ذلك، أن كل ذلك لا يعدو كونه تمثيلية متعمدة هدفها التأثير على الحاضرين. لكنه كان يقول في سرّه ـ وقد فكَّر في ذلك مساء الليلة البارحة ـ مهما تكن آراؤه، فعليه من باب اللياقة أن يقترب ويتلقّى بركة الراهب الناسك (ما دامت العادات المحلية تفرض ذلك)، على الأقل، ما دام لا يريد تقبيل يده. وعندما رأى كل هذه الانحناءات والقبلات التي قام بها الرهبان النساك، تراجع عن قراره فوراً. فسلَّم على الناسك بانحناءة، رجل مهذب من المجتمع الراقي ثم تراجع نحو كرسيه رصيناً وقوراً. فعل فيودور بافلوفتش مثله تماماً مقلِّداً إياه وكأنه قرد حقيقي. وانحنى إيفان فيودوروفتش، بشكل لائق ورصين للغاية، واضعاً يديه على حزام بنطاله. بينما كالغانوف من شدة الاضطراب نسي أن ينحني. فأنزل الراهب الناسك ذراعه التي كان قد رفعها ليباركهم، وانحنى أمامهم مرة ثانية وطلب من الجميع الجلوس. احمرّ خدَّا أليوشا من الخجل. لقد تحقق ما تنبَّأ به.

جلس العجوز على كنبة صغيرة من خشب الأكاجو، مغطاة بجلد، من طراز قديم جداً، وأجلس ضيوفه، ما عدا الراهبين الناسكين، أمام الجدار المقابل مشيراً إلى أربعة مقاعد، مصنوعة من خشب الأكاجو، ومغطّاة بجلد أسود ومستعملة كثيراً. وجلس الراهبان الناسكان إلى الجانبين، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة. أما الإكليريكي وأليوشا والمبتدىء فظلّوا واقفين. كانت الغرفة صغيرة تولّد شعوراً بأنها بالية، وكان الأثاث وكل الأشياء الأخرى التي فيها قديمة وعادية. إناءان للأزهار على النوافذ، وفي الزاوية عدد كبير من الإيقونات، بينها واحدة للسيّدة العذراء، حجمها هائل ومرسومة بالألوان، من الواضح أنّ تاريخها يعود إلى عصر سابق على الانشقاق الديني الكبير، وإلى جانبها إيقونات من معدن لماع وبالقرب منها تماثيل أطفال منحوتة لهم أجنحة، وبَيْض صغير من الخزف، وصليب كاثوليكي من العاج، مع أمّ حزينة

تضمّ الصليب بيديها، وبضع نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الإيطاليين تعود إلى القرون الماضية. وبالقرب من تلك المحفورات الفنيّة الجميلة والثمينة يوجد عدة نسخ ليتوغرافية روسية شعبية عاديّة تمثّل قديسين وشهداء ورهباناً، الخ، من تلك التي تباع ببضعة كوبيكات في جميع الأسواق. وهناك بورتريهات ليتوغرافية لأساقفة قدماء أو معاصرين على الجدران الأخرى. جال ميوسوف بنظره على هذه «التفاهات» ثم نظر إلى العجوز بنظر ملحاح. فميوسوف يعتبر نفسه ثاقب النظر خاصة، أنه بلغ الخمسين من العمر، وهي سنّ يكون فيها المرء الذي ينتمي إلى المجتمع الراقي، ذكياً، ويتمتع بمركز مرموق قد اعتاد أن يحترم نفسه كثيراً، وأحياناً بالرغم عنه.

منذ اللحظة الأولى، لم يعجبه الناسك. كان ثمة في وجهه شيء لم يُرضِ بعض الآخرين أيضاً. كان رجلاً طيب القلب، قصير القامة، محدودب الظهر، له ساقان هزيلتان جداً، وعمره خمسة وستون عاماً، لكنه يبدو، بسبب مرضه، أكبر من عمره بعشر سنوات على الأقل. وجهه نحيل، ضامر، تنتشر فيه تغضنات صغيرة، وخاصة حول عينيه. عيناه صغيرتان لكنهما صافيتان، حادتان، ومشعَّتان، كأنهما نقطتان من ضوء. لم يبقَ من شعره إلّا خصلات بيضاء، على الصدغين فقط. كانت لحيته الدقيقة صغيرةً وغير كثَّة ومروَّسة، وشفتاه اللتان تبدوان ساخرتين، رقيقتان كأنهما حبل رفيع، وله أنف ليس طويلاً بل دقيق يشبه منقار عصفور صغير.

قال ميوسوف في سرّه: «من الواضح أنّ لديه نفساً شريرة، وعلى شيء من الكبرياء الحقيرة». وكان مستاءً جداً من نفسه.

دقَّت الساعة فوضعت حداً للمحادثة. إنها ساعة صغيرة زهيدة الثمن معلَّقة بالحائط، دقّت اثنتي عشرة دقة سريعة.

ـ حان الموعد المحدَّد ولم يصل بعد ابنا ديمتري فيودوروفتش، قال

فيودور بافلوفتش أرجو المعذرة، نيابة عنه، أيها الناسك المبارك (ارتعش أليوشا لدى سماعه، حرفياً، قول أيها الناسك المبارك). اعتدت، أنا، أن أكون دقيقاً في المواعيد، لم أتأخر يوماً عن موعد دقيقة لأنني أتذكر أن دِقَّة المواعيد هي من أدب الملوك...

ـ لكنك، مهما قيل، أنت لست ملكاً. دمدم ميوسوف الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه.

ـ أجل، صحيح، لست ملكاً. لكنني، يا بيوتر ألكسندروفتش، أعرف ذلك، من دون رأيك، أقسم لك! وهذا في كل مرة أقول كلاماً في غير موضعه وبدون معنى. ثم صاح بانفعال مفاجىء: يا صاحب السمو، إنك ترى أمامك مهرِّجاً، مهرِّجاً حقيقياً. هكذا أقدّم نفسي. هذه عادة قديمة، مع الأسف! وإن كنت أكذب، أحياناً، عن قصد، إنما أفعل ذلك لكي أضحك الناس وأكون لطيفاً. إسمع، منذ سبع سنوات، في مدينة صغيرة، كانت لديّ بعض الصفقات مع عدد من التجار، فأقمت الصلات بيني وبين بعضهم. قررنا أن نزور الإيسبرافنيك (مفوض الشرطة في المنطقة) ونطلب مساعدته في بعض الأمور ولكي ندعوه إلى تناول الغداء (استقبلنا هذا الإيسبرافنيك). حضر. إنه رجل كبير القلب، ضخم الجثّة، أشقر، صموت. والنماذج الذين من هذا الصنف هم الأشدّ خطراً في هذه الحالة: الكبد أجل الكبد. أنا سرت مباشرة باتجاهه، وقلت له بلهجة منطلقة كواحدٍ من رجال المجتمع: «لتكن نابرافنيك خاصتنا! (موسيقي معروف في تلك الفترة). فقال لي: «كيف؟ أيّ نابرافنيك؟ أنا، أدركت منذ الثانية الأولى، أن الصفقة قد ضاعت. بقي مكانه، وقوراً، قاسي المظهر، كأنه بابا (الحبر الأعظم). قلت له: «أردت أن أمزح لكي ألطّف الجوّ. في الواقع إن السيد نابرافنيك هو واحد من أشهر قادة الترتيل، ونحن، انسجاماً مع مؤسستنا، بحاجة إلى قائد ترتيل...» لقد شرحت له،

أليس كذلك! وقارنت بذكاء أن ذلك كان صحيحاً؟ «المعذرة، قال لي، أنا إيسبرافنيك ، ولا أقبل التلاعب لفظياً بشأن وظيفتي». ثم استدار وانصرف. فلحقت به صائحاً: «لا، لا، أنت إيسبرافنيك ولست نابرافنيك». «لا، قال لي، لقد قلتَها، قلت لي نابرافنيك ». تصوّروا، سقطت صفقتنا في الماء! هكذا هي الأمور دائماً معي، أفعل دائماً هكذا؛ يجب دائماً؛ بمجاملتي، أن أسيء إلى نفسي! ذات مرة، حدث ذلك منذ زمن بعيد، قلت لشخصية نافذة إنّ «زوجتك إنسانة حساسة»، بالمعنى المجازي، أعني أنها حساسة إذا أُسيء إلى كرامتها وإلى صفاتها الأخلاقية؛ وهو، أجابني على الفور: «لأنك داعبتها»؟ لا أتمالك نفسي دائماً، فقلت، لنكن مجاملين، فقلت له، «نعم، داعبتها» ـ يومها... فقط هذا، هذا ما حدث منذ زمن طويل، ولا أخجل الآن من أن أروي ذلك، لكن أنا، أسيء دائماً إلى نفسي!

ـ «تماماً كما تفعل في هذه اللحظة». دمدم ميوسوف باشمئزاز.

كان الناسك يراقب الرجلين بصمت.

ـ عجباً، تصوّر يا بيوتر ألكسندروفتش، هذا أيضاً، هل تعلم، لقد تنبأت به منذ فتحت فمي، وإنني سأفعله. هل تعلم، كنت أشعر بأنك أنت ستكون أول من يوجِّه إلي الملاحظة. في مثل هذه اللحظات حين رأيت أن مزاحي لم ينجح، قلت له: يا صاحب السموّ، يتصلَّب خدّاي ويلتصقان بالفكَّين السفليين، مما يجعلني أشعر بتشجنات؟ يعود ذلك إلى أيام الشباب، عندما كنت طفيلياً أقتات على موائد النبلاء وأكسب قوتي بلعب دور الطفيلي. أنا مهرِّج، يا صاحب السموّ، أنا مهرِّج عريق، مهرّج بالولادة، إنني إنسان قرويّ ساذج؛ ربّما هناك شيطان يحرّكني، وهذا يحدث، وهو مختبىء في داخلي، لكنه متواضع. لو كان قوياً لاختار مسكناً آخر. أي مكان ما عداك يا بيوتر ألكسندروفتش، فأنت، لست مسكناً جيداً. أما أنا، فبالعكس، أنا أؤمن، أؤمن بالله. لم يساورني

الشك إلّا في الأيام الأخيرة، لكن الآن، أنا هنا، أنتظر الكلمات الكبيرة الرنّانة. أنا، يا صاحب السموّ، مثل الفيلسوف ديدرو. أنت، تعرف، أيها الأب القديس جداً، كيف جاء الفيلسوف ديدرو إلى رئيس الأساقفة أفلاطون في عهد كاترين الثانية. دخل وقال له، مباشرة: «الله غير موجود»، فرفع الرجل القديس العظيم يده اليمنى وقال: «المجنون يقول في قلبه إن الله غير موجود»، فركع الآخر على ركبتيه وصاح: «آمنت، أقبل العماد». وهنا، فوراً، جرى تعميده. كانت الكونتيسة داشكوفا إشبينته، وكان عرّابه بوتمكين...

قال ميوسوف بصوت مرتجف ولم يستطع كبح جماحه:

ـ فيودور بافلوفتش، هذا لا يُحتمل! أنت تعرف جيداً أنك تكذب، وأن هذه القصة السخيفة هي أكذوبة، فلماذا تقوم بدور المهرِّج؟

ـ طوال حياتي، كنت أشعر أن هذه القصة هي أكذوبة. فصاح فيدور بافلوفتش والآن، أيها السادة، سأقول لكم الحقيقة بكاملها؛ أيها الراهب الناسك العظيم! سامحني، الشيء الأخير الذي قلته عن معمودية ديدرو، اخترعته في اللحظة ذاتها التي كنت أخبرها وقبل ذلك لم تخطر أبداً ببالي. لقد اخترعتها من أجل الإثارة، لهذا، لعبت دور المهرّج، يا بيوتر ألكسندروفتش، لكي أكون خفيف الروح. ثم أنا، أنا نفسي، أتساءل أحياناً لماذا أقوم بذلك. فيما يتعلق بديدرو، وعن هذا «المجنون الذي يقول ذلك» فقد سمعت هذا القول من الملّاكين هنا أكثر من عشرين مرة، عندما كنت في مطلع سنوات شبابي وكنت أقيم عندهم وعند عمتك ذاتها مافرا فومينيشنا، يا بيوتر ألكسندروفتش، سمعت ذلك منها، كما أعتقد. وحتى هذا اليوم، جميع الناس مقتنعون بأن هذا الملحد ديدرو جاء إلى المتروبوليت أفلاطون ليناقش معه مسألة وجود الله...

وقف ميوسوف، وقد فقد صبره وأدرك أنه أصبح، هو أيضاً، مضحكاً. في الواقع، ما يحدث في هذه الغرفة هو أمر مستحيل كلّياً. ففي هذه الغرفة

عينها، منذ ثلاثين عاماً أو أربعين تقريباً، في أيام الرهبان النساك السابقين، يجتمع الزائرون ولكن بروح من الاحترام العميق جداً وليس غير ذلك. إن جميع الذين كانوا مقبولين تقريباً، ويدخلون الغرفة، كانوا يعرفون أنهم نالوا نعمة عظيمة جداً، والكثيرون منهم يركعون ولا يقفون أثناء فترة الزيارة كلها. وعدد كبير من الأشخاص، حتى «الأرفع مكانة» والأكثر معرفة؛ ومن بينهم من يتصفون بالأفكار الحرة، الذين يأتون إما من باب الفضولية وإما لسبب آخر، يدخلون إلى الغرفة ويحصلون على لقاء وجهاً لوجه، ويلزمون أنفسهم، من الأول حتى الأخير، الاحترام العميق واللياقة خلال كل مدّة اللقاء، سيّما وأن الدير لا يطلب مالاً، وأن كلَّ ما فيه يتمّ بمحبّة ونعمة من جهة، ومن جهة أخرى، بندامة وتعطش إلى حلّ هذه المسألة الشائكة التي تطرح على النفس، أو أي لحظة صعبة لحياة قلب المرء. حيث أن فيودور بافلوفتش اندفع، فجأة، في تهريج، مع قلّة احترام تجاه هذا المكان الذي هو فيه، ما حدث لدى من يرون هذا المشهد، أو لدى بعضهم على الأقل، ذهولاً ودهشة. أما الراهبان الناسكان اللذان ظلَّ وجهاهما هادئين، على كل حال، وكانا يتابعان بانتباه جدّي ما سيقول الراهب الناسك. لكن يبدو أنهما كانا جاهزين لينهضا كما فعل ميوسوف. وكانت دموع أليوشا على وشك أن تنهمر، وبقي خافض الرأس. وما كان يبدو له أكثر غرابة هو أن أخاه إيفان فيودوروفتش، الوحيد الذي كان يأمل منه أن يتدخل، وهو الوحيد الذي كان له تأثير في والده، بقي على مقعده لا يتحرك، وعيناه منخفضتان، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من الفضولية ليرى إلى ماذا سيؤدي هذا الأمر، كأنْ لا علاقة له بهذا الشأن.

ـ سامحني... بدأ ميوسوف كلامه متوجهاً إلى الناسك، إذا بدوت لك، ربما، أنا أيضاً، مشاركاً في هذا التهريج غير اللائق. فخطأي يكمن في أنني أعتقدت أن رجلاً مثل فيودور بافلوفتش، وهو يزور شخصية محترمة إلى هذا

الحدّ، سيقبل بأن يعرف واجباته... لم أدرك أنه كان يتوجب عليَّ أن أعتذر لأنني دخلت برفقته إلى هذا المكان...

لم يكمل بيوتر ألكسندروفتش كلامه حتى تاه كلياً في ارتباكه، وأراد أن يخرج من الغرفة.

ـ لا تقلق، أرجوك، قال الناسك، ونهض فجأة على ساقيه الهزيلتين وأمسك بيديه الاثنتين بيوتر ألكسندروفتش، وأجلسه على كرسيّه، كنْ هادئاً أرجوك؛ وأُصرّ على أن تكون ضيفي ـ ورجع وهو ينحني، وجلس على كنبته الصغيرة.

ـ أيها الناسك العظيم، قلْ: هل يؤذيك اندفاعي، نعم أم لا؟ قال فجأة فيودور بافلوفتش، وقد استند بيديه الاثنتين إلى ذراعي كنبته كأنه ينوي النهوض؛ إذا كان الجواب موجباً لذلك. أجاب الراهب الناسك بيقين...

ـ أرجوك، بصورة خاصة، ألّا تقلق وألّا تنزعج، لا تزعج نفسك، تصرَّف وكأنك في منزلك، وخاصة، لا تخجل من نفسك فهذا هو أصل البلاء.

ـ تماماً كما لو كنت في منزلي؟ يعني بشكل طبيعي؟ إنّ هذا لكثير، كثير جداً. لكنني أوافق بتأثر! إسمع أيها الأب المبارك، لا تدفعني كثيراً، ففي حالتي الطبيعية، لا تجازف... حتى أنا نفسي، لن أصل إلى الحالة الطبيعية. إنني أنبهك لكي تحتاط. وكل ما تبقَّى تحجبه ظلمات المجهول. ولا أعرف أيضاً من سيعطيني الدرس. هذا للعِلمِ، أقول هذا لك يا بيوتر ألكسندروفيتش. أما أنت أيها الإنسان المقدس، إليك ما أقوله: إنني أبوح لك بإعجابي الشديد! ونهض رافعاً ذراعيه نحو السقف وقال: «بورك البطن الذي حملك، وبورك الثديان اللذان أرضعاك»، نعم، الثديان بصورة خاصة. لقد سبق ونصحتني، منذ برهة، بأن «لا تشعر بالعار من نفسك، فهذا هو أصل البلاء»، بملاحظتك هذه، نفذتَ إلى داخلي وقرأت ما في أعماقي. هذا هو ما أشعر به تماماً؛ أنا

أشعر، دائماً، عندما أدخل على الناس، بأنني أحقر من الجميع، وأنّ الجميع يعتبرونني مهرّجاً، فأتوجَّه إليهم، عندئذ، بيني وبين نفسي قائلاً: «فليكن، سأمثّل لكم دور المهرّج. لا أبالي بما ستفكرون لأنكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم، أكثر حقارة مني». ولهذا السبب، أيها الناسك العظيم أهرِّج، أهرِّج لأنني خجول. لأنني جبان أتبجَّح. لأنني كنت، حين دخلت، متأكداً من أنّ كل واحد منكم سيعتبرني فوراً، ألطف وأذكى إنسان، لأصبحت عندئذ الطيبة مجسدة كإنسان!.

يا معلِّمي! قال وارتمى راكعاً، ماذا يجب عليَّ أن أفعل لأنال الحياة الأبدية؟ لقد كان من الصعب أن نحسم: هل كان يتابع لعب دور المهرّج أم كان حقاً في حالة من الانفعال؟

نظر إليه الناسك وقال له مبتسماً:

ـ أنت بذاتك تعرف... منذ زمن طويل، ماذا ينبغي أن تعمل، فأنت بالغ الذكاء: لا تستسلم للسكر وللفجور، وتحاش البذخ وعبادة المال، وأغلق حوانيت بيع الخمرة، وإذا كنت لا تستطيع إقفالها كلها فاغلق اثنين منها أو ثلاثة، وخاصة، نعم خاصة، لا تكذب.

ـ يعني أنك تشير إلى ديدرو ذاك؟

ـ لا... ليس بالضبط ديدرو. فلا تكذب على نفسك، فالذي يكذب على نفسه ويستمع إلى كذبه يصل إلى عدم رؤية الحقيقة، لا في ذاته ولا في من حوله. إذاً، ينتهي إلى فَقْد احترامه نفسه واحترامه الآخرين. وإذا كان لا يحترم أحداً، يتوقف عن الحبّ، وإن أصبح بدون حبّ، يندفع في أهوائه وراء الملذات الدنيئة فيصل إلى درجة الحيوانية الكاملة؛ وهذا كله، لا ينتج إلّا من الكذب المستمر على الآخرين وعلى نفسه. إنّ مَنْ يكذب على نفسه هو أول من يشعر بأنه مهان. لأنه ثمة لذة ما، أحياناً، بأن يشعر المرء بأنه مهان. أليس

كذلك؟ يشعر الرجل أنَّ ما من أحد قد أهانه وإنما هو الذي اخترع إهانته بنفسه، وأنه كَذِب لتجميل الأمور. وبالغَ وحده تزييناً لوضعه. وتعلَّق بكلمة ليجعل من الفأرة جملاً. إنه يعرف ذلك جيداً، وبالرغم من ذلك، يسارع إلى إهانة ذاته، ويهين نفسه إلى حد التلذذ، والشعور بالفرح، ومن هنا بالذات يصل، هو يهينها إلى الشعور بحقد حقيقي... ولكن، إنهضْ عن الأرض، أرجوك، إجلس أرجوك، كلّ ما تقوم به ليس سوى حركات كاذبة...

ـ أيها الإنسان المبارك! إسمح لي أن أقبِّل يدك! قال فيودور بافلوفتش وهو يطبع قلبةً رنانة على يد الناسك الهزيلة. تماماً، تماماً. ثمة لذة أن يكون المرء مهاناً. لقد أحسنتَ قول ذلك. أنا لم أسمع أبداً مثل هذا الكلام. بقيت طوال حياتي أهين نفسي طلباً للذّة، بل طلباً للجمال أهنت نفسي، لأنه ليس فقط شعوراً باللذة فحسب بل، أحياناً، من الرائع أن يكون المرء مهاناً. هذا ما نسيت أن تقوله، أيها الناسك العظيم! إنه جميل. سأدوِّن هذا في كتابي. لقد كذبت، لقد كذبت دائماً، طوال حياتي كلها، في كل ساعة من اليوم. أنا في الحقيقة كاذب، أنا أبو الكذب! مهلاً، لا أعتقد أنني أبٌ للكذب. أنا أخطىء دائماً في الاستشهادات، حسناً، أنا ابن الكذب، وهذا يكفيني. الكذب على ديدرو فقط هو أمر مسموح أحياناً! فديدرو لا يسيء إلى أحد، لكن هناك كلمات يمكن أن تسيء. أيها الناسك العظيم، بالمناسبة، لقد نسيت، لكنني كنت أنوي، منذ ثلاث سنوات، أن أستعلم، أجيء إلى هنا لأستوضح هذه المسألة بشكل واضح وجلي، أن، أطلبُ منك: قلْ، أولاً، لبيوتر ألكسندروفتش بأن لا يقاطعني. هذا ما كنت أريد أن أطلبه منك: هل صحيح، أيها الأب النبيل، أن كتاب سِيَر حياة القديسين يروي، لست أدري في أيّ موضع، لم أعد أعرف أي قديس صانع المعجزات، واستشهد في سبيل إيمانه، أنه في النهاية، عندما قطعوا رأسه،

نهض، وتناول رأسه، وقبَّله وملؤه المحبة، وسار مدّة طويلة، حاملاً إياه بيديه، وقبَّله. هل هذا صحيح، نعم أم لا؟ أجيبوني أيها الآباء الطيبون؟

ـ لا، ليس هذا صحيحاً. أجاب الناسك.

ـ لا يوجد شيء شبيه بهذا في كل سِيَر القديسين. فمن هو القديس الذي تقصده؟سأله راهب متوحد مسؤول عن المكتبة.

ـ أنا ذاتي، لا أعرفه. أنا أجهل القصة ولا أعرفها. لقد خدعتُ خطأً. سمعت أحدهم يقول لي، سمعته يروي القصة. وهل تعلمون من رواها لي؟ إنه بيوتر ألكسندروفتش هذا الذي ثار، هنا، بشأن قصة ديدرو! هو الذي روى لي هذه القصة(*).

ـ غير صحيح! أنا لم أروِ لك أبداً هذه القصة! ثم إنني لا أتحدَّث إليك أبداً!

صحيح، إنك لم تروها لي أنا، لكنك رويتها في اجتماع كنت أنا موجوداً فيه، حدث ذلك منذ ثلاث سنوات. لهذا السبب، أنا أرويها، لأنك بتلك القصة المضحكة زعزعت إيماني، يا بيوتر ألكسندروفتش. أنت لم تعرف ذلك. ولم تكن على علمٍ بذلك. لكنني عدت إلى منزلي وقد تزعزع إيماني. منذ ذلك اليوم، وكل يوم بعده، أتزعزع أكثر. نعم، يا بيوتر ألكسندروفتش، أنت كنت السبب في سقوطي الكبير! هذا هو السبب وليست قصة ديدرو، أليس صحيحاً؟

راح فيودور بافلوفتش يتكلم بلهجة شعرية مؤثّرة، رغم أنه كان واضحاً للجميع، في هذه المرة، أنه يهرِّج. ومع ذلك، فقد تأذى ميوسوف.

ـ يا للسخافات، وهذه أيضاً كلها سخافات. دمدم قائلاً. صحيح، حسناً،

(*) يقصد فيودور بافلوفيتش قصة القديس دنيز الذي لا يُذكر في سير القديسين الأرثوذكس.

ربَّما، ذات يوم، قد رويت شيئاً من هذا النوع. لكن، هذه أيضاً أخبروني إياها. فقد سمعتها في باريس، من أحد الفرنسيين، مثلما يزعمون عندنا، أن سِير القديسين يقرأونها أثناء الذبيحة الإلهية... إنه رجل مثقف جداً، درس، بشكل خاص، علم إحصائيات روسيا... عاش مدة طويلة فيها... أنا شخصياً، لم أقرأ سِير حياة القديسين... ولن أقرأها... الله وحده يعلم ماذا يُروى على مائدة الطعام!... كنا نتناول الطعام حينذاك...

ـ أجل، أنت، كنت تتناول الطعام، وأنا فقدت إيماني! تابع فيودور بافلوفتش ساخراً منه.

ـ ما شأني وإيمانك! صاح ميوسوف، لكنه، فجأة عاد إلى هدوئه وقال باحتقار: أنت تدنّس كلَّ ما تلمسه.

نهض الراهب الناسك فجأة من مقعده:

ـ المعذرة، أيها السادة، سأترككم بضع دقائق، قال، متوجهاً إلى جميع زوّاره، فهناك آخرون ينتظرونني وقد وصلوا قبلكم، وأنتَ، بالرغم من كل شيء، لا تكذبْ، قال متوجهاً إلى فيودور بافلوفتش وعلى وجهه تعبير من البهجة.

خرج من الغرفة فأسرع أليوشا والمبتدىء ليساعداه على هبوط السلَّم، كان أليوشا يلهث، كان سعيداً بأن الناسك قد انصرف ولم يُهنْ وبدا مرحاً. وتوجّه الراهب الناسك باتجاه الرواق ليبارك الذين ينتظرونه. لكن فيودور بافلوفتش أوقفه، بالرغم من كل شيء، أمام باب الغرفة.

– يا صاحب الغبطة! قال بتأثّر، إسمح لي أن أقبِّل يدك مرة أخرى. معكَ، يستطيع المرء أن يتفاهم وأن يحبّ الحياة! هل تعتقد أنني أكذب دائماً وألعب

دور المهرِّج؟ إعلمْ، أنّ كلَّ ما فعلت هنا، كان عمداً، لكي أختبرك، وأتأكد من أنه يمكن العيش معك، مثّلت هذا الدور. وإذا كان شخصي المتواضع يمكن أن يؤكد ذاته في جوار كبريائك؟ والآن، أشهد لك: نعم، يمكن العيش معك، والآن، سأسكت، سألتزم الصمت طوال ما تبقَّى من الوقت. سأجلس على المقعد، وأسكت، والآن، جاء دورك في الكلام يا بيوتر ألكسندروفتش، الآن، أنت الرجل الأول... لمدة عشر دقائق.

III

النساء الثرثارات المؤمنات

في الأسفل، بالقرب من الرواق الخشبي الملاصق للحائط الخارجي من السور، احتشد جمهور ليس فيه إلّا نساء كنَّ عشرين ثرثارة. ينتظرنَ خروج الناسك لمقابلتهن فاحتشدن لانتظاره، وقد خرجت معهن السيدتان خوخلاكوفا وذهبتا إلى المكان المخصص للزوار النبلاء. كانتا اثنتين: الأم وابنتها. السيدة خوخلاكوفا الأمّ امرأة غنيّة ترتدي ملابس أنيقة، ولا تزال شابة وغايةً في الجمال، شاحبة الوجه قليلاً، لها عينان حادتان توشكان أن تكونا سوداوين. لم تتجاوز الثالثة والثلاثين. وقد أصبحت أرملة منذ خمس سنوات. أما ابنتها، وهي في الرابعة عشرة من العمر، فهي مصابة بشلل في الساقين. صبيَّة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر، وهي الآن تُدفع على كرسيّ طويل متحرك. لها وجه صغير جميل قد هزل قليلاً بسبب المرض لكنه بشوش دائماً، عيناها كبيرتان سوداوان لهما أهداب طويلة فيهما بريق من الدهاء. كانت أمّها تنوي، منذ فصل الربيع، أن تصطحبها إلى الخارج، لكنَّ أعمالاً بوشر بها في أرضهما أجبرتهما على البقاء حتى فصل الصيف. كانتا تقيمان في مدينتنا، منذ أسبوع، لقضاء بعض الأعمال لا لزيارة الدير. غير أنهما قامتا بزيارة الراهب

الناسك، قبل ثلاثة أيام؛ وعادتا، الآن، رغم أنهما تعلمان أن الراهب الناسك لا يستطيع أن يستقبل أحداً. توسَّلتا، بأن «تنعما برؤية العجائبي الكبير»، مرة أخرى.

بانتظار وصول الراهب الناسك، كانت الأم جالسة على كرسيّ بالقرب من كنبة ابنتها، وعلى مسافة خطوتين منهما راهب عجوز ينتظر واقفاً، جاء، هو أيضاً، ليس من هذا الدير، بل من منسكٍ بعيد وغير معروف من الشمال. هو أيضاً، كان يريد أن يباركه الراهب الناسك. لكن هذا الأخير ظهر في الرواق واتجه مباشرة نحو الشعب. كان الجمهور محتشداً أمام درج المدخل، على بُعد ثلاث درجات تصل الرواق الواطىء بالحقل. وقف الناسك العجوزعلى الدرجة العليا وقد تلفّح بجبّته وبدأ يبارك النساء اللواتي تجمهرن أمامه. قدَّموا إليه في البدء امرأة «مولولة» يمسكونها من ذراعيها. وهذه الأخيرة، ما إن رأت الراهب الناسك، حتى أخذت، تطلق صرخات رهيبة و«تحوذق» وترتجف وكأنها تعاني أزمة تشنّج. فوضع الراهب الناسك جبَّته على رأسها، وقرأ صلاة قصيرة فهدأت وسكتت فوراً. لست أدري ماذا يحدث في أيامنا، ولكنه، أثناء طفولتي، قد أتيح لي مراراً أن أرى وأسمع هذه «المولولات» في القرى وفي الأديرة. كان يؤتى بهنّ إلى الذبيحة الإلهية، وكان صراخهنّ وعويلهن الذي يشبه عويل الكلاب، يملأ أرجاء الكنيسة. لكن عندما يرين القربان المقدس ويُقرَّبن منه يتوقف «المسّ» فوراً، ويهدأ المرضى لبعض الوقت. وأنا، عندما كنت طفلاً، كان ذلك يترك في نفسي أثراً قوياً ويدهشني. لكنني كنت أسمع من، بعض الملّاكين ومعلّمي مدرستي في المدينة، أن ذلك ليس إلّا تمثيلاً كاذباً لكي لا تعمل هؤلاء النسوة، وأن من الممكن دائماً ردُّهنَّ إلى الصواب

باستخدام القسوة. وتؤكد ذلك حكايات مضحكة كثيرة. وبعد ذلك، علمت من أطباء اختصاصيين كثيرين أن الأمر ليس تمثيلاً كاذباً بل هو مرض نسائي رهيب، يبدو أنه منتشر عندنا في روسيا، وأنّ سببه المصير المضني للنساء الفلّاحات عندنا. إنه مرض ناتج من الأعمال المرهقة التي تُفرض على المرأة بعد الولادات العسيرة بسبب سوء العناية الطبية. بالإضافة إلى ذلك، ينتج من الضرب المبرح، الخ، لأن بعض النساء لا يستطعن تحمُّله.أما ذلك الشفاء العجيب الفوري للمرأة «الممسوسة» والمزبدة، عند اقترابها من القربان المقدس، الذي يفسّره بعضهم بالتظاهر الكاذب، وبخداع مقصود، يقوم به «رجال الدين» أنفسهم، فهو يحصل على الأرجح بشكل طبيعي جداً، والنساء اللواتي يدنين الممسوسات من القربان المقدس، والممسوسة نفسها بصورة خاصة، هنَّ مؤمنات بعمق، كحقيقة راسخة، بأنّ الروح الخبيثة التي تملَّكتهنّ لا تحتمل أن تقترب المريضة منها. لهذا السبب، يحدث دائماً (ويجب أن يحدث) في هذا المرض العصبي والنفسي أيضاً، لدى المرأة المريضة، نوع من الاضطراب أمام القربان المقدس، اضطراب ناتج عن توقُّع معجزة وشيكة الحدوث للشفاء، وعن الإيمان الكلّي في أعماقها بأن الشفاء سوف يحدث حتماً. كان يحدث الشفاء ولكن إلى حين قصير. وهذا، ما حدث تماماً عندما غطّى الراهب الناسك المريضة بجبَّته.

كثيرات النساء اللواتي تجمهرنَ حول الناسك، كانت تنهمر من أعينهنَّ دموع التأثر والانخطاف في تلك اللحظة، وأخريات أردنَ أن يقبّلنَ ولو طرف ثوبه، وبعض منهنَّ ينتحبن بصوت خفيض. بارك الراهب العجائبي كلَّ امرأة منهنَّ وتحدَّث مع بعضهنَّ. كان يعرف «المولولة» التي جاؤوا بها إليه من بعيد، من قرية تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير، سبق أن جاؤوا بها إليه.

أنظروا، هذه امرأة جاءت من مكان بعيد! قال الراهب الناسك وهو يشير إلى امرأة أخرى لم تبلغ الشيخوخة بعد، لكنها تبدو نحيلة ومنهكة، لها وجه ليس ملوَّحاً لكنه مسودّ كلياً. كانت راكعة تحدّق إلى الراهب الناسك بنظرة جامدة وفي نظرتها شيء من الجنون.

ـ أجل، يا أبتي الطيب، أنا قادمة من مكان بعيد، من مكان بعيد يبعد عن هنا ثلاثمئة فرسخ، من بعيد، يا أبتي، من بعيد، قالت المرأة بنبرة غنائية مع ترجيح متواتر للرأس، ويدها تسند خدّها. كانت تتكلم بلهجة أقرب إلى النحيب الطقوسي. إن بين فئات الشعب بلاء صامتاً، وصبوراً، يدخل في ذاته ويسكت. لكن، هناك أيضاً شقاء متفجِّر يبدأ، أولاً، بالدموع، وفجأة يتابع النحيب. وهذه حالة عند النساء بصورة خاصة. لكنه ليس أقلَّ ألماً من الشقاء الصامت. إن النحيب لا يريح النفس إنما يثير الأعصاب ويمزق القلب أكثر فأكثر، ومثل هذا الشقاء لا يبحث حتى عن عزاء فهو لا يتغذى إلّا من حسِّه بأنه لا يرتوي. فالنحيب ليس إلّا حاجة لرشِّ الملح على الجرح بدون توقف.

ـ أقول من الطبقة الحرفيّة؟ تابع الراهب الناسك وهو ينظر إليها بفضول.

ـ من المدينة، يا أبتي، من المدينة، من طبقة الفلّاحين، لكن من المدينة، وفي المدينة نحن نسكن. ولكي أراك، يا أبتي، جئت. سمعناهم يتكلمون عنك، يا أبتي، نعم، سمعناهم. لقد دفنت طفلي الصغير، وذهبت أصلّي لله. ذهبت إلى ثلاثة أديرة، وإذا بهم يقولون لي: «إذهبي يا ناتاسيوشكا، إلى هنا أيضاً، إليكَ يا أبتي». جئت يوم أمس، تبعت القادمين وها أنا اليوم هنا.

ـ علامَ إذاً أنت تبكين؟

ـ أبكي أسفاً على طفلي الصغير، يا أبتي الطيب، كان له من العمر ثلاث سنوات إلّا ثلاثة أشهر. إنني أتعذَّب بسببه، ابني الصغير، يا أبتي، طفلي الصغير. كان آخر ما بقي لي من أبنائي الأربعة. كان لنا أنا وزوجي نيكيتوشكا

أربعة أبناء. إن أطفالنا لا يعيشون. صغارنا لا يصمدون، لا يصمدون. دفنت الثلاثة الأُول، وسرعان ما تعزيت عنهم بهذا الأخير الذي دفنته ومن المستحيل أن أنساه. يُخيَّل إليّ أنني أراه، هنا، أمامي، إنه حيّ. لقد يبَّس قلبي. أنظر إلى ملابسه، إلى قميصه الصغير، إلى حذاءيه الصغيرين، وأنتحب. أعرض كل ما تبقَّى منه، أشياءه الصغيرة، أتأملها، وأبكي. قلت لنيكيتوشكا، لزوجي: دعني أذهب، سيدي، إلى الحج. إنه حوذيّ، نحن، لسنا فقراء، يا أبتي. لسنا فقراء، لدينا عملنا نديره بأنفسنا: الخيول والعربة. وماذا يفيدنا الآن هذا كله؟ بدأ عزيزي نيكيتوشكا يفرط في الشراب منذ تركته. أنا متأكدة من ذلك. وهكذا كان من قبل. كلَّما أدرت ظهري يعود إلى الشراب. لكنني الآن لا أفكر فيه. تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر. نسيته. نسيت كل شيء. لا أريد أن أتذكره. كيف أبقى الآن معه؟ قطعت علاقتي به. أنهيت علاقتي بجميع الناس. نهائياً، نهائياً. لا أريد أن أرى منزلي الآن أبداً ولا رزقي. لا أريد أن أرى شيئاً.

ـ إسمعي أيتها الأم، أجاب الناسك، ذات يوم، رأى قديس من قديسي الماضي، في الهيكل، أمّاً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما فقدتِ ابنك الآن. ابنها الوحيد الذي دعاه الله إليه. قال لها القديس: «ألا تعلمين أن الأطفال الصغار يملكون جرأة عظيمة أمام عرش الله؟ ليس في الملكوت السماوي كله أحد أجرأ منهم. إنهم يقولون: «أيها الرب، أعطيتنا الحياة، فما إن رأيناها حتى استعدتها منا». يتوسّلون، ويلحون بجرأة أن يرفعهم الله فوراً إلى رتبة الملائكة. وقال لها القديس بعد ذلك: «أنتِ أيضاً افرحي ولا تبكي، لأنّ طفلك الصغير الآن هو عند الرب. إنه بين الملائكة». هذا ما قاله القديس للمرأة التي كانت تبكي ابنها فيما مضى. كان قديساً عظيماً لا يمكن أن يكذب على تلك المرأة. إعلمي هذا، أنتِ أيضاً، أيتها الأم الطيبة، أنَّ طفلك الآن هو أمام عرش الله. إنه سعيد وفرح. وصلّي لله من أجله. إذن، لا تبكي بل ابتهجي.

كانت المرأة تصغي إليه مسندة خدَّها إلى راحة يدها، وعيناها منخفضتان، ثم أطلقت تنهيدة عميقة.

كان نيكيتوشكا يعزِّيني هكذا تماماً، كلمة بكلمة، مثلك أنت. يقول لي: «أنتِ لست عاقلة؟ يقول لي: لماذا تبكين، فابننا الصغير، في هذه الساعة، هو بدون شك، أمام الله سيّدنا؛ إنه يرتّل مع الملائكة». كان يقول لي هذا الكلام، ويبكي هو نفسه، كنت أراه يبكي مثلما أبكي أنا. قلت له: «أعرف ذلك، يا نيكيتوشكا، وأين يمكن أن يكون إن لم يكن عند الله في هذه الساعة؟ ولكنه ليس عندنا، يا نيكيتوشكا، ليس معنا، ليس هنا، كما كان يجلس! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى صغيرة، مرة واحدة لا أكثر، لن أذهب إليه، لن أقول شيئاً، سأنزوي في زاوية وأصمت، دقيقة واحدة فقط، وإن رأيته وإن سمعته، وهو يلعب في فناء المنزل، ويناديني بصوته الضعيف كما كان يفعل من قبل: «ماما، أين أنتِ؟»». ليتني أستطيع أن أسمعه مرة واحدة صغيرة وهو يدخل الغرفة على قدميه الصغيرتين، هنا، بُكْ، بُكْ، وبسرعة، وبسرعة، وهكذا بسرعة، أتذكَّر كيف كان يأتي إليَّ صائحاً ضاحكاً. ليتني أستطيع أن أسمع وقع خطواته الصغيرة، أسمعها، نعم، أعرفها». ولكن لا، إنه ليس هنا، يا أبتي الطيب، لن أسمعه بعد اليوم أبداً! أنظرْ، هذا حزامه الصغير، أما هو فليس هنا، ولن أراه بعد الآن أبداً، أبداً. ولن أسمعه بعد الآن أبداً!...

وأخرجت من تحت قميصها، الحزام الصغير المزخرف، حزام طفلها الصغير، فما إن رأته حتى تملكها النشيج، فأطبقت أصابعها تخفي عينيها. وانهمرت، فجأة، دموعها كالجدول المتدفق.

ـ «هذه راشيل القديمة، تبكي أطفالها، ولا تريد أن يعزّيها أحد، لأنهم

ما عادوا موجودين»(*). تلك هي حالتكنَّ أيتها الأمهات على هذه الأرض. لا تتعزّي، لست بحاجة إلى أن تتعزي؛ لا تتعزّي، وابكي، في كل مرَّة تتذكرين أن طفلك الصغير هو ملاك بين ملائكة الله، وأنه ينظر إليك من علياء السماء، ويراكِ، ودموعك تفرحه ويريها لله. نعم، هذا البكاء الأمومي العظيم سيستمر طويلاً ولكنه سوف يستحيل في النهاية إلى فرح هادىء. ودموعك المرَّة سوف تصبح دموع الشعور بالسلام ونقاوة القلب، تلك التي تخلِّص من الخطايا. حسناً، أما ابنك الصغير، فسأصلي من أجله. ماذا كان اسمه؟

ـ ألكسي، يا أبتي الطيب.

ـ اسم حبيب، القديس ألكسي، رجل الله.

ـ ما أعظمه من قديس. سوف أصلّي من أجلك أنتِ، أيتها الأم، سوف أصلّي. وسوف أذكر حزنك في صلاتي. وسوف أصلّي أيضاً من أجل زوجك. لكنّ هجرك إياه خطيئة، عودي إلى زوجك واسهري عليه. إن ابنك عندما يرى من عليائه أنك تركت أباه سوف يبكي عليكما. لماذا تعذبينه؟ إنه حيّ، حيّ، لأن الروح حيّة إلى الأبد. وإن غاب عن المنزل فهو قريب منك غير مرئي. فكيف يمكنه الدخول إلى المنزل إذا كنت أنت قد تركت منزلك؟ من عساه يزور إن لم يستطع أن يجد أمه وأباه معاً؟ لن يجدكما أبداً. سيظهر لك في أحلامك اليوم فتتألمين فارجعي إلى منزلك ليرسل إليك أحلاماً جميلة! ارجعي إلى زوجك، أيتها الأم، ارجعي إليه اليوم بالذات.

ـ سأرجع، أيها الأب، سأرجع، وسأتّبع نصيحتك! لقد قرأتَ كلَّ ما في قلبي! يا عزيزي نيكيتوشكا، يا عزيزي نيكيتوشكا، أنت تنتظرني، يا حبيبي، تنتظرني! عادت المرأة إلى شكاواها، لكنّ الراهب الناسك كان قد استدار

(*) متى، II، ١٨.

نحو عجوز قصيرة القامة، متغضنة، طاعنة في السنّ، لا ترتدي ملابس حاجَّة بل ثوباً كنساء المدينة، كان بإمكان المرء أن يرى في عينيها أنها جاءت لأمر محدَّد، وأنها تريد أن تقول شيئاً. عرَّفت عن نفسها أنها أرملة ضابط صفّ، تسكن، في الواقع قرب مدينتنا. لقد خدم ابنها فاسنكا، لست أدري أين، في مفوضية للشرطة، ثم رحل إلى إيركوتسك في سيبيريا. ومن هناك، كتب إليها رسالتين ثم انقطعت أخباره منذ سنة، ولم يعد يكتب إليها أبداً. أرادت أن تسأل عنه وأن تستعلم عن مصيره، ولكنها لا تعرف إلى من تتجه.

ـ إن ستيبانيدا إيلنيشنا بدرياغينا، وهي تاجرة غنية، قالت لي، «خذي، منذ اليوم بعض المال، يا بروخوروفنا، واحمليه إلى الكنيسة ليُقام قداس الموتى عن راحة نفسه، فيتذكرك ويشدّه الحنين إلى المنزل فيكتب إليك»... هذا ما قالته لي تلك المرأة. وقد أكدت ستيبانيدا إيلنيشنا أن هذه طريقة مضمونة نجحت دائماً. لكنَّ في نفسي شكوكاً، فقلْ لي، وأنت ضياؤنا، هل هذا صحيح أم لا، وهل سيكون ذلك جيداً؟

ـ لا تفكري في هذا الأمر أبداً! ألا تخجلين من طرحك عليَّ مثل هذا السؤال. كيف يمكن أن يُصلَّى على روح حيَّة؟ خاصة وأنتِ أمُّه؟ ليقام له قداس الموتى؟ إنها خطيئة عظيمة تشبه السحر! لكن سوف يُغفر لك بسبب جهلك. لا، صلِّي بالأحرى إلى ملكة السموات فهي نجدتنا الدائمة ودفاعنا، أن تسهر على صحته وأن تغفر لك هذه الفكرة الخاطئة. واسمعي ما سأقوله لك، يا بروخوروفنا؛ سيعود إليك بسرعة أو سيكتب إليك رسالة حتماً. كوني على ثقة. وانصرفي وكوني هادئة. إن ابنك حيّ. صدِّقيني.

ـ يا محبوبنا جميعاً، فليمنحك الله النعمة أيها المحسن إلينا، أنت يا مَن تصلّي من أجلنا جميعاً، من أجل خطايانا.

لكن الراهب الناسك لاحظ بين الجمهور فلاحةً ذات عينين ملتهبتين

تحدقان إليه، يبدو أنها مصابة بداء السلّ، لكنها لا تزال شابة. كانت تنظر بصمت وكأنّ عينيها تسألان شيئاً ما، وكانت تبدو كأنها تخشى أن تقترب.

ـ وأنتِ لماذا أتيت، أيتها الأخت اللطيفة؟

ـ أُنقذ حياتي، يا أبتي الطيب، قالت بصوت ناعم ومعتدل ثم ركعت وانحنت ساجدة عند قدميه. لقد أخطأت، يا أبتي الطيب، وأنا خائفة من خطيئتي.

جلس الراهب الناسك على الدرجة السفلى، واقتربت المرأة منه دون أن تنهض.

ـ أنا أرملة منذ ثلاث سنوات. قالت بصوت شبيه بالهمس وهي ترتجف، كنت قاسية. كان هرماً وكان يضربني بعنف. وعندما وقع مريضاً، نظرت إليه وقلت في نفسي: «إذا شفي من مرضه ونهض من جديد، ماذا سيحدث؟ عندئذ، خطرت ببالي تلك الفكرة»...

ـ انتظري لحظةً، قال الناسك، ودنا منها ووضع أذنه على شفتيها.

تابعت المرأة بهمس خافت لا يكاد يُسمع منه أيّ شيء. وانتهت بسرعة.

ـ أهذا منذ ثلاث سنوات؟ سأل الراهب الناسك.

ـ نعم، منذ ثلاث سنوات. في البداية، لم أكن أفكر في الأمر، أما الآن، فبدأت أقضم ذاتي ويعتريني القلق.

ـ هل جئت من مكان بعيد؟

ـ من مسافة خمسمئة فرسخ من هنا.

ـ هل ذكرت هذا في الاعتراف؟

ـ ذكرته، ذكرته مرتين.

ـ وهل قبلوا أن تتناولي القربان المقدس؟

ـ قبلوا. أنا خائفة، خائفة من الموت.

ـ لا تخافي شيئاً، ولا تخافي أبداً. ولا تندبي نفسك. المهمّ ألَّا تتخلَّي عن الندامة، فالله يغفر كلّ شيء. ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن تكون على هذه الأرض خطيئة لا يغفرها الله لمن ندم عليها بصدق. ثم إن الإنسان لا يمكن أن يقترف خطيئة عظيمة تستنفد حبَّ الله اللامتناهي. وهل يمكن أن توجد خطيئة تتجاوز حبَّ الله؟ لا تهتمي إلا بالندامة، ندامتك في كل لحظة، واطردي من قلبك الخوف نهائياً. ثقي أن الله يحبك أكثر مما يمكنك أن تتصوري، حتى مع خطيئتك. إن خاطئاً واحداً يندم، له في السماء فرح أكبر من فرح عشرة بدون خطيئة، هكذا قيل منذ زمن بعيد. امضي إذاً. ولا تخافي. ولا تحقدي على الناس. إنسي الإساءات. اغفري في قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء. أقيمي معه سلاماً حقيقياً. إذا ندمت تشعرين بالحبّ. وإذا أحببتِ فأنت لله... إن الحبّ قادر على كل شيء، ينقذ كل شيء. وإن كنت أنا الخاطىء مثلكِ أشاركك ألمك وشكواكِ، فكيف يكون الله؟ إن الحبّ كنز عظيم، يمكننا به أن نكسب الأرض بكاملها، وأن نكفِّر لا عن خطايانا نحن فحسب بل عن خطايا الآخرين أيضاً. انصرفي الآن، ولا تخافي.

ورسم إشارة الصليب عليها ثلاث مرات متتالية، وانتزع إيقونة صغيرة مقدسة من عنقه فوضعها في عنقها هي. هي، ودون كلام، انحنت لامس وجهها الأرض. فنهض ببطء، وأشرقت نظرته حين رأى امرأة تفيض عافية، وهي تحمل طفلها بين ذراعيها.

ـ أنا من فيشغورييه، يا أبتي الطيب.

ـ من مسافة ستة فراسخ، غير مهمّ، لقد أرهقك التعب مع طفلك الصغير، ماذا تريدين؟

ـ جئت لكي أراك فقط. لقد سبق أن جئت إليك، ألا تتذكر، أم أنك نسيتني؟ إذن، ذاكرتك ليست قوية، إذا كنت قد نسيتني. سمعت أنك كنت

مريضاً، فقلت، حسناً، سأذهب لأراه. وها أنا ذا أراك. فكيف قالوا إنك لست على ما يرام؟ ستعيش من أجلنا عشرين سنة أخرى، أقسم بأن الله يحرسك! ومع كل هؤلاء الناس الذين يصلُّون من أجلك، فكيف يمكن أن تكون مريضاً؟

ـ أشكرك، من كل قلبي، أيتها المرأة اللطيفة.

ـ بالمناسبة، لديَّ طلب صغير. إليك خمسين كوبيكاً، فأعطها، يا أبتي اللطيف، لامرأة أخرى أكثر فقراً مني. وصلت إلى هنا، وقلت لنفسي: «من الأفضل أن أهب المال بواسطته فهو يعرف مَن التي تستحقها».

ـ شكراً، أيتها الطيبة، شكراً، أنا أحبك. سوف أفعل ما تطلبين. هل طفلك الذي تحملين هو بنت؟

ـ بنت صغيرة، أيها المبارك، واسمها ليزافيتا.

ـ فليبارككما الله أنتما الاثنتين، أنت وطفلتك ليزافيتا. لقد أفرحت قلبي، أيتها الأم، وداعاً يا عزيزاتي، وداعاً أيتها المحبوبات، يا صديقاتي الطيبات.

باركهنَّ جميعاً وانحنى، بعمق، أمامهنَّ.

IV

سيّدة ضعيفة الإيمان

إن الزائرة سيدة، ملَّاكة عقارية، كانت تراقب كل هذا المشهد من محادثة الشعب البسيط ومباركته، وتذرف دموعاً خرساء تمسحها بمنديل صغير. كانت سيدة مجتمع، حساسة جداً، وصادقة، من وجهات نظر عديدة، وذات ميولٍ حسنة. فعندما اقترب الناسك منها، أخيراً، استقبلته بكثير من التعظيم.

ـ لقد انفعلت كثيراً عندما رأيت هذا المشهد المؤثر... قالت متأثرة ولم تكمل جملتها. أعرف أن الشعب يحبك. وأنا، أيضاً، أحب الشعب، وأرغب في أن أحبَّه، وكيف لا يحب المرء الشعب، شعبنا الروسي الطيب، البسيط في عظمته!

ـ كيف حال ابنتك؟ كنت ترغبين في التحدث إليّ مرة جديدة؟

ـ لقد طلبت ذلك بإلحاح شديد. وتوسَّلت، وكنت مستعدة أن أركع، وأن أبقى راكعة ثلاثة أيام تحت نوافذك لكي تستقبلني. لقد جئت لرؤيتك، أيها الشافي العظيم، لأعبِّر لك عن تأثرنا بالتعرف إليك، لأنك شفيت ابنتي ليزا، شفيتها شفاءً كاملاً، وكيف؟ لأنك يوم الخميس أقمتَ صلاة من أجلها ووضعت يديك عليها، هاتين اليدين اللتين كنَّا متلهّفين لتقبيلهما، ولكي نبدي لك عواطفنا واحترامنا!

ـ كيف شفيتُها وهي لا تزال على كرسيِّها؟

ـ لقد زالت حمَّى الليل عنها نهائياً، منذ يومين، منذ يوم الخميس؛ قالت السيدة مبادرة وبعصبيّة. بالإضافة إلى ذلك، أصبحت ساقاها أقوى. وهذا الصباح، نهضت بكامل عافيتها، وقد نامت طوال الليل؛ أُنظْر كم صحتها جيدة؛ وعيناها الصغيرتان تلمعان. قبل ذلك، لم تكن تكفّ عن البكاء، والآن، تضحك وهي فرحة وملؤها السعادة. اليوم، ألحت بإصرار مطلق بأن نتركها تقف على رجليها، وبقيت واقفة وحدها دقيقة كاملة بدون أي سند. وأقسمت لي بأنها، بعد أسبوعين من الآن، سوف ترقص رقصة سريعة. استشرت طبيبنا هرزنستوب، فهزَّ كتفيه وقال: هذا مدهش، أنا لا أفهم شيئاً. وتريد منا ألَّا نأتي إليك لنزعجك، أن لا نطير إلى هنا لنشكرك؟ أشكريه، يا ليزا، اشكريه!

اتخذ وجه ليزا الصغير اللطيف الضاحك هيئة الجدّ، وفجأة، نهضت عن كرسيّها، نصفياً، قدر ما استطاعت، ونظرت إلى الراهب الناسك ضامَّة يديها الصغيرتين أمامه؛ لكنها لم تستطع أن تضبط نفسها، فانفجرت فجأة ضاحكة...

ـ هو السبب، هو السبب! قالت مشيرة إلى أليوشا خجولة غاضبة كطفلة صغيرة لم تعرف كيف تسيطر على نفسها، وانفجرت ضاحكة.

ولو نظر أحد إلى أليوشا الذي كان واقفاً وراء الراهب الناسك، على مسافة خطوتين منه، للاحظ الاحمرار السريع الذي تلَّون به وجهه وغطَّى خدَّيه في لحظة. وأطلقت عيناه وميضاً ثم انخفضتا.

ـ لديها رسالة لك، يا ألكسي فيودوروفتش... كيف حالك؟ قالت الأم متوجهة فجأة إلى أليوشا مادَّةً يدها الفتَّانة المغطاة بقفّاز. استدار الراهب، فوراً، نحو أليوشا، وحدَّق فيه. فاقترب هذا الأخير من ليزا ومدَّ إليها يده وهو يتصنَّع ابتسامة غريبة ومرتبكة. فاتخذت ليزا هيئةً جدّية، وقالت له وهي تناوله ورقة صغيرة:

ـ طلبت مني كاترينا إيفانوفنا بأن أسلّمك هذه. وهي ترجوك، بإلحاح، أن تمرَّ بها، وبأسرع ما يمكن، تريد أن تراك حتماً وتأمل ألّا تخيّب أملها.

ـ تطلب مني أن أزورها؟ في منزلها؟ أنا... لماذا؟ دمدم أليوشا بدهشة واضحة. وأصبح وجهه مهموماً.

ـ يتعلق الأمر بديمتري فيودوروفتش طبعاً... وبهذه الأحداث الأخيرة كلها، قالت الأم؛ لقد اتخذت كاترينا إيفانوفنا، الآن، قراراً في هذا الشأن... ولهذا السبب تريد أن تراك... لماذا؟ طبعاً، أجهل ذلك... ولكنها طلبت أن تراك بأقصى سرعة ممكنة. ستزورها، أليس كذلك؟ ستزورها حتماً، إنها مسألة واجب مسيحي.

ـ إنني لم أرها إلا مرة واحدة! قال أليوشا وهو فريسة الدهشة بالذات.

ـ ولكنها إنسانة نادرة وصعبة المقابلة... ولو ليس إلا بسبب ما قاست من آلام... فكِّر في ما عانته ولا تزال تعانيه حتى الآن، وفي ما ينتظرها أيضاً... كلّ هذا رهيب، رهيب!

ـ حسناً. سأذهب. قال أليوشا بعد أن تصفَّح الرسالة المقتضبة الملغَّزة التي لا تحتوي على أيّ توضيح أو تفسير.

صاحت ليزا، فجأة، وقد غمرتها الحماسة:

ـ أوه! كم سيكون ذلك لطيفاً ورائعاً من قِبلك. أنا، قلت ذلك لأمي: لن يذهب، حتماً، سوف يرفض، لقد اختار خلاصه في الدير. آه، كم أنت رائع، أجل رائع. أنا، في الحقيقة، فكَّرت دائماً أنك رائع. ويسرُّني أن أقول لك ذلك الآن.

ـ ليزا! تدخلت الأم قائلة بلهجة صارمة، مما لم يمنعها من الابتسامة فوراً. لقد نسيتنا، يا ألكسي فيودوروفتش، أنت ترفض أن تزورنا. ومع ذلك، قالت لي ليزا، مرتين، إنها لا تشعر بالارتياح إلا معك.

رفع أليوشا عينيه المنخفضتين، واحمرَّ وجهه مجدداً مرة أخرى، فجأة، دون أن يعرف هو نفسه لماذا، وضحك. كان الراهب الناسك لا يراه. كان قد بدأ حديثاً مع الراهب المارّ بالمدينة الذي كان ينتظر، كما سبق أن قلنا، قرب مقعد ليزا. كان واضحاً أنه راهب من أولئك العاديين جداً، أي واحد من الشعب، يملك أفكاراً محدودة ثابتة، لكنه مؤمن على طريقته الخاصة ومتصلب الرأي. ذكر للراهب الناسك أنه آتٍ من هناك، من الشمال البعيد، من أوبدورسك، من دير فقير جداً في سان سلفستر فيه تسعة رهبان. باركه الراهب الناسك ودعاه أن يزوره في غرفته متى أراد ذلك.

ـ كيف تجرؤ أن تقوم بأعمال مماثلة؟ سأله الراهب فجأة وهو يشير إلى ليزا برصانة وأبّهة، وكان يلمِّح إلى «شفائها».

فقال له الراهب الناسك:

ـ لم يحن بعد الوقت للحديث عن الشفاء. ليس التحسن شفاء تاماً، ربَّما كان مردّه إلى أسباب أخرى. وإذا كان ثمة شيء فليس الأمر إلّا قوة تصدر عن الإرادة الإلهية. كل شيء يتم بإرادة الله. تعال زرني، أيها الأب، أضاف قائلاً إلى الراهب: إنني مريض وأعرف أن أيامي معدودة.

ـ لا. لا. لن يحرمنا الله منك! ستعيش طويلاً، طويلاً جداً. صاحت الأمّ. وممّا تشكو؟ إنك تبدو بصحة جيدة، وفرحاً وسعيداً.

اليوم، أشعر أن حالتي أفضل بشكل لا يصدَّق، ولكني أعرف أن هذا لن يدوم أكثر من دقيقة، أعرف الآن مرضي معرفة تامة. وإن بدوت لكِ فرحاً فلا شيء يمكن أن يفرحني أكثر مما فرحت بملاحظتك هذه. لأن البشر إنما خلقوا للسعادة، والذي يشعر بالسعادة الكاملة، له الحقّ أن يقول: «لقد حققت وصية الله على هذه الأرض». إن جميع الأتقياء وجميع القديسين وجميع القديسين الشهداء، كانوا جميعاً سعداء.

ـ ما أجمل كلامك، وما أروع هذه المعاني الجريئة والسامية، صاحت الأم؛ تتكلم فتخترق كلماتك قلوبنا، ومع ذلك، فالسعادة، السعادة ـ أين هي؟ من يستطيع أن يقول إنه سعيد؟ يا من تكرّمت فأتحت لنا رؤيتك اليوم، مرة جديدة، إسمع كلّ ما أستطيع قوله، في المرة الأخيرة، لم أجرؤ أن أتحدث عنه! كلّ ما يعذبني كثيراً ومنذ زمن طويل، طويل! إنني أتألم، سامحني، إنني أتألم... وفي نوعٍ من الانفعال الملتهب المتشنج ضمَّت يديها أمامه.

ـ مِمَّ تتألمين، بشكل خاص؟

ـ إنني أتألم... لأنني لا أؤمن...

ـ ألا تؤمنين بالله؟

ـ لا، لا، إني لا أتجرأ حتى أن أفكر في هذا، ولكن في الحياة الآخِرة، فذلك لغز! وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يجيب عن هذه المسألة! اسمع: أنت إنسان تشفي المرضى وتعرف النفس البشرية، لا أجرؤ أن أزعم، طبعاً، أنك تصدقني كلياً، ولكنني أؤكد لك، أقسم لك علناً، بأن ليست الخفّة هي التي تدفعني للكلام، الآن، بل فكرة الحياة الآخرة هذه، بعد الموت، هي التي تقلقني أكثر مما تعذبني، ترعبني وتخيفني... ولم أعرف إلى من أتجه طوال حياتي... لكنني الآن أتجرأ وأتوجَّه إليك... أيها الرب! ما عساك تظنّ بي الآن! ورفعت ذراعيها نحو السماء.

ـ لا تهتمي برأيي، أجاب الراهب الناسك، أنا مقتنع تماماً بصدق قلقك.

ـ كم أنا شاكرة لك! أغمض عينيَّ وأفكّر، وأقول لنفسي: «إذا كان كل البشر يؤمنون، فمن أين يأتي ذلك؟ وهنا، يؤكدون أن هذا ينشأ من الخوف من ظواهر الطبيعة المهدِّدة، وأن لا شيء من ذلك موجود. «ماذا، أقول لنفسي، أنا التي آمنت طوال حياتي، سأموت ولا يبقى مني بعد الموت شيء إلّا القليل من العشب الذي سوف ينبت على قبري»؛ كما قرأت لأحد الكتَّاب. ذلك أمر

مرعب! فكيف، كيف أعود إلى الإيمان؟ وأنا لم أؤمن إلّا عندما كنت طفلة صغيرة بشكل آليّ دون أن أفكر في شيء... فكيف السبيل إلى البرهان على ذلك، اليوم. جئت أسألك بكل تواضع وأركع أمامك. فإذا ضاعت مني هذه المناسبة اليوم، فلن يستطيع أحد أن يجيبني طوال حياتي. كيف يمكن اذن البرهان على ذلك، بأي شيء أقتنع؟ ما أشقاني، أنا هنا، وأرى من حولي كل العالم يهزأ بي، كل العالم تقريباً. فما من أحدٍ يقلقه هذا الأمر، وأنا وحدي لا أستطيع أن أتحمل. إنه أمر قاتل، أمر قاتل!

ـ هو قاتل، بدون أي شك، لكن لا سبيل إلى البرهان إطلاقاً، حتى ولو كان الاقتناع ممكناً.

ـ كيف؟ بأي طريقة؟

ـ بتجربة الحب النشط. حاولي أن يكون حبك لقريبك فعالاً وبدون كلل. كلما ازددت حباً اقتنعت بوجود الله وبخلود نفسك. ومتى توصلت إلى التخلي التام عن نفسك في حبّك لقريبك، عندئذٍ، وبدون أي شك، تحصلين على الإيمان، ولا يمكن لأيّ شك بعد ذلك، أن يساور نفسك، تلك حقيقة مجرَّبة، وهذا أكيد...

ـ الحبّ النشط؟ هذه مسألة وأيّ مسألة! أنظر: إنني أحب البشرية إلى درجة أنني أحلم، أحياناً، بالتخلي عن كل شيء، كل شيء، صدِّقني، كلّ ما لديَّ، وأترك ليزا لأصبح واحدة من راهبات المحبة. أغمض عيني، أفكر، أتأمل، وبعد دقائق أشعر بقوة لا تقاوم. فلا يخيفني أي جرح أو أي ضيم. أخمد الجراح، أنظفها بيدي، أعمل ممرضة لهؤلاء التعساء، وأنا مستعدة لأقبّل جراحهم...

ـ إن هذا لكثير، وإذا كان فكرك يحلم بهذه الأشياء وليس بأشياء أخرى. ربما، عن طريق الصدفة، صحيح أنك ستفعلين ذات يوم عملاً جيداً.

ـ نعم، ولكن هل أستطيع أن أصمد طويلاً في مثل هذه الحياة؟ تابعت المرأة بحرارة تصل حدَّ الهيجان. هذا هو السؤال الرئيسي!

هذا هو السؤال الذي يعذبني أكثر من سواه. أغمض عينيَّ وأتساءل: هل سأصمد طويلاً في هذا الطريق؟ إذا لاحظت أن المريض الذي ستغسلين قروحه لا يعبِّر لك عن شكره وإنما هو يرهقك بنزواته، دون أن يقدِّر أو يلاحظ إخلاصك للإنسانية وحبّك لها؟ إذا هو شتمك، وأغلظ في القول، أو شكاك إلى سلطة (كما يحصل غالباً مع الذين يتألمون)، عندئذ، هل يستمر حبك، نعم أم لا؟ ولقد أجبت نفسي عن هذا السؤال، هل تتصوَّر؟ أجبت نفسي عن هذا السؤال بخوف: إذا كان ثمة شيء يمكن أن يطفىء فجأة حبّي «الفعال» تجاه الإنسانية، فذلك، لا يمكن أن يكون إلّا نكراناً للجميل. باختصار، أنا عاملة بأجر، وأريد أَجري فوراً، يعني أن أُجزى مديحاً وأن يُدفع أجر حبّي بحبّ مماثل، وإلّا فأنا غير قادرة على أن أحب أحداً!

كانت قد وصلت إلى حالة من جلْدٍ ذاتي غاية في الجدّية. وبعد أن أنهت كلامها، نظرت إلى الراهب الناسك بنظرة تحدٍ مصممة.

قال الناسك:

ـ ذلك بالضبط ما أخبرني إياه طبيب منذ زمن بعيد. كان ذلك الرجل مسنّاً ولا شك في ذكائه. وكان يتكلم بالصدق عينه مثلك، ولئن كان مازحاً فقد كان مزاحه حزيناً، قال لي: «أحب الإنسانية، لكنني مندهش أنا ذاتي. كلما ازداد حبّي للإنسانية عامة، نقص حبّي للبشر خاصة، أي فردياً، بصفتهم أشخاصاً مميزين». وكان يقول لي: «يحدث لي، غالباً، أثناء أحلامي، أن تتملكني حماسة جامحة في خدمة الإنسانية، وربما، في الحقيقة، أرتضي أن أُصلب من أجل البشر، إذا بدا هذا ضرورياً، بشكل أو بآخر. ومع ذلك، لو أُريد لي أن أعيش يومين متتاليين في غرفة واحدة مع أيّ إنسان، لما استطعت أن

أتحمل ذلك، إنني أعرف هذا بالتجربة. فكلما اقترب مني إنسان أحسست بأن شخصية تصدم ذاتي وتقسو على حريتي. أنا قادر، خلال أربع وعشرين ساعة، على أن أكره أفضل الناس: الأول لأنه يقضي وقتاً طويلاً في تناول الطعام على مائدته، والآخر لأنه مصاب بزكام ولا ينفك يمخط. إنني أصبح عدواً للناس كلما اقتربوا مني. ويضيف، بالمقابل، كان يحدث ذلك على ذلك النحو. وكلّما ازددت كرهاً للناس أفراداً، ازداد حبي للإنسانية جملةً.

ـ فما العمل إذن؟ ما العمل في مثل هذه الحالة؟ هنا، لا، ثمة ما يدعو لليأس؟

ـ كلا، يكفي الآن أن تشعري، من جراء ذلك، بأنك تعيسة. افعلي ما تستطيعين. وسوف يُحسب لك هذا. لقد فعلت منذ الآن كثيراً ما دمت استطعت أن تقرأي في سرِّك، بهذا الصدق كله وهذا العمق! وإذا كنت، في المقابل، لم تحدثيني بمثل هذا الصدق كما تفعلين، في هذه اللحظة، إلا لكي تتلقّي على صدقك مديحاً، وطبعاً، لكي تسمعي مني إطراءً على حبك للحقيقة، كما فعلت ذلك، فإنك لن تصلي، طبعاً، إلى شيء على طريق حبك «الفعال»، هنا، لن يبقى شيء إلا في أحلامك، وتنقضي حياتك كالسراب. ولكن، أتدرين، ستنسين أيضاً الحياة الآخرة، بل ستنتهين إلى أن يهدأ بالك بطريقة أو بأخرى.

ـ لقد دمَّرتني! الآن، أدركت، في هذه اللحظة بالضبط، التي كلَّمتني فيها، أنني لا أرغب إلّا في سماع مديحك على صدقي عندما أخبرتك أنني لن أتحمل نكران الجميل!

ـ أصحيح، حقاً، ما تقولين؟ إذن، اقتنعت بأنك صادقة وبأنّ لك قلباً طيباً. فإذا لم تبلغي السعادة، تذكري دائماً أنك على الطريق السليم، واجهدي ألّا تتركيه. واهربي من الكذب خاصة، كل أنواع الكذب، وبصورة خاصة، كذب

الإنسان على ذاته. راقبي كِذبك بالذات وافضحيه في نفسك ساعة بساعةٍ ودقيقة بدقيقةٍ؛ وتحاشي الاشمئزاز أيضاً، تحاشيه تجاه الآخرين وتجاه نفسك أيضاً: إن ما قد يبدو لك، في باطنك، شراً إنما يطهّره مجرّد ملاحظتك له. ابتعدي عن الخوف، فهو نتيجة الكذب. لا تخافي من جبنكِ في طريقك إلى الحب. وحتى أفعالك السيئة التي سوف تقومين بها، من أجل ذلك، حاولي ألّا تخافي منها، آسف لأنني لا أستطيع أن أقول لك ما يشجعك أكثر: لأن الحب الفعال، بالمقارنة بحبّ الأحلام، هو شيء قاسٍ ومخيف. فحبُّ الأحلام يحلم بتقدُّم سريع، ويحلم بأن كل الناس ينظرون إليه، حتى أنه يصل إلى التضحية بحياته شرط أن لا يستمر الأمر وقتاً طويلاً، وإنما يتمُّ بسرعة، كما على مسرحٍ، كل واحد ينظر ويصفِّق. أما بالنسبة إلى الحب الفعال فهو جهد وصبر. وهو، بالنسبة إلى البعض، كما أعتقد، علم حقيقي. ثقي، مع ذلك، أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها، مذعورة، وبرغم كل جهودك ليس لم تقتربي من الهدف فحسب وإنما ابتعدت عنه في تلك اللحظة أتوقع أنك ستبلغين هذا الهدف، وسترين بوضوح قوة الرب العجائبية في نفسك، هو الذي أحبك دائماً، وبالسرّ دائماً قد وجَّهكِ. اعذريني إذا كنت لا أستطيع أن أمكث معك وقتاً أطول، فهناك أناس ينتظرونني. إلى اللقاء.

كانت السيدة تبكي.

ـ ليزا، ليزا، باركها، باركها! قالت وارتعش جسدها كله فجأة:

ـ هي، هي لا تستحق حتى أن تُحبّ. لقد لاحظتها، طوال الوقت، كيف كانت تتسلَّى بالحماقات؟ قال الناسك بلهجة مازحة، لماذا لم تتوقفي عن السخرية من ألكسي؟

كانت ليزا، فعلاً، قد قضت وقتها كله في الشيطنة الصبيانية. منذ وقت

بعيد، منذ الزيارة الأخيرة، لاحظت أن أليوشا يحمرّ خجلاً أمامها ويحاول ألّا ينظر إليها، فهي وهذا ما أعجبها. ولما لم يستطع مقاومة نظراتها الموجّهة إليه، كان أليوشا يرفع رأسه دائماً رغم إرادته، بقوة لا تقهر، وينظر إليها فترى هي في عينيه ابتسامة وسخرية. عندئذ تنحى جانباً وتبسم بمزاح إلى أن ابتعد واختبأ وراء ظهر الناسك. بعد بضع دقائق، التفت مجدداً ليرى ما إذا كانت لاتزال تنظر إليه أم هي كفَّت عن ذلك، فإذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيّها حتى كادت تخرج منه، تراقبه وتنظر إليه، من جانبٍ، منتظرة بكل قواها أن يوجِّه عينيه نحوها، فلما فاجأت نظرته إليها، انفجرت ضاحكة في قهقهةٍ لم يستطع حتى الناسك أن يتحمّلها. فقال لها:

ـ لماذا تجعلينه يخجل إلى هذا الحدِّ، أيتها العفريتة؟

فجأة، احمرَّ وجه ليزا بشكل مفاجىء، والتمعت عيناها، واتخذ وجهها مظهر الجدّ الرهيب، فأجابت فجأةً، وبلهجة معاتبة ملؤها الحماسة والسخط؟

ـ وهو، لماذا نسي كل شيء؟ عندما كنت صغيرة كان يحملني بين ذراعيه، كنا نلعب نحن الاثنين. وكان يجيء ليعلّمني القراءة، هل نسيت ذلك؟ ومنذ سنتين فقط، أكّد لي عندما ودَّعنا أنه لن ينساني أبداً، وأننا سنستمر صديقين إلى الأبد، إلى الأبد! والآن فجأة يخاف مني كأنني سألتهمه، أو ماذا؟ لماذا لا يقترب مني، لماذا لا يكلّمني؟ لماذا لا يزورنا؟ أأنت الذي تمنعه: نحن نعرف أنه يتنزه حيث يريد. أنا، من غير اللائق، أن أدعوه، فهو الذي عليه أن يتذكرني أولاً، إن لم يكن قد نسيني. لا، الآن، يريد خلاصه! ألبستموه هذه الجبَّة الطويلة، وهو... إذا ركض يتعرض للسقوط على الأرض...

وفجأة لم تستطع السيطرة على نفسها فغطَّت وجهها بيديها وانفجرت في ضحك رهيب لا يُقاوم. هي ضحكتها الطويلة العصبية المتقطعة وغير

المسموعة، استمع الناسك إليها مبتسماً، ثم باركها في حنان. وعندما همَّت بتقبيل يده، شدَّتها، فجأة، إلى عينيها وغرقت في الدموع:

ـ لا تغضب مني. أنا حمقاء، لا أساوي شيئاً... وأليوشا، لا شكَّ أنه على حق، إنه على حق حين لا يريد أن يرى فتاة سخيفة إلى هذا الحدّ.

ـ سأرسله إليكم حتماً. قاطعها الناسك.

V

لتكن مشيئتك، لتكن مشيئتك!

دام غياب العجوز عن غرفته ما يقارب خمساً وعشرين دقيقة. وكانت الساعة الثانية عشرة ونصف الساعة، ولم يصل بعد ديمتري فيودوروفتش الذي عُقد هذا الاجتماع من أجله. لكنه يبدو أنهم قد نسوه كلياً، وعندما عاد الناسك إلى غرفته فوجىء بضيوفه غارقين في نقاش عام حاد جداً. كان النقاش يدور بين إيفان فيودوروفتش والراهبين المتنسكين. وقد شارك ميوسوف في النقاش، في كثير من الأحيان، وبكثير من الحماسة، لكن، الحظّ لم يحالفه فبقي عنصراً ثانوياً لم يكترث المتناقشون لآرائه. ونادراً ما كان يجيبه المتناقشون مما يزيد من حنقه. لقد سبق له أن تناقش مع إيفان فيدوروفتش حول سعة معارفه ولم يستطع أن يتحمل هذا الازدراء الخفيف الذي أظهره له هذا الأخير. «على الأقل، كنت أعتقد، حتى الآن، أنني مطَّلع على كل ما هو متقدم في أوروبا، ولكن هذا الجيل الجديد يتجاهلنا بجرأة»، كان يفكر في سرِّه. أما فيودور بافلوفتش الذي وعد نفسه أن يجلس على كرسيه ويصمت، فبقي، بالفعل، صامتاً بعض الوقت، لكنه كان يراقب جاره بيوتر ألكسندروفتش، وعلى وجهه ابتسامة سخرية خفيفة، وكان، ظاهرياً، فرحاً بنزقه. كان يستعدّ لكي يثأر لنفسه،

من عدَّة أشياء، ولا يريد أن يضيّع هذه المناسبة. أخيراً، وقد عيل صبره، مال على كتف جاره وراح يمطره بسخرياته، مرة جديدة، بصوت خفيض:

«ـ لماذا لم تنصرف منذ قليل، بعد تلك القصة عن «القديس الذي قُطعت عنقه والقبلات التي طبعها على رأسه»؟ لماذا رضيت أن تبقى في رفقةٍ غير لائقة: بقيت لأنك شعرت بإهانة وبمذّلة، بقيت لتظهر قدراتك الفكرية وتثأر فيها لنفسك. والآن، لن تخرج من هذا المكان قبل أن تبرهن على ذكائك».

ـ إنها تتجدد، ثرثرتك؟ بالعكس، سوف أنصرف.

ـ الأخير، الأخير، نعم، ستبقى آخر من ينصرف!

أغضبه مرة جديدة فيودور بافلوفتش. حدث ذلك تقريباً عندما رجع الناسك.

هدأ النقاش لحظة، ولكن الراهب الناسك، بعد أن جلس في مكانه، جال بنظره على المتناقشين كأنما هو يشجعهم على متابعة النقاش. كان أليوشا الذي درس كل تعابير وجهه، لاحظ بوضوح، أنه كان منهوك القوى وأنه يتحامل على نفسه. ففي أواخر أيام مرضه، وقع في عدة غيبوبات بعد أن أُنهكت قواه: وهذا الاصفرار، هو، تقريباً، شبيه باصفرار الاغماء الذي يسبق الغيبوبة، وهو يغشى الآن وجهه، وقد اصفَّرت شفتاه. وكان واضحاً أنه لا يريد أن ينهي الاجتماع، كان لديه هدف كما يبدو ـ ما هو؟ كان أليوشا يلاحقه بعينيه بانتباه شديد.

ـ كنا نتكلم عن المقال الهام جداً الذي كتبه السيّد. قال الراهب المتنسّك يوسّيف، المسؤول عن المكتبة، متوجهاً إلى الراهب الناسك، ومشيراً إلى إيفان فيودوروفتش. لقد توصَّل السيّد إلى استنتاجات جديدة جداً، لكن يبدو أن الفكرة عينها ذات شقَّين، حول مسألة القضاء الإكليريكي المدني ومدى

صلاحياته. وقد ردَّ السيد في مقال صحفي على أحد رجال الدين الذي وضع كتاباً ضخماً حول هذه المسألة...

ـ يؤسفني أنني لم أقرأ المقال، لكنني سمعتهم يتكلمون عنه.

أجاب الراهب الناسك وهو يلقي على إيفان فيودوروفتش نظرة متفرسة ثاقبة.

ـ إن هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة بالفعل، قال المتنسِّك، مسؤول المكتبة، ويدحض بشكل جليّ، في مسألة القضاء الإكليريكي المدني، مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة.

ـ هذا مهمّ جداً. ولكن بأيّ معنى؟ قال الراهب الناسك سائلاً إيفان فيودوروفتش.

فأجابه هذا الأخير دون أن يصطنع ذلك التعالي الذي لم يكن لائقاً، وهذا ما كان يخشاه أليوشا حتى عشية أمس، وإنما تكلم بلهجة متواضعة ومتحفظة وفيها تقدير ظاهر، وبشكل جديّ، بدون أي فكرة مبيَّتة.

ـ أبدأ من مسلَّمة أن غموض العناصر أي جوهر الكنيسة وجوهر الدولة، كل على حدة، سوف يبقى قائماً إلى الأبد حتى وإن كان مستحيلاً، ولا توجد أي وسيلة تدفع النزاع إلى حالة، لا أقول طبيعية، إنما متوازنة لأن الكذب هو أساس المشكلة بالذات. إن التسوية بين الكنيسة والدولة في مسألة مثل مسألة القضاء، هي، برأيي، مستحيلة في جوهرها التام والخالص. إن رجل الدين الذي انتقدت نظرياته يؤكد أن الكنيسة تحتل، في داخل الدولة، مكانة محدودة ودقيقة. فأجبته، من جهتي، أنني أرى أن الكنيسة يجب، على نقيض رأيه، أن تحوي الدولة كلها، وأن لا تكتفي بموقع بسيط تعتصم به في داخل التنظيم الاجتماعي. وإذا تعذَّر الوصول إلى هذا الهدف في الظروف الحالية، لسبب

أو لآخر، فيجدر أن ننظر إليه كونه الهدف المباشر والجوهري الذي ينبغي للمجتمع المسيحي أن يتجه إليه أثناء تطوره اللاحق.

ـ هذا صحيح بالمطلق! قال الأب بايسي، المتنسِّك السكوت والمثقف، بصوت حازم وعصبي.

فصاح ميوسوف مصالباً ساقيه بعصبية.

ـ إنها عقيدة ما وراء الجبال، الأكثر صحةً!

ـ دعك من هذا الكلام، نحن لدينا جبال نجتازها؟ ليس لدينا منها شيء! قال الأب يوسّيف، ثم توجَّه إلى الراهب الناسك وتابع:

ـ أجاب هذا السيّد، فيما قال، عن المسلَّمات التالية «الأساسية والجوهرية» أولاً: «ما من شريحة اجتماعية يجوز لها أو يتوجب عليها أن تدَّعي لنفسها واجب التصرف في الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها». ثانياً: «إن حقّ القضاء الجزائي والمدني يجب ألَّا يتعلق بالكنيسة فهو يتناقض مع طبيعتها كمؤسسة قائمة بأمر من الله وكاتحاد إنساني غايته تحقيق أهداف دينية». ثالثاً وأخيراً: «إن مملكة الكنيسة لا تنتمي إلى هذا العالم».

ـ هذا تلاعب بالألفاظ لا يليق برجل دين. قاطعه مجدداً، الأب بايبسي وقد نفد صبره. لقد قرأت الكتاب الذي رددت عليه، تابع يقول ـ متوجهاً إلى إيفان فيودوروفتش، وقد أدهشني كلام رجل الدين عندما قال: «إن ملكوت السماء ليس في هذا العالم». فإذا كان لا ينتمي إلى هذا العالم فالكنيسة مستحيل قيامها على الأرض. وفي التعبير الوارد في الأناجيل المقدسة، «ليس في هذا العالم»، ليس مستخدماً في هذا المعنى. فمثل هذا التلاعب بالألفاظ مستحيل. إن سيّدنا يسوع المسيح، إنما تجسَّد بالتحديد لكي يقيم الكنيسة على الأرض. إن ملكوت السماء لا ينتمي إلى هذا العالم، هذا أمر بديهي، ولكن لا يمكن الدخول إليه إلا بواسطة الكنيسة التي تأسست وأقيمت على

الأرض. لذلك، فهذا التلاعب بالألفاظ أمر غير لائق ومستحيل. إن الكنيسة، في الحقيقة، هي مملكة وقد أقيمت لكي تحكم، وأخيراً، تظهر دون شك كمملكة على كل الأرض ـ وهذا ما جاء في النبوءة.

وسكت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عمداً. وكان إيفان فيودوروفتش الذي يصغي إليه بانتباه واحترام، في صمت مطلق، تابع كلامه بالبساطة نفسها وبالطيبة عينها متوجهاً إلى الراهب الناسك.

ـ إن مجمل فكرة مقالي كلها تكمن في أن المسيحية، كانت في الأزمنة القديمة، أي القرون الثلاثة الأولى للمسيحية، لا تظهر إلا كنيسة فحسب. ولكن، عندما قررت دولة روما الوثنية أن تعتنق المسيحية، فالذي حدث، بالضرورة، هو أنها حين أصبحت مسيحية احتوت الكنيسة، وبقيت هي، بصفتها دولة، وثنية في عدد كبير من صلاحياتها. وروما بوصفها دولة، احتفظت بعناصر كثيرة من الحضارة الوثنية والحكم الوثنية. سيّما في ما يتعلق بأهداف الدولة ذاتها وأسسها نفسها. بينما كنيسة المسيح عندما دخلت في قلب الدولة لم تكن تستطيع، بدون أي شك، أن تضحّي بمبادئها، وبتلك الصخرة التي بُنيت عليها. لا يمكنها إلا أن تتابع أهدافها الخاصة كما وضعها الله لها نهائياً: وهي تحويل العالم بأسره، وبالتالي، كل الدولة الوثنية القديمة، إلى كنيسة.

وعلى هذا النحو، (أي لبناء المستقبل) لا يتوجب على الكنيسة أن تبحث عن مكان محدّد داخل الدولة مثل «كل طائفة اجتماعية» أو مثل «مجموعة أشخاص» ذات أهداف دينية (كما يقول عن الكنيسة هذا المؤلف الذي أردّ عليه)، بل، عكس ذلك، فكل دولة على الأرض يجب أن تتحوّل كلياً، في المستقبل إلى كنيسة، وأن لا تصبح أيَّ شيء آخر إلا كنيسة متخلّية عن كل أهدافها التي يمكن ألّا تتفق مع أهداف الكنيسة. وهذا لا ينتقص من شأنها، ولا

يفقدها لا كرامتها ولا مجدها كدولة كبرى، ولا يسيء بشيء إلى مجد قادتها، وكل ما هنالك، أنه ينقلها من الطريق الضالّ، الذي لا يزال وثنياً ومزيّفاً، الذي تتبّعه، إلى طريق صحيح وحقيقي، الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى أهداف أبديّة. لهذا السبب، كان لمؤلف كتاب «أسس القضاء الإكليريكي المدني» أن يكون له حكم عادل لو أنه، ببحثه واقتراحه لهذه الأسس، لم يعتبرها إلّا تسوية موقتة، لا مفر منها، في عصرنا الخاطىء وغير الكامل، ولا شيء غير ذلك. أما أن يتجرأ المؤلف فيزعم أن هذه الأسس هي بجوهرها، لا بدَّ منها، أصيلة وأبدية، فهو يعارض الكنيسة ورسالتها المقدسة الأبدية التي لا بدَّ منها. هذا كل ما جاء في مقالي، اختصرته بشكل وافٍ.

ـ وباختصار، استأنف الأب بايسي كلامه مشدّداً على كل كلمة، وحسب بعض النظريات الشائعة جداً في عصرنا التاسع عشر، يجب على الكنيسة أن تتحوّل إلى دولة، منتقلةً من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا، وأن تذوب في داخلها، بعد أن أخلت المكان للعلم ولروح العصر وللحضارة. فإذا رفضت وقاومت يُخلى لها في الدولة مكان محدود، تحت الرقابة، كما يجري اليوم في بلدان أوروبا المعاصرة. أما بالنسبة للإيمان وللمفهوم الروسيَّين، فليست على الكنيسة أن تتحول إلى دولة، كما يجري الانتقال من صورة دنيا إلى صورة عليا، بل على العكس، يتوجب على الدولة، في نهاية المطاف، أن تتدبَّر أمورها لكي لا تصبح إلّا كنيسة، وكنيسة فقط. فلتكن مشيئتك، فلتكن مشيئك!

ـ أعترف لك بأنك شجَّعتني بعض الشيء؛ قال ميوسوف بسخرية وهو يصالب ساقيه. إذا صحَّ فهمي فأنت، إذن، ترى أن المسألة هي الوصول إلى مَثَلٍ أعلى بعيد جداً، وربما يمتد إلى يوم عودة المسيح. لك ما تريد. إنها فكرة جميلة جداً وطوباوية حول اختفاء الحروب والديبلوماسيين والبنوك الخ، هذا شبيه بالاشتراكية بعض الشيء. لأنني، أنا، كنت أفكر، أنّ ما تقوله جدِّيّ، وأنّ

الكنيسة، الآن، مثلاً، ستمارس السلطة فتقضي في الأمور الجزائية وتصدر أحكاماً بالجلد وبالأشغال الشاقة وحتى بالإعدام.

ـ ولكن، حتى لو كانت، الآن، لا توجد إلا محاكم إكليريكية مدنيّة، فالكنيسة، في الوقت الراهن، لن تصدر أحكاماً بالأشغال الشاقة والإعدام. إن الجريمة ومفهومها يجب أن يتبدّلا، الآن، بدون أي شك، لا دفعة واحدة ولا فوراً، إنما بسرعة... أجاب إيفان فيودوروفتش بلهجة هادئة ودون طرفة عين.

ـ هل أنت جادّ؟

سأل ميوسوف وهو يحدّق إليه.

ـ إذا احتوت الكنيسة كل شيء سوف تستبعد في داخلها المجرم والمتمرد بدل أن تقطع الرؤوس، تابع إيفان فيودوروفتش كلامه، قلْ لي: ما هو مصير المحروم؟ عندئذ، سوف يقطع صلته لا بالناس فحسب، كما هو الحال الآن، بل بالمسيح أيضاً: لأنَّ جريمته، عندئذ، لا تستعدي فقط الناس بل كنيسة المسيح أيضاً: وهذه هي الحال الآن، بالتأكيد، بالمعنى الدقيق، ولكن مع ذلك، هذا ليس مؤكداً، وضمير المجرم الحالي يمكن أن يجد طريقة لإراحة الضمير، فيقول لنفسه: «صحيح أنني أسرق ولكنني لست ضد الكنيسة ولست عدواً للمسيح». هكذا يفكّر المجرم، غالب الأحيان، في عصرنا هذا. أما يوم تحلّ الكنيسة محل الدولة، فسوف يصعب عليه أن يقول الشيء نفسه وإلا ينكر سلطة الكنيسة على الأرض كلها: «البشر جميعاً يخطئون أليس كذلك؟ وكل البشر ينحرفون وكل ذلك ليس سوى كنيسة مزيّفة، وأنا الوحيد، القاتل والسارق، أنا الكنيسة المسيحيةالحقيقية». وذلك موقف صعب جداً ويتطلّب شروطاً استثنائية وظروفاً لا تتوافر دائماً.

وانظر الآن، من جهة أخرى، إلى مفهوم الكنيسة ذاتها للجريمة: ألا يتوجب عليها تغيير هذا المفهوم المعاصر، الوثني تقريباً، وبدل أن تقطع،

بشكل ميكانيكي، العضو المريض كما يجري اليوم لحماية المجتمع، وأن تتجدّد، وهذه المرة بشكل كامل، وبدون كذب، لخلق بعثٍ جديد للكائن البشري ولقيامته ولخلاصه...

ـ يعني ماذا تريد أن تقول؟ مرة أخرى، أنا لا أفهمك. قاطعه ميوسوف مجدداً. هذا نوع من الحلم. هذا الكلام مبهم ولا سبيل إلى فهمه. عن أيّ رفضٍ تتكلم، ما هذا النفي؟ أنا، أتساءل ألست تسخر مني، يا إيفان فيودوروفتش؟

هنا تناول الراهب الناسك، فجأة، الكلام واتجهت كل الأنظار إليه:

ـ ولكن، في الواقع، هذه هي الحال الآن. إذا كانت كنيسة المسيح غير موجودة الآن فإن المذنب لن يرتدع عن جريمته، وما من عقاب لهذه الجريمة، يعني لا يوجد عقاب حقيقي، والعقاب الميكانيكي، كما قيل منذ برهة، لا يزيد على أن يهيج النفس، في غالب الحالات، أما العقاب الحقيقي الوحيد الواقعي هو الذي يخيف ويهدِّئ في آن، والذي يكمن في حكم ضميره بالذات.

قال ميوسوف بفضولية حادة:

ـ يعني كيف يكون هذا؟ اسمح لي أن أسألك.

قال الراهب الناسك:

ـ أنظر. إن كل هذه الاعتقالات وهذه الأشغال الشاقة، وما كان يضاف إلى ذلك، قبل الآن، من تعذيب جسدي، هذا كله لا يصلح أحداً، وهو، بصورة خاصة، لا يردع أيّ مجرم. وعدد الجرائم لا ينخفض بل يزداد. أنت، مثلاً، يجب أن تعرف ذلك. والنتيجة هي أن المجتمع، بهذا الشكل، ليس محمياً إطلاقاً، وإذا بَتَرَ عضواً مؤذياً وحكم عليه بالنفي، بعيداً عن الأنظار، يُستبدل هذا المجرم، فوراً، بمجرمٍ آخر وربما باثنين آخرين. وإذا كان ثمة شيء يحمي المجتمع، في الوقت الراهن، ويصلح المجرم، ويبعثه رجلاً آخر فهو فقط شريعة المسيح التي تعيده إلى ضميره كما هو. وعندما يعترف المجرم بذنبه

بوصفه ابناً لمجتمع المسيح أي الكنيسة، إذ ذاك يعترف بخطأه أمام المجتمع نفسه أي أمام الكنيسة. فإزاء الكنيسة وحدها لا الدولة يمكن أن يشعر المجرم بأنه مذنب. فإذا جرت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهي حرمانهم ومن الذين يرجعون إلى داخله. والآن، فالكنيسة التي لا تملك أيَّ سلطة قضائية ولا تملك إمكانية الإدانة الأخلاقية ولا تهتمّ بالعقاب الفعلي للمذنب. لا تطرده من داخلها ولا تحرمه من الإرشاد الأبوي، وأكثر من ذلك، تحاول أن تحافظ مع المجرم على جميع العلاقات التي تربطه بالكنيسة المسيحية. إنها تقبله في الفروض الدينية وفي تناول القربان المقدس. إنها تنجده وتعامله كسجين وليس كمذنب. وماذا يحدث مع المجرم إذا كان المجتمع المسيحي نفسه، أي الكنيسة، ينبذه كما نبذه القانون المدني؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أن الكنيسة هي أيضاً تعاقبه بالنفي الفوري والحتمي بعد أن عاقبه القانون المدني؟ إنك لا تستطيع أن تتصوّر يأساً أكبر يمكن أن يهوي إليه، سيَّما إذا كان مجرماً روسياً، لأنّ المجرمين الروس يحافظون على إيمانهم. ومن يدري أن لا يحدث عندئذ شيء رهيب كفقدان الإيمان في قلب المجرم اليائس، وعندئذٍ، ماذا يحدث؟ ولكن الكنيسة وهي مثل أمٍّ حنون ومُحبّة ترفض معاقبته، في الواقع، لأنها ترى أنه حتى دون أن تعاقبه هي، قد نال المجرم عقوبته من محكمة الدولة، وهو في حاجة إلى من يرأف به. والسبب الأساسي لرفضها هو أن محكمة الكنيسة، هي الوحيدة، التي تحوي في ذاتها الحقيقة ولا تستطيع، بالتالي، أن توافق بين الجوهري، أو على الصعيد الأخلاقي، أو حتى القبول بتسوية مع أيّ قضاءٍ آخر. وهنا، لا توجد وسيلة للمناورة. يبدو أن المجرم، في البلدان الأخرى، نادراً ما يندم، كما يقال، لأنّ المذاهب الأكثر حداثة تعزّز شعوره بأن الجريمة ليست جريمة، إنما هي تمرُّد على قوى الاضطهاد غير العادلة.

فالمجتمع ينبذه من داخله بشكل آليّ تام، وبقوة تنتصر عليه وترافق إبعاده بحقد (هكذا يقولون عن أنفسهم هناك في أوروبا) يشفعه بحقد وبلامبالاة وبنسيان تام لهذا الذي لا يزال أخاً. إذن، كل شيء يجري دون أي عطف من الكنيسة لأنه، في حالات عديدة، لا توجد كنيسة على الاطلاق ولم يبق منها إلا رجال الإكليروس ومبانٍ دينية رائعة الجمال، الكنائس عينها انتقلت، منذ زمن طويل، من مرحلة دنيا وهي الكنيسة إلى مرحلة عليا وهي الدولة، وانتهت نهائياً فيها. وتلك هي، على ما يبدو، حالة المجموعات اللوثرية. أما بالنسبة إلى كنيسة روما فإنها منذ ألف سنة قد أقامت الدولة محل الكنيسة. لذلك، فالمجرم نفسه لا يشعر بأنه عضو في الكنيسة، وعندما ينبذه المجتمع يستسلم لليأس. وإذا عاد إلى مجتمعه، فإنه غالباً ما يشعر تجاه مجتمعه بكرهٍ يبلغ من القوة أن المجرم هو الذي ينبذ المجتمع منه. إلى أين يؤدي ذلك، يمكنك أن تتخيل هذا الأمر بسهولة. يمكن الاعتقاد، في حالات عديدة، أن الأمر يجري عندنا خارج المحاكم القائمة، فلدينا، بالإضافة إلى ذلك، كنيسة لا تفقد صلتها أبداً بالمجرم لأنها تعتبره ابناً عزيزاً وغالياً، بالرغم من كل شيء. وإننا نحتفظ، ولو فكرياً، بمحكمة الكنيسة ولو أنها غير فعالة، الآن، لكنها قائمة للمستقبل، على الأقل، من حيث كونها أملاً. والمجرم نفسه، يعترف بسلطتها في أعماق نفسه. وصحيح القول أيضاً، كما قيل منذ برهة هنا، إذا كانت محكمة الكنيسة تؤكد ذاتها في الواقع، بكل قوَّتها، أي إذا استطاع المجتمع كله أن يتحول إلى كنيسة، فمحكمة الكنيسة ستمارس إصلاح المجرم، بشكل لا تُعرف حدوده حتى الآن، بل، أيضاً، سينخفض عدد الجرائم بنسبة كبيرة جداً. إن الكنيسة نفسها، ستكشف المستقبل المجرم والجريمة المستقبلية في العديد من الحالات بشكلٍ مختلف كلياً مما هو عليه اليوم، ويمكنها أن تستعيد الضالّ وترشد المجرم الذي تهيِّئه، وتجدِّد الساقط. واستطرد الراهب الناسك، وعلى

وجهه ابتسامة حزينة؛ حتى الآن، فالمجتمع المسيحي، هو بالذات، ليس مهيَّأً وغير باقٍ إلَّا بفضل سبعة صالحين. وبما أنهم لا يزولون، فكل شيء يبقى راسخاً بانتظار تجدده الكامل وانتقاله من مجتمع، لم يعد طائفة وثنية تقريباً، إلى كنيسة واحدة شاملة تحكم الجميع. فلتكن مشيئتك، فلتكن مشيئتك، إلى دهر الداهرين. وهذا ما قد تقرَّر فقط منذ الأزل. ونخطىء إذا ما أقلقت أفكارنا مسائل الزمن أو المهل، لأن سرَّ الأزمان والمهل هما في حكمة الله وعنايته الإلهية وحبِّه. وذلك بعيد جداً في الحساب البشري، قد يكون، أحياناً، على وشك الظهور على عتبات حياتنا. أجل، فلتكن مشيئتك، فلتكن مشيئتك.

ـ لتكن مشيئتك. لتكن مشيئتك. أكد الأب بابيسي بلهجة فيها الرصانة والوقار.

ـ هذا غريب. غريب إلى أبعد حدّ. قال ميوسوف، ولا يمكننا أن نقول بحرارة إنما بنوع من السخط.

ـ ما الذي يظهر لك غريباً؟ سأله الأب يوسِّيف بحذر.

فأجاب ميوسوف منفجراً، فجأة:

ـ يلغون الدولة على الأرض لكي يشيدوا مكانها الكنيسة كدولة! ليس هذا من فكر ما وراء الجبال فحسب بل أكثر بكثير مما وراء الجبال! حتى البابا غريغوار السابع نفسه لم يكن يحلم بهذا أبداً.

ـ السيّد يفهم العكس تماماً، قال الأب بابيسي بقساوة. ليست الكنيسة هي التي ستتحول إلى دولة، إفهم ذلك. هذا رأي روما وحلمها، إنها تجربة الشيطان الثالثة! لا، الأمر بالعكس تماماً. فالدولة هي التي تتحوَّل إلى كنيسة والتي يجب أن ترتقي لتصبح الكنيسة على الأرض كلها. وذلك النقيض المطلق لروما ولعقيدتها لما وراء الجبال، ولتفسيرك أنت، وهو بعينه الرسالة

العظيمة التي تحملها الأورثوذكسية على الأرض. فمن سماء الشرق سترتفع هذه النجمة.

كان ميوسوف في صمت وقور. وكان مظهره كله يعبّر عن شعور خارق بمهابته. وبدت على شفتيه ابتسامة متعالية، كان أليوشا يراقب كل شيء، وقلبه يخفق بسرعة كبيرة. لقد جعلته هذه المناقشة يضطرب حتى أعماق كيانه، فحوَّل نظره عرضاً على راكيتين الذي بقي جامداً في مكانه، واقفاً قرب الباب، يراقب كل شيء ويستمع بانتباه إلى كل شيء، وعيناه منخفضتان. ومع ذلك، فإن أليوشا، وقد رأى احمرار خدَّيه أدرك أن راكيتين، هو أيضاً، كان مضطرباً أكثر منه، وعرف لماذا كان مضطرباً.

قال ميوسوف فجأة بلهجة وقورة وهيئة فيها تعاظم يتعدّى المألوف:

ـ اسمحوا لي، أيها السادة، أن أقصّ عليكم نادرة قصيرة. في باريس، منذ بضع سنوات، بُعَيد انقلاب كانون الأول/ ديسمبر، حدث لي أن قمت بزيارة، ذات يوم، لصديق التقيت عنده شخصية ذات نفوذ عظيم، لم يكن الرجل محقِّقاً، ولكن، يبدو، أنه كان يدير جهازاً هاماً من أجهزة الشرطة السياسية، وظيفة هامة جداً. انتهزت المناسبة، تدفعني فضولية قصوى، ودخلت في حديث مع هذه الشخصية. وبما أنه لم يكن عند صاحب المنزل بصفته زائراً بل بصفته مرؤوساً يقدّم تقريراً، وعندما لاحظ حفاوة رئيسه بي، شرَّفني بأن أفضى إليَّ ببعض الأمور وباح لي ببعض الأسرار، طبعاً إلى حدّ ما، يعني كان أقرب إلى الملاطفة منه إلى المصارحة، وهي ملاطفة معهودة عند الفرنسيين، سيَّما مع شخص أجنبي. لكنني استطعت أن أفهمه جيداً. جرى الحديث على الاشتراكيين الثوريين الذين كانوا مضطهدين في ذلك الوقت. لا أريد أن أتعرَّض لموضوع الحديث الذي دار بيننا، بل أدعه جانباً، وأقتصر حديثي على أن أذكر لكم فكرة طريفة أفلتت من لسان هذا السيّد فجأة، فقال لي: «نحن،

في الحقيقة، لا نخاف منهم كثيراً، هؤلاء الفوضويين الملحدين الثوريين، نحن نراقبهم ونعرف كلَّ ما يفعلون. لكنّ بينهم رجالاً من طراز خاص، وإن لم يكن عددهم كبيراً: أولئك هم الذين يؤمنون بالله وهم من المسيحيين، وهم اشتراكيون في الوقت نفسه. نحن نخاف من هؤلاء، أكثر من أيّ شيء آخر. هؤلاء أناس خطرون. إنّ الاشتراكي المسيحي هو أخطر من الاشتراكي الملحد». فاجأتني هذه الفكرة كثيراً، في تلك اللحظة، وقد تذكرتها الآن عندما سمعت كلامكم، أيها السادة، لست أدري لماذا...

ـ يعني تريد أن تقول إن ذلك ينطبق علينا، وإنك تعتبرنا اشتراكيين؟ سأله الأب بابيسي فجأة ومباشرة. قبل أن يجد بيوتر ألكسندروفتش جواباً يقوله، فُتح الباب، وظهر ديمتري فيودوروفتش بعد تأخُّر طويل جداً، كانوا، جميعاً، في الواقع، لا ينتظرون وصوله، وأحدث هذا الوصول المفاجىء شيئاً من الدهشة.

VI

لماذا يعيش مثل هذا الرجل!

كان ديمتري فيودوروفتش شاباً في الثامنة والعشرين، قصير القامة، لطيف الوجه، ومع ذلك، يبدو أكبر من عمره بكثير. كان مفتول العضلات، إذا نظرت إليه أدركت أنه يتمتع بقوة جسدية هائلة، ومع ذلك، فقسمات وجهه تعبِّر عن شيء مَرَضي. هزيل الوجه، خداه خاسفان، ولونه يميل إلى صفرة غير صحّية. عيناه كبيرتان قاتمتان جاحظتان، تنظران إليك بحزم ولكن بشكل مبهم. عندما ينفعل ويخرج عن هدوئه ويتكلم بصوت ساخط، تبدو نظرته كأنها لا تخضع لمزاجه ولا تعبِّر عن شيء آخر، أحياناً، ولا تتفق أبداً مع الظروف القائمة. «من الصعب معرفة بماذا يفكر»، يقول عنه الذين كانوا يتحدثون إليه؛ والذين يلاحظون نظرته القائمة والواجمة يندهشون، غالباً، عندما يرونه ينفجر ضاحكاً فجأة ومقهقهاً مما يدل على مشاعر ملؤها الفرح والابتهاج، يندفع فيها ويستسلم لها في اللحظة عينها التي ينظر فيها إليك نظرةً جدَّ قاتمة، وهذا النوع من المظهر المرضي الذي يبدو على وجهه، فجأة، كان واضحاً جداً: كان كل الناس يعرفونه، وقد سمعوا ما يقال عن هذه الحياة المضطربة «المنحلَّة» التي استسلم لها في مدينتنا، في المدة الأخيرة، الكل

يعرف أيضاً درجة الاهتياج القصوى التي وصل إليها في خصوماته مع والده بصدد أمور تتعلق بالمال. وقد سرت قصص عديدة في مدينتنا بصدد ذلك؛ والحقيقة، أنه كان بطبعه غضوباً وذا «فكر مشوش»، حسب تعبير قاضي الصلح سيميون إيڤانوفتش كاتشالينكوف أثناء أحد الاجـتماعات. كان يرتدي ملابس أنيقة، متغندراً، وصدرة مزرَّرة، ويلبس قفازين أسودين، ويحمل بيده قبعة عالية. وكما يفعل كل عسكري متقاعد، منذ فترة قصيرة، فقد أطال شاربيه وحلق لحيته، ودفع شعره الكستنائي الغامق القصير إلى الأمام. وكانت مشيته عسكرية حازمة، واسعة الخطى. توقف، عند العتبة، لحظة قصيرة، وأجال نظره على الحاضرين، واتجه، فوراً، نحو الراهب الناسك وقد أدرك أنه هو السيّد هنا، فانحنى أمامه انحناءة طويلة وطلب بركته. فنهض الراهب الناسك وباركه. وقبَّل ديمتري فيودوروفتش يده باحترام، وباضطراب بالغ وبصوت يعبّر عن الاستياء، قال:

ـ أرجو، بكل تواضع، أن تسامحوني لأنني جعلتكم تنتظرون كل هذه الفترة الطويلة. إن الخادم سمردياكوف الذي أرسله والدي قد أجاب عن أسئلتي الملحّة، مرتين، بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حدِّد في الساعة الواحدة. والآن علمت بذلك...

ـ لا تقلق، قاطعه الراهب الناسك، ليس الأمر مهماً، قليل من التأخير، لا شيء خطيراً...

ـ أشكركم شكراً جزيلاً. لم أكن أنتظر ما هو أقلّ من طيبتكم. وانحنى ديمتري فيودوروفتش، بعد هذه الكلمات، مرة جديدة، ثم التفت فجأة نحو والده، فحيَّاه بانحناءة ملؤها الاحترام والتقدير. كان واضحاً أنه قد هيَّأ هذه التحية مسبقاً وأعدّها بإتقان، معتبراً أن من واجبه أن يبرهن بذلك على احترامه وحسن نواياه. فوجىء فيودور بافلوفتش، فوجد، على الفور حلاً فانتصب

واقفاً عن كنبته يردّ تحية ابنه بتحية مماثلة. وصار وجهه، فجأة، رصيناً ومهيباً فما زاده ذلك إلا حقداً لا جدل فيه. وبدون أي كلمة، حيّا ديمتري فيودوروفتش كل الموجودين في الغرفة بانحناءة عامة صامتة، واتجه نحو النافذة بخطى واسعة وحازمة، وجلس على المقعد الوحيد الذي كان لا يزال خالياً، ليس بعيداً عن الأب بايبسي، ومال بصدره إلى الأمام مستعداً، على الفور، لسماع بقية المناقشة التي قطعها.

لم يمثل ظهور ديمتري فيودوروفتش أكثر من دقيقتين، وكان لا بدَّ للمناقشة أن تستأنف فوراً. لكن بيوتر ألكسندروفتش لم يرَ، هذه المرة، أن من واجبه الردَّ على السؤال الملحّ والمزعج الذي طرحه الأب بايبسي.

ـ إسمح لي أن أضع جانباً هذه النقطة، قال بنوع من الخفة الاجتماعية؛ ثم إن المسألة معقدة للغاية. أنظر إلى ابتسامة إيفان فيودوروفتش: إنه يخفي شيئاً هامّاً في هذا الموضوع، فتوجّه بالسؤال إليه.

ـ ليس لدي شيء خاص أقوله، أجاب فوراً إيفان فيودوروفتش، إلّا ملاحظة بسيطة. إن الليبرالية الأوروبية وانفعاليتنا الليبرالية الروسية، غالباً ما يخلطان، ومنذ زمن طويل، بين الأهداف القصوى للاشتراكية وبين أهداف المسيحية. وهذه النتيجة الغريبة هي طبعاً السمة المميزة في التفكير. ويبدو أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به الليبراليون والانفعاليون، بل يحدث، في حالات عديدة، عند رجال الدرك، أقصد رجال الدرك في البلاد الأجنبية طبعاً. وإنّ نادرتك الباريسية هي ذات دلالة هامة يا بيوتر ألكسندروفتش.

ـ بصورة عامة، رجاءً أن تعفوني من هذا الموضوع، كرَّر بيوتر ألكسندروفتش، إنما أيها السادة، سأقص عليكم نادرة أخرى شائقة ومميزة جداً، هذه المرة، عن إيفان فيودوروفتش نفسه. منذ خمسة أيام وليس أكثر،

في مجتمع في مدينتنا، كان يتألف بصورة خاصة من سيدات فقط، أعلن صراحة، في نقاش جرى بين الحضور، أنّ ما من شيء في هذا العالم يمكنه أن يجبر البشر على أن يحبّوا بعضهم بعضاً، وأن قانون الطبيعة الذي يفرض على الإنسان أن يحب الإنسانية لا وجود له، وإذا كان الحب قد وُجد على الأرض، حتى الآن، فليس مردُّه إلى قانونٍ طبيعي بل لأن الناس يؤمنون بالخلود. وأضاف إيفان فيودوروفتش إلى ذلك، عابراً، أنّ كل القانون الطبيعي موجود في هذا الاعتقاد. فيكفي أن يلغي الإنسان إيمانه بخلوده حتى يُلغى فوراً، ليس الحب فحسب بل كل القدرة على مواصلة الحياة في هذا العالم. وفوق ذلك، في الوقت الحاضر، إنه لن يبقى شيء منافياً للأخلاق وسيكون كل شيء مباحاً حتى أكل لحوم البشر. وأكثر من ذلك أيضاً، قال، أخيراً مؤكداً، إن القانون الأخلاقي للطبيعة، في نظر كل إنسان ـ في نظرنا أنا وأنت ـ متى كان هذا الإنسان لا يؤمن بالله وبخلوده، فالقانون الأخلاقي للطبيعة يجب أن يتحول فوراً إلى النقيض المطلق للقانون السابق أي القانون الديني، وأن الأنانية وحتى الجريمة لا تصبحان مباحتين للإنسان فحسب بل تصبحان مشروعتين وضروريتين على أنهما الحلّ الوحيد المعقول، لكي لا أقول الحلّ الوحيد النبيل لكل مشكلات الإنسان. مع هذه المفارقة، يمكنكم، أيها السادة، أن تحكموا على كل ما يروق أو ما ينوي أن يعلنه من آراء عزيزنا الخيالي والسفسطائي إيفان فيودوروفتش.

ـ إسمح لي، قال ديمتري فيودوروفتش فجأة كي أتأكد أنني سمعته جيداً «أن الجريمة ينبغي أن لا تعتبر مباحة فحسب بل يجب أن يُعترف بأنها ضرورية وكحلّ أذكى من مشكلات كل الملحدين»، هل هذا ما سمعته أو لا؟

ـ هذا هو بالضبط. أجاب الأب باييسي.

ـ أتذكَّر ذلك.

وبعد هذه الكلمات، لاذ ديمتري فيودوروفتش بالصمت، هو أيضاً، فجأة، كما تدخَّل فجأة في المناقشة، فاتجهت كل الأنظار إليه بفضولية.

ـ هل أنت متأكد أن زوال إيمان الناس بخلود النفس ستكون له هذه النتائج؟ سأل الراهب الناسك، فجأة، إيفان فيودوروفتش.

ـ نعم، هذا ما أكدته. إن الفضيلة غير موجودة إذا كان الخلود غير موجود.

ـ أنت سعيد، إذا كان هذا هو إيمانك أو أنك بائس جداً؟

ـ ولماذا أكون تعيساً؟ سأل إيفان فيودوروفتش مبتسماً.

ـ لأنه، حسب الاحتمال، لا تؤمن أنت نفسك، لا بخلود نفسك ولا بما كتبته عن الكنيسة وعن مسألة الكنيسة.

ـ ربما أنت على حق!... ولكنني، مع ذلك، لا أمزح إطلاقاً... قال إيفان فيودوروفتش معترفاً بغرابة وقد احمرَّ وجـهه فجأة.

ـ لم تكن تمزح كلياً. هذا صحيح. فهذه الفكرة لم تُحلّ بعد في قلبك وهي تعذبه. لكن الشهيد أيضاً يحب أن يمزح، أحياناً، في ما يتعلق بيأسه الشخصي هو أيضاً بسبب اليأس. والآن، أنت تمزح بسبب اليأس، بسبب مقالاتك في المجلات، وفي مناقشات الصالونات، دون أن تؤمن أنت بجدلك، وعندما تسخر من هذا الجدل تشعر بالغضب في أعماق ذاتك... هذه المسألة لم تُحسم بعد في ذهنك. وهنا يكمن شقاؤك العميق لأنه يطلب حلاً بأيّ سبب...

تابع إيفان فيودوروفتش سائلاً محدقاً إلى الراهب الناسك وعلى وجهه ابتسامة لا تفسير لها.

ـ وهل وجدت حلَّها؟ هل وجدت حلَّها إيجاباً؟

ـ إذا تعذّر حلُّها من الجانب الإيجابي فلن تحلّ أبداً من الجانب السلبي، أنت نفسك تعرف خصوصيّة قلبك هذه. وفي هذا يكمن كل عذابك. لكن، أشكر الرب لأنه وهبك قلباً سامياً قادراً على أن يتحمل مثل هذا التعذيب «أن

يبحث ويفكر بحقائق الأعالي لأن حياتنا هي في السموات»، إسأل الرب أن يجد قلبك حلاً على هذه الأرض. وليباركك الله في طريقك!

رفع الراهب الناسك يده يريد أن يبارك إيفان فيودوروفتش، وهو في مكانه؛ لكن هذا الأخير، نهض فجأة من مقعده فاقترب منه، وتلقَّى بركته، وبعد أن قبَّل يده عاد ليجلس في مكانه دون أن يتفوه بكلمة. كان تعبير وجهه صلباً ورصيناً. إن هذه البادرة التي قام بها، كما تلك المحادثة التي سبق وتبادلها مع الراهب الناسك، والتي كانت غير متوقعة من إيفان فيودوروفتش، كلّ ذلك، أحدث في كل فرد من الحضور أثراً بالغاً بما يشتمل عليه من سرٍّ وأبهة، وكأنه صمت مدة دقيقة، وكان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب بالغ. لكن ميوسوف رفع فجأة كتفيه، وفي اللحظة نفسها، قفز فيودور بافلوفتش عن كرسيه:

ـ أيها الراهب الناسك المقدس الإلهي! صاح مشيراً إلى إيفان فيودوروفتش. هذا ولدي، هذا من لحمي ودمي، هذا ولدي الحبيب! إنه الأكثر احتراماً، هو من نوع كارل مور. وهذا ولدي الآخر الذي دخل الآن، ديمتري فيودوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه. إنه أقلّهم احتراماً، شبيه فرانز مور، وهذان البطلان هما من مسرحية شيللر «قطاع الطرق»، وأنا من جهتي أشبِّه نفسي بغراف فون مور. فاحكم في الأمر، وأنقذنا! فنحن لا نطلب صلواتك فحسب بل نبوءاتك أيضاً.

ـ تكلَّم دون أن تمثّل دور بسطاء القرية، ولا تبدأ بإهانة عائلتك. أجاب الناسك بصوت ضعيف ومنهك، وكان التعب بادياً عليه وبدأت قواه تضعف بوضوح.

ـ مهزلة مهينة! كنت أشعر بهذا وأنا قادم إلى هنا. قال ديمتري فيودوروفتش واثباً عن كرسيِّه مستاءً. سامحني، يا أبتي المحترم، قال متوجهاً إلى الراهب الناسك، أنا رجل أمّي، ولا أعرف كيف يجب أن أناديك. لكنهم

خدعوك، وأنت إنسان طيب القلب لأنك سمحت لنا أن نلتقي عندك. أبي لا يسعى إلّا إلى غايته، فيجب أن تسأله. لديه دائماً حساب. لكن هذا الحساب اليوم، أعتقد أنني أعرفه...

ـ كلّهم يتَّهمونني! كلّهم يتّهمونني! صاح بدوره فيودور بافلوفتش. وبيوتر ألكسندروفتش يتَّهمني هو أيضاً. لقد اتهمتني، يا بيوتر، لقد اتهمتني! أضاف وهو يلتفت إلى ميوسوف مع أن هذا الأخير لم يخطر بباله أن يقاطعه. يتهمونني أنني خبأت مال أولادي في حذائي وتركتهم عراة. ولكن اسمح لي، أليس هناك محاكم؟ تحسم ذلك؟ هناك يكون حسابك، يا ديمتري فيودوروفتش، بالاستناد إلى إيصالاتك أنت، ورسائلك، واتفاقاتك، وكم هي ثروتك، وكم من المال بدَّدت، وكم بقي لك! لماذا يرفض بيوتر ألكسندروفتش أن يفصل في خلافنا هذا؟ إنه يعرف ذلك، لأن كل الناس ضدي، وديمتري فيودوروفتش لا يزال مديناً لي بمال، وليس مبلغاً زهيداً بل ألوف الروبلات، أليس كذلك؟ ولديّ وثائق في يدي! كل المدينة تتحدث عن فجوره. هناك، عندما كان في الجيش اعتاد أن يدفع ألف روبل أو ألفين لكي يغوي بعض العذارى! إنني أعرف هذا، يا ديمتري فيودوروفتش، هذه أمور يعرفها الجميع وبتفاصيلها السرّية. وأنا بإمكاني أن أبرهن على ذلك. أيها الأب المقدس، هل تصدّقني؟ لقد أفسد أخلاق فتاة من أنبل الفتيات، من أسرة كريمة ثرية، وهي ابنة رئيسه السابق وهو كولونيل مقدام قام بحملات عسكرية وحائز وسام القديسة أنّا مع عدد من السيوف! أفسد طهارة تلك الفتاة إذ تقدَّم بطلب الزواج بها، وها هي، الآن، هنا، يتيمة مع أنها خطيبته، بينما هو يتردد على مرأى منها إلى مومسٍ من المدينة. ولكن هذه المومس تعيش بما هو شبيه بالزواج المدني مع رجل محترم، هي حصن منيع، يتعذر الحصول عليه، وكأنها زوجة شرعية تماماً، وامرأة فاضلة، نعم، فاضلة! إنها فاضلة أيها الآباء الأجلّاء! ويريد ديمتري

فيودوروفتش أن يقتحم هذا الحصن بمفتاح من ذهب، وهذا هو السبب في هجومه عليَّ الآن لأنه يأمل أن يسلبني مالاً. وبانتظار ذلك، صرف على هذه المومس ألف روبل وهو لا يزال يستدين من أجلها المال. إنه يستدين، وهل تعرفون ممَّن؟ أأقول يا ميتيا أو لا أقول؟

ـ سكوت! صرخ ديمتري فيودوروفتش. انتظر حتى أخرج من هنا، لأنني لن أسمح لك أن تدنّس بحضوري سمعة أنبل فتاة... مجرد تجرؤك على التلميح إليها إهانة لها... لا، لن أسمح بهذا!

كان يلهث.

ـ ميتيا، ميتيا! قال فيودور بافلوفتش بصوت كأنه الأنين محاولاً منع انهمار دموعه. ما عساك تفعل بالبركة الأبوية؟ وماذا سيحدث إن أنا لعنتك؟

ـ داعر وخبيث! صاح ديمتري فيودوروفتش.

ـ والده، أنظروا كيف يعامل والده! فكيف تكون إذاً معاملة الآخرين؟ تصوّروا أيها السادة: في مدينتنا، رجل فقير لكنه محترم. هو نقيب متقاعد. حلَّ به البؤس بعد فصله من الجيش، لكن ليس رسمياً، ولا حكم عليه، بقي محافظاً على شرفه، ويعيل أسرة كبيرة. منذ ثلاثة أسابيع، أمسكه ديمتري فيودوروفتش من لحيته في إحدى الخمارات، وجرَّه إلى الشارع، وراح يضربه في الشارع أمام الجميع. لماذا؟ لأن هذا النقيب هو رجل ثقة عندي أنا، وقد عهدت إليه ببعض الأمور الصغيرة.

ـ كل هذا، كذب! صاح ديمتري فيودوروفتش وهو يرتجف غضباً. إنه حقيقة في الظاهر وكذب في الباطن! أبتي. أنا لا أحاول أن أبرِّر أفعالي، أجل، أعترف بذلك أمام الجميع. لقد تصرَّفت كبهيمة مع هذا النقيب. واليوم، أنا نادم على ما فعلت، يتأكلني غضبي الحيواني. لكن هذا النقيب الذي عهدت

إليه ببعض الأعمال، إنما ذهب إلى تلك السيدة التي قلت عنها إنها مومس، تحدث إليها باسمك، وعرض عليها شراء السندات التي وقَّعتها لك وتحتفظ بها، وأن تلاحقني قضائياً من أجل أن تزجَّ بي في السجن إذا استمريت في إزعاجك بمطالبي في ما يتعلق بتصفية الحسابات. وأنت، الآن، تتهمني بأنني أميل إلى هذه السيدة بينما نصحتها أنت نفسك أن تجتذبني إليها. هي نفسها روت لي ذلك، ساخرةً منك! إذا أردت أن تدخلني السجن، فذلك فقط لأنك تغار مني، لأنك حاولت أن تزعج هذه المرأة بحبك! أعرف ذلك أيضاً! هي التي روته لي ضاحكةً عليك، هل تسمع؟ ساخرة منك، لقد أخبرتني كل شيء! هذه هي، أيها الآباء الأجلّاء، حقيقة هذا الرجل، هذا الأب الذي يتهجَّم على سوء سلوك ابنه! أيها السادة الشهود، سامحوا غضبي! لقد أحسست مسبقاً أن هذا العجوز الوقح جمعنا كلّنا هنا لكي يحدث فضيحة. ولقد جئت أنا لكي أسامحه إذا مدَّ إليّ يده، وأغفر له، وأعتذر منه! أما وقد أهانني الآن ولم يكتفِ بذلك بل تجرأ على إهانة أنبل فتاة، أتجنّب ذكر اسمها لأنني أحترمها، فقد قررت أن أفضح لعبته الدنيئة علناً رغم أنه والدي...

لم يستطع أن يتابع حديثه. كانت عيناه تقدحان شرراً وكان يتنفّس بصعوبة. لكن جميع من كانوا في الغرفة أصابهم الاضطراب كلهم، ما عدا الراهب الناسك، نهضوا عن مقاعدهم مضطربين. وتجهَّم وجها الراهبين المتنسكين لكنهما كانا ينتظران ما يقرره الراهب الناسك. ولم يكن هذا الأخير قد تحرك بعد. كان وجهه أصفر اللون ليس جرَّاء الانفعال إنما بسبب ضعفه المرضي. وكانت تشع على شفتيه ابتسامة متوسلة. كان قد رفع يده، على فترات طويلة، وكأنه رغب في تهدئة هؤلاء الممسوسين. وطبعاً، كان بإمكانه، بحركة واحدة أن يضع حداً لهذا المشهد. لكن، كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه

شيئاً ما، فراح يراقب بانتباه كلّي، كأنه يحاول أن يفهم شيئاً آخر، كأنَّ لديه شيئاً آخر لا يزال خافياً عنه. وأخيراً، شعر بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف بأنه قد أُذلّ وأهين.

ـ نحن كلنا مذنبون في هذه الفضيحة التي حدثت! قال بحرارة. وبالرغم من كل شيء، لم تكن لديّ فكرة عندما جئت إلى هنا، ولو أنني عرفت مع مَنْ سأكون... يجب أن ينتهي فوراً هذا الأمر! أبتي المبجّل، كن على ثقة بأنني كنت أجهل كلَّ التفاصيل التي كُشف عنها هنا. كنت أرفض تصديقها، وإنما عرفتها الآن لأول مرة... والد يغار من ابنه بسبب مومس، وهو نفسه يتفق مع هذه «المخلوقة» لكي يزجّ ابنه في السجن... هؤلاء هم الذين اضطررت إلى المجيء معهم إلى هنا... لقد خُدعت، أصرّح علناً للجميع أنني خُدعت، كما خُدع الآخرون...

ـ ديمتري فيودوروفتش! عوى فجأة فيودور بافلوفتش بصوت غير مألوف لدينا. لو لم تكن ابني لطلبتك للمبارزة... بالمسدس، على مسافة ثلاث خطوات... والأعين معصوبة! ختم قوله وهو يضرب الأرض بقدميه.

يمرّ الكذبة العريقون الذين قضوا حياتهم كلها يمثّلون، بلحظات يلعبون دورهم فيها فيرتجفون ويبكون انفعالاً، رغم أنهم قادرون على أن يقولوا لأنفسهم، في الوقت نفسه، أو بعد ثانية: «أنت تكذب أيها الكاذب العريق! أنت تمثّل حتى في هذه اللحظة، رغم غضبك «المقدس»، أجل، حتى في هذه الثانية من الغضب «المقدس».

قطّب ديمتري فيودوروفتش حاجبيه بشكل رهيب، ونظر إلى والده نظرة ملؤها الاحتقار الذي لا يوصف. ثم قال بصوت خفيض متقطع:

ـ كنت أفكر... كنت أفكر... أنني سأعود إلى وطني برفقة ملاك حياتي،

خطيبتي، لكي أهتمَّ بآخر أيامها، فإذا بي أجد رجلاً فاجراً فاسقاً، وممثلاً من أفشل الممثلين!

ـ مبارزة! صاح العجوز مجدداً وهو يلهث، واللعاب يسيل من فمه عند كل كلمة. وأنت، يا بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف، إعلم، أيها السيد، أن سلالتك كلها لم تضم ولن تضم أبداً امرأة أرقى ولا أشرف، نعم، ولا أشرف، هل تسمع؟ من تلك التي تجرأت ودعوتها، أنت، «بالمخلوقة»! وأما أنت يا ديمتري فيودوروفتش، فقد استبدلت خطيبتك بهذه «المخلوقة»، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة، وهي خطيبتك، لا ترقى إلى مستوى كعب حذائها. هذه هي المرأة التي سميتموها مخلوقة!

ـ يا للعار! قال الأب يوسِّيف فجأة.

ـ أجل، عار وخزي! صاح فجأة بصوته الفتيّ المرتجف من الانفعال، الفتى كالغانوف الغاضب بعد أن لزم الصمت طوال الوقت.

ـ لماذا يعيش على الأرض رجل مثل هذا؟ زمجر ديمتري فيودوروفتش بصوت بهيم وقد انتشى غضباً، رافعاً كتفيه إلى الأعلى حتى بدا كأنه محدودب الظهر: لا، هل قلتم لي إنه من الجائز أن نسمح له بأن يدنّس الأرض التي يعيش عليها ـ وتابع، وهو يتأمل الحضور واحداً بعد الآخر مشيراً إلى والده العجوز بإصبعه، كان يتكلم بلهجة بطيئة ومتقطّعة.

ـ سمعتم، سمعتم أيها الرهبان ما يقول قاتل أبيه؟ صرخ فيودور بافلوفتش متهجماً على الأب بايسي. هذا هو جوابه على قولك «عار!» هل قلت لي أين العار؟ إن هذه «المخلوقة»، إن هذه «المومس»، ربما هي أقدس منكما، أنتما المتنسكين اللذين تبحثان عن خلاصكما! فهي، إذا كان ذلك صحيحاً، لقد سقطت في شبابها، ضحية بيئتها، لقد أحبَّت كثيراً، والمرأة التي أحبّت كثيراً،

حتى المسيح غفر لها خطاياها... قال الأب المتواضع يوسّيف بعد أن نفد صبره.

ـ نعم، من أجل ذلك الحب، ذلك الحب بالضبط، أيها الرهبان. نعم، من أجل ذلك الحب، هنا، تفتشون عن خلاصكم بأكل الكرنب وتعتقدون أنكم صالحون! تلتهمون السمك النهري، سمكة صغيرة في اليوم فقط، وبأسماككم الصغيرة تعتقدون أنكم تشترون الله!

ـ مستحيل، مستحيل! صاح الحاضرون في الغرفة من كل جهاتها.

لكن هذا المشهد الذي وصل إلى حدِّ التقزز، تحوَّل فجأة إلى شكل غير متوقع: فجأة، نهض الراهب الناسك من مكانه، فأسرع أليوشا الذي أوشك أن يفقد صوابه من شدة خوفه على الراهب الناسك، وعلى الجميع، فتمكن أن يسنده من ذراعه. اتجه الراهب الناسك نحو ديمتري فيودوروفتش، فلما وصل إليه ركع. اعتقد أليوشا أن الراهب الناسك قد سقط على الأرض بسبب ضعفه، ولكن الأمر لم يكن كذلك. ركع الراهب وانحنى أمام ديمتري فيودوروفتش انحناءة كاملة، انحناءة دقيقة ومتعقّلة حتى كاد جبينه يلامس الأرض. دُهش أليوشا مذهولاً، فلم يتسنَّ له الوقت أن يمسكه عندما نهض. وارتسمت ابتسامة خفيفة، لا تكاد تُرى، على شفتيه.

ـ المعذرة، المعذرة! قال وهو ينحني أمام ضيوفه جميعاً في كل الجهات.

بقي ديمتري فيودوروفتش مصعوقاً بضع ثوان: انحنى الراهب الناسك أمامه حتى لامس الأرض. ماذا يعني هذا؟ رصاح فجأة: «يا ألله!».

خبأ وجهه بيديه وأسرع إلى الخارج، ولحقت به جمهرة المدعوين الذين، من شدّة اضطرابهم، لم يستأذنوا أو يحيّوا مضيفهم. فقط الراهبان المتنسكان وحدهما اقتربا لتلقِّي بركته.

ـ لماذا ركع؟ هل هذا رمز أو ماذا؟

دمدم فيودور بافلوفتش محاولاً أن يستعيد الحديث، بعد أن هدأ روعه فجأة، كانوا يخرجون، في تلك اللحظة، من سور المنسك.

ـ لست مسؤولاً عن المجانين ولا عن مستشفى الأمراض العقلية، سأنسحب من صحبتك يا فيودور بافلوفتش، وبوسعك أن تثق أن هذا سيكون إلى الأبد. أين هو ذلك الراهب القصير الذي استقبلنا منذ قليل؟

لكن هذا «الراهب القصير»، أي الذي كان قد دعاهم، منذ قليل، إلى الغداء عند رئيس الدير، لم يدعهم ينتظرونه. كان يستقبل المدعوين ما إن ينزلوا درجات غرفة الراهب الناسك وكأنه كان ينتظرهم طوال الوقت.

ـ أرجوك، أيها الأب المحترم، أن تنقل إلى رئيس الدير احترامي العميق، وليعذرني، أنا ميوسوف، لدى الأب المحترم بسبب ظروف غير متوقعة، عن شرف تلبية دعوته إلى الغداء رغم رغبتي الصادقة في تلبيتها. قال بيوتر ألكسندروفتش للراهب بصوتٍ ساخط.

ـ إن الظروف غير المتوقعة هي، أنا، قال فيودور بافلوفتش فوراً. واعلم يا أبتي أنّ بيوتر ألكسندروفتش لا يريد البقاء معي وإلّا لبَّى الدعوة فوراً، لكنك ستذهب يا بيوتر ألكسندروفتش، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند رئيس الدير، وأتمنَّى لك شهية طيبة، واعلم، أنا مَنْ سيمتنع عن حضور الوليمة وليس أنت! في منزلي، سأتناول الغداء في منزلي. هنا، لن أستطيع أن أبلع شيئاً، هل فهمت يا بيوتر ألكسندروفتش، يا قريبي العزيز جداً.

ـ أنا لست قريبك، ولم أكن قريبك أبداً، أيها الحقير!

ـ قلت لك ذلك عمداً لكي أزعجك لأنك ترفض عائلتك، ورغم كل شيء، فنحن أقارب. وباستطاعتي أن أبرهن على هذا حسب تقويم القديسين. أما أنت يا إيفان فيودوروفتش، فسأرسل إليك العربة لتعيدك إلى المنزل، فابقَ

هنا إذا أردت. إن اللباقة تفرض عليك يا بيوتر ألكسندروفتش أن تذهب إلى غداء رئيس الدير لكي تعتذر عن الفضيحة التي شاركنا فيها جميعاً هناك...

- أصحيح أنك تنصرف؟ ألا تكذب؟

ـ كيف أجرؤ، يا بيوتر ألكسندروفتش، بعد كل الذي حدث؟ لم أستطع أن أتمالك نفسي، فاعذروني أيها السادة، لم أستطع أن أتمالك نفسي! بالإضافة إلى أنني مضطرب! وأنا أشعر بالعار أيضاً. أيها السادة، إن لدى بعض الناس شجاعة شبيهة بشجاعة الإسكندر المقدوني، وإن للبعض الآخر، شجاعة كشجاعة الكلب الصغير «أزورْ». وأنا الكلب «أزورْ»، أشعر أنني صغير! فكيف أشارك في هذا الغداء بعد عملي الطائش هذا، وأن ألعق مرق الدير؟ أشعر بالخجل، لا أستطيع ذلك، فاعذروني!

«الشيطان وحده يعرف أهو يقول الحقيقة أم أنه يمثّل؟ توقف ميوسوف كي يفكر، وهو يتابع، بنظره المذهول، المهرّج الذي كان يبتعد. والتفت هذا الأخير إلى الوراء فلاحظ أن بيوتر ألكسندروفتش يراقبه بعينيه، فأرسل إليه قبلةً بيده.

ـ لكن أنت، أنت هل ستذهب إلى عند رئيس الدير؟ سأل ميوسوف، إيفان فيودوروفتش بلهجة متعجرفة.

ـ ولمَ لا؟ ثم أنا تلقيت الدعوة شخصياً من رئيس الدير.

ـ صحيح أنا أشعر بأنني مضطر إلى حضور هذا الغداء اللعين. تابع ميوسوف بالمرارة العصبية نفسها دون أن ينتبه إلى أن الراهب الصغير يستمع إلى كلامه. نحن، على الأقل، يجب أن نعتذر عن كل ما قمنا به هنا، ولكي نشرح أننا... ما رأيك؟

ـ أجل، يجب أن نشرح أن ليس نحن. على كل حال، لن يكون أبي معنا. قال إيفان فيودوروفتش.

ـ وإذا كان أبوك هناك! يا للغداء اللعين!

ومع ذلك، تقدَّم الجميع. كان الراهب القصير ساكتاً يستمع إلى الحديث. وأثناء المسير، لاحظ أن رئيس الدير كان ينتظرهم منذ مدة طويلة، وأنهم قد تأخروا نصف ساعة. لم يجبه أحد. وأطلق ميوسوف نظرة حقد على إيفان فيودوروفتش.

«سيحضر الغداء، وكأن شيئاً لم يكن! قال في سرّه؟ جبهة ثور، وضمير كارامازوفي!».

VII

إكليريكي مهنوي

أعاد أليوشا الراهب الناسك إلى غرفة نومه الصغيرة وأجلسه على سريره. كانت غرفة صغيرة جداً، فيها الأثاث الذي لا غنى عنه. سرير ضيّق من الحديد عليه قطعة من لبَّاد بدل الفراش. وفي إحدى الزوايا، بالقرب من الإيقونات، توجد منضدة صغيرة عليها الصليب والإنجيل. تهالك الراهب الناسك على السرير خائر القوى. كانت عيناه تلمعان، وكان يتنفس بصعوبة. جلس ثم ألقى على أليوشا نظرة ثابتة كأنه يفكر في أمر ما.

ـ اذهب، يا عزيزي، اذهب. أنا، يكفيني بروفير ليساعدني. هم محتاجون إليك هناك. إذهب إلى رئيس الدير لتحضّر المائدة.

ـ اسمح لي بالبقاء هنا! رجاه أليوشا بصوت متوسل.

ـ هناك، فائدتك أكبر. لا يوجد هناك سلام. سوف تخدمهم وستكون مفيداً. سوف تستيقظ الشياطين فاتْلُ صلاةً. واعلم يا بنيَّ العزيز، (كان يحلو للراهب الناسك أن يناديه هكذا) الآن، مكانك ليس هنا. تذكر أيها الشاب؛ متى سمح الله فدعاني للقائه، غادر أنت الدير، واذهب بشكل نهائي.

ارتعش أليوشا.

ـ ماذا دهاك؟ الآن، مكانك ليس هنا. أباركك لمهمَّة عظيمة في هذا العالم. هناك أشياء كثيرة يجب أن تعرفها. يجب أن تتزوج. يجب. يجب أن تتحمل كثيراً قبل أن تعود إلى هذه الأماكن. لديك الكثير لتقوم به. ولكنني لا أشك فيك، ولهذا السبب أنا أرسلك. المسيح معك. واعرف كيف تحافظ عليه، سوف يحميك. ستنتظرك آلام كبيرة ولكنك ستكون سعيداً في هذا الشقاء. هذه وصيتي لك: إبحث عن السعادة في الشقاء. إعمل، إعمل بدون كلل. تذكر ما أقوله لك، لأنني أعرف، ولو أنني أتحدث إليك الآن، أن أيامي بل ساعاتي أصبحت معدودة.

بدا على وجه أليوشا مجدداً انفعال شديد. وبدأ طرفا شفتيه يرتجفان.

ـ ماذا حلَّ بك أيضاً؟ سأله الناسك وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة، فليبكِ أبناء هذا العالم على أمواتهم. ونحن، هنا، نفرح مع الأب الذي يفارقنا إلى الأبد. نبتهج، ونصلي لأجله. دعني الآن، يجب أن أصلّي. اذهب، أسرع. ابقَ بالقرب من أخويك، لا قرب واحد فقط منهما، بل قرب الاثنين كليهما.

ورفع الراهب الناسك يده ليباركه. كان من المستحيل على أليوشا أن يحتجَّ، مهما تكن رغبته قوية في البقاء. كان يتوق أن يسأله، لكن السؤال كاد يفوته: على ماذا تدلّ تلك الانحناءة حتى الأرض أمام أخيه ديمتري. لكنه لم يجرؤ أن يسأله. كان يعرف أن الراهب الناسك سيشرح له ذلك، من تلقاء نفسه لو كان ذلك ممكناً، ومعنى ذلك أنه ليس من سلطته. لكن تلك الانحناءة قد أحدثت في أليوشا تأثيراً بالغاً: كان أليوشا مؤمناً بعمق أنّ لهذه الانحناءة معنى سرّياً، وربّما رهيباً. ولما خرج من سور المنسك لكي يصل إلى الدير قبل بداية الغداء عند رئيس الدير (لكي يخدم على المائدة، طبعاً)، أحسَّ، فجأة، أن قلبه انقبض في صدره من الألم، وتوقَّف عن المسير فوراً: عادت تدوّي في نفسه كلمات الراهب الناسك التي أعلن فيها أنّ وفاته قد اقتربت. إن ما يتنبأ

به الراهب الناسك، بهذه الدقة، لا بدَّ أن يحصل. وتلك في نظر أليوشا حقيقة مقدسة. فكيف ستكون حاله وحيداً بعد موت الراهب الناسك، دون أن يراه ودون أن يسمعه؟ وإلى أين سيذهب؟ هل يتوقف عن البكاء ويغادر الدير؟ أيها الرب! منذ زمن بعيد، لم يشعر أليوشا بمثل هذا القلق. أسرع الخطى ليجتاز الغابة التي تفصل المنسك عن الدير، وإذ شعر بعجزه عن تحمُّل أفكاره التي كان ثقلها يسحقه، راح يتأمل أشجار الصنوبر المعمّرة التي تنتصب على جانبَي درب الغابة. لم تكن المسافة طويلة، حوالى خمسمئة خطوة، وليس أكثر. وفي مثل هذه الساعة، من النادر أن يصادف المرء فيها أحداً. وما إن وصل أليوشا إلى أول منعطف حتى رأى راكيتين فجأة. كان هذا الأخير يبدو أنه ينتظر أحداً.

ـ ليس أنا مَنْ تنتظر؟ سأله أليوشا عندما اقترب منه.

ـ طبعاً، هو أنت! أجابه راكيتين ضاحكاً. أنت ذاهب إلى رئيس الدير. أعرف. توجد وليمة غداء. إنه منذ اليوم الذي استقبل فيه الأسقف والجنرال باخاتوف ـ هل تتذكر؟ ـ لم يقم مثل هذه المأدبة أبداً. أنا، لن أكون هناك. لكن أنت، اذهب إليه وحدك، وقدِّم المرق. قل لي، يا أليوشا: ماذا تعني هذه القصة؟ هذا ما أردت أن أسألك.

ـ أيّ قصة؟

ـ تلك الانحناءة حتى الأرض أمام أخيك ديمتري فيودوروفتش. لقد صدم جبهته بالأرض تقريباً!

ـ هل تقصد الأب زوسّيما؟

ـ طبعاً أقصد الأب زوسيما.

ـ صدم جبهته بالأرض؟

ـ إنني أقلّل من الاحترام، حسناً، أقلّل من الاحترام. لكن، ماذا تعني هذه القصة؟

ـ لا أعرف، يا ميشا، ماذا يعني هذا.

ـ كنت أعرف أنه لن يفسّره لك. ما من شيء معقّد في هذا الأمر، أعتقد أنها مجرد حركات تزمُّت في التقوى المتكررة. لكنّ كلّ هذه اللعبة، كان يقصدها. والآن، كل الثرثارين في المدينة يتحدثون في هذا الشأن، وسينشرونه في كل المقاطعة: «ماذا تعني هذه القصة؟» في رأيي، إن الراهب الناسك لا يعوزه نفاذ البصيرة. لقد أحسَّ أن هناك جريمة الحق العام؛ تفوح هذه الرائحة في منزلكم.

ـ الحق العام؟

كان واضحاً أن راكيتين ينوي قول شيء ما.

ـ في عائلتك، سيحصل الحق العام هذا. ستقع بين أخويك الصغيرين وأبيك الثري جداً. ولهذا السبب، صدم الأب زوسيما جبهته بالأرض. فإذا حدث شيء ما، سوف يقال: «لقد توقَّع هذا، لقد تنبّأ به العجوز القديس!». تتحدث عن نبوءة، فمهما فعل، إنه قائد، كلا، هذا، سيحسبونه رمزاً أو شعاراً، الشيطان يعرف ماذا! سيجيبونك أنهم سيتذكرون: أنه تنبأ بالجريمة، أليس كذلك؟ واكتشف المجرم. وهكذا هو الحال مع بسطاء القرية. يرسمون إشارة الصليب أمام الحانة، ويرمون الكنيسة بالحجارة. والشيء نفسه بالنسبة إلى راهبك العجوز: يطرد الصالح بضربة عصا، وينحني أمام القاتل، حتى الأرض.

ـ أيّ جريمة؟ أيّ قاتل؟ ماذا دهاك؟ قال أليوشا، وتوقف أمام راكيتين مصعوقاً، فقال هذا الأخير:

ـ أي جريمة؟ كأنك تجهل ذلك؟ يدي في النار التي قد فكّرت فيها أنت بالذات. بالمناسبة، هناك سؤال: اسمع يا أليوشا، أنت، تقول دائماً الحقيقة، حتى ولو أنك جلست دائماً بين كرسيَّين؛ هل فكرت في هذا الأمر، نعم أو لا، أجب؟

ـ لقد فكرت في الأمر، أجاب أليوشا بلطف؛ حتى راكيتين نفسه اضطرب.

ـ جدياً؟ أنت أيضاً، اذاً، فكرت في هذا الأمر؟ صاح.

ـ أقصد... ليس أنه قد فكَّرت، تمتم أليوشا، لكن، أنت، الآن، تحدثت عن ذلك بشكل غريب جداً. فتصوَّرت أنني، أنا أيضاً، فكّرت فيه.

ـ أرأيت (كم هو واضح ما تقوله)، أرأيت؟ اليوم، وأنت تنظر إلى أبيك وإلى أخيك ميتنكا، فكّرت في الجريمة؟ إذن، أنا على حق، أليس كذلك؟

ـ لكن، انتظر، انتظر! قاطعه أليوشا قلقاً: من أين استنتجت هذا كله؟... ولماذا اهتمامك بهذا الأمر، إلى هذا الحدّ؟ لو أعرف ذلك، أولاً؟

ـ هذان سؤالان منفصلان، لكنهما طبيعيان. سأجيبك عن كل واحد على حدة. من أين استنتجت ذلك؟ أقول لك إنني ما كان لي أن أستنتج شيئاً لو لا أنني، في لحظة معيَّنة، قد عرفت حقيقة أخيك ديمتري فيودوروفتش، كما هو تماماً، فجأة، وبسرعة. ولم أعرف ذلك بكليته. مع هؤلاء الناس، الذين هم شرفاء تماماً ولكنهم يغوصون في الملذات، يوجد حدّ يجب عدم تجاوزه، وإلّا أصبحوا لا يتورَّعون عن قتل أبيهم. وأبوك، السكير والمعربد، ليس لديه حدّ، ولم يعرف الاعتدال ابداً. الواحد مثل الآخر، غير قادرين على الانضباط. وطُقْ، إلى القبر...

ـ لا، يا ميشا! إذا كان ما تقصده هو هذا فقط، إذاً أنت تطمئنني. لن يصل بهما الأمر إلى هذا الحدّ.

ـ لماذا ترتجف هكذا، ما بك؟ أنت تعرف اللعبة: إنه رجل شريف، أعترفُ بذلك (إنه غبي ولكن شريف)، لكنه مدمن الملذات. هذه هي طبيعته، وهذا هو جوهر نفسه. لقد ورث هذا من أبيه، أورثه شهواته القذرة. ولا يوجد إلا أنت من يدهشني، يا أليوشا: كيف تمكنت أن تكون نقياً؟ وأنت أيضاً فرد من أسرة كارامازوف! لأن في أسرتك شهوانية تبلغ أقصى التأجج، إذاً، فهؤلاء

الشهوانيون الثلاثة، الآن، يراقب واحدهم الآخر... وخنجره مخبّأ في كمّ قميصه. لقد تجابهوا هم الثلاثة. وأنت، كما أعتقد، ستكون الرابع.

ـ في موضوع تلك المرأة، أنت مخطىء. تمتم أليوشا مرتجفاً.

ـ غروشنكا، تقصد؟ أجاب راكيتين، لا، يا عزيزي، لا يحتقرها. عندما يكون صحيحاً أنه استبدل خطيبته بها، فهو، لا، لا يحتقرها. هنا... هنا يا عزيزي، يوجد شيء لا يمكنك أن تفهمه الآن! عندما يقع الرجل في حب امرأة جميلة، أو جسد امرأة، أو جزء فقط من جسد امرأة (والماجن، طالب اللذة يعرف هذا جيداً)، لهذا السبب، يضحّي بأولاده من أجلها، ويبيع أباه وأمّه، وروسيا والوطن: إنه شريف، ويصبح قادراً على أن يسرق؛ إنه خجول، ويطعنك بالمدية؛ إنه مخلص، ويخونك. إن شاعر الساقين الصغيرتين لدى المرأة، بوشكين، تغنّى بالساقين الصغيرتين في قصائده(*) وهناك آخرون لا ينظمون شعراً ولكنهم حين يرون الساقين، يضطربون. ليست مفاتن المرأة ساقين فقط... لا، يا عزيزي، حتى الاحتقار لا حيلة له بذلك، إذا سلَّمنا أنه يحتقر غروشنكا؛ إنه يحتقرها، لكنه لن يستطيع الانفصال عنها.

ـ فهمت! أفلت لسان أليوشا.

ـ أوه؟ لا بدَّ أن ذلك صحيح، وتفهمه جيداً، ما دمت قد اعترفت به منذ الكلمة الأولى. لقد قلتَ ذلك دون أن تقصد. فقد زلَّ لسانك. والاعتراف بذلك هو أكبر قيمة. إذاً، إنه موضوع تعرفه سابقاً، وقد فكّرتَ بالطبع في الشبقيّة الجنسيّة. جميل أن تكون بكراً! أنت، يا أليوشا، متظاهر بالتقوى، أنت قديس، لكنك تتظاهر بالتقوى. والشيطان يعلم بماذا تفكر، والشيطان يعرف ماذا أصبحت تعرف الآن! أنت بكر، ولكنه دفعك إلى ذلك، وأنا، كنت

(*) خصّ بوشكين في «أوجين أونيجين» بعض المقاطع الشعرية الغنائية «للساقين» الأنثويين.

أراقبك منذ مدة طويلة! أنت واحد من أسرة كارامازوف، أنت أيضاً فرد من آل كارامازوف مئة بالمئة. إذاً، هذا يعني شيئاً ما، هو أن للعِرق وللوراثة أثراً. أنت شهواني من جهة أبيك، وبسيط من جهة أمك. لماذا ترتجف؟ هل لأنني أقول الحقيقة؟ هل تعرف ماذا حدث: طلبت مني غروشنكا: «جئني به (يعني أنت) أريد أن أنزع عنه ثوب الراهب». ليتك تعرف كيف طلبت ذلك: جئني به، جئني به!» لقد تساءلت ما الذي يجعلها تهتمّ برؤيتك إلى هذا الحدّ؟ أنت تعرف، هي أيضاً، هي امرأة خارقة!

ـ بلِّغها شكري، وقل لها إنني لن أجيء إليها. قال أليوشا وهو يبتسم بغضب. قلْ ما كنت تريد أن تقوله، يا ميشا، وأنا أيضاً، بعد ذلك، سأقول لك بماذا أفكر.

ـ ماذا لديَّ لأقول بعد، إنَّ كل شيء واضح. كل هذا أصبح من الماضي، إنها أغنية قديمة. إذا كنت، أنت أيضاً، تخبىء في ذاتك ماجناً شهوانياً، فماذا، بالأحرى، عن أخيك إيفان، وأنتما من السرير نفسه؟ هو أيضاً من آل كارامازوف، أنتم آل كارامازوف، كل مشكلتكم تكمن هنا: شهوانيون، طمَّاعون وبسطاء من القرية. إن أخاك إيفان الآن، يسلّي نفسه بكتابة مقالات لاهوتية خاضعاً في ذلك لحساب لا أدري ما هو، لأنه هو نفسه ملحد، وهو نفسه يعرف سفالته ـ أخوك، أعني إيفان. بالإضافة إلى هذا، يحاول أن يسلب أخاه ديمتري خطيبته، حسناً، أعتقد أنه سيحقق غايته. وهل تعرف كيف؟ بموافقة ميتينكا، لأن ميتينكا نفسه، سيتنازل له عنها، فقط لكي يتحرر منها، وأن ينصرف، بسرعة إلى غروشنكا. وهذا ـ لاحظ ذلك ـ بكامل نبله ولامبالاته. إن أمثال هؤلاء الناس هم الأشد خطراً! الشيطان وحده يعرفكم، وبعد ذلك: يعترف، هو نفسه، بسفالته. وهذه السفالة، هو الذي يسرع للقيام بها! اسمع أيضاً: الآن، إن أباك العجوز هو الذي يعترض طريق ميتينكا. لأن

الأب أصبح، فجأة، مجنوناً بحبّه لغروشنكا، فما يكاد يلمحها حتى يسيل لعابه. ولأنه، وبسببها وحدها، أثار الفضيحة في الغرفة، لأن ميوسوف تجرأ وقال بأنها مومس. إن أباك عاشق مثل الهرّ. لقد استخدمها، في الماضي، في أمور حقيرة في خمّاراته، وكان يدفع لها أجراً، والآن، وفجأة، شُغف بها. وهو منذ ذلك اليوم، يجهد في ملاحقتها ويحاصرها بعروضه، ويريد الزواج بها، ليس بشكل شريف بالتأكيد. حسناً، الأب والابن يتواجهان. وغروشنكا، هي، لم تختر لا الأول ولا الثاني، وإنما هي تتدلّل، وتهزأ بهما. إنها مترددة تتساءل أيهما أكثر إفادة لها. أما الأب، فتستطيع أن تسحب منه مالاً، ولكنه لن يتزوجها أبداً، وهي تعرف ذلك، حتى لقد يعود إلى بخله بعد أن يربح المعركة فيقفل دونها خزنته. ومرحى أيها المال! في هذه الحالة، ميتيا أيضاً له ثمن، لا يملك مالاً، إنما هو قادر على أن يتزوجها! نعم، أن يتزوجها! يتخلّى عن خطيبته ذات الجمال الرائع، يتخلّى عن كاترينا إيفانوفنا، الثرية النبيلة، ابنة كولونيل، ويتزوج غروشنكا، العشيقة السابقة للتاجر العجوز، الفلاح الداعر، سامسونوف، قاضي المدينة. ذلك كله، في الواقع، يمكن أن يؤدي إلى جريمة. وأخوك، لا ينتظر سوى هذا؛ بالنسبة إليه إنه المستفيد الكبير: يظفر بكاترينا إيفانوفنا التي يتحرَّق إليها، ويتصرَّف ببائنتها وهي ستون ألف روبل. من أجل رجل صغير لا يملك فلساً واحداً، إنه لأمر مغرٍ كبداية. وسجِّل عندك هذا، أيضاً، أنه لا يكون في هذا، قد أساء إلى ميتيا، بل بالعكس، يكون قد قدَّم له خدمةً كبيرة، لأنني أعرف هذا، أنا، من مصدر موثوق به، أن ميتينكا، هو نفسه، وبصوت عالٍ، منذ الأسبوع الأخير، كان يصرخ ثملاً في إحدى الخمارات مع غجريات فتيّات، أنه غير جدير بخطيبته كاترينا، وأن أخاه إيفان هو أهل لها. وكاترينا إيفانوفنا، من المؤكد أنها، ستقول نعم، في نهاية الأمر، ولن تصمد أمام رجل مغوٍ مثل إيفان فيودوروفتش. وهي الآن، مترددة بين الاثنين. إنني أتساءل ما

الذي تجدونه، أنتم جميعكم، في إيفان هذا، حتى تفتتنوا به وتقفوا أمامه في حالة إجلال؟ كل ما يقوم به هو أنه يسخر: أنا مرتاح، أنا أتمتع على حسابكم.

ـ من أين تعرف كل هذا؟ ولماذا أنت متأكد إلى هذا الحد؟ سأله أليوشا فجأة، مهموماً وبعنف.

ـ وأنت لماذا تطرح عليّ هذا السؤال، ولماذا تخاف مسبقاً من جوابي؟ لأنك أنت أيضاً موافق على أنني قلت الحقيقة.

ـ أنت لا تحب إيفان! وإيفان لن يغريه المال.

ـ طيب؟ ما قولك بجمال كاترينا إيڤانوفنا؟ ألا يوجد غير المال فقط، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ.

ـ إيفان يتطلع إلى ما هو أسمى، حتى أن الألوف لا تغريه. إيفان، لا يسعى إلى المال ولا يفتش عن الرخاء. ربّما كان يبحث عن الألم.

ـ وما هي هذه القصة أيضاً؟ أنتم جميعاً... النبلاء!

ـ آه يا ميشا، إنّ نفسَه هي دائماً عواصف، وعقله أسير الهموم. يتمتع بذكاء ثاقب وهو غير واثق. هو من أولئك الذين ليسوا بحاجة إلى الملايين، وإنما يتطلعون إلى حل المشكلات.

ـ سرقات أدبية؟ يا أليوشا. أنت تكرر أقاويل راهبك الناسك. تتكلم عن اللغز الذي طرحه عليهم إيفان! صاح راكيتين بغضب واضح، وقد تبدَّلت ملامح وجهه وانقبضت شفتاه.

ـ اللغز بحدّ ذاته سخيف، لا يوجد فيه شيء، والآن، استمعت إلى نظريته السخيفة: «إذا كان خلود النفس غير موجود فالفضيلة هي أيضاً غير موجودة، وبالتالي، فكل شيء مباح». (وقد صاح أخوك ميتينكا، عندئذ، هل تتذكر، عندما صرخ «سوف أتذكر ذلك»)، إنها نظرية تغري الأوغاد... أقول كلاماً سيئاً، إنها غباوة... ليسوا أوغاداً بل تلامذة متبجحين يحملون «أفكاراً عميقة

لا حلَّ لها»، متبجّح صغير، لكن جوهر تفكيرهم كله هو: «من جهة أولى يستحيل عدم الاعتراف، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الإنكار!» نظريته كلها ليست سوى نذالة! ستجد الإنسانية في ذاتها القدرات على أن تعيش للفضيلة، حتى بدون الإيمان بخلود النفس! وستجدها في حب الحرية والمساواة والأخوّة...

اهتاج راكيتين ولم يعد قادراً على ضبط نفسه. لكن، فجأة، وكأنه تذكّر شيئاً ما، توقف عن الكلام.

ـ حسناً. هذا يكفي! قال وهو يبتسم بتكلّف. لماذا تضحك؟ هل تعتقد أن لديّ أفكاراً مبتذلة.

ـ لا، لم أفكر حتى أن أفكر أن لديك أفكاراً سخيفة. أنت ذكي ولكن... لننسَ... لقد كانت ابتسامتي بدون سبب. أعرف أنه من الممكن أن تغضب، يا ميشا، ولقد عرفت من لهجتك الغاضبة أنك، أنت أيضاً، لا تشعر تجاه كاترينا إيفانوفنا، بعدم الاكتراث. هذا، يا عزيزي، كنت أشك فيه، منذ فترة طويلة، ولهذا السبب لا تحب أخي إيفان. أنت تغار منه.

ـ أغار منه على مالها أيضاً؟ هذا أيضاً، أضفه إلى قولك!

ـ لا لن أضيف شيئاً عن المال، لا أريد أن أهينك.

ـ أُصدِّق، لأنك أنت تقول لي هذا. ولكن فليسفِّدكما الشيطان، أنت وأخاك إيڤان! لا يمكن لأيّ منكما أن يفهم أنه، بصرف النظر عن كاترينا إيفانوفنا، هناك شيء لا يحبّه المرء، ولماذا ينبغي لي أنا أن أحبّه، فليسفِّده الشيطان! لقد شرَّفني، هو نفسه، بأن انتقدني. ولماذا، أنا، لا يحق لي أن أنتقده؟

ـ لم أسمعه يتحدث عنك أبداً، ولا بكلمة واحدة، لا بخير ولا بسوء، لم يتكلم عنك أبداً.

ـ وسمعت، قبل أمس، في منزل كاترينا إيفانوفنا، أنه قال عنّي كلاماً

أهون من الشنق . إنه يجهل من أنا، خادمك المتواضع! ومَن منّا يغار من الآخر، يا عزيزي، بعد هذا، إنني أتساءل! لقد تفضل وقال عني إنني لم أقرر، في مستقبل قريب، أن أصبح أرشمندريت، ولم أقرر الدخول في الرهبنة، وإنني سوف أذهب إلى بطرسبرغ لأعمل هناك في مجلة كبرى، ناقداً طبعاً. وأعمل محرراً مدة عشر سنوات، ثم، بعد ذلك، أصبح صاحب المجلة وأغيِّر اتجاهها، فأجعلها ليبرالية وإلحادية مع صبغة اشتراكية، مراعاة لقواعد الحذر. هذا يعني أنني سألعب على الحبلين وسأخدع الناس. وبعد ذلك، في آخر حياتي الصحفيَّة، أكون قد جمعت ـ حسب رأي أخيك ـ رأس مال ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية فأستثمر المال مع يهودي صغير ما، إلى أن أشيد بناية فخمة في سان بطرسبرغ فأجعل مقرَّ التحرير في طابقها الأرضي، وأؤجّر ما تبقّى من الطوابق شققاً. حتى لقد حدّد أخوك موقع البناية، وهو بالقرب من الجسر الحجري الذي سيُبنى، كما يقال، فوق نهر نيفا، بين حيّ ليتايني وحيّ فيبورغ...

ـ آه، يا ميشا، هذا صحيح، وأغلب الظن أن هذا ما سيحدث حتى آخر كلمة! هتف فجأة أليوشا وهو غير قادر على أن يتمالك نفسه مع ابتسامة فرحة.

ـ أنت أيضاً، أنت أصبحت تنطق بهذه التهكمات، يا ألكسي فيودوروفتش!

ـ لا، لا، أنا أمزح. اعذرني! إنني أفكر في شيء آخر تماماً. ولكن، ما همَّ، قل لي: من استطاع أن يقول لك هذه التفاصيل، ومِمَّنْ إذاً، استطعت أن تسمعها؟ أنت لم تكن حاضراً عند كاترينا إيفانوفنا، عندما قال هذا عنك؟

ـ أنا لم أكن هناك، ولكن، كان ديمتري فيودوروفتش، وإنه ديمتري فيودوروفتش الذي سمعته بأذني. يعني، إن شئت، هو من قال لي، ولكنني سمعته، طبعاً دون إرادتي، لأنني كنت في غرفة نوم غروشنكا، ولم أكن أستطيع الخروج طالما ديمتري فيودوروفتش كان في الغرفة المجاورة.

ـ صحيح، نسيت أنكما قريبان، أنت وهي...

ـ قريبان؟ غروشنكا وأنا؟ يمكن أن نكون قريبين؟ أجاب فجأة راكيتين محمرَّ الوجه. هل جننت، أم ماذا؟ صحيح، إنك مختلّ.

ـ لماذا؟ ألستما قريبين؟ لقد قيل لي...

ـ أين سمعت هذا؟ لا، أنتم، آل كارامازوف، تصطنعون أوضاع الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء العريقة، بينما كان أبوك يتنقَّل كالمهرّج على موائد الآخرين، يقدّمون له الطعام، شفقةً، يأكله في المطبخ. أنا لست ابن كاهن، ولست سوى عثّة أمامكم أنتم النبلاء، لكنني أرفض أن تهينني بهذه الخفة وهذا المرح. أنا أيضاً، لي شرفي، يا ألكسي فيودوروفتش! وهي، غروشنكا، المومس وأنا، لا يمكن أن نكون قريبين، أريد منك أن تفهم ذلك!

كان راكيتين مهتاجاً جداً.

ـ المعذرة. بحق السماء! لم أكن أستطيع أن أفترض هذا. ثم، لماذا هي مومس؟ هل هي... هكذا؟ سأله أليوشا وقد احمرَّ وجهه فجأة. أكرر لك ذلك: إنني سمعت أنها من عائلتك. وأنت تذهب لرؤيتها، غالب الأحيان، وقلت لي أنت بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقة حب... هل يمكنني أن أتصوَّر أنك تحتقرها إلى هذا الحدّ؟ وهل هي تستحق ذلك حقاً؟

ـ إذا زرتها، فلديَّ أسبابي الخاصة. وهذا كافٍ لكي تفهم. أما بالنسبة للقرابة، فإن أخاك أو حتى أباك، هما اللذان فرضا عليك هذه القرابة، يفرضانها عليك أنت وليس عليَّ أنا. ولكن، ما هذا؟ ما الذي يحدث؟ هل تأخرنا؟ لا يمكن أن يكونوا قد انتهوا من تناول الغداء، بهذه السرعة! أم هل أنَّ الأخوين كارامازوف قد دبَّرا «خديعة» ما! أراهن أنه هذا. انظر، هذا أبوك وإيفان فيودوروفتش وراءه. إنهما ينسحبان من عند رئيس الدير. وهذا الأب إيزودور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام ما. وأبوك يصيح أيضاً ملوِّحاً بيديه.

أراهن على أنه يشتمه. انظر، هذا ميوسوف يخرج راكباً عربته. انظر إلى هناك، هذا ماكسيموف الملّاك يركض. إنها لفضيحة حقاً! اذاً لم يحصل الغداء! أتراهم ضربوا رئيس الدير أيضاً؟ أو أنَّ الآخرين هم الذين ضربوهم! هذا، لو رأيت هذا!...

لم يكن راكيتين يصرخ بدون سبب. لقد وقعت فضيحة فعلاً. فضيحة لم تكن في الحسبان... فضيحة غير متوقعة، لم يُسمع بمثلها من قبل. كل ذلك حدث تحت «وطأة الإلهام»...

VIII

الفضيحة

في الوقت الذي دخل ميوسوف وإيفان فيودوروفتش إلى مسكن رئيس الدير، أحسَّ بيوتر ألكسندروفتش الرجل النزيه والمستقيم، أن عملية ما سريعة ودقيقة تحصل داخله. شعر بالخجل لأنه غضب. شعر، في أعماق نفسه، أن رجلاً تافهاً مثل فيودور بافلوفتش، لا يستحق الاحتقار، أما هو، فكان ينبغي ألا يفقد هدوءه في غرفة الراهب الناسك بحيث لا يعود يسيطر على نفسه. «إن الرهبان، على الأقل، هنا، لا يتحملون مسؤولية شيء مما حدث، قال لنفسه وهو يصعد الدرج المؤدي إلى مسكن رئيس الدير. وما داموا، هم أيضاً، أناساً شرفاء (رئيس الدير والأب نيقولاي، هو أيضاً، يبدو أنه من أصل نبيل)، فلماذا لا أكون تجاههم لطيفاً ومهذباً ومحبّاً؟ لن أتهجَّم على آرائهم بل سأتظاهر بالموافقة عليها، فأكسب مودَّتهم... وسوف أبرهن لهم، في نهاية الأمر، على أن لا شيء يجمعني بهذا الإيزوب (Esope) ، هذا المهرّج، هذا التافه الذي، وقعت في فخه تماماً مثلما وقعوا هم...».

بالنسبة إلى الدعوى بصدد قطع الأشجار في الغابة، ومسألة حقوق الصيد في النهر (وكان لا يعرف هو نفسه أين هو المكان الذي كان يقوم عليه

الخلاف) فقد قرر أن يتنازل لهم عنها، نهائياً، في ذلك اليوم بالذات، لاسيَّما وأن قيمة ذلك كله لا تكلِّف شيئاً يذكر، وسوف يسحب القضية من المحاكم، وينهي هذه الدعوى القديمة ضدَّ الدير.

كل هذه النيات الطيبة قد تعززت أكثر عندما دخلوا إلى غرفة طعام رئيس الدير. لم تكن هناك غرفة طعام، في الواقع، لأنَّ مسكن رئيس الدير يتألف من غرفتين فقط وإن كانت الغرفتان أوسع مساحة وأكثر راحة من غرفة الراهب الناسك. لكن أثاثهما لا يوحي بالرفاهية الخاصة: كان مصنوعاً من الجلد ومن خشب الأكاجو، من طراز العشرينات، حتى إن الأرضية الخشبية لم تكن مطلية. لكن كل شيء، في المقابل، كان يلمع نظافةً، وعلى كل النوافذ أزهار ثمينة. وما كان يلفت الانتباه، في تلك اللحظة، هو المائدة المرتَّبة رغم أنها ليست مترفة: الغطاء نظيف، والأواني لماعة، وثلاثة أنواع من الخبز الجيّد، وزجاجتان من نبيذ، وقمقمان مليئان بشراب العسل الذي يشتهر به الدير، وإبريق كبير من زجاج فيه شراب «الكفاس» الذي يُصنع في الدير، وهو شراب مشهور كثيراً في المقاطعة كلها. ولم يكن على المائدة أثر للفودكا. روى راكيتين، فيما بعد، أن وجبة الطعام، في هذه المرة، التي أعدت، تكوَّنت من خمسة أطباق: حساء سمك، وسمك مشوي، وأضلاع من السمك مشوية بطريقة مدهشة، وكريات من السمك الأحمر، ومثلجات، وفاكهة مسلوقة بالسكر، وفاكهة مع العصير، والبوظة، وأخيراً «مهلَّبية» من الفواكه. كان راكيتين قد رشف من كل ذلك، ولم يتمكن أن يقاوم فضوله فتسلل إلى مطبخ رئيس الدير، وهنا أيضاً، دخله عدة مرات. دخل إلى كل مكان. وكان يعرف كيف يتكلم مع الناس. كان له قلب قلق وحسود. وكان راضياً، كلياً، عن قدراته الهائلة، ولكنه يبالغ في حبّ ذاته بعصبيَّة. وكان يثق بأنه سيكون، في المستقبل، شخصية مرموقة. لكن أليوشا الذي كان يحبه كثيراً، كان يتألم في داخله لأنّ صديقه راكيتين رجل

غير شريف، حتى إنه لم يخطر بباله أبداً أنه كذلك. وعلى العكس، يعرف أنه لا يسرق مالاً من على الطاولة، ويعتبر نفسه رجل الكمال الأخلاقي. هنا، ليس إيليوشا فقط لا يستطيع أن يفعل شيئاً، بل ولا أيّ شخص يستطيع أن يغيِّر رأيه.

وبما أنّ راكيتين شخصية ثانوية فلم يكن ممكناً أن يُدعى إلى الوليمة، لكن الأبوين يوسّيف وباييسي كانا مدعوَّين، ومعهما متنسِّك آخر. كانوا ينتظرون في غرفة رئيس الدير، عندما وصل بيوتر ألكسندروفتش وكالغانوف وإيفان فيودوروفتش. وكان الملّاك ماكسيموف، في إحدى الزوايا، جالساً ينتظر هو أيضاً. استقبل رئيس الدير ضيوفه وتقدّم إلى وسط الغرفة. إنه عجوز طويل القامة، نحيل الجسم، لكنه لا يزال متين البنية، شعره أسود فيه خصلة رمادية كبيرة، ووجهه بيضوي شاحب اللون وصارم. حيّا ضيوفه بسكوت، ولكن، هذه المرة، لم يأتوا لتلقِّي البركة. أراد ميوسوف أن يجازف ويقبِّل يده، إلا أنّ رئيس الدير أبعدها في اللحظة المناسبة، ولم تتم قبلة اليد. بالمقابل، إيفان فيودوروفتش وكالغانوف، تلقيا البركة، يعني، بقبلة صغيرة على ظاهر اليد، هي الأبسط والأكثر شعبية.

ـ يتوجب علينا أن نعتذر، بعمق، يا أبتي المحترم، بدأ بيوتر ألكسندروفتش الكلام مظهراً أسنانه بشكل ودود، ولكن بلهجة وقورة ومحترمة، لأننا جئنا بدون أحد أصدقائنا، أريد أن أقول، بدون فيودور بافلوفتش. لقد اضطر أن يتغيّب عن هذه الوليمة، وليس بدون سبب؛ ففي غرفة الأب المحترم زوسّيما، اندفع في مناقشة مؤسفة مع ابنه وقال كلاماً في غير موضعه... أي كلاماً غير لائق أبداً... وأعتقد، يا أبتي المحترم، (وكان ينظر إلى الراهبين المتنسِّكين)، أنك قد علمت بذلك، ولهذا السبب، وإذ شعر بأنه مذنب، وبأسفٍ صادق، أحسَّ بالخجل، وهو يعجز عن تخطّيه. فطلب منّا، أنا وابنه إيفان فيودوروفتش أن نعرب لك عن أسفه الشديد وندمه الصادق... ويأمل أن يصلح خطأه، في

المستقبل القريب، وحتى ذلك الحين، يرجو أن تباركه ويطلب منك أن تنسى ما حصل...

وسكت ميوسوف. بعد أن أنهى الكلمات الأخيرة من خطابه الطويل وقد شعر بالرضى التام عن نفسه بشكل لم يبق فيه أثر للغضب الذي اعتراه من قبل. وجد حبَّه الحقيقي للبشرية كلها.

استمع رئيس الدير إليه بوقار وأحنى رأسه قليلاً وأجاب:

ـ آسف من أعماق قلبي على الذي لم يأتِ. ربّما كنا تقاسمنا محبتنا أثناء هذه المأدبة، وشعرنا نحوه بمحبة. تفضلوا، أيها السادة، إلى المائدة.

أخذ مكانه أمام الإيقونة وبدأ الصلاة بصوت عالٍ، فخفض الجميع رؤوسهم باحترام، وتقدَّم الملَّاك ماكسيموف إلى الأمام ضامّاً يديه أمامه ليعبّر عن احترامه الخاص.

وهنا، قام فيودور بافلوفتش بمكيدته الأخيرة. ينبغي التذكير بأنه كان، في الواقع، ينوي الانصراف، وأحسَّ بالفعل أنَّ من المستحيل بعد سلوكه الفاضح في غرفة الراهب الناسك، أن يحضر مأدبة رئيس الدير؛ كأنَّ شيئاً لم يكن. لا، لأنه يشعر بخجلٍ من نفسه، أو لأنه يلوم نفسه، كان العكس تماماً هو الأصح! وكان يشعر، بالرغم من كل ما حصل، أن حضور المأدبة سيكون غير لائق. لكن، ما كادت عربته تصل إلى أمام دار الضيافة، حتى أحسّ بتردد مفاجىء، فتوقف، على الفور، وتذكر أقواله في غرفة الراهب الناسك: «إنني أشعر، دائماً، عندما أدخل إلى مكان ما، أنني الأسوأ بين الجميع، وأنّ الجميع يعتبرونني مهرِّجاً! إذاً، فليكن، سألعب دور المهرِّج، لأنكم أنتم جميعاً أكثر غباءً مني، وأنذل منّي». تمنّى لو ينتقم من الجميع على سفاهاته. وتذكَّر، بهذا الصدد، فجأة، أنه ذات مرة منذ مدَّة بعيدة، سُئل: «لماذا تكره هذا الشخص؟» فأجاب باندفاع المهرّج: «لماذا؟ سأقول لكم: صحيح أنه لم يسئ إليّ، لكن أنا، ارتكبت في

حقّه حقارة قذرة، ومذ قمت بتلك الحقارة، أصبحت أكرهه على الفور». لمّا تذكّر هذا، ضحك بدهاء، وراح يفكر بضع لحظات. والتمعت عيناه، وبدأت شفتاه بالارتجاف: «لقد سُكبت الخمرة فيجب شربها، سوف أُكمل ما بدأته». ختم قوله فجأة. إن الشعور الخفيّ الذي خضع له، في تلك اللحظة، يمكن أن يُفسَّر بالتالي: «الآن، فات أوان ردّ الاعتبار إلى نفسي، إذاً، مادام الأمر كذلك، فسأذهب حتى النهاية، وأهينهم أكثر، وسيرون، عندئذ، أنني لا أهتمّ بهم، ولا أحفل بما عدا ذلك، وانتهى الأمر». أمر الحوذي بأن ينتظره، وها هو يعود، مسرعاً، إلى الدير، حيث ذهب مباشرة إلى رئيس الدير. لم يكن يعرف بعد ماذا عليه أن يفعل، ولكنه يعرف أنه لا يمكنه السيطرة على نفسه، وأن أيّ «نقفة» ستدفعه بطرفة عين، إلى أقصى حدود الدناءة، مهما تكن. دون أن يتعرّض للوصول إلى أبعد من ذلك، ودون ارتكاب جريمة أو نزوة يمكن أن تؤدي به إلى المحكمة. وفي هذه الحالة الأخيرة، كيف يلجم نفسه، وهو يندهش حتى من قدراته على السيطرة في بعض الحالات. وصل إلى غرفة طعام رئيس الدير، فاقترب الجميع من رئيس الدير في اللحظة المحددة التي كانت فيها الصلاة قد انتهت، فاقترب الجميع من المائدة. وقف على العتبة، جال بنظرة على الحضور، ثم أطلق ضحكة طويلة ملؤها الغطرسة والخبث، وهو يتفرس فيهم جميعاً، بنظرة جسورة من أعماق عينيه.

ـ لقد ظنوا أنني ذهبت، وأنا، الآن، هنا! صاح بصوت دوّى في كل أرجاء الغرفة.

بعد لحظة، نظر إليه الجميع محدّقين إليه، دون أي كلام، وفجأة، شعر الجميع أنَّ أمراً سيئاً كريهاً سوف يحدث، مع فضيحة لا مفرّ منها. وانتقل بيوتر ألكسندروفتش من حالة المزاج الهادىء إلى حالة الغضب العارم. وكل ما كان قد هدأ وانطفأ في قلبه، التهبَ بسرعة.

ـ لا، هذا لا يحتمل، لا أستطيع. صاح. لن أطيق ذلك... لا أستطيع إطلاقاً!

صعد الدم إلى رأسه، واختلطت عليه الأمور. ونسي كل فصاحته! وتناول قبعته.

ـ ما الذي لا يستطيع أن يحتمله؟ صاح فيودور بافلوفتش. «لا يستطيع» أبداً و «لا يستطيع إطلاقاً»؟ يا أبتي المحترم، هل أدخل أو لا أدخل؟ هل تستقبل ضيفك؟

ـ أهلاً وسهلاً بكم، من كل قلبنا. أجاب رئيس الدير.

ـ أيها السادة، أسمح لنفسي، أضاف فجأة، أرجو، من أعماق قلبي، أن تنسوا خلافاتكم العابرة العائلية، وأن تلتقوا بالمحبة والوفاق مع أهلكم وتصلّوا للرب حول مائدتنا المتواضعة...

ـ لا، لا، هذا مستحيل! صرخ بيوتر ألكسندروفتش وقد خرج عن طوره.

ـ عجباً! إذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة إلى بيوتر ألكسندروفتش، فهو مستحيل بالنسبة إليّ، أنا أيضاً. إنه مستحيل، ولن أبقى. كنت أعرف ذلك، لدى وصولي، والآن، سأكون دائماً مع بيوتر ألكسندروفتش: تنصرف أنت يا بيوتر، إذاً أنصرف أنا، وتبقى أنت، أبقى أنا. إن الوفاق الذي أقمته بين الأهل قد أساء إليه كثيراً، أيها الأب الرئيس: إنه لا يعترف بي كأخ! أليس هذا صحيحاً يا فون زوهن؟ هذا هو فون زوهن أمامي. مرحباً، يا فون زوهن!

ـ أنت... أنا الذي تشير إليه؟... تمتم الملّاك ماكسيموف مذهولاً.

ـ طبعاً، هو أنت! صاح فيودور إيڤانوفتش. ومَنْ غيرك؟ ليس الأب الرئيس هو الذي يمكن أن يكون فون زوهن!

ـ لكنني لست فون زوهن، أنا ماكسيموف؟

ـ لا، أنت، فون زوهن! أنت تعرف، أيها الأب المحترم، من هو فون

زوهن؟ لقد قُتل في ماخور ـ أعتقد أن هذا هو الاسم الذي تسمّون به تلك الأماكن عندكم ـ قُتل، وسُلب بالقوة، بالرغم من شيخوخته، ووُضع في صندوق ثم سُمِّر، وشُحن طرداً مسجَّلاً، من بطرسبرغ إلى موسكو، في قاطرة الشحن. وبينما هم يسمِّرون الصندوق، كانت المومسات تغني وترقص على أنغام الغوسلي(*)، أعني البيانو.

إذاً، إن فون زوهن هو هذا الفون زوهن الذي ترونه الآن أمامكم. لقد بُعثتَ من بين الأموات، يا فون زوهن؟

ـ لكن، ما هذا الكلام؟ كيف؟

هذا ما سمعته مجموعة الرهبان النساك.

ـ فلنخرج! صاح بيوتر ألكسندروفتش متوجهاً نحو كالغانوف.

ـ لا، اسمحوا لي! قاطعه فيودور بافلوفتش قائلاً بصوت ثاقب، وهو يتقدم خطوة أخرى إلى داخل الغرفة. اسمحوا لي أن أنهي كلامي. هناك في الزنزانة تشتموني، لأن سلوكي كان غير محترم، وبشكل أدق لأنني تكلمت عن الأسماك الصغيرة. إن بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف، قريبي المحترم، يفضل أن يكون الكلام فيه نبالة أكثر مما فيه من الصدق. وأنا أقول: إنه العكس، أفضِّل أن يكون في كلامي من الصدق أكثر مما فيه من النبالة! ألست على حقّ يا فون زوهن؟ إسمح لي، أيها الأب الرئيس، ربّما أكون مهرجاً، وإنني أقدّم نفسي هكذا. ولكنني فارس من فرسان الشرف، وأريد أن أعبِّر عن نفسي. نعم، أنا فارس من فرسان الشرف، بينما بيوتر ألكسندروفتش هذا، ليس سوى حزمةٍ من غرور متصنّع. ولا شيء آخر إذا جئت، إنما لكي ألاحظ وأقول. عندي ابن هنا، هو ألكسي، يحقق خلاصه. أنا أبوه. يهمّني مصيره. ويجب

(*) آلة تقليدية للموسيقى الروسية القديمة.

أن أهتمَّ به. كنت أستمع طوال الوقت، كنت أمثِّل، وأنظر بهدوء؛ والآن، أريد أن أعرض عليكم الفصل الأخير! أنا أعرف كيف تجري الأمور عندنا؟ ما يقع، يبقى على الأرض عندنا، إذا وقع الخطأ مرة، يبقى على الأرض قروناً وقروناً. لكن كيف ذلك؟ أنا أريد أن أنهض! آبائي المقدسون، إنكم تثيرونني. الاعتراف هو سرّ مقدس كبيرأحترمه، أنا أيضاً، وأشعر تجاهه أنني مستعد أن أسجد على الأرض، وهنا، فوراً! لكن، في تلك الغرفة، كل الناس يركعون ويعترفون بصوتٍ عالٍ. فهل مسموح الاعتراف بصوت عالٍ؟ وإن آباء الكنيسة القديسين أمروا بالاعتراف همساً في الأذن، وبهذا الشرط فقط يبقى الاعتراف سراً، وذلك منذ زمن طويل. كيف تريدون أن أقول أمام جميع الناس إنني، أنا، فعلت هذا وهذا... حسناً، هل تفهمونني؟ ليس من الحشمة القول في بعض الأحيان. لا، يا آبائي، معكم، أتصوَّر أن الجميع سيقعون في عمليات الجلد... ما سأقوم به هو ما سأكتبه في الشكوى التي سأقدّمها إلى السينودس عند أول مناسبة... وابني ألكسي، سأصطحبه إلى منزلي...

هنا، توجد ملحوظة. كان فيودور بافلوفتش يعرف أين يدقّ ناقوس الخطر. لقد حدثت، في الماضي، وشايات حقودة، وصلت حتى الأسقف (ليس في ديرنا فقط، بل أيضاً في الأديرة الأخرى حيث أقيمت مؤسسة الرهبان المرشدين). وقيل إنهم كانوا يحترمون الرهبان المرشدين بالرغم من رتبة رؤساء الأديرة. وقيل، خاصة، إن الرهبان المرشدين يسيئون استخدام سرِّ الاعتراف. وقيلت أيضاً حماقات كثيرة، في أيامهم، الخ؛ وسقطت هذه الاتهامات، تلقائياً، بعد ذلك، سقطت كما في كل مكان. لكن الشيطان تمسَّك وركب فيودور بافلوفتش وراح يهوي به، متوتر الاعصاب، إلى قعر الدناءة، لقد لقّنه هذا الاتهام القديم الذي كان فيودور بافلوفتش نفسه لا يفهم منه كلمة واحدة. على كل حال، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام، سيَّما وأنّ أحداً

لم يكن قد جثا على ركبتيه في غرفة الراهب الناسك، ولا اعترف بصوت عالٍ، ومعنى هذا أن فيودور بافلوفتش غير قادر على أن يرى، وكان يقول، اذاً، ما سمعه من أقاويل قديمة. والشيطان يعرف كيف كان يتذكر؟ شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد، فجأة، أن يبرهن للمستمعين على أنه قال كل شيء ماعدا السخف. ورغم أنه كان يعرف أن كل كلمة يضيفها إنما تفاقم قبح كلامه وتجعله يتردَّى أكثر في الحماقة، فلم يعد قادراً على أن يتوقف على المنحدر وينطلق كما من أعالي جبل.

ـ يا للنذالة! صرخ بيوتر ألكسندروفتش.

ـ اسمح لي. قال فجأة رئيس الدير، جاء في كلام الأقدمين: «وقولوا عني أشياء كثيرة جداً، وحتى أشياء دنيئة. فلما سمعتهم، قلت لنفسي: ليس هذا سوى بلسم يسوع الذي يجب أن يشفي الكبرياء في نفسي». لهذا السبب، نشكرك بمنتهى التواضع، أيها الضيف المحبوب!

وانحنى بعمق أمام فيودور بافلوفتش.

ـ هراء! كذب، وجمل قديمة! جمل قديمة وحركات قديمة! فالكذبة القديمة والانحناءات الروتينية حتى الأرض، أصبحت معروفة. وداعاً، أيتها التحيات! «قبلة على الشفتين وخنجر في القلب». تماماً كما جاء في كتاب شيللر «قطّاع الطرق». أنا لا أحب الكذب، أيها الآباء، أنا أريد الحقيقة! وليست الحقيقة في أكل الأسماك الصغيرة، سبق أن قلت لكم ذلك. آبائي الرهبان، لماذا تنقطعون عن أكل اللحم والدهن؟ لماذا تتوقعون نعماً في السموات على ما تحتملونه من تقشُّف؟ أنا أيضاً مستعد، أنا من أجل نعمة كهذه، مستعد أن أصوم! لا، أيها الراهب المقدس! كن فاضلاً في الحياة، قليلاً، كن مفيداً للمجتمع بدلاً من أن تحبس نفسك في ديرك، تأكل خبزاً محمصاً، ولكي تنال، فوق ذلك، مكافأة في الحياة الآخرة! ربما هذا، يبدو لك أصعب؛ أنا أيضاً،

أجيد الكلام كما يتوجب، أيها الأب الرئيس. ماذا حضَّروا هناك! تابع وهو يقترب من المائدة. خمرة معتّقة، وعسل من معمل الإخوة إليسايف. آه، أيها الآباء المقدسون، لكن هذا لا يشبه الأسماك الصغيرة، أليس كذلك؟ وهذه الزجاجات التي وضعوها لكم هناك. هه، هه، مَن الذي جلبها؟ إنه الفلاح الروسي، العامل، بيديه الخشنتين والذي يدفع إلى الدير الفلس الذي كسبه منتزعاً إياه من عائلته، ومن حاجات الدولة! لأنكم أنتم، أيها الآباء المقدسون، تمتصون دم الشعب!

ـ إنه لكلام معيب لا يليق بك! قال الأب يوسّيف.

أما الأب بابيسي فقد أصرَّ على الصمت في عناد. وأسرع ميوسوف خارجاً من الغرفة، وتبعه كالغانوف.

جيد، آبائي، أنا أيضاً، بيوتر ألكسندروفتش! والآن، لن تطأ قدماي ديركم. بوسعكم أن تتوسَّلوا إليّ راكعين، لن تطأ قدماي أبداً! أرسلت إليكم ألف روبل، فأيقظ هذا شهوتكم، هه، هه، هه، لا، لن أضيف إلى ذلك شيئاً. أنا أنتقم من أيام شبابي الماضية لكل الإذلال الذي لحق بي. صاح وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، وقد عصف به عنف مقصود.

لقد كلَّفني ديركم الكثير في حياتي. جعلني أذرف كل هذه الدموع المرَّة! أهجتم عليَّ زوجتي «المولولة». لعنتموني في كل كنائسكم. وأسأتم إلى سمعتي في المنطقة كلها. هذا يكفي. أيها الرهبان! الآن، نحن نعيش في عصر الليبرالية، في عصر السفن البخارية وسكك الحديد. لا ألف روبل ولا مئة روبل ولا مئة كوبيك، لن أعطيكم شيئاً.

ملحوظة جديدة: لم يحتل ديرنا، في حياته، مكاناً، في يوم من الأيام، ولا جعله يذرف دموعاً مرَّة؛ لكنه بلغ من اندفاعه في التمثيل أنه على وشك أن يصدّق، هو نفسه، الألم الذي كان يتظاهر به، حتى لقد كاد يبكي، شفقة على

نفسه مما عاناه. ومع ذلك، شعر في تلك اللحظة، أنه آن الأوان لكي يتوقف. إن الأب الرئيس، أمام هذه الأكاذيب اللئيمة، لم يردَّ عليه بل انحنى برأسه مرة جديدة وقال بصوت رصين:

ـ لقد قيل أيضاً: «تحمّل بصبر وفرح الإهانة التي تصيبك، ولا تضطرب أبداً، ولا تغضب من الذي أهانك». وهذا، ما سنفعله.

ـ هذا هو، نعم، (Peccamini) وكل هذا الهراء! لكم ما تطلبون، أيها الآباء (Peccaminez) . أنا ذاهب، وسآخذ ابني ألكسي من هذا المكان إلى الأبد، بحكم سلطتي الأبوية. يا إيفان فيودوروفتش، يا بنيَّ المحترم، اسمح لي أن آمرك بأن تتبعني! وأنت يا فون زوهن، لماذا تبقى هنا؟ تعال لزيارتي في المدينة، فهناك سنمرح كثيراً. ليست المسافة سوى فرسخ صغير، من هنا، وبدل زيت الكتّان سأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل. سوف نأكل. سأقدّم الكونياك ومشروبات كثيرة. عندي «ماموروكوفا»(*)... هيا! فون زوهن! لا تضيِّع هذه المناسبة!

وخرج صارخاً وهو يحرّك يديه. وفي تلك اللحظة، لمحت راكيتين منصرفاً، ودلَّ عليه أليوشا.

ـ ألكسي! صاح أبوه، من بعيد، حين رآه. اليوم، ستسكن في بيتي. خذ وسادتك وفراشك، واختفِ عن هذا المكان نهائياً!

توقف ألكسي مذهولاً، يراقب المشهد بانتباه وبدون كلام. كان فيودور بافلوفتش قد اتخذ مكانه في عربته يتبعه إيفان فيودوروفتش مغموماً وصامتاً، حتى أنه لم يتسنَّ له الوقت لكي يلتفت يعود ويودّع أليوشا. وهنا، وقع مشهد جديد من التهريج لا يُصدَّق، زاد الأمور تفاقماً. فقد ظهر فجأة الملاّك

(*) نوع من الشراب مصنوع من العنبية.

ماكسيموف على مصعد العربة. كان يركض لاهثاً لكي لا يصل متأخراً. كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يركض. كان مستعجلاً بحيث وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم إيفان فيودوروفتش ما تزال عليها، وتمسَّك بهيكل العربة يريد أن يقفز إلى داخلها.

ـ أنا أيضاً، أنا أيضاً سأرحل معكم! صاح وهو يقفز إلى العربة مطلقاً ضحكة صغيرة مرحة وقد أشرق وجهه، وبدا عليه أنه مستعدّ لكل شيء: أنا أيضاً، خذوني معكم!

ـ أما قلتَ إنه؟ صاح فيودور بافلوفتش بحماسة. إنه فون زوهن! فون زوهن الحقيقي قام من بين الأموات! كيف استطعت أن تهرب من هناك؟ كيف استطعت أن تخدعهم، وكيف استطعت أن تترك المائدة؟ يجب أن يكون المرء عنيداً لكي يفعل هذا: أنا، عنيد. لكنك أنت تدهشني! اقفز، اقفز بسرعة! دعه يمرّ يا فانيا، سوف نمرح كثيراً. فليتمدّد، لست أدري أين، عند أقدامنا. هل تتمدّد يا فون زوهن؟ أم أنك تتسلق مقعد الحوذي؟... هيّا، اقفز، فون زوهن!

لكن إيفان فيودورفتش الذي كان قد استقرّ، فجأة، في العربة، دون كلام، دفع ماكسيموف بكل قواه، وضربه على صدره بقوة، فأبعده مسافة مترين. ومن الصدفة أنه لم يقع.

ـ امشِ! صاح إيفان فيودوروفتش يأمر الحوذي بخبث.

ـ ماذا دهاك؟ لماذا ضربته؟ سأله فيودور بافلوفتش. لكن العربة كانت قد تحركت. ولم يجب إيفان فيودوروفتش بشيء.

ـ وأنت! أضاف فيودور بافلوفتش وهو يختلس النظر إلى ابنه، بعد دقيقتين من الصمت. أنت الذي فكَّرت في هذه الزيارة، إلى هذا الدير، ودفعتني إليها، وشجعتني، فلماذا تغضب الآن؟

ـ توقّف عن سخافاتك، وكن مرتاحاً! قاطعه إيفان فيودوروفتش بصوت قاسٍ. لم يبقَ لنا سوى لحظة.

سكت فيودور بافلوفتش مجدداً، دقيقتين أو ثلاثاً.

ـ قليل من الكونياك، لا بأس به. قال بلهجة وقورة.

لكن إيفان فيودوروفتش لم يجب.

وصلنا، وأنت أيضاً، ستشرب معي.

وبقي إيفان فيودوروفتش ساكتاً.

ـ أما أليوشا، فلا بأس، سأخرجه من الدير، رغم أن هذا لن يعجبك، أيها الابن المطيع، كارل فون مور.

هزَّ إيفان فيودوروفتش كتفيه باحتقار ثم استدار، وراح ينظر إلى الطريق. وبعد ذلك، لم يتفوَّها بكلمة واحدة إلى أن وصلا إلى المنزل.

الكتاب الثالث

الشهوانيون

I

بين عامّة الناس

ينتصب منزل فيودور بافلوفتش بعيداً حتى عن وسط المدينة ولكن ليس على حدودها تماماً. كان منزلاً قديماً، لكنه حسن المظهر: طابق على مستوى واحد مع ميزانين، مطلي باللون الرمادي، يغطيه سقف من صفيح أحمر. ومع ذلك، بإمكانه أن يصمد مدة طويلة. كان فسيحاً ومريحاً، في داخله غرف ضيقة معتمة، وكل أنواع المخابىء، وسلالم صغيرة في أكثر من مكان. فيه أيضاً جرذان كثيرة، لكن فيودور بافلوفتش لا يزعجه وجودها أبداً: «مع ذلك، لا يحسّ المرء بالوحشة كثيراً، خلال الليل، عندما يكون وحيداً». ذلك أنه، في الواقع، قد اعتاد أن يصرف خدمه ليقضوا الليل في مبنى الجناح الملحق به، وهو يحبس نفسه في المنزل وحيداً طوال الليل. وكان ذلك المبنى الملحق الذي يقع في الفناء، فسيحاً ومتيناً. هناك أيضاً، كان فيودور بافلوفتش قد أقام مطبخه الخاص، مع أن في المنزل مطبخاً. كان لا يحب روائح المطبخ، فكان يؤتى اليه بالطعام عبر الفناء في الصيف كما في الشتاء. وبشكل عام، بُني المنزل لكي يحوي عائلة كبيرة العدد: من السادة كما من الخدم. يمكن أن يقيم فيه خمسة أضعاف العدد المقيم حالياً. وأثناء حدوث قصتنا لم يكن يسكن المنزل

إلا فيودور بافلوفتش وإيفان فيودوروفتش، وفي جناح الخدم يسكن ثلاثة أشخاص: غريغوري العجوز وزوجته العجوز مارفا والخادم سميردياكوف، وهو لا يزال شاباً، يجدر الحديث عن بعض التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الخدم الثلاثة. لقد سبق أن تحدثنا كثيراً عن العجوز غريغوري غريغوري فاسيليفتش كوتوزوف. كان رجلاً قوياً وعنيداً، يمضي في عناد، وبخطّ مستقيم نحو هدفه، إذا كان هذا الهدف حقيقة راسخة. بشكل عام، كان رجلاً شريفاً ونزيهاً. لقد ألحّت عليه زوجته مارفا إينياتيفنا، وقد كانت طوال حياتها خاضعة لإرادة زوجها، ولاسيما بعد تحرير الفلاحين، بأن يترك فيودور بافلوفتش ويذهب إلى موسكو، ويفتح هناك دكاناً صغيراً (كانا قد جمعا قليلاً من المال). لكن غريغوري، شعر، فوراً، أن زوجته تتحدَّث عن تفاهات، لأن «كل النساء غير شريفات»، وينبغي لهما ألّا يتركا سيدهما القديم، على الرغم من كل ما يمكن أن يكون «لأن ذلك هو الواجبِ الذي يقع على عاتقهما الآن».

ـ هل تعرفين ما هو الواجب؟ سأل زوجته مارفا إينياتيفنا.

ـ أعرف ما هو الواجب، يا غريغوري فاسيليفتش، ولكن، ما هو الواجب الذي يجبرنا على البقاء هنا، هذا، ما لا أفهمه. أجابته مارفا بجزم.

ـ عجباً! أفهمتِ أم لا، هكذا سيكون، والآن، اسكتي!

وهكذا كان: لم يذهبا! وفيودور بافلوفتش حدَّد لهما أجراً، ليس بالمرتفع طبعاً، لكنه، كان يدفعه لهما بدون تأخير. كان غريغوري يعرف، بالإضافة إلى ذلك، أنّ له على سيّده تأثيراً لا نقاش فيه. كان يشعر بذلك، وهو على حق: إن فيودور بافلوفتش المهرّج، والماكر، والعنيد الذي يتمتع بطبعٍ قاسٍ في «بعض شؤون الحياة»، حسب تعبيره، كان ضعيفاً جداً في «شؤون أُخرى من شؤون الحياة». وكان يعرفها جيداً، يعرف ذلك؛ وكان يخشاها. وكانت أذناه بالمرصاد «في بعض شؤون الحياة»، وذلك صعب جداً، إذا كان لا يستطيع الاعتماد

على شخص يثق به. وكان غريغوري الرجل الأجدر بالثقة في العالم كله. كان يمكن لفيودور بافلوفتش، مراراً، أثناء حياته، أن يُضرب، وأن يُضرب بأذى شديد، ولكن غريغوري كان ينقذه دائماً، ويتلقى، في كل مرة، النصح بخطاب مستفيض. لكن لم تكن الضربات وحدها تخيف فيودور بافلوفتش. لكن ثمة حالات قصوى، لا بل حالات دقيقة ومعقدة، كان فيودور بافلوفتش نفسه لا يمكنه تفسيرها وتحديد الحاجة غير العادية التي تبرهن على أن رجلاً مخلصاً وقريباً يقف إلى جانبه. تلك، كانت دائماً حالات شبه مرضيَّة: وهو الفاجر إلى أقصى الحدود، وهو الرجل القاسي في شهوانيته قسوة حشرة مؤذية. كان فيودور بافلوفتش يشعر في بعض لحظات السكر بنوع من خوف نفسيّ، وصدمة أخلاقية، يرهقانه جسدياً في أعماق نفسه. «أشعر بروحي، في تلك الحالات، أنها تندفع خارجةً من أحشائي». كان يقول أحياناً. ففي الحالات تلك، كان يودّ أن يوجد إلى جانبه، ليس بعيداً، ربّما في الغرفة نفسها، لكن في المبنى الملحق، رجل حازم ومخلص، لا يشبهه أبداً، لا يعرف الفجور، ورغم معرفته بأنواع تهتّكه، واطلاعه على أسراره، يسامحه من باب الإخلاص، ولا يعارضه، ولا يلومه عليها بشكل خاص، ولا يهدّده بعقوبات مقبلة لا في هذه الحياة ولا في الآخرة. ويستطيع أن يدافع عنه عند الحاجة ـ ممَّن؟ من امرئ مجهول ولكنه رهيب وخطر. وكان المهمّ عنده، أن يكون بالقرب منه رجل «آخر»، حاضر ، رجل صديق قديم، يمكن أن يناديه، في لحظة من ألمٍ، لينظر إلى وجهه فقط، وربّما ليقول كلمة لا علاقة لها بأيّ موضوع: وهذا ممكن إن لم يكن غاضباً، وإذا كان غاضباً يشعر بمزيد من الحزن. وقد حدث لفيودور بافلوفتش (وإن نادراً جداً) أن يذهب إلى غريغوري في المبنى الملحق، أثناء الليل، فيوقظه من نومه ليطلب إليه أن يتبعه لحظة صغيرة. وكان غريغوري يجيء إليه، ويبدأ سيّده بالحديث عن تفاهات سخيفة، وأحياناً بتهكم ومزاح،

ثم ينام نوماً هادئاً. لقد مرَّ فيودور بافلوفتش بشيء من هذا النوع، لدى وصول أليوشا. وأليوشا «طعن قلبه» لأنه «يعيش هنا، يرى كل شيء ولا يدين شيئاً». وفوق ذلك، حمل إليه شيئاً خارقاً جداً ـ غياباً كاملاً للاحتقار تجاهه، وحناناً دائماً، وتعلُّقاً طبيعياً لا افتعال فيه، ويستحقه. وهذا كله، كان بالنسبة إلى العجوز المتهتك المعادي للحياة العائلية، مفاجأةً إلهية غير متوقعة، بالنسبة إليه هو الذي لم يعشق إلا الفجور. وقد اعترف لنفسه، بعد رحيل أليوشا، بأنه عرف في ذاته أشياء لم يرد أن يفهمها أبداً.

سبق أن ذكرت في بداية قصتي إلى أي حدّ كان غريغوري يكره أديلاييدا إيفانوفنا، زوجة فيودور بافلوفتش الأولى، أمّ ابنه الأول ديمتري فيودوروفتش، وإلى أيّ حدّ، بالمقابل، كان يدافع عن زوجته الثانية «الموَلولة»، صوفيا إيفانوفنا، ضدَّ سيّده بالذات، وكل من يمكن أن يفكر بالقول في حقّها كلمة سوء ولو عن طيش. وقد تحوَّلت هذه المودة في نفسه إلى فعل مقدس، بلغت من القوة أنه أصبح، حتى بعد عشرين عاماً، لا يستطيع أن يتحمل من أيّ إنسان، أيّ إشارة تسيء إليها. وإن فعل يهاجمه على الفور، وكان غريغوري، في المظهر، رجلاً هادئاً ووقوراً، قليل الكلام، لا يتكلم إلا عن دراية، شاعراً بوزن كل كلمة. وتماماً بالشكل نفسه، كان من المستحيل أن تقرّر من النظرة الأولى، إذا كان يحب زوجته الخاضعة الطيعة أم لا. وفي الواقع، كان يحبّها فعلاً، وكانت هي تعرف ذلك. كانت مارفا إينياتيفنا هذه، ليست غبية ولعلَّها كانت أشد ذكاء من زوجها، وأصدق منه، في شؤون الحياة اليومية، ومع ذلك، خضعت له دون أن تنبس بكلمة، ودون أن تناقشه منذ زواجهما، وكانت تحترمه، بدون أي شك، لتفوُّقه الروحي. ومن الملاحظ، أن الاثنين، طوال حياتهما، قليلاً ما كانا يتبادلان الكلام إلا بالأمور الضرورية، وهي أمور يومية. وكان غريغوري الوقور والمهيب يفكر في شؤونه ومشاغله وحده. وقد بلغ

من هذا أن مارفا إينياتيفنا، عرفت نهائياً أنه ليس بحاجة إلى نصائحها. وكانت تشعر أنّ زوجها يقدِّر لها سكوتها، ويرى فيه دليلاً على ذكائها. أن يضربها. لم يضربها أبداً، إلا مرة واحدة ـ ولم يكن ضرباً عنيفاً على كل حال. وإليكم كيف؟ في السنة الأولى من زواج فيودور بافلوفتش بأديلاييدا إيفانوفنا، وذات يوم، في القرية، لم يكن نساؤها وبناتها قد تحرّرن من العبودية في ذلك الوقت، اجتمعن عند أسيادهن ليرقصنَ ويغنّين. وبينما كانت أولئك الفلاحات يغنين أغنية «في المروج...» إذا بمارفا إينياتيفنا، التي كانت لا تزال في ريعان الشباب، تندفع فجأة إلى أمام جوقة المغنيات، وانطلقت في رقصة روسية لها وقع خاص، ليس كما يرقصن في الريف، مثل سائر الفلاحات، وإنما رقصت كما كانت ترقص عندما كانت خادمة في منزل آل ميوسوف الأثرياء، على المسرح الخاص بتلك العائلة التي استدعت له، من موسكو، أستاذاً للرقص ليعلِّم الممثلين. رأى غريغوري خطوات رقص زوجته، ولدى عودتهما إلى البيت، بعد ساعة، أدَّبها بشدِّها من شعرها. لكن الضربات توقفت هنا نهائياً، ولم تتكرر مرة أخرى في حياتهما. ثم إن مارفا إينياتيفنا قد توقفت، منذ ذلك الوقت، عن حبّها للرقص.

لم يرزقهما الله أولاداً؛ أنجبا طفلاً، لكنه مات. كان غريغوري يحبّ الأطفال، حتى إنه لا يخفي هذا الحب. أي إنه كان لا يخجل بالمجاهرة بذلك. عندما هربت أديلاييدا إيفانوفنا، احتضن ديمتري فيودوروفتش الطفل الصغير، وهو في الثالثة من عمره، وراح يهتم به سنة كاملة تقريباً، يمشّط شعره، ويغسل جسمه في الدلو. ثم اهتمّ بإيفان فيودوروفتش ثم بأليوشا، مما جعله يتلقّى صفعة. لكن سبق أن تحدثت عن ذلك. أما ولده، فلم يفرح به إلا بالأمل عندما كانت مارفا إينياتيفنا لا تزال حاملاً؛ ويوم ولد الطفل امتلأ قلب أبيه حزناً وهولاً. ذلك أن الطفل قد جاء إلى هذا العالم، بست أصابع. وعندما اكتشف

ذلك، صُعق غريغوري إلى درجة أنه لم ينبس بكلمة إلى حين المعمودية، وكان ينزوي في الحديقة غارقاً في الصمت. كان ذلك في فصل الربيع، وخلال ثلاثة أسابيع متتالية، غرقَ في بستان الخضار. وفي اليوم الثالث كان يجب تعميد الطفل. في هذا الوقت، نضجت الفكرة في رأسه. دخل إلى مسكن الخدم حيث اجتمع الكهنة مع المدعوين. وأخيراً، جاء فيودور بافلوفتش شخصياً ليكون عراباً للصبي، وقال فجأة، من الأفضل ألّا يُعمَّد الطفل. لم يقل ذلك بصوت عالٍ ولم يسترسل في الكلام، وإنما قاله وهو لا يكاد ينطق بكلماته واضحة، وهو يحدج الكاهن بنظرة حادة عنيدة.

ـ لماذا هذا؟ سأل الكاهن بدهشة فرحة.

ـ لأنه... تنّين! تمتم غريغوري.

ـ تنِّين؟ كيف ذلك، تنّين؟

ـ حدث اختلاط في الطبيعة... غمغم بشكل غامض جداً ولكن بصوت صارم يوحي بأنه لا يريد أن يسهب في الشرح أكثر من ذلك.

ضحك الحاضرون قليلاً، وجرى تعميد الطفل المسكين ببساطة. صلَّى غريغوري بورع أمام جرن المعمودية، لكنه لم يبدّل رأيه في الوليد. لم يخلق أيّ صعوبة، وخلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل المريض، لم ينظر إليه أبداً. رفض أن يراه. وكان يقضي معظم وقته خارج منزله الخشبي. ولكن بعد أسبوعين، مات الطفل بمرض القُلاع، وهو نفسه من وضعه في تابوته الصغير، وتأمله طويلاً بحزن عميق. عندما أُهيل التراب على القبر الصغير جثا على ركبتيه وانحنى حتى الأرض أمام القبر. ومنذ ذلك اليوم، وخلال سنوات طويلة، لم يقل شيئاً عن ابنه. كما أن مارفا إينياتيفنا، هي أيضاً، لم تذكر أبداً طفلها. وإذا صودف أن تحدثت، مع هذه أو تلك، فذلك همساً، حتى في غياب غريغوري فاسيليفتش. وقد لاحظت مارفا إينياتيفنا، أنه منذ اللحظة المحددة،

لهذه المقبرة الصغيرة، بدأ غريغوري يهتمّ، بشكل أساسي بالـ«شؤون الإلهية»، ويقرأ سِير حياة القديسين صامتاً منعزلاً، واضعاً على عينيه، في كل مرة، نظارتيه المدوَّرتين الكبيرتين المؤطرتين بالفضة. نادراً ما كان يقرأ بصوت عالٍ، إلا في أيام الصوم الكبير. وكان يحبّ قراءة «سفر أيوب» خاصة، كما حصل، والله أعلم من أين، على كتاب يحوي أفكاراً ومواعظ لـ «أبينا الناسك اسحاق السوري». كان يقرأ هذا الكتاب بإصرار، سنةً بعد سنة، دون أن يفهم منه شيئاً بطبيعة الحال، ولكن هذا بالذات، هو ما جعله يتمسّك بهذا الكتاب أكثر. وفي الآونة الأخيرة، بدأ يستمع ويدرس آراء المتسوِّطين(*)، وقد التقى بعدد مهم في الجوار، فتأثر بهم بشكل واضح، ولكنه وجد من غير المستحسن الاعتقاد بإيمان جديد، وأن قراءاته «الشؤون الدينية» قد أضفت على وجهه طابعاً أكثر وقاراً.

ربّما كان لدى غريغوري ذا ميول صوفية. لكن هنا، وهذا صدفة، فإنّ حادثة ولادة وموت طفله ذي الأصابع الست تزامنت مع حادثة أخرى أكثر غرابة وغير متوقّعة أكثر مما هي طريفة، تركت في نفسه، كما قال ذات مرة، «أثراً لا يُمحى»: حدث أنه في اليوم عينه الذي دُفن فيه الطفل ذو الأصابع الست أنّ مارفا إيناتيفنا استيقظت ليلاً وسمعت ما يشبه بكاء مولود جديد. خافت فأيقظت زوجها. وهو، أصاخ السمع، فقال إن الأصوات التي يسمعها هي أصوات أنين «شبيه بأنين امرأة». نهض وارتدى ثيابه. كانت ليلة من ليالي شهر أيار الحارة. خرج إلى درج المدخل، فأدرك بوضوح أنّ الأنين صادر من جهة الحديقة. لكن الحديقة كانت مقفلة في الليل، من جهة الفناء، وما من وسيلة للدخول إليها إلا من هذا الممرّ لأنها محاطة بسياج مرتفع متين. عاد

(*) إحدى الملل العديدة من الكنيسة الأورثوذكسية.

إلى منزله فأشعل سراجاً، وأخذ المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينبس بكلمة، غير عابىء بخوف زوجته الهستيري التي أصرَّت على أنها تسمع، بشكل واضح، بكاء طفل وليد، وأن هذا الصوت لا يمكن أن يكون إلا صوت طفلها يبكي في الحديقة ويناديها. ذهب غريغوري إلى الحديقة، بدون كلام، وأدرك، هناك، بوضوح، أن الأنين يصدر من الحمّامات الصغيرة المبنيَّة في الحديقة ليس بعيداً من الباب الحديدي، وأنه، في الواقع، أنين امرأة ما. وعندما فتح باب الحمامات، رأى منظراً جعله يتجمّد في مكانه: إن معتوهة مدينتنا التي تجوب الشوارع والتي يعرفها سكان مدينتنا تحت لقب إليزابيت الكريهة، قد تسللت إلى الحمّامات وأنجبت هناك طفلاً. وكان الطفل ينام قربها، وهي تحتضر بالقرب منه. لم تقل المرأة شيئاً لأنها لم تكن تجيد الكلام. ولكن من الأفضل شرح هذا الحدث على حدة.

II

ليزافيتا البشعة

ثمة حالة خاصة قد أقلقت غريغوري، بعمق، معززة فيه، بشكل نهائي، شكّاً مزعجاً ومنفراً قد ألمَّ به. كانت ليزافيتا الكريهة بنتاً قصيرة القامة جداً «لا يزيد طولها على خمس أقدام»، كما يقولون متذكرين إياها بتأثر عجائز مدينتنا الصغيرة، التقيات الصغيرات، بعد موتها. كان وجهها، وهي في العشرين من عمرها معافىً عريضاً ومحمرّاً كوجه فتاة بلهاء. أما نظرتها فكانت جامدة ومزعجة بدون عنف. تتجوَّل دائماً حافية القدمين، في الشتاء كما في الصيف، ولا ترتدي إلّا قميصاً من قنّب. كان شعرها الأسود تقريباً كثيفاً جداً وجعداً يشبه صوف الخروف، يتكوَّم على رأسها كأنه «قبعة» ضخمة؛ بالإضافة إلى ذلك، فهو ملطخ دائماً بالوحل وبالتراب، وتتبعثر فيه أوراق الأشجار والعضيات والنشارات لأنها كانت تنام دائماً على الأرض وفي الوحول. كان والدها إيليا متسكعاً مدمَّراً مريضاً مدمناً الشراب، ويعيش، منذ بضع سنوات، عاملاً لدى أسياد أثرياء هم أيضاً حرفيون من مدينتنا. أما والدة ليزافيتا فقد قضت نحبها منذ زمن طويل. كان إيليا، وهو المريض الغاضب، يضرب ليزافيتا، بشكل غير بشري، بدون شفقة عندما كانت تدخل إلى المنزل.

ونادراً ما كانت تجيء إلى منزلها، لأنها كانت تكسب قوتها من كل سكان مدينتنا الذين يعتبرونها «مجنونة بالمسيح». وقد حاول، أكثر من مرَّة، أسياد إيليا، وإيليا هو أيضاً، وعدد لا بأس به من المواطنين المحسنين في مدينتنا، ومن بينهم تجار، وخاصة أولئك النساء اللواتي يعملن في التجارة، أن يلبسوا ليزافيتا ثياباً محتشمة غير هذا القميص الوحيد، فكانوا يعطونها، لفصل الشتاء، ثوباً من جلد خروف كما يعطونها حذاءين، وهي، بشكل عام، تتركهم يفعلون ذلك بدون أن تحتج وتذهب، وهنا أو هناك، تبتعد عنهم وتذهب إلى فناء الكاتدرائية فتخلع عنها كلّ ما قدِّم لها: المنديل والتنورة والمعطف والحذاءين ـ وتترك كلّ شيء هناك وتمضي حافية القدمين، كما في السابق، وبالقميص فقط. وحدث ذات مرة، أن حاكم مقاطعتنا الجديد زار مدينتنا الصغيرة في جولة تفتيشية، وعندما رأى ليزافيتا، صدمَ منظرها أصدق عواطفه، ورغم أنه عرف أنها «ساذجة من القرية»، وقد قيل له ذلك فوراً، أصرَّ على أن امرأة شابة تهيم على الطرقات بقميص شيء يسيء إلى الاحتشام، ويجب وضع حدّ لهذا التصرف. لكن الحاكم انصرف ولم تهتمّ ليزافيتا بالأمر. ومات أخيراً أبوها، فأصبحت عزيزةً أكثر على كل القلوب المحبّة في المدينة كونها أصبحت يتيمة. وفي الواقع، كانت وكأنّ كل الناس يحبّونها، حتى الصِّبْية كفُّوا عن السخرية منها وتركوها وشأنها، مع أن الصِّبْية المراهقين في مدينتنا، وخاصة تلامذة المدارس، يتوجب أحياناً ردعهم. كانت ليزافيتا تدخل بيوت أناس لا تعرفهم وما من أحد يطردها. بالعكس: كان الجميع يعاملونها بلطف، ويعطونها فلسها فتذهب فوراً إلى مكان ما، وتضعه في صندوق إما للكنيسة وإما للسجن. وإذا أعطوها، في السوق، قطعة بسكويت تعطيها لأول طفل تصادفه، أو تستوقف إحدى سيداتنا الأكثر ثراءً، وتعطيها البسكويت وتقبله السيدات منها بفرح. بالنسبة إليها، كانت لا تتغذّى إلا بخبز أسود وبماء. كانت تدخل إلى متجر

كبير، فيه كل شيء، فتجلس فيه وهو مليء بسلع ثمينة ومال، ولا يشك أصحاب المتاجر فيها أبداً. لأنهم يعرفون لو أنهم نسوا، تحت عينيها، ألوف الروبلات فلن تأخذ منها كوبيكاً واحداً. نادراً ما كانت تدخل إلى الكنائس، كانت تنام في أروقة الكنائس أو تجتاز سياجاً لبستان خضار، لهذا الشخص أو ذاك، (توجد في مقاطعتنا حتى اليوم أسيجة كثيرة بدل الحواجز). وإلى منزلها، ـ يعني منازل السادة الذين أقام عندهم أبوها المتوفى ـ تذهب مرة في الأسبوع تقريباً. في فصل الشتاء، تذهب في كل الأيام ولكن لقضاء الليل فقط. فتقضي الليل إما في المدخل أو في الإسطبل. كان الجميع يندهشون أنها تستطيع تحمُّل مثل هذه الحياة، لكنها اعتادتها. ورغم أنها قصيرة القامة جداً لكنها ذات بنية متينة بشكل لا يصدَّق. ويؤكد بعض السادة عندنا أنها تقوم بكل هذا ليس عن تكبّر، ولكن، لست أدري، فهذا التفسير لا يصدَّق؛ لم تكن تستطيع أن تلفظ كلمة، فهي تحرِّك شفتيها، من حين إلى آخر، وتصرخ، (تتحدثون عن كبرياء... حدث ذلك مرة ومنذ زمن بعيد).

في ليلة مضيئة ودافئة من شهر أيلول/ سبتمبر، ليلة قمرها بدر، وفي ساعة متأخرة بالنسبة إلى عاداتنا المحلية، كانت زمرة مخمورة من سادتنا السكارى تعود مجتازة أفنية الدور وبساتين المنازل، وكان عددهم خمسة رجال أشدّاء أو ستة، دخلوا النادي من «الفناء الخلفي»، وكان جانبا الشارع الصغير محاطين بسياج تمتد وراءه بساتين الخضار في المنازل المطلّة على الشارع الذي يوصل إلى جسر ممدود عرضاً على المستنقع الآسن الذي يسميه الناس عندنا نهراً. فاكتشفت الزمرة ليزافيتا، فجأة، وهي نائمة بين نباتات القراص والزؤان. توقف السادة السكارى أمامها ضاحكين في قهقهات مدوّية، وراحوا يطلقون كل أشكال المزاح الفاحش. وخطرت ببال شاب مخنث فكرة غريبة حول موضوع مستحيل: «هل يستطيع أحد، حتى أسوأ السيّئين، أن يرى في مثل هذه

البهيمة امرأةً، في هذه اللحظة بالذات؟» فأجاب الجميع باشمئزاز متكبِّرٍ أن لا. ولكن في هذه الزمرة، كان فيودور بافلوفتش. فتقدم في الحال وقال: نعم، يمكن اعتبارها امرأة، وامرأة كاملة، بل قد يكون في ذلك الكثير من الإثارة الخاصة، الخ. وفي تلك اللحظة، يجب أن نذكر أنه كان يحاول بشكل ملحّ لعب دور المهرّج، ويسعى أن يسطع نجمه، وأن يسلّي السادة، ويضحكهم، بالمساواة بينه وبينهم، في الظاهر طبعاً، ولكن بإظهار نفسه مهرّجاً حقيقياً. حدث ذلك في الفترة التي تلقى فيها من بطرسبرغ، نبأ موت زوجته الأولى، أديلاييدا إيفانوفنا، وقد وشَّح قبَّعته بشريط أسود، وأخذ يستسلم للسكر ويرتكب الفجور ممّا أثار الاشمئزاز في نفوس الكثيرين من أبناء المدينة، حتى الذين أكثرهم فجوراً، وراحت الزمرة تضحك لهذا الرأي غير المتوقع. وقد مضى أحدهم إلى حدّ محاولة تشجيع فيودور بافلوفتش على أن يفعل ذلك. أما الآخرون فاشمأزوا بشدة، ودائماً بمرح أكثر، وأخيراً، تابع الجميع طريقهم. وقد أكدّ فيودور بافلوفتش، فيما بعد، أنه ذهب مع كل الآخرين. ربما كان صحيحاً ما قاله، فما من أحدٍ يمكنه معرفة حقيقة الأمر، ولن يعرفها أحد أبداً. لكن، بعد خمسة أشهر أو ستة، بدأ الكلام في المدينة، باستنكار شديد، وهو أن ليزافيتا حبلى، وبدأت التساؤلات وطرح الأسئلة: «غلطة من هي؟ من هو المغتصب؟» هنا، انتشرت في كل المدينة إشاعة غريبة جداً تقول إن المغتصب هو فيودور بافلوفتش الذائع الصيت. من أين انبثقت هذه الإشاعة؟ من كل زمرة السادة السكارى لم يبقَ في مدينتنا إلا واحد، رجل مسنّ، محترم، مستشار دولة، له عائلة وبنات صبايا. ومهما قيل، فهو لم يروِ شيئاً حتى ولو كان يعرف ما حدث. أما المتواطئون الآخرون، وهم خمسة رجال أو ستة، فتواروا عن المدينة. لكن الإشاعة حدّدت بدقة فيودور بافلوفتش، واستمرت في اتهامه. وهذا الأخير، طبعاً، لم يتأثر كثيراً من ذلك. وامتنع عن الجواب

عن أسئلة: الباعة والحرفيين. في تلك الفترة، كان مزهواً، لا يتحدَّث إلّا مع أنداده من الموظفين والنبلاء الذين كان يضحكهم كثيراً. أما غريغوري فقد دافع عن سيّده، في ذلك الوقت، ودافع بكل قواه. ولم يكن يدافع عنه فقط ضد كل تلك الوشايات بل يدخل، من أجله، في مناقشات ونزاعات، وقد نجح في إقناع الكثيرين. وكان يقول بلهجة جازمة: «إنها هي السافلة، هي المذنبة، ولم يكن المغتصب إلّا «كارب» (karp-à-la-Vis) قاطع الطرق». (هكذا كان يُسمَّى سجين سابق، ومجرم معروف في كل المدينة، هرب من سجن المقاطعة واختبأ في مدينتنا). بدت هذه الفكرة مقبولة، فتذكّر الناس كارب، وتذكروا، بدقة، أنه في تلك الليالي عينها في أوائل الخريف، تجوَّل في المدينة وسلب بالقوة ثلاثة أشخاص. لكن هذه الحادثة وكل تلك النقاشات، لم تحرم «ساذجة القرية» المسكينة من عطف الناس عليها. بالعكس: صار الجميع يهتمون بها ويرعونها أيضاً. حتى إن التاجرة كوندراتيفا، وهي أرملة ثرية، قررت في نهاية شهر نيسان/ أبريل أن تأوي ليزافيتا في منزلها وأن تحتفظ بها إلى حين الولادة. لقد روقبت ليلاً نهاراً، ولكنها رغم كل هذه المراقبة استطاعت ليزافيتا في آخر يوم، أن تهرب «مساءً، من منزل السيدة سرّاً لتوجد في حديقة فيودور بافلوفتش. فكيف تمكنت وهي الحامل، أن تجتاز الحاجز المرتفع المتين للحديقة، فذلك بقي نوعاً من السرّ؟ يزعم بعضهم أن أناساً نقلوها إلى هناك، والبعض الآخر يقول إن قوة خفيَّة قد أوصلتها. والأرجح أن كل ذلك جرى بشكل طبيعي تماماً، ولكن بمهارة فائقة، فليزافيتا التي كانت تعرف تسلُّق الأسوار للوصول إلى بساتين الخضار، لكي تقضي الليل، لا بدَّ أنها تسلقت سور حديقة فيودور بافلوفتش، بشكل أو بآخر، ثم قفزت من أعلاه إلى الحديقة رغم حملها فتأذت بذلك طبعاً. أسرع غريغوري إلى مارفا إينياتيفنا وأرسلها لمساعدة ليزافيتا، بينما ركض هو يفتش عن قابلة

عجوز،زوجة حرفيّ، تسكن في الجوار. لقد أُنقذ الطفل. لكن ليزافيتا قضت نحبها عند الفجـر. فأخذ غريغوري الطفل وحمله إلى منزله، وأجلس زوجته ووضع الطفل على ركبتيها في مستوى صدرها: «ابن الله، يتيم ـ والداه، هما كل الناس، ونحن، أنا وأنتِ بشكل خاص. فصغيرنا المتوفى هو الذي أرسله الينا! وهذا الطفل وُلد من شيطان وأمّ قديسة، فأطعميه، ولا تبكي أبداً». وهكذا اعتنت مارفا إينياتيفنا بتربية الطفل الصغير. وجرى تعميده، وسُمّي بافل، أما الاسم الأبوي الذي كان يجب من الطبيعي أن يُسمّى به فهو فيودوروفتش. لم يعترض فيودور بافلوفتش، على أيّ شيء، وقد وجد الأمر طريفاً جداً ولكنه استمرَّ ينكر، بكل قواه، أنه هو الفاعل. وقد رحّبت المدينة بأنه تبنّى الطفل اللقيط. وارتأى فيودور بافلوفتش، فيما بعد، أن يسمَّى الطفل باسم عائلة، فأعطاه اسم سمردياكوف تيمناً باسم والدته ليزافيتا البشعة (سمردياستشايا).

اذاً، هذا هو سمردياكوف هو الذي أصبح الخادم الثاني لفيودور بافلوفتش، وكان يقيم في بداية قصتنا في المبنى الملحق مع العجوزين غريغوري ومارفا. واستُخدم طباخاً. يجب عليّ، في الواقع، أن أضيف أشياء خاصة به، لكنني أشعر بوخز في ضميري إذا أنا صرفت انتباه القارىء إلى الحديث عن خدمٍ عاديين، فها أنا أعود إلى قصتي آملاً أن يسمح لي السير الطبيعي لروايتي أن أعود إلى هذا الموضوع.

III

اعتراف قلب مضطرم، شعراً

إنّ أليوشا الذي سمع أمر والده يصرخ فيه، من عربته، بقي بعض الوقت مسمَّراً في مكانه وقد صعقته حيرة عظيمة. لا يمكن القول إنه بقي جامداً كعمود، هذا ما لم يحدث له أبداً. بالعكس، والبرغم من كل قلقه، تسنَّى له أن يذهب فوراً إلى مطبخ رئيس الدير ليستعلم عما قام به والده في الطابق العلوي. ثم انطلق في طريقه إلى المدينة آملاً أن يحلَّ، بشكل أو بآخر، اللغز الذي يتأكله. سأقول ذلك مسبقاً: إن صراخ والده وأمره بالإقامة في المنزل «مع مخدَّته وفراشه»، لم يُخفه إطلاقاً. فقد أدرك أن هذا الأمر بالرجوع إلى المنزل، الذي أطلقه والده بصوت مرتفع وبصراخ متصنِّع، إنما هو «بسبب التأثر» بل هو رغبة في التمثيل، كما حدث منذ فترة وجيزة عندما احتفل بورجوازي صغير في مدينتنا بعيد مولده، وأمام جميع المدعوين، غضب فجأة لأنه لم يُزد له من الفودكا، وقد كان في حالة سكر، فبدأ بتكسير الأطباق، ومزَّق ثيابه وثياب زوجته وحطّم كل الأثاث، وأخيراً، أخذ يحطم زجاج نوافذ المنزل، وكل ذلك في سبيل التمثيل. كان شيئاً من هذا النوع ما حصل لوالده بالتأكيد. وفي الغد، طبعاً، صحا البورجوازي الصغير من سكره وبكى على

أطباقه وكؤوسه المحطمة. كان أليوشا يعرف أن العجوز سيسمح له في اليوم التالي، بدون شك، بأن يعود إلى الدير، وربما عند المساء. كان واثقاً كلياً بأنّ والده يمكن أن يسيء إلى أيّ كان، ما عداه. وكان أليوشا على ثقة بأن ليس هناك أحد في العالم يمكن أو يريد أن يحزنه، وما من أحد يمكنه ذلك ولو أراد. تلك كانت بالنسبة إليه بديهية واضحة ثابتة لا تقبل النقاش. وهو، في ذلك، مضى قُدُماً بدون تردد.

أمّا ما كان يقلقه، في تلك اللحظة، فهو خوف آخر، من نوع مختلف أشدّ ألماً، بقدر ما كان هو نفسه غير قادر على تحديده. أريد القول: الخوف من المرأة، خوف من كاترينا إيفانوفنا تلك التي توسلت إليه بإلحاح في الرسالة التي أعطته إياها السيدة خوخلاكوفا، منذ بعض الوقت، أن يذهب لرؤيتها دون معرفة السبب. إن هذا الإلحاح وهذا الاضطرار، إلى الذهاب إلى منزلها، بأي ثمن، ولّدا فوراً في قلبه نوعاً من إحساس معذِّب، وطوال الصبيحة، كان هذا الاحساس يلتهب في صدره، أكثر فأكثر قوة، ودائماً أكثر فأكثر ألماً، بالرغم من كل الأحداث التي تتالت في الدير وفي مسكن رئيس الدير، الخ، وما كان يخشاه لم يكن عدم معرفة ماذا تريد أن تقول له وما يتوجب عليه أن يجيب. وبشكل عام، لم يكن يخاف من المرأة بحدّ ذاتها، وهو بالتأكيد، كان يعرف بعض الشيء عن النساء، فقد عاش طوال حياته، منذ طفولته الأولى حتى وصوله إلى الدير، مع النساء، كان يخاف من هذه المرأة بالذات، من كاترينا إيفانوفنا بالتحديد، ولقد خاف منها منذ اللحظة المحددة التي رآها فيها للمرة الأولى؛ مع ذلك، رآها مرة أو مرتين ـ ولا ثالثةً، وتحدَّث معها، صدفة، ذات مرة، بضع كلمات. وكان يرى صورتها وكأنها صورة فتاة جميلة، شديدة الكبرياء، قوية السطوة. لكن، ليس جمالها ما كان يؤلمه، بل كان شيئاً آخر، كان الجانب غير المفهوم لخوفه، هو، الذي يفاقم خوفه. كانت أهداف

هذه الفتاة من أنبل الأهداف. كان يعرف ذلك، إنها تسعى جاهدة لإنقاذ أخيه ديمتري الذي أخطأ بحقها، وهي لا تفعل ذلك إلا شهامة منها. رغم ما في هذه المشاعر من نقاء ورفعة، لا يستطيع إلا أن ينصفها. وكان يشعر بقشعريرة باردة تجتاح ظهره كله كلما اقترب أكثر من منزلها.

عرف أنه لن يجد في منزلها أخاه إيفان فيودوروفتش الذي كان مقرباً جداً منها، فلا بدَّ أن يكون أخوه، بالتأكيد، مع والده. أما بالنسبة إلى ديمتري، فقد كان متأكداً بأنه لن يجده وهو يستشعر السبب. هكذا سيجري الحديث بينه وبينها. كان يتمنى رؤية أخيه ديمتري ولو دقيقة واحدة، قبل هذا الحديث المشؤوم. ودون أن يظهر له الرسالة، يمكنه أن يتبادل معه كلمة أو كلمتين. ولكنّ أخاه ديمتري يقيم في مكان بعيد؛ وعلى كل حال، وبدون شك، لن يكون في منزله في هذا الوقت. تردد لحظة ثم قرر أخيراً. رسم إشارة الصليب بسرعة، وكالعادة ابتسم بدون سبب ثم اتجه بخطى ثابتة نحو منزل هذه السيدة الرهيبة.

كان يعرف منزلها. ولكن يجب أن يمر بالشارع الكبير ثم يجتاز الساحة العامة الخ، كل ذلك يجعل المسافة طويلة. فمدينتنا الصغيرة مبعثرة جداً، ومسافاتها شاسعة جداً. أضف إلى ذلك، أن والده بانتظاره. فقرر أن يسلك طريقاً مختصرة عبر الأقنية وكل ممرات مدينتنا الصغيرة، وهو يعرفها كما يعرف راحة كفه. كان عليه أن يجتاز المسالك، وهذا يعني أن لا وجود لطريق، على طول السياجات المقفرة، التي يجتاز بعضها متجنباً هذا المسلك أو ذاك حيث يعرفه جميع الناس ويحيّونه. فمن هذه الطريق يستطيع الوصول إلى الشارع الكبير، أسرع بمرتين. كان عليه أن يمرّ بالقرب من منزل والده، أمام بستان، قريب من بستان والده، تابعٍ لمنزل صغير جداً وقديم، له نوافذ أربع قديمة وقد تشققت جدرانه. كان صاحب هذا المنزل الصغير هو، كما كان

أليوشا يعرف ذلك، امرأة حرفية من المدينة، عجوز لها ساق واحدة، تسكن مع ابنتها التي كانت قد عملت خادمة رئيسية لدى جنرالات في الغالب. والآن، ومنذ ما يقرب السنة، وبسبب مرض أمها، تسكن في المنزل وتتبختر بملابسها الأنيقة جداً. كانت العجوز وابنتها تعيشان حياة بؤس وعوز كبير. وكانتا تذهبان، يومياً، إلى مطبخ فيودور بافلوفتش تلتمسان بعض الحساء والخبز تقدمه لهما مارفا إينياتيفنا بسرور. لكن الفتاة كانت تأتي لتأخذ الحساء ولم تكن ترضى أن تبيع ثوباً واحداً من أثوابها الجميلة التي كان من بينها ثوب طويل الذيل. وقد عرف أليوشا، طبعاً، هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه راكيتين الذي كان على معرفة بكل شيء في مدينتنا الصغيرة، ثم لم يلبث أن نسيها فوراً. لكنه عندما وصل إلى قرب حديقة الجارة تذكر الذيل الطويل فجأة فرفع رأسه بسرعة بعد أن كان مطرقاً طوال الفترة التي قضاها مفكراً خلال سيره. وفجأة كان اللقاء غير المنتظر إطلاقاً.

رأى أخاه ديمتري فيودوروفتش خلف سياج حديقة الجيران متسلّقاً، الله يعلم ماذا، مشرئباً متجاوزاً الحاجز بصدره، يومىء إليه، بكل قواه، بحركات من يده، ويطلب منه أن يأتي إليه متجنباً الصراخ بل متجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت مرتفع لكي لا يسمعه أحد؛ فأسرع إليه أليوشا فوراً باتجاه السياج.

ـ من حسن الحظ أنك استدرت وإلا لكنت اضطررت أن أصرخ. همس ديمتري فيودوروفتش لأخيه بصوت فرح ومسرع: كنت أفكّر فيك... تسلق من هنا! أسرع! كم هو رائع أنك أتيت.

كان أليوشا، هو نفسه، سعيداً أيضاً وقد تساءل عما يجب أن يفعله لكي يتسلق السياج. ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية وساعده على القفز. رفع أليوشا جبَّته وقفز مثل صبيّ صغير حافي القدمين.

ـ هيا، فلنحتفل بهذا! همس ميتيا متحمساً.

ـ إلى أين؟ سأله أليوشا هامساً بدوره، وهو ينظر حواليه فيرى أنهما وحيدان في حديقة خالية تماماً إلا منهما، هما الاثنان؛ لا يوجد أحد. كانت الحديقة صغيرة.

لم تكن الحديقة واسعة طبعاً ولكن المنزل الصغير الذي تملكه العجوز وابنتها على مسافة خمسين خطوة على الأقل.

ـ لكن، لا يوجد أحد هنا، فلماذا تتكلم همساً؟

ـ لماذا أتكلم همساً؟ فليأخذني الشيطان.

صاح ديمتري فيودوروفتش فجأة بأعلى صوته.

ـ حقاً، فعلاً، لماذا أتكلم همساً؟ أنظر. هكذا فجأة تعمّ الفوضى الطبيعة! أنا موجود هنا سراً، وأحتفظ بالسرّ. سأشرح لك الأمر فيما بعد لإدراكي ضرورة الحفاظ على السرّ، وفجأة، بدأت أهمس بغباوة، مع أن ذلك لا داعي إليه أبداً. هيا، هناك! إياك أن تتفوه بكلمة واحدة. أودّ لو أضحك!

المجد لله في العالم،

المجد لله في أعماق نفسي!...

قبل وصولك بلحظة كنت هنا، أردد هذين البيتين من الشعر...

تبلغ مساحة الحديقة هكتاراً، أو أكثر بقليل، ولم تكن مزروعة بالأشجار إلّا في جوانبها، على طول الأسوار الأربعة ـ وهي أشجار تفاح وزيزفون وسندر وقيقب. أما داخل الحديقة فكان فارغاً ويشكل فرجة حيث تحصد في الصيف أكوام من العلف. وكانت صاحبة البيت تؤجر الحديقة منذ أوائل الربيع ببضعة روبلات. كانت هناك بعض شجيرات من توت العلّيق وثمر الريباس وعنب آذار على طول الأسوار، وبالقرب من المنزل مساكب خضار، وذلك منذ فترة وجيزة. قاد ديمتري فيودوروفتش ضيفه باتجاه إحدى زوايا الحديقة الأبعد عن المنزل. هناك، وسط أشجار الزيزفون وشجيرات السندر الهرمة وأشجار

البيلسان والغبيراء والإزدلخت يكتشف المرء ما يشبه بقايا استراحة تعود إلى زمن بعيد، منذ خمسين سنة حسب الأسطورة، أقامها صاحب المنزل في ذلك الزمن، وهو رجل يسمَّى ألكسندر كارلوفتش فون شميدت، ليوتنان كولونيل متقاعد. لكن، كل شيء مسوّس،وأرضيتها عفنة، وكل الأخشاب مترنحة، ورائحة العفونة تفوح من الخشب. وتوجد داخل الاستراحة طاولة من خشب مطلية باللون الأخضر، غاصت أرجلها في التراب ومحاطة بمقاعد هي أيضاً باللون الأخضر، ولا يزال ممكناً الجلوس عليها.

لاحظ أليوشا، فوراً، حماسة أخيه، ولكن عندما دخل إلى الاستراحة، وجد على الطاولة زجاجة كونياك ممتلىء نصفها وإلى جانبها كأس.

ـ هذا كونياك! قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً. وأنت، وأنت قد قلت لنفسك: «إنه يسكر من جديد». ألا تؤمن بالأشباح.

ابتعد عن الناس الفارغين المزيفين،

وبدّد أوهامك واحترس...

أنا، لا أسكر، إنني «أتلذذ» كما يقول صديقك الحقير راكيتين... الذي سوف يصبح مستشار دولة، وسيقول دائماً إنني «أتلذذ». سأشدّك إلى صدري بقوة، يا أليوشا، سأضمك إلى صدري حتى لأكاد أحطمك، لأنَّ في كل العالم... في الحقيقة... في الحـ...قيـ...قة... (هل تفهم؟ هل تفهم؟) لا أحب غيرك!

قال ديمتري فيودوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة والانخطاف.

ـ أنت فقط، أنت ومخلوقة «فاجرة» عشقتها، وهذا ما جعلني أضيع... أن تعشق، لا يعني أنك تحب، يمكن أن تكون عاشقاً وأنت حاقد. تذكر! في هذه اللحظة، طالما أنا أشعر بالابتهاج فأنا أتكلم! اجلس، هنا، إلى هذه الطاولة،

وأنا سأجلس جانباً، أريد أن أنظر إليك، وأتكلّم، وأتكلّم. أنت لن تقول شيئاً، أنا سأتكلّم وأتكلَّم، لأنه آن الأوان! اسمع، أعتقد أن هذا صحيح، سأتكلم بصوت خافت... لأنه هنا... هنا... من الممكن أن توجد هنا آذان غير مرئية. سأشرح كل شيء. اتفقنا. سأتابع. لماذا كنت أحلم دائماً بك، وأريد أن أراك الآن، في هذه الأيام بالذات، والآن؟ لماذا في هذه الأيام، لأنني غداً سأنهار، لأنّ غداً تنتهي الحياة وتبدأ في آن. هل أحسست بذلك، في الحلم مثلاً، بأنك تسقط في هاوية أو من أعلى جبل؟ حسناً، أنا، هكذا أطير وليس في الحلم. لست خائفاً، وأنت أيضاً لا تخف. أقصد، أنا أخاف، ولكن هذا أمر جيد. يعني ليس جيداً، إنه مثير!... باختصار، إلى الجحيم؟ حسّ قوي، حسّ ضعيف، حسّ المرأة ـ ما همَّ، الأمر لا يعنينا... فلنمجّد الطبيعة: الشمس في كل مكان، ما أصفى السماء، الأوراق كلها خضراء، إنه قلب الصيف، والساعة لم تبلغ الثالثة بعد الظهر، سكوت! وإلى أين كنت ذاهباً؟

ـ كنت ذاهباً إلى الأب، ولكني أنوي أن أمرَّ أولاً بكاترينا إيفانوفنا.

ـ إلى منزلها وإلى الأب! أوه! يا للصدفة! ولكن، أنا، لماذا كنت أناديك، لماذا كنت أنتظرك، لماذا كنت أرغب بكل مسام جسمي وحتى كل أضلعي؟ لأنني كنت أريد أن أرسلك تحديداً إلى الأب، من قبلي، ثم إليها، إلى كاترينا إيفانوفنا، لكي أنهي الأمر معها ومع الأب، أن أرسل إليهما ملاكاً. كان بإمكاني أن أرسل أياً كان، ولكني كنت أريد أن أرسل ملاكاً. إذن، نعم، إذهب إليها وإلى الأب.

ـ هل صحيح أنك كنت تريد أن ترسلني؟ سأل أليوشا بلهجة حزينة.

ـ كنت تعلم هذا. أرى أنك فهمت كل شيء فوراً. لكن، اسكت الآن، اسكت، لا تلمني ولا تبكِ!

سكت ديمتري فيودوروفتش، وبقي يفكر بضع لحظات واضعاً إصبعه على جبينه:

ـ إنها هي التي استدعتك، وهي التي كتبت إليك رسالة، أو هناك شيء آخر لكي تذهب إليها، وإلا لماذا تذهب إليها؟

ـ هذه رسالتها. أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه. فقرأها ميتيا بسرعة:

ـ وسلكت طرقاً مختصرة. أيتها الآلهة! أشكركِ على أنك وجَّهته في هذه الطريق، فوجَّهتِ خطاه نحوي، مثل ذلك الصياد العجوز الأبله، كما تقول الحكاية، حول السمكة الذهبية. إسمع يا أخي! الآن، قررت أن أقول لك كل شيء، يجب قوله لشخص ما، للملاك في السماء، لقد سبق أن قلته، ولكن يجب أن أقوله للملاك على الأرض، وأنت، أنت الملاك على الأرض. ستصغي وتحكم وسوف تسامحني... وأنا، إن بي حاجة إلى أن يغفر لي إنسان أسمى. اسمع: إذا تحوّل اثنان عن كل مشاغل الأرض واندفعا، أو اندفع أحدهما، على الأقل، نحو العالم غير العادي، فإذا هو في اللحظة التي يهمّ فيها ببلوغ السعادة أو يموت، يلقى إنساناً آخر فيقول له: إفعل هذا أو ذاك من أجلي، إفعل شيئاً لا يمكن أن يطلبه أحد، شيئاً لا يمكن أن يطلبه إنسان إلا على فراش الموت... فهل يمكن أن يرفض هذا الآخر طلبه... إذا كان صديقاً، إذا كان أخاً؟

ـ سأفعل ذلك. ولكن قل لي بسرعة ما هو، أجابه أليوشا.

ـ لا تتعجَّل يا أليوشا: أنت مستعجل ومضطرب. لا شيء يدعو للتعجل، الآن، يدخل العالم في مرحلة جديدة. إنها لخسارة يا أليوشا أن ترقى إلى الانخطاف في تأملاتك! ولكن، اسمع ماذا سأقول! أنت لم تصل بعد إلى الانخطاف! ماذا أقول.

فليكن قلبك نبيلاً أيها الإنسان!(*)

من قال هذا البيت من الشعر؟

قرر أليوشا الانتظار. لقد عرف أنه، في هذا المكان، سيقوم بمهامه الآن، بشكل جيد. استمر ميتيا يفكر بعض الوقت متكئاً بكوعه على الطاولة ورأسه منحنٍ في راحة يده. وبقي الاثنان صامتين.

ـ أليوشا! قال ميتيا. ستكون الوحيد الذي لا يضحك! أريد أن أبدأ... اعترافي... بنشيد الفرح الذي نظمه شيللر «الى الفرح» (An die Freude) ولكنني لا أعرف اللغة الألمانية. أعرف فقط أن هذا يُسمَّى «إلى الفرح»! فلا تظنّ أبداً أنّ هذه ثرثرة سكران. أنا لست سكران أبداً. الكونياك، إنه الكونياك، أنا لا بدَّ لي من زجاجتين لكي أسكر.

وسيلين السكير ذو الوجه الأحمر،

على حماره يترنّح(**).

وأنا لم أشرب إلا ربع زجاجة، وأنا لست سيلين. لست سيلين لكنني قوي لأنني اتخذت قراري بشكل نهائي! ستسامحني على اللعب بالألفاظ. وسيكون عليك أن تسامحني على الكثير من الأشياء اليوم، ليس على اللعب بالألفاظ فقط. لا تقلق. أنا لا أهذر. أنا أتكلم بجدية، وأدخل مباشرة في الموضوع. لن أجعلك تضيّع وقتك مثل يهودي صغير. إسمع، كيف هي البداية؟...

ورفع رأسه، وبقي مفكراً، وفجأة انطلق بلهجة نافذة:

متوحش، عارٍ، ساكن الكهوف

يختبىء في المغاور

(*) مقتطف من قصيدة غوته «الإلهي» يذكرها ديمتري بالترجمة الروسية طبعاً.

(**) مقتطف من قصيدة لأبولون مايكوف.

البدوي يتيه في السهول،
وهذه السهول يلتفها.
يجوب الصياد الغابات
حاملاً قوسه ونباله.
الويل للذين ترمي بهم
العواصف على شواطىء مقفرة!

*

من قمم الأولمب
نزلت سيريس تبحث عن ابنتها،
التي سرقوها منها:
الأرض مهجورة تحت أقدامها
ما من زاوية، ما من ملجأ هناك،
لاستقبال الإلهة،
وما من هيكل لا يشهد
على تمجيد الآلهة.

*

ثمار الحقول، العناقيد اللذيذة،
لا تسطع على الولائم،
أجساد مدخّنة مقطعة،
تتمدّد على المذابح الدامية
في مكان ما، حيث الإلهة
ترمي نظراً متألماً،
تجد الناس في كل مكان

في إذلالٍ عميق!(*)

*

فجأة، انفجر ميتيا بالبكاء. فأمسك أليوشا بيده.

ـ صديقي، صديقي! في الإذلال، في الإذلال حتى يومنا هذا. إن عدد الأشياء التي يتألم الإنسان بسببها، على الأرض، رهيب، رهيب عدد المصائب! لا تفكّر، لأنّ لي رتبة ضابط، يشرب الكونياك ويغرق في المجون، أنني إنسان فظ. أنا يا أخي العزيز، لا أفكّر إلا في مصير الإنسان المذلّ الذي يدعو إلى الشفقة. ذلك هو اهتمامي الأوحد تقريباً، ولست بكاذب عليك، فليشهد الله أنني لا أكذب أبداً، ولا أتباهى، لأنني عندما أفكر في هذا الإنسان، أنا أيضاً، أصبح هذا الإنسان عينه.

لكي يخرج الإنسان

من حالة الاذلال،

يجب أن يقيم

تحالفاً أبدياً

مع الأرض الأمّ(**)

إلا أن المشكلة تكمن هنا: كيف يمكنني أن أقيم هذا التحالف الأبدي مع الأرض؟ أنا لا أزرع الأرض، أنا لا أفتح جوفها؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو نوعاً من راعٍ صغير؟ إنني أسير دون أن أعرف هل أنا أغوص في النتانة والعار أم في الضياء والفرح؟ تلك هي التعاسة بعينها الآن، فكل شيء على الأرض لغز! وعندما أغوص في العار والعهر (ولم أكن أفعل شيئاً غير هذا على كل

(*) مقتطف من مأدبة «إيللوزيس» لشيللر.

(**) مقتطف من مأدبة «إيللوزيس».

حال) كنت في كل مرة أعيد قراءة هذه القصيدة عن سيريس وعن الإنسان. فهل أصلحني ذلك؟ أبداً، لأنني كارامازوف. لأنني، في الحقيقة، إذا سقطت في الهاوية سأسقط مباشرة، رأسي إلى تحت وقدماي في الهواء، وأنا مسرور من السقوط بهذا الشكل المذلّ، فأنا أشعر عندئذ بنوع من اللذة الجمالية. إذن، وأنا في هذا العار أبدأ النشيد. فلأكن ملعوناً، فلأكن سافلاً ومنحطاً، ولكنني، أنا أيضاً، أستطيع أن أقبّل زاوية من هذه الجبة التي يرتديها إلهي، وأن أتبع الشيطان. ولكنني، رغم كل شيء، أنا ابنك أيها الرب، وأحبك، وأشعر بفرح بدونه لا يمكن للعالم أن يصمد ويوجد.

فرح أبديّ يروي
روح عمل الرب،
الاختمار السرّي
يلهب كأس الحياة:
داعياً العشب إلى الضوء،
مذوّباً السديم إلى شموس،
يطلقها في الفضاء
الذي لا يبلغه عالِم الفلك.

*

في حضن الطبيعة المبارك
من يتنفس يشرب الفرح؛
إلى الشعوب والمخلوقات
هو الذي يهب لنا كل شيء:
نحن أصدقاء في المحن،

الخمر والنِعم المتوَّجة،

والشبق لدى الحشرات...

ويقف الملاك أمام الله.

ولكن كفى قصائد! لقد ذرفت دموعاً، وأنت تركتني أبكي قليلاً. إنها حماقة سيضحك الجميع منها. ولكن أنت، لا. أنظر إلى عينيك الجميلتين كيف تلتهبان. كفى قصائد! الآن، أريد أن أحدّثك عن الحشرات عن أولئك الذين وهب الله لهم اللذة.

الشبق لدى الحشرات!

يا أخي العزيز، أنا هوهذه الحشرة بالذات! وهذه القصيدة قيلت خصيصاً عنّي أنا. ونحن جميعاً، آل كارامازوف، على هذا النحو، وفي داخلك أنت، تعيش هذه الحشرة، فيك أنت الملاك، وهي تولّد العواصف في دمك. إنها عواصف، لأنَّ اللذة هي عاصفة. ذلك أنَّ اللذة شرّ أقوى من عاصفة! والجمال، هو شيء رهيب مرعب. رهيب لأنه لا تحديد له. وإذا لا يمكن تحديده فلأنَّ الله لم يضع سوى ألغاز. وفي الجمال، كل الشطآن تتقارب، وكل التناقضات تحيا معاً. أنا لست مثقفاً كبيراً، يا أخي العزيز، ولكنني فكّرت كثيراً في هذا الشأن. شيء رهيب. ما أكثر الأسرار على هذه الأرض! توجد ألغاز كثيرة على الأرض لتضطهد الإنسان! «جدْ لها حلاً كما تستطيع، وتدبَّر أمرك بحيث تخرج منها سالماً. الجمال! هو الشيء الذي لا أحتمله، وهناك الكثير، وحتى أنّ أناساً يتمتعون بقلب نبيل وبفكر سامٍ يتخذون «السيّدة»، في أول الأمر، مثلاً أعلى لهم، ثم ينتهون بمثَل سدوم. والأفظع من ذلك أيضاً هو حتى مع مثَل سدوم الأعلى، في أعمالهم لا يتنكرون أبداً لمثل «السيدة» الأعلى، وأن المثل الأعلى يلهب قلوبهم بصدق، يلتهبون بصدق في فترة شبابهم. لا، الإنسان ذو نفس رحبة، واسعة جداً، سأضيّقها. وحده الشيطان يعلم ما الذي يختبىء

فيه! ما يتقبّله العقل كعار بالنسبة إلى القلب هو الجمال فقط. هل الجمال هو في سدوم؟ صدِّق، إنه كامن في سدوم، بالنسبة إلى أغلبية الناس. هل كنت تعرف هذا السرّ أم لا تعرفه؟ ما هو فظيع هو أنّ الجمال، ليس فقط شيئاً مخيفاً، لكنه شيء يحمل سرّاً. الله والشيطان يقاتلان معاً، وساحة المعركة هي قلوب الناس. لاحظ أننا نشكو من الموضع الذي يؤلمنا. اسمع، الآن وصلنا إلى الواقع بالذات.

IV

اعتراف قلب مضطرم، حكايات صغيرة

إذن، هناك تعهرَّتُ وفجرت. لقد قال الأب منذ لحظة، إنني كنت أدفع ألوف الروبلات كي أفضَّ بكارات عذارى صغيرات. هذا كلام كذب، لم يحدث هذا أبداً. ما حدث في الواقع هو أنه من أجل «هذا»، لم تكن ثمة حاجة للمال أبداً. فالمال، بالنسبة إلي، أمر إضافي، نار في الروح، الزينة فقط. اليوم، مع سيدتي وغداً أستبدلها بمومس من الشوارع. وأنا، أمرح مع هذه وتلك، أنفق المال على النزوات وسعياً للهو. أنفق المال بغير حساب، الموسيقى، الجنون، والغجريات. وإذا لزم الأمر أعطيهن أكثر لأنهن يأخذنه بحماسة، وبعد، يجب الاعتراف، بأنهنّ كنَّ مسرورات وممتنات. لقد أحبتني بعض الآنسات، ليس جميعهن، بل عدد منهن، لقد حدث ذلك؛ ولكن، أنا، ما أحببت إلا الأزقَّة الصغيرة الضيقة، والزوايا المقفرة المعتمة، وراء الساحات العامة، فهنالك المغامرات والمفاجآت، والأشياء غير المتوقعة، النهر في الوحل. أنا، أتكلم مجازاً، يا أخي العزيز، ففي مدينتنا الصغيرة، لا توجد أزقّة ضيقة ملموسة من هذا النوع، ليس لدينا منها، ولكن من الناحية النفسية، نعم.

لو كنت مثلي أنا لفهمت ماذا يعني هذا الأمر، أحببت المجون، أحببت العار في المجون، أحببت القسوة: ألستُ بقَّةً، ألست حشرة مؤذية؟ هذا يعني أنني واحد ـ من آل كارامازوف! ذات نهار، قمنا بنزهة إلى الريف، ذهبنا في سبع عربات ترويكا. ذات ليلة في فصل الشتاء، في عربة تزلُّج، رحت أشدّ على يد فتاة صغيرة كانت جارتي، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي. تلك البنت الصغيرة، هي ابنة موظف، مسكينة، لطيفة، عذبة، طيّعة. تركت لي أن أفعل ما أشاء في العتمة. كانت المسكينة الصغيرة تعتقد أنني سأذهب في الغد إلى والديها لأخطبها (كنت أقدَّر، خاصة، كخطيب محتمل). وأنا، بعد ذلك، لم أقل كلمة واحدة، لم أقل لها شيئاً مدة خمسة أشهر. كنت أرى عينيها، في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص، في كل المناسبات، كثيرة، عندنا) تتابعاني من عمق القاعة، فأرى الوميض الذي يشتعل في نظراتها، واللهيب المفاجىء الذي يدلّ على غضب ذليل. وكان هذا اللهو يستثير لذة الحشرة التي كنت أغذيها في نفسي. بعد خمسة أشهر، تزوجت موظفاً، ثم سافرت... بقيت غاضبة ولكن بقيت تحبني. وقد عاشا سعيدين في ذلك الوقت. لاحظ، أنني لم أقصّ هذه الحكاية على أحد، سكتُّ، ولم أعرّض سمعة الفتاة لسوء. صحيح أنني منحطّ في رغباتي وأحبّ الدناءة، ولكنني لست مجرداً من الشرف. إنَّ وجهك يحمرّ وعينيك تطلقان بريقاً. هذا يكفي، لن أزعجك بمثل هذه الحكايات القذرة. ولكن ما ذكرته لك ليس إلا نزراً قليلاً، هو زخرفات صغيرة على طريقة بول دو كوك، وإن تكن الحشرة المؤذية قد نمت في نفسي واستولت عليَّ حتى أعماقي. ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي، يا أخي العزيز، إن لي منها «ألبوماً» كاملاً؛فليحفظ الله القلوب الصغيرة. كنت عندما أقطع صلتي بإحدى النساء، أفضل أن يتم ذلك بدون مشاكل. ثم إنني لم أخن أبداً. ولم أخبر أحداً أبداً. ولكن، هذا يكفي. أرجو ألّا تفكر أنني جئت

بك إلى هنا لأقصَّ عليك هذه التفاهات! لا، سأخبرك شيئاً شيئاً. ولكن، لا تتفاجأ لأنني لا أخجل منك ولا أشعر بخجل أمامك، وأنني أتلذذ بإيقاظ هذه الذكريات.

ـ أنت تقول هذا لأنك رأيت وجهي قد احمرّ؟ قاطعه أليوشا فجأة. لم يحمرّ وجهي بسبب حكاياتك، ولا بسبب ما فعلت، بل لأنني، أنا، مثلك تماماً.

ـ أنت؟ إنك تبالغ قليلاً.

ـ لا، لا أبالغ. قال أليوشا بلهجة قاطعة. (كان واضحاً أن هذه الفكرة قد شغلت باله منذ مدة طويلة). إنها الدرجات نفسها دائماً. أنا ما زلت في الدرجة السفلى وأنت وصلت إلى العليا، لست أدري، ربما إلى الدرجة الثالثة عشرة. هكذا أرى الأمور، ولكن الأمر واحد، واحد تماماً. إن من وضع قدمه على الدرجة السفلى من السلّم لا بدَّ أن يصل إلى الدرجة العليا.

ـ إذن، يجب عدم وضع القدم أبداً؟

ـ على المرء أن يتجنب ذلك، إذا أمكن.

ـ هل تستطيع أنت؟

ـ أعتقد أن، لا.

أسكت يا أليوشا، أسكت، يا عزيزي. أريد أن أقبّل يدك، هكذا، حناناً، إن تلك المومس غروشنكا خبيرة في شؤون الرجال! لقد قالت لي، ذات يوم، إنها سوف تبتلعك بين لحظة وأخرى. أنا أسكت، أسكت: دعنا من هذه القذارات، دعنا من هذه القذارة، ولنصل إلى مأساتي، وهي أيضاً ملأى بالعفونة، يعني ملأى بكل أنواع الخسة والدناءات أيضاً. اسمع، ربما كذب والدنا العجوز عندما تحدث عن إغواء فتيات بريئات، ولكن، في الحقيقة، هو ما حدث في مأساتي، رغم أنه لم يحدث سوى مرة واحدة فقط، أو أنه لم يحدث أبداً. والعجوز عندما اتهمني بحكايات دنيئة كثيرة لا يعرف أيّ شيء عنها: لم أخبر

أحداً عنها. أنت أول من عرفها. اعترف بذلك، بعد إيفان طبعاً. إيفان يعرف كل شيء، يعرف كل شيء قبلك منذ زمن طويل. إنه مثل القبر.

ـ إيفان هو قبر؟

ـ نعم.

كان أليوشا يستمع بانتباه كلّي. وبدأ ديمتري يسرد حكايته:

ـ كنت ليوتنان في تلك الكتيبة. إنها كتيبة ترابط على الجبهة وكنت تحت المراقبة، لا أدري، أشبه بمنفيّ. لكن المدينة استقبلتني استقبالاً رائعاً. كنت أنفق المال بلا حساب، وكانوا يعتقدون أنني غنيّ، وكنت أنا نفسي أعتقد ذلك. يبدو أن هناك سبباً آخر أعجبهم فيّ. كانوا غالباً ما يهزّون رؤوسهم، ولكنهم كانوا يحبونني. وفجأة، بدأ الليوتنان كولونيل، وهو عجوز، يناصبني العداء. ويتحيَّن الفرص للشجار معي. لكنني لم أكن بدون سند، ودافعت المدينة كلها عني. ثم إنه لم يكن ثمة شيء يستحق إلحاق الأذى بي. كانت غلطتي أنا، لأنني لم ألتزم بما يتوجب عليّ من الاحترام تجاهه. كنت متكبراً. وإن ذلك العجوز العنيد الذي لم يكن، في الواقع، رجلاً سيئاً، كان يستقبل الكثيرين في ما مضى، وكان قد تزوج مرتين، وماتت زوجتاه كلتاهما، كانت الأولى امرأة متواضعة من الشعب أنجبت له ابنة ساذجة هي أيضاً؛ في ذلك الوقت، كانت تعيش فتاةً تقترب من السنة الرابعة والعشرين من العمر، وتقيم عند والدها، وخالتها شقيقة أمها المتوفاة. وكانت الخالة امرأة بسيطة سكوتة. وابنة أختها، الابنة البكر لليوتنان كولونيل كانت سذاجتها تجمع الكثير من الجرأة والاقدام في آن. يسرّني وأنا أستحضر ذكراها أن أقول كلمة: إنني يا عزيزي، لم أعرف أبداً في حياتي كلها امرأة أجمل من تلك الفتاة، كان اسمها

أغافيا(*)، تصوَّر، أغافيا إيفانوفنا. ولم تكن تخلو من الحُسن ـ في الذوق الروسي ـ طويلة القامة، بيضاء البشرة، قوية البنية، عينان رائعتان، وذات وجه بدائي نوعاً ما. لم تتزوج، رغم أنها خُطبت مرتين. كانت تقول لا، دون أن تفقد بشاشتها. انعقدت صلة بيني وبينها ـ لا على تلك الطريقة، فقد كان كل شيء بريئاً، كنا صديقين لا أكثر. لأنه حدث لي أن أقمت علاقات صداقة مع نساء دون أيّ خطيئة. وكنت أخبرها كل هذه الأمور بصراحة تامة، وهي، كل ما تفعل، أنها تضحك. هناك نساء كثيرات يحببن الصراحة، ولكن تلك، عدا ذلك، كانت فتاة، وهذا ما كان يسلّيني كثيراً. أضف إلى ذلك أن بإمكان المرء أن يسميها آنسة. كانت الفتاة وخالتها تقيمان في منزل الأب وتحتجبان طوعاً، ولا تعتبران نفسيهما في مستوى سائر الناس. كان الناس جميعاً يحبونها، وكانوا كلهم بحاجة إليها، لأنها تجيد الخياطة، كما كانت مميزة: تملك موهبة، ولا تطلب مالاً عن خدماتها، وإنما تعمل لتكون مفيدة للناس لا أكثر، ولا ترفض أبداً، لكنها كانت تأخذ بعض المال إذا عُرض عليها. أما الليوتنان كولونيل، فلا علاقة له بشيء. كان واحداً من أبرز شخصيات محيطنا. يعيش حياة باذخة، ويستقبل كل أبناء المدينة في منزله، ويقيم ولائم غداء، وينظّم أمسيات رقص. عندما وصلت إلى المدينة والتحقت بالكتيبة، لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة الليوتنان كولونيل الصغرى التي سوف تصل قريباً، والتي يقال إنها ذات جمال فتّان، والتي تركت، منذ فترة قصيرة، إحدى أكبر المدارس الداخلية الأرستقراطية. وهذه الفتاة الثانية، كانت كاترينا إيفانوفنا الرائعة، ابنة الليوتنان كولونيل من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضاً. هذه الزوجة الثانية، لم تكن من هذا العالم، كانت تنتمي إلى أسرة نبيلة،

(*) أغافيا اسم شعبي لا يجوز أن تسمّى به ابنة ليوتنان كولونيل.

ابنة، لست أدري، أيّ جنرال كبير ـ رغم أنها لم تحمل إلى زوجها، هي أيضاً، أيّ روبل ـ ذاك ما عرفته من مصدر موثوق. إذن، كانت لها عائلة، اسم عائلة فقط، وربّما لها بعض الآمال، أما المال فلم يكن عندها شيء منه. ومع ذلك، عندما وصلت هذه التلميذة الداخلية (لتمضية بعض الوقت وليس لمدى الحياة) عادت مدينتنا الصغيرة بكاملها إلى صباها فتجددت: أرقى سيدات مجتمعنا، وزوجتا «صاحبي سعادة»، وزوجة كولونيل، وكل اللواتي يتبعهن، كلّهن يحطن بالفتاة، ويحتفين بها، في كل مكان، ويتبارين في إقامة الولائم لها. أصبحت ملكة الحفلات الراقصة، ونزهاتنا الريفية، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلات تمثيلية يعود ريعها لإعانة مربيات عجائز، لست أدري من هنّ. أنا لم أقل شيئاً، بقيت متنحياً، ألهو وأقصف. وفي تلك الفترة عينها إنما اقترفت فضيحة أثارت اللغط في المدينة كلها. ذات يوم، لاحظت في حفلة في منزل كومندان المدفعية، أنها كانت تتأملني بنظرها، ولكنني في ذلك اليوم، لم أقترب منها: تظاهرت بالاستخفاف بهذه المناسبة التي عرضت لي التعرف بها. وبعد ذلك بوقت قصير، قررت أن أتحدّث معها. وهي، فلم تكد تتنازل وتنظر إليّ، وعبَّرت شفتاها عن احتقار. وأنا، قلت بيني وبين نفسي، انتظري قليلاً، فلسوف أثأر لنفسي. وكنت شرس الطباع، في أغلب الحالات، في ذلك الوقت، وكنت أعرف ذلك في نفسي، وقد أحسست، خاصة، أن «كاتينكا» ليست تلميذة داخلية ساذجة، لا، كانت لها شخصيتها، كانت قوية وشريفة،وأكثر من ذلك، ذكية ومثقفة. بينما أنا، لست ذكياً ولا مثقفاً. ربّما تعتقد أنني أردت أن أخطبها؟ أبداً. أردت أن أثأر لنفسي، أنا الشاب القوي، وهي لا تشعر بذلك. وبانتظار ذلك، اندفعت في اللهو والقصف، حتى أن الليوتنان كولونيل انتهى به الأمر إلى توقيفي ثلاثة أيام في السجن. في تلك الفترة، أرسل إليّ الوالد ستة آلاف روبل بعد أن بعثت إليه بتنازلٍ خطّي عن جميع حقوقي الأخرى، يعني «صفَّينا

حساباتنا»، وبأنني لن أطالبه في المستقبل بشيء أبداً. لم أكن أفهم شيئاً، في ذلك الوقت، يا أخي العزيز، حتى عودتي إلى هنا، وحتى الآونة الأخيرة، بل وحتى يومنا هذا الذي نحن فيه، لم أفهم أبداً شيئاً من أمر هذه الخلافات المالية مع الوالد. على كل حال، إلى الجحيم، دعنا من هذه المسألة، لي عودة إليها فيما بعد. في ذلك الوقت، عندما تلقّيت الستة آلاف روبل، عرفت، من رسالة أرسلها إليَّ أحد الأصدقاء، أمراً يهمّني كثيراً، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل، وأنها تشتبه في أمره بارتكاب عملية اختلاس، أي إن أعداءه يدبّرون له مكيدة خبيثة. وإذ بقائد الفرقة يصل، فجأة، ويوبّخ ويشتم. وبعد فترة وجيزة، تلقّى أمراً بتقديم استقالته. لن أقصَّ عليك كل تفاصيل هذه القصة. صحيح أن هذا الرجل كان له، في الواقع، أعداء. وقد تنكرت له المدينة بأسرها، منذ تلك اللحظة، وفجأة، أظهرت له ولعائلته فتوراً واضحاً، وراح الناس يتجنبونهم! وفي ذلك الوقت، ارتكبت غلطتي الأولى. التقيت أغافيا إيفانوفنا التي احتفظت بصداقتي لها، وقلت لها:

ـ هل تعلمين أن المال العام الذي في عهدة أبيك، ينقص أربعة آلاف وخمسمئة روبل..

ـ كيف؟ لماذا تقول هذا الكلام؟ قالت لي أغافيا. لقد جاء الجنرال منذ بضعة أيام، وكل شيء كان منتظماً...

ـ نعم، كان المال كاملاً في ذلك الوقت، أما اليوم فلا.

خافت بشكل رهيب:

ـ لا تخفني، أرجوك! من قال لك هذا الكلام؟

ـ لا تقلقي... أجبتها. لن أقول كلمة لأحد. أنت تعرفين أنني، من هذه الناحية، ساكت كالقبر. لكنني أحب أن تعرفي أيضاً، عن هذه النقطة «مهما حدث» إذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمئة روبل، وهو لن يستطيع

أن يردّها فسيكون عليك ـ حتى لا يمثل أمام المحكمة، وحتى لا يُحكم عليه في أواخر عمره بأن يصبح جندياً بسيطاً ـ سيكون عليك أن تبعثي إليّ، خفيةً، بأختك الآنسة تلميذة المدرسة الداخلية. لقد تسلَّمت، منذ مدة قصيرة، مبلغاً ضخماً، سأعطي لأبيك منه أربعة آلاف وخمسمئة روبل. وأقسم لك أن أحداً لن يعلم شيئاً عن هذا السرّ في يوم من الأيام.

«أيّ نذالة تقوم بها! قالت لي. (قالت لي هذا). أيّ نذالة دنيئة أنت! وكيف تتجرأ».

وانصرفت في إذلال رهيب. وأنا، صرخت، من ورائها، أقول لها مرة أخرى، إن أحداً لن يعرف شيئاً، سأحافظ على السرّ بشكل تام. إن هاتين المرأتين الطيبتين، أعني أغافيا وخالتها، أقول ذلك مسبقاً، قد ظهرتا في هذه القصة طاهرتين مثل الملائكة. وكانتا، في الواقع، تعبدان أختهما كاترينا المتكبرة، وتمَّحيان أمامها، كأنهما خادمتان لديها، ومع ذلك، أسرعت أغافيا تقصّ الحادثة عليها، أي تروي لها حديثي معها. أنا، عرفت ذلك، فيما بعد، وكأنني كنت هناك. لقد قالت لها كل شيء، لم تخبّىء شيئاً. وهذا ما كنت أريده تماماً.

فجأة، وصل ميجر جديد ليتسلم قيادة الكتيبة. وتمّت الإجراءات. فإذا باللیوتنان كولونيل العجوز يقع مريضاً، فجأة، ولا يستطيع الحراك، ولم يخرج من منزله خلال يومين متتاليين، ولا يسلّم الأموال. وأكد طبيبنا كرافتشنكو أنه كان مريضاً حقاً. ولكنني كنت أعرف حقيقة الأمر تماماً، فقد اطلعت على التفاصيل سراً منذ زمن طويل: وهي أنّ المال يكون في الخزنة فوراً بعد زيارات السلطات ثم يختفي إلى حين، وذلك منذ أربع سنين. كان الليوتنان كولونيل يقرض هذا المبلغ رجـلاً موثوقاً به، تاجراً من مدينتنا، أرمل عجوزاً، يدعى تريفونوف وهو ذو لحية ويضع نظارتين مذهبَّتين. وهذا الأخير يمضي

بالمبلغ إلى «المعرض» فيقيم صفقات، حتى إذا عاد إلى المدينة يُرجع المبلغ المقترض إلى الليوتنان كولونيل زائداً إليه قليلاً من الفوائد وهديّة. ولكن هذه المرة، عندما رجع تريفونوف من «المعرض» لم يردَّ المبلغ (عرفت هذه التفاصيل عن طريق الصدفة من شاب هو ابنه القذر الذي هو وريثه وهو فاسق لا مثيل له في هذا العالم). في هذه المرة، لم يرد تريفونوف المبلغ إذن، لدى عودته من «المعرض». فأسرع إليه الليوتنان كولونيل يطالبه بالمال، فقال له: «أنا لم أقترض منك شيئاً أبداً، ولم يكن بإمكاني أن أقترض منك شيئاً على كل حال». هذا هو الجواب. جيد، إذن، بقي صاحبنا الليوتنان كولونيل في فراشه، يغطي رأسه بمنشفة، والسيدات الثلاث يفركن صدغيه بالثلج، وفجأة، يصل إلى منزله ساعٍ حاملاً دفتر الحسابات مع أمر بردّ الأموال بدون إبطاء، في مهلة ساعتين». فوقَّع العجوز المذكرة المرسلة إليه، وقد رأيت توقيعه بنفسي فيما بعد، ثم نهض قائلاً إنه يريد أن يرتدي بزته العسكرية، فيسرع إلى غرفة نومه ويتناول بندقية الصيد، فيحشوها برصاصة حربية، ويخلع حذاء قدمه اليمنى، ويضع فوهة البندقية على صدره متلمّساً الزناد بإصبع قدمه. لكن أغافيا، وقد ساورها الشك، تذكرت الحديث الذي جرى بيني وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت، في الوقت المناسب، ما كان يريد أن يفعل بنفسه. فأسرعت إلى الغرفة وارتمت عليه من الخلف وضغطت عليه بذراعيها فانطلقت الرصاصة في اتجاه السقف ولم تجرح أحداً. أسرعت المرأتان الأخريان أيضاً وانتزعتا منه البندقية، وقبضتا عليه... كنت، في تلك اللحظة، في منزلي، وكان الوقت مساءً، وأنا أستعد للخروج، ارتديت ملابسي وصفّفت شعري وعطرت منديلي وتناولت قبعتي، وفجأة، فُتح الباب، وإذ بكاترينا إيفانوفنا في مسكني.

ثمة أشياء غريبة: لم يلاحظ أحد، في تلك اللحظة، في الشارع، أنها

قدمت لزيارتي، ولم يرها أحد تمرّ في المدينة. كنت أسكن في شقة أجَّرتنيها زوجتا موظفين صغيرين، محترقتان وطاعنتان في السنّ، تخدمانني باحترام، وتنفذان أوامري، وكلتاهما لم تنطقا بكلمة واحدة في شأن هذه الزيارة، فبقيتا صامتتين كشدهدتيْ قبر. أنا، طبعاً، عرفت كل شيء فوراً. دخلت الفتاة ونظرت إليَّ وجهاً لوجه. كان في عينيها القاتمتين حزم لا بل تحدٍ، غير أن شيئاً من تردد كان يظهر على شفتيها. كنت أرى ذلك.

- «قالت لي أختي إنك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمئة روبل وقد جئت أطلبها منك... بنفسي. وها قد جئت... أعطني المال!».

لم تتمكن أن تضيف على ذلك شيئاً، فقد اختنقت وخافت وتحطم صوتها وارتجفت شفتاها، وبدأت ترتجف الخطوط عند شفتيها. أليوشكا، هل تسمعني أم أنك تنام؟

ـ ميتيا، أعرف أنك ستقول لي الحقيقة كلها. قال أليوشا منفعلاً. سأقول لك الحقيقة وكل ما حدث، ولن أوفّر نفسي. إليك الحقيقة إذن، كانت فكرتي الأولى كارامازوفية. ذات مرة، يا أخي العزيز، لدغتني أم أربع وأربعين، فبقيت في فراشي مدة أسبوعين في الحمّى بسببها؛ في هذه المرة، إن أمّ أربع وأربعين أخرى لدغتني، في تلك اللحظة في القلب. حشرة مؤذية، هل تفهم؟ تأملت الفتاة جيداً. هل رأيتها؟ إنها رائعة الجمال، ولكن ليس هذا ما جعلها تبدو جميلة إذ ذاك. فما جعلها جميلة في تلك اللحظة، هي أنها كانت نبيلة، وأنا، كنت نذلاً، كانت جميلة بعظمة مروءتها، بالتضحية من أجل أبيها، وأنا، كنت البقَّة الحقيرة. وها هي الآن تقع تحت سلطة هذه البقّة وهذا النذل، ها هي، الآن، خاضعة كلياً لي أنا، كلّها، روحاً وجسداً. إنها في دائرة الأذية... سأعترف لك بالحقيقة، بصراحة: إن هذه الفكرة، فكرة أم أربع وأربعين قد سيطرت على

قلبي واستولت عليَّ، وملأت قلبي حتى كاد ينفجر. بدا لي أن ليس ثمة مجال لمقاومة: أن أتصرف مثل بقَّة، مثل رتيلاء مفترسة، بدون شفقة... هذا ما قطع أنفاسي. إفهمني: لو فعلت، لذهبت أخطبها منذ الغد لأختم هذه المغامرة بنبل إذا صحّ التعبير، فما يعرف أحد بما جرى، ولا يستطيع، أبداً، معرفته. لأنه وإن كنتُ رجلاً سافل الرغبات، لكنني رجل شريف. لكنني، فجـأة، في تلك اللحظة بالذات، سمعت صوتاً يهمس في أذني: «ولكن، أنت، غداً، ستكون شبيهاً، فهذه المرأة لن تستقبلك إذا ذهبت تخطبها في الغد، ولن تراك، وستكتفي بأن تأمر حوذيَّها بأن يطردك. ستقول لك: «إفضح سمعتي في المدينة كلها، فأنا لا أخاف منك!» ألقيت نظرة على الآنسة فعرفت أن ذلك الصوت لم يكذبني، فذلك بعينه ما سوف يحدث. سوف أُطرد. إنني أقرأ هذا في عينيها. تملكني حقد مسعور حين خطرت ببالي هذه الفكرة، فاشتهيت، فجأة، أن أقوم بأحقر عمل، بعمل خليق بخنزير، بصاحب دكان: أنظر إليها وأدمّرها فوراً متهكماً قائلاً لها بلهجة يتقنها تاجر حقير.

ـ «تقولين أربعة آلاف روبل؟ لكنني، كنت أمزح. ماذا دهاك؟ إنك تعبثين كثيراً، يا سيدتي، في حساباتك. مائتا روبل، معقول. لو سألتني أن أعطيك مائتي روبل لفعلت، ولفعلت مسروراً وطوعاً، أما أربعة آلاف روبل، فذلك مبلغ لا يمكن أن نرمي به هباءً، يا آنستي! لقد أزعجت نفسك بدون طائل».

أرأيت، بالتأكيد، كنت فقدت كل شيء. كانت ستهرب. ولكن، أكون قد ثأرت لنفسي وأرضيت كرامتي. كنت سأبقى أبكي حسرةً طوال الليل بعد ذلك، ولكنني لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها، في تلك اللحظة المحددة! صدّقني، لم يحصل لي، يوماً، أن نظرت

إلى أيّ امرأة، في ذلك الوقت، نظرة فيها حقد؛ أما في تلك المرة فقد بقيت ثلاث ثوانٍ أو خمساً، أنظر إليها وأنا أشعر بحقد فظيع، قسماً بالصليب، ذلك الحقد الأهوج الذي لا تفصله عن الحب الجامح إلا شعرة! ذهبت إلى النافذة، ووضعت جبهتي على زجاجها البارد، وأتذكر أنّ الزجاج المتجلد قد أحرق جبهتي وكأنه نار. لم أبقها عندي طويلاً، اطمئن. التفت واتجهت نحو منضدتي، ففتحت الدرج وأخرجت منه حوالة بمبلغ خمسة آلاف روبل، تدفع لحامله، (كنت قد وضعتها في قاموسي الفرنسي). أريتها الحوالة دون أن أقول كلمة، ثم طويتها وأعطيتها إياها، وفتحت لها باب الممر بنفسي، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء، وحييتها منحنياً حتى الحزام، بشكل فيه الاحترام الكبير والتأثير الممكن. صدّقني! هي، ارتعشت بكل جسدها، وحدَّقت إليّ لحظة، واصفرّ لونها بشكل رهيب فأصبح مثل القميص، وفجأة، دون أن تقول لي كلمة واحدة، ودون أن تظهر شيئاً من الخشونة، انحنت هي أيضاً، برفق عميق، حتى لامس جبينها قدميَّ، فحيَّتني ساجدةً لا كمثل آنسة في مدرسة داخلية ـ بل على الطريقة الروسية ـ ثم وقفت، بوثبة واحدة، وولَّت هاربة. عندما أسرعت في الخارج، كنت أنا، حاملاً سيفي فسللته، ووددت لو أغمده في صدري. لماذا، لست أدري. لو فعلت، لكانت حماقة مني طبعاً، ولكن بدون شك، بسبب الحماسة. هل تعرف أنه من الممكن أن يقتل المرء نفسه في بعض لحظات الحماسة؟ لكنني لم أقتل نفسي؛ قبّلت سيفي وأعدته إلى غمده ـ تلك تفاصيل كان بالإمكان ألا أرويها لك. وأعتقد أنني زخرفت دوري بعض الشيء عندما وصفت لك كل تلك الصراعات، وأنني أضفت بضعة أشياء لأمتدح نفسي. ولكن، لا بأس، لنسلّم بهذا. فليسفّد الشيطان جميع الجواسيس على القلب

البشري! تلك هي «قصتي» مع كاترينا إيفانوفنا. والآن، لا يعرفها إلا أخونا إيفان وأنت. ولا أحد آخر!

نهض ديمتري فيودوروفتش، ومشى خطوة ثم أخرى وهو مضطرب، وأخرج منديله فجفَّف العرق عن جبينه. ثم عاد فجلس. لكن ليس في المكان الذي كان يجلس عليه، وإنما على مقعد آخر، المقعد المواجه المستند إلى الجدار المواجه، فاضطر أليوشا أن يستدير لكي يقابله.

V

اعتراف قلب حار، «المؤخرة فوق الرأس»

ـ الآن، عرفت النصف الأول من القصة. قال أليوشا.

النصف الأول، فهمته، إنه دراما مُثّلت هناك. أما النصف الثاني فهو تراجيديا، وهنا ستجري أحداثها.

ـ بسبب هذا النصف، أنا لا أفهم شيئاً أبداً. قال أليوشا.

ـ وأنا؟ هل أفهم أنا؟

ـ مهلاً يا ديمتري. هناك عنصر أساسي. قل لي: أنت خاطب، أليس كذلك؟ وما زلت خطيبها؟

ـ لم أكن خطيباً حينئذ، ولكن بعد أن أخبرتك بثلاثة أشهر. وغداة ذلك اليوم، بعد الذي حصل، قلت لنفسي إن القصة قد انتهت ولا تتمة لها، فإن ذهبت لأخطبها، فيبدو لي ذلك سفالة. ومن جهتها هي، طوال الستة أسابيع التي قضتها في مدينتنا بعد ذاك، لم تعطني أي إشارة بوجودها، إلا مرة واحدة في الواقع: غداة زيارتها، جاءتني خادمتها، ودون أن تتفوه بكلمة، ناولتني حزمة. وعلى الحزمة عنواني: إلى فلان. فتحتها، فوجدت فيها بقية الخمسة

آلاف. كانوا في حاجة إلى أربعة آلاف وخمسمئة فقط، فباعوا السند بخسارة أكثر بقليل من مئتي روبل، ثم أرسلت إليّ مئتين وستين روبلاً، كما أعتقد، لا أتذكّر جيداً؛ ولم يكن فيها إلا المال. لا رسالة ولا كلمة ولا أيّ تفسير. بحثت في داخل الحزمة عن أيّ إشارة، لا شيء! حسناً؟ اندفعت مجدداً ألهو وأقصف بما تبقَّى لي من الروبلات، إلى درجة أن الميجر الجديد كان مرغماً على توبيخي. أما الليوتنان كولونيل فقد ردَّ مال الدولة، فدهش الجميع؛ لأنه لم يكن أحد يتصور أن لديه المبلغ كاملاً. وبعد أن أرجع المال، وقع مريضاً مجدداً، فلزم فراشه. بقي في السرير ثلاثة أسابيع، ثم فجأة، أُصيب بضمور دماغي فمات بعد خمسة أيام. شيعت جنازته بمراسم عسكرية لأن وقته لم يكن قد حان بعد لتقديم استقالته الرسمية. وانتقلت كاترينا إيفانوفنا إلى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام، مع أختها وخالتها. وقبل سفرهنّ بالضبط، في اليوم نفسه، (لم أرهنَّ ولم أرافقهنّ)، وصلتني بطاقة صغيرة من ورق أزرق داكن، ورقة مخرَّمة، وقد كُتب في أعلاها سطر واحد بالقلم: «سأكتب إليك. انتظر رسالتي. ك.» هذا كل شيء.

والآن، سأشرح لك باختصار. في موسكو، تغيرت أحوالهنّ بسرعة، بوثبات لا مثيل لها إلا في الأساطير العربية. تلك الجنرالة، قريبتها الأساسية، فقدت فجأة، ووريثتيها الأقرب إليها وابنتي أختها ـ ماتوا بداء الجدري، خلال أسبوع، فاضطربت المرأة العجوز واحتضنت كاترينا كأنها ابنتها، كنجمة خلاص. وفوراً، كتبت وصية جديدة لمصلحتها، ولكن للمستقبل، وبالانتظار، أعطتها أربعة وعشرين ألف روبل بدون إبطاء، فهذا المبلغ «هو بائنتك، تصرّفي فيه كما تشائين. كانت امرأة هستيرية، وقد راقبتها جيداً بعد ذلك في موسكو. وأنا، فجأة، تلقيت بواسطة البريد أربعة آلاف وخمسمئة روبل: فدُهشت وذُهلت، فلم أتمكن من الكلام. وبعد تسلمي الرسالة بثلاثة أيام، وصلتني

الرسالة الموعودة. إنها معي الآن، فأنا أحملها طوال الوقت، وسأحتفظ بها حتى الممات. هل تريد أن أريك إياها؟ اقرأها: إنها تعرض عليَّ أن تصبح خطيبتي، تعرض عليّ هذا بنفسها: «إنني أحبك حتى الجنون، ولو كنت لا تحبني. ما همَّ. كن زوجي فقط. لا تخف: فلن أزعجك وسأكون قطعة أثاث في منزلك، أكون السجادة التي سوف تمشي عليها... أريد أن أحبك إلى الأبد، أريد أن أنقذك من نفسك...» لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التي كتبتها لي، بكلماتي القذرة، وبنبرتي الحقيرة الدائمة التي لن أستطيع التخلص منها أبداً! لقد اخترقت تلك الرسالة قلبي حتى اليوم. هل أنا مرح اليوم؟ وفوراً كتبت لها جواباً، كتبته بدموعي (لأنني كنت لا أستطيع الذهاب إلى موسكو فوراً). هناك شيء سأظل أشعر منه بالعار إلى الأبد. لقد ذكرت في رسالتي التي بعثت بها إليها أنها أصبحت غنية، وأنَّ لها بائنة ضخمة، أما أنا، فلست إلا ضابطاً فقيراً. تكلمت عن المال! كان يتوجب عليّ أن أسكت، ولكن هذا الكلام قد أفلت مني. وكتبت، في الوقت نفسه، فوراً، إلى إيفان في موسكو؛ شرحت له الموقف في رسالتي قدر الإمكان ـ ضمَّت الرسالة صفحات ستاً ـ وكلفت إيفان الذهاب إليها. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ ما بالك تحدّق إليَّ؟ نعم، لقد وقع إيفان في حبها، ولا يزال يحبها، أنا أعرف ذلك جيداً... لقد ارتكبت حماقة، بنظركم، وبنظر جميع الناس... ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هي الآن سبيلنا الوحيد إلى الخلاص جميعاً! ألست ترى مدى ما تكنّه له من احترام وما تحمله من تقدير؟ فهل يمكنها، إذا هي وازنت بيننا نحن الاثنين أن تحبَّ واحداً مثلي، ولا سيما بعد كل ما حدث هنا؟

ـ لكن، أنا متأكد أنها لا تستطيع أن تحبّ واحداً إلا مثلك أنت لا مثله هو.

ـ إنها تحب فضيلتها، وليس أنا. هذا ما أفلت من لسان ديمتري فيودوروفتش فجأة، دون أن يريد، مع شيء من الحقد. وانفجر ضاحكاً، وبعد

ثانية، أطلقت عيناه بريقاً واحمرَّ وجهه وضرب الطاولة بقبضة يده بقوة. وصاح وملؤه غضب رهيب وصادق على نفسه:

ـ أقسم لك يا أليوشا، يمكن أن تصدّق إذا أردت. أقسم لك بالصليب وبأنَّ المسيح هو الله؛ مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بمشاعرها النبيلة، ولكنني أعرف أنني لا أرقى إلى مستواها، وأن نفسي لا تساوي جزءاً من ألف من نفسها، وأنّ لها من النبل ما لا ينعم به إلا ملاك من السماء! التراجيديا هي هنا، وأنا أعرفها بالتأكيد. وماذا لو فخَّمنا الكلام قليلاًَ؟ ألست أفخّم الكلام؟ فأنا صادق، هل تعرف، أنا صادق. أما إيفان فإني أتصوَّر أنه الآن يلعن، يتخيَّل الطبيعة، وهو الرجل الذكي! من الذي تفضّله المرأة؟ ولمن تعطي الأفضلية؟ تعطيها إلى نذل، هو أنا، والذي برهن هنا، وهو خاطب، وأمام كل الناس على عجزه على أن يتحكم في ميله إلى الفجور، وأمام خطيبته؟ نعم! إذن هذا هو الرجل الذي هو مثلي يُفضَّل، أما هو، الآخر، فيرفضها. ولماذا كل ذلك؟ لأن هذه فتاة تريد أن تتحدى قدرها وحياتها وأن يذهبا هباءً. إنه لسخف! أنا، بهذا المعنى، لم أقل شيئاً أبداً إلى إيفان، وهذا أمر بديهي. ولا هو اعترف أو أعطى إشارة حول هذا الموضوع. ولكن يجب أن ينال كل واحد منّا نصيبه، والأفضل يحتل المكان الذي يستحقه، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيتسكّع في الأزقة المعتمة ويختفي من حياتهما إلى الأبد. وهذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة القذرة المتعفنة التي يحبها، وتجذبه إليها، والتي يشعر فيها أنه في منزله ليهلك هناك في الحقارة المقززة راضياً عنها طوعاً ومتلذذاً بها. إنني أسترسل الآن، لست أدري، في عبارات فارغة، وأقول ألفاظاً باليةً أجمعها من هنا وهناك. لكن الأمور سوف تجري هذا المجرى الذي أحدّده. سأغوص أنا في الحضيض، وهي، ستتزوج إيفان.

ـ انتظر، يا أخي العزيز. قاطعه أليوشا مجدداً مأخوذاً باضطراب شديد.

هناك نقطة لم تشرحها لي: أنت خطيبها، أليس كذلك، أنت خطيبها رغم كل شيء؟ فكيف إذن، تريد أن تفصم خطبتكما إذا كانت هي، خطيبتك لا تريد ذلك؟

ـ أنا خطيبها، الرسمي والمبارك، وقد احتفلنا بخطبتنا، حسب كل القواعد المقررة، ونلنا جميع المباركات المألوفة. تمَّ ذلك فور وصولي إلى موسكو، تمَّ وسط كثير من الإيقونات بحضور عدد كبير من المدعوين هم نخبة المجتمع وأخيار القوم. وقد باركتنا الجنرالة، حتى إنها هنّأت كاترينا إيفانوفنا ـ هل تصدّق ذلك؟ هنّأتها قائلة لها: «لقد أحسنت الاختيار يا بنيتي، إني أرى قرارة نفس هذا الشاب». أما إيفان فقد ناصبته العداء ـ هل تتصور؟ ولم ترضَ أن تهنئه، وقبل مغادرتي موسكو جرت بيني وبين كاترينا أحاديث طويلة، فكشفت لها عن نفسي كاملة بنبل وصدق، ووصفت لها أخلاقي بشكل دقيق، فأصغت إلى كل ما قلته.

كان اضطراب حنون

وكانت كلمات حنونة...

وكان أيضاً كلام فيه كبرياء. وجعلتني أقطع على نفسي عهداً لأصلح حالي. قطعت لها على نفسي ذلك العهد. وكما ترى...

ـ ماذا إذن؟

ـ لقد ناديتك، ودعوتك لتأتي إلى هنا، اليوم، ـ تذكر ـ من أجل أن أرسلك إلى هناك، إلى كاترينا إيفانوفنا. . .

ـ وماذا؟

ـ إنني لن أذهب لرؤيتها بعد اليوم أبداً. وانقل إليها تحيتي.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ لهذا السبب أرسلك أنت، لأنه من غير الممكن أن أذهب إليها بنفسي، فماذا أقول لها، وكيف أستطيع أن أقول هذا؟

ـ وأنت، إلى أين ستذهب؟

ـ إلى الأزقة!

ـ يعني إلى غروشنكا. قال أليوشا سائلاً وهو يرفع ذراعيه إلى السماء.

ـ فإذن، صحيح ما قاله راكيتين؟ لقد خطر ببالي أنك قد ارتضيت الذهاب إلى منزلها، ولكنني كنت آمل أن يكون قد انتهى هذا الأمر معها.

ـ أن أذهب، أنا الخاطب، إلى منزلها؟ هل هذا ممكن مع مثل هذه الخطيبة على مرأى من جميع الناس؟ لا، إن لي بقية من شرف رغم كل شيء. منذ اللحظة التي بدأت أذهب فيها إلى غروشنكا، فقدتُ صفة الخاطب وصفة الإنسان الشريف. ذلك أمر أعرفه جيداً. ما بالك تنظر إليَّ هكذا؟ أنا، حين ذهبت إليها أول مرة، إنما ذهبت لكي أضربها. كنت أعرف، ولديَّ البرهان الآن، أن ذلك الضابط الذي يكلفه والدي قضاء أعمال له، قد أعطى غروشنكا سنداً ممهوراً بإمضائي لكي تطالب بملاحقتي، فتضطرني، بهذه الوسيلة، أن أنسحب. أرادوا تخويفي. لذلك قررت أن أضرب غروشنكا. كنت قد رأيتها، ذات مرة، من بعيد، فلم تحدث في نفسي أثراً كبيراً. وكنت أعرف وجود صاحبها التاجر العجوز الذي هو الآن مريض لا يستطيع النهوض من فراشه، ولكنه سيترك لها، مع ذلك، مبلغاً كبيراً. كنت أعرف أيضاً أنها تخزّن المال وتحاول أن تكسب المزيد منه بالإقراض بربا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، هذه المومس الحقيرة. فذهبت إليها لأضربها. وبقيت عندها... كان الأمر صاعقة أو طاعوناً. لكنني قد أصبت وما أزال. وأنا أعرف أن لا مهرب لي منذ الآن، وأن كل شيء قد انتهى. فأنا أسير هذه المرأة، ولن أرى في الحياة، بعد اليوم، شيئاً سواها. فدورة الأزمان قد انتهت، هذه هي قضيتي. في تلك

اللحظة، فجأة، كأنما عمداً، كان معي ثلاثة آلاف روبل، أنا، الذي لست إلا شحاذاً... فذهبنا معاً إلى موكرويه التي تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً، فوجدت هناك غجراً، رجالاً وبنات، وفتحت زجاجات شمبانيا، وسقيت جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات؛ أنفقت هناك الآلاف الثلاثة. وبعد ثلاثة أيام، لم يبق معي شيء. أصبحت عارياً مثل عقاب. وماذا كسب هذا العقاب؟ هل تعتقد أنني ظفرت منها بشيء؟ لقد رفضت أن تُريني شيئاً ولو عن بُعد. أقول لك هذا: إنها رشيقة، إن في جسدها نوعاً من تثنٍّ، غروشنكا المومس، تراه حتى في ساقها أيضاً، وتراه حتى في الإصبع الصغيرة من قدمها اليسرى. إنها تنساب انسياباً. لقد رأيت هذه الإصبع، وقبَّلتها، ولكن ذلك كان كل شيء. أقسم لك! كانت تقول لي: «أتزوجك إذا شئت، رغم فقرك. قل لي بأنك لن تضربني، وبأن تسمح لي أن أفعل ما أريد، فربّما أتزوجك». كانت تقول ذلك ضاحكة، وهي لا تزال تضحك حتى الآن!

نهض ديمتري فيودوروفتش من مكانه فجأة وبشكل هستيري. صار كالسكران دفعة واحدة. احتقنت عيناه دماً.

ـ إذن، صحيح أنك تريد أن تتزوج بها؟

ـ إذا وافقت، تزوجتها فوراً. وإذا رفضت بقيت كما أنا؛ سأعيش خادماً عندها. وأنت... أنت، أليوشا... قال ذلك وتوقف فجأة أمامه، وأمسكه من كتفيه وراح يهزّه بقوة: هل تعلم أيها الصغير البريء أن هذا كله ليس إلا هذياناً، ليس إلا كلاماً يدل على جنون، وأن الأمر هو أمر مأساة! إعرف يا ألكسي، أنه بإمكاني أن أكون رجلاً دنيئاً تستبد به رغبات دنيئة حقيرة. أما أن أكون لصاً صغيراً، نشَّالاً، فذلك ما لا يمكن أن يكونه ديمتري كارامازوف أبداً! إذن، فاعلم أنني لص صغير، أنني لص نشال! قبل أن أذهب إلى غروشنكا لأضربها،

كانت كاترينا إيفانوفنا قد استدعتني إلى منزلها سراً، وكلَّفتني (راجيةً أن أنفّذ طلبها في السرِّ فما يعلم به أحد)، أن أذهب إلى مركز المقاطعة، فأرسل هناك بواسطة البريد ثلاثة آلاف روبل إلى أغافيا إيفانوفنا في موسكو، حتى لا يعرف أحد بالأمر هنا. فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبي عندما ذهبت إلى غروشنكا، وذهبنا معاً إلى موكرويه. بعد ذلك، تظاهرت بأنني ذهبت إلى المدينة ولكنني لم أسلّمها إيصال البريد، وإنما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالإيصال في يوم آخر. وحتى الآن، لم أعطها إياه، لقد نسيت. والآن، ما رأيك، أنت، ستذهب إليها وتقول لها: «إنه يحييك». وستجيب هي: «والمال؟» فما عساك تقول لها؟ إنه طالب لذة دنيء. إنه كائن سافل لا يستطيع كبح شهواته. لم يرسل لك مالك، من قبل أن أنفقه، لأنه لم يستطع أن يضبط نفسه، إنه بهيمة. ولكن، مع ذلك، يمكنك أن تضيف: «لكنه ليس لصاً، هذه هي الثلاثة آلاف روبل، يرسلها إليك، وارسليها بدورك إلى أغافيا إيفانوفنا، وهو يحيّيك». وهنا، ستقول لك فوراً: «والمال؟».

ـ ميتيا، أنت تعيس، أجل! ولكن ليس بقدر ما تتصور ـ لا تنتحر يائساً، لا تنتحر!

ـ لماذا تفكر بأنني سأنتحر. لأنني لا أستطيع أن أردَّ لها الثلاثة آلاف روبل؟ هل هذه هي المشكلة، لا أريد أن أنتحر. ليست لديَّ القوة الآن، ربَّما فيما بعد.

ـ وماذا ستفعل عندها؟

ـ سأصبح زوجها. سأنال هذا الشرف. وإذا جاء عشيقها يزورها سأختبىء في الغرفة المجاورة. وسأنظف أحذية أصدقائها القذرة، وسأغلي الماء في السماور، وسأتولّى شراء ما تكلفني به...

ـ ستفهم كاترينا إيفانوفنا كل شيء. قال أليوشا بصوت مهتاج فجأة. ستفهم مدى تعاستك وستسامحك. إنها تتمتع بذكاء فذّ. لا يمكن أن يكون أحد أتعس منك، وستعرف هي نفسها هذا.

ـ لن تقبل شيئاً أبداً. أجاب ميتيا. ثمة أشياء، يا أخي العزيز، لا يمكن أن تقبلها أي امرأة. وأنت تعرف ما هو أفضل شيء تقوم به؟

ـ ماذا؟

ـ أن تردَّ إليها الثلاثة آلاف روبل.

ـ ولكن من أين آخذ هذا المبلغ؟ إسمعني: لديَّ ألفا روبل، وإيفان سيعطي ألفاً آخر، فيصير المجموع ثلاثة آلاف. خذ هذه الآلاف الثلاثة وردَّها إليها.

ـ ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة في جيبك؟ إنك ما زلت قاصراً حتى الآن، ولا بدَّ أن تذهب لتحيِّيها، في هذا اليوم نفسه، بالمال أو بدون المال، لأنني لا أستطيع أن أتحمَّل هذا الوضع. لقد بلغت الأمور هذا الحدّ. غداً سيكون قد فات الأوان، سيكون قد فات. سوف أرسلك إلى الوالد.

ـ إلى الوالد؟

ـ نعم، ستذهب إلى الوالد قبل أن تذهب إليها، وتطلب منه ثلاثة آلاف روبل.

ـ ما هذا الكلام يا ميتيا؟ لن يعطي هذا المبلغ. أعتقد أنه لن يعطيه، أعرف ذلك. هل تعلم يا ألكسي ما هو اليأس؟

ـ أعرف.

ـ فاسمع إذن: قانونياً، ليس مديناً لي بشيء أبداً، فقد أخذت حقوقي كلها، أعرف ذلك، ولكنه مدين لي أخلاقياً، أليس كذلك؟ يجب أن يدفع لي شيئاً ما. هل هذا صحيح أم لا؟ لقد شقّ طريقه في الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف

روبل التي خلَّفتها أمي، فكسب من استثمار هذا المبلغ مئة ألف. فليعطني من هذه الثمانية وعشرين ألفاً، فليعطني ثلاثة آلاف فقط، لا أكثر، فينقذني من هذا الجحيم، وتُغفر له بذلك خطاياه الكثيرة! وأقسم لك إنني سأختفي متى حصلت على هذه الآلاف الثلاثة، فلا يرى وجهي بعدئذ ولا يسمع شيئاً عني. للمرة الأخيرة أوفّر له فرصةً ليتصرف كونه أباً.

قل له إن الله نفسه هو الذي يوفّر له هذه الفرصة.

ـ ميتيا، لن يعطي شيئاً أبداً.

ـ أعرف ذلك. أعرف أنه لن يعطي شيئاً، أعرفه جيداً، وخاصة الآن. وفوق ذلك، إليك ما أعرف أيضاً: الآن في هذه الأيام الأخيرة، ربما أمس فقط، وللمرة الأولى، عرف للمرة الأولى بشكل جدي (شدد على بشكل جدي) أن غروشنكا لا تمزح وأنها قد تتزوجني حقاً. هو يعرف طبعها، هذه القطَّة، ويرى مخالبها. فهل يمكن أن يعطيني مزيداً من المال لكي يشجعها على تنفيذ نيَّتها، وهو عاشق مجنون بها؟ وليس هذا كل شيء، سأقول لك شيئاً آخر: أنا أعرف أنه، منذ خمسة أيام، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل، وأبدلها أوراقاً نقدية من فئة المئة روبل، ووضعها في حزمة كبيرة مختومة بخمسة خواتم، وربطها بشريط أحمر متصالب. ها أنت تلاحظ أنني مطَّلع على كل التفاصيل! وكتب على الحزمة هذه العبارة: «إلى ملاكي غروشنكا، إذا هي وافقت أن تجيء». كتب هذه العبارة هو نفسه، في كثير من العناية، وفعل ذلك كلّه سراً وبصمت. فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده، ما من أحد يعرف هذا الأمر إلا الخادم سمردياكوف الذي يثق به كما يثق بنفسه. إذن، هو الآن ينتظر وصول غروشنكا، منذ ثلاثة أيام أو أربعة، آملاً أن تجتذبها هذه الحزمة. لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها: «قد

تجيء». لكن إذا ذهبت إلى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك؟ هل عرفت، الآن، لماذا أختبىء في هذا المكان أترقَّب ما سيحدث؟

ـ تترقّبها هي؟

ـ أجل، هي. إن هاتين المومستين الجارتين قد أجَّرتا فوما غرفة من منزلهما، فوما هذا، رجل من مدينتنا، جندي سابق، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس في الليل. وفي النهار، يذهب إلى صيد ديوك الخلنج، ومنه يكسب رزقه. وأنا، الآن، أختبىء عنده. فلا هو، ولا العجوزان يعرفون السرّ، أي ماذا أراقب هنا.

ـ هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر؟

ـ وحده فقط. وهو الذي سيبلغني إذا حضرت إلى منزل العجوز.

ـ أهو الذي حدَّثك عن الحزمة؟

ـ أجل. هو من أخبرني السرّ الرهيب. حتى إيفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال. لقد قرر العجوز أن يرسل إيفان إلى تشرماشنيا، يوماً أو يومين للقيام بجولة هناك. جاء إليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل، فألحَّ العجوز على إيفان قائلاً: «اذهب إلى هناك نيابةً عني. قدِّم لي هذه الخدمة» والعجوز، يهدف إلى إبعاده يومين أو ثلاثة لكي لا يكون حاضراً عندما تأتي غروشنكا.

ـ إذن، هو ينتظر غروشنكا اليوم؟

ـ لا، لن تجيء اليوم. هناك قرائن تثبت ذلك. لن تأتي اليوم بدون شك! صاح ميتيا فجأة: سمردياكوف هو من هذا الرأي أيضاً، والوالد الآن يسكر، ومعه أخونا إيفان. إذهب إليه يا ألكسي واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة...

ـ ميتيا، عزيزي، ماذا دهاك؟ صاح أليوشا وهو ينهض فجأة من مكانه،

ويتفرَّس في وجه ديمتري فيودوروفتش المضطرب، وقد اعتقد أنه أصبح مجنوناً.

ـ ماذا دهاك؟ لم أصبح مجنوناً بعد؟ قال ديمتري فيودوروفتش ببطء يشبه الأبهة وهو يحدّق إليه:

ـ أرسلك إلى الوالد، وأعرف ماذا أقول: أعتقد بالمعجزة.

ـ معجزة؟

ـ معجزة من العناية الإلهية. يستطيع الله أن يقرأ ما في قلبي ويرى يأسي. إنه يرى ما يجري هنا. هل يرضى أن يتمَّ هذا الأمر الفظيع؟ أنا أؤمن بالمعجزة، يا أليوشا، اذهب إليه!

ـ سأذهب. قل لي. هل ستنتظرني هنا؟

ـ سأنتظر. أعلم أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً وأنك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فوراً، لا بدَّ أنه سكران. سأنتظر ثلاث ساعات، أربعاً، خمساً وستاً وسبعاً إذا اقتضى الأمر. واعلم مع ذلك أن عليك الذهاب اليوم بالذات، ولو في منتصف الليل، أن تذهب إلى كاترينا إيفانوفنا، بمالٍ أو بدون مال، لتقول لها: قال لي إنه يحيّيك. إنني أحرص كلياً على أن تقول لها هذه العبارة: «كلَّفني أن أنقل إليك احترامه».

ـ ميتيا، ماذا لو جاءت غروشنكا اليوم... أو غداً أو بعد غد؟

ـ غروشنكا؟ سأترصدها، سوف أسرع وأمنعها من الوصول...

ـ وإذا...

ـ وإذا حدث؟ عندئذ سأقتل! لن أعيش.

ـ من ستقتل؟

ـ العجوز. أما هي فلن أقتلها.

ـ أخي العزيز، ما هذا الكلام؟

ـ لكن، لست أدري، لست أدري... ربما لن أقتله، ربَّما قد أقتله... أخشى ألّا أطيق رؤية وجهه، في تلك اللحظة، أكره جوزة عنقه وأنفه وعينيه وأكره ضحكته الخليعة. إنه يوقظ فيَّ قرفاً فظيعاً. ذلك ما أخشاه. قد لا أستطيع أن أسيطر على نفسي...

ـ أنا ذاهب إليه يا ميتيا. أعتقد أن الله سيفعل كل شيء من أجل ألّا يقع هذا الأمر الرهيب.

ـ أنا، سأبقى هنا، سأنتظرك هنا، آملاً أن لا تحدث معجزة.

وذهب أليوشا إلى منزل والده مفكراً.

VI

سمردياكوف

وجد والده لا يزال جالساً إلى المائدة فعلاً. كانت المائدة، حسب عادته الدائمة، موضوعة في غرفة الاستقبال رغم أن في المنزل غرفة طعام لائقة. كانت غرفة الاستقبال أوسع غرفة في المنزل، وذات أثاث قديم من باب الأبهة. أثاثها من الطراز القديم جداً مطليّ باللون الأبيض، منجَّد بقماش عتيق أحمر، نصفه من حرير والنصف الآخر من القطن. وعلى الجدران، بين النوافذ، وُضعت مرايا لها أطر مفخَّمة محفورة من طراز قديم، بيضاء اللون أيضاً ومذهَّبة. وعلى الجدران ورق مرسوم أبيض متشقق، وهنا وهناك نرى لوحتين كبيرتين، (بورتريه)، إحداهما، لست أدري لأي أمير كان حاكماً عاماً للمقاطعة قبل ثلاثين عاماً، والثانية لأسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد. وفي الزاوية الأمامية عدد من الإيقونات تضاء أمامها في الليل مصابيح زيت، لا من قبيل التقوى بل لتبقى الغرفة مضاءة أثناء الليل. ذاك أن فيودور بافلوفتش لا ينام إلا في ساعة متأخرة جداً، في الثالثة أو الرابعة فجراً. ويقضي وقته، قبل ذلك، يتمشّى في الغرفة إلى ما لا نهاية، أو يجلس على مقعد ليفكّر. أصبح هذا الأمر عادة له. وكان غالب الأوقات يبقى وحيداً طوال الليل بعد

أن يصرف خدمه إلى المبنى الملحق. ولكن في أكثر الأحيان، يحتفظ بخادمه سمردياكوف الذي ينام في القبو على بنك خشبي. عندما دخل ألكسي، كانت وجبة الطعام قد انتهت، وجيء بالحلوى والقهوة. كان فيودور بافلوفتش يحب أن يأكل شيئاً من الحلوى بعد الغداء أثناء شرب كأس صغيرة من الكونياك. وكان إيفان فيودوروفتش بجانبه إلى الطاولة يحتسي القهوة. وكان الخادمان غريغوري وسمردياكوف واقفين قرب الطاولة. وكان يبدو في تصرف السيدين والخادمين، على السواء، مرح غير عادي. فيودور بافلوفتش يضحك ويقهقه بصوت عالٍ، وقد سمع أليوشا، وهو في المدخل، ضحكته الثاقبة التي يعرفها جيداً. فاستنتج فوراً من هذا الضحك أن والده لا يزال بعيداً عن حالة السكر، فهو مسترسل في نوبات الغبطة.

ـ ها هو ذا! ها هو ذا! صاح فيودور بافلوفتش فجأة وقد سرَّه أن يرى أليوشا: تعال وانضمّ إلينا، اجلس، قهوة؟ بدون سكّر، بدون سكّر، إنها ساخنة ولذيذة! لا أقدّم إليك كونياكاً، فأنت صائم. ولكن، هل تريد، هل تريد؟ لا، من الأفضل أن أقدّم إليك شراباً روحياً رائعاً! يا سمردياكوف، اذهب وافتح الخزانة... على الرف الثاني إلى اليمين. إليك المفاتيح، أسرع!

أراد أليوشا أن يرفض فوراً المشروب الروحي. قال له والده مشرق الوجه:

ـ على كل حال، سيؤتى بالمشروب، إن لم يكن إليك فسيكون لنا نحن. بالمناسبة، هل أكلت أم لا؟

لقد أكلت، قال أليوشا الذي لم يكن قد أكل، في الواقع، إلا كسرة خبز وشرب كوباً من عصير التفاح في مطبخ رئيس الدير: يمكن أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة، وسأكون شاكراً.

ـ برافو، يا عزيزي! سوف يشرب قهوة! أليس من الأفضل تسخينها؟

ولكن، لا، إنها لا تزال تغلي. قهوة ممتازة. لقد حضَّرها سمردياكوف. صاحبي سمردياكوف فنان في إعداد القهوة وتحضير الفطائر، وكذلك في طهو حساء السمك. صحيح. تعال إلينا، ذات يوم، لتذوق حساء السمك هذا. لكن أعلمني مسبقاً. انتظر، انتظر، ألم آمرك هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود إلى المنزل نهائياً؟ ها، ها، ها، هل أتيت بفراشك؟

ـ لا، لم أجلبه. أجابه أليوشا مبتسماً.

ـ لقد خفتَ، لقد خفت منذ قليل، ها؟ لقد أخفتك؟ يا حبيبي، أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجعلك تحزن. اسمع يا إيفان. لا أستطيع أن ينظر إلى عينيَّ ضاحكاً، لا أستطيع. فأحشائي تتحرك عندئذ. لأنني أحبه. اقترب يا أليوشا، أريد أن أمنحك بركتي الأبوية.

نهض أليوشا، ولكن فيودور بافلوفتش كان قد غيَّر رأيه:

ـ لا، لا. اجلس هنا. سوف تتسلَّى الآن، وخاصة بصدد مسألته، سوف تضحك كثيراً. تخيَّل أن أَتان بلعام بدأت تتكلّم. وكيف تتكلّم، تتكلّم وما أفصحها!

لقد تبين أن أَتان بلعام ليست سوى الخادم سمردياكوف. شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين، كان يبدو شديد العزلة وسكوتاً، ليس لأنه متوحش أو خجول، لا، فهذه طباعه، فهو، في الواقع، عكس ذلك، إنه جسور حتى ليبدو عليه أنه يحتقر كل الناس. ولا بدَّ من القول، ولو بكلمتين، وبدقة، إن مارفا اينياتيفنا وغريغوري فاسيليفتش هما اللذان تولّيا تربيته، وقد شبَّ الصغير على نكران الجميل. كما كان يقول غريغوري، صبياً متوحشاً ينظر إلى الناس بازدراء. كان في طفولته يجد لذة كبيرة في أن يشنق قططاً ثم يدفنها بشكل احتفالي. وفي هذه المناسبات، يتدثَّر ببطانية يتخذها بمثابة جبّة كاهن، ويرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق القطة الميتة كمن يحمل مبخرة. وكان

يسترسل في هذه اللعبة في خلوة تامة وسرّية كبيرة. فلما فاجأه غريغوري، ذات يوم، وهو يمارس هذه الرياضة، عاقبه بالضرب بالسياط. فانزوى الصغير، يومئذ، في إحدى الزوايا، وراح ينظر نظرة غضب وتهديد خلال أسبوع كامل.

ـ إنه لا يحبّنا، أنا وأنتِ، هذا المتوحش ولا يحبّ أحداً. كان غريغوري يقول لمارفا إينياتيفنا. ثم قال فجأة، وهو يلتفت إلى سمردياكوف: هل أنت بشري؟ أنتَ لست بشرياً! أنت ثمرة رطوبة الحمّامات. هذا هو أنت. لم يغفر سمردياكوف لغريغوري تلك الأقوال، كما اتضح ذلك فيما بعد. لقد علَّمه غريغوري القراءة قبل أن يبلغ الصبي السنة الثانية عشرة. راح يعلّمه التاريخ المقدس. لكن هذه المحاولة سرعان ما فشلت. ففي ذات يوم، أثناء الدرس الثاني أو الثالث، بدأ الصبي يضحك فجأة.

ـ ما بك؟ سأله غريغوري وهو يرشقه بنظرة قاسية من خلف نظارتيه.

ـ لا شيء. إن الله قد خلق الضياء في اليوم الأول، وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والكواكب، فمن أين جاء الضياء إذن في اليوم الأول؟

بُهت غريغوري لحظة. وكان الصبي ينظر إلى معلّمه بسخرية، حتى لقد كانت عيناه تنمَّان عن ازدراء. فلم يستطع غريغوري أن يلجم غيظه فإذا هو يضرب تلميذه على خدّه لطمة قوية وهو يقول له: من أين؟ من هنا.. وتلقَّى الصبي الصفعة دون أن ينبس بكلمة، ولكنه حزن وتوقّف عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام. وبعد ذلك الحادث بأسبوع أصابته أول نوبة من الصرع، وهو المرض الذي لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته. فعندما عرف فيودور بافلوفتش بالأمر تبدَّل موقفه من الفتى، وكان حتى ذلك الحين، لا يكترث له، رغم أنه لم يوبّخه أبداً، حتى لقد كان يعطيه كوبيكاً كلما صادفه. وكان يتفق له في حالات المزاج الطيب أن يرسل إلى الصبي من مائدته بعض الحلوى. ولكن بعد أن عرف بمرضه، راح يهتم به بجدّية، فاستدعى طبيباً وأراد معالجته. لكن المرض

استعصى على الشفاء. كانت نوبات الصرع تنتابه مرة في الشهر وبشكل منتظم. وهي على تفاوت في طول المدة، واختلاف في قوة النوبة. فالنوبة خفيفة تارة وخطيرة تارة أخرى. وقد حظر فيودور بافلوفتش على غريغوري أن ينزل في الصبي عقوبات جسدية. وأخذ يستدعي الصبي إليه من وقت إلى آخر. كما عارض في تعليمه أيّ شيء خلال تلك الفترة أخذاً بالاعتبار حالته الصحية. ومع ذلك، حدث في ذات يوم أن فاجأ فيودور بافلوفتش الفتى الذي أصبح مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره، قرب خزانة الكتب وهو يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من وراء زجاج المكتبة. كان فيودور بافلوفتش يملك عدداً وافراً من الكتب. كان يملك نحو مئة كتاب، ولكنه لم يفتح أيَّ كتاب منها. وسرعان ما بادر فيودور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح المكتبة قائلاً له: اقرأ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتي بدلاً من التسكع في الخارج؛ وتناول فيودور بافلوفتش كتاباً عنوانه «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا»(*)، اسمع، خذ هذا الكتاب أولاً.

قرأ الفتى الكتاب، ولكن لا يبدو عليه أنه أعجبه، حتى أنه لم يبتسم مرة واحدة، وبالعكس، انتهى من قراءته متجهم الوجه.

ـ وماذا؟ أليس كتاباً مضحكاً؟ سأله فيودور بافلوفتش.

سكت سمردياكوف.

ـ أجبْ، يا أهبل! قال فيودور بافلوفتش.

ـ كلّ هذا أكاذيب. أجاب سمردياكوف.

ـ إذن، فاذهب إلى الجحيم أيها الذليل. طيب. خذ. اقرأ «التاريخ العام» من تأليف سماراغدوف. ستجد فيه أحداثاً واقعية. اقرأ.

(*) الكتاب الأول لنيكولاي غوغول.

لكن سمردياكوف لم يقرأ من كتاب سماراغدوف أكثر من عشر صفحات حتى بدا له مضجراً. وأُعيد إغلاق المكتبة. بعد ذلك بقليل، نقل غريغوري ومارفا إلى فيودور بافلوفتش أن سمردياكوف أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية وتأذٍ كبير. صار حين يجلس إلى المائدة ليتناول حساءه، يمسك الملعقة ويقلّب بها الحساء مدققاً ومدققاً، وينعم النظر في الطبق طويلاً، ثم يملأ ملعقته ويذهب بها إلى الضوء.

ـ هل في الحساء خنفساء أم ماذا؟ سأله غريغوري.

ـ ربَّما ذبابة؟ أضافت مارفا.

لكن الفتى المتقزز من النظافة، لا يجيب شيئاً، لكنه تبين أن الأمر نفسه يحصل إزاء جميع أصناف الطعام سواء كان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك. يرفع شوكته فيأخذ بطرفها لقمةً يتفحصها طويلاً قبل أن يأكلها، كأنما هو يفحصها بميكروسكوب، ويتردّد وقتاً طويلاً لكي يقرر، وفجأة يضعها في فمه. لا، لكن هل تتصور نفسك سيداً؟ تمتم غريغوري محدِّقاً إليه. فلما أُبلغ فيودور بافلوفتش موقف سمردياكوف الجديد هذا، قرر فوراً أنه يصلح أن يكون طاهياً. فأرسله إلى موسكو ليتعلّم المهنة. قضى سمردياكوف عدة سنوات يتعلم المهنة، ثم عاد وقد تغيَّر وجهه كثيراً. دبَّت فيه الشيخوخة بشكل غريب فتغضَّن وجهه مما لا يتَّفق وعمره؛ واصفرّ لونه وصار شبيهاً بمخصيّ. أما من الناحية الأخلاقية فهو لم يتغيَّر عما كان عليه قبل ذهابه إلى موسكو. فهو لايزال متوحشاً لا يشعر بحاجة إلى أن يعيش في صحبة الناس. وفي موسكو أيضاً، كما عُرف فيما بعد، قضى وقته صامتاً، فمدينة موسكو لما هي عليه لم تشغفه كثيراً، ولم يعرف منها إلا أماكن قليلة هنا وهناك. وقد ذهب، ذات مرة، إلى المسرح وعاد منه

صامتاً ومستاءً. وفي المقابل، عاد إلينا من موسكو يرتدي ثياباً أنيقة وسترة وملابس داخلية نظيفة. ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين في اليوم، ويجد لذة خاصة في أن يمسح حذاءيه الأنيقين بدهانٍ إنجليزي خاص حتى يلمعا أكثر من مرآة. وكطاهٍ، برهن على أنه عظيم. وحدَّد له فيودور بافلوفتش أجراً معلوماً، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس، ودهان الشعر، وشراء العطور، الخ، ومع ذلك، كان يبدو أنه يكره الجنس النسائي كرهه للرجال. يبتعد عنهنّ لكأنَّ وصولهنّ إليه مستحيل. وقد دُهش فيودور بافلوفتش من هذه الظاهرة، وراح ينظر إليها نظرة خاصة لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدّت وتكاثرت في ذلك الوقت، حتى أن مارفا إينياتيفنا اضطرت أن تقرّر إعداد وجبات الطعام بنفسها، في تلك الأيام. وذلك أمر لم يهتم به كثيراً فيودور بافلوفتش: لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع؟ كان يقول للطاهي الجديد، أحياناً، وهو يتفرس في وجهه وينظر إليه باشتباه: يمكنك أن تتزوج. بأيّ كانت؟ هل تريد أن أجد لك زوجة؟...

لكن سمردياكوف كان يصفر وجهه عند سماع هذه الأمور، ولا يجيب عن هذه الأسئلة؛ فينصرف عنه فيودور بافلوفتش عاجزاً. المهمّ أنه كان مقتنعاً بشهامته. كما أمكن أن يقتنع فيودور بافلوفتش بذلك مرة إلى الأبد، فهو لا يمكن أن يسرق شيئاً ولا يسطو على شيء أبداً. وذات يوم، استبدَّ السكر بفيودور بافلوفتش فأضاع في فناء منزله، في الوحول ثلاث أوراق نقدية ملونة كان قد قبضها منذ قليل، ولم يفتقدها إلا في صباح غدٍ، ما إن راح يفتش في جيوبه كلها حتى لمحها على طاولته. من أين جاءت إلى هنا؟ إن سمردياكوف قد عثر عليها فحملها إلى سيّده منذ عشية البارحة.

ـ «أخي العزيز، لم أصادف في حياتي أناساً مثلك حتى اليوم». قال له فيودور بافلوفتش. يجب أن نضيف إلى هذا أنه لم يكن على اقتناع بأمانته فحسب بل كان يحبه أيضاً، ولست أدري لماذا، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كما مع الآخرين، وكثيراً ما كان ينظر نظرة شزراء ويلزم الصمت. وكان نادراً ما يتكلم، فلو تساءل أحد، في ذلك الوقت، وهو ينظر إليه لعلَّه يشغل باله، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جواباً. ومع ذلك، سواء في المنزل أو في الفناء، أو في الشارع، كان يتوقف، فجأةً، ويبدو عليه أنه مسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر، دون أن يتحرك من مكانه. ولو نظر إليه، في مثل هذه اللحظات، عالم فِراسة لأدرك أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع، وأن الأمر مجرد استسلام للأحلام، للرسام كرامسكوي لوحة رائعة عنوانها «المتأمل» . تمثل غابة، في فصل الشتاء،وقد وقف في الغابة على الممر الذي يقطعها، فلاح يرتدي قفطاناً وينتعل خفَّين مثقوبين، فهو في عزلة تامة. لقد ضلَّ الفلاح طريقه هناك فبدا في العزلة الكاملة غارقاً في التأمل. والحق أن الرجل لا يفكر بل هو غارق في «التأمل»، فلو دفعه أحدهم، في تلك اللحظة، لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم وهو ينظر حوله لا يفهم شيئاً مما حدث له، وسرعان ما يعود إلى رشده. فلو سألته، في تلك اللحظة، عما كان يفكر لما استطاع أن يجيبك بشيء. ولكنه سيظل محتفظاً في أعماق نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في تأملاته، وهي مشاعر عزيزة عليه، يجمِّعها في نفسه كما يدَّخر البخيل على نحوٍ لا يدركه بل ولا يشعر به، وهو لا يدري طبعاً لماذا يفعل ذلك، لم يعرف شيئاً: ربما هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنوات عديدة

دفعته، ذات يوم، إلى أن يهجر كل شيء، فجأة، ويذهب إلى القدس تائهاً ينشد الخلاص، أو تدفعه، لا تدري لماذا، إلى أن يشعل النار في قريته فيحرقها. وقد يفعل الأمرين كليهما. إن هؤلاء الحالمين كُثُر في شعبنا. وبدون شك، إن سمردياكوف كان واحداً منهم، فهو يُراكم في نفسه المشاعر بنهم دون أن يعرف حتى الآن لماذا.

VII

المجادلة

لكن أتان بلعام بدأت تتكلم فجأة. وكان الموضوع غريباً: إن غريغوري عندما كان يحمل مشترياته من دكان التاجر لوكيانوف في الصباح سمع قصة جندي روسيّ وقع في الأسر عند تخوم البلاد البعيدة، لدى الأسيويين، فأرادوا إكراهه على إنكار المسيحية واعتناق الإسلام. فرفض أن ينكر إيمانه وارتضى أن يستشهد، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح. كانت صحف ذلك اليوم تتحدث عن مأثرة هذا الجندي، وهذا ما رواه غريغوري أثناء الغداء. كان فيودور بافلوفتش يحب أن يمزح، في كل مرة، بعد الغداء أثناء تناول الحلوى وأن يدخل في حديث صغير ولو مع غريغوري. وكان، في ذلك اليوم، مرح المزاج مبتهج النفس. وبعد أن استمع إلى هذه القصة وهو يتمزّز كأس كونياك، قال إن من الواجب أن يرفع ذلك الجندي، فوراً، إلى مصاف القديسين وأن يُهدى جلده المسلوخ إلى أحد الأديرة، «لكي يجتذب الجماهير والمال»! فقطّب غريغوري حاجبيه عندما لاحظ أن فيودور بافلوفتش استرسل في التجديف كما هي عادته بدلاً من أن يتأثر. في تلك اللحظة، سُمع سمردياكوف يطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب. كان

سمردياكوف قد سُمح له غالباً، حتى في السنوات السابقة، أن يحضر وجبات الطعام واقفاً أمام المائدة أي أن يستمع إلى المناقشات التي تليها. لكنه اعتاد منذ وصول إيفان فيودوروفتش إلى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الطعام في كل يوم تقريباً.

ـ ما بك؟ سأله فيودور بافلوفتش عندما سمع قهقهاته فعرف فوراً أنه يسخر، بالتأكيد، من غريغوري.

ـ بصدد هذه القصة. أجاب فجأة سمردياكوف بشكل أخاذ وبصوت مرتفع. أنا أرى أن مأثرة ذلك الجندي الجدير بالثناء كانت عملاً بطولياً، ولكنني أرى أنه ما كان ليُحسب خاطئاً لو أنكر اسم المسيح ومعموديته، إنقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظاً بها لحسنات تكفِّر، بعد سنوات، عن ضعفه.

ـ ما كان ليُحسب خاطئاً؟ كيف هذا؟ أنت تكذب، وستذهب إلى هناك، إلى جهنم، وستُشوى مثل الخروف. أجاب فيودور بافلوفتش.

وهنا كان قد دخل أليوشا. وفيودور بافلوفتش، كما سبق أن رأيناه، كان مسروراً برؤيته بشكل غريب. قال، مع ضحكة صغيرة مرحة وهو يدعو أليوشا إلى الجلوس:

ـ هذا موضوع يهمّك أنت، هذا موضوع يهمّك أنت!

ـ بالنسبة إلى موضوع الخروف فليس الأمر على هذا الشكل؛ لن يكون هناك عقاب بسبب رأيٍ من هذا النوع، يجب ألّا يكون هناك عقاب إذا أردنا العدل الحقيقي. قال سمردياكوف بوقار.

ـ كيف ذلك، إذا أردنا العدل؟ صاح فيودور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلكز ركبة أليوشا.

ـ هذا فجور، لا أكثر! قال غريغوري وهو يحدّق إلى عينيّ سمردياكوف بغضب.

ـ أما عن قولك إن ذلك فجور، أليس كذلك، انتظر قليلاً يا غريغوري فاسيليفتش. قال سمردياكوف بصوت هادىء ورصين. واحكم أنت بنفسك: هبْ أنني وجدت نفسي أسيراً لدى جلّادي الجنس المسيحي وطلبوا مني أن ألعن اسم الله وأن أتنكَّر لمعموديتي المقدسة، أنا، ألا يسمح العقل في هذه الحالة أن أفعل ذلك، ولن تكون في هذا خطيئة.

ـ لكن، سبق أن قلت هذا، لا تكرّر ما سبق أن قلته، عليك أن تبرهن على ذلك!

ـ طاهٍ فاشل! دمدم غريغوري باحتقار.

ـ أما عن قولك طاهٍ فاشل، أجاب سمردياكوف. هنا أيضاً، تمهّل قليلاً، ولا تشتمني، بل فكِّر أنت يا غريغوري فاسيليفتش. هبْ أنني قلت لجلَّاديَّ، لا، لست مسيحياً وأنا أنكر الله. أفلا تدينني محكمة الله الأسمى، في تلك اللحظة عينها، وتلعنني وأكون قد حُرمت من الكنيسة المقدسة، كأيّ وثني، منذ تلك اللحظة، بل منذ اللحظة التي تفوَّهت فيها بتلك الكلمات، بل منذ اللحظة التي راودتني فيها فكرة النطق بهذه الكلمات، بحيث لا يمضي ربع ثانية إلا وأكون قد حُرمت؟ أليس هذا صحيحاً أم لا، يا غريغوري فاسيليفتش؟

كان واضحاً أن سمردياكوف وجد لذة في التوجُّه بكلامه إلى غريغوري فاسيليفتش رغم أنه لا يجيب، في الواقع، إلا عن أسئلة فيودور بافلوفتش، وكان يعرف ذلك تماماً، لكنه يتظاهر بأن تلك الأسئلة إنما طرحها غريغوري.

ـ إيڤان! صاح فيودور بافلوفتش فجأة. ملْ عليّ كي أستطيع أن أهمس في أذنك.

ـ من أجلك يقول هذا الكلام، وهو ينتظر مجاملاتك، فامدحه إذن.

استمع إيفان فيودوروفتش بكثير من الاهتمام إلى هذه الملاحظة التي أسرَّ بها إليه والده.

ـ أسكت قليلاً يا سمردياكوف. عاد فيودور بافلوفتش يصيح. إيفان، ملْ إلى مستوى أذني.

مال إيفان إلى أذنه، مرة أخرى، مظهراً تلك الجدية السابقة نفسها.

ـ إنني أحبك كما أحب أليوشا. لا تفكر أنني لا أحبك. قليلاً من الكونياك؟

ـ بكل سرور. «أنت أيضاً، قد سكرت». قال إيفان فيودورفتش وهو يتفرس في والده. وكان، من جهة أخرى، يرقب سمردياكوف بانتباه يقظ.

ـ كافر وملعون منذ الآن! صاح غريغوري فجأة. كيف تتجرأ أن تستمر في المناقشة أيها الفاسق، عندما...

ـ قليلاً من الصبر. لا تطلق الشتائم، يا غريغوري، لا تطلق الشتائم! قاطعه فيودور بافلوفتش. وأصغِ إلى تتمة حديثي لأنني لم أنتهِ بعد. لأنني في الوقت عينه حيث يلعنني الله، فوراً، إذ ذاك، يعني في اللحظة القصوى، سأصبح مثل أيّ وثني تماماً. وتكون معموديتي قد أُلغيت، فلا يُحسب لها حساب، أليس هذا صحيحاً؟

فاستحثَّه فيودور بافلوفتش بعد جرعةٍ من كأسه:

ـ أوصلنا إلى النتيجة، أيها الأخ العزيز، أسرع.

ـ إذا لم أعد مسيحياً، تابع سمردياكوف حديثه، إذن، يعني أنني لا أكذب على جلّاديَّ عندما يسألونني: «هل أنت مسيحي أم لست مسيحياً؟» طالما أن الله نفسه هو الذي أخرجني من مسيحيَّتي بسبب الشروع وحده وقبل أن يتسنى لي حتى قول كلمة واحدة لجلاديّ. فإذا كنت قد أُخرجت من المسيحية

فكيف يمكن أن أُحاسب في العالم الآخر، وأيّ عدالة تقبل أن أُحاسب في العالم الآخر كما يحاسب مسيحي أنكر المسيح، مع أنني أكون قد جُردت من معموديتي بسبب نيتي وحدها حتى قبل أن أنكر ديني بالقول؟ إنني بعد أن جُردت من مسيحيتي، لا أنكر المسيح، لأنه لا يكون قد بقي لي دين أكفر به. هل يخطر ببال أحد، يا غريغوري فاسيليفتش، أن يلوم تتارياً ملعوناً على أنه لم يولد مسيحياً؟ من هو الذي يريد أن يعاقب مثل هذا التتاري، حتى في السماء؟ ما من أحد يسلخ ثوراً واحداً مرتين! وافترضْ أن الله القدير سيحاسب هذا التتاريّ بعد موته: إنه لن يوقع فيه إلا عقاباً بسيطاً (فمن غير المقبول ألّا يعاقب أبداً) ذلك أن الله يقدِّر أن هذا التتاري لم يأثم عندما وُلد من أبوين غير مسيحيّين. لا يمكن لله أن يرغمه بالقوة على القول إنه كان مسيحياً، ولا يمكن أن يعتبره مسيحياً، فإن اعتبره مسيحياً كان هذا كذباً واضحاً، والله، الذي هو ربّ السموات والأرض، لا يمكن أن يكذب، ولو في مناسبة واحدة، ولو في كلمة واحدة من كلماته.

بقي غريغوري أبكم مذهولاً يتطلع إلى الخطيب محملقاً. فهو، رغم أنه لم يستطع متابعة المناقشة قد أدرك بعض ما يتضمنه هذا الكلام المضطرب، فتجمّد كرجلٍ صدم الحائط بجبينه فجأة. وأفرغ فيودور بافلوفتش في فمه كأس الكونياك، وأطلق ضحكة حادة.

ـ أليوشكا، أليوشكا، هل رأيت هذا؟ يا له من حلّالٍ للمشاكل! لا شك أنه تعلّم لدى اليسوعيين، ألا ترى ذلك يا إيفان؟ هذا اليسوعي السوقي؟ من الذي علّمك كل هذا؟ لا تعرف سوى الكذب، يا حلّال القضايا الضميرية، تكذب وتكذب، وتعود فتكذب. اطمئن يا غريغوري، سوف نهدّم آراءه

الوقحة، سوف نجعلها هباءً، حالاً وبدون إبطاء! قلْ لي أيها الأتان: لنفرض أنك على حق في موقفك من جلّاديك، أنت، وفي قرارة نفسك، أنكرت إيمانك، وأنت قلتَ هذا الآن، وأصبحت في تلك اللحظة محروماً وملعوناً، فإذا كفرت فلن تكافأ على هذا في جهنم كما أتصوَّر. فبماذا تجيب عن هذا السؤال، أيها اليسوعي الظريف؟

ـ لا أنكر أنني أكون قد أنكرت ذاتي، وبالرغم من كل شيء، ليس في هذا أيّ خطيئة كبيرة، أليس كذلك، وإذا كانت خطيئة بسيطة فهذا خطأ عاديّ، عاديّ جداً.

ـ كيف هذا، عاديّ، عاديّ جداً؟

ـ كذّاب، وملعون، ملعوون. تمتم غريغوري.

ـ احكم في ذلك بنفسك، يا غريغوري فاسيليفتش. تابع سمردياكوف بصوت هادىء وواثق شاعراً بانتصاره ولكن مصطنعاً الكِبر مع خصم طُرح أرضاً. احكم أنت بنفسك يا غريغوري فاسيليفتش، لقد جاء في الكتاب المقدس أنه إذا كنت تملك الإيمان، ولولا تملك ذرة صغيرة منه، تستطيع أن تأمر هذا الجبل بأن ينتقل إلى البحر، فينتقل فوراً، عند أول أمر. إذن يا غريغوري فاسيليفتش، إذا كنت تبلغ من الإيمان ما يعطيك حقاً في إهانتي بدون انقطاع، فحاول، إذن، أن تأمر هذا الجبل لا لكي يذهب إلى البحر (فالبحر بعيد جداً من هنا) بل أن يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول الصغير الآسن الذي يجري وراء الحديقة. وسوف ترى بأم عينك في اللحظة ذاتها أنه لن ينتقل إلى أيّ مكان، وأنّ كل شيء سيبقى على ما كان عليه، هادئاً جداً، مهما يكن صراخك قوياً. وهذا يعني، يا غريغوري فاسيليفتش، أنك أنت أيضاً لا

تملك الإيمان الحقيقي بينما لا تكفّ عن إهانة الناس بذريعة أنهم لا يملكون الإيمان. يجب، وهنا أيضاً، أن نعترف على كل حال، أنه ليس في عصرنا هذا أحد على الإطلاق سواء كان أقوى الناس سلطة أو كان أحقر فلاح، لا يملك القدرة على أن ينقل هذا الجبل إلى البحر، ربما باستثناء رجل واحد أو اثنين، في أكثر تقدير، لكن هذين الرجلين لا بدَّ أن يكونا مختبئين في صحراء مصر ينشدان هناك الخلاص، فلا يمكننا العثور عليهما. وإذا كان الرجال الآخرون غير مؤمنين حقاً، يعني كل سكان الأرض إلا الراهبين الناسكين أو الثلاثة، وبأن الله يلعنهم بالرغم من كل رحمته التي نعرفها جميعاً فلن يغفر لأحد؟ ولهذا السبب، آمل إذا أنا شككت مرة أن أنال المغفرة بعد أن أذرف دموع الندم.

ـ توقَّف! صاح فيودور بافلوفتش بتألق. أنت تسلّم بأنَّ ثمة رجلين على الأقل في العالم يستطيعان أن يحركا الجبال إذن؟ سجِّل هذا يا إيفان. هذه هي سمة الرجل الروسيّ التي تنكشف في كل هذا.

كذلك قال فيودور بافلوفتش بصوت حاد كريه.

ـ ملاحظتك صحيحة تماماً، عندما ترى أن هذه سمة شعبية في الإيمان. قال إيفان فيودوروفتش مبتسماً.

ـ أنت موافق؟ إذن لا بدَّ أن أكون على حق. أليس كذلك يا أليوشا! إن ذلك سمة روسية؟

ـ لا، إن سمردياكوف ليس لديه الإيمان الروسي. قال أليوشا بلهجة حادّة وحاسمة.

ـ أنا لست أتكلم عن إيمانه بل عن هذه السمة، عن ذينك الناسكين. هذه السمة الصغيرة فقط: إنها سمة روسيّة، أليس كذلك، سمة روسيّة؟

ـ أجل، هي سمة روسية جداً. أجاب أليوشا مبتسماً.

قال فيودور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف:

ـ قولك هذا يساوي روبلاً، يا أتان، وسوف تقبضه اليوم بالذات. أما في ما عدا ذلك، فقد كذبت، كذبت، وأكرر إنك كذبت. فاعلم أيها الغبي أننا نحن جميعاً هنا، أن خفَّة العقل وحدها هي التي جعلتنا غير مؤمنين لأنّ وقتنا لا يتّسع للتفكير في الله، والله، ثانياً، قد أعطانا وقتاً قليلاً، أربعاً وعشرين ساعة فقط في اليوم، فنحن ليس لدينا الوقت لننام، ولا أقول الوقت اللازم للندامة. أما أنت فقد ارتددت عن إيمانك أمام جلّادك، مع أنه لا يمكن أن تكون في ذهنك فكرة أخرى غير فكرة الإيمان التي كانت هي بعينها التي يجب أن تكفل لها الغلبة! ألم تجر الخطيئة على هذا النحو، يا صديقي العزيز؟

ـ الخطيئة؛ هكذا جرت الأمور: لكن احكم أنت بنفسك يا غريغوري فاسيليفتش، إن ذلك يجعل الخطيئة أخفَّ شأناً ما دامت الأمور قد جرت بهذا الشكل. لأنه، إذا كنت مؤمناً، في تلك اللحظة بالحقيقة التي يجب أن أؤمن بها، عندئذ أرتكب خطيئة، في الواقع، إذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل إيماني وارتضيت أن أعتنق دين محمد الوثني. لكنني، ما كنت لأصل إلى الاستشهاد في تلك اللحظة، لأنه كان يكفيني أن أقول للجبل في تلك اللحظة: «تحرَّك واسحق جلّادي»، فيرتمي الجبل على الجلاد ويخنقه بثقله كأنه خنفساء، وأنا أمضي في سبيلي وكأن شيئاً لم يحدث، هادئاً، أرتل وأمجد الربّ. فإذا راودتني هذه الأفكار لتحقيق هذه الغاية منادياً: «اسحق الجلادين أيها الجبل»، فإذا بالجبل لا يستجيب لندائي أفلا يهاجمني الشك عندئذ؟ هل قلت لي كيف يمكنني في مثل تلك الساعة من الخوف أن لا يساورني الشك؟ لقد عرفت سلفاً أنني لن أظفر بملكوت السماء كاملاً (لأنّ الجبل لم يتحرك وذلك دليل على أنّ إيماني ليس موضع ثقة هناك في الأعالي، ودليل على

أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة). إذن، أيّ جدوى في أن يسلخوا جلدي حياً بدون فائدة؟ وحتى عندما يكونون قد سلخوا من جلد ظهري نصفه، فناديت الجبل مرة أخرى أن يسحقهم فإن الجبل لن يتحرك من مكانه رغم كل صراخي. ثم، وفي تلك اللحظة، يمكن أن أقع في الشك وأن أفقد عقلي بسبب خوفي بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير. ولماذا سأكون مذنباً إن لم أظفر لا بفائدة ولا بمكافأة، لا هنا ولا هناك ـ على الأقل أستطيع أن احتفظ بجلدي؟ إذن، انطلاقاً من رجائي الكبير برحمة الربّ، يتعزز أملي بأن خطاياي سوف تغفر بالكامل.

VIII

كأس كونياك صغيرة

كانت المناقشة قد انتهت ولكن الغريب هو أن فيودور بافلوفتش الذي كان يشعر بالغبطة قد اكفهرَّ وجهه وأفرغ كأساً أخرى من الكونياك في فمه، وبهذه الكأس تجاوز الحدَّ المألوف.

ـ انصرفا، هيّا، إليكما عنّي... أيها اليسوعيان! صاح بخادمَيه. سمردياكوف، أنت، إلى الخارج! وقبل حلول المساء سأرسل إليك الروبل الذي وعدتك به. وأنت يا غريغوري، لا تبكِ. إذهب إلى مارفا سوف تؤاسيك وتضعك في السرير. لا يدعاني أرتاح بعد الغداء، هذان الحقيران. أضاف، فجأة، بصوت ملؤه الغيظ وعندها اختفى الخادمان فوراً بعد تلقيهما الأمر؛ والآن، يأتي سمردياكوف كل يوم عند كل وجبات الطعام فهل أنت الذي تجتذبه؟ وماذا فعلتَ حتى فتنته؟ قال لإيفان فيودوروفتش.

ـ لم أفعل شيئاً على الإطلاق. أجاب هذا الأخير. إنما شعر نحوي بالاحترام. إنه خادم وحقير، لكنه من الذين يندفعون إلى الصف الأمامي متى حان الوقت.

ـ إلى الصف الأمامي؟

ـ سيكون هناك آخرون، أناس أفضل منه، ولكن سيأتي أيضاً أناس مثله، وهم الذين سيؤكدون أنفسهم في بادىء الأمر، ثم يأتي دور من هم أفضل منه.

ـ ومتى يحين الوقت؟

ـ ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت. إن الشعب لا يحب الآن هؤلاء الطهاة الفاشلين.

ـ هو هذا، يا أخي العزيز، بدأت أَتان بلعام تفكّر. هكذا، تفكّر، وتفكّر، والشيطان يعرف ذلك؛ إلى أين ستؤدي أفكارها في النهاية.

ـ إنه يجمِّع آراءه. قال إيفان ساخراً.

ـ أنا أعرف تماماً أنه يكرهني كما يكره الآخرين، وكما يكرهك أنت أيضاً رغم ما تظنّه من أنه «يكنُّ لشخصك الاحترام». أما بالنسبة لأليوشا، فهو يكره أليوشا، وهذا واضح جداً. لكن علينا أن نعترف أنه، في مقابل ذلك، لا يسرق، وهو يعرف كيف يسكت، ولا يثرثر خارج المنزل. وهو معلّم في طهو الفطائر. أما فيما عدا ذلك، فليذهب إلى الجحيم؛ وفي الحقيقة، ماذا يفيد التحدث عنه؟

ـ أما فيما يتعلق بأفكاره كلها، فأنا، من جهتي، أعتقد، على وجه العموم، أنَّ الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب. لقد أكدت ذلك دائماً. إن فلَّاحنا هو سارق لا يستحق اللوم. ومن المستحسن الآن بأن يُضرب من وقت إلى آخر. والأرض الروسيّة لا تقوم إلا على الضرب. فمتى تُقطع أشجار الغابات تضيع الأرض الروسيّة. أنا، أحب الناس الأذكياء. إننا أذكياء نحن. فقد توقَّفنا عن ضرب الفلاحين، وهم مستمرون في جلد أنفسهم. وما أعتاهم في ذلك: على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه الاعتدال، أو كيف؟... على كل حال، هو يفقد الاعتدال... أما روسيا فهي بلد قذر. ليتك تعلم، يا صديقي، كم أكره

روسيا. يعني لا أكره روسيا إنما أكره عيوبها... وربّما كرهت روسيا أيضاً. «هذه كلها قذارات»! هل تعرف ما الذي أحب؟ أحبّ الفكاهة.

ـ لقد شربت كأساً أخرى منذ برهة. يجب أن تتوقّف.

ـ سأشرب كأساً أخرى، ثم ثالثة، ثم أتوقف. لا، لقد قطعت سلسلة أفكاري. في موكرويه، سألت رجلاً عجوزاً، فأجابني: «نحن نحبّ كثيراً أن نضرب البنات بالسوط ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة إلى شبَّان. فكثيراً ما يحدث أن الشاب الذي ضرب البنت بالسوط بالأمس، يجيئها في الغد خاطباً. وهكذا تستفيد البنات أيضاً من الضرب، وهنّ يحببنَ الضرب عندنا. ما رأيك في شبابنا المتأثرين بالمركيز دوساد؟ منظر مسلٍّ. ألا تعتقد أنه يجب أن نرى المشهد؟ لماذا يحمرّ وجهك يا أليوشا؟ لا تخجل يا صغيري. يا لها من خسارة أننا لم نحضر وليمة رئيس الدير لنقصَّ على الرهبان قصة بنات موكرويه! المعذرة يا أليوشا لأنني أهنت رئيس الدير منذ قليل. إن الخردل يصعد إلى أنفي في بعض اللحظات... لا شك أنني أكون خاطئاً، ولا شك أنني سأُعاقب إذا كان الله موجوداً. ولكن، إن لم يكن الله موجوداً فما فائدة جميع هؤلاء الرهبان؟ إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لقليل جداً أن نقطع رؤوسهم لأنهم يعوقون التقدم! هل تصدقني يا إيفان إذا قلت لك إن هذا يؤذي مشاعري؟ لا، أنت لن تصدّقني... أنا أرى هذا في عينيك! أنت تظنّ كما سائر الناس أنني مهرّج لا أكثر. أليوشا، هل تصدقني إذا قلت لك إنني لست مهرّجاً فحسب؟

ـ أنا أعتقد أنك لست مهرجاً فحسب.

ـ أنا أصدّق ذلك. أعرف أنك تتكلم الآن بجدية. أنت تقول الحقيقة، وعيناك صادقتان. وإيڤان، لا، إيفان متكبّر... مع ذلك، لو كنت في مكانك، لتركت هذا الدير وانتهيت منه... هذه الصوفية، يجب اجتثاثها من الأرض

كلها، يجب إلغاؤها بشكل تام لكي نردَّ الأغبياء إلى العقل. وهذا المال، ما أكثر الذهب الذي يمكن أن تستعيده خزانة الدولة بهذه الطريقة!

ـ لماذا نلغيها؟ قال إيفان.

ـ لماذا؟ لكي تسطع الحقيقة بسرعة.

ـ وإذا ظهرت هذه الحقيقة فستكون أنت أول من يعاقب ثم... يلغونك.

ـ حسناً. على كل حال، ربّما تكون مصيباً.

أنا أَتان، صاح فجأة، فيودور بافلوفتش وهو يلطم جبينه بيده لطمة خفيفة:

ـ إذن، جيّد، فليبقَ ديرك يا أليوشا ما دام الأمر كذلك. أما نحن، الأذكياء فلنستمرّ في احتساء الكونياك! هل تعرف يا إيفان أن الله نفسه هو الذي أراد إقامة ذلك النظام، وأنا أراهن على ذلك. ولكن، قل يا إيڤان: هل الله موجود أم غير موجود؟ قل لي بجديّة! لماذا تضحك مجدداً؟

ـ أضحك لأنني تذكرت الفكرة التي عبَّرت عنها منذ لحظة بشكل فكه، بصدد إيمان سمردياكوف بوجود هذين الناسكين القادرين على تحريك الجبال.

ـ هل لأنَّ هذا شبيه بذاك الآن؟

ـ كثيراً.

ـ حسناً، أنا أيضاً إذن، روسيّ حقاً، أتصف بسمة روسيَّة، وأنت أيضاً تتصف بسمة من هذا النوع مهما تكن فيلسوفاً. هل تريد أن أبرهن لك على ذلك؟ سنراهن على أنني سأستطيع ذلك منذ يوم غد؟ ومع ذلك، قلْ: هل الله موجود، نعم أم لا؟ تكلَّم بجديّة، فأنا أريد أن أعرف ذلك الآن.

ـ لا، الله غير موجود.

ـ أليوشكا، هل الله موجود؟

ـ الله موجود.

ـ إيڤان: والخلود، هل هو موجود؟ هل هناك حياة أخرى، ولو ظلُّ حياة أخرى، ظلّ صغير، صغير جداً؟

ـ الحياة الأخرى بعد الموت غير موجودة.

ـ أبداً؟

ـ أبداً.

ـ أي العدم المطلق، أو أيّ شيء آخر؟ ربَّما وُجد قليل من حياة. لست أدري ماذا؟ ولكن ليس لا شيء!

ـ العدم الكامل.

ـ أليوشكا، هل الخلود موجود؟

ـ نعم موجود.

ـ والله والخلود؟

ـ نعم الله والخلود، وفي الله وفي الخلود.

ـ همْ، والأكثر احتمالاً هو أن إيفان صاحب الرأي السديد. ومع ذلك، ما أكثر التضحيات التي قدَّمها الإنسان من أجل هذا الإيمان. وكلّ هذه القوى التي قدّمها من أجل لا شيء باسم هذا الحلم، وهذا، منذ آلاف السنين! فمن الذي يسخر من الإنسان إذن؟ قل لي يا إيڤان؟ أسألك للمرة الأخيرة: الله موجود نعم أم لا؟ أسألك للمرة الأخيرة!

ـ للمرة الأخيرة أقول لك: غير موجود.

ـ إذن، من الذي يسخر من الناس، يا إيڤان؟

ـ الشيطان. أراهن على ذلك. أجاب إيفان ساخراً.

ـ إذن يوجد شيطان؟

ـ لا، لا يوجد شيطان أبداً.

ـ خسارة. فليأخذني الشيطان! لا يعرف أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به، الأول الذي اخترع الله. إن الشنق قليل عليه.

ـ لو لم يخترعوا الله لما وُجدت المدنيَّة.

ـ أيّ مدنيّة؟ لو لا الله لما وُجدت؟

ـ نعم. ولما وُجد الكونياك أيضاً! الكونياك، يجب أن ننتزع منك القنينة.

ـ مهلاً، مهلاً، مهلاً يا عزيزي! كأساً صغيرة بعد... لقد أسأتُ إلى أليوشا. ألم تغضب يا ألكسي؟ يا عزيزي الصغير أليوشا، يا بنيَّ الطيب.

ـ لا، لست غاضباً. أعرف أفكارك. فقلبك خير من رأسك.

ـ أنا، قلبي خير من رأسي؟ يا ألله! وهو الذي يقول هذا الكلام أيضاً؟ إيفان، هل تحبّ أليوشكا؟

ـ أحبه.

ـ يجب أن تحبه. (كان فيودور بافلوفتش قد سكِر فعلاً). إسمع يا أليوشا، لقد أسأتُ إلى الراهب الناسك قبل قليل، لقد أهنته. كنت مهتاجاً. لا بأس، فالراهب الناسك يتمتع بروح المزاح. ما رأيك في ذلك يا إيڤان؟

ـ أعتقد أن هذا صحيح.

ـ أجل، أجل، إنَّ في داخله شيئاً من بيرون ؛ إنه يسوعي، أقصد إنه روسيّ. وهو ككلّ مخلوق مستقيم لا بدَّ أن يسوءه أحياناً في السرّ أن يضطر إلى التمثيل، أن يصطنع مظاهر القداسة...

ـ لكنه يؤمن بالله.

ـ هو؟ لا. ألم تكن تعرف ذلك؟ هو يقول هذا لجميع الناس، يعني، ليس لجميع الناس طبعاً... بل للأذكياء ممن يأتون لزيارته. لقد قال جازماً للحاكم شولتس: أنا أؤمن ، ولكن لست أدري بماذا.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ أقسم لك. ولكن، أنا أحترمه. إنَّ فيه عنصراً مفستوليسياً، أو الأحرى هناك شيء بينه وبين «بطل من زماننا» .... أربينين(*)، إذا صدقت ذاكرتي. يعني أنه رجل شهوانيّ إلى درجة أنني الآن أخاف منه على ابنتي أو زوجتي إن هما ذهبتا للاعتراف عنده. فتصوَّر، هل تعرف أنه عندما يبدأ بالكلام... منذ سنتين، دعانا إلى تناول الشاي وبعض المشروبات الروحية (السيدات يرسلن إليه الخمور)، فراح يستحضر ذكريات ماضيه... فاضطررنا أن نتماسك كي لا ننفجر من الضحك... خاصة عندما حدَّثنا عن تلك المرأة المعوَّقة التي شفاها؛ قالت له: «لو لم تكن ساقاي تؤلمانني لرقصت لك». هل تتصوّر؟ وقد أسرَّ إلينا يومذاك: «كانت لي مغامرات!» وقد سلب التاجر ديميدوف(**) ستين ألف روبل.

ـ ماذا؟ هل سرقها؟

ـ استودعه الرجل المبلغ أمانةً لما عُرف به من صلاح. قال له: «احتفظ لي به عندك، يا أخي العزيز، لأنَّ غداً سوف يفتَّش منزلي». وهو، احتفظ بالمبلغ. قال له: «هذه هبة للكنيسة، أليس كذلك؟» فقلت له أنا: «أنت حقير، هيّا». فأجابني: «لا... لست حقيراً بل أنا متسامح...» ولكن، لا، لا، لم يجر الحديث معه هو... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر... دون أن ألاحظ ذلك، دون أن أشعر بذلك. حسناً، كأساً أخرى صغيرة أخيرة، يا إيفان، ثم خذ قنينة الكونياك. لقد كذبت، لماذا لم توقفني عن الكلام يا إيڤان... لماذا لم تقل لي إنني أكذب؟

ـ كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك.

(*) يخلط فيودور بافلوفتش بين بطلين لميخائيل ليرمونت: بطل «الكرنفال المقنّع» أربينين وبطل «بطل من زماننا» بيتشورين.

(**) أحد أكبر أثرياء روسيا.

ـ كذاب! تركتني أتكلم بدافع الحقد، بدافع الحقد فقط. إنك تحتقرني. إنك تحتقرني. جئت تعيش معي، وعندي في منزلي تحتقرني.

ـ إذن، سأرحل. هو الكونياك الذي شوَّش تفكيرك!

ـ لقد رجوتك باسم المسيح ـ الله أن تذهب إلى تشرماشنيا... يوماً أو يومين، وأنت، رفضت دائماً.

ـ سأذهب غداً ما دمت تلحّ.

ـ لا، لن تذهب. تريد أن تراقبني هنا. هذا هو هدفك، يا صاحب النفس السوداء، لهذا السبب ترفض دائماً؟

أصبح العجوز عاجزاً عن السيطرة على نفسه. وصل إلى حدود السكر، إلى حالة السكارى الذين هم في العادة مسالمون بحاجة مفاجئة إلى أن يغضبوا، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه.

ـ ما لك تحدِّق إلي؟ وعيناك هاتان! عيناك تنظران إليَّ فتقولان لي: «أيها السكير العنيد»! عيناك هاتان تفيضان شكاً وتحتقراني، هاتان العينان... أنت أتيت إلى منزلي لغاية معيّنة في نفسك... وليس مثل أليوشا... وهو ينظر إليَّ بعينين تشعَّان صراحةً. أليوشا لا يحتقرني. يا ألكسي، إياك أن تحبّ إيفان...

ـ لا تغضب من أخي! توقّف عن إهانته! قال فجأة أليوشا بحزم.

ـ السبب هو... أصبحت لا أدري... أحسّ بوجع في الرأس. إرفع هذا الكونياك يا إيفان! للمرة الثالثة أقول لك هذا. ثم أطرق يفكر، واستطالت شفتاه بابتسامة خبيثة:

ـ لا تغضب يا إيفان على هذا العجوز المتزمّت. أنا أعرف أنك لا تحبني، ولكن لا تغضب. لا يوجد أيّ سبب لكي تحبني. ستذهب إلى تشرماشنيا، وسألحق بك أنا أيضاً حاملاً لك هدية... وسأعرِّفك هناك ببنت صغيرة،

لاحظتها منذ زمن بعيد. هي الآن فتاة صغيرة رثَّة. لا تخف من البنات القذرات. لا تحتقرهنّ ـ فهنَّ لآلىء!...

قال ذلك وقبَّل يده.

ثم قال وقد انتعش فجأة وكأنَّه صحا لفترة عندما وجد موضوعه المفضَّل...

ـ بالنسبة إلي، يا فتياني الصغار! يا أولادي الصغار، يا خنازيري الصغار، بالنسبة إلي... أنا من جهتي، لم يحدث في حياتي أن أعجبتني امرأة بشعة، هذه هي قاعدتي! هل يمكنكم أن تفهموا هذا؟ كيف تستطيعون فهمه؟ إنَّ في عروقكم لبناً وليس دماً، لم تنضجوا بعد! إن قاعدتي هي، وليأخذني الشيطان، أنَّ في كل النساء أشياء هامة للغاية لا يمكن تحديدها في امرأة أخرى. المهم أن يتمكن المرء من اكتشافها. وهذا هو السر! إنه موهبة! ما من امرأة يمكن أن تكون في نظري قبيحة. حسبها أن تكون امرأة. هذا وحده نصف الحبّ... وأنتم كيف يمكنكم أن تفهموا هذا؟ حتى العوانس لا بدَّ أن يكتشف المرء فيهنَّ ذلك، متى سنحت الفرصة، يذهله أن يتصور أنّ هناك أناساً أغبياء تركوهنّ يشخنَ دون أن يلاحظوهنَّ! أول شيء يجب أن يعمد إليه الرجل مع هذه الصغيرات الوسخات والقبيحات هو أن يدهشهنَّ. بهذه الوسيلة يجب التوسّل إليهنَّ. ألم تكن على علم بذلك؟ يجب أن تبلغ بهنَّ الدهشة حدَّ النشوة، حدَّ الشعور بالخجل من أنَّ سيداً أنيقاً أُمكن أن يهيم حباً ببنتٍ، بدميمةٍ. إنه شيء رائع يشدّ العزيمة، أن يعرف المرء أنه سيبقى في هذا العالم إلى الأبد، سادة وخدم؛ ستبقى هناك بنت صغيرة رثَّة، يحلو لها أن تسعد سيدها. تلك هي سعادة الحياة! مهلاً... هل تعرف يا أليوشا؟ إن هذا الأمر

يذكرني بأنني قد بعثت الدهشة دائماً في نفس أمك المرحومة. كنت أتركها مدة طويلة بدون ملاطفات، ثم فجأة وفي لحظة، أسترسل في إظهار كل أنواع العواطف، حتى إنني كنت أزحف على ركبتيّ، وأقبِّل قدميها، فأنقلها في كل مرة ـ ما زلت أتذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس ـ إلى حالة نفسية خاصة. فإذا هي تضحك ضحكة فريدة في نوعها، ضحكة واهنة وحادة، عصبية وقوية خاصة. وكان ذلك هو النوع الوحيد من الضحك الذي عرفته فيها. كنت أعرف أن مرضها يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها،فهي في اليوم التالي، تبدأ بالصراخ مثل «المولولة»، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبّر في الواقع عن أيّ فرح. لكنني كنت أرى ذلك الضحك عذباً سواء عبَّر عن فرح أم لا. فهل رأيتم كيف كنت أتمكن أن أجد في كل شيء جانباً جذاباً مجهولاً؟ وقد حدث، ذات يوم، أن بيليافسكي ـ وهو رجل متظرّف من مدينتنا، ثريّ جداً، كان يسعى إليها وبدأ يزورني في منزلي ـ وفجأة، صفعني على وجهي بحضورها. فأوشكت هذه المرأة التي هي مثل حملٍ أن تضربني بسبب هذه الصفعة! وراحت تؤنبني، قالت لي: «سمحت له أن يضربك؟ أن يضربك، وأن يصفعك! لقد أردتَ أن تبيعني له... كيف تجرأ على أن يضربك أمامي! لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا أبداً! هيَّا اطلبه إلى المبارزة...» أخذتها إلى الدير لأهدّىء روعها، وصلَّى الرهبان من أجلها. لكنني، أقسم لك، يا أليوشا، أمام الله، أنني لم ألحق بها أذىً في يوم من الأيام، عزيزتي «المولولة»، إلا مرة واحدة، واحدة في السنة الأولى من حياتنا، ولم يحدث أيّ شيء بعد ذلك. كانت تسرف في الصلاة، في رأيي، وخاصة في أعياد السيّدة العذراء، وكانت تطردني من مكتبي. خطر ببالي، ذات مرة، أن أطرد هذه الأفكار من رأسها! فقلت لها: «هل ترين هذه

الإيقونة؟ إيقونتك، انظري إليها. سأنتزعها من مكانها، انظري جيداً، تعتقدين بأنها تحقق المعجزات. سأبصق عليها الآن أمامك، ولن يحدث لي شيء!...»
يا إلهي! عندما نظرت إليها حينذاك، قلت في نفسي، إنها ستقتلني فوراً. لكنها انتفضت، ورفعت ذراعيها نحو السماء، وغطَّت وجهها بيديها، وبدأت ترتجف بكل جسدها، ثم سقطت على الأرض... لقد انهارت كلياً... أليوشا، أليوشا! ما بك؟ ماذا أصابك!

قفز العجوز مذعوراً. كان وجه أليوشا قد بدأ يتغيّر شيئاً فشيئاً عندما راح العجوز يتحدث عن أمه. احمرَّ وجهه، والتهبت عيناه، وبدأت شفتاه تختلجان... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذاً من لعاب وهو يتكلم دون أن يلاحظ ذلك، إلى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب. لقد وقع أليوشا في تلك الحالة نفسها التي عرضها والده في كلامه عن «المولولة»: نهض أليوشا عن الطاولة فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها والده، ورفع ذراعيه نحو السماء، ثم غطَّى وجهه بيديه، وتهاوى على كرسيّه، وراح جسمه يرتجف ويهتزّ في نوبة هستيرية تصاحبها دموع مرتعشة مباغتة صامتة. دُهش العجوز من هذا التشابه الخارق بين أليوشا وأمه.

ـ إيفان، إيفان! أسرع، هات ماءً. إنه مثلها، مثل أمه تماماً! أسكب على وجهه قليلاً من الماء. هكذا كنت أفعل مع أمه. هذا بسبب أمه، بسبب أمه... قال لإيفان.

ـ لقد كانت أمّه هي أمّي أنا أيضاً. أعتقد ذلك، فما رأيك؟ انفجر إيفان قائلاً فجأة، في سورة من غضب واحتقار، فارتجف العجوز حين رأى البرق يلتمع في عينيه. عندئذ، حدث أمر غريب جداً، لكنه لم يدم إلا بضع ثوان: يبدو أن العجوز نسي فعلاً أن أم أليوشا كانت أمّ إيفان أيضاً...

ـ كيف هذا؟ أمّك؟ دمدم دون أن يفهم. لماذا تقول هذا؟ عن أيّ أمّ تتكلم؟... أتكون هي حقاً؟... اللعنة! إنها أمّك أيضاً! لعن الله الشيطان! لا أعرف يا أخي العزيز! يا لهذه الذاكرة الرديئة التي ما عرفت مثلها أبداً. عذراً، هل قلت أنا، يا إيفان... ثم توقف فجأة على ابتسامة ماكرة طويلة مخمورة غامضة، غيَّرت ملامحه. وفي تلك اللحظة عينها، سُمعت من المدخل ضجّة مرعبة وكأنها صوت صاعقة، وسُمع صراخ مسعور، وانفتح الباب على مصراعيه، وظهر ديمتري بافلوفتش مندفعاً إلى الغرفة. فأسرع العجوز إلى إيفان مذعوراً:

ـ يريد أن يقتلني، سيقتلني... لا تتركني! صرخ وهو يتمسَّك بحافة سترة إيفان فيودوروفتش.

IX

الشهوانيون

فوراً بعد ديمتري بافلوفتش، سارع كل من غريغوري وسمردياكوف في الدخول إلى الغرفة. كانا قد تعاركا معه في المدخل لكي يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذاً لأمر أصدره إليهما فيودور بافلوفتش منذ بضعة أيام). ومستفيداً من كون ديمتري فيودوروفتش قد دخل إلى الغرفة، فتوقف بضع ثوانٍ ليعرف إلى أين يجب عليه أن يتوجه، ركض غريغوري من الجهة الأخرى للطاولة وأغلق مصراعي الباب، الأول الذي يفضي إلى الغرف الداخلية، ووقف أمامه مصالباً ذراعيه، مستعداً لأن يمنعه من الدخول منه، حتى آخر رمق. فلما رآه ديمتري أطلق صراخاً حاداً بل زئيراً، وارتمى على غريغوري.

ـ هي إذن هنا. هنا خبأتموها! ابتعد أيها النذل!

أراد أن يدفع غريغوري ولكن هذا الأخير دفعه عنه، فجنَّ من الغضب، ورفع ديمتري يده وضرب غريغوري بكل قواه. سقط العجوز على الأرض مصعوقاً، ومرَّ ديمتري فوق جسده مسرعاً إلى الداخل. بقي سمردياكوف في الصالة، من الجهة الأخرى، شاحب الوجه مرتجفاً يشدّ نفسه إلى فيودور بافلوفتش.

ـ إنها هنا. صرخ ديمتري فيودوروفتش. رأيتها تتجه إلى هذا المنزل، ولكنني لم أتمكن من القبض عليها. أين هي؟ أين هي؟

أحدثت هذه الصرخة «إنها هنا» في فيودور بافلوفتش أثراً خارقاً فزال كل خوفه.

ـ أوقفوه! أوقفوه! صاح، وأسرع وراء ديمتري فيودوروفتش.

أثناء ذلك، كان غريغوري قد نهض، ولكنه ما زال طائش الرأس. فأسرع إيفان فيودوروفتش وأليوشا يركضان وراء والدهما. وسمعت في الغرفة الثالثة ضجة سقوط شيء على الأرض فتحطم وجلجل. إنها مزهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أثمن المزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من الرخام، فاصطدم بها ديمتري فيودوروفتش أثناء ركضه فسقطت على الأرض وتحطّمت.

ـ أوقفوه! عوى العجوز بأعلى صوته. النجدة!

أما إيفان فيودوروفتش وأليوشا فقد تمكنا من إيقاف والدهما وأعاداه بالقوة إلى الغرفة.

ـ صغيري فانيا، صغيري ليوشا(*)! إذن، هي هنا، غروشنكا هنا. هي هنا. قال إنه رآها تركض...

ـ لماذا تلاحقانه! كان بإمكانه أن يقتلكما! صاح غاضباً بوجه والده، إيفان فيودوروفتش.

كان يلهث. لم يتوقع أن تأتي غروشنكا في هذه المرة. فلما سمع أنها جاءت إلى هنا، طاش رأسه فجأة، وارتعد جسمه كله، وكأنه أصبح مجنوناً.

ـ أنت نفسك رأيت! إنها لم تأت. صاح إيڤان.

(*) تصغير إيفان وألكسي.

ـ ربّما دخلت من المدخل الآخر.

ـ ولكن الباب مقفل، ومفتاحه معك.

وظهر ديمتري فجأة، مجدداً، في الغرفة. لقد وجد الباب الثاني مغلقاً طبعاً، لأنّ مفتاح ذلك الباب المغلق كان في جيب فيودور بافلوفتش؛ وكانت كل النوافذ في كل الغرف مغلقة هي أيضاً. لا تستطيع إذن، غروشنكا أن تدخل من أيّ جهة كانت. ولا يمكنها أن تخرج من أيّ جهة.

ـ اقبضوا عليه! عوى فيودور بافلوفتش عندما رأى ديمتري مجدداً. لقد ذهب ليسرق مالي، هناك، في غرفة النوم!

واستطاع أن يفلت من يديْ إيفان، فهجم مرة ثانية على ديمتري. لكن هذا الأخير رفع ذراعيه، وأمسك العجوز فجأة من خصلتَي شعره الباقيتين على صدغيه وشدَّه منهما فرماه على الأرض، واتسع له الوقت لأن يضرب وجهه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً. فأطلق العجوز أنيناً عميقاً. لكن إيفان فيودوروفتش، رغم أنه لا يملك من القوة البدنيّة ما يتمتع به أخوه، طوَّقه بكلتا ذراعيه وبكل قوته وأبعده عن العجوز. وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك، في حدود قوته، ممسكاً أخاه من أمام.

ـ أنت مجنون، أنت؟ لقد قتلته! صرخ إيڤان.

ـ إنها غلطتك! صاح ديمتري لاهثاً. وإذا لم أقتله هذه المرة، فسأعود مرة أخرى لأقتله! ولن تستطيع أن تمنعني!

ـ ديمتري! أخرج من هنا فوراً! قال أليوشا بلهجة عنيفة.

ـ ألكسي! أنت وحدك، قل لي، فأنا لا أصدِّق غيرك: هل كانت هنا، منذ قليل، نعم أم لا؟ لقد رأيتها بعيني وقد تسللت أمام السياج خارجةً من الزقاق، من هذه الجهة. ناديتها، فهربت...

ـ أقسم لك إنها لم تأتِ إلى هنا، ولم يكن أحد ينتظرها هنا!

ـ لكنني رأيتها... إذن هي... أريد أن أعرف الآن أين هي... إلى اللقاء يا ألكسي! لا تقل لإيزوب كلمة واحدة في أمر المال الآن. إذهب فوراً إلى كاترينا إيفانوفنا. يجب أن تذهب إليها حتماً. قل لها: «إنه يبلغك احترامه، احترامه، احترامه! يبلغك احترامه دموعاً!» وصِفْ لها المشهد.

أثناء ذلك، كان إيفان وغريغوري قد أوقفا العجوز، وأجلساه على مقعد. كان وجهه مدمًّى، ولكنه لم يفقد وعيه، وهو يستمع إلى صيحات ديمتري، ولا يزال يسيطر عليه الشعور بأن غروشنكا مختبئة في المنزل. رشقه ديمتري فيودوروفتش بنظرة غضب وهو منصرف.

ـ لا يعذبني ضميري لأنني سفحت دمك! قال. الويل لك أيها العجوز، إسهر جيداً على حلمك لأنني أنا أيضاً لي حلمي. إنني ألعنك وأنكرك كلياً...

ـ إنها هنا، إنها هنا، بدون شك! سمردياكوف، سمردياكوف. نادى العجوز بصوت محشرج وهو يومىء بإصبعه إلى الخادم.

ـ لا ليست هنا، أيها العجوز المجنون! صرخ فيه إيفان غاضباً. ها هو ذا يُغمى عليه! هاتوا ماءً، هاتوا منشفة! تحرَّك يا سمردياكوف!

ركض سمردياكوف لإحضار الماء. ونزعوا عن العجوز ثيابه، ونقلوه إلى غرفة نومه، ووضعوه على سريره، وربطوا رأسه بمنشفة مبلَّلة. فما إن لامس رأس العجوز مخدّته، وقد أوهنه الكونياك، وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية في لحظة، حتى أغمض عينيه وفقدَ وعيه. ورجع إيفان فيودوروفتش وأليوشا إلى الصالة. وجمَّع سمردياكوف حطام المزهرية، بينما غريغوري بقي قرب الطاولة، عيناه منخفضتان ومنحني الرأس.

ـ أنت أيضاً يجب ألّا تضع حول رأسك منشفة مبلَّلة، وأن تنام؟ قال أليوشا لغريغوري. سنبقى هنا بالقرب من السرير. لقد آلمك أخي كثيراً عندما ضربك... على رأسك.

ـ تجرأ على أن يضربني. قال غريغوري بصوت مبحوح واضح.

ـ قد تجرأ؟ لا أن يضربك وحدك بل ضرب والده أيضاً!.... قال إيفان فيودوروفتش وهو متغضّن الوجه.

ـ لقد غسلته في الدلو... وهو تجرأ على ضربي! ردَّد غريغوري.

ـ فليأخذني الشيطان! لو لم أبعده عنه لكان قتله. تُرى هل ينجو إيزوب؟ قال إيفان فيودوروفتش إلى أليوشا بصوت خافت.

ـ حمانا الله من هذا! أجاب أليوشا.

ـ ولماذا يحمينا؟ تابع إيفان الوشوشة عينها وقد شوَّه الغضب وجهه. فلتأكل الأفاعي بعضها بعضاً! ذلك هو المصير الذي تستحقه!

ارتعش أليوشا.

ـ طبعاً، سأمنع وقوع الجريمة كما فعلت الآن. ابق هنا يا أليوشا. وسأخرج أنا إلى الفناء، بدأت أشعر بالصداع.

عاد أليوشا باتجاه غرفة نوم والده، وبقي عند سريره وراء الستار ساعةً كاملةً. وإذا بالعجوز يفتح فجأة عينيه، ويطيل النظر إلى أليوشا محاولاً أن يتذكّر ومفكّراً. وفجأة، بدا على وجهه اضطراب يصعب وصفه.

ـ أليوشا، تمتم بصوت وجل، أين إيفان؟

ـ إنه في الخارج، يشعر بألم في رأسه. لكنه ساهر علينا.

ـ ناولني المرآة الصغيرة. هي هناك، ناولنيها!

مدَّ إليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوَّرة ذات المسند المطوي التي كانت موضوعة على المنضدة. نظر العجوز إلى قسمات وجهه فيها: كان أنفه قد تورَّم كثيراً، وفوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء كبيرة.

ـ ماذا أصاب إيڤان؟ أليوشا، بنيَّ المحبوب، ابني الوحيد، أنا خائف من

إيفان، أخاف منه أكثر مما أخاف من الآخر. أنا لا أشعر بالطمأنينة إلا معك. ولا أخاف منك...

ـ لا تخف من إيفان أيضاً. إيفان غاضب، ولكنه سيدافع عنك.

ـ أليوشا! والآخر، أين هو؟ ذهب مسرعاً إلى غروشنكا! يا ملاكي الصغير، قل الحقيقة: هل جاءت غروشنكا إلى هنا، نعم أم لا؟

ـ لم يرها أحد. إنها كذبة. لم تأت!

ـ يريد ميتكا أن يتزوجـها، أن يتزوجها!

ـ وهي لا تريد ذلك.

ـ سترفض، سترفض أن تتزوجه، سوف ترفض وتنبذه، سوف ترفض!

قال العجوز وقد انتعش فجأة فرحاً، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره في تلك اللحظة سوى هذه الفكرة. ومن شدة حماسته، أمسك يد أليوشا فوضعها بقوة على قلبه، حتى اغرورقت عيناه بالدموع. خذ الإيقونة الصغيرة، إيقونة أمّ الله تلك التي تكلمت معك عنها منذ برهة. خذها، هي لك، انقلها إلى مسكنك. وإني أسمح لك بالعودة إلى الدير... لا تؤاخذني لقد كنت أمزح. بي صداع يا أليوشا... يا عزيزي أليوشا... هدىء روعي، كن كالملاك، قل لي الحقيقة!

ـ تعود أيضاً إلى غروشنكا: هل كانت هنا، نعم أم لا؟ سأل أليوشا بألم:

ـ لا، لا، إنني أصدقك، ليس هذا. اذهب أنت بنفسك إلى غروشنكا، أو تدبَّر أمرك بحيث تراها واسألها بأسرع ما يمكن، حاول أن تعرف منها هي، أو أن تحزر من كلامها: أيّاً منّا تريد، هو أم أنا؟ هو؟ ماذا؟ هل تستطيع أن تفعل هذا أم لا؟!

ـ إذا رأيتها، سأسألها. دمدم أليوشا مضطرباً.

ـ لا، لن تقول ذلك لك. قاطعه العجوز. إنها شريرة. سوف تقبّلك.

وستقول إنها تريدك أنت! إنها كذابة وقليلة الحياء! يجب ألّا تذهب إليها، إلى منزلها، أبداً!

ـ ثم إن الذهاب إليها ليس مستحسناً، ليس مستحسناً أبداً!

ـ قل لي: إلى أين كان يريد أن يرسلك عندما صاح قائلاً لك لحظة انصرافه «إذهب إليها»؟

ـ كان يرسلني إلى كاترينا إيفانوفنا.

ـ من أجل المال؟ ليطلب منها مالاً؟

ـ لا ليس من أجل المال.

ـ أنا أعرف أن ليس لديه مالاً ولا يملك فلساً واحداً. اسمع يا أليوشا. سأرتاح في هذه الليلة وسأفكّر. بوسعك أن تنصرف الآن. ربما إذا صادفتها... تعال إليَّ غداً، تعال حتماً. غداً، هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها. هل ستأتي؟

ـ سوف آتي.

ـ تظاهر بأنك تأتي من تلقاء نفسك لتزورني. لا تقل لأحد إنني طلبت ذلك منك. ولا تقل أيَّ كلمة لإيفان.

ـ طيّب.

ـ إلى اللقاء، يا ملاكي. لقد دافعت عني. لن أنسى هذا أبداً. سأقول لك في الغد شيئاً... يجب أن أفكّر في هذا الشيء...

ـ وكيف تشعر الآن؟

ـ سوف أنهض منذ الغد. سأكون قد شُفيت. سأكون في حالة جيدة، في حالة جيدة!...

وعندما اجتاز أليوشا الفناء، التقى أخاه إيفان جالساً على مقعد أمام البوابة؛ كان يكتب بعض الأشياء في دفتره الصغير. قال أليوشا لإيفان إن

العجوز قد استيقظ واستعاد وعيه، وأضاف أنه قد سمح له بالعودة إلى الدير لتمضية الليل.

ـ أليوشا، أحب كثيراً أن أراك غداً صباحاً. قال إيفان ونهض بتودّد.

كان هذا التعاطف مفاجئاً جداً بالنسبة لأليوشا.

ـ غداً، سأكون عند السيدة خوخلاكوفا وابنتها. أجاب أليوشا. وربَّما ذهبت أيضاً إلى كاترينا إيفانوفنا، غداً إن لم أجدها اليوم في منزلها...

ـ هل أنت ذاهب، إذن، إلى كاترينا إيفانوفنا! لكي «تحيّيها» تحيّيها فقط؟ قال إيفان وهو يبتسم فجأة. وبقي أليوشا مضطرباً.

ـ أعتقد أنني فهمت كلّ ما قاله لك منذ قليل، وكذلك عدداً من أسئلة أخرى. وبدون شك، إن ديمتري يرسلك لتبلغها أنه يريد... أنه يريد... أقصد أنه يريد أن يقطع علاقته بها؟

سأله أليوشا:

ـ قل لي يا أخي، كيف سينتهي هذا الصراع الرهيب بين ديمتري والوالد؟

ـ لا يمكن التنبؤ بذلك. قد يسوَّى الأمر، وقد يهدأ الخلاف تلقائياً. إنّ هذه المرأة وحش مفترس. على كل حال، يجب حجز العجوز في المنزل، ومنع ديمتري من الدخول إليه.

ـ اسمح لي أيضاً بسؤال آخر، يا أخي: هل يحقّ فعلاً لكل إنسان أن يقرّر، حين ينظر إلى الناس الآخرين الذين لا يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يموتوا؟

ـ ما علاقة أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق؟ إن أكثرية الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس بل هم يستلهمون اعتبارات مختلفة جداً عن هذا الاعتبار أقرب بكثير إلى الطبيعة. أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على أيّ كان أن يتمنّى ما يريده؟

ـ ولكن ليس موت الآخر؟

ـ ولماذا، ليس الموت؟ فماذا يفيد أن يكذب الإنسان على نفسه عندما يعيش جميع الناس على هذا النحو، وقد لا يكون ممكناً العيش على غير هذا المنوال. هل تطرح أنت عليَّ هذا السؤال بسبب فكرتي عن «الأفعيين اللتين تأكلان نفسيهما»؟ فاسمح لي إذن أن أطرح عليك أنا أيضاً هذا السؤال في هذه الحالة: هل تعتقد أنني قادر، مثل ديمتري، على أن أسفح دم إيزوب، أي أن أقتله؟ ماذا؟

ـ ما هذا الكلام يا إيفان؟ لم يخطر ببالي شيء من هذا أبداً. وحتى ديمتري، لا أعتقد أنه...

ـ هو هذا إذن؟ قال إيفان ساخراً. واعلم أنني سأدافع عنه دائماً. أما عن رغباتي، في هذه الحالة، فإنني أحتفظ بحريتي التامة. إلى الغد. لا تحكم عليَّ، ولا تنظر إليَّ وكأنني وحش. أضاف وهو يبتسم.

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا من قبل. وأحسَّ أليوشا أن أخاه قام بالخطوة الأولى نحوه لغاية في نفسه، وأنه يبيِّت نيَّةً ما حتماً.

X

الاثنتان معاً

عندما خرج أليوشا من منزل والده شعر بأنه محطم الجسد ومنهك أكثر مما كان عليه حين دخله. كان فكره هو أيضاً كأنه مجزأ إلى قطع؛ مشتت بحيث كان هو نفسه يشعر أنه يخشى إيجاد الفكرة المشتركة لكل تلك التناقضات المعذِّبة التي عاشها في ذلك النهار. إن نوعاً قريباً من اليأس كان يحاصره وذلك أمر لا عهد لقلب أليوشا بمثله من قبل. ثمة مسألة كانت تسيطر على فكره كأنها كذبة،المسألة الرئيسية المميتة وغير القابلة للحل: كيف سينتهي هذا النزاع بين والده وديمتري في مواجهة تلك المرأة المرعبة؟ والآن، يعرف خطورة هذه المشكلة، بعد أن شهدها بنفسه ورأى الرجلين يتواجهان. والأحقُّ بالرثاء، على كل حال، هو أخوه ديمتري، لأنّ شقاءه رهيب، وهو تعيس كلياً، تعيس بفظاعة: إن الكارثة تتربَّص به. وهناك أناس آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيراً مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين. هذا كله يُحدث نوعاً من لغز. إن أخاه إيفان خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه، تلك التي تمنّاها أليوشا منذ زمن طويل. ومع ذلك، فإنّ خطوة تقرُّب أخيه هذه قد بثَّت في نفسه خوفاً غير مفهوم. هؤلاء النساء؟ كان ذلك غريباً: منذ قليل، كان ذاهباً إلى

كاترينا إيفانوفنا يجتاحه اضطراب رهيب. والآن، يمضي إليها بدون وجل. وبالعكس، هو يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن تنقذه من اضطرابه. لكن المهمة التي كلِّف بها تبدو له الآن أصعب: لقد عدل أخوه ديمتري نهائياً عن ردّ الثلاثة آلاف روبل. وهو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ إلى الأبد، وفقد كل أمل، طبعاً، فلن يتردد بعد اليوم عن أيّ سقوط. ثم قد ألحَّ عليه أن يقصّ لكاترينا إيفانوفنا المشهد الذي جرى في منزل والده.

كانت الساعة السابعة مساءً، وقد هبط الليل، عندما ذهب أليوشا إلى كاترينا إيفانوفنا التي تشغل في «الشارع الكبير» منزلاً فسيحاً فخماً. كان أليوشا يعرف أن كاترينا أيفانوفنا تعيش مع خالتين لها. الأولى، لم تكن سوى خالة أختها أغافيا إيفانوفنا، وهي بنفسها تلك الإنسانة الطيّعة في منزل والدها التي عُنيت مع أغافيا بكاترينا، بعد خروجها من المدرسة الداخلية. وكانت خالتها الثانية، سيدة من موسكو فارعة القامة، شاعرةً بعلوّ منزلتها، رغم أنها فقيرة. وكان يقال إن هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترينا إيفانوفنا في كل شيء، ولا تعيشان قربها إلا مراعاة للأوضاع الاجتماعية. أما بالنسبة إلى كاترينا إيفانوفنا فهي لا تطيع إلا الجنرالة المحسنة إليها، التي بقيت في موسكو بسبب مرضها، والتي كان على كاترينا أن تكتب إليها رسالتين أسبوعياً لتطلعها على كل تفاصيل حياتها.

عندما دخل أليوشا الرواق، طلب من الخادمة التي فتحت له الباب أن تبلغ أصحاب المنزل بوصوله. كان يبدو أنهم جالسون في الصالة على علمٍ بقدومه (لعلَّهم قد رأوه من خلال النافذة). سمع أليوشا، فجأة، حركة مبهمة ووقع خطوات نساء يركضن، وحفيف أثواب، كأنّ امرأتين أو ثلاثاً قد ركضن يخرجن من الغرفة. استغرب أليوشا أن يُحدث وصوله كل هذا الاضطراب. أُدخل الصالة فوراً بدون انتظار. كانت غرفة فسيحة مزدانة بأثاث كثير وأنيق،

ليس على طراز الأرياف. فيها كثير من الدواوين والكنبات والطاولات الكبيرة والصغيرة، ولوحات تزيّن الجدران، ومزهريات ومصابيح على الطاولات، وأزهار كثيرة، بل وحوض أسماك على إحدى النوافذ. وبسبب الغبش، كانت الغرفة معتمة قليلاً في هذا الوقت. رأى أليوشا خِماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أنّ أحداً كان يجلس عليه قبل لحظات، ورأى على الطاولة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين لا يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولا، وبسكويتاً، وآنية من الكريستال فيها زبيب من كورنثيا، وأوانيَ أخرى فيها سكاكر. لا شك أن أصحاب المنزل كانوا يقدّمون حلوى لضيوف عندهم. فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة، قطَّب حاجبيه. لكن الستارة أُزيحت في تلك اللحظة عينها، ودخلت كاترينا إيفانوفنا الغرفة بخطى سريعة ثابتة مادّةً إلى أليوشا يديها كلتيهما، مبتسمة له فرحاً. وفي اللحظة عينها، دخلت خادمة تحمل شمعتين مشتعلتين وضعتهما على الطاولة.

ـ الحمد لله! وأنت أخيراً! كل صلواتي اليوم لم تتَّجه إلا نحوك! اجلس من فضلك!

صعق جمال كاترينا إيفانوفنا، أليوشا حين أخذه أخوه ديمتري إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به، لأنّ كاترينا إيفانوفنا ألحَّت أن تتعرف إليه. على كل حال، لم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيراً. ذلك أن كاترينا إيفانوفنا قد أحسّت أن أليوشا مضطرب، فدارته في تلك المرة، فلم تتوجه بكلامها إلا إلى ديمتري فيودوروفتش، وسكت أليوشا طوال الوقت، ولكنه لاحظ المرأة الشابة، وخطف بصره ما رآه فيها من مظهر الإرادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاقة الحركات على كبرياء وخيلاء. كانت هذه السمات في طبعها واضحة. وأحسَّ أليوشا أنه لم يبالغ في تصوُّرها. وقد أُعجب بعينيها الرائعتين السوداوين المشعتين اللتين تتّسقان مع لونها الشاحب الذي يميل إلى اللون الأصفر.

ومع ذلك، كان في عينيها، كما في رسم شفتيها الرائعتين، شيء يمكن أن يتولّه به أخوه بشكل رهيب، ولكنه، لا يبدو أنه يوقظ في النفس حباً دائماً. ولقد عبَّر أليوشا لأخيه ديمتري عن شعوره هذا صراحةً، حين أصرَّ ديمتري، بعد انتهاء الزيارة، على أن لا يخفي عنه أخوه رأيه، وعندما توسّل إليه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته. قال له أليوشا يومذاك:

ـ ستكون سعيداً معها. ولكن ربَّما... سعادتك قد لا تكون هادئة.

ـ هذه هي الحقيقة يا أخي العزيز، إنّ اللواتي هنَّ من هذا النوع لا يتغيَّرن أبداً، ولا ينصعنَ للقدر. فهل تعتقد أنني لن أحبها إلى الأبد؟

ـ لا، ربما أحببتها إلى الأبد، ولكن ربما لن تكون سعيداً معها دائماً...

أفصح أليوشا عن رأيه، في ذلك اليوم، ولام نفسه كثيراً لأنه رضخ لإلحاح أخيه وعبّر عن أفكار «حمقاء» كهذه الأفكار. ذلك أنّ رأيه قد بدا له غبياً مذ عبَّر عنه. ثم إنه قد شعر بخجل شديد من جزمه في الحكم على امرأة. وقد ازدادت دهشته الآن عندما لاحظ منذ نظرة أولى ألقاها على كاترينا إيفانوفنا التي أسرعت تستقبله، أنه ربما قد خُدع عن حقيقتها في المرة السابقة وأنه أخطأ في الحكم عليها. في هذه المرة، كان وجهها يشرق طيبةً بسيطة خالية من أيّ تصنّع، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة حارَّة ملتهبة. ولم يبق من كلّ هذه «الكبرياء وهذه الخيلاء» اللتين خطفتا نظر أليوشا، من قبل، إلا التعبير عن جرأة نبيلةٍ وجسارة سامية، وكذلك تعبير عن ثقة بنفسها قوية وواضحة. وأدرك أليوشا، مذ رآها، أن مأساة وضعها إزاء هذا الرجل الذي تحبه بقوة لم تكن خافيةً عنها، وأنها ربما كانت على معرفة بكل شيء. ورغم ذلك، كان الضياء يشعُّ في وجهها كما يشعّ منها كل هذا الأمل بالمستقبل. وأحسَّ أليوشا، فجأة، أنه مذنب في حقّها. لقد غُلب وافتتن فوراً، ولكنه لاحظ بالإضافة إلى ذلك،

منذ أولى كلماتها، أنها في حالة اضطراب نفسي عنيف لعلّه لم يكن مألوفاً لها، وهو اضطراب يشبه نوعاً من الإثارة.

ـ إذا كنت قد انتظرتك إلى هذا الحدّ، فلأنه لا يوجد غيرك الآن، أستطيع أن أعرف منه الحقيقة ـ وليس أيّ إنسان آخر!

ـ لقد جئت... تمتم أليوشا متحيراً. لقد أرسلني...

ـ آه. إنه هو الذي أرسلك، لقد أوجست ذلك. والآن عرفت كل شيء، كل شيء! قالت كاترينا إيفانوفنا وقد لمعت عيناها فجأة:

ـ لحظة، يا ألكسي فيودوروفتش! أريد أن أشرح لك مسبقاً لماذا انتظرتك إلى هذا الحدّ. إنني ربما كنت أعلم من الأمر أكثر مما تفترض. فلن أنتظر منك معلومات. وإليك ما أنتظر منك: أريد أن تطلعني على شعورك، على آخر ما رأيته فيه. واحرص على أن تذكر بشكل صريح ومباشر، وربما بخشونة (بأشدّ خشونة تريدها!) أن تذكر لي رأيك فيه وفي وضعه بعد لقائك إياه اليوم. لعلَّ ذلك خير من أن أحدثه أنا في الأمر، لأنه أصبح يرفض أن يراني. هل فهمت ما أريده منك؟ والآن: والآن، لماذا أرسلك إليّ، (كنت متأكدة أنه سيرسلك!) قُله بدون تردّد. قل كل شيء...

ـ لقد كلَّفني بأن... أنقل إليك احترامه... وأن أقول لك إنه لن يأتي بعد اليوم أبداً... وأن أحيّيك.

ـ تحيّيني؟ أهذا ما قاله، أهذه هي الكلمة التي استعملها؟

ـ نعم.

ـ ربّما استعملها دون أن يريد ذلك، ودون أن يلحّ أيضاً، لأنه لم يجد كلمة أخرى؟

ـ لا، لقد حرص على أن أستعمل كلمة «أحيّيك» هذه. لقد ألحَّ عليها ثلاث مرات لكي لا أنساها.

تخضَّب وجه كاترينا إيفانوفنا بالحمرة.

ـ ساعدني الآن يا ألكسي فيودوروفتش، أنا الآن في حاجة إلى مساعدتك: سأقول لك فكرتي، وأنت، وأنت تقول لي فقط إن كان رأيي صحيحاً أم لا؟ إصغ إليَّ. لو كان قد كلَّفك، صدفةً، بأن تبلغني «احترامه» دون أن يلحّ على هذه الكلمة بالذات، فإن كلّ شيء يكون قد قيل... وهنا، يكون الأمر قد انتهى! أما وأنه قد ألحَّ على هذه الكلمة، بشكل خاص، وعهد إليك أن ألّا تنسى أن تنقل إليَّ هذا «الاحترام» فمعنى ذلك أنه كان في حالة اضطراب، وربّما كان خارجاً عن طوره! لقد اتخذ قراراً، وهو يخاف من قراره! إنه لم يتركني بخطى حازمة، بل أسرع يسقط من أعلى الجبل، والإصرار على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يعني إلا مجرد ثرثرة...

ـ نعم، نعم. أكد أليوشا بحرارة. وهذا هو شعوري الآن، أنا أيضاً.

ـ فإذا صحَّ هذا فإنه لم يضِع بعد! إنه مصاب باليأس فقط، لكنني أستطيع أن أنقذه. مهلاً: ألم يعهد إليك شيئاً بصدد المال، بصدد الثلاثة آلاف روبل؟

ـ طبعاً، لقد حدثني في هذا الموضوع، ولكن، هذا هو ربّما ما يرهقه أكثر من أي شيء آخر. كان يقول إنه الآن ملطَّخ الشرف، وإن كل شيء عنده سيّان. أجاب أليوشا باحتدام. لأنه في تلك اللحظة أحسّ بالأمل يعود إلى قلبه، وربّما كان هنالك مخرج وخلاص لأخيه.

ـ ولكن أنت... على علم بهذا المال؟ أضاف فجأة وسكت.

ـ أعرف ذلك منذ زمن طويل، أعرف ذلك طبعاً. لقد أرسلت برقية إلى موسكو لأسأل هل وصل المال، وكنت أعرف أن المال لم يُقبض. لم يرسل المبلغ، ولكنني لم أقل شيئاً. وفي هذا الأسبوع الأخير، عرفت مدى حاجته إليه، وأكثر من ذلك أيضاً... ولم يكن لي في هذا الشأن إلا هدف واحد: أن يعرف من الذي يستطيع أن يتوجّه إليه، ومن هو الصديق الأوفى، ولم يرد أن

يعرفني، فهو لا يرى فيَّ إلا المرأة. وخلال أسبوع كامل، كنت أتعذب بشكل فظيع: ماذا يجب عليَّ أن أفعل حتى لا يشعر تجاهي بالخجل من أنه بدَّد تلك الثلاثة آلاف روبل؟ إفمهني، فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه، ولكن لا ينبغي له أن يشعر بالخجل تجاهي! هل يخجل أمام الله من الإفضاء إليه بأموره؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة على احتماله في سبيله؟ أريد أن أنقذه نهائياً. فلينسَ أنني خطيبته. وها هو يخاف أمامي على شرفه! هل خشي الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسي فيودوروفتش؟ فلماذا لا أكون أنا، حتى الآن، جديرة بمثل هذه الثقة؟

نطقت بهذه الكلمات باكيةً، واغرورقت عيناها بالدموع.

ـ عليَّ أن أعلمك أيضاً ما وقع بينه وبين أبي. قال أليوشا بصوت متهدّج. وقصَّ عليها المشهد كله ذاكراً أن أخاه كان قد كلَّفه بأن يطلب له مالاً. وصف لها كيف أساء أخوه معاملة والده، وذكر لها أن أخاه قد ألحَّ عليه، بعد ذلك، مرة أخرى، أن يأتي إليها ليبلغها «احترامه»... ثم ذهب إلى تلك المرأة... ختم أليوشا كلامه بصوت خفيض.

ـ هل تعتقد أنني لا أستطيع أن أتحمَّل تلك المرأة؟ أيعتقد أنني لن أتحملها؟

ـ لكنه لن يتزوجها. قالت وانفجرت في قهقهة عصبية. هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بمثل هذا الهوى إلى الأبد؟ ذلك هوى وليس حباً. لن يتزوَّج، لأنها لن ترضى هي أن تتزوجه... قالت كاترينا إيفانوفنا مع ابتسامة غريبة.

ـ من الممكن أن يتزوجها. أجاب أليوشا في حزن خافضاً عينيه.

ـ لن يتزوجها، قلت لك! هذه الفتاة هي ملاك، هل تعرف ذلك؟ هتفت فجأة كاترينا إيفانوفنا بحماسة غير عادية. إنها من المخلوقات الخارقة! أعرف

ما تتصف به من إغراء، ولكنني أعرف أيضاً طيبتها وصلابتها ونبلها. لماذا تنظر إليّ هكذا يا ألكسي فيودوروفتش؟ لعلّك أُدهشت مما أقول، ربما لا تصدقني؟ يا أغرافينا ألكسندروفنا، يا ملاكي! صاحت، فجأة، لشخص ما وهي تنظر إلى الغرفة المجاورة. تعالي إلينا! إنه شاب لطيف، إنه أليوشا. هو على علمٍ بكل مشاكلنا. تعالي ليراك!

ـ كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التي ستناديني فيها. أجاب صوت نسويّ لطيف ومتلطّف جداً.

وأزيحت الستارة و... إنها غروشنكا بنفسها. اقتربت من الطاولة ضاحكةً وملؤها السعادة. أحس أليوشا أنه على وشك الانهيار. تسمَّرت عيناه عليها ولم يستطع تحويلهما عنها. كانت هي، إذن، تلك المرأة المخيفة ـ تلك «المفترسة» على حدّ القول الذي أفلت من أخيه إيفان قبل نصف ساعة. ومع ذلك، ما يراه أمامه، للوهلة الأولى، هو امرأة عادية جداً، بسيطة جداً، امرأة طيبة فتَّانة، حسناء، ولكنها شبيهة جداً بالنساء الحسناوات الأخريات اللواتي لا يُحسبنَ «عاديات». والحق أنها آية في الجمال، بل جميلة جداً جداً ـ ذات جمال روسيّ يعشقه الجميع حتى الجنون. هي امرأة طويلة القامة، لكنها أقلّ طولاً من كاترينا إيفانوفنا (هي طويلة جداً)، ويتميز جسمها بحركات لينة تكاد تكون صامتة، حركات تتصف انعطافاتها بالرقة والعذوبة نفسيهما اللتين تظهران حتى في صوتها. اقتربت منه، ولكن مشيتها ليست متينة حازمة كمشية كاترينا إيفانوفنا. إنها بالعكس، تمشي بدون ضجة. لا يُسمع أبداً وقع خطاها على الأرض. واستلقت على أحد المقاعد فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفخم شيء من عذوبة في السمع. يلتف على عنقها الممتلىء الأبيض كالثلج، وعلى كتفيها العريضتين، شال ثمين من صوف أسود. هي في الثانية والعشرين من العمر. وتدلّ قسمات وجهها على أنها في هذه السنّ تماماً.

لون وجهها ناصع البياض، ويعكس خداها لوناً زهرياً خفيفاً. وحدود وجهها عريضة جداً. فكُّها الأسفل بارز قليلاً. وشفتها العليا دقيقة جداً بينما الشفة السفلى الناتئة قليلاً تبدو أسمك من العليا بمرتين كأنها منتفخة. لكن شعرها الكستنائي الغامق الغزير الرائع، وحاجبيها الأسودين المخمليين، وعينيها بلونهما الرمادي ـ الأزرق الساطعتين، وأهدابها الطويلة، كل ذلك خليق بأن يجتذب إليه الرجل الأقل اكتراثاً والأشدّ ذهولاً، وبأن يجعل مثل هذا الرجل، ولو في قلب جمهرة، أو في زحمة شارع، أن يتوقف فجأة أمام هذا الوجه وأن يتأمل فيه طويلاً. وما أذهل أليوشا بشكل خاص، في هذا الوجه، هو تعبيره الطفولي البسيط. تنظر إليك وكأنها طفل، وكأنها سعيدة من لا شيء كأنها طفل. نعم، لقد تقدَّمت من الطاولة «ملؤها السعادة» وكأنها تنتظر، ما لا ندري ماذا، بفضولية طفولية بسيطة وفاقدة الصبر. وكان في نظرها ضياء يفرح القلب ـ أحسَّ به أليوشا. كان ثمة شيء آخر فيها لم يستطع أن يستبينه بوضوح ولكنه ترك فيه تأثيراً لا شعورياً، أعني تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها وفي صمت حركاتها الرشيقة. ومع ذلك، كانت متينة البنية نامية الأعضاء. نتخيَّل تحت شالها كتفين عريضتين وصدراً كاعباً لا يزال صدر فتاة مراهقة. وهذا الجسم يَعِد بأن يكتسب اتساقات جسم فينوس ميلو، رغم أن نِسَبه مفرطة قليلاً منذ الآن. فالعارفون في جمال المرأة الروسية يتنبأون بدون خطأ، وهم يتأملون غروشنكا، بأنّ هذا الجمال النضر الفتيّ سيضمحل في عمر الثلاثين، وسيفقد انسجامه ويتحلّل، وسيترهّل وجهها وستظهر حول عينيها تجاعيد صغيرة، وعلى جبينها أيضاً، وسوف يقسو وجهها ويصبح أشدَّ احمراراً، أي إن جمالها، باختصار، جمال عارض مؤقت كالجمال الذي يُلاحظ غالباً لدى النساء الروسيات. لم يفكر أليوشا في هذا النوع طبعاً، ولكنه رغم افتتانه بها قد تساءل بإحساس غامض وبنوع من الأسف، لماذا تجرُّ كلامها هكذا،

ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته بشكل طبيعي؟ إن المرء يشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية في هذه الطريقة في تلوين ألفاظها ونغماتها. والحقيقة أن تلك عادة سيئة تدل على أصلها الوضيع وعلى أفكارها السطحية، منذ طفولتها، كما عن الآداب الاجتماعية. وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يطاق بين هذا النطق المتصنّع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن فرح بريء وابتهاج ساذج، وعن الضياء في عينيها الوديع السعيد وكأنه ضياء لم يظل طفلاً بعد! قامت كاترينا إيفانوفنا فوراً، وأجلستها على كنبة أمام أليوشا، وطبعت بضع قبلات على شفتي غروشنكا الضاحكتين. كانت كأنها مغرمة بها.

ـ إننا نلتقي للمرة الأولى يا ألكسي فيودوروفتش، قالت بنشوة السكر. أردت أن أعرفها، أن أراها، أردت أن أزورها في منزلها ولكنها جاءتني من تلقاء نفسها مذ عرفت برغبتي. كنت على ثقة بأننا، أنا وهي، ستتمكن من التفاهم على كل شيء! أحسَّ قلبي بذلك... رجوني أن أتخلَّى عن القيام بهذا المسعى ولكنني كنت أتوقَّع النتيجة السعيدة، فلم يخطىء ظني. شرحت لي غروشنكا كل شيء، وأطلعتني على كل نواياها. جاءتني كملاك يحمل إليَّ السلام والبهجة...

ـ لم تخجلي مني، يا آنستي الطيبة، أنت خليقة بي. قالت غروشنكا بصوت منغم متباطىء مع ابتسامة ظريفة مرحة.

ـ لا أسمح لك بأن تقولي لي مثل هذا الكلام، يا فاتنتي، يا ساحرتي! أأخجل منك أنت؟ دعيني أقبّل، مرة أخرى، شفتك السفلى هذه. كأنها متورمة قليلاً، كأنها متورمة! هذه قبلة أيضاً، هاتي قبلةً أخرى... وقبلة أخرى أيضاً... أنظر إليها كيف تضحك يا ألكسي فيودوروفتش. إن رؤية هذا الملاك تفرح القلب... احمرَّ وجه أليوشا واجتاحته ارتعاشات خفيَّة.

ـ أنت تدلليني، يا آنستي اللطيفة، وأنا، لا أستحق كل مداعباتك هذه.

ـ لا تستحق! هي، هي لا تستحق! صاحت كاترينا إيفانوفنا باهتياج. اعلم يا ألكسي فيودوروفتش أنها فتاة خيالية لكنها فخورة بنفسها. أوه، فخورة! هي نبيلة القلب، يا ألكسي فيودوروفتش، وكريمة الطباع. هل تعرف ذلك؟ ولكنها كانت تعيسة فقط. لقد تعجلت فأرادت أن تضحّي بكل شيء من أجل رجل حقير، أو ربما طائش. كان ضابطاً هو أيضاً. وهبت له كل شيء. حدث هذا منذ زمن بعيد، منذ خمس سنين. وهو، نسيها، وتزوج. وهو الآن أرمل. كتب إليها يقول إنه آتٍ ـ اعلم أنه الرجل الوحيد، الرجل الوحيد، نعم، الذي أحبّته فعلاً وطوال حياتها، ولا تزال تحبه! سيأتي وستصبح غروشنكا سعيدة لأنها تألمت كل هذه السنوات الخمس. لكن مَن الذي يتجرأ على لومها، من يستطيع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء! وحده ذلك العجوز ـ التاجر المعوَّق. لكنه كان لها بمثابة أب، كان صديقاً لها، كان لها حارساً. وجدها فريسة اليأس والألم بعد أن هجرها الرجل الذي أحبته... وقد فكّرت في أن تشنق نفسها. فأنقذها ذلك العجوز، أنقذها!

ـ لا، أنت تدافعين عني بقوة، يا آنستي اللطيفة، ولعلك في هذا تسرفين في التعجّل أكثر من الموسيقى. قالت غروشنكا بصوتها المتباطىء عينه.

ـ أنا، أدافع عنك؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك؟ وبأيّ حق نجرؤ على الدفاع عنك؟ غروشنكا، ملاكي، أعطيني يدك، أنظر إلى هذه اليد الجميلة، يا ألكسي فيودوروفتش، أنظر إلى هذه اليد الممتلئة الناعمة. هل تراها؟ لقد حملت إليّ السعادة، لقد أعادتني إلى الحياة. وأنا، انظرْ، سأقبّلها وجهاً وقفاً. هكذا، وهكذا، ومرة أخرى! ثلاث مرات متتالية، كما في حالة السكر؛ وطبعت قبلة على تلك اليد اللطيفة حقاً وإن هي مسرفة في السمنة. وكانت غروشنكا، وقد مدَّت إليها يدها، تراقب «الآنسة اللطيفة»، مع ضحكة قصيرة عصبية

رنانة. وكانت مسرورة بتقبيل يدها على هذا الشكل. قال أليوشا لنفسه بسرعة: «لعلها تسرف في الحماسة»، واحمرَّ وجهه، وكان قلبه، كل ذلك الوقت، يشعر بأنه غير مطمئن.

ـ لا تخجليني، يا آنستي اللطيفة بتقبيل يدي هكذا، أمام ألكسي فيودوروفتش.

ـ أنا أريد أن أجعلك تخجلين؟ أجابت كاترينا إيفانوفنا بشيء من الدهشة. يا عزيزتي، إنك تسيئين فهمي!

ـ وأنتِ أيضاً فيما يخيَّل إليَّ يا آنستي اللطيفة. أنا، ربما أكون أخبث كثيراً مما تفكرين. إن لي قلباً شريراً، وأنا عنيدة. اجتذبت ديمتري فيودوروفتش إلى منزلي لكي أسخر منه.

ـ والآن، أنت التي تنقذينه. لقد قطعت وعداً. ستشرحين له، وستقولين له إنك لا تحبين رجلاً آخر، منذ زمن طويل، وإن هذا الآخر سيتزوجك...

ـ آه، لا. أنا لم أعطِ وعداً بهذا أبداً. أنت قلت لي هذا الكلام كله، أما أنا، فلم أعد بشيء.

ـ إذن، لقد فهمتك خطأً. قالت كاترينا إيفانوفنا بصوت خافت وقد اصفرَّ وجهها قليلاً. لقد وعدتِ...

ـ لا، يا آنستي الملاك، أنا لم أعدك بشيء أبداً.

قاطعتها غروشنكا بصوت هادىء مع النبرة الفرحة والبريئة نفسها. وأنت ترين الآن، يا آنستي المحترمة، كم أنا شريرة معك ومستبدة. أنا أفعل ما أريد فقط. قد أكون وعدتك بشيء، منذ قليل، ولكنني الآن أقول لنفسي: «ماذا لو أعجبني ميتيا من جديد؟» ـ ذلك أنه قد أعجبني، مرة في الماضي، لقد أعجبني طوال ساعة بكاملها. وأنا، ربما شعرت بأنني أستطيع الذهاب إليه لأقول له: تعال، اسكن في منزلي نهائياً منذ الآن... هكذا أنا، متقلّبة...

ـ منذ قليل، قلت... قالت كاترينا إيفانوفنا بعناء. قلتِ غير هذا كلياً...

ـ منذ بضع لحظات! ولكن، أنا، لي قلب حنون، وأنا غبيّة. فعندما أتصوّر كلّ ما جعلته يقاسي من آلام! وإذا رجعت إلى منزلي، ورحت ألومه ـ ماذا يحدث عندئذ؟

ـ لم أكن أتوقع أن...

ـ أوه، آنستي. ما أطيبك وما أنبلك فالمقارنة معي؟ أنا الغبيّة، لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن بسبب طبعي السيِّئ. أعطيني يدك الصغيرة الجميلة، أنت أيضاً، يا ملاكي؛ قالت لها ذلك بحنان ثم أمسكت يدها بنوع من الوقار. آنستي اللطيفة، أعطيني يدك سأقبّلها كما قبّلت أنت يدي. قبّلتني ثلاث مرات، وأنا، عليَّ أن أقبّل يدك ثلاثمئة مرة لكي نكون متساويتين. ولندع الأمور على ما هي عليه، ولنسلّم أمرنا إلى الله. ربّما سأكون أَمَتك كلياً، وأريد أن أخضع لك كأَمة. كما يشاء الله! فلا نقطع على نفسينا عهوداً أو وعوداً؛ هذه اليد، هذه اليد الجميلة، آه، ما أجمل يدك يا آنستي اللطيفة، إنّ جمالك لا يتصوره خيال.

ورفعت تلك اليد إلى شفتيها، على تلك النيّة الغريبة وهي أن «تردَّ إليها دينها» بالقبلات. لم تعارض كاترينا إيفانوفنا: كانت قد أصغت إلى الوعد الذي قطعته غروشنكا. وهو أنها قد تخضع لإرادتها «كلياً»؛ وهي تحدِّق إلى عينيها اللتين لا تزالان تعبّران عن تلك البراءة والصراحة والغبطة عينها... «لعلّها ساذجة بإسراف». قالت كاترينا إيفانوفنا في نفسها. وعاد الأمل يشرق في قلبها. وفي أثناء ذلك، كانت غروشنكا التي تبدو نشوى أمام «اليد الصغيرة الجميلة» فترفعها إلى شفتيها. لكن بعد أن وضعتها على شفتيها، تركتها لحظتين أو ثلاثاً، وكأنها تفكر في شيء ما. ثم قالت فجأة وهي تجرّ كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التثنيات والترجمات العذبة:

ـ هل تعلمين، آنستي الملاك، لقد قررت فجأة أن لا أقبّل يدك الصغيرة، وانطلقت منها ضحكة مرحة.

ـ كما تشائين... ولكن ماذا بك؟ سألت كاترينا إيفانوفنا وجسدها كله يرتعش.

ـ حسناً. فليبق هذا في ذاكرتك، إنكِ، أنت، قبَّلت يدي، ورفضت أنا تقبيل يدك. كان ثمة شيء بدأ يلمع فجأة في عينيها، وحدَّقت إلى كاترينا إيفانوفنا بنظرة حادة، بفظاعة.

ـ يا للوقحة! قذفتها كاترينا إيفانوفنا كأنها أدركت شيئاً ما في هذه اللحظة، ونهضت من مكانها فجأة، فوقفت غروشنكا بدورها بدون إسراع.

ـ هذا ما سأذكره لميتيا بعد لحظة، أنك قبّلت أنت يدي ورفضت أنا أن أقبّل يدك.

ـ أخرجي، أيتها المومس!

ـ ألا تخجلين، ألا تخجلين؟ ألا تعرفين أن هذا غير لائق بك، أن تستعملي مثل هذه الألفاظ يا آنستي اللطيفة.

ـ أخرجي من هنا أيتها المومس العاهرة! زأرت كاترينا إيفانوفنا، وقد تغيّرت ملامح وجهها فجأة وبدأت ترتجف.

ـ أنت المومس القذرة. أنت التي عندما كنت فتاة، كنت تذهبين في الليل إلى منازل شبَّان لكي تحصلي على مال، وتبيعين جمالك؟ إنني أعرف كل هذا، أعرف.

أطلقت كاترينا إيفانوفنا صرخة وحاولت أن تنقضَّ عليها، ولكن أليوشا أمسكها بكل قواه.

ـ إياك أن تقولي كلمة واحدة! لا تجيبيها بشيء، لا تنطقي بحرف، سوف تنصرف، سوف تنصرف فوراً.

في هذه اللحظة، سمعت خالتا كاترينا إيفانوفنا صراخها فأسرعتا إلى الغرفة وتبعتهما الخادمة وأحطن جميعاً بها.

ـ نعم، أنا ذاهبة. قالت غروشنكا وهي تتناول شالها عن الديوان. أليوشا، حبيبي، رافقني، هيّا!

ـ اذهبي، اذهبي بسرعة. قال لها أليوشا متوسلاً ضامّاً يديه إحداهما إلى الأخرى.

ـ صغيري العزيز اللطيف أليوشا، رافقني! سأقول لك، أثناء الطريق، أشياء تسرُّك، تسرّك كثيراً... من أجلك أنت يا حبيبي أليوشا مثَّلت هذه المهزلة. رافقني، يا صغيري، ولن تندم على ذلك.

تحوَّل عنها أليوشا وهو يعقف يديه. وأسرعت غروشنكا راكضة وهي تطلق ضحكة مدوّية.

وأصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة عصبية. فأخذت تبكي منتحبة تخنقها التشنجات. وكان الجميع من حولها يتحركون.

ـ لقد حذرتك. قالت لها كبرى خالتيها. أردت أن أمنعك... أنت مسرفة في الاندفاع... كيف أمكنك أن تقومي بهذه الخطوة! ألا تعرفين مثيلات هذه المخلوقات، ويقال إن هذه أخبثهنّ جميعاً... أنت تتصرفين على هواك!

ـ إنها نمرة: زأرت كاترينا إيفانوفنا. لماذا أمسكتني يا ألكسي فيودوروفتش، أردت أن أضربها، أن أضربها!

ولم تعد تسيطر على نفسها أمام أليوشا، ولعلها لم تشأ أن تسيطر على نفسها.

واتّجه أليوشا نحو الباب.

وصاحت فجأة كاترينا إيفانوفنا:

ـ يا ألله، وهي ترفع يديها إلى السماء. لكن هو! لم يخجل أن يكون

حقيراً إلى هذا الحدّ، أن يكون فظاً! لقد أخبر هذه المخلوقة كل ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم، ذلك اليوم الملعون، الملعون إلى الأبد. «ذهبتِ تبيعين جمالك يا آنستي اللطيفة»!

إنها تعلم إذن. إن أخاك وغد يا ألكسي فيودوروفتش!

أراد أليوشا أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يجد الكلمات. كان قلبه يعتصر ألماً.

ـ إذهب، يا ألكسي فيودوروفتش! إنني أشعر بالعار، أشعر بألم رهيب! عد غداً... أتوسَّل إليك جاثية، ارجع غداً. لا تحكم عليَّ، سامحني، أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسي!

خرج أليوشا يمشي مترنحاً. كان يودّ لو يبكي هو أيضاً مثلها. وأدركته الخادمة فوراً.

ـ نسيت الآنسة أن تسلّمك الرسالة الصغيرة من السيدة فوخلاكوفا. لقد احتفظت بها منذ الغداء.

تناول أليوشا الظرف الوردي الصغير، بشكل آليّ، ودسَّه في جيبه دون أن يفكر في ذلك.

XI

سمعة أخرى ضائعة

من المدينة إلى الدير توجد مسافة تزيد على الفرسخ قليلاً. كان أليوشا يسير بخطى مستعجلة على الطريق المقفرة في تلك الساعة. كان الليل قد هبط تقريباً، وأصبح البصر لا يميز الأشياء على مسافة ثلاثين متراً. وفي منتصف الطريق يوجد مفترق طرق. في هذا المفترق، وفي ظل شجرة صفصاف منعزلة، يُرى شبح. فما كان أليوشا يقوم بخطوة واحدة في المفترق حتى قفز الشبح منقضاً عليه، صارخاً فيه بصوت مروِّع:

ـ مالك أو حياتك!

ـ أهذا أنت يا ميتيا؟ قال أليوشا وقد ارتعش بعنف مدهوشاً.

ـ ها. هاها. لم تكن تتوقع هذا؟ قال ديمتري فيودوروفتش ضاحكاً. لقد تساءلت: أين يمكنني أن أنتظرك؟ بالقرب من منزلها؟ هناك ثلاث طرق مختلفة، يمكن أن يخيب ظني، فقررت، أخيراً، أن أنتظرك هنا، قائلاً لنفسي، لا بدَّ أن تمرّ بهذا المكان فلا توجد طريق أخرى توصل إلى الدير. جيِّد، قل لي الحقيقة الآن، اسحقني كما تسحق حشرة مؤذية. ماذا حدث لك؟

ـ لا شيء، يا أخي العزيز... هو الخوف فقط. آه، يا ديمتري! دم والدنا

الذي سفح منذ قليل... قال أليوشا ذلك وبدأ يبكي. كان يودّ أن يبكي منذ مدة طويلة، والآن لا يعرف لماذا. أوشكتَ أن تقتله. لقد لعنته... والآن... فوراً... بدأت بالمزاح... «المال أو الحياة!».

ـ لماذا؟ هذا غير لائق أم ماذا؟ ألا يتفق هذا مع الوضع القائم؟

ـ لا، ليس هذا ما أردت قوله.

ـ مهلاً، أنظر إلى هذا الليل؛ إنك ترى كم هو معتم، الليل، والغيوم، والريح قد هبَّت! لقد اختبأت هنا، تحت شجرة الصفصاف، أنتظرك، قلت، فجأة، لنفسي: (بحق الصليب!)، ماذا يفيد التأجيل؟ ماذا أنتظر؟ هذه الصفصافة هي هنا، وها هو المنديل، وها هو القميص، يمكن أن نصنع منهما حبلاً، على الفور، بالإضافة إلى الحمَّالات. ماذا يفيد تدنيس كل شيء بحقارة وجودي؟ في تلك اللحظة سمعت وقع خطواتك على الطريق، فخطرت لي هذه الفكرة. فقلت في نفسي، لكن يوجد مع ذلك شخص أحبه، وها هو، هذا هو الإنسان الطيب، هذا هو، إنه أخي الصغير اللطيف الذي أحببته جـداً. أحببتك جداً في تلك اللحظة. وقلت في نفسي: سوف أعانقه! لكن فكرة سخيفة راودتني «سأخيفه قليلاً لأسلّيه». لذلك صرخت كالأبله: «مالك!» فاغفر لي هذا التصرف الصبياني ـ إنه مجرد مزاح. أما بالنسبة إلى حالتي الصحية فهي على ما يرام... بئست هذه الأفكار كلها على كل حال! قل لي، أنت، الآن، كيف جرت الأمور هناك؟ ماذا قالت لك؟ هيا، اقضِ عليّ، اسحقني، لا توفِّرني! هل أصابتها نوبة هستيرية؟

ـ لا، ليس هذا هو الأمر... ليس هذا هو الأمر أبداً، هناك شيء آخر يا ميتيا... هناك... لقد وجدتهما كلتيهما هناك.

ـ كلتيهما؟ من هما؟

ـ غروشنكا عند كاترينا إيفانوفنا.

جمد ديمتري فيودوروفتش.

ـ هذا مستحيل! صاح. لا شك أنك تهذي! غروشنكا عندها؟

أخبر أليوشا أخاه كلّ ما جرى منذ اللحظة التي وصل فيها إلى منزل كاترينا إيفانوفنا. أخبره مدة عشر دقائق، ولا يسعنا القول إن حديثه كان واضحاً ومتَّسقاً، لكن يبدو أنه نقله بدقة، وذكر الأقوال الهامة والوقائع الأساسية بحماسة مستعيناً بمشاعره الخاصة على توضيحها. واستمع أخوه ديمتري إلى حديثه صامتاً مركزاً عليه نظرته الحادة والمرعبة. وكان واضحاً بالنسبة لأليوشا، منذ الكلمات الأولى التي تفوّه بها أن أخاه قد فهم كل شيء. كان تعبير وجهه، كلما تعمّق أليوشا في سرد القصة، يزداد تجهماً حتى ليبدو مهدداً. قطّب حاجبيه، وكزَّ على أسنانه، وتفاقم جمود نظرته وأصبح مرعباً... ولكن، ما كان أشدَّ دهشة أليوشا عندما رأى وجه أخيه الذي كان حتى ذلك الوقت متوحشاً ومفترساً قد تغيَّر فجأة بشكل كامل. انفرجت شفتاه فوراً، وانفجر ديمتري فيودوروفتش يضحك مقهقهاً في ضحكة لا تقاوم وصريحة. حتى صار جسمه يتلوّى من الضحك، وبقي على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يتكلم.

ـ إذن، لم تقبّل يدها الجميلة! رفضت أن تقبّلها وانصرفت بكل بساطة. صاح بنوع من الحماسة المرضيَّة التي كان يمكن أن تكون وقحة لو لا أنها لم تكن عفوية. وزأرت الأخرى تقول عنها إنها نمرة! أجل، إنها نمرة! أنا أيضاً من هذا الرأي. إنها تستحق ذلك، تستحقه منذ زمن طويل! أنا لا أعارض، أيها الأخ العزيز أن تذهب إلى الإعدام. ولكن يجب أن أشفى أولاً! أنا أعرفها ملكة الوقاحة هذه! إن رفض تقبيل اليد يعبّر عن حقيقتها كاملة، بنت الجحيم تلك! إنها ملكة كل الشعوذات التي يمكن أن نتصورها على الأرض! إنها في نوعها، شيء من انخطاف! إذن، ركضت إلى منزلها؟ سأذهب إليها... آه...

سأسرع إليها! لا تحاكمني يا أليوشا! أنا أعرف، وأنا موافق على أنه يجب القضاء عليها!

ـ وكاترينا إيفانوفنا! قال أليوشا حزيناً.

ـ هي أيضاً، أتصوَّرها، أراها، كما أنني صنعتها، أراها، نعم، كما لم أعرفها من قبل! إنها اكتشاف القارات الأربع أو الخمس! عمل كهذا! ولكن هذه هي، هذه هي تلميذة المدرسة الداخلية الصغيرة التي لم تتهيَّب أن تذهب إلى منزل ضابط غبي، معرِّضة نفسها لأبشع إهانة لإنقاذ والدها. ولكن يا لتلك الكبرياء، يا لهذا الميل إلى المجازفة والتحدي للقدر، التحدي الذي لا حدود له! قلت إن خالتها أرادت أن تمنعها؟ هل تعلم أن خالتها هذه ليست أقلَّ منها تشبّثاً بالرأي؟ إنها أخت جنرالة موسكو، ولقد كانت فيما مضى تتباهى بعظمة، لكن زوجها اتُّهم بالاختلاس، وفَقدَ كل شيء، حتى أراضيه. وما لبثت زوجته المتعجرفة أن غيَّرت لهجتها، ومنذ ذلك اليوم لم ترفع صوتها. إذن، أرادت أن تمنع كاتيا، فرفضت كاتيا أن تعمل بنصائحها؟ «أستطيع أن أتغلّب على كل شيء، كل شيء يخضع لي. إذا أردت فبوسعي أن أسحر غروشنكا». ذلك ما قالته وآمنت به منذ انبثقت الفكرة في رأسها؟ لعلك تعتقد أنها كانت البادئة بتقبيل يد غروشنكا، وفي ذلك حساب ماكر؟ لا، لقد كانت صادقة في حبّها، لا في حبّ غروشنكا الحقيقية، بل في حب حلمها هي بها، بحب الوهم. لأنه «حلمي»، لأنه «وهمي»! قل لي يا عزيزي أليوشا: ماذا فعلتَ حتى استطعت أن تفلت من تينك المرأتين؟ هل شمَّرت جبَّتك حتى عنقك؟ ها، ها، ها!

ـ أخي، أعتقد أنك لم تلاحظ مدى الإهانة التي ألحقتها بكاترينا إيفانوفنا عندما رويتَ لغروشنكا قصة زيارتها لك في ذلك اليوم المشؤوم! لقد صرخت هذه المرأة في وجهها قائلة في فظاظة: «ذهبت خفيةً تبيعين جمالك لشبَّان!» أخي، هل هناك إهانة أقوى من هذه الإهانة؟ كان أليوشا معذَّباً من تصوّره أنّ

أخاه يبدو سعيداً لإهانة كاترينا إيفانوفنا، رغم أن هذا التصور لا يمكن أن يكون ممكناً.

ـ آه. تأوه ديمتري فيودوروفتش مقطباً حاجبيه فجأة، ثم ضرب جبهته براحة يده. لقد عرف الآن فقط هذا الموقف، رغم أن أليوشا قصَّ عليه كل شيء، وصراخ كاترينا إيفانوفنا «إنَّ أخاك حقير!» نعم، صحيح، أن أكون قد أخبرت غروشنكا عن ذلك «النهار المشؤوم»، على حدّ قول كاتيا. صحيح لقد حدَّثتها عن ذلك، لقد تذكرت! حصل هذا، في ذلك اليوم، في موكرويه، كنت ثملاً، وكانت الغجريات يغنّينَ... ولكنني، كنت أنتحب، كنت أنتحب في الوقت نفسه، وركعتُ أصلِّي لإيقونة كاتيا، وفهمت غروشنكا ذلك. فهمت كل شيء. أتذكر الآن هذا... كانت تبكي هي أيضاً.. فليأخذ الشيطان النساء! هل يمكن أن يحدث غير ذلك الآن؟ لقد بكت في ذلك اليوم، والآن... «الخنجر في القلب»... هكذا هنَّ النساء.

ثم خفض رأسه وراح يفكّر:

ـ أجل، أنا حقير! وغدٌ بدون أيّ شك... قال فجأة بصوت مغتمّ. سيَّان أن أكون قد بكيت أو لا. ليس لهذا الأمر أيّ قيمة. على كل حال فأنا وغد!.. قل لهنَّ هناك إنني أقبل هذا النعت إذا كان في ذلك عزاء لهنّ. حسناً، وداعاً! لقد ثرثرنا كفاية! وما من شيء مفرح. ستذهب أنت في طريقك وأنا في طريقي. لا أريد أن أراك بعد الآن، حتى النهاية. وداعاً يا ألكسي!

شدَّ بقوة على يد أليوشا، وعيناه منخفضتان دائماً، دون أن يرفع رأسه، كأنه مجنون. واتجه نحو المدينة. كان أليوشا ينظر إليه وهو يبتعد دون أن يصدّق أنه ذهب نهائياً.

ـ مهلاً يا ألكسي! ثمة اعتراف آخر، لك أنت وحدك! قال ديمتري فيودوروفتش وقفل راجعاً فجـأة. أنظر إليَّ، أنظر إليّ بانتباه: هل ترى أين؟

هنا. إنَّ رجساً قبيحاً يتهيّأ. (عندما قال له كلمة «هنا»، كان ديمتري فيودوروفتش يضرب صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب، كأنّ الرجس الذي يشير إليه مدفون في هذا المكان بعينه، في صدره، في مكان ما، مختبئاً في جيبه أو في كيس معلَّق بعنقه). إنك تعرفني الآن: أنا وغد، وغد أصيل! فاعلم مع ذلك أن لا شيء مما فعلت في الماضي، ومما قد أفعله في الوقت الحاضر، يمكن أن يعادل في حقارته ما أحمله في نفسي، في هذه اللحظة، هنا، في هذا الموضع، على صدري، من رجس يتخمَّر ويمكنني أن أكبته. ذلك أنني حرّ أستطيع أن أحققه وأستطيع أن لا أحققه، لاحظ هذا... لكن اعلم، أنني سأحققه ولن أعدل عنه. منذ بضع ساعات رويت كل شيء، أخبرتك كل شيء إلا هذا الأمر وحده. لأنني خجلت من الاعتراف به. لا يزال في وقتي متَّسع لكي أتراجع، وإذا توقفت، فسوف أستطيع، منذ يوم غد، أن أسترجع نصف شرفي الضائع، ولكنني لن أتوقَّف! سأنفّذ خطتي السوداء وأنت ستكون شاهداً على قراري الذي اتخذته وأنا في كامل وعيي! الموت والظلمات! فلا لزوم لأن أشرح لك شيئاً، ستعرف كل شيء في حينه، وفي ساعته، الزقاق القذر والبنت الجهنمية! وداعاً. لا تصلِّ من أجلي فأنا لا أستحق ذلك... ولست بحاجة أبداً إلى صلاتك! انصرف!...

وابتعد فجأة. وفي هذه المرة، رجع أليوشا إلى الدير. ولكن كيف هذا؟ ألن أراه بعد اليوم أبداً؟ ماذا يقول؟ كان يتساءل بشكل هستيري. دعك من كلامه! سأذهب إليه غداً، وسأراه حتماً، سأذهب إليه خصيصاً. كيف يمكنه أن يقول لي كلاماً كهذا؟...

دار حول الدير واجتاز غابة الصنوبر متجهاً مباشرة إلى الصومعة. هناك، فُتح له الباب، رغم أن القاعدة لا تسمح لأحد بالدخول في مثل هذه الساعة المتأخرة. كان قلبه يرتجف حين دخل غرفة الراهب الناسك. لماذا؟ لماذا

خرجت؟ لماذا أرسلني الراهب الناسك إلى العالم؟ هنا، مكان الصمت والقداسة، أما هناك فالاضطراب والظلمات التي يضيع فيها الإنسان ويضلّ فوراً...».

وجد في الغرفة المبتدىء بورفير، والأب بابيسي الذي يقضي نهاره كلّه يجيء ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما الذي كانت حالته الصحية تتفاقم؛ عرف أليوشيا ذلك مذعوراً وكان يشعر بألم أكثر فأكثر. حتى لقد استُغني عن الحديث الذي اعتاد أن يجريه في المساء مع الإخوة الآخرين. وقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء، بعد الصلاة، وقبل استراحة الليل، في غرفة الراهب الناسك، وكان كل واحد منهم يعترف له علناً بصوت عالٍ بالخطايا التي اقترفها أثناء النهار، وبأحلامه، وبأفكاره، وبتجاربه، وبالمشاجرات التي حدثت. وكان بعضهم يعترفون راكعين، والراهب الناسك يستمع إليهم، ويحكم في أمورهم، ويصالح فيما بينهم، ويصدر أوامره، ويعرض عليهم كفّارات ثم يصرفهم. وعلى هذه الطريقة في «الاعتراف» كان يعترض الإخوة خصوم الرهبان المرشدين، قائلين إنها بدعة تفسد الاعتراف بوصفه سرّاً. حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية، أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شرّه على كونه لا يحقق الهدف الأخلاقي المطلوب، بل هو، في الواقع، يقود النفس إلى الخطيئة وإلى التجربة. وقالوا أيضاً إن عدداً كبيراً من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للراهب الناسك، وإنهم لا يذهبون إليه إلا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يتّهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد في أفكارهم إن هم امتنعوا عن الذهاب إلى الناسك. ويُحكى أن هناك بعض الإخوة كانوا يتفقون فيما بينهم، أحياناً، قبل

الذهاب إلى الاعتراف في المساء على أن يمثّلوا أدواراً مختلفة: «أنا، سأقول إنني غضبت منك فتؤكد أنت ذلك وتثبته»، حتى يكون لدينا ما نقوله لكي نتنهي من هذه المهمة بسرعة. وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلاً في بعض الأحيان. وكان يعرف أيضاً أن هناك أخوة كانوا يستاؤون من أن رسائل أقاربهم نفسها يستلمها الراهب الناسك أولاً ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها. ويُفترض طبعاً أن كل هذا يجب أن يتَّبع بقلب حرّ وصادق، واندفاع روحيّ، تحقيقاً لأهداف السلامة وغايات الخلاص. ولكن لم يكن أيّ شيء صادقاً، بالعكس، كان ذلك خطأً وتمثيلاً. لكن الإخوة القدامى، الأكثر تجربة، كانوا يصرون قائلين إن «من دخل الدير طلباً للخلاص بنيَّةٍ صادقة فلا بدَّ أن يجني فائدة روحية كبرى من مراعاة هذه القواعد أو الكفّارات المختلفة، وأن التقيّد بهذه القواعد لا بدَّ أن يعود عليهم بنفعٍ عظيم على طريق الخلاص؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا غير مفيدة ليسوا برهبان حقاً، وما كان ينبغي لهم الدخول إلى الدير، لأنّ المكان الذي خلقوا له هو العالم؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن ينجوا من الخطيئة ولا من الشيطان لا في هذا العالم ولا في الدير، فلا مجال للقول إنّ هذا الاعتراف اليومي يمكن أن يحرّض على الخطيئة».

ـ إنه ضعيف جداً قد سيطر عليه النعاس، قال الأب باييسي لأليوشا بعد أن باركه بصوت خفيض، ومن الصعب إيقاظه. ولماذا نوقظه؟ لقد فتح عينيه خمس دقائق وطلب أن نبلغ الإخوة بركته وطلب منهم أن يصلّوا في هذا الليل من أجله، وفي نيّته أن يتناول القربان المقدس غداً مرة أخرى. وقد تذكرك يا أليوشا، وأراد أن يعرف إذا كنت قد ذهبت، فأجبناه بأنك في المدينة: «لهذا

السبب باركته، فهناك مكانه الآن، وليس هنا». هذا ما قاله عنك. كان يفكر فيك بمحبة وكان مهتماً بمصيرك. فهل تدرك هذه الخطوة التي يوليك إياها؟ ولكن لماذا حدَّد لك أن تعيش في العالم زمناً؟ إذن، هناك شيء تنبَّأ به عن قدرك! إعلم يا ألكسي، حتى إذا أنت عدت إلى العالم فيجب أن تتصرف فيه بروح الطاعة التي ألزمك بها مرشدك متجنّباً الأفكار الطائشة والملذات المبتذلة...

وخرج الأب بايسي ثانيةً. أمّا أنَّ الراهب الناسك قيد الانطفاء فذلك ما لا يشك فيه أليوشا، وإن كان يمكنه العيش يوماً آخر أو يومين. لذلك، قرر أليوشا بصلابة أن لا يغادر الدير رغم الوعد الذي قطعه على نفسه بالذهاب إلى رؤية والده، وبالذهاب إلى السيدتين خوخلاكوفا الأم وابنتها، وكاترينا إيفانوفنا وأخيه. فلن يخرج من الدير غداً، سيبقى بالقرب من الراهب الناسك حتى وفاته. وامتلأ قلبه بالحب ولام نفسه بمرارة على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسي، ولو للحظة واحدة، ذلك الإنسان الذي تركه في الدير على سرير الموت والذي يحترمه أكثر من أيّ إنسان في هذا العالم. ودخل إلى غرفة نوم الراهب الناسك وركع وانحنى حتى لامس جبينه الأرض أمام معلّمه النائم. كان الراهب الناسك ينام بلا حركة، وكان تنفّسه الضعيف يجري مطرداً ولكن بانتظام رغم أنه لا يكاد يُدرك. وكان وجهه ساكناً.

لدى عودته إلى الغرفة الأخرى ـ وهي الغرفة التي استقبل فيها، عند الصباح، الراهب الناسك ضيوفه ـ تمدّد أليوشا دون أن ينزع عنه ملابسه، وبعد أن خلع حذاءيه فقط، نام على الديوان الصغير الضيق والقاسي، المغطّى بالجلد، الذي اعتاد منذ زمن طويل النوم عليه في كل الليالي. وكان يكتفي بأن يضع عليه وسادة مستغنياً منذ مدة طويلة، عن وضع الفراش الذي حدَّثه والده

عنه. وكان يخلع عنه جبَّة الراهب ويستعملها كغطاء. ولكنه قبل أن ينام يركع ويصلي مدة طويلة. لم يطلب من الله، في صلاته الحارة، أن يخلصه من قلقه، لأن عطشه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذي سبق أن عرفه والذي كان يغزو روحه دائماً بعد تلاوة فعل الشكر والتسبيح لله، وهذه هي صلاة المساء كلها. إن الفرح الذي يملأ قلبه يجلب له نوماً هادئاً ومريحاً. وهو يصلّي، في ذلك المساء، أحسَّ فجأة، في جيبه بوجود ذلك الظرف الصغير الوردي الذي أعطته إياه خادمة كاترينا إيفانوفنا عندما أدركته في الطريق. فاضطرب، ولكنه أكمل صلاته. ثم، بعد لحظات من التردد، فتح الظرف فكان يحتوي على رسالة صغيرة بتوقيع ليزا ابنة السيدة خوخلاكوفا، الصبيّة الصغيرة الرائعة التي سخرت منه، عند الصباح، بحضور الراهب الناسك.

«ألكسي فيودوروفتش، كتبت تقول. أكتب إليك خفيةً عن جميع الناس، وحتى عن أمي، وأعرف أن هذا عمل سيِّئ. ولكن يستحيل عليَّ العيش دون أن أبوح لك بما يختلج في قلبي، ودون أن أطلعك على العاطفة التي ولدت فيه، والتي يجب أن يجهلها جميع الناس الآن إلا نحن الاثنين. ولكن كيف أقول لك ما أريد قوله؟ يبدو أن الورق لا يمكن أن يحمرَّ خجلاً، ولكنني أؤكد لك أن هذا غير صحيح، لأنّ الورق يحمرّ الآن أمامي كما أحمرُّ أنا! عزيزي أليوشا، أحبك، أحبك منذ الطفولة، منذ سنوات موسكو التي كنتَ فيها مختلفاً عنك الآن. أحبك مدى الحياة. لقد اخترتك في قلبي لأقاسمك الحياة كلها ولننهي أيامنا معاً في الشيخوخة، شرط أن تترك الدير طبعاً. أما عن عمرنا فبإمكاننا أن ننتظر المدة القانونية. عندئذ أكون قد شفيت من مرضي، بدون شك، فأمشي وأرقص. ذلك أمر لا شك فيه. أنت ترى أنني فكَّرت في كل شيء. ولكن ثمة

نقطة عجزت عن أن أتصوَّرها: ما عسى أن يكون رأيك فيَّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة؟ لا أتوقف عن الضحك وأقوم بسخافات، وقد أغضبتك قبل قليل. لكنني أؤكد لك أنني صلَّيت الآن أمام إيقونة أمّ الله قبل أن أقرر الكتابة إليك. أنا الآن أصلّي حتى هذه اللحظة، وأكاد أبكي.

هذا سرّي بين يديك: عندما تأتي غداً، لست أدري كيف يمكنني أن أنظر إليك؟ أوه، ألكسي فيودوروفتش، ماذا يحدث إن لم أستطع السيطرة على نفسي، أنا الحمقاء، إذا انفجرت ضاحكة حين أراك كما حدث لي هذا قبل قليل؟ سوف تعتبرني فتاة شريرة ساخرة ولن تصدّق ما جاء في رسالتي. لذلك، أرجوك، يا صديقي، إذا كان لديك بعض الشفقة عليَّ، أن لا تنظر إلى عينيَّ كثيراً عندما تأتي إلينا غداً لأنني، متى التقى نظري نظرك، يتملكني ضحك لا سبيل إلى التغلّب عليه، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل... حتى في هذه اللحظة، أحسّ بأنني متجمدة من البرد حين أتصوّر ذلك. أستحلفك ألّا تنظر إليَّ أبداً، خلال بعض الوقت، عندما تأتي إلينا غداً، فانظر إلى أمّي أو نحو النافذة...

لقد كتبت إليك رسالة حب. يا الله، ماذا فعلت! لا تحتقرني يا أليوشا. إذا كان ما أفعله شراً كبيراً وإذا كنت أسبّب لك إزعاجاً، فسامحني. والآن، إن سمعتي الضائعة ربّما إلى الأبد هي الآن بين يديك.

«واليوم سأبكي حتماً. وإلى الغد. إلى ذلك الغد الرهيب.

ليزا

حاشية: أليوشا، يجب أن تأتي لا محالة، لا محالة، لا محالة!

قرأ أليوشا الرسالة بدهشة وقرأها مرتين، ثم فكَّر، فإذا به يطلق ضحكة

هادئة عذبة. ارتعش إذ بدت له هذه الضحكة خطيئة. ولكنه، بعد لحظة ضحك مجدداً تلك الضحكة نفسها، الهادئة والسعيدة. وطوى الرسالة على مهل، وأعادها إلى الظرف، ورسم إشارة الصليب، ونام. زال كل اضطراب من نفسه وكأنه السحر. «اللهم، اشملهم برحمتك، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين صادفتهم في هذا النهار، لأنهم تعساء ومضطربون. سدّد خطاهم! إن لديك طرقاً نجهلها: فأنقذهم بطرقك. أنت الحب، إبعث إليهم الفرح جميعاً»!

تمتم أليوشا وهو يرسم إشارة الصليب، ثم نام نوماً هادئاً.

القسم الثاني

الكتاب الرابع

الهستيريات

I

الأب فيرابونت

استيقظ أليوشا من نومه في ساعة مبكرة قبل بزوغ الفجر. وصحا الراهب الناسك وهو يشعر بضعف شديد، حتى وإن أراد أن يترك سريره لكي يجلس على الكنبة. كان في كامل وعيه، وبدا وجهه مضيئاً مليئاً بالفرح رغم التعب الشديد. وكانت نظرته مرحة ولطيفة ومشجّعة. ربما لن أعيش إلى آخر هذا اليوم. قال لأليوشا. ثم أعرب عن رغبته في أن يعترف ويتناول القربان المقدس فوراً. وكان الأب باييسي هو الذي يعرِّفه دائماً. وبعد الانتهاء من هذين السرَّين بوشر القيام «بالمسحة الأخيرة». فاجتمع الرهبان النساك في غرفته التي بدأت تمتلىء بالنساك شيئاً فشيئاً. وفي أثناء ذلك، كان قد طلع النهار، وبدأوا بالوصول من الدير. وبعد انتهاء القداس، رغب الراهب الناسك في توديع الجميع وقبَّلهم كلّهم. ولما كانت الغرفة ضيقة فقد كان القادمون الأُول يخلون المكان للقادمين بعدهم. جلس أليوشا إلى جانب الراهب الناسك الذي جلس مجدداً على كنبته. كان يتكلم ويعلِّم بقدر ما يستطيع. وكان صوته رغم ضعفه لا يزال صارم النبرة. «لقد علمتكم خلال سنوات طويلة، وخلال سنوات طويلة كنت أتكلم بصوت عالٍ. بحيث أصبح ذلك عادة عندي عندما

أتحدث إليكم لأعلّمكم وأصبح الكلام أهون عليَّ من الصمت رغم ضعفي، أيها الآباء والإخوة الأعزاء». (قال مازحاً وهو يجيل نظره المتأثر على الذين يزدحمون حوله). تذكّر أليوشا، فيما بعد، بعض الأفكار التي عبَّر عنها في ذلك الوقت. لكنه تكلم بشكل جميل ومتميز بصوت حازم، وكان خطابه غير متنافر. تحدَّث عن أمور كثيرة، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يرغب في قوله وأن يفصح مرة أخيرة وهو مشرف على الموت عن تلك الخطرات التي لا يتوصل المرء، أثناء حياته، أن ينقلها إلى الناس. وكان لا يقوم بذلك بهدف التعليم بل بظمأ إلى إشراك الجميع في فرحه وحماسته اللذين كانا يملآن نفسه وإلى نشر محبَّته في العالم مرة أخيرة من أعماق قلبه...

«أحبّوا بعضكم بعضاً، يا آبائي؛ أحبّوا أبناء الله. (بقدر ما يستطيع أليوشا أن يتذكر).

لسنا أقدس من المدنيين لأننا اخترنا أن نعيش في الدير ولأننا مسجونون داخل جدرانه. بالعكس: إن كل أخٍ جاء إلى هنا قد أحسَّ واعترف هو نفسه، من مجرد أنه أتى إلى هنا، بأنه كان شراً من الإنسان العادي وأسوأ من جميع الذين بقوا في الحياة الدنيا... وكلما عاش الناسك بين هذه الجدران كلما شعر ذلك في أعماقه، لأنه في الحالة المعاكسة ليس لديه سبب للمجيء. وعندما يدرك أنه ليس أسوأ من المدنيين فحسب، بل إنه مذنب أيضاً في حق كل البشر، مسؤول عن كل الخطايا البشرية، خطايا الجماعات وخطايا الأفراد. فبهذا الشرط وحده، يتحقق الهدف من ترابطنا في الدير. اعلموا، أيها الأحبّة، أنّ كلاً منا هو مسؤول عن مظالم الجميع وعن كل فرد على الأرض، وهذا لا يحتمل الشك، لا بسبب الخطيئة المشتركة للعالم كله بل شخصياً، مسؤول عن جميع الناس وعن كل فرد على الأرض. إنّ هذا الشعور هو الذي يتوّج حياة الناسك وحياة كل إنسان، لأنّ الرهبان النساك لا يختلفون عن سائر البشر بل يحاولون

أن يصيروا إلى ما يجب لكل الناس أن يصيروا إليه. فإذا تحقق هذا الهدف انفتحت قلوبنا للحب اللانهائي الشامل الذي لا يعرف الظمأ. وعندئذ، سوف يجد كل منا في نفسه القدرة على أن يكسب العالم كله بالحبّ وعلى أن يغسل بدموعه خطايا العالم... فليسرْ كل منا بالقرب من قلبه وليعترف كل واحد بخطاياه لنفسه. لا تخافوا من خطاياكم وإن تكن واضحة لأفكاركم شرط أن تندموا على ارتكابها، ولكن إياكم والتسويات مع الله. لكنني أقول لكم، خفّفوا من كبريائكم. ولا تتعالوا على الصغار، ولا تتعالوا أيضاً على الكبار! لا تبغضوا الذين ينبذونكم ويهينونكم. ولا تكرهوا الملحدين، والأنبياء الكذبة، والماديين، وحتى أسوأ هؤلاء وأخبثهم ناهيك عن أخيارهم، لأنَّ بينهم أخياراً، في أيامنا هذه خاصة. أذكروهم في صلواتكم على هذا النحو: «أنقذ يا رب، جميع الناس، الذين لا يصلّي لهم أحد، وأنقذ الذين لا يريدون أن يصلّوا لك. وأضيفوا إلى ذلك فوراً: «اللهم إني لا أسألك هذا زهواً بنفسي فإنني شرّ كل الناس وكل فرد منهم... أحبوا أبناء الله. لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع. فإذا استسلمتم للكسل وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق أو إذا انسقتم إلى حب الخيرات المادية، فإن رجالاً من كل البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم. بشِّروا بالإنجيل في صفوف الشعب... إياكم والجشع... إياكم والتعلق بالذهب أو الفضة، لا تمتلكوا منه شيئاً... آمنوا وارفعوا راية العقيدة، ارفعوها إلى الأعلى...

كان الراهب الناسك يتحدث بعبارات متقطعة أكثر مما يظهر هنا فيما دوَّنه بعد ذلك، أليوشا. كان يتوقف عن الكلام كلياً، من حين إلى آخر، كأنما يستجمع كل قواه، وكان يلهث بتقطع، ولكنه كان يشعر بنوع من الانخطاف. وكانوا يستمعون إليه في خشوع، ويندهشون من أقواله التي يرون فيها غموضاً. وقد كان الجميع يتذكرون هذه الأقوال. وعندما تغيَّب أليوشا عن الغرفة بضع

لحظات، دُهش لدى عودته إذ لاحظ اضطراباً عاماً قد سيطر على جميع من كانوا يزدحمون أمام أبواب الغرفة. وهذا الانتظار، كان لدى بعضهم مقلقاً ولدى البعض الآخر مفرحاً. كان الجميع ينتظرون عملاً خارقاً وعظيماً بعد وفاة الراهب الناسك. وهذا الانتظار، كان يدلّ على شيء من خفّةٍ ولكنه سيطر على قلوب جميع الرهبان، حتى الذين أشدّهم صرامة. وكان الوجه الأشدّ صرامة هو وجه الراهب الناسك بايیسي.

لم يخرج أليوشا من الغرفة إلا لأن راكيتين الذي رجع من المدينة حاملاً إليه من السيدة خوخلاكوفا رسالة غريبة، وقد استدعاه خفيةً بواسطة أحد الرهبان. وهذه الرسالة تبلغ أليوشا حادثاً غريباً جرى الآن في الوقت المناسب. والواقع، أن، في الأمس، ومن بين عدد من المؤمنات اللواتي جئن لينحنين أمام الراهب الناسك يتلقَّين بركته، كانت هناك امرأة عجوز، قصيرة القامة من مدينتنا، اسمها بروخوروفنا وهي أرملة صفّ ضابط. سألت الراهب الناسك هل في وسعها أن تطلب إقامة صلوات على راحة نفس ابنها فاسيلي الذي سافر لتأدية الخدمة العسكرية في سيبيريا، تقع في جهة إيركوتسك، ولم تصلها أخباره منذ سنة. سألت هل بإمكانها أن تطلب إقامة صلوات على راحة نفسه كما لو كان قد مات؟ أجابها الراهب الناسك بقساوة ومنعها، واصفاً هذه الممارسة بنوع من الشعوذة. لكنه سامحها، بعد ذلك، بسبب جهلها. وأضاف: «كأنــه يقــرأ فــي كتاب المستقبل» ـ كما تقول السيدة خوخلاكوفا في رسالتها ـ قائلاً لها إن «ابنها فاسيلي هو حيّ، بدون أي شك، وسيعود إليها قريباً، أو سيكتب إليها رسالة، وعليها أن تعود إلى منزلها مطمئنةً تنتظر عودته». فما الذي حدث؟ «أضافت السيدة خوخلاكوفا متحمسة: «لقد تحققت النبوءة، لقد تحققت كاملة، بل أكثر من ذلك». وما إن عادت المرأة العجوز إلى منزلها حتى تسلَّمت رسالة وصلتها من سيبيريا. وأكثر من ذلك:

ففي هذه الرسالة التي كتبها إليها فاسيلي، في طريق عودته، من إيكاتيرنبورغ، يبلغ فاسّي أمَّه أنه عائد إلى روسيا برفقة موظف، وأنه «يأمل أن يضمَّ أمّه بين ذراعيه»، بعد ثلاثة أسابيع. رَجَت السيدة خوخلاكوفا أليوشا ملحّة أن ينقل إلى رئيس الدير والمجموعة بكاملها نبأ هذه «المعجزة الجديدة من النبوءة». وتقول له خاتمةً رسالتها: «يجب أن يعرف الجميع، الجميع...» كتبت هذه الرسالة بسرعة، وكان واضحاً أنّ كل كلمة تزخر بانفعال قوي. لكن أليوشا لم يكن بحاجة إلى إبلاغ المجموعة النبأ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه: لأن راكيتين، عندما كلّف أحد الرهبان استدعاء أليوشا إليه، قد رجاه، في هذه المناسبة نفسها أن «يبلغ الأب المحترم باييسي، بكثير من الاحترام، أنه يودّ لو يراه فوراً ليكلّمه في أمر هام جـداً يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه بدون إبطاء، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة، آملاً في كثير من التواضع أن تُغتفر له هذه الجرأة». ولما كان الراهب، قصير القامة، قد نقل هذه الرسالة من راكيتين إلى الأب باييسي قبل أن يرى أليوشا، فلم يبق على أليوشا بعد عودته إلى مكانه إلا أن يقرأ الرسالة وأن يسلّمها إلى الأب باييسي من باب الأدب وتقيداً بالشكل. أخذ هذا الرجل الصارم يقرأ الرسالة، مقطّباً حاجبيه، فلم يستطع هو أيضاً عندما اطلع على قصة هذه «المعجزة» أن يخفي بعض المشاعر التي تملّكته، فأطلقت عيناه بعض الشرارات، وتليَّنت شفتاه فجأة، فابتسم ابتسامة رصينة وعميقة.

ـ ليست هذه إلا بداية! قال فجأة بلا إرادة منه.

ـ ليست إلّا بداية، ليست إلا بداية! ردّد الرهبان المحيطون به. لكن الأب باييسي قطَّب حاجبيه مجدداً، وطلب من كل واحد، ولو لفترة وجيزة، ألّا يتكلم بصوت عال إلى أحد مضيفاً بحذر كأنما يريد أن يهدئ ضميره، لكن دون أن يكون مقتنعاً بتحفظه كثيراً. «من الأفضل أن ننتظر لكي نتثبت من ذلك

أكثر، لأن المدنيين كثيراً ما يظهرون خفَّة في هذا الشأن، والحوادث في مثل هذه الحالة قد يمكن أن تفسَّر بشكل لا شأن له بما هو فوق الطبيعة». انتقل خبر «المعجزة» بسرعة، وعرفه جميع الذين في الدير، وحتى الكثير من الزائرين الذين جاؤوا إلى الدير لحضور الذبيحة الإلهية. وكان أشدّ الناس انبهاراً في الظاهر، هو راهب منسك «سان سيلفستر»، ذاك القصير القامة الذي وصل يوم أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبيريا. كان بالأمس قد انتظر الراهب الناسك واقفاً إلى جانب السيدة خوخلاكوفا. وبعد أن حيّا الراهب الناسك، سأله بمناسبة «شفاء» ابنة تلك السيدة كيف تتجرأ على أن تتعهَّد مثل هذه الأمور؟

الواقع، هو أنه شعر بحيرة شديدة ولم يكن يعرف بماذا يجب أن يؤمن. فمساء أمس قام بزيارة إلى الأب فيرابونت، في الدير، في غرفته الخاصة، وراء خلايا النحل، وقد تأثر جداً بهذا اللقاء الذي جعله يشعر برعب قوي ومخيف. وهذا الرجل العجوز، الأب فيرابونت هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه وصمته، والذي كان يُعدّ، كما سبق أن ذكرنا، خصماً للراهب زوسيما، ولمؤسسة الرهبان بصورة خاصة، ويرى فيه بدعةً طائشة ومؤذية. إنه خصم خطر جداً رغم أنه بالكاد يكلم أحداً من الناس. وكان يبدو مخيفاً، بصورة خاصة، لأنّ رهباناً كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه ولأنَّ بين الزائرين المدنيين عدداً كبيراً يرى فيه رجلاً صالحاً وقديساً رغم تسليمهم بأنه «بسيط العقل». لكن هذه «البساطة» بعينها هي عنصر الجاذبية فيه. والأب فيرابونت لا يقابل الراهب زوسيما أبداً. ورغم أنه عاش في المنسك فما من أحد كان يزعجه بشأن مراعاة القواعد المتبعة في الدير لأن تصرفه كان تصرف رجل «بسيط». كان في الخامسة والسبعين أو أكثر، ويعيش وراء خلايا

نحل المنسك، عند زاوية الجدار، في غرفة قديمة جداً مبنية من خشب شبيهة بالأطلال، وقد بُنيت خلال القرن الماضي، كما يقال، لراهب آخر اشتهر هو أيضاً بالصيام والصمت، هو الأب يوّنا، الذي عمَّر مئة وخمس سنوات وعُرف بأعمال قداسة لا يزال الناس في الدير وفي خارجه يروون عنها قصصاً شائقة. وقد استطاع الأب فيرابونت أن يظفر أخيراً، منذ سبع سنوات، بسكنى هذه الغرفة الصغيرة المنزوية التي لا تكاد تكون «خِربة» بسيطة والتي تشبه كابيلا لما تحتويه من إيقونات النذور التي تملأها ولكثرة عدد مصابيح النذور، أيضاً، التي تشتعل فيها أمام الصور المقدسة، ليلاً نهاراً. وقد كُلّف الأب فيرابونت أن يتولّى صيانتها. وكان لا يأكل، كما يقال، (وهذا كان صحيحاً) أكثر من كيلوغرام من الخبز كل ثلاثة أيام، كان يحمله إليه الراهب الذي يعتني بخلايا النحل ويسكن غير بعيد عن ذلك المكان أيضاً، كل ثلاثة أيام. فكان الأب فيرابونت نادراً ما يتحدّث إليه. وهو لا يأكل طوال الأسبوع، إلا هذين الكيلوين من الخبز إضافةً إلى خبز القربان المقدس يوم الأحد الذي كان رئيس الدير يرسلها إليه بعد صلاة المساء، وهذا كان غذاؤه طوال الأسبوع. وكانت جرة الماء التي يشرب منها تُملأ له كل يوم. وكان نادراً ما يحضر القداس. وقد لاحظ زواره أنه يستطيع أن يقضي يوماً كاملاً في الصلاة راكعاً لا ينظر حوله. وإذا تحدّث أحد معه فحديثه مقتضب وجادّ وغريب، حتى ليكاد يكون فظاً. صحيح أنه كان يحدث، نادراً، أن يندفع في مناقشات أطول ولكنه في أغلب الأحيان يكتفي بإطلاق عبارة عجيبة يكون وقعها في نفس زائره وقع لغز محيِّر، ثم بالرغم من التوسلات لم يكن يشرح أبداً. ولم يكن في رتبة كاهن، كان راهباً بسيطاً. وقد راجت عنه إشاعة غريبة في الأوساط الجاهلة التي تؤمن بالخرافات هي أن الأب فيرابونت كان على اتصال بالأرواح السماوية ولا

يتحدث إلا معها، وهو لهذا السبب يلتزم الصمت مع الناس. واستطاع راهب أوبدورسك، القصير القامة، أن يهتدي إلى الطريق الموصل إلى غرفة الأب فيرابونت.

ـ ربما رضي أن يخاطبك ببضع كلمات، لأنك راهب حاج، ولكن سترحل مثلما أتيت دون أن تنتزع منه كلمة واحدة. قال له الراهب الذي يتعهد خلايا النحل.

اقترب الراهب قصير القامة من غرفة الناسك وهو يشعر بخوف شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد. كان الأب فيرابونت يجلس، في هذه المرة، أمام باب غرفته الصغيرة على مقعد صغير، وفوق رأسه، يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة. وطراوة المساء قد أنعشت الهواء.

ركع راهب أوبدورسك القصير أمام الناسك المقدس وطلب إليه بركته.

ـ هل تريد أيها الراهب أن أركع أنا أيضاً على الأرض أمامك؟ أجاب الأب فيرابونت. هيَّا انهض.

نهض الراهب قصير القامة.

ـ فلتحلّ عليك البركة. اجلس. من أين أتيت إلينا؟

وما أدهش راهب أوبدورسك القصير المسكين هو أن الأب فيرابونت، رغم أنه طاعن في السن، ورغم الصيام القاسي والصارم الذي يفرضه على نفسه، لا يزال متين البنية، قويّ الجسم، وهو منتصب القامة طويل، له وجه نضر لكنه نحيل، وهو في كامل صحته. يشعر المرء أنه ما زال يحتفظ بقوة بدنية عظيمة. وكانت بنيته بنية رياضية، وبالرغم من تقدّمه في السن، لا يزال شعر رأسه كثيفاً ليس أشيب كلياً، وقد كان فيما مضى حالك السواد، شعره كما لحيته؛ وعيناه رماديتان كبيرتان ساطعتان، لكنهما جاحظتان كثيراً بشكل يجذب النظر فوراً. وهو يتكلم مشدِّداً حرف «الواو» بصورة خاصة. أما لباسه

فمعطف طويل أحمر من ذلك القماش الذي كان يسمّى في الماضي «جوخ السجناء»، مع حبل طويل يتَّخذه حزاماً. والعنق والصدر عاريان. وتحت الثوب يُرى قميص يكاد يبدو أسود اللون لأن الأب فيرابونت لا يبدِّله خلال شهور متتالية. وكان يقال إنه يثقل جسمه بسلاسل تزن خمسة عشر كيلوغراماً. وقدماه بلا جوربين، وهو ينتعل حذاءين عتيقين.

ـ أنا قادم من منسك سان سيلفستر الصغير في أوبدورسك. أجاب الراهب القصير الزائر بتواضع وهو ينظر إلى الناسك بعينيه السريعتين الحادتين اللتين لا تزالان مروَّعتين.

ـ أنا، أعرف صاحبك سان سيلفستر. لقد عشت فيه زمناً. كيف حاله؟ كيف صحته؟

اضطرب الراهب القصير.

ـ يا لكم من حمقى مجانين! كيف تحترمون الصوم هناك؟

ـ المائدة عندنا، ترتب حسب القاعدة الرهبانية التي يتبعها النساك: أثناء الصوم الكبير، في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، لا نحضِّر المائدة. وفي أيام الثلاثاء والخميس، يأكل الإخوة خبزاً أبيض، ويشربون «تيزان» مع العسل، وتوتاً برياً أو كرنباً مملَّحاً مع قليل من طحين الشوفان مخلوط بالماء. وفي أيام السبت، نأكل شوربة شعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً، وكل ذلك مطبوخ بالزيت. ويضاف إلى الكرنب شيء من سمك مقدَّد وبرغل عادي في أيام الأحد. أما في أسبوع الآلام، فلا نأكل، من صباح الإثنين حتى مساء السبت، أي خلال ستة أيام، إلا خبزاً وماءً وخضاراً نيئة ـ وحتى هذا، نلتزم فيه حدود الاعتدال. ذلك أنه كان مباحاً لنا أن نأكل في ذلك الأوان، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع. ففي يوم الجمعة العظيمة لا نأكل شيئاً أبداً. وفي يوم السبت نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن

نأخذ بعضاً من خبز وماء وأن نشرب كأساً واحدة من النبيذ. وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يُقدم إلينا طعام مطبوخ بلا زيت، ونشرب نبيذاً، وبعض المآكل الناشفة. ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في الأوديسه قد أقرَّ النظام التالي في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس: «لا يحسن قطع الصيام في خميس آخر الأسبوع حتى لا يفسد بذلك الصوم الكبير». هكذا نصوم. وهو، مع ذلك، لا يُعدّ شيئاً مذكوراً بالقياس إلى القاعدة التي فرضتها على نفسك يا أبانا المحترم. أضاف الراهب القصير الذي بدا أنه استردَّ شيئاً من رباطة جأشه، لأنك لا تأكل إلا الخبز والماء طوال السنة، حتى في يوم الفصح، ولأنّ مقدار الخبز الذي نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعاً كاملاً. في الحقيقة، إن المعجزة كبيرة في تقشُّفك.

ـ وفطر الغابات؟ سأله الأب فيرابونت فجأة، بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف وهو يلفظ V مثل F ، ولا سيما حرف الجيم.

ـ فطر الغابات؟ كرر الراهب القصير بدهشة.

ـ طبعاً، أنا، أستطيع أن أستغني تماماً عن خبزهم. فلست بحاجة إليه أبداً: أذهب إلى الغابة إذا لزم ذلك فأتغذّى فيها بالفطر والثمار، بينما هم، لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز، فهم مرتبطون بالشيطان. إن في زماننا هذا وثنيين يؤكدون أن لا حاجة للصوم. فتفكيرهم مشبع بالتكبر والوثنية.

ـ إنها حقيقة مقدسة! قال الراهب القصير متنهداً.

ـ وهل رأيت الشياطين عندهم؟ سأل الأب فيرابونت.

ـ عند مَنْ، عندهم؟ سأل الراهب القصير بخجل.

ـ زرت رئيس الدير في عيد العنصرة من السنة الماضية. ومذ ذاك لم أعد إليه أبداً. لقد رأيت عندهم جـنّاً! رأيت جنّاً يتسلّقُ صدره ويختبىء تحت مسوحه ولا تظهر منه غير قرونه. ورأيت واحداً آخر يختبئ في جيبه فلا يظهر

منه سوى رأسه وعينيه الحادتين. لقد خاف منّي، أنا. ورأيت آخر في بطنه في أعمق كرشه، وبعضهم يحملونه فوق أعناقهم، يتشبّث بها الجنّ، هكذا، دون أن يراهم أحد.

ـ وأنت، هل رأيتهم؟ سأل الراهب القصير.

ـ قلت لك إنني رأيتهم... كان نظري يخترقهم. عندما خرجت من عند رئيس الدير، ماذا رأيت؟ كان واحد منهم يختبىء أمامي وراء الباب. كان طويل القامة، يبلغ طوله قدمين، وحتى أكثر. وكان له ذيل ضخم أشقر وطويل. كان ذيله في شقّ الباب، وأنا، لم أكن غبياً، فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله. وهو، صرخ وارتعش. وأنا، رسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، فغطس. كما يُسحق عنكبوت ديس بالقدم، وتفسخت جثته عند زاوية الباب، فصار الهواء هناك موبوءاً، ولكن الرهبان لا يرون شيئاً ولا يشمون شيئاً! ولما رجعت بعد سنة إلى ذلك المكان. إنني أخبرك أنت وحدك هذا، لأنك غريب عن الدير.

ـ رهيب ما تقوله؟ وماذا بعد؟ قال الراهب القصير وقد ازدادت جرأته شيئاً فشيئاً.

ـ وددت لو أعرف، أيها الأب العظيم المحترم، هل صحيحة هي تلك الإشاعة التي تقال عنك، وهي أنك على صلة دائمة بالروح القدس؟

ـ إنه يهبط، هذا يحدث، هذا يحدث.

ـ هكذا يهبط؟ وبأيّ شكل؟

ـ بشكل عصفور.

ـ الروح القدس يظهر لك في شكل حمامة؟

ـ هذا هو الروح القدس، أما أنا فأحدّثك عن الروح المقدسة. الروح

المقدسة هي شيء آخر، يمكن أن تأتي بشكل عصفور أو سنونوة أو حسّون أو في شكل قرقب.

ـ فكيف تميّزها عن قرقب عادي إذن؟

ـ لأنها تتكلم.

ـ كيف تتكلم؟ بأيّ لغة؟

ـ بلغة الناس.

ـ وكيف تحدثك إذن؟

ـ اليوم، اسمع، أبلغتني أنّ زائراً غبياً سيزورني وسيطرح عليَّ أسئلة بلهاء. هل تعرف أيها الناسك أنك فضوليّ جداً؟

ـ كلماتك الرهيبة التي تقولها، أيها الأب المحترم جداً، المقدس جداً، تابع الراهب القصير وهو يهزّ رأسه. لكنّ شيئاً من عدم التصديق ظهر في عينيه الصغيرتين المذعورتين اللتين عاد إليهما الخوف.

ـ هل ترى هذه الشجرة هناك؟ سأله الأب فيرابونت بعد لحظة صمت.

ـ أراها أيها الأب الطوباوي.

ـ أنتَ، بالنسبة إليك هي شجرة دردار. ولكن أنا، أرى فيها شيئاً آخر.

ـ ماذا ترى؟

انتظر الراهب القصير بضع لحظات سدى.

ـ يحدث لي هذا في الظلام. هل ترى هذين الغصنين؟ أثناء الليل، يظهر المسيح لي في هذا المكان فيمدّ إليَّ ذراعيه ويفتش عني. أنا، أراه بوضوح، فأرتعش؛ ذلك شيء مخيف، شيء مرعب!

ـ لماذا هذا شيء مخيف ما دام هو المسيح؟

ـ قد يقبض عليَّ ويأخذني إلى السماء.

ـ حيّاً؟

ـ ألم تسمع، إذن، عن مار الياس(*) وعظمته؟ «سوف يحيطني المسيح بذراعيه ويأخذني»...

رغم أن راهب أوبدورسك القصير، عندما رجع بعد هذا الحديث إلى الغرفة التي عيّنت له لدى أحد الإخوة، شعر بحيرة كبيرة، إلا أن قلبه كان يميل إلى الأب فيرابونت أكثر منه الراهب زوسيما. إن راهب أوبدورسك القصير، كان من الأنصار المتحمسين للصيام ويعتقد أن صائماً يملك من القوة ما يملكه الأب فيرابونت يمكن أن يكون بحق قد أُوتي موهبة «رؤية هذه المعجزات». وكانت أقواله، طبعاً، تبدو غير معقولة، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن تحتوي. إن كل «البسطاء» المأخوذين بالمسيح يعبّرون عن أنفسهم بهذه اللغة ويقولون كلاماً يدعو إلى الاستغراب. أما قصة ذيل الشيطان الذي سُحق، فإن الراهب القصير لم يصعب عليه تصديقها، لا بالمعنى الحقيقي ولا بالمعنى المجازي. عدا ذلك، كانت تراوده، حتى قبل زيارته إلى الدير، شكوك كثيرة حول مؤسسة الرهبان، حتى لقد شعر بعداوة لهذا النظام الذي لم يكن يعرفه إلا عن طريق السمع، وكان يعتبره، بعد أنظمة كثيرة أخرى، بدعةً مؤذية. وبعد أن قضى نهاراً في الدير تسنّى له الوقت أن يستمع إلى وشوشات خفيّة من بعض الإخوة ذوي العقول السطحية والمعادين للرهبان. وإذا كان بطبيعته ناسكاً ماكراً ومخادعاً يعرف كيف يتسلل بفضولية إلى كل مكان، فإن النبأ الجديد الخارق عن «المعجزة» التي حققها الراهب زوسيما قد جعله في حيرة رهيبة. وقد تذكر أليوشا، فيما بعد، أنه رأى، في زحمة الرهبان النساك المحتشدين قرب الراهب الناسك أو في جوار غرفته، هذا الراهب القصير من أوبدورسك ينتقل من مجموعة إلى أخرى، يصغي بفضولية إلى كل شيء ويطرح بعض

(*) من أقوال القديس لوقا ١ – ١٧.

الأسئلة. ولكنه، في حينه، لم يهتم بذلك وإنما تذكره فيما بعد... كانت لديه هموم في رأسه: كان الراهب زوسيما الذي انهارت قواه مجدداً قد انتقل إلى سريره. فعندما أغمض عينيه تذكر أليوشا، فجأة، فطلب إحضاره، فأسرع إليه أليوشا فوراً. ولم يكن بالقرب من الراهب الناسك إلا الأب باييسي والراهب الناسك يوسيف والمبتدىء بورفير. فتح الراهب الناسك عينيه المتعبتين مجدداً وحدَّق في أليوشا بانتباه، ثم سأله فجأة:

ـ هل ينتظرك ذووك يا صغيري العزيز؟

فاضطرب أليوشا.

وعاد الراهب الناسك يسأله:

ـ أليسوا في حاجة إليك؟ هل وعدت أحداً بالقيام بزيارات اليوم؟

ـ وعدت... أبي... وأخويَّ... وآخرين أيضاً...

ـ قدَّرت ذلك. فاذهب إليهم حتماً. ولا تحزن. إعلم أنني لن أموت قبل أن أقول آخر كلماتي على هذه الأرض بحضورك. سأوجّه إليك آخر أقوالي، يا صغيري العزيز، إليك سأعهد بها، إليك أنت يا بنيَّ لأنك تحبني. ولكن، بانتظار ذلك، امضِ الآن إلى الذين ينتظرونك.

أطاع أليوشا الأمر فوراً. رغم أنه قد شقَّ عليه أن ينصرف. ولكن الوعد بسماع آخر كلماته على هذه الأرض، ولا سيما أنه سيوجّه هذه الكلمات إليه هو، وأنه سيعهد بها إليه كونها وصيَّته الروحية، قد ملأ نفس أليوشا غبطة. لذلك أسرع الخطى ليستطيع أن ينجز عمله في المدينة، ويعود إلى الدير بأقصى سرعة. وتحدَّث الأب باييسي، هو أيضاً، إلى أليوشا عند وداعه، وأحدث في نفسه أثراً عميقاً وغير منتظر. حدث هذا عندما كان الاثنان يخرجان من غرفة الراهب الناسك.

ـ تذكر أيها الشاب. بهذا بدأ الأب باييسي كلامه دون أي تمهيد. تذكر

أن المعرفة الدنيوية التي نمت وأصبحت لها سلطة قوية، قد شرحت ونقدت، في خلال القرن الأخير، كل ما تركته لنا الكتب المقدسة من حقائق سماوية. فعلماء هذا العالم بعد أن قاموا بنقد قاسٍ لم يحتفظوا بشيء مما كان يُعدّ مقدساً فيما مضى. لقد حللوا بكثير من التدقيق كل جزء من أجزاء التعليم الديني على حدة، ولكن فاتهم إدراك الدين في مجموعه، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقاً. ذلك أن الحقيقة هي في المجموع، فلن يتمكنوا أن ينالوا منها، وسوف تبقى كما كانت من قبل، لا تستطيع أبواب الجحيم أن تتقيّأ شيئاً يؤذيها. ألم تعش هذه الحقيقة تسعة عشر قرناً؟ ألا تزال تعيش اليوم في حركات النفوس الفردية وفي حركات الجماهير الشعبية؟ حتى في نفوس أولئك الملحدين الذين دمروا كل شيء ويستمرون في الحياة، حتى الذين كفروا بالمسيحية وتمردوا عليها ما يزالون يحتفظون في أنفسهم بجوهر هذا المسيح وصورته، كما كانت في الماضي، واستحال عليهم، في الواقع، أن يتصوروا مثلاً أعلى، أسمى وأجدر بإعجاب الإنسان من المثل الأعلى الذي قدمه إلينا المسيح فيما مضى. وكل المحاولات التي من هذا النوع لم تؤدِّ إلى غير الفظاعة. فاحفظ هذا جيداً في ذاكرتك، بشكل خاص، ما دام الراهب الناسك الذي أرسلك إلى العالم، سيغادرك. ربما حين تتذكر في المستقبل هذا اليوم العظيم، لن تنسى أبداً كلماتي التي قلتها لك من أعماق قلبي لتنير لك طريقك. ذلك لأنك شاب، ولأنّ مغريات العالم ثقيلة، ولن تكفيك قواك وحدها للتغلّب عليها. حسناً. امضِ الآن أيها اليتيم.

وبعد هذا الكلام، أعطى الأب بايسي بركته لأليوشا. فأدرك أليوشا فجأة، وهو يخرج من الدير، ويفكر في هذه الأقوال التي لم يكن يتوقّعها أنّ هذا الراهب الذي كان دائماً صارماً وقاسياً في معاملته، سيكون له بعد اليوم، صديقاً غير متوقّع وموجِّهاً يحمل له أعمق المودة ـ كما لو أن الناسك زوسيما

قد عهد إليه بهذه المهمة وهو يحتضر. قال أليوشا يحدث نفسه فجأة: «من يدري؟ لعلَّ الأمر قد حصل على هذا النحو!» ألا تدلّ هذه الشروح العلمية غير المنتظرة التي سمعها، وهي شروح أدهشته، في بادىء الأمر، وأثارت استغرابه. ألا تدلّ أكثر مما يمكن أن يدل حديث آخر، على أن الأب باييسي يكنُّ له عاطفة صادقة؟ لقد أسرع يزوّد عقله بالأسلحة التي تسهل عليه مواجهة مغريات هذا العالم، وأراد، بدون إبطاء، أن يحصِّن نفسه الفتية التي عُهد إليه بها، بأقوى الدروع التي يمكن أن يتصورها.

II

في منزل والده

قبل كل شيء، ذهب أليوشا إلى منزل والده. فتذكر وهو يقترب من المنزل أن والده قد ألحّ عليه كثيراً يوم أمس أن يتدبّر أمره لكي يدخل دون أن يراه أخوه إيفان. «لماذا اذن»؟ تساءل فجأة. «إذا كان الوالد يريد أن يقول لي شيئاً، لي وحدي فلماذا ينبغي عليّ الدخول خفية؟» يوم أمس، وبدون شك، كان يريد أن يقول لي شيئاً آخر من شدّة اضطرابه، لكن الوقت لم يتسنَّ له». هذا ما استنتجه. وبالرغم من ذلك، كان مسروراً عندما فتحت له مارفا إينياتيفنا الباب الحديدي (كان غريغوري قد وقع مريضاً فلزم الفراش في الجناح) فأجابت عن سؤال طرحه عليها، أن إيفان فيودوروفتش قد خرج منذ ساعتين.

ـ والوالد؟

ـ نهض من فراشه وهو يتناول قهوته. أجابت مارفا إينياتيفنا بخشونة.

دخل أليوشا. كان العجوز وحيداً إلى الطاولة، منتعلاً خفَّين، مرتدياً معطفاً صغيراً عتيقاً، وكان يدقق في بعض الحسابات تمضيةً للوقت دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلاً بهذا العمل الذي يقوم به. كان هو وحده في المنزل كله (كان سمردياكوف، هو أيضاً، قد خرج لشراء بعض الحاجات من أجل

تحضير طعام الغداء). لم تكن الحسابات، إذن، هي التي تشغله. وكان يبدو عليه التعب والضعف رغم أنه استيقظ باكراً منذ الصباح وحاول أن يستجمع قواه. وعقد على جبهته التي ظهرت فيها بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل، منديلاً أحمر. وكان أنفه قد تورَّم، أثناء الليل، وعليه، هو أيضاً، بقع مماثلة، إن لم تكن كبيرة فهي تضفي على وجهه تعبيراً عن أذى وحنق. وكان العجوز يعرف ذلك. وعندما دخل أليوشا، حدَّق فيه بنظرة عدائية.

ـ القهوة باردة، صاح بغضب، فلن أقدم لك منها شيئاً. وأنا ألتزم اليوم حمية قاسية فلا أقدِّم إلا حساءً بالسمك. فماذا أتى بك؟

ـ أردت أن أطمئن عن صحتك. قال أليوشا.

ـ أعرف. وبالإضافة إلى ذلك، أنا أيضاً طلبت منك أن تزورني يوم أمس، كل ذلك سخافات! لقد أزعجت نفسك سدى. كنت متأكداً أنك ستأتي فوراً...

قال الوالد هذه العبارة بلهجة عدائية، ثم نهض من مكانه ونظر بقلق إلى المرآة ليرى أنفه (ربما ينظر إليه للمرة الأربعين منذ استيقظ صباحاً) وراح يعدّل المنديل الأحمر الذي يلف جبهته ويعقده بشكل مناسب.

ـ لقد اخترت اللون الأحمر فهو أفضل، لأنّ الأبيض يذكِّر بالمستشفى. قال بلهجة متكلفة. حسناً. ماذا وراءك من جديد؟ وكيف حال راهبك المرشد؟

ـ إنه في حالة سيئة جداً وقد يموت اليوم. أجاب أليوشا. ولكنّ والده لم يسمع ونسي السؤال الذي طرحه عليه فوراً.

ـ خرج إيفان. قال فجأة. إنه يحضّر كل المكايد ليخطف من ميتيا خطيبته، ولهذا السبب هو هنا. أضاف بخبث وبلؤم ونظر إلى أليوشا.

ـ هو نفسه قال لك هذا؟ سأل أليوشا.

ـ أجل. قال ذلك منذ زمن طويل؟ ماذا تعتقد: قال لي هذا منذ ثلاثة أسابيع. لم يأتِ إلى هنا ليذبحني خفية، لا. لقد جاء لسبب ما؟

ـ ولكن، لماذا تقول هذا؟ قال أليوشا مضطرباً بشكل رهيب.

ـ إنه لم يطلب مالاً، صحيح، وعلى كل حال، لن أعطيه فلساً واحداً. إنني أريد، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش، أن أعيش في هذا العالم أطول عمر ممكن، ضع هذا في رأسك. لذلك سأكون في حاجة كبيرة إلى كل كوبيك مما أملك. وكلما عشت أكثر ازدادت حاجتي إلى المال. أضاف وهو يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً واضعاً يديه في جيبَي معطفه الفضفاض المتّسخ المصنوع من نسيج صيفي أصفر اللون. أنا الآن، بالرغم من كل شيء، لا أزال رجلاً، فعمري خمسة وخمسون عاماً بالتحديد. وأريد أن أعيش عشرين سنة أخرى، ولأنني سأشيخ طبعاً، فسوف أصبح منفّراً فلا يأتين إليَّ من تلقاء أنفسهنّ راضيات، لهذا السبب أنا بحاجة إلى المال. لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها، يا بنيّ العزيز ألكسي فيودوروفتش، ضع هذا في رأسك، أريد أن أعيش حتى آخر أيامي في الخلاعة والمجون. إن الخلاعة تلطّف الحياة: جميع الناس يعيبون الخلاعة ولكنهم جميعاً يعيشونها. كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً بينما أنا أتعاطاها علناً. ولأنّ لي قلباً بسيطاً تعرضت لهجوم هؤلاء الأوغاد. أما جنّتك، يا ألكسي فيودوروفتش، فأنا لا أريدها. أريد أن تعرف هذا. إن الإنسان الشريف ليس له في الجنة ما يفعله، هذا إذا وُجد إنسان شريف؛ وفي رأيي أنا، أن المرء يموت فينتهي بموته كل شيء. ينام ثم لا يستيقظ، ولا شيء بعد الموت. تذكروني إذا شئتم، وإن لم تشاؤوا، فليأخذكم الشيطان. هذه هي فلسفتي. لقد تكلم إيفان يوم أمس فأحسن الكلام رغم أننا كنا سكارى. إن إيفان إنسان متبجِّح. ليس رجل علم أبداً... وليست له ثقافة حقيقية. ويسخر من جميع الناس صامتاً ـ هذا كلّ ما يعرفه.

كان أليوشا يصغي إليه ولا يقول شيئاً.

ـ لماذا لا يكلمني أبداً؟ وإذا كلّمني، كان يمثّل؛ إنه وغد، أخوك إيڤان! أنا

سوف أتزوج غروشنكا، متى أردت ذلك. ما دمت أملك المال فيكفي أن أقوم بكل شيء، يا ألكسي فيودوروفتش! وذلك ما يخشاه إيفان، ويراقبني حتى لا أتزوج، ويحرّض ميتيا على أن يتزوج غروشنكا: هو يريد أن يبعدني عن غروشنكا (كأنه يظن أنني سأورثه مالاً حتى ولو لم أتزوج غروشنكا). ومن جهة أخرى، سينتزع من ميتيا خطيبته إذا تسنّى لميتيا أن يتزوج غروشنكا. ذلك هو الحساب الذي يجريه. إنه وغد، أخوك إيفان!.

ـ ما أشدَّ نزقك! ومردّ هذا إلى ما حدث لك بالأمس. فالأفضل أن تنام. قال أليوشا.

ـ أنت تقول لي هذا الكلام؟ أجاب العجوز وكأن هذه الفكرة قد ساورته في هذه اللحظة بالذات. تقول هذا. ولكن، لو سمح إيفان لنفسه بأن يقول لي ما قلته أنت، لثارت ثائرتي. معك وحدك أتيح لي أن أقضي لحظات طيبة. لأنني رجل شرير.

ـ لا، لست شريراً، إنك مشوَّش. قال أليوشا مبتسماً.

ـ اسمع. لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا، ولست أدري حتى الآن إذا كنت سأقرّر. أنا، لا أجهل أن «الموضة» الرائجة، اليوم، هي أن يُعدَّ احترام الآباء والأمهات عادة مبتذلة. ولكن القانون لا يسمح، حتى في أيامنا هذه، أن يجرَّ ابن والده من شعره ويركل وجهه بكعب حذائه، وأن يتباهى، أمام شهود، بأنه سيعود ليجهز عليه نهائياً ـ وأنا، إذا أردت، لزجَّيت به في السجن لما حدث بالأمس.

ـ إذن، لقد صرفت النظر عن مقاضاته، أليس كذلك؟

ـ ثناني إيفان. أنا لا أحفل برأي إيفان. ولكن، هناك شيء آخر أعرفه...

مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يهمس.

ـ لو اعتقل هذا الوغد، فهي ستعرف أنني رميته في السجن وستسرع إلى

رؤيته فوراً. أما إذا رُوي لها اليوم أنه أوشك أن يقتلني أنا العجوز المسكين، إذا حدث هذا، فقد لا تتخلى عنه وستقوم بزيارتي أنا... لأنّ هذا هو طبعها: تحبّ أن تفعل كل ما هو نقيض. أنا أعرفها! بالمناسبة، هل تريد قليلاً من الكونياك؟ إشرب قليلاً من القهوة، إنها باردة، وأنا، سأضيف إليها ربع كأس من الكونياك فيطيب مذاقها.

ـ لا، لا أريد، شكراً. ولكنني سآخذ هذا الرغيف من الخبز إذا أعطيتني إياه. قال أليوشا وتناول رغيفاً من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبيكات ووضعه في جيب جبَّته. ثم أضاف في خشية وهو يحدق في وجه والده. أما الكونياك فلعلَّك تعدل عنه، أنت أيضاً.

ـ أنت على حق. إنه يثيرني ولا يريحني أبداً. ولكنني سأشرب كأساً واحدة... وسأحتفظ به في الخزانة الصغيرة...

وفتح «الخزانة الصغيرة» وسكب كأساً وشربها ثم أقفل الخزانة من جديد، وردَّ المفتاح إلى جيبه.

ـ يكفيني هذا؛ كأس واحدة لن تقتلني.

ـ لقد أصبحت لطيفاً جداً الآن. قال أليوشا مبتسماً.

ـ حِمْ! لست بحاجة إلى الكونياك لكي أحبك. أما الأوغاد فأنا أعرف كيف يجب أن أعاملهم، لأنني وغد! فانكا، يرفض الذهاب إلى تشرماشنيا! لماذا؟ لأنه يريد أن يتجسس عليَّ: يريد أن يعرف كم سأعطي غروشنكا من المال إذا هي جاءت. كلّهم أوغاد! كلهم أوغاد! أما إيفان، فأنا لا أعترف به. من أين جاء هذا الحقير؟ إنه ليس مثلنا إطلاقاً. وماذا سأورثه أنا؟ لن أكتب حتى وصيّة، أريد أن تعرف ذلك. وأما ميتكا فسوف أسحقه كما الخنفساء. سأسحق خنافس الليل، أدوسها فتطقّ. وهكذا سأسحقه، صاحبك ميتيا. وإذا قلت صاحبك فلأنك تحبه. أنت تحبه. ولكن حبك له يقلقني. ولو أخذ

إيفان يحبه لشعرت بالخوف ولخشيت على نفسي. لكن إيفان لا يحب أحداً. إن أناساً مثل إيفان ليسوا بشراً مثلنا، إنهم غبار أثارته الريح... تذهب الريح ويعود الغبار... أمس، خطرت ببالي فكرة سخيفة عندما قلت لك بأن تأتي هذا الصباح: أردت أن أكلّفك بأن تسأل ميتكا: هل إذا، نقدته ألف روبل أو حتى ألفين، هل يوافق هذا الشقيّ، هذا القذر، على أن يغادر هذه المدينة مدة خمس سنوات بل خمسين سنة، بدون غروشنكا طبعاً، متنازلاً عنها نهائياً؟

ـ سوف... سوف أسأله... تمتم أليوشا. وإذا أعطيته ثلاثة آلاف فربّما أن...

ـ لا! لا تكلّمه في هذا الأمر الآن! لقد غيَّرت رأيي. إنها فكرة سخيفة خطرت ببالي، يوم أمس، نعم. لن أعطيه شيئاً، لن أعطيه كوبيكاً واحداً، لأنني في حاجة إلى هذا المال أنا نفسي ـ صرخ العجوز وهو يحرّك ذراعيه. سوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء. لا تقل شيئاً، وإلا فقد تراوده الآمال. ثم، ليس ثمة ما تفعله عندي. فاذهب الآن. ولكن قل لي: هل تريد خطيبته، هل تريد كاترينا إيفانوفنا تلك التي أخفاها عني، هل تريد أن تتزوجه، نعم أم لا؟ لقد ذهبت أنت إليها بالأمس، كما يبدو؟

ـ لا تريد أن تتركه مهما حدث.

ـ هؤلاء هم الرجال الذين تحبّهم بنات الصالونات الرقيقات! معربدون وأوغاد! هؤلاء الآنسات الشاحبات هنَّ قذارات. يفكّرن في... أنا، لو كان لي شبابه، ووجهي أيام شبابي (لقد كنت أجمل منه عندما كنت في الثامنة والعشرين) لفزت أنا، أكثر منه. إنه وغد! أما غروشنكا فلن يحظى بها، لن يحظى بها، سأمرّغه في الوحل!

عند هذه الكلمات، التهب غضبه مجدداً.

ـ أنت أيضاً، اذهب من هنا. لا عمل لك عندي اليوم. قال بلهجة جافة خشنة.

اقترب أليوشا ليودّعه وقبّله في كتفه.

ـ ماذا دهاك؟ سأل الوالد مندهشاً. سوف نلتقي أليس كذلك! أم تراك تفكّر أننا لن نلتقي أبداً!

ـ أبداً. لقد قبّلتك بدون نية، دون أن أفكر في الأمر.

ـ نعم. وأنا أيضاً مثلك. أجاب العجوز وهو ينظر إليه. لحظة. انتظر لحظة، صاح العجوز من وراء ظهره. تعال إليَّ متى شئت، وبسرعة، سأذيقك حساء السمك، إنه حساء خاص ليس كحساء اليوم! عدْ، حتماً! تعال غداً، هل سمعت، تعال غداً!

وما كاد أليوشا يجتاز الباب، حتى اقترب العجوز من الخزانة الصغيرة وشرب نصف كأس دفعة واحدة. ثم دمدم وهو يتنحنح:

ـ سأتوقف! ثم أقفل الخزانة ووضع المفتاح في جيبه، واتجه نحو غرفة نومه، وتمدّد على سريره منهكاً، ونام فوراً.

III

مع الصِّبية السوقيين

حمداً لله أنه لم يسألني شيئاً عن غروشنكا، قال أليوشا وهو يخرج من عند والده متجهاً نحو منزل السيدة خوخلاكوفا. فلو فعل لاضطررت أن أحدّثه عن مقابلتي، يوم أمس، مع غروشنكا. وشعر أليوشا بحزن، أثناء الليل، لأن الخصوم يستعدون للمواجهة بقوى جديدة، وأن قلوبهم أصبحت مجدداً قاسيةً كالحجر، مع اليوم الجديد. وقال يحدث نفسه: «الوالد حانق غاضب وثمة فكرة في رأسه وهو يتمسَّك بها. وديمتري؟ هو أيضاً، في هذه الليلة، اشتدّ كرهه بدون شك، وقلبه، هو أيضاً، قد امتلأ حقداً. ولديه فكرة... أوه! يتوجب عليّ حتماً أن أراه في هذا اليوم، مهما كلّف الأمر»...

لكن أليوشا لم يتسع له الوقت للتفكير طويلاً: فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة ليست ذات أهمية ظاهرياً ولكنها أحدثت في نفسه أثراً عميقاً. فما أن اجتاز الساحة ودخل في الزقاق للوصول إلى شارع ميخايلوفسكي الذي يوازي الشارع الكبير والذي لا يفصله عنه سوى جدول صغير (إن مدينتنا كلها تقطعها جداول صغيرة) حتى رأى أمام الجسر الصغير عصبةً من التلاميذ اليافعين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة لا أكثر. كانوا يعودون

من المدرسة إلى منازلهم، يحملون على أكتافهم ذلك الكيس الصلب الذي يحمله التلاميذ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً من جلد له حزام على الكتف؛ بعضهم يرتدي سترة، والبعض يرتدون معاطف قصيرة، وبعضهم ينتعلون جزمات عالية على ساقها أخاديد، من تلك الجزمات التي يحب انتعالها الأطفال المدللون ـ ما كان أليوشا يستطيع أن يمرَّ أمام أطفال بلا مبالاة، وكذلك كان شأنه أيضاً في موسكو. ولئن كان يفضّل الصغار الذين تبلغ أعمارهم ثلاث سنوات تقريباً، فإنّ التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضاً: لذلك، رغب فجأة أن ينضم إلى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث. فلما اقترب منهم ناظراً إلى وجوههم المحمرة المنتعشة لاحظ فجأة أن كلاً منهم يحمل بيده حجراً وبعضهم حجرين. ورأى في الجهة الأخرى من الجدول على مسافة ثلاثين خطوة من المجموعة، طفلاً آخر، هو تلميذ أيضاً يحمل كيسه على الجنب، وأغلب الظنّ أنه في العاشرة من عمره وربّما أصغر من ذلك، كما يدل على هذا طول قامته ـ كان الصبي يراقب مجموعة التلاميذ الستة الذين يقابلونه بانتباه كلّي، وكان واضحاً أنه يعتبرهم أعداءه، وكان شاحب الوجه عليل الصحة، ولكن عينيه تلمعان. والتلاميذ، على ما يبدو، هم رفاقه الذين خرجوا من المدرسة معه. تقدَّم أليوشا بضع خطوات وتوجَّه بالكلام إلى صبيّ أجعد الشعر متورد البشرة يرتدي سترة سوداء وقال له:

ـ عندما كنت أنا أحمل كيساً مثلك، كنا نضعه على الجنب الأيسر حتى تناله اليد اليمنى بسهولة أكبر. أما أنتم فالكيس يتدلى عندكم من الجهة اليمنى وهذا ليس عملياً لكم.

أبدى أليوشا هذه الملاحظة مباشرة دون أن يلجأ إلى أي خدعة مهيأة، كما يفعل أيّ شاب عندما يريد أن يكسب ثقة طفل، وخاصة من بين مجموعة

من الأولاد، وهو أن يدخل في الحديث معهم على الوجه الذي استعمله أليوشا، أي أن يخاطبهم في أمور ملموسة وجدّية، جاعلاً نفسه متساوياً معهم. وأليوشا يدرك ذلك بغريزته.

ـ ولكنه أعسر! صاح فوراً صبي آخر. إنه جريء ومعافى في الحادية عشرة من عمره. وبقي الصبية الخمسة يحدّقون إلى أليوشا.

ـ إنه يقذف الحجارة أيضاً باليد اليسرى. قال صبي ثان. وفي تلك اللحظة عينها، سقط حجر على المجموعة فلامس الأعسر لكنه أخطأه رغم أنه قد قُذف بإحكام وقوة. إن ذلك الصبي في الجهة الأخرى من الجدول هو الذي أطلقه.

ـ اضربه، سدّد إليه. صاح الجميع. هيَّا يا سموروف!

لكن سموروف (الأعسر)، على كل حال، لم ينتظر، وثأر لنفسه فوراً: فرمى حجره على الصبي الواقف في الجهة الأخرى من الجدول، ولكنه لم ينجح: سقط الحجر على الأرض. وأُطلق حجر آخر على المجموعة، وفي هذه المرة، استهدف أليوشا مباشرة فأصابه في كتفه فأوجعه. وكانت جيوب الصبي في الجهة الأخرى من الجدول، ملأى بالحصى. وذلك ما يُرى حتى على مسافة ثلاثين خطوة لأن جيوبه كانت منتفخة تحت معطفه الضيّق.

ـ إنه حاقد عليك أنت. لقد أصابك خصيصاً، لأنك من آل كارامازوف، ألست من آل كارامازوف؟ صاح الصِّبْيَة مقهقهين. هيّا بنا، كلّنا معاً، اضربوا!

وانطلقت ستة أحجار من المجموعة في آن واحد. فأصاب أحدها الصبيّ في رأسه، فسقط، ولكنه عاد فنهض مسعوراً، وراح يضرب ضربةً بضربةٍ. وانطلق القصف بدون انقطاع. وكان الكثيرون من صِبْيَة المجموعة هم أيضاً لديهم حجارة احتياطية.

ـ وأخيراً! ألا تخجلون! ستة مقابل واحد، سوف تقتلونه! صاح أليوشا.

وقفز، ووقف في مواجهة الحجارة المتطايرة ليحمي بجسمه الصبيَّ الواقف من الجهة الأخرى من الجدول. فهدأ ثلاثة صِبية أو أربعة بضع لحظات.

وصاح صبيّ يرتدي قميصاً أحمر بصوت طفوليّ غاضب.

ـ هو الذي بدأ. إنه وغد. منذ قليل، طعن كراسوتكين في المدرسة بسكين. فسال دم كراسوتكين. ولم يشأ أن يشكوه. أما هو، فيجب ضربه...

ـ لكن لماذا؟ لا شك أنكم سخرتم منه؟

ـ أنظر، إنه يوجّه إليك حجراً في الظهر. إنه يعرفك. صاح الأطفال. إنه يستهدفك أنت الآن وليس نحن. هيّا بنا، كلّنا معاً، أصبه جيداً يا سموروف!

وعاد مجدداً تبادل الضرب بالحجارة، أكثر وحشية في هذه المرة. فأصيب صدر الصبي الذي في الجهة الأخرى من الجدول، فأطلق صرخةً، وبدأ يبكي، ثم ركض نحو القمة إلى جهة شارع ميخايلوفسكي، فأخذت المجموعة تقول مولولةً: «آه. آه، لقد خاف. هرب. خرقة مبلّلة!».

ـ أنت لا تعرف، حتى الآن، يا كارامازوف، أيّ لص هو هذا الصبي. إن قتله قليل عليه. ردّد الصبي الذي يرتدي سترة صغيرة وعيناه تبرقان وهو كبير المجموعة على ما يبدو.

ـ وماذا فعل؟ سأل أليوشا. إنه واشٍ بدون شك!

تبادل الصِبية نظرات ملؤها السخرية بشكل واضح.

ـ هل أنت ذاهب إلى شارع ميخايلوفسكي؟ تابع الصبيّ نفسه. أدركه إذن... انظر! لقد توقف، إنه ينتظر... إنه ينظر إليك.

ـ إنه ينظر إليك، إنه ينظر إليك! ردّد الصِبية الآخرون.

ـ أدركه إذن... واسأله هل يحب ليفة الحمام! اسأله هذا السؤال، وسترى، اسأله.

وكان ضحك شامل. نظر إليهم أليوشا، وهم نظروا إليه هو.

ـ إياك أن تذهب إليه، فسوف يقتلك... صرخ سموروف محذّراً.

ـ لن أسأله شيئاً عن ليفة الحمام لأنني أُراهن أنكم بهذه الكلمة، تسخرون منه. ولكنني سأعرف منه لماذا يكرهكم إلى هذا الحدّ...

ـ اسأله إذن، اسأله! أجاب الصِبية ضاحكين. عبرَ أليوشا الجسر، وصعد، ماراً قرب سياج الأوتاد، متجهاً إلى الصبي المعتزل.

ـ إنتبه! صاح الآخرون يحذّرونه. لن يخاف منك، وسوف يطعنك بالسكين من خلف... كما فعل بكراسوتكين.

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه. فلما اقترب منه أليوشا ، رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره لا أكثر، صبياً صغيراً هزيلاً، له وجه مستطيل، وشاحب اللون، وله عينان واسعتان سوداوان تنظران إليه بحقد. كان يرتدي معطفاً صغيراً عتيقاً أصبح صغيراً على قامته بشكل مضحك، وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمَّين. وعلى السروال، تُرى رقعة عند الركبة اليمنى. ومن ثقب فاغر في حذاء القدم اليمنى يظهر الإبهام مطلياً بالحبر من قبيل الاخفاء. وجيبا الرداء منتفختان مليئتان بالحجارة: وقف أليوشا على مسافة خطوتين منه وألقى عليه نظرة سائلة. فأدرك الصبيّ فوراً من نظرة أليوشا أنه لا يريد أن يضربه. فهدأ رويداً رويداً، ووافق على أن يكلّمه.

ـ أنا وحدي وهم ستة... ولكنني سأغلبهم كلهم. قال فجأة، والتهبت شرارات في عينيه.

قال أليوشا:

ـ لا شك أن حجراً قد أوجعك!

ـ أنا أصبت سموروف في رأسه! صاح الصبي.

ـ هم قالوا لي هناك، إنك تعرفني، وإنك ضربتني بالحجر لسبب ما. سأله أليوشا.

وجَّه إليه الصبيّ نظرة قاتمة.

ـ أنا لا أعرفك. وأنت هل تعرفني؟ سأل أليوشا.

ـ دعني وشأني! صرخ الصبيّ فجأة بصوت غاضب دون أن يتحرك من مكانه وكأنه ينتظر شيئاً ما، والتهبت عيناه بشرارات جديدة.

ـ حسناً. سأنصرف. قال أليوشا. ولكن، أنا لا أعرفك ولا أسخر منك. قالوا لي إنهم يسخرون منك، ولكن أنا، لا أريد أن أفعل ذلك، وداعاً.

وانصرف أليوشا.

ـ راهب ترتدي سروالاً من الجوخ! صاح الصبيّ متابعاً أليوشا بنظرة تحدّ مؤذية متخذاً وقفة دفاع، معتقداً بأن أليوشا لا بدَّ أن ينقضّ عليه الآن. ولكن أليوشا استدار نحوه ونظر إليه، وأكمل طريقه. فما كاد يسير ثلاث خطوات حتى تلقَّى شيئاً في ظهره فشعر بألم شديد. لقد أصابه الصبيّ بأثقل حجر كان يحمل في جيوبه.

ـ إذن، أنت تهاجم من خلف؟ صحيح إذن ما قالوه عنك. إنك تضرب كما يفعل جبان. قال أليوشا واستدار مجدداً. غير أن الصبيّ وقد استبدَّ به غضب شديد، رماه، في هذه المرة، بحجر على وجهه مباشرة، لكن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه، فأصابه الحجر في كوعه.

ـ ألا تخجل؟ ماذا فعلت لك؟ صاح أليوشا.

سكت الصبيّ وبقي جامداً في مكانه وقد بدا على وجهه الشرّ والعدوانية. كان مقتنعاً بأن أليوشا سينقض عليه، في هذه المرة، فلما رأى أنه لن يقوم بشيء من ذلك، استبدَّ به غضب مسعور كحيوان صغير فقفز من مكانه وانقضّ هو على أليوشا، وقبل أن يتسنّى لأليوشا الوقت للقيام بأي حركة ليدافع عن

نفسه، كان الصبيّ الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه، وعضَّ خنصره عضّةً عنيفة، غارساً أسنانه في لحم الإصبع بكل قواه مدة ثانيتين. صرخ أليوشا من شدة الألم، وحاول أن يسحب إصبعه. فلما أرخى الصبيّ أسنانه أخيراً، أسرع هارباً، ثم وقف على مسافة من أليوشا. كانت العضَّة قوية جداً وقد بلغت العظم. وتدفّق الدم، فأخرج أليوشا منديله وربط الجرح ربطاً قوياً حول يده المجروحة فقضى في هذا التضميد دقيقة واحدة. وفي أثناء ذلك، بقي الصبيّ واقفاً ينتظر دائماً. أخيراً، نظر أليوشا إليه نظرة لطيفة:

ـ هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في إصبعي؟ قال له. أحسب أنَّ هذا كاف، أليس كذلك؟ والآن، قل لي: بماذا أسأت إليك؟

نظر إليه الصبيّ متفاجئاً.

ـ حتى وإن كنت لا أعرفك، وهذه أول مرة أراك فيها. تابع أليوشا بلهجة هادئة دائماً. فمن المستحيل ألا أكون قد فعلت شيئاً يؤذيك. وإلا لما كنت تعتدي عليّ بدون سبب. فما هو الذنب الذي اقترفته في حقك، وبماذا أنا مذنب؟

ولكن الصبيّ، بدلاً من أن يجيب، بدأ يبكي بكاءً شديداً. وفجأة، ولَّى هارباً أمام أليوشا... وتبعه هذا الأخير على مهلٍ متّجهاً نحو شارع ميخايلوفسكي، وبقي وقتاً طويلاً يرى أمامه الصبيّ الهارب، لا يخفف سرعته، ولا يلتفت إلى وراء، ولعله ما زال يبكي بشدة. فقرر أليوشا، مهما كلَّف الأمر، أن يسعى إلى رؤية الصبيّ متى أتيحت له لحظة من حرية، ليوضح هذا السر الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً. أما الآن، فليس لديه الوقت.

IV

في منزل آل خوخلاكوف

اقترب بسرعة من منزل السيدة خوخلاكوفا، وهو منزل من حجر كانت تملكه، منزل من طابق واحد، جميل، أحد أجمل منازل مدينتنا. ورغم أن السيدة خوخلاكوفا قد سكنت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها قطعة أرض، أو أيضاً في موسكو حيث كان لها منزل خاص، فقد كانت تملك منزلاً في مدينتنا وقد ورثته من أجدادها. يجب أن نذكر مع ذلك أن قطعة الأرض التي تملكها في مقاطعتنا كانت أوسع الأراضي الثلاث التي تملكها. ومع هذا، كانت نادراً ما تأتي إلى مقاطعتنا. أسرعت تستقبل أليوشا في الرواق.

ـ هل تلقيت، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة؟ قالت فوراً بسرعة عصبية وحادَّة.

ـ تلقَّيتها.

ـ هل نقلت النبأ، هل أطلعت الجميع على الرسالة؟ لقد أرجعَ ابناً إلى أمّه!

ـ سيموت في هذا اليوم، قال أليوشا.

ـ لقد قيل لي هذا، أعرف المرض. آه، ما أشدَّ رغبتي في التحدث إليك!

إليك أو إلى أيّ شخص آخر، عن كل هذه الأمور! بل إليك، إليك أنت! خسارة لعدم وجود أيّ وسيلة لكي أراه! إنّ المدينة كلها مقلوبة رأساً على عقب، وجميع الناس ينتظرون. ولكن، الآن، هل تعلم أن كاترينا إيفانوفنا هي عندنا الآن؟

ـ هذا حظّ موفّق! صاح أليوشا. سأراها إذن عندكم، لقد أصرَّت، يوم أمس، أن أزورها في هذا النهار.

ـ أعرف كل شيء. أعرف كل شيء. لقد سمعت كل تفاصيل ما حدث عندها يوم أمس... وكلّ تلك الفظاعات مع هذه... المخلوقة! إنها فاجعة، لو أنا كنت في مكانها ـ لست أدري ماذا كنت سأفعل في هذه الحالة! ولكن، ما رأيك أيضاً في أخيك ديمتري فيودوروفتش؟ آه، يا إلهي! أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسي فيودوروفتش: تصوَّر أنّ أخاك موجود الآن معها، يعني ليس أخوك ذاك نفسه، بل الآخر الرهيب الذي فعل بالأمس ما فعل، لكن الآخر إيفان فيودوروفتش، هو الآن هنا يتحدث معها: إن حديثهما رسميّ... لو تعلم ماذا يجري بينهما الآن، أؤكد لك أنه شيء فظيع! إنها قصة فظيعة، وما من وسيلة لتصديقها: كلّ منهما يضيِّع نفسه الآن، لا يدري أحد لماذا! وهما يعرفان ذلك، ويجدان فيه لذة كبيرة، هما الاثنان. لقد انتظرتك! كنت في حاجة إلى أن أراك. يستحيل عليَّ أن أتحمَّل هذا. سأقصّ عليك فوراً كل شيء. ولكن يجب عليَّ الآن أن أقول الشيء الأساسي آه، كدت أنسى الشيء الأساسي: قل لي لماذا أصيبت ليزا بنوبات عصبية؟ ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمّت بها نوبة عصبية!

ـ ماما، أنت المصابة بنوبة هستيريا الآن، وليس أنا. زعق صوت ليزا مزقزقاً، من خلال شقّ الباب في الغرفة المجاورة. كان شقّ الباب ضيقاً جداً بينما الصوت على حدود التوتر حتى يكاد ينكسر كما يحدث حين يشعر المرء

برغبته في الضحك الرهيب لا سبيل إلى السيطرة عليها بكل ما يملك من قوة. وقد لاحظ أليوشا هذا الشق الصغير فعرف أن ليزا تنظر إليه من خلاله بدون شك، وهي جالسة على كرسيِّها، ولكنه لا يستطيع أن يراها.

ـ ليس في ذلك غرابة، يا ليزا،فمع نزواتك، أنا أيضاً، سأصاب بنوبات عصبية، ذاك يعني أنها مريضة للغاية، يا ألكسي فيودوروفتش. لقد لازمتها الحمَّى طوال الليل وكانت ترتجف! كدت أن أصبح مجنونة وأنا بانتظار الصباح لزيارة الطبيب هرزنستوب، وهو قال، إنه لم يفهم من ذلك شيئاً، ويجب علينا أن ننتظر. إن هرزنستوب هذا، كلما جاء يقول إنه لا يفهم شيئاً. ومذ اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صراخاً وأصيبت بنوبة، ثم طلبت بأن تُنقل إلى هنا، إلى غرفتها القديمة...

ـ ماما، ليس بسببه هو، أردت أن أُنقل إلى هذه الغرفة...

ـ لا، هذا ليس صحيحاً يا ليزا، إن يوليا هي التي سارعت تبلغك أن أليوشا فيودوروفتش قد وصل، وكنت قد كلَّفتها أن تترقب وصوله.

ـ ماما، حبيبتي، إن ما تقولين رهيب وليس بالأمر المضحك. ولكن أردت أن تصلحي الخطأ وأن تقولي الآن شيئاً يكون ذكياً فعلاً، فقولي، يا أمي العزيزة، إلى السيد ألكسي فيودوروفتش الذي وصل منذ هنيهة إنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يزورنا اليوم بعد الذي حدث بالأمس، وبعد أن أصبح كل الناس يسخرون منه.

ـ ليزا، أنت تبالغين حقاً! أؤكد لك أنني سأتخذ في حقك، في نهاية الأمر، تدابير قاسية. من الذي يسخر منه؟ أنا سعيدة جداً بأنّه أتى. أنا في حاجة إليه، أنا لا غنى لي عنه. آه، يا ألكسي فيودوروفتش! إنني تعيسة جداً!

ـ ماذا أصابك يا أمي اللطيفة؟

ـ إنها، دائماً، نزواتك يا ليزا، وتقلُّب مزاجك، ومرضك، وهذه الليلة

الرهيبة التي عانيت فيها الحمّى. إنه رهيب هرزنستوب هذا الأبدي، خاصة هذا الأبدي، الأبدي! ثم كل شيء، كل شيء، وحتى هذه المعجزة! آه، كم كنت متأثرة، كم كنت مضطربة، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش بما أحدثته هذه المعجزة! ثم هناك هذه المأساة التي تجري الآن في الصالون، والتي يستحيل عليّ احتمالها، يستحيل، أؤكد لك، يستحيل. إنها ملهاة وليس مأساة. قل لي: هل يعيش الراهب زوسيما حتى الغد، هل سيعيش؟ يا إلهي! ماذا يحدث لي، في كل لحظة أغمض عينيَّ أرى أنّ كل شيء هو سخافات، كل شيء، سخافات.

ـ أرجوك أن تعطيني خرقة نظيفة أربط بها إصبعي. قاطعها أليوشا فجأة. لقد جُرحت جرحاً عميقاً. وإصبعي تؤلمني بشكل فظيع الآن. كشف أليوشا عن إصبعه المعضوضة فكان المنديل ملطخاً ببقعة من الدم، فأطلقت السيدة خوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها.

ـ يا إلهي! يا لهذا الجرح! إنه فظيع!

لكن، ما إن لمحت ليزا إصبع أليوشا، من شقّ الباب، حتى فتحت الباب بدفعة قوية.

ـ أدخل إلى هنا، أدخل؛ صاحت بصوت آمرٍ صارم. والآن، كن جدّياً! يا إلهي! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذا الوقت! كان يمكن أن يفقد كل دمه يا ماما! كيف فعلت هذا وأين؟ هاتوا ماءً قبل كل شيء، هاتوا ماءً. يجب أن نغسل الجرح، ثم تغطس إصبعك في الماء البارد لتهدئة الألم، وأن تبقيها في الماء. أسرعي، أسرعي يا ماما. وهاتوا طستاً. ثم صاحت في عصبية هلّا أسرعتم! كانت ليزا في ذعر كامل، فقد أحدث جرح أليوشا في نفسها اضطراباً رهيباً.

صاحت السيدة خوخلاكوفا:

ـ سوف أستدعي هرزنستوب.

ـ سوف تقتلينني يا ماما! إن صاحبك هرزنستوب سيجيء وسيقول إنه لا يعرف شيئاً! هاتوا ماءً، هاتوا ماءً! هاتي الماء بنفسك يا أمي، بحق الله، أو قولي ليوليا أن تسرع، إنها بطيئة، ولا تستطيع أن تقوم بشيء بسرعة! أسرعي، يا ماما، أو إنني سأموت...

ـ ولكن، ليس هذا الجرح البسيط بشيء. تدخّل أليوشا وقد أقلقه خوفهما.

أسرعت يوليا حاملة الماء. فغطس أليوشا إصبعه فيه.

ـ ماما، بحق السماء، اجلبي شاشاً، واجلبي أيضاً من ذلك الماء المحرق والذي يستعمل في مداواة الجروح، كيف يسمَّى! نعم، عندك منه. عندك. أنت تعرفينه يا ماما... تلك القارورة الموجودة في غرفة نومك، في الخزانة الصغيرة، على اليمين، هناك توجد قارورة وشاش للضماد...

ـ فوراً. سأجلب كل شيء، يا ليزا، ولكن لا تصرخي، ولا تقلقي. انظري كيف يحتمل ألكسي فيودوروفتش الألم بحزم! ولكن، أين جُرحت هكذا، بهذه الفظاعة، يا ألكسي فيودوروفتش؟

وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة. وذلك ما كانت تنتظره ليزا.

ـ أجب عن سؤالي أولاً. قالت مستعجلة إلى أليوشا. أين جُرحت بهذا الشكل؟ ثم نتكلم بعد ذلك في أمر آخر. إذاً؟

وإذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التي ستنقضي إلى حين عودة الأم كانت ثمينة جداً، فقد روى لها قصة لقائه السرّي بالتلاميذ موجزاً تفاصيل كثيرة، ولكنه روى لها الأساسيّ منها بشكل واضح ودقيق ـ وبعد أن استمعت ليزا إلى كلامه رفعت ذراعيها نحو السماء:

ـ كيف أمكنك أن تتدخل في شأن صِبية فاسدين وأنت ترتدي جبّتك؟

صاحت غاضبة كأنّ من حقّها أن توبّخه. إنك لطفل صغير، إنك لصبيّ شقيّ، لأصغر صبيّ يمكن أن نتصوره! المهمّ! اسأل عن هذا الولد الشقيّ الشرير، ثم حدثني بعد ذلك في أمره، فلا شك أن في الأمر سراً. هناك شيء ثانٍ الآن. قل لي أولاً يا ألكسي فيودوروفتش: هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث في أمور لا تهمك، ولكن أن تتحدث فيها بشكل جدّي؟

ـ أنا قادر على ذلك تماماً.

الألم، أنا لا أشعر به أبداً.

ـ لأنك وضعت إصبعك في الماء. يجب تغيير الماء فوراً لأنه يسخن بسرعة، في طرفة عين. يوليا، أسرعي إلى القبو فائتيني بالثلج، وكذلك بطست آخر فيه ماء بارد. حسناً، وقد خرجت الآن؛ فلنتحدث بجدية: هل لك أن تُعيد إليَّ فوراً، أيها العزيز ألكسي فيودوروفتش، رسالتي التي بعثت بها إليك يوم أمس.

ـ فوراً، لأنَّ أمي قد تصل بين لحظة وأخرى، أنا لا أريد أن...

ـ ليست الرسالة معي.

ـ ليس صحيحاً، إنها معك. كنت متأكدة من جوابك هذا. إنها معك، في هذا الجيب! لقد تأسفت جداً على هذه المزحة الغبيّة. ردَّ إليّ هذه الرسالة فوراً! أعطنيها!

ـ تركتها هناك.

ـ لا يمكنك أن تعتبرني طفلة صغيرة، طفلة صغيرة جداً، بعد هذه المزحة الغبيَّة عن رسالتي! أرجوك أن تسامحني على هذه المزحة الغبيّة. أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها في هذا اليوم عينه، قطعاً!

ـ اليوم، هذا مستحيل. لأنني سأعود إلى الدير، ولن أرجع لرؤيتك قبل يومين أو ثلاثة وربما أربعة، لأن الراهب زوسيما...

ـ أربعة أيام؟ هذا جنون! قل لي: هل سخرت منّي كثيراً؟

ـ لم أسخر أبداً.

ـ لماذا إذن؟

ـ لأنني صدقت كل ما كتبته.

ـ أنت تهينني.

ـ أبداً. عندما قرأتها، فكَّرت فوراً بأنّ الأمور ستكون على هذا الشكل. فمتى مات الراهب زوسيما سأضطر حالاً إلى مغادرة الدير. وبعد ذلك، سأستأنف دراستي، وسأتقدم إلى الامتحانات، ومتى انتهت المهلة القانونية، سنتزوج. وسوف أحبك، رغم أنني لم يتسع وقتي لأن أفكر في الأمر ملياً، فكَّرت أنني لن أجد لنفسي زوجة أفضل منك، وقد أمرني الراهب الناسك بأن أتزوج...

ـ ولكنني مسخ، سوف يجرُّونني على الكرسي! قالت ليزا وهي تنفجر ضاحكة وقد احمرّ خداها بشدة.

ـ سأجرّ الكرسي بنفسي. وأنا مقتنع بأنك ستكونين قد شفيت من الآن فصاعداً.

ـ إنك مجنون! أجابت ليزا بعصبية. كنت أمزح فإذا بك تبني على هذا المزاح مشاريع مضحكة!... آه، هذه ماما قد رجعت في الوقت المناسب. ماما، لماذا تأخرت إلى هذا الحدّ؟ أنت دائماً تتأخرين! وهذه يوليا قد جاءت بقطعة الثلج!

ـ آه، ليزا! لا تصرخي أبداً ـ لا، لا تصرخي. أنا، إن صراخك... ماذا أفعل إذا كنت قد دسست هذا الشاش، لست أدري أين... لقد فتشت عنه كثيراً، فتشت... أتساءل أنك فعلت ذلك عمداً.

ـ لم يكن في وسعي أن أتنبأ، مع ذلك، أنه سيصل بجرح في إصبعه،

فربّما يكون صحيحاً أنني فعلت ذلك قصداً! ماما، ملاكي، إنك تقولين اليوم فكاهاتٍ ظريفة حقاً!

ـ أريد أن تكون ظريفة! لكن، ألا تفكرين يا ليزا في إصبع ألكسي فيودوروفتش وفي كل هذا! أوه، ليتك تعلم يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش مدى ما أعاني من ألم. ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني، ليس هذا الطبيب هرزنستوب وحده هو الذي يرهقني، بل كل شيء، كل شيء دفعة واحدة، ذلك هو ما لا أملك القدرة على احتماله.

ـ كفى كلاماً، يا ماما، عن هرزنستوب! تابعت ليزا بضحكة مرحة. ناوليني الشاش والماء بسرعة، ماما؛ إنه ملح الرصاص يا ألكسي فيودوروفتش. تذكرت الاسم الآن، ولكنه مفيد جداً: تصوَّري يا ماما، أنه اقتتل في الشارع مع صِبْيَة سوقيين، وأنّ صبياً قد عضّه! أليس هو نفسه صبياً صغيراً؟ ما رأيك يا ماما؟ هل يمكنه بعد ذلك أن يتزوج؟ تصوَّري هذا يا ماما؛ يريد أن يتزوج؟ أليس هذا مضحكاً، أليس هذا فظيعاً؟

وتابعت ليزا ضحكها العصبي وهي تلقي على أليوشا نظرة منكِّدة.

ـ ما هذا الذي تقولينه عن الزواج يا ليزا؟ ثم إن هذا الأمر لا يعنيك أبداً... وذاك الصبيّ، أفلا يمكن أن يكون مصاباً بداء الكَلَب؟

ـ آه، يا ماما! هل يوجد صبية مصابون بداء الكلب؟

ـ لماذا لا، يا ليزا، وكأنني قلت سخافة. من الجائز أن يكون الصبي قد عضَّه كلب مصاب بداء الكلَب، فإذا هو يعضّ بدوره كل من يقترب منه! لقد ضمدت إصبعك بشكل جيد يا ألكس فيودوروفتش. أنا، ما كان لي أن أتقنه إلى هذا الحد! أما تزال تشعر بألم، الآن؟

ـ قليلاً جداً، الآن.

ـ ألا تخاف من الماء؟ سألت ليزا.

ـ حسناً، هذا يكفي يا ليزا. صحيح أنني تسرعت عندما تكلمت عن الصبي المصاب بداء الكَلَب، فبدأتِ تستنتجين على الفور! إن كاترينا إيفانوفنا، وقد عرفت أنك الآن هنا، يا ألكسي فيودوروفتش، تلحّ على أن تراك حالاً، إنها تصرّ.

ـ آه، ماما، اذهبي إلى رؤيتها وحدك! إنه يتألم كثيراً الآن.

ـ لا، لا أشعر الآن بألم أبداً. وأستطيع أن أذهب إليها... قال أليوشا.

ـ ماذا! ستذهب! أنت إذن! أنت إذن!

ـ ولم لا؟ متى انتهيت من الحديث معها سأعود إلى هنا ثانية، فنتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم. أنا، أودّ أن أرى كاترينا إيفانوفنا بأقصى سرعة لأنني أريد أن أعود إلى الدير في أسرع وقت.

ـ ماما، خذيه، رافقيه بسرعة! وأنت، يا ألكسي فيودوروفتش، وفِّر على نفسك عناء العودة إليَّ بعد مقابلة كاترينا إيفانوفنا. عد مباشرة إلى الدير. لقد انتابني النعاس ولم أنم طوال الليل. وهناك يطيب لك المقام أكثر!

ـ أنت تمزحين دائماً يا ليزا! صحيح سأكون سعيدة جداً إذا أنت نمتِ! قالت السيدة خوخلاكوفا.

ـ لا أعرف ماذا فعلت... سأبقى معك ثلاث دقائق إذا أردتِ، بل وحتى خمس دقائق. تمتم أليوشا.

ـ وحتى خمس دقائق! خذيه بسرعة يا ماما. إنه مخلوق مسخ!

ـ ليزا! هل أصبحت مجنونة! فلنخرج يا ألكسي فيودوروفتش، إنها اليوم شديدة النزوات، وأخشى أن نثير أعصابها. ما أشقى امرأة عصبية، يا ألكسي فيودوروفتش! لكن لعلّها شعرت حقاً بحاجة إلى النوم عندما رأتكما. ماذا فعلت حتى استطعت أن تردَّ إليها النعاس بهذه السرعة؟ ذلك عمل رائع!

ـ ماما، لطيف جداً ما تقولينه الآن! أحبّ أن أقبّلك، يا أمي الحبيبة.

ـ وأنا أيضاً أقبلك، يا ليزا! قالت السيدة خوخلاكوفا لابنتها وما إن بدءا بالابتعاد حتى راحت تخاطب أليوشا بوشوشة عميقة، سرية ومضطربة، لا أريد أن أؤثّر فيك بأيّ شيء، ولن أرفع الحجاب، ولكنك سترى، أنت بذاتك، ماذا يحدث هناك. إنه شيء رهيب. إنها المهزلة العجيبة: إنها تحبّ أخاك إيفان فيودوروفتش، ثم تحاول بكل قواها أن تقنع نفسها أنها تحبّ ديمتري فيودوروفتش. شيء فظيع! سأدخل معك، وإذا لم أُطرد سأنتظر حتى النهاية.

V

هيستيريا في الصالون

لكن الحديث في الصالون كان قد انتهى: كانت كاترينا إيفانوفنا مضطربة جداً رغم أنّ في وجهها تعبيراً صارماً. وفي اللحظة التي دخل فيها أليوشا والسيدة خوخلاكوفا، كان إيفان فيودوروفتش ينهض للانصراف. كان وجهه شاحب اللون قليلاً، فينظر إليه أليوشا بقلق. والواقع هو أنه هنا يكمن الجواب عن أحد الأسئلة التي كان أليوشا يبحث لها عن جواب، أحد الأسئلة الأكثر قلقاً الذي يعذبه منذ بعض الوقت. ومنذ حوالى شهر، جرت محاولة لإقناعه، مرات عدة، ومن مصادر مختلفة أن أخاه إيفان يحب كاترينا إيفانوفنا، وبشكل خاص، كان ينوي فعلاً «خطفها» من ميتيا. وقد بدا لأليوشا، حتى الأيام الأخيرة أنّ هذا الأمر شاذ، حتى وإن كان ذلك يقلقه كثيراً. كان يحب أخويه ويخشى أن تقوم بينهما عداوة. ومع ذلك، فديمتري فيودوروفتش قد قال له مباشرة وفجأة، أمس، إن هذه الخصومة مع أخيه إيفان تسعده، وإنها تساعده، هو وديمتري، في كثير من الأمور. تساعده على ماذا؟ كان أليوشا يتساءل: أن يتزوج بغروشنكا؟ ولكن هذا الفعل اعتبره أليوشا الأخير الأكثر يأساً. كان أليوشا نفسه بالإضافة إلى كل هذا، وحتى السهرة الأخيرة عشية أمس، مقتنعاً

بدون أي شك بأن كاترينا إيفانوفنا هي أيضاً تحب أخاه ديمتري حباً جامحاً ـ ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع في نفسه عشية البارحة. بالإضافة إلى أنه كان يُخيَّل إليه، دون أن يعرف لماذا، أن كاترينا إيفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع إيفان وأنها تحب أخاه ديمتري كما هو، تماماً، رغم ما في هذا الحب من سخافة. لكن المشهد الذي جرى بالأمس مع غروشنكا قد أنبت في نفسه، فجأة، شعوراً آخر، وكلمة «هستيريا» التي استعملتها السيدة خوخلاكوفا جعلته يرتعش لأنه في تلك الليلة عينها، أثناء شبه النوم عند الفجر، قد كرر، بدون شك، في حلمه، كلمة: هستيريا! هستيريا! لقد حلم، طوال الليل، بالمشهد الذي حدث، يوم أمس، في منزل كاترينا إيفانوفنا. فعندما قالت له السيدة خوخلاكوفا بجزم إن كاترينا إيفانوفنا تحبّ في الواقع أخاه إيفان، وإنها تكذب على نفسها من قبيل الميل إلى «الهستيريا»، وتعذِّب نفسها بحب كاذب لديمتري فيودوروفتش؛ فاهتز أليوشا واضطرب متسائلاً: «ألا يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة كاملة في هذه الكلمات رغم كل شيء!». ولكن، في هذه الحالة، ما هو وضع أخيه إيفان؟ فشعر أليوشا بفطرته أن امرأة مثل كاترينا إيفانوفنا تشعر بحاجة إلى السيطرة، وهي لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة إلا على رجل مثل ديمتري ولا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة على رجل مثل إيفان، لأن ديمتري وحده (ليس على الفور طبعاً إنما بمرور الزمن) قادر على الخضوع لها. وذلك «من أجل سعادته الشخصية» (وهذا ما يتمناه له أليوشا) وليس إيفان. فإن هذا الأخير لن يقبل الرضوخ لها، ولن يوفِّر له هذا الخضوع السعادة. هذا، على الأقل، ما كان أليوشا يفكّر فيه على أساس معرفته بطباع إيفان، وعلى أساس الفكرة التي نبتت لديه عن إيفان. إذن كل هذه الترددات وكل هذه الخواطر قد تسارعت وانفجرت في فكر أليوشا في اللحظة التي دخل فيها الصالون. ثم هاجمته فكرة أخرى أيضاً بسرعة البرق يتعذر كبتها

فجأة: «فماذا لو كانت لا تحب أحداً، لا هذا ولا ذاك؟». وتجدر الملاحظة هنا إلى أن أليوشا كان يشعر بخجل من هذا النوع من الأفكار، وأنه قد لام نفسه على ذلك خلال هذا الشهر الأخير: «وماذا أعرف أنا عن الحب والنساء وكيف يمكنني أن أرى آراء من هذا النوع؟». كذلك كان يقول لنفسه مستاءً بعد كل هذه الأفكار والتوقعات، التي كانت تراوده من هذا النوع. وعلى الرغم من كل شيء كان يستحيل عليه أن لا يفكر في هذه المسائل. كان يدرك بغريزته مثلاً أن هذه الخصومة بين أخويه، الآن، هي مسألة خطيرة جداً تتعلق بها أشياء كثيرة. «فلتأكل الأفاعي بعضها بعضاً»، كذلك قال بالأمس أخوه إيفان وهو يتحدث غاضباً عن والده وعن أخيه ديمتري. معنى ذلك، أنّ أخاه ديمتري كان بنظره أفعى، وربما منذ زمن طويل؟ أفلا يمكن أن يكون قد أصبح أفعى في اللحظة التي عرف فيها أخوه إيفان كاترينا إيفانوفنا؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت، بالأمس، من إيفان على بدون إرادةٍ منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة. فكيف يمكن، والحالة هذه، أن نتكلم عن أيّ وفاق بينهما؟ أليس في هذا مزيد من أسباب الخلاف والحقد والحرب داخل الأسرة؟ ومع ذلك، أيّهما بنظر أليوشا خاصة، أحقّ بالرثاء له؟ وما الذي يجب أن يتمناه لكل منهما؟ إنه يحبّهما كليهما. ولكن، في أي مكان بين جميع هذه التناقضات المخيفة، توجد السعادة التي يتمناها للأول أو للثاني؟ يمكن للمرء أن يضيع كلياً في هذا التشوش؛ وقلب أليوشا لا يتحمّل الحيرة، لأنّ حبه يتصف دائماً بأنه حب فعال. وكان غير قادر على أن يحب بشكل سلبي. فمتى أحبّ، يبادر إلى المساعدة، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدّد لنفسه هدفاً، وأن يعرف، بشكل دقيق، ما هو خير وما هو ضرورة لكل واحد منهما، ومتى عرف ذلك، كان سهلاً عليه عندئذ أن يساعدهما معاً. ولكن، بدلاً من هدف محدد، لم يكن في ذلك إلا حيرة وتشوشاً. لقد ذُكر أمامه تعبير «هستيريا!» فكيف يؤوّل

هذا التعبير لكن ماذا كان يمكنه أن يفهم، هو، حتى في هذه الهستيريا؟ وهذا التشوش، فهو لا يفهم منه حتى الكلمة الأولى؟

ما إن لمحت كاترينا إيفانوفنا، أليوشا، حتى أسرعت تقول لإيفان فيودوروفتش الذي وقف في مكانه استعداداً للانصراف، بصوت فرحٍ وحيوي.

ـ لحظة فقط! إبق لحظة قصيرة. أريد أن أعرف رأي هذا الرجل الذي أثق به ثقة مطلقة. ثم تابعت تخاطب السيدة خوخلاكوفا: ابقي أنتِ أيضاً يا كاترينا أوسيبوفنا ـ لا تنصرفي. وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة خوخلاكوفا مقعدها أمامهما إلى جانب إيفان فيودوروفتش.

ـ هنا يوجد كل أصدقائي، كل الذين لديّ في العالم، كل أصدقائي الطيبين والأعزاء؛ بدأت تقول بحرارة، وبصوت ترتجف فيه دموع الألم الحقيقية. أحسَّ أليوشا في تلك اللحظة أنها قد تمكّنت من قلبه مجدداً.

ـ وأنت يا ألكسي فيودوروفتش، لقد كنت، بالأمس، شاهداً على تلك الفظاعة. ورأيت في أي حال كنت... أنت لم ترني في تلك اللحظة يا إيفان فيودوروفتش، أما هو فقد رآني. لست أدري، ماذا فكَّر فيّ، يوم أمس، لا أعرف شيئاً من ذلك، لا أعرف إلا شيئاً واحداً: إذا تكرر الشيء نفسه، اليوم، الآن، لكان ردّي هو الذي صدر عني بالأمس. إنك تتذكر حركاتي، يا ألكسي فيودوروفتش، وقد اعتقدت أن من واجبك أن تثنيني... (عند هذه الكلمات، احمرّ وجهها وبدأت عيناها تسطعان)، أصرّح لك يا ألكسي فيودوروفتش، أنني عاجزة عن الإذعان لأيّ شيء. واعلم، يا ألكسي فيودوروفتش، أنني أصبحت، لست أدري في هذه اللحظة إن كنت أحبه هو. بدأت أشعر نحوه بشفقة، وهذه علامة حب سيئة. إذا كنت أحبه، إذا استمريت أحبه، رغم كل شيء، فلن أشفق عليه الآن، وبالعكس، ربما سأكرهه...

أخذ صوتها يرتجف، وسطعت دموع صغيرة على أهدابها. فارتعش أليوشا: كان يفكر «أن هذه الفتاة هي نقية وصادقة و... قد أصبحت لا تحب ديمتري!».

ـ هذا صحيح، هذا صحيح! قالت السيدة خوخلاكوفا.

ـ انتظري يا عزيزتي كاترينا أوسيبوفنا! أنا لم أقل بعد الشيء الأساسي، لم أقل كلمتي الأخيرة وما قررته في هذه الليلة. أشعر أنني، ربما، اتخذت قراراً مريعاً، ولكنني أعرف أنني لن أعود عنه مهما حدث طوال حياتي بأيّ حال من الأحوال. لقد حسمت الأمر على مدى حياتي كلها. وإن صديقي المخلص الوفي، إن ناصحي النبيل الطيب الذي يقرأ ما في أعماق قلبي، إن إيفان فيودوروفتش، يؤيد رأيي بشكل كامل، ويطري على هذا القرار... وهو يعرفه...

ـ نعم، أنا أؤيد قرارك... قال إيفان فيودوروفتش بصوت خفيض لكنه حازم.

ـ أريد مع ذلك أن يقول لي أليوشا (آه. ـ سامحني يا ألكسي فيودوروفتش أنني سميّتك أليوشا) أحب أن يقول لي ألكسي فيودوروفتش، هو أيضاً، بحضور صديقيَّ هل أنا على حقّ؟

ـ أنا على يقين غريزي أنك أنت يا أليوشا أخي الحبيب (لأنك أخي الحبيب). تابعت تقول بحماسة وهي تمسك بيدها الحارة يد أليوشا الباردة. أنا أشعر أنّ قرارك وتأييدك سيعيدان الطمأنينة إلى نفسي رغم كل ما أقاسيه الآن من عذاب، لأن بعد كلامك سوف أهدأ، وأجد السلام ـ نعم، أنا أشعر بذلك!

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تطلب مني، أعرف فقط أنني أحبك.

قال أليوشا والحيرة تبدو على وجهه.

ـ لكنني أحبك بكل قلبي، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصي على سعادتي أنا...

ـ لكنني لا أفهم في هذه الأمور شيئاً... أسرع يضيف، لا يدري أحد لماذا.

ـ في هذه الأمور يا ألكسي فيودوروفتش، في هذه الأمور، الآن، الأساسيّ هو الشرف والواجب، ولست أدري ماذا أيضاً. إنه شيء أسمى وربما أسمى من الواجب عينه، يحدثني قلبي عن هذا الشعور الذي لا يُكبح ويقودني بدون لوم. باختصار، لقد اتخذت قراري: هَبْه تزوج هذه... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً) التي لن أغفر لها أبداً، أبداً؛ فأنا لن أتركه هو، على الرغم من كل شيء، حتى في هذه الحالة! لن أتركه بعد اليوم أبداً. قالت بنوع من الهيستيريا ومن الحماسة الغريبة. لن أتعلَّق بكمِّه طبعاً، ولن أشقيه بحبي أبداً، لا، بالعكس. سأنتقل إلى مدينة أخرى، حيث تريد. ولكنني سأستمر أهتم به، وأسهر عليه طوال حياتي، طوال حياتي دون كلل. فإذا أصبح تعيساً معها، وذلك أمر لن يتأخر كثيراً، فليس عليه سوى أن يعود إليّ فيجد فيَّ صديقةً وأختاً... أختاً لا أكثر، طبعاً، ذلك أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود. يجب أن يعلم، يومئذ، أنني أخت له حقاً، أخت مخلصة تحبّه وقد ضحَّت في سبيله بحياتها. سوف أحسن التصرف بحيث يعرفني أخيراً، سوف أجبره على أن يعرفني، وبعد ذلك، سيعتمد عليَّ بدون خجل! قالت وكأنها في حالة غير طبيعية. سأكون الإله الذي إليه يوجّه صلواته: ذلك أقلّ ما يجب عليه لي تكفيراً عن خيانته، وعما عانيته أمس بسببه! يجب أن يرى في جميع أيام حياته أنني مخلصة له إلى الأبد، وأنني أحفظ العهد الذي قطعته رغم أنه قد خانني...

لن أكون إلا وسيلة لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عما بنفسي) سأجعل من نفسي آلة تصنع له السعادة، وذلك طوال حياتي، طوال حياتي، وليرِ هو هذا طوال حياته! هذا هو قراري! إن إيفان فيودوروفتش يؤيدني بشكل مطلق.

كانت تلهث. وكانت تتمنَّى أن تفصح عن فكرها بشكل أرقى وأبرع، وأكثر طبيعية، لكن النتيجة دفقت بسرعة. إن المرء يحس، في كل ما قالته، اندفاع شبابها، وبقايا غضب الأمس، وحاجتها إلى تأكيد عزتها وكبريائها من جـديد. وأدركت هي ذلك، فجأة، فأظلم وجهها والتمع في عينيها تعبير شرير. ولاحظ أليوشا هذا، فأشفق عليها. وتدخَّل إيفان في تلك اللحظة قائلاً:

ـ أنا عبَّرت عن رأيي الشخصي. إن عواطف من هذا النوع كان بالإمكان أن تبدو عواطف مصطنعة هي ثمرة جهد، أمّا عندك أنت، فلا. لو تصرَّفت امرأة أخرى على هذا النحو لكانت على خطأ، أما أنت فلا. لست أدري كيف أفسّر ذلك، ولكنني ألاحظ أنك صادقة إلى أبعد حدّ، ولهذا السبب أنت على صواب...

ـ لكن، فقط هذه الدقيقة... وما هي هذه الدقيقة؟ إنها فقط إهانة الأمس ـ هذا ما تعنيه هذه الدقيقة! قالت فجأة السيدة خوخلاكوفا التي لم تعد تحتمل. وكان واضحاً أنها لم تكن تريد أن تقحم نفسها في المناقشة، ولم تعد قادرة على أن تكبح نفسها، فأفلتت منها فجأة هذه الفكرة السديدة.

ـ نعم، نعم، قال إيفان بعنف وقد بدا عليه الغضب واضحاً. نعم، لكن لدى امرأة أخرى، فهذه الدقيقة ليست سوى تعبير الأمس، وفقط دقيقة واحدة، ومع مزاج امرأة لها طبع كاترينا إيفانوفنا، فهذه الدقيقة سوف تستمر طوال حياتها؛ وذلك بالنسبة إلى الآخرين ليس إلا وعداً وبالنسبة إليها واجباً. إنها ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها! إن حياتك، يا كاترينا إيفانوفنا، ستنقضي، بعد اليوم، في تأمل أليم لمشاعرك الخاصة، وبطولتك وشقائك،

وبعد ذلك، فهذا الشقاء ستخف وطأته بمرور الزمن، ولن تكون حياتك إلا التأمل الهادىء لمشروع جريء فيه كبرياء. أُنجز نهائياً مشروع ملؤه الكبرياء، ولكن، فيه يأس، على كل حال؛ وسوف تنتصرين. سيملأك هذا الشعور أخيراً بغبطة قصوى، ويصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك...

هذا ما قاله بلهجة حازمة فيها غضب واضح مقصود. وربما لأنه لا يريد أن يخفي نيَّته، أي كان يقول ذلك عمداً وللسخرية.

ـ يا إلهي، كل هذا خطأ، كل هذا! هتفت مجدداً السيدة خوخلاكوفا.

ـ ألكسي فيودوروفتش! هلَّا قلت رأيك! إنني أشعر بحاجة تعذبني إلى معرفة رأيك. قالت كاترينا إيفانوفنا واغرورقت عيناها بالدموع فجأة.

نهض أليوشا عن ديوانه.

ـ ليس هذا بشيء، ليس هذا بشيء! تابعت وهي تبكي. إنها الصدمة، إنها ليلة أمس. ولكنني بحضور صديقين مثلكما، أنت وأخيك، أشعر بأنني ما زلت قوية... لأنني أعرف أنكما لن تتخليا عني أبداً...

ـ مع الأسف؛ منذ الغد، سأضطر أن أعود إلى موسكو، وأن أتركك فترة طويلة... قال إيفان فيودوروفتش فجأة.

ـ غداً إلى موسكو! قالت كاترينا إيفانوفنا وانقبض وجهها بكامله؛ فجأةً، ولكن... يا إلهي، ما هذا الحظّ! وقد تغيّر صوتها كلياً، وفي لحظة، طردت دموعها، في لحظة، ولم يعد لها أيّ أثر.

وفي الواقع، في خلال لحظة حدث هذا التغيّر الذي أدهش أليوشا: إن الفتاة المسكينة المهانة التي كانت تبكي منذ برهة، وهي في حالة من الهستيريا، قد حلَّت محلّها، فجأة، امرأة تسيطر على نفسها كلياً. وكانت تبدو سعيدة للغاية، مما لا يُعرف لماذا، وكأنّ شيئاً أحدث فيها لذة قصوى.

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهي تبتسم بتهذيب:

ـ أوه، الحظّ، ليس ذلك لأنني أتركك، طبعاً لا. إنّ صديقاً مثلك لا يمكن أن يفكر في شيء كهذا. بالعكس: إنني تعيسة حين أتصوَّر أنني سأفقدك (واندفعت نحو إيفان فيودوروفتش، فأمسكت يديه وشدَّتهما بعاطفة ملتهبة). لا، الحظّ، هو أنك أنت شخصياً ستوضح لخالتي ولأختي أغاتا، في موسكو، الوضع الذي أنا فيه، وفظاعة الأيام التي أعيشها هنا، فأمّا مع أغاتا، فبصراحة وأمّا مع خالتي العزيزة فبشيء من المداراة. لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته، أمس، وهذا الصباح من عذاب وأنا أتساءل كيف أكتب إليهما هذه الرسالة الرهيبة... لأنه من المستحيل على المرء أن يروي هذه الأشياء في رسالة... أما الآن، فقد أصبح الأمر سهلاً لأنك ستكون عندها شخصياً وتشرح لها كل شيء. آه، كم أنا سعيدة! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحي. وإنك تعرف أنت أيضاً بنفسك، على كل حال، ما من شيء يمكن أن يحل عندي محلَّ صداقتك... سأكتب الرسالة حالاً. وأنهت كلامها فجأة وهي تتجه نحو باب الغرفة.

فصاحت السيدة خوخلاكوفا وفي كلماتها لهجة لاذعة غاضبة:

ـ وأليوشا؟ ورأي أليوشا فيودوروفتش الذي كنت تحرصين على سماعه؟

ـ لم أنسه. قالت كاترينا إيفانوفنا قاطعةً حركتها.

ـ ولماذا تظهرين لي الآن كل هذه العداوة يا كاترينا أوسيبوفنا؟ سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة وحميميّة.

ـ إنني أؤكد ما قلته. لا غنى لي عن رأيه. وأكثر من هذا: أنا بحاجة إلى قراره! وسأفعل ما يقول. فانظر يا ألكسي إلى أيّ مدى أنا في ظمأ إلى سماع كلامك... ولكن، ماذا بك؟

ـ ما كان لي أن أصدّق هذا في يوم من الأيام! ما كان لي أن أتصوَّر هذا! صاح فجأة أليوشا بصوت أليم.

ـ ماذا، إذن؟

ـ هو، يسافر إلى موسكو، وأنت تقولين إنك سعيدة ـ وقد قلت هذا عمداً! ثم، فوراً، استدركت تؤكدين له أنك لست مسرورة لرحيله، وأنك، على عكس ذلك، يحزنك فقده... وهذا أيضاً قلته عمداً... كما في المسرح، كما لو كنت تمثلين كوميديا!...

ـ كما في المسرح؟ كيف؟ ماذا يعني هذا؟ سألت كاترينا إيفانوفنا بحرارة وقد بلغت ذروة الدهشة مقطبةً حاجبيها.

ـ ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمانك من صديق، رغم كل شيء، وتصرحين أمامه أنّ من حظّه الذهاب إلى... استأنف أليوشا وقد ضاق نَفَسه. وكان واقفاً أمام الطاولة ولم يجلس.

ـ إلى ماذا تريد أن تصل؟ إنني لا أفهم...

ـ وأنا أيضاً، لا أفهم... لقد اتضحت لي الحقيقة فجأة كأنما في ضوء برق. وتابع أليوشا كلامه بصوت مرتجف ولاهث

ـ أعرف أنه من غير المستحسن أن أقوله، ولكنني سأقول كل شيء مع ذلك. إليك ذلك الضوء الذي رأيته: إنك لا تحبين أخي ديمتري، وربما ما أحببته منذ البداية... ثم إن ديمتري أيضاً لا يحبك أبداً، كما أظن... لا هو يحبك الآن ولا هو أحبك في الماضي. إنه يحترمك فحسب... أقسم لك، لست أدري ما الذي يجيز لي أن أكلمك على هذا النحو. ولكن، لا بدَّ أن يقول أحد الحقيقة أخيراً... ما دام لا يريد أحد هنا أن يقول الحقيقة...

ـ أيّ حقيقة؟ صاحت كاترينا إيفانوفنا بصوت هستيري.

ـ إليك الحقيقة! تمتم أليوشا وهو يحسُّ أنه يسقط من فوق سطح منزل.

استدعي حالاً ديمتري ـ وأنا أعرف كيف أعثر عليه ـ استدعيه إلى هنا. وليتناول يدك فيضعها في يد أخيه إيفان، فتجمعهما يداك، لأنك تعذبين إيفان، وذلك لأنك تحبينه... إنما تعذبينه لشغفك بالهيستيريا... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لديمتري... وتحاولين أن تقنعي نفسك به...

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام وسكت.

ـ أنت... أنت... لست سوى ساذج من القرية... هذا هو أنت! قالت فجأة كاترينا إيفانوفنا وقد اصفرَّ وجهها، وظهر على شفتيها الغضب. فراح إيفان فيودوروفتش يضحك، ونهض من مكانه حاملاً قبعته بيده.

ـ أنت مخطىء يا عزيزي أليوشا. قال وقد بدا على وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك أبداً، تعبير يفيض صدقاً مثل صدق المراهقين، ويفيض صراحة منطلقة على سجيّتها. إن كاترينا إيفانوفنا ما أحبتني أبداً! وكانت تعرف دائماً أنني أحبها. أنا، رغم أنني لم أحدّثها عن حبّي إطلاقاً ـ كانت تعرف ذلك، ولكنها لم تحبني. لا، ولا كنت صديقها في يوم من الأيام: هذه المرأة المزهوَّة لم تكن في حاجة إلى صداقتي. لقد احتفظت بي إلى جانبها لكي تنتقم. انتقمت مني، نعم، مني أنا، لجميع الإذلالات التي أنزلها فيها ديمتري منذ أول لقاء بينهما... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد احتفظت بها في قلبها وكأنها إهانة. هذا هو قلبها! وأنا، كل ما فعلته خلال ذلك الوقت هو أنني استمعت إليها تحدثني عن حبها له. والآن، سأنصرف. لكن اعلمي يا كاترينا إيفانوفنا أنك لا تحبين في الحقيقة إلا هو. وكلّما أذلَّك كلَّما أحببته أكثر فأكثر. وفي هذا يكمن شعورك بالهستيريا. فأنت، تحبينه كما هو، تحبينه عندما يهينك. ولو أصلح نفسه ستتخلَّين عنه فوراً ولن تحبينه أبداً. ولكنك بحاجة إليه لكي تتأملي باستمرار وفاءك البطولي، ولكي تتهميه بالخيانة. وذلك كلّه نتيجة تكبرك. إنّ ههنا الكثير من المذلة والمهانة، وذلك يعود

إلى تكبرك... ما زلت شاباً، ولقد أحببتك جداً. والآن، أعرف أنّ ابتعادي صامتاً أحفظ لكرامتي أنا، وأخفّ وطأة على إذلالك أنت. ولكنني سأذهب بعيداً، ولن أعود أبداً. سأرحل نهائياً... إنني لا أحسن التعبير الآن. لقد قلت كل شيء... وداعاً يا كاترينا إيفانوفنا. وليس من حقك أن تؤاخذيني لأنني عوقبت مئة مرة أكثر منك: حسبي عقاباً أنني لن أراك بعد اليوم أبداً. وداعاً! لست بحاجة إلى مصافحتك. لقد آلمتني إيلاماً فيه من الوعي ما يجعلني لا أستطيع أن أسامحك في هذه اللحظة. سأسامحك فيما بعد، أما الآن، فلست بحاجة إلى أن أصافح يدك.

بالشكر يا سيدتي لا أحفل.

قال هذا البيت من الشعر مع ابتسامة جامحة، مبرهناً على نحوٍ لم يكن في الحسبان، أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ شيللر، وأن يحفظ أبياتاً من شعره عن ظهر قلب، وذلك ما كان لأليوشا أن يصدّقه من قبل. وخرج من الغرفة حتى دون أن يودّع سيدة المنزل، السيدة خوخلاكوفا. ورفع أليوشا ذراعيه إلى السماء.

ـ إيفان! صاح. إرجع يا إيفان! لا، لا، لن يعود الآن مهما يكن الثمن! قال مجدداً، واضحاً في ألمه. لكنني، أنا، أنا المخطىء، أنا الذي بدأت! لقد تكلم إيفان بغضب. كان غير محقّ وغضوباً... صاح أليوشا وكأنه نصف مجنون.

وفجأة انتقلت كاترينا إيفانوفنا إلى الغرفة المجاورة.

وتمتمت السيدة خوخلاكوفا تقول بصوت سريع متحمس:

ـ لم تقل شيئاً، كان كلامك لطيفاً مثل ملاك. سأبذل كل جهدي لكي لا يسافر إيفان فيودوروفتش...

وأشرق الفرح على وجهها، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد: ولكن

كاترينا إيفانوفنا رجعت فجأة، حاملة في يديها ورقتين نقديتين كلّ منهما بمئة روبل.

ـ لي عندك رجاء كبير، يا ألكسي فيودوروفتش. قالت تخاطب أليوشا مباشرة بصوت هادىء ورصين. منذ أسبوع، نعم، منذ أسبوع، على ما أعتقد قام ديمتري فيودوروفتش بارتكاب عمل طائش وغير لائق وفاضح للغاية. يوجد هنا مكان مشبوه هو نوع من «خمارة» التقى فيه ضابطاً متقاعداً، هو ذلك النقيب الذي يستعين به والدك في بعض أعماله. ولست أدري لماذا غضب ديمتري فيودوروفتش من هذا النقيب فأمسكه من لحيته وجرَّه إلى الخارج على مرأى من جميع الناس، وراح يضربه ضرباً مبرحاً مدة طويلة. وقال الذين شهدوا الحادث إن ابن هذا النقيب وهو تلميذ في مدرسة المدينة، صبي صغير فيما يبدو، أخذ يركض إلى جانب أبيه باكياً متوسلاً إليه أن لا يؤذي أباه، متضرعاً إلى الجميع أن يتدخلوا لحماية أبيه، ولكن الجميع كانوا يضحكون. سامحني يا ألكسي فيودوروفتش! ولكنني لا أستطيع إلا أن أشعر باستياء شديد حين أتذكر هذا العمل المخجل الذي اقترفه، ذلك العمل الذي لا يقدم عليه أحد غير ديمتري فيودوروفتش، بغضبه وبأهوائه الجامحة... بل إنني أعجز عن رواية هذه الحادثة، لا أستطيع... لذا أرتبك في كلامي، وقد سألت عن هذا البائس فعرفت أنه رجل فقير جداً يدعى سنيغيريوف. لقد ارتكب، لست أدري أي غلطة أثناء خدمته في الجيش، فسُرّح، لست أدري تماماً. والآن، هو وعائلته البائسة، أولاده المرضى وزوجته المجنونة فيما أظنّ، أصبحوا في حالة رهيبة من الفقر. إنه يعيش في هذه المدينة منذ فترة طويلة. لست أدري ماذا يعمل. لقد عمل كاتباً، والآن، فجأة، قطعوا عنه راتبه. عندئذ، خطرت أنت ببالي... أو إنني فكرت أن ـ لا أدري ماذا دهاني، فأنا مرتبكة ـ أردت أن أرجوك، يا ألكسي فيودوروفتش، يا عزيزي الطيب، ألكسي فيودوروفتش، أن تذهب إلى

هذا الرجل، أن تفتش عن ذريعة لكي تراه، أقصد هذا النقيب ـ يا إلهي! إنني مرتبكة ـ وبلطف وباحتراس ـ كما لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمرَّ وجـه أليوشا فجأة) أن تعطيه هذه المساعدة هاتين المئتين من الروبلات. إنه سيقبل هذه المساعدة بدون شك... أقصد أن عليك أن تلحّ في سبيل أن يقبلها... هل فهمت ما أقصده؟ ولكن، لا، يجب أن تشرح له أن الأمر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره إلى القضاء (يبدو أنه يريد أن يشكو أمره إلى القضاء) وإنما هو شعور بالمودة له، ورغبة في المساعدة، وليعلم أن هذا المبلغ هو منّي أنا، مني أنا، أي من خطيبة ديمتري فيودوروفتش، وليس منه هو نفسه.. باختصار: ستعرف كيف تتصرف... كان بالإمكان أن أذهب إليه أنا، ولكني أعرف أنك ستتدبّر الأمر خيراً منّي. إنه يسكن في شارع أوزرنايا، في منزل امرأة ثرية هي كالميكوفا... اصنع لي هذه الخدمة يا ألكسي فيودورفتش، بحق السماء. والآن، الآن أنا متعبة... إلى اللقاء....

واستدارت، فجأة، واختفت مجدداً بسرعة وراء الباب، فلم يتسع الوقت لأليوشا حتى لقول كلمة واحدة ـ وكان لديه ما يقوله لها ـ كان يريد أن يستغفرها، أن يعتذر إليها، أن يتّهم نفسه أمامها، لأنّ قلبه كان ثقيلاً، فلم يرد الخروج من الغرفة دون أن يكلّمها. ولكن السيدة خوخلاكوفا أمسكته من ذراعه وقادته إلى الخارج، ثم توقفت في الرواق، كما فعلت للمرة الأولى.

– إنها متكبرة، إنها تصارع نفسها، ولكنها لطيفة رائعة وكريمة! قالت له السيدة خوخلاكوفا موشوشةً. آه، كم أحبها، ولا سيما في بعض اللحظات، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد، وكم أنا سعيدة بكل شيء، الآن، مجدداً، بكل شيء، نعم، نعم بكل شيء! وأنت يا ألكسي فيودوروفتش الطيب، لم تكن على علم بكل شيء؟

ـ إعلم أننا جميعاً، جميعاً، ـ أقصد أنا وخالتيها ـ أي جميعاً، وحتى ليزا،

منذ أكثر من شهر إلى الآن، كانت لدينا رغبة واحدة، صلاة واحدة؛ هي أن تقطع صلتها بديمتري فيودوروفتش المفضَّل لديك، لأنه لا يريدها، ولا يحبها أبداً؛ وأن تتزوج إيفان فيودوروفتش المثقف الرائع الذي يحبها أكثر من أيّ شيء في العالم. حتى لقد دبَّرنا مؤامرة هنا لهذه الغاية، ولعلّ ذلك أيضاً هو السبب في أنني بقيت هنا...

ـ ولكنها بكت، وقد انتابتها تجربة ثانية! صاح أليوشا.

ـ لا تصدِّق دموع النساء يا ألكسي فيودوروفتش ـ أنا دائماً ضد النساء في مثل هذه الحالة. أنا منحازة إلى الرجال.

ـ ماما، إنك تفسدينه بالدلال إنك تؤدين به إلى الهلاك! جاء صوت ليزا الشحيح من وراء الباب.

ـ لا، أنا سبب كل شيء. أنا المذنب الرديء! ردَّد أليوشا الحزين وهو يشعر بخزي معذّب من غضبته وخجله وهو يخفي وجهه بيديه.

ـ بالعكس: لقد تصرَّفت كملاك، كملاك، وأنا مستعدة أن أردد هذا ألف وألف مرة. أملّ من تكرار هذا...

ـ ماما، لماذا تصرف مثل ملاك؟ ردَّد صوت ليزا الخفيف.

ـ لا أعرف لماذا. وأنا أنظر إليهما، بدا لي فجأة أنها تحب إيفان، فقلت هذه الحماقة... ما عسى أن يحدث الآن!

ـ عمَّن تتكلّمان، عمَّن؟ قالت ليزا. إنك تقتلينني يا ماما! أطرح عليك سؤالاً ـ فلا تجيبينني.

وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة مسرعة:

ـ السيدة كاترينا إيفانوفنا في حالة سيئة... السيدة تبكي... إنها ترتجف كثيراً وكأنها في نوبة عصبية.

فصاحت ليزا بصوت قلق هذه المرة:

ـ ماذا يحدث؟ ماما، أنا التي سأصاب الآن بنوبة عصبية وليس هي.

ـ ليزا، بحق السماء! لا تصرخي، لا تقتليني! إن عمرك لا يسمح لك بعدُ أن تعرفي ما يعرفه الكبار. سأجيء إليك فوراً ـ فأطلعك على كل ما يمكن أن أطلعك عليه.

يا إلهي. أنا ذاهبة، أنا ذاهبة... نوبة عصبيّة ـ ولكن هذه علامة جيدة يا ألكسي فيودوروفتش! رائع أن تنتابها نوبة عصبية. هذا ما يجب أن يحدث. أنا أقف دائماً ضدّ النساء في مثل هذه الحالات، ضد كل هذه النوبات العصبية والدموع النسائية. أسرعي وقولي لي إنني آتية إليها فوراً. على كل حال، ليس عليها إلا أن تحمِّل نفسها تبعة خروج إيفان فيودوروفتش على ذلك النحو! ولكنه لن يسافر. ليزا، بحق السماء لا تصرخي! صحيح أنك لا تصرخين. فأنا التي أصرخ. سامحي أمك المسكينة، ولكنني سعيدة، سعيدة، سعيدة! هل لاحظت يا ألكسي فيودوروفتش كم كان وجهه فتياً، إيفان فيودوروفتش، حين تكلّم وحين خرج مجدداً! كنت أعتقد أنه عالم وأكاديمي، ثم ها هو يكشف فجأة عن أنه شاب حقاً، حار القلب، صادق النفس، مليء بنضارة الشباب، وهو قليل التجربة... ما أروع هذا، ما أجمله، هو مثلك تماماً... وهذا البيت من الشعر باللغة الألمانية الذي ألقاه، هذا أنت أيضاً! أنا ذاهبة، أنا ذاهبة. أسرع يا ألكسي فيودوروفتش، قمْ بالمهمة، ثم عد إلى هنا بأقصى سرعة. ليزا، هل أنت في حاجة إلى شيء؟ بحق السماء، لا تؤخّري ألكسي فيودوروفتش ولو دقيقة أخرى، سيعود إلى رؤيتك بعد لحظة...

وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة. وحاول أليوشا قبل ذهابه أن يفتح باب ليزا.

ـ أبداً! صاحت ليزا. الآن، أمنعك من الدخول! تكلّم من الجهة الأخرى من خلف الباب. لماذا أصبحت ملاكاً؟ هذا كل ما أريد معرفته.

ـ من أجل سخافة غبيّة، يا ليزا، وداعاً.

ـ أمنعك أن تذهب هكذا! صاحت ليزا.

ـ إنّ بي حزناً غاية في الجديّة! سأعود حالاً. إنّ عذابي كبير، كبير جداً!

وخرج من الغرفة مسرعاً.

VI

هستيريا في مسكن خشبي

كان، في الواقع يعيش تعاسة جدية للغاية، تعاسة لم يشعر بمثلها إلا نادراً. لقد تفجَّر «وارتكب حماقة»، وفي أيّ موضوع: في مشاعر الحب! ولكن، ماذا أفهم في هذا الأمر، وماذا أستطيع أن أدرك في مثل هذه الشؤون؟ ردّد في نفسه للمرة المئة وهو يحمرّ خجلاً. ليس العار الذي أشعر به شيئاً يذكر، فالعار هو العقاب الذي أستحقه والتعاسة هي أنني سأكون الآن سبباً لآلام عديدة... لقد أرسلني الراهب الناسك إلى العالم لأوحِّد وأصالح، وهل بهذه الطريقة يكون التوحيد؟ وفجأة، تذكّر كيف «وحَّد اليدين»، وابتلى مجدداً بعار رهيب «لعلَّني كنت صادقاً عندما فعلت هذا وينبغي أن أكون أكثر ذكاءً في المستقبل». استنتج فجأة، ولم يبتسم لاستنتاجه.

إن المهمة التي كلّفته بها كاترينا إيفانوفنا كانت أن يذهب إلى شارع أوزرنايا. في حين يسكن أخوه ديمتري ، في وسط الطريق، ليس بعيداً عن شارع أوزرنايا، في زقاق ضيّق. فقرر أليوشا أن يزوره قبل أن يذهب إلى النقيب رغم إحساسه بأنه لن يجد أخاه. كان يشعر أنّ هذا الأخير سيحاول أن يتجنَّبه بعد اليوم، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلَّف الثمن. والوقت يمضي.

وفكرة الراهب الناسك الذي يحتضر لم تبارحه دقيقة واحدة، ثانية واحدة، منذ اللحظة التي خرج فيها من الدير.

وقد برزت حالة أخرى في مهمَّة كاترينا إيفانوفنا، حالة هي أيضاً أثارت انتباهه بشكل قويّ: عندما تحدثت كاترينا إيفانوفنا عن الصبي الصغير، تلميذ المدرسة، ابن ذاك النقيب، الذي كان يركض إلى جانب أبيه باكياً، خطرت ببال أليوشا فوراً فكرة أنّ هذا الصبي يجب أن يكون التلميذ الذي عضّه في إصبعه، حين سأله أليوشا، فيمَ أساء إليه. وأصبح أليوشا الآن شبه متأكد من ذلك دون أن يعرف هو نفسه لماذا. وقد أبعدته هذه التأملات لحظة عن همومه، قرّر ألّا «يفكّر» في «التعاسة» التي كان هو سببها، وألّا «يعذِّب» نفسه بحسرات عقيمة، وإنما يعمل ما يجب أن يعمل، ويرى كيف ستجري الأمور. لقد نشطته هذه الفكرة نهائياً. فلما دخل في الزقاق المؤدي إلى حيث يسكن أخوه ديمتري، وأحسَّ أنه جائع، أخرج من جيبه قطعة الخبز التي أخذها من عند والده، فأكلها وهو في طريقه، فاستردّ بعضاً من قواه.

كان ديمتري غائباً. أصحاب المنزل الصغير ـ وهم نجّار عجوز وابنه وزوجته العجوز الصغيرة ـ بدأوا يحدجون أليوشا بنظرات ملؤها الشك. «إنه لم يبت هنا منذ ثلاثة أيام. فلعلَّه سافر. اذهب واستعلم عنه». أجاب العجوز عن أسئلة أليوشا الملحَّة. فعرف أليوشا أنه يجيب تنفيذاً لأوامر. أتراه عند غروشنكا؟ أم هو مختبىء عند فوما؟ سأل أليوشا مرة أخرى متعمداً أن يذكر هذه المعلومات السرّية.

ولكن أصحاب المنزل رموه بنظرة مذعورة. فقال أليوشا لنفسه: «هم يحبونه، إنهم ينحازون إليه، وهذا أفضل».

ووصل، أخيراً، إلى شارع أوزرنايا، أمام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كاليكوفا البورجوازية، وهو بيت صغير متداعٍ، انحنى تحت ثقل السنين، وله

ثلاث نوافذ تطل على الشارع، وفناء موحل، توجد في وسطه بقرة وحيدة. يتمّ الدخول إلى الفناء عبر رواق صغير؛ وإلى يسار الرواق تسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها، وكلتاهما صمّاوان. فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن النقيب عدة مرات. وفهمت إحداهما، أخيراً، أن أليوشا إنما يسأل عن الرجل الذي يسكن في منزلهما مستأجراً فأومأت بإصبعها نحو الجهة الأخرى من الرواق مشيرةً إلى الباب المطلّ على المسكن الخشبي عينه. ولم يكن مسكن النقيب، في الواقع، سوى مسكن خشبي بسيط.

وضع أليوشا يده على القبضة الحديدية لكي يفتح الباب، وفجأة، ذُهل من الصمت غير العادي الذي يخيّم في الجهة الأخرى. لقد كان يعرف مما قالته له كاترينا إيفانوفنا أنّ للنقيب عائلة. فقال في نفسه: «إنهم نائمون كلهم، أو ربَّما سمعوا أنني هنا، فهم ينتظرون دخولي، فمن الأفضل أن أطرق الباب مرة أخرى». وطرق الباب. فسُمع جواب، ولكن ليس على الفور ـ إنما بعد نحو عشر ثوانٍ.

ـ من الطارق؟ صاح أحدهم بصوت جهوري ملؤه الغضب.

ففتح أليوشا، عندئذ، الباب واجتاز العتبة. فوجد نفسه في مسكن خشبي واسع جداً، ولكنه مزدحم بالأشخاص وبكل أنواع بقايا الأمتعة. فعلى اليسار مدفأة روسية كبيرة، ومن المدفأة حتى النافذة اليسرى رُبط حبل عُلِّقت عليه أنواع من الملابس الداخلية. وعلى طول الجدارين الجانبيين، من اليمين ومن اليسار، وُضع سريران فوق كلٍّ منهما غطاء من نسيج التريكو. أما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندي، بعضها أصغر من البعض الآخر. وعلى السرير الآخر، إلى الجهة اليمنى، فليس عليه إلا وسادة واحدة صغيرة. وفي زاوية ضيقة تفصلها عن الغرفة ستارة، أو قطعة قماش، مشدودة بحبل أيضاً قد جُهزت زاوية لسرير ثالث. وخلف الستارة

يوجد سرير مرتَّب على بنك وكرسيّ. وتحت النافذة الوسطى طاولة فلاحية مربَّعة وبسيطة. والنوافذ الثلاث، تتألف كل واحدة منها من مربعات صغيرة خضراء تغطِّيها العفونة، ولقد كانت مغلقة على كل حال، فالغرفة معتمة، بسبب ذلك، يشعر فيها المرء بالاختناق. وعلى الطاولة قدر ذات مقبض وصحفة فيها بقايا بيض، وقطعة خبز ناقصة وزجاجة خمر تكاد تكون فارغة. وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شيء من مظهر سيدة، ترتدي ثوباً من قماش هندي. كانت ناحلة الوجه جداً، لها خدان خاسفان جداً ينبئان، للوهلة الأولى، بحالتها المرضية. وقد فوجىء أليوشا خاصة بنظرة السيدة وهي نظرة تنمّ عن تساؤل وغطرسة في آن. وبينما كان أليوشا يتحدث مع سيد المنزل، لم تفتح السيدة فمها، لم تكفَّ لحظة عن أن تتابع بعينيها الرماديتين المتكبرتين والمتسائلتين، الرجلين كليهما اللذين يتحدثان. وبالقرب من هذه السيدة، عند النافذة اليسرى تقف فتاة شابة دميمة الوجـه، شعرها أصهب وخفيف، ترتدي ثياباً فقيرة ولكنها محتشمة جـداً، كانت تنظر إلى أليوشا باحتقار. وعلى اليمين، قرب السرير أيضاً، كانت تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة، فتاة في العشرين من عمرها، حدباء الظهر مشلولة الساقين. كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد. وتُرى عكازتاها في الزاوية بين السرير والحائط. عيناها رائعتان ملؤهما الطيبة وهي تلقي على أليوشا نظرة هادئة متواضعة. وهذا رجل في نحو الخامسة والأربعين قد جلس إلى الطاولة ينتهي من أكل بيضة مقلية، نحيل الجسم، ضعيف البنية، متوسط القامة، أصهب اللون، ولحيته الصهباء أيضاً شبيهة بليفة عتيقة. (إن هذا الشبه بين اللحية و«ليفة مصفرَّة» قد خطفا بصر أليوشا فوراً دون أن يعرف لماذا؛ كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعد). ومن الواضح أنَّه ذلك الرجل الذي صاح من الجهة الأخرى للباب: «من هنا»؟

ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل آخر. وعندما دخل أليوشا نهض عن الطاولة بحركة مفاجئة وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقَّبة، تقدَّم نحو أليوشا مسرعاً.

ـ هذا راهب يجمع الصدقات لديره. لقد عرف إلى أين يأتي! قالت الفتاة الواقفة في الزاوية اليسرى بصوت عالٍ. ولكن الرجل الذي اقترب من أليوشا استدار نحوها بسرعة وأجابها بصوت قلق و«محوزق»:

ـ لا، يا فارفارا نيكولايفنا، ليس هذا هو الأمر. لقد أخطأتِ! ثم تابع كلامه ملتفتاً إلى أليوشا مجدداً: اسمح لي أن أسألك ما الذي دفعك إلى زيارة... هؤلاء البؤساء؟

نظر إليه أليوشا بانتباه. إنها المرة الأولى التي يرى فيها هذا الرجل. إنَّ في مظهره وقاحة قصوى وفي الوقت نفسه جبناً شديداً. إنه يشبه إنساناً اضطر زمناً طويلاً إلى احتمال الذل والخضوع، ولكنه يهبّ الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد. أو الأحرى إنه رجل يشعر برغبة رهيبة في أن يضربك ولكنه يخاف من أن يُضرب هو نفسه. إن المرء يسمع في كلامه وفي نبرات صوته الحادة، نوعاً من سخرية ساذج من القرية تارة شريرة وتارة وجلة، فهو غير قادر على أن يجريها على نمط واحد حتى لتنهار في بعض اللحظات. لقد ألقى سؤاله عن «البؤساء» وهو يرتجف بكل جسده، محملقاً عينيه، قافزاً باتجاه أليوشا الذي تراجع خطوة إلى الوراء بشكل آليّ. كان الرجل يرتدي سترة قطنية قاتمة اللون، مرقَّعة في مواضع كثيرة ومليئة بالبقع. أما سرواله فهو فاتح اللون جداً، عليه أشكال مربعة، من نوع لا يرتديه أحد منذ زمن طويل، ومن نسيج رقيق، قد تجعَّد أدناه فكأنّ صاحبه صبيّ طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال قصيراً عليه.

ـ أنا... ألكسي كارامازوف... أجاب أليوشا.

ـ لي شرف معرفتك. أجاب الرجل ليبرهن على أنه لا يجهل شخصية

الزائر. أنا أيضاً النقيب سنيغيريوف. ولكن هل لي أن أعرف ما الذي جاء بك على وجه التحديد...

ـ إنني أمرّ من هنا فقط. كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمي شخصياً إذا كنت لا تمانع في ذلك...

ـ إذن، إليك هذا الكرسيّ! تفضّل فاجلس. أليس هذا ما يقال في المسرحيات الكوميدية القديمة «تفضَّل فاجلس»... وتناول النقيب كرسياً بحركة عنيفة (كرسيّ فلّاحي من الخشب الخام بسيط جداً) فوضعه في منتصف الغرفة تقريباً، ثم تناول كرسيّاً آخر مشابهاً فجلس عليه أمام أليوشا مستمراً في النظر إليه بحدَّة وقريباً منه بحيث تلامست ركبهما.

ـ إسمي نيكولاي سنيغيريوف، نقيب سابق في سلاح المشاة في الجيش الروسي. وسأظلّ نقيباً رغم عيوبي ورذائلي. أريد، بالأحرى، القول: النقيب لابيين وليس سنيغيريوف لأنني في الشطر الثاني من حياتي بدأت بالإدمان، وتلك عادة ناشئة عن الانحطاط.

ـ هذا صحيح! قال أليوشا مبتسماً. ولكن، هل ذلك هو سبب أم نتيجة؟

يشهد الله عليَّ أنها نتيجة. لقد صمدت طوال حياتي وفجأة سقطت ثم نهضت. وذلك بتأثير إرادة عليا. أراك تهتم بمسائل الحياة الحديثة، فهل لي أن أعرف السبب الذي جعلني أستحق شرف زيارتك؟ إنني أعيش هنا في ظروف لا تؤهلني للقيام بواجبات الضيافة.

ـ لقد جئت... لهذا الغرض...

ـ لهذا الغرض؟ قاطعه النقيب فاقداً صبره.

ـ في موضوع لقائك ذاك بأخي ديمتري فيودوروفتش. أجاب أليوشا برعونة.

ـ عن أيّ لقاء تكلمني؟ ذلك اللقاء، لا؟ هو إذن موضوع الليفة ليفة الحمام؟

قال ذلك وازداد اقتراباً من أليوشا حتى صدم في هذه المرة ركبتيه، وكانت شفتاه مزمومتين بشكل غير عادي.

ـ أي ليفة؟ تمتم أليوشا.

فصاح من وراء ستارة الزاوية صوت عرف أليوشا فوراً أنه صوت الصبي الذي لقيه منذ قليل.

ـ بابا، لقد جاء يشكوني أنا. صاح صوت الصبي يقول، أنا الذي عضضت إصبعه!

وانزاحت الستارة بعنف، فلمح أليوشا خصمه الصغير في الزاوية تحت الإيقونات، مستلقياً على فراش صغير موضوع على بنك وكرسيّ. كان الصبيّ نائماً مغطى بمعطفه الرث وبلحاف صغير قطني؛ كان واضحاً أنه مريض. وإذا صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بدَّ أن تكون به حمًّى. إنه ينظر إلى أليوشا بدون خوف، لا كما في المرة الأولى، كأنه يريد أن يقول: «أنا الآن في بيتي، في بيتي، فحاول أن تصنع بي أيّ شيء».

ـ كيف عضّ إصبعك؟ سأل النقيب وهو يقفز عن كرسيّه. هل أنت من عضَّك في إصبعك؟

ـ نعم. أنا. منذ قليل، كان يتبادل في الشارع التراشق بالحجارة مع بعض الصبية. كانوا ستة وكان وحده. فاقتربت منه فضربني بحجر، أنا أيضاً. ثم رماني بحجر آخر مستهدفاً رأسي، فلما سألته ماذا فعلت له، انقضّ عليّ فجأة فعضَّني في إصبعي، لست أدري لماذا.

ـ سوف أجلده فوراً! سوف أجلده الآن! صاح النقيب وهو يقفز عن كرسيّه.

ـ لكنني لم أجئ لأشكوه أبداً. إنني أخبرك فقط... لا أريد أن تجلده أبداً. وأعتقد أنه مريض الآن...

ـ وهل صدَّقت أنني سأجلده؟ أصدَّقت أنني سأجلد عزيزي أليوشا، هكذا، فوراً، إرضاءً لك، وهل أنت تحرص على هذا إذن؟ تمتم النقيب ملتفتاً فجأة إلى أليوشا وقد لاح على وجهه التهديد كأنه يستعد أن ينقضّ عليه.

ـ آسف، يا سيدي ما أصاب إصبعك. ولكني أؤثر على ضرب أليوشا، إذا شئت، أن أبتر الآن أمام عينيك أربعاً من أصابعي بهذا السكين، إرضاءً لك، هل ترى هذا السكين؟ سأبترها به. أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافياً لإرواء ظمأك إلى الانتقام، وأن تسمح لي بالإبقاء على الإصبع الخامسة...

وتوقف فجأة كأنه يختنق وكانت كل عضلة في وجهه ترتعش، وكانت نظرته تفيض تحدياً، لقد أصبح كأنه في حالة غير طبيعية.

ـ أعتقد أنني فهمت كل شيء الآن. أجاب أليوشا بصوت حزين ورصين دون أن يتحرك عن كرسيّه. إذن، ابنك صبي لطيف يحب أباه، وقد انقض عليَّ لأنني أخو الرجل الذي أساء إليك... فهمت الآن (ردَّد وهو يفكر). ولكن أخي ديمتري فيودوروفتش ندم على فعلته. أعرف ذلك... فإذا سمحت له أن يأتي إلى هنا أو حتى أن يلقاك في المكان نفسه فسيكون مستعداً لأن يعتذر إليك أمام جميع الناس... إذا رغبت في ذلك.

ـ يعني أنه ينتف لحيتي ثم يعتذر مني... وينتهي كل شيء هكذا، أليس كذلك؟

ـ لا، بالعكس، إنه سيفعل ما تطلبه منه وكما تريد!

ـ هذا يعني إذا طلبت من «سموِّه» أن يركع أمامي في تلك الخمارة نفسها ـ التي تسمَّى «العاصمة الكبرى» ـ أو حتى في الساحة العامة، فإنه يلبي طلبي، أليس كذلك؟

ـ نعم، يركع.

ـ كلامك يخترق قلبي حتى يكاد يفجر الدموع من عينيَّ! إنني أقدّر هذا الكلام، فاسمح لي أن أقدّم إليك أفراد عائلتي بكاملها: هذه عائلتي: بنتاي وابني... هذه ذريتي إذا جاز القول. فإذا متُّ أنا، فمن الذي سيحبّهم؟ ومن الذي يمكن أن يحبني أنا الرديء، من الذي يمكن أن يحبني؟ إن الله قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالي عزاء كهذا. ذاك أنه لا بدَّ لرجل من نوعي أن يجد أحداً يحبه...

ـ إنها الحقيقة بعينها. أجاب أليوشا.

ـ كفى تمثيل دور المهرّج، أيكفي أن يظهر معتوه ما حتى تتصرفوا بشكل مخجل! صاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة موجّهة كلامها إلى أبيها معبِّرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز.

ـ مهلاً، يا فارفارا نيكولايفنا، تذرَّعي بشيء من الصبر... دعيني أكمل ما أريد أن أقول. صاح أبوها بلهجة آمرة وهو ينظر إليها برضى. إنّ لها طبعاً صعباً، أليس كذلك؟ أضاف متوجهاً إلى أليوشا.

والطبيعة كلُّها،

يرفض أن يباركها(*)

يعني أن هذا نسائي. هي ترفض أن يباركها. لكن اسمح لي أن أقدِّمك إلى زوجتي: أرينا بتروفنا، سيدة بدون ساقين، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً، الساقان، إنها تمشي ولكن ليس كثيراً؛ إنها من أصل وضيع جداً. يا أرينا بتروفنا، ابسطي أسارير وجهك: هذا ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. وأنت يا ألكسي فيودوروفتش، اِنهض ـ وأمسك بذراعه بقوة لا يُتوقَّع مثلها منه،

(*) مقتطف من «الشيطان» لبوشكين، أصبح مضرب مثل.

وأنهضه فجأة ـ إنني أقدّمك إلى سيدة، فعليك أن تنهض. اسمعي يا عزيزتي، هذا ليس كارامازوف نفسه الذي... الذي... هذا أخوه. شاب يشع فضائل وتواضعاً. إسمحي لي يا أرينا بتروفنا، اسمحي لي يا امرأتي، اسمحي لي أن أقبّل يدك أولاً.

وباحترام وحنان، قبَّل يد زوجته. فأدارت الفتاة الواقفة قرب النافذة ظهرها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك شيئاً، إلا أن وجه الزوجة الذي كان يعبّر عن استعلاء وتساؤل، أصبح عذباً جداً.

وقالت:

ـ نهارك سعيد، تفضّل فاجلس يا سيّد تشرنومازوف!

ـ كارامازوف، يا حبيبتي، كارامازوف (إنها من أصل وضيع، أليس كذلك). وشوش مجدداً.

ـ حسناً، كارامازوف، أو كما يريد. بالنسبة إلي فهو تشرنومازوف(*). تفضّل فاجلس يا سيدي، لماذا أنهضك؟ فلأنني مقعدة كما قال لك. صحيح أنَّ لي ساقين، ولكنهما منتفختان مثل قادوسين أما بقية جسمي فهي منحلة. كنت سابقاً بدينةً جداً وها أنا الآن نحيلة مثل إبرة...

ـ إنها من الشعب البسيط، من الشعب البسيط. قال النقيب مرة أخرى.

ـ بابا، آه، بابا. صاحت فجأة الفتاة الحدباء التي كانت إلى ذلك الحين صامتة على كرسيّها وخبأت وجـهها بمنديلها.

ـ مهرِّج! قالت الفتاة الواقفة قرب النافذة.

(*) يشرح دوستويفسكي هنا اشتقاق أسماء أبطاله. اسم كارامازوف يتألف من كلمتين كارا يعني «أسود» باللغة التركية، وبالروسية «عقاب». مازوف من لفظة «ماز» وتعني «مسحة». وأرينا بتروفنا في هذا الاشتقاق تستبدل الكلمة التركية بالكلمة الروسية «تشيورني».

ـ أنظر ماذا لدينا. قالت الأم وهي تفتح ذراعيها مشيرة إلى ابنتيها. مثل غيوم تنسحب. وتمرّ الغيوم. وستعود فجأة الموسيقى. في ما مضى، عندما كنا في الجيش، كنا نستقبل غالب الأحيان زيارات كهذه. أنا لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه، يا سيدي الطيب، عندما تحبّ شخصاً فهذا الشخص تحبّه. وفي ذات يوم جاءت زوجة الشماس فقالت لي: «ألكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز. وناستازيا قالت لي إن بتروفنا هي وغد من الجحيم»! فأجبتها: «لكل امرىء أذواقه الخاصة. وما أنت سوى كرة صغيرة ولكنك كرة عفنة». قالت: «سنعرف كيف نؤدبك». فأجبتها: «يا جمرة من الجحيم! من سمح لك بالمجيء لتلقي دروساً؟». فقالت لي عندئذ: «أنا أجيئكم بهواء نقي، وأنت تجيئني بهواء موبوء». فأجبتها: «اذهبي واسألي أولئك الضباط إذا كان هوائي نقياً أو كيف؟ ومنذ ذلك الوقت بقي هذا في قلبي ولم يبارحه». وهكذا حدث لي منذ قليل، أن رأيت وأنا جالسة هنا، ذلك الجنرال نفسه الذي جاء يزورنا في أسبوع الآلام». فقلت له: «يا صاحب السعادة، هل تستطيع امرأة نبيلة أن تدخل هواءً نقياً؟ فأجاب: «هذا صحيح، ليس الهواء هنا نقياً. يجب فتح الباب أو النافذة... ماذا دهاهم جميعاً! لماذا يكرهون هوائي؟ إن الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر مني. قلت: «لن أفسد الهواء الذي تستنشقه، سأشتري لنفسي حذاءين ثم أمضي، ما دام الأمر كذلك». يا إلهي، يا أولادي الصغار، لا تدينوا أمكم! يا نيكولا إيلتش، يا حبيبي، هل فعلت شيئاً لا يرضيك؟ لم يبق لي إلا أليوشا، فهو يحبني، عندما يعود من المدرسة، يلاطفني. جاءني يوم أمس بتفاحة. سامحوني، يا صغاري الأحباء، سامحوا أمّكم يا أولادي، أشفقوا على أمّكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة. لماذا هوائي يزعجكم إلى هذا الحدّ!

وانفجرت المرأة التعيسة بالبكاء وانهمرت دموعها كالسيل. فأسرع إليها النقيب.

ـ عزيزتي، عزيزتي، حبيبتي اللطيفة، هدئي روعك، هدئي روعك! أنت لست وحيدة. الجميع يحبونك. الجميع يعبدونك! وراح يقبّل يديها ويدغدغ خدَّيها في حنان. ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذي بللته الدموع. وتراءت لأليوشا هو أيضاً أنَّ دموعاً تلمع في عينيه. هل رأيت؟ هل سمعت؟ واستدار فجأة نحوه وكأنه في جنون مشيراً بيده إلى المجنونة المسكينة.

ـ رأيت وسمعت. دمدم أليوشا.

ـ بابا، بابا، هل ستقيم الآن صلةً بهذا... قل له أن ينصرف! صرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وراح يحدّق في أبيه بعينيه الملتهبتين.

وصاحت فارفارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة وقد استبدَّ بها، في هذه المرة، غضب شديد فضربت الأرض بقدمها.

ـ دعك من تمثيل دور المهرّج، لتظهر أدوارك البلهاء التي لا تؤدي إلى شيء أبداً... فقال الأب.

ـ أنت من حقك أن تغضبي، في هذه المرة، يا فارفارا نيكولايفنا، وسألبّي طلبك بسرعة. يا ألكسي فيودوروفتش، تناول قبعتك، وسأتناول أنا قبعتي وسنخرج. أريد أن أتحدث معك جاداً، ولكن لا أستطيع ذلك بين هذه الجدران. إن هذه الفتاة القاعدة هناك هي ابنتي نينا نيكولايفنا التي نسيت أن أقدّمها إليك. إنها ملاك تجسَّد... ملاك نزل من السماء... هل بإمكانك أن تفهم هذا الكلام؟

ـ ها هو يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزّته بعنف. قالت فارفارا نيكولايفنا بعنف.

ـ أما هذه التي ضربت الأرض بقدمها ونعتتني بأنني مهرّج فهي أيضاً ملاك تجسَّد من عند الله، وهي على حق إذ تعاملني على هذا النحو. تعال إذن، يا ألكسي فيودوروفتش، يجب أن ننتهي من هذا الأمر...

وأمسك ذراع أليوشا، وأخرجه من الغرفة مباشرة إلى الشارع.

VII

وفي الهواء الطلق

الهواء، إنه الهواء الطلق، عندي، في قصوري، يكاد المرء يختنق، بكل معنى هذه الكلمة. هيّا، سيدي، فلنقم بنزهة قصيرة. أودّ أن لا تضجر هنا.

ـ أنا أيضاً لدي مسألة خاصة بك... قال أليوشا. ولكنني لا أعرف كيف أبدأ.

ـ كيف لا تعرف ذلك، لا تعرف أنّ لديك شيئاً، ولولا ذلك لما وطأت قدماك منزلي. أم أنك جئت تشكو إليّ ابني الشقي؟ ولكن هذا مستبعد. على ذكر الصبي؛ هناك، لم يكن بوسعي أن أشرح لك كل شيء، ولكن، هنا، الآن، فسأشرح لك الأمر. منذ أسبوع، كانت الليفة أكثف مما هي الآن ـ أعني لحيتي... أولئك التلامذة، بشكل خاص، هم الذين سمُّوا لحيتي ليفة. فمنذ أسبوع أمسك أخوك ديمتري فيودوروفتش لحيتي هذه وأخرجني من الخمارة وجرَّني إلى الساحة العامة. وكان التلامذة في تلك اللحظة عينها عائدين من المدرسة. وكان أليوشا بينهم. فعندما رآني في تلك الحالة ارتمى عليَّ صارخاً: «بابا، بابا!» وأمسكني بذراعيه وتشبَّث بي يريد أن يحررني مناشداً المعتدي بقوله: «دعه، دعه! هذا أبي، هذا أبي سامحه»! هكذا صرخ: «سامحه».

وأمسك أيضاً ذراع أخيك، وقبَّل يده. ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبيّ في تلك اللحظة. لم أنسه ولن أنساه أبداً...

ـ أقسم لك. قال أليوشا. إن أخي سيعبِّر لك عن ندمه أصدق تعبير، ولو اضطر أن يركع أمامك في تلك الساحة العامة عينها... سأرغمه وإلا فلن يكون أخي!

ـ آه، آه، لا يزال الاعتذار مشروع اعتذار؟ وهذا ليس صادراً عنه مباشرة بل عن قلبك النبيل والحارّ. كان بإمكانك أن تذكر لي هذا، أليس كذلك؟ أما في هذه الحالة، فاسمح لي أن أصف لك نبل الضابط الذي أبداه أخوك في ذلك الظرف. فبعد أن جرَّني من ليفتي، تركني وقال لي: «أنت ضابط، وأنا أيضاً ضابط، فإذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهداً فأرسله إليَّ ـ سوف أعطيك فرصة رغم أنك حقير». هذا ما قاله أخوك صاحب الروح الفروسية! انصرفت، بعد ذلك، مع ابني أليوشا، ولكن هذا المشهد العائلي، في ذلك اليوم، قد حُفر في ذاكرة الصبيّ إلى الأبد. كيف يمكن، بعد الآن، أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس نبلاء؟ فاحكم أنت في الأمر بنفسك على كل حال، ما دمت قد رأيت قصورنا! لقد رأيت مسكننا، أليس كذلك؟ ثلاث سيدات، إحداهن بدون ساقين ومجنونة، والثانية مقعدة وحدباء، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يتحمله ظرفنا من ذكاء. إنها طالبة وتحلم بالعودة إلى بطرسبرغ لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا. ولن أقول شيئاً عن أليوشا. فهو لم يتجاوز التاسعة من عمره، وهو وحيد في هذا العالم. فإذا متُّ أنا ـ فما الذي سيحدث لهم جميعاً؟ إنني أطرح عليك هذا السؤال. إذا دعوت أخاك إلى المبارزة، فقتلني، فما هو الوضع الذي سيصيرون إليه؟ من الذي سيعتني بهم وسيهتمّ بأمرهم؟ والأنكى من ذلك أنه لن يقتلني بل سيصيبني بعاهة تقعدني: لن أستطيع بعدئذ أن أعمل،

بل أصبح فماً لا فائدة منه، أصبح عالة عليهم. من الذي سيطعمني وسيطعمهم عندئذ؟ وقد أضطر أن أُخرج أليوشا من المدرسة وأن أرسله إلى الشوارع كل يوم يستعطي الصدقات. ذلك ما يمكن أن تجرّه عليّ مبارزة من عواقب، إنها كلمة سخيفة، لا أكثر.

ـ سيطلب منك أن تسامحه، سيركع أمامك في وسط الساحة العامة. صاح أليوشا مجدداً وقد التهبت نظرته.

ـ أردت أن أشكوه إلى القضاء. تابع النقيب. ولكن، يكفي أن نرجع إلى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تعوض لي عن الاهانة الشخصية. زد على ذلك، أن أغرافينا ألكسندروفنا قد استدعتني وصرخت غاضبةً: «حاول أن تقدّم شكوى إلى القضاء، فسأكشف للقضاء اختلاساتك، وأبرهن على أنه ضربك معاقبة لك، وستكون أنت الملاحق يومذاك!» والله يعلم، هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بإرادتي أم أنني أُمرت بها فكنت أداة لا أكثر! أنا لم أفعل إلا بإرادة منها، وبأوامر من فيودور بافلوفتش؟ زد على ذلك، أنها أضافت تقول لي: «سأطردك من خدمتي نهائياً، فلن تجني مني، بعد ذلك، فلساً واحداً. وسأقول كلمة لصاحبي التاجر (بهذا الاسم تسمّي عجوزها: صاحبي التاجر)، فيطردك هو أيضاً». فتساءلت حينذاك: «إذا استغنى التاجر عن خدماتي؟ ما عساني أفعل، بعد ذلك، لكي أكسب رزقي؟ لأنه لم يكن قد بقي لي سوى هذين الاثنين بعد أن أصبح أبوك لا يثق بي لسببٍ آخر. حتى إنّ أباك يفكّر في جرّي إلى المحاكم مستنداً إلى الايصالات التي وقعتها بإمضائي. لقد رأيت بنفسك الظروف التي نعيش فيها. ولكن اسمح لي الآن أن أسألك: هل أوجعتك كثيراً عضَّة أليوشا في إصبعك؟ لم أجرؤ أن أطرح عليك هذا السؤال بتفاصيله في قصوري.

ـ نعم، أوجعتني كثيراً. فقد كان في حالة غضب شديد. لقد ثأر مني

أنا للإساءة التي أُلحقت بك، لأنني واحد من آل كارامازوف. لقد اتضحت المسألة الآن. لكنك لم ترَ كيف اقتتل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة. ذلك خطر جداً. فمن الممكن أن يقتلوه. هؤلاء أطفال لا يفكرون. فالحجارة تتطاير، ويمكن لحجرٍ أن يحطم رأسك.

ـ أُصيب اليوم بحجر، أليس كذلك، ولكن ليس على الرأس بل على الصدر، في موضع يعلو القلب قليلاً، فوصل إلى المنزل مزرقّاً باكياً وهو يئنّ، وها هو الآن مريض.

ـ يبدو أنه هو الذي يهاجمهم جميعاً. إنّ غضبه مما أصابك لا يستكين. ويزعم التلامذة أنه جرح الصبيّ كراسوتكين في جنبه بطعنة من سكين...

ـ لقد قيل لي هذا. نعم، إنه شيء خطر. إن كراسوتكين هذا هو ابن موظف وأخشى أن يجرَّ علينا هذا الحادث وبالاً...

ـ أنا أنصحك، تابع أليوشا محتدّاً، بأن لا ترسله إلى المدرسة إلى حين، إلى أن يهدأ... إلى أن يزول هذا الغضب الذي يتّقد في قلبه...

ـ الغضب! أكمل النقيب. هذا هو الغضب؛ في كائن صغير يكمن غضب كبير جداً. وأنت لم تكن تعرف كل ذلك. فاسمح لي أن أشرح لك الأمر. بعد ذلك الحادث، أخذ جميع تلامذة مدرسته ينعتونه بالليفة. إن الأطفال، في المدرسة هم كائنات بدون شفقة. هم ملائكة الله إذا نظرت إلى كل واحد منهم على حدة، ولكنهم متى اجتمعوا، وخاصة في المدرسة، أصبحوا وحوشاً لا ترحم. راحوا يسخرون منه، فثار طبع أليوشا الصغير النبيل. ربما صبّي عادي، ولد معتوه، كان يستسلم ويشعر بالعار من أبيه، أما هو فقد هبَّ وحيداً ضدّ الجميع يدافع عن أبيه ويدافع عن الحقيقة أيضاً وعن العدالة، لأنه ما من أحد يعرف إلا الله وأنا، كم عانى من ألم حين قبّل يد أخيك متوسلاً إليه «أن يغفر لأبيه». هم هكذا أطفالنا ـ أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم، أقصد أطفال الفقراء

المهانين، لكنهم نبلاء، أليس كذلك؟ ـ أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الأرض منذ السنة التاسعة من عمرهم! فالأغنياء كيف يستطيعون ذلك: فهم طوال حياتهم لن يروا بهذا العمق في يوم من الأيام. في حين أن ابني أليوشا قد غاص إلى عمق الحقيقة، في تلك اللحظة التي قبَّل فيها يد أخيك... لقد نفذت الحقيقة كلها إليه حينذاك، وانحفرت في كيانه مدى حياته كلّها. انتعش النقيب وهو يقول هذا الكلام وألمت به حماسة مفاجئة، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليسرى راحة يده اليمنى كأنما ليوضح كيف انغرست «الحقيقة» في نفس أليوشا.

ـ في ذلك النهار نفسه أصابته حمَّى فظلَّ يهذي طوال الليل. ولم يكلّمني إلا قليلاً خلال النهار فالتزم الصمت. لكنه كان ينظر إليَّ، ينظر إليَّ من زاويته وقد مال على النافذة وتظاهر بأنه يحضِّر فروضه المدرسيّة. لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في فروضه في تلك اللحظة. وفي اليوم التالي شربت فأصبحت لا أتذكر شيئاً. وراحت زوجتي عندئذ تبكي ـ إنني أحبها كثيراً ـ حسناً. لقد أنفقت آخر فلس أملكه لكي أسكر. لا تحتقرني يا سيدي: إنّ السُكارى في روسيا هم الرجال الأكثر لطفاً، والأكثر لطفاً عندنا هم السكارى. ونمت، ولم أحفل بأليوشا. وفي ذلك اليوم بعينه، أخذ الصبية يعيِّرونه صارخين: «يا ليفة! أُخرج أبوكـ من الخمارة مشدوداً من لحيته، فأخذتَ تركض إلى جانبه تستغفر له!» وفي اليوم الثالث، عندما رجع من المدرسة، لاحظت أنه شاحب اللون، مهشَّم الوجه. فسألته: «ماذا بك؟» فلم يجب. وكان من المستحيل أن نتحدث في الغرفة، فلو تحدَّثنا لتدخَّلت الأم والبنات في الحديث... وكانت بناتي على علم بالحادث منذ أول يوم. كانت فارفارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها: «مهرِّجون! جبناء! ما عسى يُنتظر منكم؟». قلت لها: «يا فارفارا نيكولايفنا، أنت على حق، لسنا بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات». وبذلك

أرحت نفسي منها للمرة الأولى، وفي المساء خرجت أتنزّه مع الصغير. يجب أن أذكر لك أنني كنت قد اعتدت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء. وكنا نسلك عادة هذا الطريق الذي نسير فيه الآن، أنا وأنت: نخرج من المنزل ونصل إلى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق، يتيمة قرب السياج حيث تبدأ المراعي. المكان مقفر رائع. مشيت في ذلك اليوم وابني إلى جانبي، يده في يدي. إنّ يده صغيرة جداً، وأصابعه نحيلة وباردة. فهو يشكو من داء في صدره. قال لي فجأة: «بابا، بابا»! فسألته: «ماذا؟» قال: «في ذلك اليوم، حينما شدَّك...»: «ما العمل يا أليوشا؟»، قال: «لا تستسلم يا بابا! لا تستسلم أبداً! إنّ الأولاد في المدرسة يدَّعون أنه أعطاك عشرة روبلات تعويضاً لك». قلت له: «لا، يا أليوشا، لن أقبل منه مالاً في يوم من الأيام!» أخذ الصبيّ يرتجف بكلّ جسمه، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين وراح يقبِّلها. ثم عاد يقول: «بابا، اطلبه إلى المبارزة! فالأطفال يزعمون في المدرسة أنك جبان، وأنك لن تطلبه إلى المبارزة بل ستقبل منه عشرة روبلات». فشرحت له كيف أنني لا أستطيع أن أبارز أخاك، وأطلعته باختصار على الأسباب التي تعرفها، فاستمع إليَّ بانتباه، ثم صاح وقد التهبت نظرته ولمعت: «بابا، لا تستسلم أبداً. سأطلبه أنا إلى المبارزة عندما أكبر، فأقتله!». وأنا، أبوه، على كل حال، فاعتقدت أنّ من واجبي أن أقول له كلمة حق. فقلت: «إنها خطيئة أن يقتل إنسان إنساناً ولو في مبارزة». فصاح حينذاك: «سوف أبارزه حين أكبر، فأُلقيه على الأرض وأنتزع سيفه بضربة من سيفي، ثم أرتمي عليه وأشهر سيفي فوق رأسه وأقول: «أستطيع أن أقتلك فوراً، ولكنني سأعفّ عنك!» فانظر يا سيدي في أيّ شيء قد فكَّر هذا الصبيّ طوال يومين، أنظر إلى الأفكار التي شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين! لقد بقي يفكّر خفيةً، ليلاً نهاراً، في هذا الثأر بالسيف، ولا شك أنّ هذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر. ولكنه الآن

يعود من المدرسة مضروباً. ولم أعلم بشأن مشاجراته هذه مع رفاقه إلا أمس الأول. والآن، لن أرسله إلى المدرسة. لقد خفت عليه عندما عرفت أنه واجه كلّ تلامذة صفّه، وناصبهم العداء، وأنه هو من تحدّاهم أولاً. لقد خرجنا نتنزّه، مرة أخرى، ذات يوم، فإذا به يسألني: «بابا، هل الأغنياء أقوى من غيرهم في هذا العالم؟» فقلت له: «نعم يا أليوشا، إن الرجل الغنيّ هو الأقوى». فقال لي بعد ذلك: «بابا، سأصبح غنياً، ذات يوم، وسأصبح ضابطاً، أنتصر على الأعداء، فيكافئني القيصر بميدالية وأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن... وسكت بعض لحظات، ثم بدأت شفتاه ترتعشان، كما في المرة الأولى،وأضاف: «أليست هذه المدينة مدينة شريرة؟» قلت له: «نعم يا صغيري أليوشا، ليست هذه المدينة محبَّبة إلى القلب كثيراً»، فقال: «لماذا لا نتركها إلى مدينة سكانها أفضل من سكان هذه المدينة، لماذا لا نغادرها إلى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد؟»، فأجبته بأنّ هذه هي نيَّتي، في الواقع، وسوف نغادر هذه المدينة متى كسبت قليلاً من المال. لقد سرَّني أن أصرفه بذلك عن أفكاره السوداء، ورحنا نحلم نحن الاثنين، ونناقش تفاصيل الانتقال إلى مدينة أخرى. قلت له: «سنشتري حصاناً وعربة. نُركب ماما، والأختين على العربة ونغطيهنّ جيداً، ونمشي نحن الاثنين إلى جانبهنّ. وقد أُركبك أنت أيضاً من وقت إلى آخر، أما أنا فسوف أمشي على قدميَّ لأنّ علينا أن نراعي الحصان ونداريه وإلَّا ستنهار قواه إذا اضطر أن يجرَّ العائلة كلها. سنرحل عما قريب. بهذا وعدته. تحمس الصبيّ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يقوده وأن يمتطيه هي التي تثير حماسته أكثر من أيّ شيء آخر. إن الصبيّ الروسيّ يولد ومعه حصانه. وقد ثرثرنا مدة طويلة. وقلت لنفسي: «ليتمجّد اسم الله، على أنه استرجع طمأنينته وهدأت نفسه وسُرِّي عنه». حدث هذا في مساء أمس الأول. ولكن كل شيء تغيَّر مساء أمس. ذهب إلى المدرسة صباحاً وعاد قاتم الوجه مكفهرّ

الأسارير. وفي المساء، أمسكته بيده لنقوم بنزهة. كان صامتاً، لم يقل شيئاً. الريح تهبّ قليلاً، والسحب تغطي الشمس. إنه قدوم فصل الخريف، وقد هبط الليل. كنا نسير وفي قلب كلٍّ منا حزن دفين. قلت له: «كيف علينا يا بنيّ أن نفكر في الإعداد لسفرنا؟» كنت أفكّر بأن نستأنف حديث الليلة البارحة. شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف في يدي. قلت لنفسي: «حالته سيئة، لا بدَّ أن هناك جديداً». وصلنا إلى تلك الصخرة التي تراها هناك، جلست عليها، على الصخرة. كان، في المساء، كثير من طيارات الورق التي يطلقها الأولاد. إنها تهمهم وتقرقع. رأينا ثلاثين طيارة على الأقل. ذلك هو الفصل الذي تطلق فيه هذه الطيارات الورقية. قلت له: «لقد آن لنا يا أليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضاً، طيارة العام الماضي. سوف أصلحها. أين خبأتها؟ سكت ابني وأدار لي ظهره ناظراً إلى جانب. وفجأة، هبَّت علينا ريح مزمجرة مثقلة بسحابة من الرمل، فارتمى عليَّ بكل جسمه وطوَّق عنقي بذراعيه الصغيرتين وشدَّني إليه بقوة. أنت تعرف أن هذا النوع من الأطفال الصموتين الفخورين يحاولون أن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيراً، لأنّ المهم أصبح فوق طاقتهم، فإنّ دموعهم تتدفق كالسيول وكأنها الجداول. ومن هذه السيول الساخنة أغرق وجهي كله فجأة. بدأ ينتحب في تشنُّج، ويرتجف ويشدّ جسمه إليَّ وأنا جالس على الصخرة. ثم صاح: «بابا العزيز اللطيف! ما أشدَّ ما أذلّك!» فبدأت أبكي أنا أيضاً. وتعانقنا وارتجفنا. فقال لي: «بابا، حبيبي بابا!» وكنت أجيبه: «أليوشا، أليوشتشكا!». لم يرنا أحد، وحده الله كان يرانا، وقد ينصفني عندما أموت. أشكر أخاك، يا ألكسي فيودورفتش، لن أجلد ابني لتكون مسروراً!

عندما ختم قصَّته، عاد إلى سخريته، واتخذ هيئة ساذج القرية. أحسَّ أليوشا أنه قد حظي بشيء من ثقته، وأنّ هذا الرجل ما كان له أن «يتحدث» إلى

غيره بهذه الطريقة وأن يخبر غيره ما قصَّ عليه. وهذا ما شجَّع أليوشا الذي كان يرتعش متأثراً باكياً.

ـ آه، كم أتمنَّى أن أصالح ابنك الصغير! قال أليوشا. ليتك تستطيع أن تتدبَّر هذا الأمر...

ـ حتماً. دمدم النقيب.

ـ لكن، عليَّ الآن أن أحدثك في شيء آخر، شيء آخر تماماً. استمع. تابع أليوشا يقول: إن أخي ذاك نفسه، ديمتري، قد أهان خطيبته أيضاً، وهي فتاة نبيلة جداً، لا شكَّ أنك سمعت عنها. ولي الحق أن أحدّثك عن الإهانة التي ألحقها بها، بل ذلك واجبي أيضاً، لأنها بعد أن علمت بالإساءة التي نالتك وبعد أن عرفت الوضع الحزين الذي تعيش فيه، كلَّفتني... أن أحمل إليك مساعدة منها... إنّ هذه الفتاة هي التي ترسل إليك المساعدة وليس أخي ديمتري الذي هجرها من جهة أخرى... والمساعدة ليست مني ولا من ديمتري ولا من شخص آخر، بل منها هي وحدها. إنها تتوسل إليك أن تقبل مساعدتها. ألم يُهِنْكما كليكما شخص واحد بعينه... ثم إنها لم تتذكرك إلا بعد أن أُلحقت بها الإهانة نفسها التي أُلحقت بك (الاهانة نفسها بقوَّتها)، إنها بالتالي مثل أخت تريد أن تساعد أخاها... لقد كلَّفتني، من جهتها، أن أطلب إليك قبول هاتين المائتين من الروبلات كمساعدة من أخت. ولن يعلم أحد بالأمر، ولن تروَّج أقاويل سيئة حول هذا الموضوع... إليك المائتي روبل؛ وأقسم لك، عليك أن تقبلها وإلا... وإلا أعتقد أن كل إنسان يجب أن يكون عدواً لقريبه! ولكنّ الأخوَّة في هذا العالم لا تزال موجودة بعد... إنّ لك نفساً نبيلة... يجب أن تفهم ذلك، يجب!

ومدَّ أليوشا إليه ورقتين نقديتين ملوَّنتين كلّ منهما بمئة روبل. وكان الرجلان أمام الصخرة الكبيرة إلى جانب السياج، ولم يكن أحد في الجوار.

بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس النقيب تأثيراً رهيباً: ارتعش وكأنه أُخذ بالمفاجأة، فهو لم يحلم بشيء من هذا أبداً، ولم يكن يتوقع مثل هذه الخاتمة. لم يحلم أنّ أحداً يمكن أن يساعده بمثل هذه المساعدة الهامة. أخذ الورقتين النقديتين وبقي قرابة دقيقة غير قادر على الكلام. لقد طاف في وجهه تعبير جديد كلياً.

ـ إنها لي، لي أنا، أليس كذلك؟ كل هذا المال؟ مائتا روبل؟ يا يسوع! إنني لم أر مبلغاً كهذا منذ أربع سنوات! يا إلهي! وتقول، مثل أخت... هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟

ـ أقسم لك إنّ كل ما قلته صحيح! هتف أليوشا. فاحمرَّ وجه النقيب.

ـ اسمع يا سيدي العزيز، اسمع: هل أكون جباناً إذا أنا قبلتها؟ هل أكون جباناً في نظرك؟ يا ألكسي فيودوروفتش، اصغ إليّ حتى النهاية (أضاف بسرعة وهو يتحسَّس أليوشا بكلتا يديه): إنك تشجعني على قبول هذا المال لأنه مرسَل إليَّ من «أخت»، ولكن ألن تشعر نحوي، في قرارة نفسك، باحتقار. سآخذها. ما رأيك؟

ـ أقسم لك أن لا، لا. أقسم لك بحياتي أن لا! وما من أحد سيعلم بالأمر، لن يعلم به إلا نحن، أنا وأنت وسيدة أخرى هي صديقتها الحميمة...

ـ سيّدة!... اسمع يا ألكسي فيودوروفتش، اسمعني، يجب أن تسمعني. أشعر في هذه اللحظة أنني بحاجة إلى الإفصاح عن كل شيء. ثم تابع الرجل التعيس الذي بدأت تجتاحه شيئاً فشيئاً حماسة مشوشة تكاد تكون جنونية: إنك لا تستطيع أن تتصور ماذا تعني، بالنسبة إليّ اليوم هاتان المائتا روبل.

كان كأنه فقدَ السيطرة على أفكاره فهو يتكلم بسرعة وقلق وكأنه يخاف أن لا يُسمح له بقول كل شيء: أضف أنّ هذا المبلغ المكتسَب بشرف ترسله إليَّ «أخت» محترمة وقديسة؛ فأنا الآن، أستطيع أن أعالج الأم وابنتي، ملاكي

الحدباء، نينوتشكا. لقد زارنا الدكتور هرزنستوب، شهامة منه، تفحصهما كلتيهما، خلال ساعة كاملة، وقال لنا: «إنني لا أفهم من الأمر شيئاً». وذكر أن المياه المعدنية (التي وصفها للأم) قد تفيدها كثيراً ويمكن شراؤها من الصيدلية. ووصف لها أيضاً حمامات للقدمين بأملاح طبية. وثمن المياه المعدنية ثلاثون كوبيكاً ويجب أن تشرب منها ما يقارب الأربعين زجاجة. أخذت الوصفة ووضعتها على الرفّ تحت الإيقونات، ولا تزال تنتظر هناك. كما وصف أيضاً لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل، كل يوم، مرة في الصباح ومرة في المساء. فكيف يكون بإمكانها أن تتبع هذا العلاج في «قصورنا»، من دون خادمة، من دون أحد يساعدها، وليس عندنا لا حوض ولا ماء؟ ونينوتشكا تشكو من الروماتيزم ـ لم أقل لك هذا من قبل ـ وهي تشعر في كل الليالي بألم شديد في كل الجانب الأيمن من جسمها. ولكن هل تصدّق؟ إن هذه الملاك من عند الله تصارع عذابها لكي لا تقلقنا، وتُمسك عن الأنين لكي لا توقظنا من نومنا. نحن نأكل، كيفما تيسَّر، مما هو موجود، وهي تختار لنفسها آخر قطعة من الطعام، تلك التي تُرمى إلى الكلب. وتقول: «أنا لا أستحق حتى هذا، أنا أحرمكم منه، وأنا عبء عليكم». هذا ما يريد قوله نظرها الملائكي. ونحن نساعدها فيؤلمها ذلك، وكأنها تقول لنفسها: «أنا لا أستحق هذا، أنا لا أستحق هذا! أنا لست سوى مقعدة غير جديرة بالاهتمام ولا فائدة منها». تقول إنها لا تستحق ذلك، مع أنها هي التي تفتدينا بصلواتها عند الله! إنّ الحياة في منزلنا تصبح جحيماً بدونها، وبدون الكلمات المتواضعة الرقيقة التي تتقن كيفية قولها! لقد تمكنت أن تهدّىء حتى فاريا. وإياك أن تظلم فارفارا نيكولايفنا فهي أيضاً ملاك، وهي أيضاً ضحية. لقد أتت لزيارتنا، في هذا الصيف وفي جيبها كلّ ما تملك، ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من إعطاء دروس خاصة، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجرة سفرها

حين عودتها إلى بطرسبرغ، في شهر أيلول، أي الآن، نحن، أخذنا هذا المال، مالها، وأنفقناه في سدّ جوعنا. والآن ليس لديها مال لكي تعود إلى بطرسبرغ، ثم إنها لا تستطيع أن تسافر لأنها تعمل في خدمتنا كأنها سجينة، مثل فرسٍ هرمة. وهي التي تعتني بالجميع، وتصلح، وترقع، وتغسل، وتنظف الأرض، وتضع الأمّ في سريرها، والأمّ لها نزوات، تبكي بدون سبب، فهي مجنونة!... والآن، سأستطيع بهذه الروبلات المئتين أن أستخدم خادمة... هل تفهم يا ألكسي فيودوروفتش؟ سأتمكن من معالجة مخلوقاتي الأعزاء، وأستطيع أن أرسل الطالبة إلى بطرسبرغ، وسوف أشتري لحماً فأحسِّن طعامنا الجديد. يا إلهي! إنه حلم!

كان أليوشا في منتهى السعادة لأنه وفَّرها لرجل مسكين.

ـ انتظر يا ألكسي فيودوروفتش، انتظر! أضاف النقيب ولاحت له رؤية جديدة ألهبت في نفسه حماسة جديدة، فتابع كلامه بسرعة محمومة. هل تعرف أنني، أنا وأليوشا، الآن، نستطيع أن نحقق أمنيتنا: نشتري حصاناً صغيراً وعربة. وسيكون الحصان أسود. يصرّ أليوشا على حصان أسود. وسنسافر، كما وصفت له سفرنا أمس الأول. إنني أعرف في مقاطعة «ك» محامياً. وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقي هذا سيجعلني سكرتيراً في مكتبه. من يدري، قد يستخدمني فعلاً... سأُقعد الأم إذن على العربة، وسأُقعد عليها نينوتشكا أيضاً، ثم يمسك أليوشا بزمام الحصان فيجرّه، وأسير أنا على قدميّ إلى جانب العربة. وهكذا، نرحل جميعاً... يا إلهي! ليتني أستطيع أن أسترجع ذلك المبلغ الصغير الضائع، إذاً لأصبح معي من المال ما يكفيني لهذه الرحلة!

ـ سيكفيك، سيكفي! هتف أليوشا. سوف ترسل إليك كاترينا إيفانوفنا كل ما تحتاج إليه من المال. وأنا أيضاً عندي بعض المال. ستأخذ مني ما أنت في حاجة إليه كما يأخذ أخ من أخيه، من صديقه، وستردّه فيما بعد (ستصبح

غنياً، ستصبح غنياً). صدّقني إن فكرة السفر إلى مقاطعة أخرى هي خير فكرة يمكن تصوُّرها. إنّ فيها خلاصك وخلاص ابنك الصغير خاصة. وأؤكد لك أنّ الاسراع أفضل شيء، سافر قبل حلول فصل الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد. واكتب إلينا من هناك، وسنبقى إخوة... لا، ليس هذا حلماً!

أراد أليوشا أن يقبّله وهو في غمرة الفرح هذه. ولكن، عندما نظر إليه، توقَّف فجأة: مدَّ الرجل عنقه، وتراخت شفتاه، واصفرَّ لونه كأنما هو يهمس بطرف شفتيه أو يحاول أن يتكلم، ولم يخرج من فمه أيّ صوت، وبقي يهمس بطرف شفتيه. كان ذلك منظراً غريباً.

ـ ماذا حلَّ بك؟ سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا.

ـ ألكسي فيودوروفتش... إنني... أنا... تمتم النقيب بصوت متقطع محدقاً في أليوشا بنظرة غريبة ووحشية وقد بدا كإنسان يهمّ أن يهوي من أعلى جبل بينما شفتاه تصطنعان ابتسامة.

ـ أنا... وأنت... هل تريد أن أريك براعة صغيرة من السحر! قال فجأة بهمس سريع ولكن بلهجة جازمة بدون أيّ تقطّع.

ـ براعة من السحر؟

ـ نعم براعة من نوع براعة الحواة! تابع النقيب هامساً وقد مال فمه إلى الجهة اليسرى وعينه اليسرى ترفّ وهو يحدّق إلى أليوشا دائماً وكأنه التصق به.

ـ ولكن، ماذا بك، أيّ براعة؟

ـ أنظر... أنظر. قال النقيب فجأة بصوت حاد. ثم أراه الورقتين النقديتين للمائتي روبل اللتين بقيتا طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والإبهام من يده اليمنى ثم قبض عليهما فجأة وراح يدعكهما في راحة يده اليسرى بغضب حتى سحقهما.

ـ هل رأيت؟ هل رأيت؟ صرخ قائلاً لأليوشا وهو مصفرّ الوجه مهتاج. وفجأة رفع قبضة يده نحو السماء ورمى الورقتين المسحوقتين بكل قواه على الرمل.

ـ لقد رأيت؟ قال وهو يشير إليهما بإصبعه. ثم رفع قدمه اليمنى وراح يدوسهما بكعب قدمه بحنق مسعور وهو يصرخ لاهثاً بعد كل ضربة قدم.

ـ هذا هو مالك! أنظر إلى مالك! أنظر إلى مالك!

وفجأة قفز إلى الوراء، وانتصب أمام أليوشا. كان وجهه يعبر عندئذ عن شهامة لا تقهر.

ـ قل للذين أرسلوك إن ليفة الحمام لا تبيع شرفها! صاح وهو يمدّ ذراعه باتجـاه السماء.

واستدار فجأة، ومضى راكضاً. وبعد أن اجتاز خمس خطوات التفت مجدداً نحو أليوشا وحرَّك يده بتحيَّة عسكرية. ثم بعد خمس خطوات أخرى استدار ملتفتاً نحو أليوشا مرة أخيرة. كانت الابتسامة الساخرة التي تشوِّه وجهه قد اختفت وحلَّت محلّها دموع. وبسرعة وبصوت مختلج، وهو ينتحب لاهثاً، صاح يسأل أليوشا.

ماذا سأقول لابني لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا؟ ثم انصرف راكضاً دون أن يلتفت وراءه هذه المرة. وكان أليوشا ينظر إليه بحزن يعجز عنه الوصف، وأدرك أن النقيب لم يكن قد خطر بباله، حتى في آخر لحظة، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وسيرميهما. ها هو يركض الآن ولن يرجع. وكان أليوشا يعرف أنه لن يرجع. ورفض أن يركض وراءه ويناديه، كان يعرف لماذا. وعندما اختفى الرجل عن نظره، تناول أليوشا الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غارقتين في الرمل، ولكن دون أن يصيبهما أيّ تمزق، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان. ثم طواهما ودسَّهما في جيبه وذهب إلى كاترينا إيفانوفنا ليبلغها نجاح مهمته التي عهدت بها إليه.

الكتاب الخامس

أصدقاء وأعداء

I

الخطبة

كانت السيدة خوخلاكوفا هي أول من استقبل أليوشا مجدداً. كانت تركض؛ لقد حدث شيء خطير: إن نوبة الأعصاب التي أصابت كاترينا إيفانوفنا قد انتهت إلى إغماء تلاه ضعف رهيب ومخيف. فنامت وأدارت عينيها، وبدأت تهذي. وارتفعت حرارتها، واستدعي هرزنستوب والخالتان. وصلت الخالتان، ولكن هرزنستوب لم يأت بعد. الجميع موجودون في غرفتها. ينتظرون. ماذا سيحدث الآن؟ وهي في غيبوبة. «فماذا لو كانت حمَّى شديدة!

ألم ذعر شديد بالسيدة خوخلاكوفا التي كانت تردد بعد كل كلمة تقولها: هذه المرة، خطير، وخطير جداً». كما لو أنّ ما كان يحدث لها في السابق لم يكن جدياً. تركها أليوشا تتكلم بمرارة. أراد أن يروي لها مغامراته هو، ولكنها كانت تقاطعه بعد أول كلمة: لم يكن لديها الوقت للاستماع إليه. طلبت منه أن يبقى قليلاً مع ليزا، وينتظرها عندها.

ـ إنّ ليزا، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش. قالت له بما يشبه الهمس في أذنه، بدأت تدهشني إلى حدّ كبير، ولقد أثرت بي كثيراً، لذلك، فإن قلبي

يسامحها على كل ما فعلت. تصوَّر، ما إن خرجت أنت حتى راحت تندم بصدق لأنها سخرت منك عياناً، يوم أمس واليوم. لكنها لم تكن تسخر بل كانت تمزح فقط. وقد بلغت من الأسف العميق أنها بكت، وهذا ما أدهشني. لم تندم أبداً عندما كانت تسخر منّي كانت تمزح دائماً. وأنت تعلم جيداً أنها لم تتوقف عن السخرية مني. أما الآن فالأمر خطير. الآن، كل ما يحدث هو خطير. إنها تحترم كثيراً رأيك، يا ألكسي فيودوروفتش، فلا يجوز أن تؤاخذها وتستاء منها، ممّا تقول. أنا شخصياً لا أفعل إلا هذا، أحاول أن أداريها لأنها ذكية جداً ـ أتصدِّقني؟ لقد ذكرت لي منذ لحظة أنك كنت صديق طفولتها ـ «صديق طفولتها الأكثر جدّية». تصوَّر هذا، «الأكثر جدّية» ـ فأين مكاني أنا إذن؟ إن لها في هذا المجال ذكريات حية ومشاعر عميقة، وخاصة جملها، وعباراتها الصغيرة غير المتوقعة أبداً. ذلك يخرج من فمها فجأة. إليك مثلاً قصة تلك الصنوبرة. كان في حديقتنا شجرة صنوبر، عندما كانت هي صغيرة جداً؛ أعتقد أن هذه الشجرة لا تزال موجودة، فلا يجوز التحدُّث عنها بصيغة الفعل الماضي. ليست أشجار الصنوبر بشراً فهي تبقى طويلاً دون أن تتغيَّر، يا ألكسي فيودوروفتش. قالت لي: «ماما، إنني أرى شجرة الصنوبر هذه في حلمي وكأنها مرسومة». يعني شجرة الصنوبر كانت مرسومة ـ الحق أنها قالت لي ذلك بطريقة أخرى. نسيت الآن كيف قالت ذلك. «إنها مرسومة». إنه أمر سخيف وقد قالت لي في هذا الموضوع أشياء طريفة، لست قادرة إطلاقاً على أن أردّدها لك. ولقد نسيت كل شيء. حسناً، إلى اللقاء. إنني مضطربة جداً، وأخشى أن أصبح مجنونة. آه، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش، أصبحت مجنونة مرتين في حياتي، وقد عالجوني. إذهب إلى ليزا وشجِّعها بشكل لطيف فأنت تجيد ذلك.

ـ ليزا! صاحت وهي تقترب من الباب. أنظري، لقد جئتكِ بألكسي

فيودورفتش الذي أسأت إليه. وهو ليس غاضباً أبداً، أؤكد لك ذلك، بالعكس، يدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الأمر.

ـ شكراً ماماـ أدخل يا ألكسي فيودوروفتش.

دخل أليوشا. نظرت إليه ليزا بهيئة بدت فيها منزعجة وفجأة احمرَّ وجهها كله. كان واضحاً أنها تشعر بخجل من شيء ما. وكما يحدث غالباً في مثل هذه الحالات، بدأت تتكلم بسرعة في أمور لا شأن لها في نظرها متظاهرة بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة.

ـ لقد حدثتني أمي منذ لحظة، يا ألكسي فيودوروفتش، عن كل قصة المائتي روبل، وعن المهمّة التي كلّفت بها... تجاه ذلك الضابط المسكين... أخبرتني كل هذه القصة الرهيبة التي أهانته، وأنت تعرف أن أمي لا تجيد سرد مثل هذه القصص... وإنما هي تخلط الأمور بعضها ببعض. لقد استمعت أنا إليها، وبكيت. والآن، هل أعطيته المال، وكيف حاله الآن، هذا التعيس؟...

ـ المشكلة هي أنني لم أسلّمه المبلغ! تلك قصة طويلة. أجاب أليوشا متظاهراً، من جهته، بأن إخفاق مسعاه هو ما يشغل باله.

مع ذلك، لاحظت ليزا أنه يشيح بنظره، وهو أيضاً حاول ظاهرياً أن يتحدث في شؤون ليست لها أهمية. وجلس أليوشا إلى الطاولة وبدأ يروي القصة، ومذ قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه كلياً، وعرف كيف يأسر، بدوره، انتباه ليزا. كان يتكلم تحت وطأة الانفعال الشديد الذي لا يزال يشعر به، وكانت قصته واضحة ومفصَّلة. وكان قد اعتاد، فيما مضى، في موسكو، أن يجيء إلى ليزا أيام كانت لا تزال طفلة، فيقصّ عليها ما وقع له من أحداث، أو يحدثها عن قراءاته، أو عن ذكريات طفولته. وفي كثير من الأحيان كانا يلفِّقان أحلاماً مشتركة أو يخترعان روايات بكاملها مفرحة وهزلية. وها هما، الآن، يستعيدان أجواء موسكو، ويشعران باستيقاظ الحياة التي قضياها قبل سنتين.

اضطربت ليزا جداً من قصَّته. وعرف أليوشا كيف يرسم بانفعال عميق صورة أليوشنشكا. وعندما انتهى من سرد كل تفاصيل المشهد ووصف كيف داس المسكين المال، رفعت ليزا ذراعيها نحو السماء وصرخت بانفعال عنيف:

ـ إذن، لم تعطه المال؟ تركته يهرب؟ يا إلهي! كان عليك أن تلحق به وتدركه...

ـ لا، يا ليزا، هكذا أفضل، لأنني لم ألحق به.

قال أليوشا ونهض عن كرسيّه وسار بضع خطوات في الغرفة وهو في هيئة مغمومة.

ـ كيف هذا أفضل؟ لماذا هذا أفضل؟ والآن، ليس لديهم الخبز فسوف يهلكون.

ـ لن يهلكوا لأنّ هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال. سيقبلهما غداً. غداً سيقبلهما حتماً. تمتم أليوشا وهو يمشي مفكراً.

هل تعرفين يا ليزا، تابع يقول، وقد توقف فجأة أمامها. لقد ارتكبت خطأً ستكون له نتائج أفضل.

ـ أيّ خطأ، ولماذا ستكون له نتائج أفضل؟

ـ إليك لماذا، لأنه رجل خائف وضعيف الشخصية. لقد عانى كثيراً ولكنه لطيف جداً. حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأة بأنه أُهين، فراح يدوس المال لأنه، أؤكد لك، كان هو نفسه يجهل، حتى آخر لحظة، أنه سيدوس المال. إذن، يبدو لي أن ثمة أشياء كثيرة جرحت كبرياءه... أجل، كان ذلك أمراً لا بدّ منه في مثل وضعه... فهو أولاً، قد بالغ في إظهار ابتهاجه بهذا المال أمامي، ولم يكتم سعادته عنّي؛ فلا بدَّ أنه شعر، بعد ذلك، بمذلّة من موافقته السريعة التي لم يتمكن من السيطرة عليها. فلو أنه اغتبط أقلّ وامتنع عن إظهار هذا الفرح، لو أنه اصطنع أوضاعاً كما يفعل كثير من الناس لأَخذ

المال، لتحمَّل الوضع بسهولة أكبر، ولما رفض هذه المساعدة. لقد بالغ في الإخلاص وذلك ما جرح شعوره. آه، يا ليزا! إنه رجل طيب وصريح، وهذا ما يصعّب الأمور في مثل هذه الحالات. لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق سريع جداً جداً. وكان يضحك ضحكة قصيرة. لست أدري إذا كان يضحك أو يبكي... أقسم لك، إنه كان يبكي لشدّة حماسته... ويتكلم عن ابنتيه... عن الوظيفة التي عُرضت عليه في مدينة أخرى... ومذ فتح لي قلبه أحسَّ فجأة بالعار لأنه أظهر لي كل ما في نفسه، وإذا هو يشعر نحوي بحقد فجأة. إنه واحد من أولئك الفقراء المحتشمين جداً. وبصورة خاصة، شعر بالإهانة لأنه اتخذني صديقاً له بسرعة، واستسلم بسرعة. وقبلُ كان قد هدَّدني وأخافني، ثم حين رأى المال راح يعانقني. ولأنه عانقني، لم يتوقف عن ملامستي. فلهذه الأسباب شعر أنه أذلَّ نفسه. وهنا، ارتكبت تلك الغلطة، غلطة خطيرة جداً: قلت له فجأة بأن ليس لديه المال للانتقال إلى مدينة أخرى. وسوف يُعطى مزيداً من المال، وأنا شخصياً سأعطيه من مالي قدر ما يريد. ذلك ما أثَّر به فجأة. لماذا أُقحم أنا نفسي في مساعدته؟ هل تعلمين يا ليزا أنه أمر رهيب،أنه أمر مضنٍ لرجل جريح في كبريائه أن يرى جميع الناس يتقدّمون إليه محسنين... سمعت هذا الرأي كثيراً، وقد قاله الراهب زوسيما أيضاً. لا أعرف كيف أعبّر عن هذه الحقيقة، ولكن أُتيح لي أن ألاحظها بنفسي مراراً. وأنا شخصياً، هذا ما أشعر به. ورغم جهله، حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال، كان يشعر بذلك، وكان شعوراً لا بدَّ منه. ولم تكن حماسته قوية، إلّا أنه كان يشعر بأنه سيقوم بهذه الحركة... على كل حال، مهما تكن هذه الخاتمة تدعو للأسف، فلا ينبغي أن نقلق منها. بل إنني متأكد من أنّ ما حدث كان الأفضل وأن الأمور هي الآن على أفضل ما يرام...

ـ لماذا لا يمكن أن يكون إلّا على أفضل ما يرام؟ لماذا؟ صاحت ليزا وهي تنظر إلى أليوشا بدهشة كبيرة.

ـ لو أنه لم يدس المال بقدميه، يا ليزا، لو أنه أخذ المال، لظلَّ يبكي عندما وصل إلى منزله، من الذل ساعة بكاملها، ذلك أمر لا بدَّ منه. وسيبكي، وأقسم إنه سيأتي غداً لرؤيتي عند الفجر ويرمي بالورقتين النقديتين في وجهي، وسيدوسهما كما فعل منذ قليل، فيشعر بعدها بكرامة رهيبة وبالانتصار رغم علمه بأنه قد «ضيَّع نفسه». والآن، لن يكون هناك شيء أسهل من إرغامه على قبول هاتين المائتين من الروبلات، ليس أبعد من الغد، لأنه برهن على شرفه برفض المال ودوسه... ذلك أنه عندما أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أنني سأردّهما إليه غداً. وهو في حاجة ماسّة إلى هذا المال. ومهما يبلغ شعوره بالكبرياء فسيظلّ يفكّر في هذه المساعدة التي خسرها. وفي هذه الليلة، سيفكر أكثر في هذا المال. وأعتقد أنه سيأتي إليَّ مسرعاً لكي أسامحه. إنما سأذهب أنا إليه معترفاً: «أنت إنسان كريم على نفسك، وقد برهنت على ذلك، فاقبل الآن هذا المال وسامحني». عندئذ، سوف يقبل المال!

عندما قال أليوشا هذه الكلمات، «وسوف يقبل»، كان فيما يشبه السكر. راحت ليزا تصفّق بيديها.

ـ آه، هذا صحيح! فهمت فجأة كل شيء بوضوح! أوه، أليوشا، أين تعلّمت كل هذه الأشياء؟ ما زلت شاباً وتعرف ما يجري في أعماق النفس... أنا لا أستطيع القيام بذلك...

ـ الأمر الأساسي هو إقناعه بأننا سنعامله بالمساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا. تابع أليوشا كلامه وكأنه في حالة سكر. يجب أن يشعر بأننا لا نعامله بالمساواة فحسب، بل على قدم التفوّق أيضاً...

ـ على «قدم التفوُّق» هذا رائع، يا ألكسي فيودوروفتش، ولكن أكمل، أكمل!

ـ يعني... إنني لم أحسن التعبير... عن قدم التفوق... لكن غير مهمّ لأن...

ـ طبعاً هذا غير مهمّ، هذا غير مهمّ طبعاً. سامحني يا أليوشا، يا عزيزي، لقد كنت حتى الآن لا أحترمك كثيراً، تقريباً... يعني كنت أحترمك، ولكن على قدم المساواة، أما بعد الآن، فسأحترمك على قدم التفوق. لا تغضب منّي يا عزيزي، إذا كنت «أمزح». أردفت فوراً بانفعال شديد. أحبّ أن أضحك، أنا صغيرة، ولكن أنت، أنت... قل لي يا ألكسي فيودوروفتش، ألا تعتقد أنّ في هذه الأفكار التي لدينا، التي لديك أريد أن أقول... لا في تصوراتنا نحن... شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين... إننا نشرِّح عواطفه واضعين أنفسنا فوقه، أفلا نبرهن على الاستخفاف به، حين نطمئن منذ الآن إلى أنه سيأخذ المال؟

ـ لا، يا ليزا، لا يوجد احتقار أبداً. أجاب أليوشا بجزم كأنه كان يتوقع هذا السؤال. لقد فكّرت في هذا السؤال عينه وأنا عائد إلى هنا. فكّري قليلاً: كيف يمكننا أن نحتقره ونحن تماماً مثله، والبشر جميعاً مثله؟ لأننا لسنا أفضل منه، ولو كنا أفضل منه الآن، فإننا، على كل حال، لن نبقى أفضل منه متى وُجدنا في مثل ظروفه... لا أستطيع أن أجزم فيما يتعلق بك أنت يا ليزا، ولكنني أعتقد أنني أنا «مسكين» في بعض الأمور. أما هو فبالعكس ليس «مسكيناً» إنه مرهف الحس جداً... لا يا ليزا، ليس في هذا احتقار له! هل تعرفين ماذا قال مرشدي ذات مرة؟ يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى في المستشفى...

ـ قل لي، يا ألكسي فيودوروفتش، قل يا عزيزي! ما رأيك في أن نهتمّ بالناس كما لو كانوا مرضى في المستشفى!

ـ أنا موافق يا ليزا، إنني جاهز، يعني إنني لست جاهزاً تماماً. فصبري ينفد أحياناً، وأحياناً أخرى لا أرى شيئاً. أما أنتِ فشأنك شأن آخر.

ـ لا أصدّق من هذا الكلام شيئاً! ألكسي فيودوروفتش! كم أنا سعيدة!

ـ ما أجمل أن تقولي هذا يا ليزا!

ـ ألكسي فيودوروفتش، أنت طيب القلب وهذا مدهش. ولكنك أحياناً تدَّعي المعرفة بعض الشيء... ومع ذلك، فالمرء حين يعرفك يدرك أنك لست مدّعياً أبداً، اقتربْ من الباب بهدوء وتأكد أنّ ماما لا تتنصَّت علينا. وشوشت ليزا بهمس عصبي متعجل.

ذهب أليوشا نحو الباب وفتحه قليلاً ثم عاد ليقول أن لا أحد يستمع إليهما.

ـ اقترب إلى هنا، ألكسي فيودوروفتش، تابعت ليزا ووجهها يزداد احمراراً. هات يدك، هكذا. يجب أن أبوح لك بسرّ كبير: إن الرسالة التي كتبتها إليك، يوم أمس، لم تكن من أجل المزاح، إنها جدّية...

وخبأت وجهها بيديها. يبدو أنها كانت تشعر بخجل كبير من هذا الاعتراف. وفجأة، أمسكت يده وقبَّلتها بسرعة ثلاث مرات متتالية.

ـ أوه، ليزا! هذا رائع! قال أليوشا فرحاً. أنا، كنت متأكداً أنكِ كتبتها بجدّية.

ـ كنت مقتنعاً، لا!

وسحبت يدها فجأة، وقد احمر وجهها بشكل رهيب وأطلقت ضحكة خفيفة سعيدة.

ـ أقبِّل يده فيقول لي «هذا رائع»، لكن لومه كان غير صحيح!

كان أليوشا يشعر باضطراب شديد.

ـ أريد أن أرضيك دائماً يا ليزا، ولكنني لا أعرف كيف. تمتم بألم ووجهه محمرّ أيضاً.

ـ أليوشا، عزيزي، أنت بارد ووقح. ليس دائماً، إنما أحياناً: لقد تفضَّل فاختارني زوجة له ثم ها هو ذا غير مبالٍ! كان متأكداً بأنني جدّية في رسالتي، لا مؤاخذة! أليست هذه وقاحة!

ـ أهو عيب أنني كنت متأكداً؟ سألها أليوشا وانفجر ضاحكاً.

ـ آه، أليوشا! بالعكس، كان ذلك حسناً جداً. قالت ليزا وهي تنظر إليه نظرة حنوناً وسعيدة.

كان أليوشا لا يزال ممسكاً يدها بيده. وفجأة، انحنى وطبع قبلة على شفتيها الرقيقتين.

ـ ما هذا؟ ماذا دهاك؟ صاحت ليزا.

كان أليوشا قد فقد السيطرة على نفسه كلياً.

ـ آه، سامحيني إن كنت قد أسأت... ربما كنت أحمق جداً... لقد قلتِ إنني بارد، لذلك، قبّلتك... ولكنني أرى أنها كانت حماقة مني...

ـ ومع هذا الثوب أيضاً؟ وانفجرت ليزا ضاحكة وخبأت وجهها بين يديها. ثم لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول له وهي تضحك وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة وقاسية. حسناً، أليوشا، علينا أن ننتظر قليلاً فيما يتعلق بالقبلات. فأنا وأنت لا نعرف حتى الآن كيف نقوم بها. لا بدَّ لنا أن ننتظر زمناً طويلاً أيضاً. ختمت كلامها فجأة، ثم تابعت:

ـ ولكن، قل لي: ما الذي جعلك تختار بلهاء مثلي ومريضة، بينما أنت ذكي جداً ومتعقّل وفطن؟ أوه، أليوشا، أنا سعيدة جداً لأنني لا أستحقك أبداً!

ـ أجل يا ليزيا، خلال بضعة أيام سوف أترك الدير نهائياً. وعندما أعيش

في العالم فسيكون عليّ أن أتزوج. أنا أعرف ذلك. ثم إنه «هو» منْ أمرني بهذا، ومَن ستقبل بي أنا إلّا أنت؟ وأين أجد أفضل منك؟ لقد فكّرت في ذلك ملياً. أولاً، تعرفينني منذ الطفولة. ثانياً، تملكين قدرات كثيرة لا أملكها. أنت صاحبة قلبٍ مرح أكثر من قلبي. وأنت خاصةً أكثر براءة مني. فأنا، أنا قد عرفت أشياء كثيرة... آه! أنت لا تعرفين هذا الأمر! إنني كارامازوف! أيّ أهمية في أن تضحكي وتمزحي وتسخري مني أيضاً. بالعكس، اضحكي فهذا يسعدني... أنت تعتبرين نفسك مثل شهيدة...

ـ مثل شهيدة؟ ماذا تقصد؟

ـ نعم يا يا يا ليزا. أنظري في سؤالك الذي طرحته منذ لحظة. إذا ما كان في نفسنا شيء من احتقار لذلك المسكين الذي كنا نشرّح شخصيته ـ تلك فكرة تخطر ببال شهيدة... لست أعرف كيف أعبّر عما أريد قوله، لكن من يشعر بمثل هذه المسائل قادر على أن يتألم كثيراً... لا شكّ أنك فكرت في أشياء كثيرة وأنت مسمَّرة على كرسيك...

ـ أليوشا، اعطني يدك. لماذا تسحبها مني. قالت ليزا بصوت أضعفته السعادة. قل لي يا أليوشا: أيّ زيّ سوف ترتدي حين تترك الدير؟ لا تضحك ولا تغضب، إنه أمر يهمني كثيراً، كثيراً.

ـ لم أفكّر بعد في الزيّ الذي سوف أرتديه يا ليزيا. لكنني سأرتدي الزيَّ الذي تريدين.

ـ أريد أن ترتدي سترة من مخمل أزرق قاتم وصديرة مضلَّعة بيضاء وقبّعة من جوخٍ رمادي... قل لي: صدَّقتَ يوم أمس أنني لا أحبك عندما تنكرتُ لرسالتي؟

ـ لا، لم أصدّق ذلك.

ـ أوه، إنك لا تطاق ولا تُحتمل!

ـ أرأيتِ، كنت أعرف أنك تحبينني، ولكنني تظاهرت بأنك لا تحبينني وذلك لكي تشعري... أنك أكثر ارتياحاً...

ـ وهذا أسوأ أيضاً! إنه أسوأ لكنه أفضل. إنني أحبك حباً رهيباً يا أليوشا! تمنيت قبل قليل، وأنا أنتظرك: «سأطلب منه، مرة ثانية، أن يردَّ إليَّ رسالتي. فإذا أخرجها من جيبه وأعادها إليَّ (يمكن توقّع كل شيء منه) فهذا يعني أنه لا يحبّني ولا يستحق حبّي، إنه فتى تافه وفظّ. وأكون أنا هلكت». لكنك تركت الرسالة في غرفتك وهذا ما شجعني. تركتها في غرفتك لأنك كنت تشعر مسبقاً أنني سأطلبها منك بإلحاح، وأنت لا تريد أن تعيدها إليّ، أليس كذلك؟ هو هكذا، لا؟

ـ أوه ليزا، لا. لأن الرسالة معي الآن، وقد كانت معي من قبل. إنها هنا، في هذه الجيب. أنظري إليها.

وأخرج أليوشا الرسالة من جيبه وهو يضحك، وأظهرها لها من بعيد.

ـ لكنني لن أردّها إليك. أنظري إليها من بعيد.

ـ ماذا؟ كذبت عليّ إذن حين طالبتك بها؟ أنت راهب وتكذب!

ـ أجل لقد كذبت، وضحك أليوشا. ولكي أردّها إليك، كذبت. لأنها عزيزة عليّ. أضاف فجأة بانفعال شديد وقد احمرَّ وجهه مجدداً: سأحتفظ بها إلى الأبد، ولن أعطيها إلى أحد!

ـ أليوشا! كانت ليزا تتأمله مأخوذة ثم قالت له هامسةً: أنظر هل تتنصّت علينا ماما وراء الباب؟

ـ طيّب، يا ليزا، سأنظر ما دمت تطلبين ذلك. ولكن أليس من الأفضل ألّا أنظر؟ لماذا تظنين أن أمك ترتكب مثل هذه السماجة؟

ـ كيف تقول سماجة؟ أيّ سماجة؟ إذا كانت تستمع إلى ما يحدث مع ابنتها، فهذا حقّها، وهذا ليس سماجة. قالت ليزا وقد احمرَّ وجهها. كن على

يقين يا ألكسي فيودوروفتش أنني حين أصبح أمّاً وستكون لي ابنة مثلي أنا، فسوف أتنصّت عليها من وراء الباب.

ـ صحيح يا ليزا؟ هذا، ليس عملاً جيداً.

ـ آه، يا إلهي، أي سماجة في هذا؟ لو استمعت إلى حديث عادي، إذن، فذلك سماجة مني. أمّا هنا، فالأمر مختلف. هنا ابنتي تختلي بشاب... اسمع يا أليوشا: أحب أن أقول لك إنني سأراقبك، أنا أيضاً، متى تمَّت خطبتنا، وسأفضّ كل رسائلك وسأقرأها... إنني أبلغك منذ الآن..

ـ طيب، حسناً، إذا كان الأمر هكذا... ولكن هذا ليس حسناً. تمتم أليوشا.

ـ ما هذا الاحتقار! أليوشا، عزيزي، لن نتشاجر منذ أول يوم ـ أفضّل أن أقول لك كل الحقيقة: أنا أعرف أن التنصّت على الناس معيب جداً. لقد أخطأت أنا وأصبت أنت. ولكنني سأراقبك مع ذلك.

ـ راقبيني. لن تجدي شيئاً سيّئاً تتهمينني به. قال أليوشا ضاحكاً.

ـ أليوشا، أنت، هل ستطيعني؟ هذه أيضاً مسألة يجب أن نقررها مسبقاً.

ـ بكل سرور، يا ليزا، ولكن ليس في الأمور الأساسية. في الأمور الأساسية، حتى وإن لم توافقيني الرأي سأقوم بما يمليه عليّ واجبي.

ـ طبعاً. ولكن اعلم أنني مستعدة من جهتي أن أطيعك لا في الشؤون الأساسية فحسب بل في كل شيء ومدى الحياة. هتفت ليزا بحرارة؛ وأعاهدك على هذا منذ الآن. وبسعادة، بسعادة! وإني أقسم لك أيضاً إنني لن أراقبك أبداً من وراء الباب، لا ولن أقرأ واحدة من رسائلك، لأنك على حق وأنا على خطأ. أعرف أنّ لديّ رغبةً جامحة في التنصت، أعرف ذلك، ولن أفعل ذلك رغم كل شيء، لأنك تعتبر أن هذا غير لائق. والآن، أنت عنايتي الإلهية... اسمع يا ألكسي فيودوروفتش: لماذا أنت حزين في هذه الفترة الأخيرة، أمس

واليوم؟ أنا أعرف أن لديك هموماً، نوعاً من الحزن الخاص، من الحزن السرّي. وربَّما لا؟

ـ أجل يا ليزا، إنه حزن سرّي. قال أليوشا بحزن. إنني أرى أنك تحبينني حقاً ما دمت قد أدركت ذلك.

ـ لكن، ما هو هذا الحزن؟ بسبب ماذا؟ هل تستطيع قوله؟ سألته ليزا برجاء خجول.

ـ سأقول لك فيما بعد، يا ليزا، فيما بعد... أجاب أليوشا بحرج. والآن، أعتقد أنك لن تفهمي، وأنا عاجز عن التكلم عن هذا الشأن.

ـ أعرف أن موضوع أخويك ووالدك هو الذي يعذبك!

ـ نعم، هناك أخواي أيضاً! قال أليوشا حالماً.

ـ أنا لا أحبّ أخاك إيفان فيودوروفتش، يا أليوشا. قالت ليزا فجأة.

استقبل أليوشا هذه الملاحظة بشيء من الدهشة. لكنه تابع كلامه.

ـ أخواي هما في طريق الضياع، ووالدي أيضاً. وهم يدفعون الآخرين إلى الشقاء. إنها «القوة الخفية التي تحرّك آل كارامازوف»، كما قال الأب بايسي قبل قليل. هي قوة خفيَّة ومجنونة... ولا أعرف إن كانت روح الله تحلّق فوق هذه القوة... أعرف فقط أنني واحد من آل كارامازوف... أنا راهب. هل أنا راهب؟ أنا راهب يا ليزا؟ لقد قلتِ منذ لحظة إنني راهب؟

ـ نعم، قلت ذلك.

ـ والله، أنا لا أؤمن بالله.

ـ أأنت لا تؤمن به؟ ماذا دهاك؟ سألته ليزا بصوت خافت وحذر. لكن أليوشا لم يجب. كان في كلماته غير المتوقعة شيء خفيّ وذاتي وربما مبهم لكنه يعذبه دون أي شك.

ـ والآن، وفوق ذلك كله، هذا هو يرحل، صديقي يرحل، وهو خير إنسان

في هذا العالم. لو كنت تدركين يا ليزا! لو عرفتِ مدى تعلّقي بهذا الإنسان، ومدى ارتباطي روحياً بهذا الإنسان! سوف أبقى وحيداً... سأجيء إليك يا ليزا... من الآن فصاعداً سنكون معاً...

ـ نعم. معاً، معاً! سنكون معاً مدى الحياة. قبِّلني الآن. أسمح لك الآن بأن تقبلني.

قبَّلها أليوشا.

ـ حسناً، اذهب الآن، وليكن المسيح معك! (وباركته). إذهب بسرعة إليه طالما «هو» حيّ. الآن أفهم أنني أحتجزك بعنف. سأصلّي اليوم له ولك. سنكون سعيدين يا أليوشا! سنكون سعيدين، أليس كذلك؟

ـ أعتقد ذلك، يا ليزيا.

لدى خروجه من عند ليزا، لم ير أليوشا أنه من الضروري أن يذهب إلى السيدة خوخلاكوفا، وإنما أراد مغادرة المنزل دون أن يودعها. لكنه ما إن فتح الباب وخطا على السلَّم حتى رأى السيدة خوخلاكوفا أمامه. وعلى الفور، أدرك أليوشا أنها كانت تنتظره.

ـ ألكسي فيودوروفتش، إنه أمر فظيع! هذه حماقات صبيانية. آمل ألّا تضع في رأسك أحلاماً... هذه حماقات، حماقات، لا شيء سوى حماقات! قالت بعصبية.

ـ لا تقولي لها هذا الكلام. قال أليوشا. وإلّا اضطربت. وفي هذه اللحظة ستسوء حالها.

ـ إنني أسمع الجواب العاقل من شاب عاقل. هل أفهم من كلامك هذا أنك وافقتها شفقةً على مرضها حتى لا تثير غضبها بمعارضتك؟

ـ لا، أبداً. كنت جاداً في حديثي معها. أجاب أليوشا بلهجة قاطعة.

ـ الجدّ مستحيل في هذه الحال، شيء لا يمكن تصوّره. واعلم، أولاً،

أنني لن أستقبلك بعد اليوم أبداً، ثم سأسافر، وسوف أصطحبها معي. هل فهمت؟

ـ فيمَ تقلقين؟ قال أليوشا. لا يزال هذا الأمر بعيداً جداً. يجب أن ننتظر سنة ونصف السنة.

ـ أوه، يا ألكسي فيودوروفتش؛ صحيح، بالتأكيد، من الآن حتى سنة ونصف السنة سيكون هناك متسع من الوقت للتشاجر معها والانفصال. لكنني تعيسة، تعيسة جداً! وإن يكن هذا كله حماقات، لكنني صعقت. أنا الآن مثل فاموسوف في آخر مشهد، وأنت مثل تشاتسكي، وهي مثل صوفيا. تصوَّر! لقد أسرعت إلى السلَّم لأنتظرك. وفي تلك المسرحية حدثت جميع المصائب المشؤومة على السلَّم. سمعت كل شيء. وهذا ما يفسّر الأرق الرهيب وكل نوبات الهستيريا ليلة أمس! الحبّ للبنت والموت للأمّ. لقد فُتح قبري. والآن، أجب عن سؤالي الثاني وهو الأهم: ما تلك الرسالة التي كتبتها إليك؟ أرنيها فوراً، فوراً!

ـ لا، لا يجوز. كيف حال كاترينا إيفانوفنا؟ إنني مصرّة على معرفة ذلك.

ـ ما زالت تهذي. لم تسترد وعيها بعد. خالتاها معها، وما تنفكان تصرخان عالياً وتصطنعان الأبّهة معي. وهرزنستوب، عندما وصل، أصيب بخوف مريع، ولست أدري ما أفعل من أجله لكي أنقذه. أردت أن أستدعي له طبيباً. وقد جيء به في عربته. وفوق ذلك كله يبقى أنت وهذه الرسالة! صحيح أن هناك سنة ونصف السنة، لكنني أستحلفك بكل ما هو مقدَّس عندك، أستحلفك براهبك الناسك الذي يحتضر، أرني هذه الرسالة يا ألكسي فيودوروفتش. أرنيها، أنا أمّها. أمسكها بيدك إن شئت سأقرأها وهي بين يديك.

ـ لا. لن أريكِ إياها. يا كاترينا أوسيبوفنا؛ حتى لو أذنت هي لي بذلك لن أريك إياها. سأعود غداً. إلى اللقاء!

قال أليوشا ذلك وهبط السلَّم مسرعاً إلى الخارج.

II

سمردياكوف والقيثارة

لم يكن لديه الوقت. فقد خطرت في رأسه فكرة عندما كان يستأذن ليزا. فكرة حول الوسيلة الأكثر لباقة التي يستطيع بها أن يدرك أخاه ديمتري الذي كان من الواضح أنه يحاول أن يتحاشاه. كان الوقت متأخراً، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً. وكان أليوشا يشعر، أنه مدعوّ إلى الدير ليكون بالقرب من الناسك «الكبير» الذي يحتضر. ولكن الحاجة إلى رؤية أخيه ديمتري كانت هي المسيطرة: كان أليوشا يشعر في نفسه، ساعة بساعة، وقوع كارثة رهيبة لا مفرّ منها، ووشيكة الوقوع. فما هي هذه الكارثة وبماذا يريد أن يُعلم أخاه هذه اللحظة المحددة، هو نفسه لم يكن يعرف كيف يحددها. «لا هم إذا مات المحسن إليّ، بدوني، فلن ألوم أنا نفسي مدى الحياة على أنه كان في وسعي أن أنقذه ولم أفعل، وأغفلت واجبي ولم أسرع عائداً إلى الدير؛ وأنا أتصرف على هذا النحو فأنا أطيع أوامر معلمي...».

كانت خطته تكمن في العثور على أخيه ديمتري فجأة، متسلّلاً بالتحديد من خلال السياج للدخول إلى الحديقة والانتظار في الاستراحة. وكان أليوشا يقول لنفسه: «إن لم يكن هناك، فسأختبىء في الجناح دون أن أقول شيئاً، لا

لأصحاب المنزل ولا إلى فوما، ثم أنتظر في الاستراحة حتى المساء إذا لزم الأمر. فإذا كان يراقب، كما في السابق، وصول غروشنكا فمن المحتمل جداً أن يأتي إلى الاستراحة...». ولم يفكر أليوشا كثيراً في تفاصيل خطته ولكنه قرر تنفيذها فوراً، ولو تطلَّب ذلك أن لا يعود إلى الدير في ذلك المساء...

لقد جرى كل شيء دون عقبة تُذكر: تسلَّق السياج في الموضع نفسه الذي تخطّاه فيه أمس. وتسلل خفيةً إلى الاستراحة. وكان يريد ألّا يلاحظه أحد. فمن الجائز أن تكون صاحبة المنزل وفوما (إذا كان هناك) منحازين إلى جانب أخيه ديمتري، فقد يمنعانه من دخول الحديقة أو يبلغان أخاه بوصوله في الوقت المناسب، وأنه يجري البحث عنه والاستعلام عن مكانه. كانت الاستراحة خالية. جلس أليوشا في المكان الذي شغله يوم أمس وانتظر. تفحَّص الاستراحة. بدت له أكثر تداعياً، في هذه المرة، مما في اليوم السابق. ولكن النهار كان لا يزال مضيئاً. وعلى الطاولة الخضراء تُرى دائرة صغيرة خلفتها بدون شك كأس كونياك. ساورت أليوشا أفكار تافهة لا صلة لها بالمسألة الراهنة، كما يحدث عموماً أثناء انتظار مضجر. فتساءل: لماذا جلس في المكان عينه الذي جلس فيه بالأمس، ولماذا لم يجلس في مكان آخر؟ أخيراً، شعر أنه حزين، حزين جداً لقلَّة التأكد وشدة القلق. وبعد أن بقي هناك ما يقارب ربع ساعة، سمع لحن قيثارة. لا شك أن واحداً، أو اثنين، جاء يجلس هنا قريباً جداً، عل مسافة عشرين خطوة منه في مكان ما في الدغل. وفجأة، تذكر أليوشا أنه عندما ترك أخاه، عشية أمس، وخرج من الاستراحة، لمح، إلى اليسار قرب الحاجز، مقعداً قديماً صغيراً أخضر اللون في وسط الدغل. هنالك، بدون شك، قد جلس الزوّار. من هم إذن؟ وهذا رجل ينطلق، في تلك اللحظة، مغنياً بصوت نشاز مترقق يرافق نغمَ القيثارة:

قوة سحريّة

تربطني بحبيبتي.

فارفق بنا، يا رب.

بهاوبي!

بهاوبي!

بهاوبي!

وتوقَّف الصوت. صوت مغنٍّ مستضعف. تصنُّع أغنية مستضعف. والصوت الآخر، صوت امرأة لطيف وكأنه خجول. يُسمع، مع ذلك، في غنج مفرط.

ـ لماذا لا تأتي إلينا إلّا نادراً، يا بافل فيودوروفتش؟ هل تكره صحبتنا؟

ـ لا. لا شيء. أجاب صوت الرجل بتأدّب، بلهجة يدرك المرء فيها شيئاً من الوقار والحزم. كان واضحاً أنه الرجل المسيطر، وأن المرأة تحاول أن تكون معجبة. «أعتقد أن الرجل هو سمردياكوف، هذا صوته على الأقل. قال أليوشا في سرِّه. أما السيدة فأظن أنها ابنة صاحبة المنزل الصغير هنا، التي رجعت من موسكو والتي ترتدي فستاناً طويل الذيل، وتجيء كل يوم إلى مارفا إينياتيفنا لتأخذ حساءها...».

ـ إنه فظيع، كم أحبّ هذه الأشعار، لاسيّما إذا كانت متناغمة. تابع الصوت الأنثوي. لماذا لا تتابع الغناء؟

واستأنف الصوت:

التاج الملكيّ

لم تجد فيه حبيبتي سوءاً.

فارفق بنا، يا رب.

بهاوبي!

بهاوبي!

بهاوبي!

قال صوت المرأة:

ـ غنيتها في المرة السابقة أفضل من الآن. لقد غنّيت التاج «فلتنج حبيبتي من أي أذى». كان ذلك أكثر رقة. لقد نسيت اليوم بدون شك.

ـ ليست الأشعار إلّا حماقات. قاطع سمرdياكوف.

ـ أوه. لا، أنا أحب أبيات الشعر كثيراً.

ـ بالنسبة إلى أبيات الشعر، فإنها حماقات إجمالاً. أحكم أنت بنفسك. من الذي يتكلم في هذا العالم كلاماً مقفًّى؟ ولو تكلم جميع الناس شعراً فلن يكون إلّا بأمر من السلطة ماذا يمكن أن نقول؟ يا ماريا كوندراتيفنا. أبيات الشعر، هي لا شيء.

ـ كم أنت ذكي، كيف تفعل لكي تكون على هذا الجانب من الثقافة؟ تابع الصوت الأنثوي وقد ازداد أكثر فأكثر لُطفاً.

ـ كان يمكن أن أدرس أكثر من ذلك وأن أصبح أوسع ثقافة لو أنّ القدر لم يعاكسني منذ طفولتي الأولى. كان من الممكن أن أقتل في مبارزة بالمسدّس ذلك الذي وصفني بالكلب لأن ليس لي أب ولأنّ أمي نتنة. قال أحدهم هذا الكلام في وجهي، في موسكو، حيث انتشر سرّ مولدي بفضل غريغوري فاسيليفتش. وهو يعيب عليَّ تمرّدي على مولدي. وقد قال: «لقد مزَّقت أنا لها أحشاءها». أنا أعترف بذلك، لكنني كنت أفضّل أن أُقتل في بطنها على أن أجيء إلى هذا العالم. ويقال في السوق ـ وقد ظنت أمك، لقلة لباقتها، أنّ من واجبها أن تقول لي ذلك ـ إن أمي كانت مصابة بداء تلبُّد الشعر، وإن طول قامتها ١٤٠ سنتم. وإنها تمطّ وهي تكلّمني، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جداً على المرء أن يتكلم كما سائر الناس؟ لأنها كانت تحبّ أن تظهر

عاطفتها. لكنّ هذه العاطفة تفوح منها رائحة الفلاح. هل يستطيع الموجيك الروسي أن يشعر بأحاسيس مقارنة برجل مثقف؟ إنه أغبى من أن يشعر بأيّ شيء. عندما أسمع أحرف المدّ تُمطّ أتمنى أن أضرب رأسي بالجدران، وذلك منذ طفولتي. إنني أكره روسيا كلها، يا ماريا كوندراتيفنا.

ـ لو كنت ملازماً صغيراً أو جندياً في سلاح الخيَّالة لما قلت هذا، بل لجرَّدت سيفك دفاعاً عن روسيا كلها.

ـ لا أحبّ أن أكون واحداً من سلاح الخيالة، يا ماريا كوندراتيفنا، بل، على العكس، أريد أن ألغي كل الجنود.

ـ وعندما يهاجمنا العدوّ، فمن الذي يدافع عنّا؟

ـ لا داعي لذلك كله. في العام ١٨١٢، غزا، روسيا كلها، أمبراطور الفرنسيين نابوليون الأول، وهو عمّ الأمبراطور الحالي، فلو قد تمَّ له الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى. لأنّ أولئك الفرنسيين أمة ذكية تخضع عندئذٍ أمة غبيّة وتلحقها بها. ولكان النظام الذي نعيش فيه مختلفاً، عن نظامنا كلياً.

ـ لأنَّ نظامهم هم هناك هو أفضل من نظامنا؟ أنا أرفض أن أستبدل شاباً واحداً من شبّاننا مقابل ثلاثة رجال من الإنجليز. تمتمت ماريا كوندراتيفنا، وترافق صوتها في تلك اللحظة مع نظرة تفيض عذوبة.

ـ المسألة مسألة ذوق!

ـ ولكن أنت نفسك شبيه بأجنبي، أجنبي نبيل جداً. أقول لك هذا دون خجل.

ـ هل تريدين معرفة الحقيقة؟ على مستوى الفجور، إنهم جميعاً متشابهون، الذين هناك، والذين هنا؛ كلّهم أوغاد مع فارق واحد هو أنهم، هناك، يتنزّهون بأحذية ملمّعة، ونحن، هنا، أوغادنا قانعون ببؤسهم النتن، لا

يجدون فيه سوءاً. إن الشعب الروسي لا يُحكم إلّا بالسوط، كما قال فيودور بافلوفتش، يوم أمس، رغم أنه مجنون، هو وجميع أولاده.

ـ ولكنك قلتَ لي إنك تحترم إيفان فيودوروفتش.

ـ وهو قال عني إنني خادم نتن، ويعتبرني واحداً من أولئك المتمردين. ولكنه أخطأ في هذا. لو كان في جيبي قدر كافٍ من المال لسافرت منذ زمن طويل. أما ديمتري فيودوروفتش فهو أسوأ من كل الخدم، سواء بسلوكه وذكائه أو ببؤسه. هو لا يصلح لشيء، والجميع يحترمونه. أنا أعرف أنني لست سوى طبّاخ، ولكن، مع قليل من الحظ، سأفتتح «مقهى ـ مطعماً» في شارع بتروفكا في موسكو، لأنني أجيد إعداد أطباق خاصة. وما من أحد من زملائي قادر على ذلك إلّا الأجانب. ومن يستطيع في موسكو أن يحضّر أطباقاً خاصة؟ وديمتري فيودوروفتش هذا، ليس إلّا شخصاً حقيراً، ومع ذلك لو طلب إلى المبارزة أنبلَ أبناء أحد الكونتات، ابن كونت، سيقبل المبارزة. فيتم هو أفضل مني؟ إنه غبي إذا ما قورن بي! وما أكثر ما أتلف من مال في سبيل أسخف الحماقات.

ـ إن المبارزة عمل جيد. قالت فجأة ماريا كوندراتيفنا.

ـ ماذا؟

ـ إنها مخيفة وتحتاج إلى شجاعة، أليس كذلك، سيّما عندما يتواجه الضباط الشبان بمسدسات في اليد من أجل هذه السيدة أو تلك! إنه مشهد رائع! ولو كانوا يسمحون للفتيات بمشاهدة المبارزة؛ فأنا أحب بشكل رهيب أن أشهد مبارزة.

ـ المبارزة ممتعة عندما يسدّد المرء هو بنفسه، أما عندما يكون الآخر هو الذي يسدّد، فالأمر يصبح عندئذٍ كريهاً، وستهربين يا ماريا كوندراتيفنا.

ـ هل تهرب أنت في مثل هذه الحالة؟

لكن سمرد ياكوف لم يتنازل ليجيب عن سؤالها. وبعد لحظة من الصمت، سُمع لحن آخر وصوت مترقّق يغنّي المقطع الأخير:

سأرحل،

سأبتعد ذات يوم،

لكي أمتّع نفسي،

أريد أن أعيش في موسكو!

لا شيء يهمّني هنا،

لن أبالي بأي شيء.

هذا هو ما أريد،

أن لا أبالي بشيء.

وهنا وقع حادث: عطس أليوشا فجأة. فساد الصمت فوراً على المقعد. نهض أليوشا واتجه نحوهما. الرجل هو، بالفعل، سمرد ياكوف، بثيابه الجميلة وشعره المدهَّن كأنه أجعد، وحذاءيه الملمَّعين. كان قد وضع القيثارة على المقعد، كانت ماريا كوندراتيفنا، ابنة صاحبة المنزل؛ ترتدي ثوباً أزرق فاتحاً له ذيل طويل جداً يبلغ خمس أقدام. كانت الفتاة لا تزال صبيَّة، وليست بشعة لكن وجهها مسرف في الاستدارة، وفيه بقع حمراء مرعبة.

ـ هل سيأتي أخي ديمتري عما قريب؟ سأل أليوشا بلهجة هادئة جداً.

نهض سمرد ياكوف على مهل عن مقعده، وكذلك فعلت ماريا كوندراتيفنا.

ـ لماذا يجب أن أعرف ما يفعله ديمتري فيودوروفتش؛ إنني لم أكلَّف بحراسته فيما أعلم. أجاب سمرد ياكوف بصوت هادىء دقيق ومهمل.

ـ لا، إنما سألتك إذا كنت تعلم. قال أليوشا شارحاً.

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولا عن إقاماته، ولا أريد أن أعرف شيئاً.

ـ لكن أخي قال لي إنك، أنت، تطلعه على كل ما يحدث في المنزل، وإنك وعدته بإبلاغه عن مجيء أغرافينا ألكسندروفنا.

نظر سمردياكوف إلى أليوشا ببطء دون أن يضطرب.

ـ وكيف فعلت حتى استطعت الدخول إلى هنا رغم أن باب المدخل مقفل منذ أكثر من ساعة؟ قال وهو يحدّق إلى أليوشا.

ـ لقد مررت بالزقاق وتخطيت السياج فوصلت مباشرة إلى الاستراحة.

ـ أرجو المعذرة عن ذلك. ثم توجّه مخاطباً ماريا كوندراتيفنا. يجب أن أرى أخي بأقصى سرعة ممكنة.

ـ وهل يمكن أن نغضب منك؟ أجابت ماريا كوندراتيفنا بصوت ممطوط وقد سرَّها اعتذار أليوشا إليها. إن ديمتري فيودوروفتش هو أيضاً، يسلك غالباً هذا الطريق للوصول إلى الاستراحة؛ نحن لم نسمع شيئاً، وهو، موجود في الاستراحة.

ـ إنني بحاجة إليه الآن، أريد أن أراه، أو أن أعرف منك أين هو في هذا الوقت. إنني أفتش عنه في كل مكان. صدّقيني: إن المسألة هامّة جداً بالنسبة إليه.

ـ لا يطلعني السيّد على تنقلاته. تمتمت ماريا كوندراتيفنا.

ـ إنني أجيء إلى هنا في زيارة تعارف. قال سمردياكوف. فإذا هو أيضاً، ديمتري فيودوروفتش، يلاحقني بأسئلته المتواصلة عن سيدي: كيف الحال، ماذا يفعل، ومَن يزوره ومَن يخرج من منزله. وكل ما يمكنني أن أطلع عليه من أمور أخرى؟ لقد هدَّدني بالقتل مرتين!

ـ بالقتل؟ لماذا؟ قال أليوشا بدهشة.

ـ إنه، بما له من طبع خاص، لا يتورع عن شيء. ولقد رأيت ذلك بنفسك أمس. أنذرني بأنه سوف يقتلني إذا أنا تركت لأغرافينا ألكسندروفنا أن تدخل

وأن تقضي الليل في المنزل. إنه يخيفني كثيراً. ولولا أنه يثير في نفسي هذا الخوف كله لشكوته إلى السلطات المدنية. الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله.

ـ وقد قال له منذ قليل: «سأسحقك بالهاون». أضافت ماريا كوندراتيفنا.

ـ حسناً، إذا كان بالهاون، فليس الأمر جدّياً. قال أليوشا. ليتني أستطيع أن أراه الآن. ثمة شيء أقوله له...

ـ إليك ما أستطيع أن أعطيك من معلومات خاصة. قال سمردياكوف وكأنه يفكّر. أنا، أجيء إلى هنا كصديق قديم، ولماذا لا أزور جيراناً؟ من جهة أخرى، فإن السيد إيفان فيودوروفتش قد أرسلني في ساعة مبكرة من هذا الصباح إلى أخيك حيث يسكن في شارع أوزرنايا، وكلّفني، دون رسالة خطية، أن أعلمه جهاراً أنه يرجوه بإلحاح أن يجيء لتناول الغداء معاً في الساحة العامة. أنا، ذهبت إلى هناك لكنني لم أجد السيد ديمتري فيودوروفتش في منزله. كانت الساعة الثامنة صباحاً. قيل لي إنه «كان هنا، ولكن لا أثر له الآن». هذا ما قالته صاحبتا المنزل. أنا أقسم إنهما متواطئتان معه. من الجائز أن يكون الآن في الكاباريه مع أخيه إيفان، لأن إيفان فيودوروفتش لم يرجع إلى المنزل لتناول الغداء، وأن السيد فيودور بافلوفتش قد تغدّى منذ ساعة، ولا بدَّ أنه الآن في قيلولة. أتوسّل إليك ألّا تحدّثه عني، وألّا تقول له إنني ذكرت لك هذه المعلومات وإلّا سيقتلني إذا هو عرف ذلك.

ـ هل طلب أخي إيفان موعداً لديمتري في الكاباريه؟ سأله أليوشا مرة ثانية وبسرعة.

ـ تماماً.

ـ في كاباريه «المدينة الكبرى»، في الساحة العامة؟

ـ هي بالذات.

ـ هذا ممكن جداً. قال أليوشا وقد أصابه انفعال عنيف. أشكرك يا سمردياكوف. إنه نبأ هامّ. سأذهب إلى هناك.

ـ إياك أن تفضحني! قال سمردياكوف.

ـ لا تقلق. سأتظاهر بأنني دخلت الكاباريه صدفةً. لا تقلق.

ـ ولكن إلى أين أنت ذاهب؟ سأفتح لك باب الحديقة. صاحت ماريا كوندراتيفنا.

ـ لا، من هنا أقرب. سأتخطَّى السياج.

أقلق هذا النبأ أليوشا. أسرع إلى الكاباريه. ليس من اللائق أن يدخل الكاباريه، وهو في ثوب راهب. لكنه قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة، وأن يستدعيهما إلى السلَّم. وعندما اقترب من مبنى الكاباريه، ناداه إيفان سائلاً:

ـ أليوشا، هل تستطيع أن تجيئني إلى هنا أم لا؟ ستقدّم لي خدمة ممتازة.

ـ طبعاً، أستطيع. لكنني محرج بسبب ثوبي.

ـ ولكن لديَّ غرفة خاصة. اصعد إلى السلَّم. سأستقبلك هناك...

وبعد دقيقة، كان أليوشا يجلس إلى جانب أخيه. كان إيفان وحيداً يتناول غداءه.

III

الإخوة يتعارفون

لم يكن إيفان، مع ذلك، في غرفة خاصة؛ كان ذلك ركناً قرب النافذة، مفصولاً بستار، لكن الذين يجلسون وراء الستار لا يراهم الغرباء. تلك الغرفة، كانت غرفة المدخل، الأولى، وفيها «بوفيه» ملاصق للجدار. لا يتوقف الخدمُ عند الدخول إليها باستمرار ثم يتوارون. لم يكن في الغرفة سوى زبون واحد، وهو ضابط متقاعد عجوز، يحتسي الشاي في زاويته. وبالمقابل، كانت غرف الكاباريه تزخر بحركة الكباريهات، حيث تسمع نداءات وصرخات وفتح زجاجات الجعة وطقطقات الكرات على طاولة البلياردو وأرغن بارباري. كان أليوشا يعرف أن إيفان لا يرتاد الكاباريه أبداً، لم يكن من روّاد الكاباريهات. وإذا كان موجوداً هنا، فلكي يلتقي أخاه ديمتري. وديمتري لم يكن هناك.

ـ هل تريد أن أطلب لك حساء سمك، أو أيَّ شيء آخر؟ أم إنك لا تشرب سوى الشاي. قال إيفان وقد بدا سعيداً بحضور أليوشا، وكان قد انتهى من تناول الطعام واحتساء الشاي.

ـ فليكن حساء سمك، وبعده الشاي. فأنا جائع جداً. أجاب أليوشا فرحاً.

ـ وما رأيك بمربّى الكرز؟ عندهم هنا مربَّى الكرز. هل تتذكر عندما كنت صغيراً عند بولينوف، كنت تحب مربَّى الكرز.

ـ ولأنّك تتذكره؟ فليكن المربَّى أيضاً، فأنا أحبّه كما في الماضي.

نادى إيفان النادل وطلب حساء سمك وشاياً ومربًّى.

ـ إنني أتذكر كلّ شيء، يا أليوشا، أتذكرك وأنت في الحادية عشرة من عمرك. وكنت أنا في الخامسة عشرة. الخامسة عشرة والحادية عشرة. ذلك فارق لا يستطيع الإخوة فيه أن يكونوا رفاقاً. ولست أعرف حتى إن كنت قد أجبتك. وعندما سافرت إلى موسكو، لم تخطر ببالي أبداً خلال السنين الأولى. وبعد ذلك، جئت أنت إلى موسكو. أعتقد أنني لم أرك إلا مرة واحدة، لست أدري أين. وها أنا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وحتى الآن لم نتبادل كلمة واحدة. وغداً سأسافر. فتساءلت، ونحن نتناول الطعام: كيف يمكن أن أجده لأودّعه. ثم رأيتك تمرّ.

ـ هل كنت تحرص على أن تراني إذن؟

ـ نعم. حرصاً كبيراً. أريد أن أعرفك جيداً، وأن تعرفني أنت أيضاً، ثم نفترق. إن أفضل لحظة للتعارف، في رأيي، هي التي تسبق الوداع. لقد راقبت نظراتك إلي خلال هذه الأشهر الثلاثة، كان في عينيك انتظار دائم، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله، لذلك لم أحاول أن أقترب منك. لكنني تعلَّمت أن أحترمك. قلت لنفسي: لا يزال الرجل الصغير ثابتاً على قدميه. كنت أمزح قليلاً، ولكنني أتكلَّم الآن جاداً. أنت فتى مستقيم، أليس كذلك؟ وأنا أحب الشباب الثابتين ولو كانوا صِبية صغاراً مثلك. إن نظرتك التي تعبّر عن الانتظار لا تسيئني إطلاقاً: بالعكس، أصبحت أحبّ نظرة الانتظار هذه... أعتقد أنك تحبُّني، لست أدري لماذا، أليس كذلك يا أليوشا؟

ـ أحبك يا إيفان. أخونا ديمتري يقول عنك: إيفان، إنه قبر. أما أنا فأقول

عنك: إيفان، إنه لغز. وحتى الآن لم أستطع حلّ هذا اللغز. هناك نقطة أعتقد أنني رأيتها واضحة في نفسك، ومنذ هذا الصباح تحديداً.

ـ ما هي؟ سأله إيفان ضاحكاً.

ـ ألن تغضب؟ قال أليوشا ضاحكاً هو أيضاً.

ـ طبعاً لا؟

ـ إنك شاب شبيه بسائر الشباب الآخرين الذين هم في الثالثة والعشرين عاماً، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم، لكنّك، غرّ، مراهق! هل أزعجتك بقولي هذا؟

ـ بالعكس، لقد صعقتني بهذا التطابق! هتف إيفان فرحاً وبحماسة. هل تصدِّقني أنني منذ لقائي معها في هذا الصباح، وأنا أفكّر في هذا الجانب من طبيعتي التي تزخر بها سنتي الثالثة والعشرون، فإذا أنت تقع على الحقيقة دفعة واحدة، وبهذا قد بدأت. هل تعلم بماذا كنت أحدث نفسي قبل وصولك؟ مهما تخيّب الحياة ظني، ومهما أفقد ثقتي بالمرأة التي أحبّها، ومهما أقتنع بأن الكون ملعون وربَّما يخضع لمشيئة الشيطان، فلن يغيّر هذا من الأمر شيئاً. قد أهيم في وهاد اليأس البشريّ، ثم أبقى أحب الحياة، مع ذلك ورغم كل شيء. أودّ لو أشرب كأس الحياة حتى الثمالة وقد لا أتركها قبل أن أفرغها! وحين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمي الكأس قبل نفادها، ثم أمضي... لا أعرف إلى أين؟ لكن عندما أبلغ الثلاثين، فسينتصر الشباب على كل شيء ـ أنا واثق من هذا ـ سوف ينتصر على تبدد الأحلام وعلى مشاعر الاشمئزاز. لقد تساءلت ألف مرة: هل في هذا يأس يمكن أن يخنق في نفسي هذا الظمأ إلى الحياة، هذا الظمأ المسعور الذي قد لا يكون لائقاً؟ وانتهيت إلى الاعتقاد بأن لا. ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب، ثم أزهد وأعفّ من تلقاء نفسي

بعد ذلك. إنّ الواعظين بالأخلاق، المصدورين الحزانى وخاصة الشعراء، يحلو لهم أن يصفوا بالضعة هذا الحبّ الحارّ للحياة. ويجب أن نعترف، على كل حال، أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف إرادة الحياة هذه بأي ثمن. وإنّ هذه الإرادة قائمة فيك أنت أيضاً. لكن لماذا توصف بالدناءة؟ إن القوة الصادرة عن المركز قوة رهيبة لم تنفد في كوكبنا هذا، يا أليوشا. الحياة ممتعة، وإني لأحيا ولو على خلاف كل منطق. حسناً، أنا لا أؤمن بقيمة النظام ولكنني أحبّ وريقات الأشجار النديات حين تنبت في الربيع، وأحبّ السماء الزرقاء، وأحبّ أيضاً دون أن أدري لماذا ـ هل تصدّق ذلك؟ ـ أحبّ أيضاً بعض البشر، وتهزّني الحماسة لأعمال البطولة التي انقطعت، مع ذلك، عن الإيمان بها، منذ زمن طويل، ولكنني ما زلت أقدّسها بحكم عادة غالية على نفسي. جاؤوك بحساء السمك. كلْه. أريد أن أسافر إلى أوروبا يا أليوشا. سأسافر إليها من هنا، وأعرف أنني لن أجد هناك إلّا مقبرة، ولكنني شديد الارتباط بذكرى أولئك الموتى الذين يرقدون فيها. إن كلّ حجر يغطيهم يتكلم عن حياة سابقة جامحة من الإيمان بالحياة، وبقيمة العمل، وبالحقيقة، وبالكفاح، وبالعلم أيضاً، أنا أعلم مسبقاً أنني سأرتمي على ركبتي جاثياً أمام هذه الذكريات، وسأبكي على حجارة القبور تلك، وأغمرها بالقبل، مع شعوري في أعماق قلبي بأن ذلك قد مضى ولن يعود. لكنني لن أبكي من يأس بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعي. سيسكرني حزني وحناني. إنني أحبّ وريقات الأشجار في الربيع، أحبّ السماء الزرقاء! ليس الأمر أمر عقل ومنطق. إن حبّ الحياة ينبجس من أحشائي، وإن قوى شبابي التي لم تضعف هي التي أحبّ... هل أنت تفهم شيئاً من هذه المعمَّيات يا أليوشا أو لا؟ قال إيفان ضاحكاً.

فأجابه أليوشا:

ـ أفهمها جداً، يا إيفان! من عمق الأحشاء ينبع حبّ الحياة. لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة. وإني أبتهج كثيراً لك حين أراك راغباً في الحياة بهذه القوة. قال أليوشا.

ـ وأعتقد أنّ على كل الناس في هذا العالم أن يتعلَّموا حبّ الحياة قبل كل شيء.

ـ حبّ الحياة أكثر من معنى الحياة؟

ـ نعم، بالتأكيد، حبّ الحياة قبل المنطق، كما قلت أنت، قبل المنطق بالمطلق، وبهذا وحده سأدرك معنى الحياة. أنا، من جهتي، أفكر في هذا منذ زمن طويل. لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن تعيش ولم يبق عليك إلّا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص.

ـ هل أنت تهتم بخلاصي؟ وأنا، ما كنت أحسب أنني في ضياع. وما هو النصف الثاني في رأيك؟

ـ هو بعث أمواتك أولئك الذين لم يموتوا أبداً. هيّا، ناولني الشاي. إنني سعيد بحديثنا هذا يا إيفان.

ـ ألاحظ أنك في حالة من الوحي. ما أشدَّ ما أحبّ «اعترافات الإيمان» هذه التي يقولها... رهبان مبتدئون مثلك! إنك شاب ثابت يا ألكسي. هل صحيح أنك تريد أن تترك الدير؟

ـ نعم صحيح! أمرني مرشدي العجوز بالذهاب إلى العالم.

ـ سوف نلتقي أيضاً إذن، في هذا العالم، سوف نلتقي قبل الثلاثين عاماً، قبل أن أرمي أنا الكأس. لا يريد والدنا أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل بلوغ السبعين عاماً. وهو يحلم أن يعيش ثمانين عاماً، لقد قال لي ذلك، هو نفسه، وهو جادّ في هذا الأمر وإن يكن مهرّجاً. إنه يتهالك على اللذة ويحسب أنه مقيم عليها كما على صخرة... صحيح أن الإنسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء

غير اللذة، ولكن الحياة على هذا الطراز حتى السبعين شيء مقرف، فالأفضل حتى الثلاثين: وبذلك يستطيع المحافظة على «مظهر نبلٍ» كاذباً على نفسه. هل رأيت ديمتري اليوم؟

ـ لا، لم أره، لكنني رأيت سمردياكوف.

وقصَّ أليوشا على أخيه بسرعة تفاصيل لقائه بسمردياكوف. فكان إيفان يصغي إليه وقد اكتسى وجهه تعبير من الهمِّ. فاستوضح أليوشا في نقطتين أو ثلاث.

ـ ألحَّ سمردياكوف على أن لا أذكر لأخينا ديمتري شيئاً مما قاله لي. أضاف أليوشا. فقطَّب إيفان حاجبيه ووجم مفكراً.

ـ أبسبب سمردياكوف تقطّب حاجبيك؟ سأله أليوشا.

ـ نعم، بسببه. فليذهب إلى الجحيم. لقد كنت أرغب، حقاً، في أن أرى ديمتري ولكن الآن لا حاجة إلى ذلك.

ـ وهل صحيح أنك ستسافر بمثل هذه السرعة يا أخي؟

ـ أجل.

ـ وديمتري والوالد؟ كيف سينتهي هذا الأمر بينهما؟ قال أليوشا قلقاً.

ـ إنك تعود دائماً إلى هذا الموضوع! فيمَ يعنيني أنا نزاعهما؟ هل أنا حارس لأخي ديمتري؟ أجاب إيفان بعنف، ولكنه لم يلبث أن ابتسم ابتسامة مرَّة: ذلك جواب قايين لله عن قتله أخاه؟ أليس هذا ما تريد قوله؟ ولكن، إلى الجحيم، على كل حال! صحيح، أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأحرسهما! لقد أنهيت أعمالي، وسأسافر. أتراك تتخيل أنني أغار من ديمتري، وأنني حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترينا إيفانوفنا؟ دعك من هذا! كانت لي أنا أعمالي، وقد أنجزتها فسأسافر. أنجزتها منذ قليل، وكنت أنت شاهداً عليها.

ـ هل تعني ما جرى بينك وبين كاترينا إيفانوفنا؟

ـ نعم. في منزلها. لقد قطعت صلتي بها دفعة واحدة. ماذا؟ ماذا فعلت لديمتري؟ لا شأن لديمتري بهذا الأمر. وأنت تعرف ذلك بنفسك. لقد تصرَّف ديمتري في هذا الأمر كلّه تصرّف متواطىء معي. أنا لم أطلب منه شيئاً بل هو من تركها لي من تلقاء نفسه، وزاد على ذلك، فباركني. لكنها تمثيلية. ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعوري بالتخفف الآن! كنت هنا، أتناول غدائي منذ قليل، اشتهيت أن أطلب بعضاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة حريّة عادت إليّ. لقد دام ستة أشهر ـ وفجأة ها أنا أتحرر دفعة واحدة، حتى يوم أمس، ما كنت أتصوَّر أنني سأستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى أردت!

ـ أعن حبِّك تتكلّم يا إيفان؟

ـ عن الحبّ إن شئت، نعم؛ لقد عشقت آنسة، فتاة في مدرسة داخلية، فتألمت معها، وهي التي جعلتني أتألم. وكنت مشدوداً إليها... ثم تبدّد كل شيء في طرفة عين. منذ قليل، كنت أتحدث معها مستهاماً، وعندما خرجت، تفجرتُ ضحكاً ـ هل تصدّق هذا؟ تلك هي الحقيقة.

ـ لكنك حتى الآن تتكلم بمرح. قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الذي بدا يشع فرحاً.

ـ وهل يمكنني أن أحزر أنني لا أحبّها أبداً. ها، ها، كم تعجبني! ولكن حين أجريت معها ذلك الحديث، وحتى الآن، تعجبني كثيراً، هل تصدّق؟ ورغم هذا، فكم هو سهل التخلي عنها.

ـ لا، لعلَّ ذلك لم يكن حباً؟

ـ أليوشا! قال إيفان ضاحكاً. لا تطلق آراءً في الحب! فهذا لا يناسب حالتك. إنني أفكّر كيف اندفعت في هذا الصباح! لقد نسيت أن أقبّلك عندئذ... وكم هي عذَّبتني! صحيح أنني كنت على حافة الهستيريا؛ أوه! كانت

تعرف أنني أحبّها! وكانت تحبني أنا وليس ديمتري (قال إيفان ذلك مرحاً) ولم يكن ديمتري إلّا ذريعة لها. وكل ما قلته لها هو الحقيقة، لكن المشكلة، وما هو أساسيّ، أنها تحتاج إلى خمسة عشر عاماً أو إلى عشرين عاماً ربّما، لكي تدرك أنها لا تحب ديمتري أبداً، وأنها تحبني أنا، أنا الذي تعذبني. وأعتقد أنها لن تدرك هذه الحقيقة رغم درس هذا الصباح! وهذا أفضل: أنا نهضت وانصرفت إلى الأبد. بالمناسبة، كيف حالها الآن؟ وماذا حدث بعد انصرافي؟

ـ أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمّت بها، وذكر له أنها لا تزال فاقدة الوعي، على الأرجح، وأنها تهذي.

ـ هل صحيح ما قالته خوخلاكوفا؟

ـ أعتقد أن نعمْ.

ـ يجب الاستطلاع. على كل حال، ما من أحد مات من نوبة عصبية. قد تفيد نوبة الأعصاب، نوبة الأعصاب وهبها الله للنساء لأنه يحبهنّ. لن أذهب إليها! لماذا استئناف الأمر؟

ـ زعمت منذ قليل أنها لم تحبّك يوماً.

ـ قلت ذلك عمداً، يا أليوشا! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالاً باستعادة حريّتي. ليتك تعلم ما أشعر به من سعادة.

ـ أخي، الأفضل ألّا تشرب. أجاب أليوشا بحرارة. إنني أشعر بحزن شديد ثم إن...

ـ أنت حزين منذ زمن طويل، لقد لاحظت أنا هذا.

ـ إذن، إنك مصرّ على أن تسافر غداً صباحاً؟

ـ غداً في الصباح؟ أنا لم أقل في الصباح.... لكنني ربَّما أفعل. أنت ترى أنني تناولت غدائي هنا حتى لا أخلو إلى العجوز حول طاولة واحدة، فإلى هذا الحدّ يثير العجوز اشمئزازي، هو وحده. كان يمكن أن أتركه منذ زمن طويل

لأتحرَّر من وجوده. ولكن، لماذا يقلقك سفري؟ أنا وأنت، لا يزال أمامنا وقت طويل، لا يزال أمامنا أبدٌ تقريباً!

ـ إذا سافرت غداً، أيكون أمامنا أبد؟

ـ أنا وأنت، فيمَ يهمّنا هذا الأمر؟ سيكون لنا متَّسع من الوقت لكي نتحدَّث عمّا يهمّنا، وما هو لنا نحن الاثنين، ولماذا نحن هنا. قال إيفان ضاحكاً، لماذا تنظر إليّ بهذه الدهشة؟ ما هو الأمر بالنسبة إلينا؟ أجب! هل نحن هنا لكي نتحدَّث عن الحبّ، وعن كاترينا إيفانوفنا، والعجوز وديمتري، وعن ظروف الحياة في الخارج، وعن الأحوال المشؤومة في روسيا، وعن الأمبراطور نابليون؟ هل نحن هنا من أجل أن نتحدَّث في هذه الأمور؟

ـ لا، ليس من أجل هذا.

ـ إذن، أنت تعرف بنفسك ما يجمعنا هنا. ثمة أناس يتناقشون في أمور هذا العالم، أما نحن، نحن البسطاء، فنريد أن نحلَّ أولاً مشكلات الحياة الميتافيزيقية. ذلك هو همُّنا نحن شباب روسيا. إن كل شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة. وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التي قرر فيها العُجّز أن يدرسوا المسائل العلمية. ما الذي كان يدفعك خلال هذه الأشهر الثلاثة إلى أن تنظر إليَّ نظرة الانتظار هذه؟ كنت تريد أن تعرف إن «كنت أنا ملحداً أم مؤمناً؟» ذلك ما كان في أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر، يا ألكسي فيودوروفتش؟

ـ نعم. ربَّما كان ذلك، قال أليوشا مبتسماً. ولكنني أرجو أن لا تكون تسخر منّي يا أخي العزيز؟

ـ أنا أسخر؟ لا أريد أن أزعج أخي الصغير الذي انتظر مني أشياء كثيرة خلال هذه الأشهر الثلاثة. أليوشا، أنظر إليَّ في عينيّ: ألست أنا فتىً صغيراً مثلك، مع فارق واحد هو أنني لست راهباً مبتدئاً. كيف يتصرّف اليوم شبابنا

الروس؟ البعض منهم أريد أن أقول؟ إنهم يلتقون في خمارة قذرة ويجلسون إلى طاولة في إحدى الزوايا. لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن، وسينكر بعضهم بعضاً، بعد أربعين عاماً متى خرجوا من الخمارة. فما الذي يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصيرة التي توفرها المصادفة في الخمارة؟ يتناقشون في الكون وفي المسائل الكونية حتماً: هل الله موجود وهل ثمة خلود بعد الموت؟ والذين لا يؤمنون بوجود الله، يتناقشون في الاشتراكية والفوضوية، وفي إعـادة بناء البشريَّة على أسس جديدة. والفريقان كلاهما سواء. فالمشكلات التي يعالجها هؤلاء، هي المشكلات التي يعالجها أولئك ولكن من الجهة المعارضة. وعددهم لا يُحصى في بلادنا، هؤلاء الشبان الروس الذين يفيضون أصالة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون إلا مناقشة المسائل الأبدية. أليس هذا صحيحاً؟

ـ نعم، بالنسبة إلى الروس الحقيقيين. إن المسائل المتعلقة بوجود الله وبالخلود، أو، كما تقول، هذه المسائل عينها التي تعالَج من الجهة المعارضة هي ذات خطورة حيوية ومن المفيد أن تكون كذلك. أجاب أليوشا وهو ينظر إلى أخيه بابتسامة هادئة.

ـ هل تعرف يا أليوشا، معنى أن تكون روسياً، هو أن تلمع بالذكاء، بالرغم من كل شيء، واعلم على كل حال، أن هذه الأمور التي تشغل تفكير الشبان في روسيا هي أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال. لكن بين هؤلاء المراهقين واحداً، اسمه أليوشا، أحبّه كثيراً.

ـ إنها نتيجة بلغت في استخلاصها غاية اللطف. قال أليوشا ضاحكاً فجأة.

ـ بماذا تريد أن نبدأ؟ أنا أترك لك الخيار. هل تريد أن نتحدّث عن الله، هل هو موجود أم لا؟

ـ إبدأ من حيث تريد، ولو بمعالجة تلك المسائل التي وصفتها بأنها تُعالَج من الجهة المعارضة. ألم تؤكد يوم أمس، في منزل والدنا، أنّ الله غير موجود؟ قال أليوشا وهو ينظر إلى أخيه نظرة تساؤل.

ـ تعمدت أن أقول ذلك يوم أمس، لدى العجوز لكي أغيظك، وقد رأيت لهيباً ينبجس من عينيك. والآن، أشعر بأنني على أتمّ الاستعداد لمناقشة هذا الأمر معك، وسوف أناقشه بجدّية. أريد أن أتفاهم معك، يا أليوشا، لأنني ليس لي أصدقاء. إنني سأحاول الاقتراب منك.

ـ هل تتصور أنني ربما سلَّمت بوجود الله؟ هذا يفاجئك، أليس كذلك. قال إيفان ضاحكاً.

ـ نعم، بالتأكيد. إلّا أن تكون الآن مازحاً من جديد.

ـ «مازحاً»؟ لقد أخذوا عليَّ ذلك بالأمس، عند راهبك العجوز؛ إسمع، يا صغيري؛ إنّ عجوزاً آثماً عاش في القرن الثامن عشر، قال: «إذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه». والحق أن الإنسان قد اخترع الله. وليس أغرب ما في الأمر أنّ الله لا وجود له في الواقع، بل إن هذه الفكرة، فكرة وجود الله بالضرورة، قد أُمكن أن تنبت في دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الإنسان من توحش وشرّ، ذلك أن هذه الفكرة مقدّسة تؤثّر في القلب، وهي في الوقت نفسه حكيمة وتشرّف الإنسان. أما أنا، فقد قررت منذ زمن طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذي خلق الإنسان أم أن الإنسان هو الذي تخيَّل الله؟ سأعفي نفسي من فحص البديهيات التي يستند إليها شبابنا الروس، في هذه الأيام، والتي يستمدونها، في حقيقة الأمر، كما هي من الافتراضات التي يفترضها الناس في البلاد الأوروبية الأخرى. ذلك أنّ ما هو افتراض لا أكثر. في نظر العلماء الأجانب، سرعان ما يصبح بديهية في نظر مراهقينا، بل وفي نظر أساتذتهم

الذين لا يفضّلون المراهقين صدقَ حكمٍ في كثير من الأحيان. سأترك جانباً جميع الافتراضات إذن وأتساءل ما هي غايتنا الآن على وجه الدقّة؟ أما أنا فيهمّني أن أشرح لك طبيعتي، بأقصى سرعة ممكنة، وأن أُفهمك أيَّ إنسان أنا، وما هو إيماني، وأين أضع آمالي؟ لذلك، سأقول لك فوراً، إنني أسلِّم بوجود الله دون مناقشة. ولكنني أريد أن تلاحظ ما يلي: إذا كان الله موجوداً، وإذا كان قد خلق الأرض فعلاً، فهو اتّبع في هذا الخلق، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة، قوانين هندسة إقليدس، ولم يهب للعقل البشري إلّا فكرة مكان ذي ثلاثة أبعاد. ومع ذلك، فقد وُجد ولا يزال يوجد حتى اليوم، أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكّون في أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه عام، مستنداً إلى قوانين هندسة إقليدس وحدها؛ حتى إنهم يقررون أن الخطّين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة إقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض، يمكن، في الواقع، أن يتقاربا ويتلاقيا في نقطة موجودة في اللانهاية. لقد قلت لنفسي، يا عزيزي: إذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة، فلن أستطيع أن أعرف أيَّ شيء عن مسألة الله. إنني أعترف بتواضعٍ أنني لا أملك المواهب اللازمة للجزم برأي في مسائل من هذا النوع، لأن عقلي إقليدسيّ قد خُلق للأرض، ومن العبث أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم. وإنك لحسناً تفعل أنت نفسك، يا أليوشا، إذا أنت لم تفكر في هذه الأمور، وإذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود! هذه عناصر لا يدركها عقلنا لأنّ عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له إلّا ثلاثة أبعاد. ذلك هو السبب في أنني أسلِّم بوجود الله. ولست أسلّم بوجود الله فحسب بل أسلِّم أيضاً بحكمته العليا وبغاياته، رغم أنه من المستحيل علينا أن

ندرك هذه الغايات. أنا أؤمن بوجود نظام كونيّ شامل يضفي على الحياة معنى، وأؤمن بانسجام أبديّ علينا أن نذوب فيه جميعاً ذات يوم. أؤمن بـ «الكلمة» التي يتجه إليها الكون «الكلمة التي هي الله»، وهلّم جرا إلى غير نهاية. لقد قيل في هذا المجال كلام كثير. ولكنني على طريق الصواب، ألا ترى هذا الرأي؟ فاعلم، إذن، الآن، ختاماً لكل ما قلته، أنني لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله، ولا أستطيع الموافقة على قبوله، رغم معرفتي بوجوده. لست أرفض الله، إفهمني جيداً، وإنما أرفض العالم الذي خلقه ولا أريده. وها أنا أشرح لك ما أريد قوله: إنني أؤمن إيماناً جازماً، مثل إيمان طفل، بأن آلام هذا العالم سوف تخف شيئاً بعد شيء، وسوف تزول في نهاية الأمر، وأن هذه المهزلة الحقيرة، مهزلة التناقضات الإنسانية ستتبدّد كسرابٍ باطل تبدُّدَ شيء تافه اخترعه كائن ضعيف صغير، وأنها ستتبدّد كمثل الذرَّة في ذهن إقليدس. أؤمن بأنّ حقيقة مثلى ستنبثق في خاتمة المطاف من هذه الحياة حين يتأكد الانسجام الأبديّ، فإذا هي تبلغ من السموّ أنها تهدّىء جميع القلوب، وتسكّن جميع أنواع الغضب، وتكفّر عن جميع جرائم البشرية، وتفدي كل الدم الذي سفح على الأرض. ولن تتيح هذه الحقيقة العفو عن جميع الأخطاء البشرية فحسب، مهما كانت تلك الأخطاء، بل سوف تسوِّغها فوق ذلك. لنسلِّم بهذا كلّه. ولكن، حتى في هذه الحالة، فأنا لن أقبل الأمر ولا أريد قبوله! فلتلتقِ الخطوط المستقيمة المتوازية ولأرها، فأعترفَ بأنها التقت، ولكنني لن أقبل ذلك. تلك هي طبيعتي، يا أليوشا، وذلك هو إحساسي بالعالم. لقد حدَّثتك بجدّية في هذه المرة؛ تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن، ولكني أوصلته إلى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً وصادقاً، لأن ذلك وحده يهمّك. ليس

الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني، بل كنتَ تريد أن تسمعني متحدثاً عن نفسي لكي تعرف ما يدور في نفسي كأخٍ تحبّه. وها أنت عرفت ذلك الآن، وقد قلتُه.

ختم إيفان كلامه المطنب فجأة، بفيض من عاطفة كان غير متوقع.

ـ ولماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا «على أغبى نحوٍ ممكن»؟ سأل أليوشا وهو يلقي عليه نظرة شاردة.

ـ أولاً، لأنني أردت أن أجاري عادات الناس؛ فإن الأحاديث حول هذا الموضوع في روسيا غبيّة دائماً. ثانياً، لأن المرء يكون أقرب إلى الحقيقة عندما يكون غبياً. فالأكثر غباء هو الأكثر وضوحاً. إن الغباء يمضي نحو الهدف مباشرة دون لفّ ودوران غامضين. الغباء بساطة وإيجاز، أما الذكاء فمكر وخداع. إن الفكر الذكي فاجر أما الغباء فمستقيم وشريف. شرحت لك يأسي، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً، يكون الأمر أفضل في نظري.

ـ هل تشرح لي لماذا ترفض «قبول العالم»؟ سأله أليوشا.

ـ طبعاً أشرح لك ذلك. ليس هذا سرّاً. فأنا أريد الوصول إلى هنا. أنت أخي الصغير، ولا أريد أن أصرفك عن إيمانك وأفقدك توازنك. بالعكس، أنا نفسي من يريد أن يشفى بفضلك. أجاب إيفان مبتسماً فجأة وكأنه مراهق خجول. لم يره أليوشا بعدها يبتسم هذه الابتسامة .

IV

العصيان

ينبغي أن أعترف لك بشيء. بدأ إيفان كلامه: لم أستطع أبداً أن أفهم كيف يمكن أن يحبّ المرء الناس القريبين منه؛ أريد القول: إنّ أقرب الناس إلينا، برأيي، هم الذين يستحيل علينا أن نحبَّهم، ولا يمكن أن نحبَّ إلّا البعيدين عنا. لقد قرأت، لست أذكر متى، ولا أين، عن «يوحنا الرحيم» (قديس) الذي جاءه متشرد جائع، وطلب منه أن يدفئه. فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه وراح ينفخ في فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب. أنا متأكد أنَّ ما قام به كان كذبة هستيرية، وبدافع حبٍ يمليه الواجب، وروح التكفير عن ذنب كان يثقل كاهله. فلكي نستطيع أن نحبّ إنساناً عليه أن يكون مختفياً عن نظرنا، ومتى أظهر وجهه اختفى الحب.

ـ لطالما ردّد هذه القصة الراهب العجوز زوسيما. قال أليوشا. كان يقول أيضاً إن وجه الإنسان غالباً ما يشكل حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لا تجربة لديهم في الحب. ولكنّ ثمة الكثير من الحب بين الناس؛ كما أن هناك محبة تكاد تشبه محبّة المسيح، أنا أعرف ذلك يا إيفان...

ـ أما أنا حتى الآن فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه، ومعي ألوف

البشر. إنما السؤال هو معرفة ما إذا كان سبب ذلك هو عيوب الناس أم طبيعة البشر. وبرأيي إنّ محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض. إنّ المسيح إله ونحن لسنا آلهة. لنفرض مثلاً، أنني قادر على أن أتألم بعمق. لكنه من الصعب على شخص آخر أن يعرف عمق الألم الذي أعانيه أنا، وذلك لأنه شخص آخر، من النادر أن يسلّم الواحد بألم غيره (كما لو كان ذلك مرتبة اجتماعية). فلماذا يرفض أن يسلّم بألمي؟ لأن رائحة فمي كريهة، مثلاً، أو لأنّ وجهي غبي، أو لأنني دست قدمه، لست أدري متى! ثم إنه ثمة آلام وآلام: هناك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا، كالجوع مثلاً. فالناس تريد أن تصدّقنا في ما يتعلق بهذا النوع من الآلام لكي يجعلوا من أنفسهم محسنين إلينا فيما بعد. أما إذا كان الألم أرفع من ذلك درجة أو درجتين، إذا كان ألماً نحتمله في النضال من أجل فكرة مثلاً، فإنّ الناس يرفضون أن يصدِّقوه باستثناء عدد قليل جداً. وهم لا يصدّقونه لأنهم عندما نظروا إلى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذي لا بدَّ أن يكون في نظرهم رأسَ من يتألم في سبيل هذه الفكرة أو تلك. وهم، عندئذ، يرفضون التعاطف معه دون أن يكون في موقفهم هذا شيء من روح الشرّ. إن الشحاذين ولاسيّما ذوي النفوس النبيلة، يظلّون مختبئين عن الأنظار، ولا يطلبون الإحسان إلا بإعلانات ينشرونها في الصحف. من الممكن أن يحب الإنسانُ الإنسانَ حباً مجرداً، ويمكن أن يحبه في بعض الأحيان فعلاً، ولكن من بُعد. أما من قُرب فذلك شبه مستحيل. لو كانت الأمور تجري كما على المسرح في «باليه» نرى فيه الشحاذين يظهرون، إذا ظهروا، مرتدين أسمالاً من حرير ومغطّين بتخاريم ممزقة، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة، فقد نعجب بهم عندئذ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبّهم. حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع. لقد كنت أنوي أن أحدّثك عن آلام البشرية عموماً، ولكنني أحسب أنه من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال

وحدهم. ولئن كانت حجَّتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها، فإنني أعتقد أنّ هذا أفضل. سوف تكون المناقشة أقلّ مواتاة لي بطبيعة الحال. لكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبّهم من قُرب مهما تكن قذارتهم ودمامتهم (وإن كنت أعتقد أن وجوه الأطفال لا يمكن أن تكون أبداً دميمةً). ثم إنني لا أحب أن أتكلم عن الكبار ليس لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحبّ فحسب بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض: فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا «شبيهين بالآلهة»، ولا يزالون يأكلون منها. أما الأطفال فإنهم لمّا يذوقوا تلك الثمرة، فبراءتهم لم يمسها سوء. هل تحبّ الأطفال، يا أليوشا؟ أعرف أنك تحبّهم، وسوف تعرف إذن لماذا لن أحدثك إلّا عنهم. إنهم يتألمون ألماً مؤذياً جداً في هذا العالم، وذلك بسبب ذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة ـ ومن أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة. لكنّ هذا استنتاجاً من عالم آخر، وسيبقى قلب الإنسان على هذه الأرض عاجزاً عن إدراكه. من الظلم أن يعذَّب أبرياء لذنب اقترفه غيرهم. أنا أيضاً أحب الأطفال يا أليوشا، تخيّل هذا. ولاحظ أن الناس القساة أصحاب الأهواء الجامحة، من أمثال آل كارامازوف، كثيراً ما يعبدون الأطفال. فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً كبيراً ما ظلّوا صغاراً لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم، حتى كأنهم ينتمون إلى نوع آخر، لأنّ طبيعتهم ليست مثل طبيعتنا. إنني أعرف لصّاً في أحد السجون، كان يقتل عائلات بكاملها في المنازل التي يتسلّل إليها ليلاً ليسرقها، ولم يوفّر الأطفال. ولكنه كان يحبهم أثناء وجوده في السجن إلى درجة كان يراقب، من خلال كوّة زنزانته، الصِّبية يلهون ويتسلون في ساحة السجن. واستطاع أخيراً أن يكسب مودّة واحد منهم، كان يأتي ليتحدث معه واقفاً تحت النافذة، وأصبح الصغير صديقه الحميم... لا أعرف لماذا أقول هذا، يا أليوشا؟ لست أدري، لدي صداع قوي، وأشعر بحزن عميق.

ـ إنك تتكلم بطريقة غريبة. قال أليوشا قلقاً. كأنك في حالة جنون.

ـ بالمناسبة، تابع إيفان كأنه لم يكن يصغي إلى ما يقوله أخوه، لقد أخبرني مؤخراً رجل بلغاري في موسكو، كيف الأتراك والشراكسة يفرضون الإرهاب في بلغاريا لأنهم كانوا يخشون ثورة الشعوب السلافية - يحرقون القرى وينهبون الأرزاق ويغتصبون النساء والأطفال، ويسمّرون بعض السجناء في آذانهم بالسياج ويتركونهم هكذا حتى الصباح ثم يشنقونهم ـ إلخ. لا يمكن تصوُّر مثل هذه الأمور. في الواقع عندما يحكى أحياناً عن قساوة الإنسان الحيوانية. فهذا القول إهانة جارحة للحيوانات: فالحيوان لا يستطيع أن يكون بقسوة الإنسان، القسوة بالمعنى الفني، فالنمر يمزق فريسته ويلتهمها، لأنه لا يحسن القيام بغير ذلك، ولا يخطر بباله أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج، ولو استطاع ذلك. وأولئك الأتراك يتسلّون، بصورة خاصة، بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً. ينتزعون بالسيف صغاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيتلقفهم في الفناء، أتراك آخرون بأسنَّة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتي يُعدّ حضورهنّ أهمَّ عنصر من عناصر هذه المتعة. لقد حفظت ذاكرتي، بصور خاصة، مشهداً وُصف لي: أمّ ترتجف هلعاً وفي يديها طفل صغير؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبة صغيرة. يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلّونه ويضحكونه، والطفل سعيد يمدُّ إليهم ذراعيه. وفي تلك اللحظة يصوِّب إليه أحد الأتراك مسدساً، من مسافة عشرين سنتيمتراً. يتابع الطفل ضحكه بفرح ويمدُّ يديه الصغيرتين ليتناول المسدس فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم رأسه... أليس هذا فنّاً؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلوى كثيراً.

ـ أخي، ماذا تريد أن تقول؟ سأل أليوشا.

ـ أعتقد أنه إذا لم يكن الشيطان موجوداً، وإذا كان الإنسان قد خلقه، فلا شك في أن الإنسان قد خلقه على صورته هو.

ـ إذن، كما خلق الله أيضاً؟

ـ غريب كم أنك قادر على قلبَ الألفاظ كما يقول بولونيوس في مسرحية «هملت». وراح يضحك. إنك توقعني في كلمة، حسناً، يسرّني هذا. إن إلهك جميل إذا كان قد خلق الإنسان على صورته. تسألني إلى أين أريد أن أصل؟ أنا امرؤ هاوٍ يجمع بعض الوقائع، هل تصدقني؟ أسجلها وأجمعها من الصحف أو من أحاديث الناس. جمعت حتى الآن كثيراً من هذه الوقائع. والأتراك يحتلّون في هذه الوقائع مكاناً كبيراً ولكن الأتراك أجانب. ولديَّ كذلك وقائع كثيرة عن حالات قومية روسية صرفة تفوق حتى وقائع الأتراك. في بلادنا، يُعمد خاصة إلى السوط والعصا. هذا اختصاص قومي لنا. نحن لا نسمّر الناس من آذانهم لأننا أوروبيون رغم كل شيء. لكننا في مقابل ذلك نملك السياط والعصيّ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا. يبدو أنّ الناس في البلدان الأجنبية قد تخلَّت عن الجلد بالسوط. فأصبحت العادات هناك أقرب إلى اللين، والقوانين النافذة هناك أصبحت لا تسمح للإنسان أن يجلد أخاه الإنسان. لكن الإنسان قد وجد هناك ما يعوّض به ما افتقده تعويضاً يتَّصف أيضاً بطابع قومي خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً في بلادنا. لكن هنالك علامات تدلّ، والحق يقال، على أن أساليب التعويض هذه قد بدأت تتسرَّب إلى روسيا منذ زمن، لاسيّما بفضل الحركة الدينية التي تنتشر في الآفاق العليا من مجتمعنا. عندي نشرة شائعة مترجمة عن الفرنسيّة تروي قصة إعدام مجرم في مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار في الثالثة والعشرين من عمره، كما أعتقد، أنه ندم على فعلته واعتنق الديانة المسيحية قبل أن يصعد إلى المقصلة.

إن الواقعة حديثة قد جرت منذ حوالى خمس سنوات. وريشار هذا لقيط، كان أبواه قد «أهدياه» وهو في السادسة من عمره إلى رعاة جبليين قاموا بتربيته بغية أن يعمل لهم بعد ذلك. شبَّ الصبي كحيوان صغير متوحش. ولم يعلّمه الرعاة الذين تبنّوه شيئاً، وأرسلوه يرعى القطعان منذ بلغ السنة السابعة دون أن يكسوه ودون أن يطعموه تقريباً، وذلك في كل فصول السنة. وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأيّ تأنيب، لأنّ الصبي أُهدي إليهم كما يُهدى شيء من الأشياء. لذلك، فهم لا يعتقدون أنّ من واجبهم أن يطعموه كما يجب لقاء ما يقوم به من عمل. وقد روى ريشار هذا، أمام المحكمة، أنه كان خلال كل تلك السنوات (مثل الابن الضالّ الذي يحدّثنا عنه الإنجيل) أن يشتهي أكل ثمار الخرنوب التي كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع. ولكن، كان يُمنع عن ذلك، وكان يُضرب إذا سرق بعضها من «المعلف». هكذا، عاش ريشار سنوات طفولته وشبابه إلى الساعة التي شبَّ فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً، فترك الرعاة وراح يسرق. أصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بأجرٍ يوميّ ولكنه كان ينفق ما يجنيه على السكر ويعيش حياة بشعة مستهجنة. وانتهى به الأمر إلى قتل رجل عجوز من أجل أن يسلبه ما معه. فاعتُقل وحوكم وحُكم عليه بالإعدام. إن الناس ليسوا عاطفيين في البلدان الأجنبية. وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسّ بروتستانتي وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مؤسسات الأعمال الخيرية، إلخ؛ فإذا هو أثناء فترة اعتقاله يُعلَّم القراءة والكتابة، ويُفسَّر له الإنجيل ويوعظ، ويُردّ إلى الصواب، ويُلام ويؤنَّب ويوبَّخ، وتُشرح له العقيدة ويُلقّن تعاليم المسيحية. فإذا به يعلن جهاراً، ذات يوم، أنه نادم على فعلته وأنه تاب. وقد وجَّه إلى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً؛ وأضاف إلى ذلك قوله إن الرب قد أدركه برحمته فهداه إلى الحق وأنزل عليه نعمته. فاهتزت

المدينة كلها لهذا الأمر، وإذا جنيف الفاضلة الحكيمة تغلي وتفور، وإذا جميع الناس في المجتمع الراقي، وجميع «الأخيار» يريدون زيارته في سجنه. حضنوه وعانقوه وقبّلوه، وقالوا له: «أنت أخونا وقد حلَّت عليك نعمة الله»، فكان ريشار يبكي من الانفعال، ويكرر قوله «نعم لقد حلَّت فيّ نعمة الله. كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على علفها، وها هو الرب يرسل إليّ نعمته الآن. سأموت في محبة الله!» فيجيبه الآخرون: «نعم ما تقوله يا ريشار، ستموت متصالحاً مع الرب. لقد سفحت دماً فيجب أن تموت في الرب. صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ كنت تجهل الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها، وأيام كنت تُضرب إذا سرقت بعض العلف من مذودها (وذلك لم يكن عملاً جيداً أبداً لأن السرقة حرام)، ولكنك سفكت دماً فيجب أن تموت». وجاء اليوم الأخير. كان ريشار قلقاً، يبكي، وما ينفك يردد دون توقف: «هذا أجمل يوم في حياتي فأنا ذاهب إلى الرب!» وكان الكهنة والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يصرخون بعده: «نعم، نعم. هذا أجمل يوم في حياتك لأنك ذاهب إلى الرب». ورافق هذا الجمهور ريشار إلى المقصلة، فبعضهم تبع عربة العار التي تنقل الجاني راكباً والبعض الآخر يتبعها سائراً. ووصل الجميع أمام المقصلة: «متْ أيها الأخ، مت يا أخونا ريشار، متْ في محبة الله لأن نعمة الله قد حلَّت فيك». ودُفع الأخ ريشار إلى المقصلة تغمره قبلات إخوته، واضُجع عليها، وقُطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد حلَّت فيه. هذا عمل يتميز بطابع خاص. لقد تُرجمت هذه النشرة إلى اللغة الروسية، ترجمها محسنون ينتمون إلى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة إلى جميع الصحف لتوزّع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا. إن حالة ريشار هذا شائقة بما تحمله من طابع قومي عندنا. فنحن في بلادنا لا نقطع رأس أخينا لأنه أصبح

أخانا ولأنّ نعمة الله حلَّت فيه. لكنني أردّد: عندنا شيء لا بأس به هو أيضاً. فعندنا نحن، نضرب ضرباً قاسياً وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعة. لقد صوَّر نكراسوف، في إحدى قصائده، شقاء حصان كان أحد الفلاحين يضربه بالسوط على عينيه، على «عينيه الوديعتين». من الذي لم يشهد منظراً كهذا المنظر الشائع كثيراً، والروسيّ جداً. إن ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذي كان يجرّ عربة مثقلة بحمولة فوق طاقته قد سقط في الوحل ثم لم يستطع أن يتخلّص منه. فراح الفلاح يضربه، ثم يضربه بجنون، وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه في الهواء وهوى به على الحيوان أن أصبح لا يشعر بما يفعل، فهو في ما هو فيه من سُكر وحشيّ بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً: «وإن أصبحت لا تقوى على جرّ العربة، ولكنك ستجرّها رغم أنفك، سأرغمك على ذلك، أيها الحيوان القذر. مت إن شئت ولكن عليك أن تجرَّ العربة!» وراح الحيوان يتخبط، فما كان من الفلاح، وقد تملّكه غضب أعمى، إلّا أن أخذ يجلده بالسوط على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرحمة، على عينيه «الوديعتين» المليئتين بالدموع. واستطاع الحيوان، بوثبة مستميتة، أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه ليستأنف سيره مرتجفاً بكل جسمه، وهو لا يستطيع أن يتنفس، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة. إن أشعار نكراسوف هذه تحدث في النفس أثراً رهيباً. والأمر مع ذلك، أمر حصان، ونحن نعرف أن الرب قد وهب لنا الخيل لنضربها، أو هذا، على الأقل، ما تعلمناه من التتار الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم. ولكن البشر يُضربون أيضاً. إنني أعرف حالة سيّد مرموق ومثقف جداً، تعاون مع زوجته على ضرب ابنتهما الصغيرة وهي طفلة في السابعة من عمرها. لقد دوِّنت الواقعة بكل تفاصيلها. كان للعصيّ عقد، فسرَّ الأب من ذلك. وقال: «سوف تشعر بالعقوبة شعوراً قوياً». وراح يضرب

ابنته. هناك أشخاص، وأنا أعرف ذلك جيداً، يسكرون من الضربات التي يكيلونها، ويبلغون من النشوة بها حدود اللذة الجسدية، ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً. ضُربت الطفلة دقيقة فخمس دقائق فعشراً، ضرباً يزداد قوة وضراوة. والطفلة تصرخ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها، لاهثة: «بابا، بابا، بابا الحبيب!» وبصدفة شيطانية غير لائقة رُفعت القضية إلى المحكمة. واستعان الأبوان بمحامٍ. إن الشعب يقول منذ زمن طويل: «المحامي ضمير يؤجّر نفسه». وأخذ المحامي يصيح قائلاً أمام المحكمة: «أب أدَّب ابنته. فما هذا إلّا حادث عادي شائع من حوادث الحياة العائلية. ومن عار هذا العصر الذي نعيش فيه أنه ظُنَّ أنّ هذه قضية يجب أن ترفع إلى المحكمة!» وقد تأثر المحلَّفون أشدَّ التأثر بأقوال المحامي فراحوا يتداولون الأمر، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة. فضجَّ الجمهور فرحاً ثملاً من السعادة حين سمع الحكم ببراءة الجلّاد. إنني لم أشهد المحاكمة، وإلّا لاقترحت إنشاء صندوق إعانة تكريماً لهذا الأب الجلّاد!» هذه لوحة جميلة، يا أليوشا، لكنني أملك لوحات أخرى قد تكون أجمل منها، وهي تتعلق بصورة خاصة، بالأطفال الروس. إليك قصة طفلة في الخامسة من عمرها، غضب منها أهلها وهم «أناس محترمون، موظفون مثقفون». أؤكد لك بجزم أن ثمة أناساً يشعرون بميل خاص إلى تعذيب الأطفال، الأطفال وحدهم دون سواهم. إن هؤلاء الجلادين يبرهنون في تعاملهم مع سائر الناس على كثير من الدماثة والليونة، كما يليق بأوروبيين متعلّمين ومتنوّرين. ولكنهم، في المقابل، يجدون لذة كبيرة في تعذيب الأطفال، مع حبّهم لهم على طريقتهم الخاصة. إن منظر هذه الكائنات الصغيرة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ولا تعرف كيف تشتكي ولا إلى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية يملك القدرة على إيقاظ القسوة الغريزيّة في قلوب أولئك الناس. لا شكَّ أن في

داخل كل إنسان وحشاً نائماً، وحشاً مفترساً مسعوراً يتلذذ بسماع صراخ ضحيته فينطلق عندئذ بكل شراسته التي ضاعفها الفجور وكل ما يولّده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد، الخ. هذه الطفلة ذات السنوات الخمس، أنزل أبواها المثقفان بها أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال. كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أيّ سبب، حتى أنهكِ جسم الطفلة المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء. وأخيراً، توصّلا إلى صور من القسوة فيها كثير من التفنّن العلمي. من ذلك، أنهما أثناء الليالي الباردة كانا يحبسان الطفلة في المرحاض بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجتها في حينها (كأنَّ طفلاً نائماً في الخامسة من العمر يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه العميق الملائكي في الوقت المناسب للذهاب إلى المرحاض)؛ وكانا يلطخان وجهها بغائطها نفسه «لتعليمها» ويرغمانها على أن تبلع غائطها، وكانت أمّها، أمها بالذات، هي التي تجبرها على ذلك. وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام عندما كان يسمع، في الليل صرخات طفلتها السجينة في ذلك المكان الموبوء! هل تستطيع أن تتصوّر، أنت، عندما يقوم كائن صغير لا يزال عاجزاً عن إدراك ما يجري له، بلطم صدره المختنق بيديه الصغيرتين في غياهب العتمة والبرد متضرعاً إلى «الطفل يسوع» بدموع بريئة أن يحميه؟ هل تستطيع أن تفهم هذا الهراء؟ قل لي يا صديقي ويا أخي، لماذا وجد هذا الهراء؟ بدونه، لا يستطيع إنسان على الأرض أن يعيش، لأنه لم يعرف الشر من الخير. لكن، ما هي الفائدة من معرفة خير وشر هذا الشيطان، إذا كان هذا ثمنه. لكن عالم المعرفة بكامله لا يساوي دموع تلك الطفلة التي تتوسل إلى «الطفل يسوع» أن ينجدها. لن أقول شيئاً عن الآلام التي يعانيها الكبار. فالكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة، فليجنوا جزاء ما فعلوا، وليأخذهم الشيطان جميعاً. إنني أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا. أنت لم تعد كما أنت. سأتوقف عن الكلام إن شئت.

ـ لا، أنا أيضاً أحبّ أن أتألم. تمتم أليوشا.

ـ لن أقصَّ عليك إلّا قصة واحدة وأخيرة، لأنها شائقة جداً. وتتّسم حقاً بطابع مميز. خاصة أنني قرأتها منذ وقت قصير في مجلة «الأرشيف» أو «الزمن الماضي»، لست أدري على وجه الدقة، لقد نسيت أين قرأتها. وقعت هذه القصة في أحلك عهود الرقّ عند بداية هذا القرن. وعاش محرر الشعب! كان يعيش في ذلك الزمان، جنرال له علاقات رفيعة، طويل الباع، ويملك أراضي واسعة. لكنه واحد من أولئك الرجال (وقد أصبح عددهم قليلاً) الذين يعتقدون عندما يحالون على التقاعد، أنهم قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت. لقد وجد أمثال هؤلاء الرجال في الماضي. كان ذلك الجنرال يعيش في أراضيه التي يعمرها ألفان من العبيد. وكان يصطنع الأبهة والعظمة وينظر باستعلاء إلى جيرانه المتواضعين، متظاهراً بأنه يعدّهم مهرّجين أو طفيليين. وكان يملك بضع مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مئة خادم يجرون وراءها على خيولهم، لابسين زياً واحداً. وفي ذات يوم، كان قنّ صغير هو صبي في الثامنة من عمره يتسلّى برمي الحجارة. فإذا هو يصيب بأحدها ساق الكلب المفضل لدى الجنرال، سهواً. سأل الجنرال مستطلعاً: «لماذا يعرج الكلب الذي هو خير كلابي؟» فقيل له إنه قد جُرح بحصاة رماها ذلك الصبيّ. قال الجنرال وهو يحدّق إلى الصبيّ: أأنت السبب إذن؟» ثم أضاف: «احبسوه!». انتُزع الصبي من أمه وألقي في زنزانة مظلمة ضيقة بقي فيها طوال الليل. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، تهيأ الجنرال للذهاب إلى الصيد في احتفال عظيم. فامتطى صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخدمه الذين يركضون وراء الكلاب يطاردون الفرائس، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعاً. أمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً، وجُعلت أمّ الصبيّ الجاني في أول صف من صفوفهم. وأخرج الصبي من زنزانته. كان

ذلك في صباح كالح بارد ملؤه الضباب من صباحات الخريف، صباح يبشر بصيد وافر. وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه، فخلعت حتى أصبح عارياً. كان الصبي يرتجف مصفراً من الخوف ولا يجرؤ أن يفتح فاه... قال الجنرال آمراً: «اجعلوه يركض»، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له: «أركض، أركض». فأطاع الصبي أمرهم وراح يركض، فصاح الجنرال: «اقبضوا عليه!» دفع كلابه كي تطارده. فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي أمام عيني أمّه. أعتقد أن الجنرال قد سُجن بعدئذ. أما كان يستحقّ أن يُعدم بالرصاص؟ ألم يكن من الضروري إعدامه تهدئةً للضمير الأخلاقي؟ أجبْ، يا أليوشا!

ـ نعم، كان يجب رميه بالرصاص! قال أليوشا بصوت خافت وقد رفع عينيه نحو أخيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء متغضّنة.

ـ برافو! صاح إيفان بحماسة. ما دمت أنت نفسك تقول هذا، فلا بدَّ... آه، يا لهذا الناسك! ذاك هو الشيطان الصغير الموجود في قلبك، يا أليوشا كارامازوف.

ـ قلت سخافةً ولكن...

ـ هذه هي المشكلة بالضبط، «لكن»... صاح إيفان. إعلم أيها المبتدىء أنّ هذه السخافات ضرورية لوجود هذا العالم. لا يقوم العالم إلّا على سخافات، بدونها لا يوجد شيء، وقد لا يحدث شيء. نحن نعرف ما نعرف!

ـ ماذا تعرف؟

ـ لست أفهم شيئاً، استأنف إيفان كلامه وكأنه في هذيان. لا أريد الآن أن أفهم شيئاً. أريد أن أكتفي بالوقائع. لقد قررت، منذ زمن طويل، ألّا أحاول تأويلها. فلو حاولت أن أفهم إذن لشوَّهت الوقائع فوراً، وأنا حريص على أن أبقى في الواقع...

ـ لماذا تمتحنني؟ صاح أليوشا بنوع من هستيريا الألم. هلَّا قلت لي أخيراً؟

ـ طبعاً، سأقول لك. ذلك ما كنت أريد الوصول إليه. أنا أعتمد عليك. أنت عزيز عليّ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك الراهب زوسيما.

سكت إيفان لحظة، وقد أصبح وجهه حزيناً جداً.

ـ اصغِ إليّ. لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً لكي يكون برهاني أكثر إقناعاً. ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع البشرية التي تغذي الأرض، من قشرتها حتى قلبها، إنني أضيّق موضوع مناقشتنا قصداً. لست أنا سوى حشرة صغيرة. وأنا أعترف، ذليلاً، بعجزي عن فهم لماذا هذا التنظيم للعالم. فالخطأ إذن هو خطأ الناس أنفسهم. لقد وُهبت لهم الجنّة، لكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم وسرقوا نار السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء، فلا حاجة إذن إلى أن نشفق عليهم. لكن حسب عقلي، عقلي المسكين، عقلي الإقليدسي الأرضي، أنا لا أعرف إلا أمراً واحداً هو أنّ العذاب موجود وليس هناك مذنبون، وأنّ الأمور مترابطة بعضها ببعض، وأنّ كل شيء ينقضي آخر الأمر، ويتوازن. وذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلي الإقليدسي، أعرف هذا. ولكني لا أقبل أن أعيش هذا الهذيان فيمَ يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون؟ إنني في حاجة إلى ثأر وإلّا دمرت نفسي. وهذا الثأر الذي أطالب به، لا أريده في «المجهول» لا أعرف أين، والله يعرف متى، وإنما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض وأن أراه بعينيّ. لقد آمنت، وأريد أن أشهد انتصار الحقيقة! فإذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأُبعث حياً! سوف يسيء إليَّ كثيراً أن يتحقق هذا المجد للإنسان في غيابي. هل تألمت أنا من أجل أن أمهّد الطريق بجرائمي وعذابي لانسجامٍ مقبل لن ينتفع به الآخرون؟ إنني أريد رؤية الوعلة بعينيّ مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام، وأن أرى الضحية مرتدة إلى الحياة تعانق قاتلها.

أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سرّ هذا العالم للجميع. إنّ هذا الانتظار هو القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان، وأنا إنسان مؤمن. ولكن الأطفال... ما ذنب الأطفال؟ كيف نسوّغ عذاب الأطفال؟ تلك مسألة لا أجد لحلّها سبيلاً. أعود وأقول لك للمرة المئة: إنّ ثمة في هذا العالم مشكلات كثيرة، لكنني اخترت هذه المشكلة، مشكلة الأطفال لأنها تتيح لي أن أعبّر بألمهم للانسجام الكلي، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضاً؟ قل لي، أرجوك. لماذا سُجن الأطفال في هذه الدائرة، لماذا يجب عليهم، هم أيضاً، أن يساهموا في الانسجام بعذابهم؟ ذلك أمر لا سبيل لفهمه إطلاقاً. ماذا فعلوا حتى يكونوا في هذه الزوبعة؟ قد أسلِّم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها، ولكنّ الأطفال لم يشاركوا في الخطيئة، فإن قيل إنهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وإنهم متضامنون إذن مع آبائهم في هذه الخطايا، أقول: هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم، على كل حال، ولا يمكن أن يدركها عقل! ربَّ مازحٍ خبيث يعترض بقوله إن الطفل سيشتدّ ساعده وسيقترف الإثم متى حان الوقت، ولكنني أقول إن ذلك الطفل الذي ما يزال في الثامنة من عمره لمّا يشتدّ ساعده بعد وقد مزقته الكلاب! هيهات، يا أليوشا، أن يكون في نيّتي أن أجدّف! إني أتصوَّر كيف سيتهلّل الكون فرحاً حين ستدوّي أصوات السماء والأرض جميعاً منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين يصيح جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء والدموع في عيونهم، قائلين: «أنت على حق يا رب!» وهنا، بالطبع، سيكون تتويج الخلق. وهذا ما لست قادراً على القبول به. وطالما أنا موجود على الأرض أريد أن تكون لي حدودي. سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذي أمر الكلاب بتمزيق جسد ابنها، وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان «أنت على حق يا رب». ستنجلي عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يومَ تمجيد المعرفة. لكن ذلك بعينه هو العقدة

لأنني لا أقبل هذا الحلّ للغز وأنا أسارع إلى اتخاذ إجراءات في هذا العالم. قد يحدث يا أليوشا، عندما أشهد ذلك الانتصار النهائي للحقيقة وعندما أُبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار، أن أصبح أنا أيضاً مع الجميع إذ أرى الأمّ والجلّاد والطفل يتعانقون ويتصالحون: «أنت على حق يا رب!» لكنني لا أريد أن أفعل ذلك، وأحرص على أن أحمي نفسي سلفاً من ذلك الاستسلام، ولهذا السبب أقوم بتنازل حاسم عن الانسجام الأعلى. إن هذا الانسجام لا يعدل في رأيي دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذّب الذي كان يلطم صدره بقبضتَي يديه في مكان موبوء ويضرع إلى الطفل يسوع من خلال دموعه التي لا يكفر عنها شيء. نعم ما من انسجام مقبل سيكفّر عن تلك الدموع ولا بدَّ من التكفير عنها وإلا فلا يمكن أن يقوم انسجام، ولكن بماذا يمكن التكفير عنها؟ ما الذي يمكن أن يمحوها؟ أهو العقاب الذي سوف ينزل بالجاني؟ فما هي قيمة العقاب؟ فيمَ يهمني هذا العقاب؟ أنا لا أريده! أنا لا أطالب بتعذيب الجلادين في الجحيم، فجهنم لن تغيّر من الأمر شيئاً ولن تنفي أن الطفل قد عُذب. وأين يمكنه أن يكون الانسجام إذا كان ثمة جحيم؟ إنني أحب أن أغفر وأن أصالح. إنني أتمنّى أن لا يبقى في الكون عذاب. فإذا كانت دموع الأطفال أمراً لا بدَّ منه، ولا غنى عنه، لإكمال مقدار الألم الذي سيكون دية للحقيقة، فأنا أعلن بجزم أنّ الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظاً إلى هذا الحدّ. أنا لا أريد أن تصالح الأمّ الجلاد الذي أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها. لا حقَّ لها في أن تغفر له. لها فقط أن تتغاضى عن ألمها هي، عن عذاب الأم العظيم الذي قاسته، لها أن لا تحقد على الجاني إذا شاءت، ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذي نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها. فإذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر، فأين الانسجام؟ قل لي: أين الانسجام؟ هل في الكون فرد يستطيع ويحق له أن يغفر؟ إنني لا أريد هذا الانسجام وذلك حباً بالبشرية.

إنني أفضّل أن أبقى مع آلام هذا العالم بدون تكفير. وأنا أفضّل أن يبقى ألمي بدون انتقام وأن يبقى استيائي متأججاً ولو كنت على خطأ. إنّ الثمن المطلوب للانسجام باهظ جداً، وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن، إن بطاقة الدخول غالية جداً. لذلك أسارع فأردّها. إنني أشعر بأنّ عليَّ أن أردَّها بأقصى سرعة لأنني إنسان شريف وذلك ما أفعله. إنني لا أجحد الربَّ، يا أليوشا، بل أعيد إليه بطاقتي بكل الاحترام الذي يعود له.

ـ هذا عصيان. تمتم أليوشا بصوت خافت ورأسه منحنٍ.

ـ عصيان؟ قال إيفان بانفعال. لا أريد أن تقول لي هذه الكلمة. من المستحيل على المرء أن يعيش في العصيان، وأنا امرؤ يحرص على أن يعيش. قل لي بصراحة، يا أليوشا، أجبني: لو كنت، أنت نفسك مهندس بناء المصائر البشرية وأردت أن تبني عالماً تجد فيه البشرية السعادة والراحة، أفتشرع في هذا العمل إذا علمت أنه لن يتحقق إلا إذا كان العذاب ثمنه، ولو لم يكن إلّا عذاب إنسان واحد صغير بريء هو، مثلاً، تلك الطفلة التي كانت تلطم صدرها بقبضتَي يديها؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم إلّا على تلك الدموع التي لا فدية لها تذرفها تلك الطفلة الصغيرة، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها، ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها، أفتظّل توافق على أن تكون مهندس الكون في تلك الشروط؟ قل لي، ولا تكذب.

ـ لا، لا أوافق. أجاب أليوشا بهدوء.

ـ وهل تستطيع أن تسلِّم بالفكرة، أن يقبل البشر الذين تبني لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل بريء عذِّب حتى الموت، وأن يعرفوا السعادة إلى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك؟

ـ لا، لا أستطيع أن أقبل هذا.

ـ أخي. أجاب أليوشا وقد سطعت عيناه فجأة. لقد قلت منذ لحظة هل

يوجد في الكون كائن في وسعه ومن حقّه أن يغفر؟ إن هذا الكائن موجود، يستطيع أن يغفر كل شيء ولجميع الناس، لأنه وهب هو نفسه دمه البريء لكل شيء ولجميع البشر. «هو»، أنت نسيته، وهو الذي يقوم عليه البناء كله، وهو الذي يقع عليه أن يصرخ «أنت على حقّ يا رب، فلقد أدركت طرقك».

ـ آه إنه البريء الوحيد. والدم الذي سفحه! لا، أنا ما نسيته، ويدهشني أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به. فأمثالك، عادةً، يطلقون هذه الحجّة منذ بداية المناقشة. اسمع يا أليوشا، ولا تضحك. إنني نظمت قصيدة، في ذات يوم، منذ سنة؛ فإذا وافقت على أن نضيّع عشر دقائق أخرى فسوف أُسمعك هذه القصيدة.

ـ كتبت قصيدة؟

ـ لا، لم أكتبها، أجاب إيفان ضاحكاً، ولا كنت قادراً في حياتي كلها على أن أنظم بيتين من الشعر. لكنني نظمت هذه القصيدة وحفظتها في ذاكرتي، لقد نظمتها بحرارة. ستكون أنت أول قرّائي أو أول مستمع إليها. صحيح، لماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذي يملك أن يتلو عليه ما كتب؟ أضاف إيفان مبتسماً؛ أأقول القصيدة أم لا؟

ـ إنني أصغي إليك بمنتهى الاهتمام.

ـ عنوان القصيدة «المحقق الكبير». إنها قصة خيالية، ولكن يسرّني أن تسمعها.

V

المحقق الكبير

لكن هنا أيضاً، لا غنى عن مقدمة. أريد القول من دون مقدمة أدبية! (وبدأ إيفان يضحك) وأنا، أجلس هنا كمؤلِّف! إنّ عملي هذا، قد جرت أحداثه في القرن السادس عشر. وكان رائجاً في ذلك الزمان ـ لا بدَّ أنك تعلّمت هذا في المدرسة ـ إنزال القوى السماوية على الأرض، في الأعمال الشعرية كان مجرد تقليد. هنا لا أتكلَّم عن دانتي. ففي فرنسا، كان موظفو المحاكم والرهبان وفي الأديرة، يقدّمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون والمسيح والله نفسه. في ذلك العصر، كان كل ذلك بسيطاً كقولك «صباح الخير». وقد وصف فيكتور هوغو في روايته «نوتردام دو باري» وهي تمثيلية تثقيفية، قدِّمت مجاناً للشعب في قاعة «مجلس الشعب»، في عهد لويس السادس عشر احتفالاً بميلاد وليّ العهد، وكان عنوان التمثيلية هو «الحكم السديد للعذراء مريم المقدسة والممتلئة بالنعمة». وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لإصدار «حكمها السديد». وعندنا، في موسكو، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت المسرحيات الدراميّة من هذا النوع تقريباً تُمثَّل من حين إلى آخر، وكانت تستوحي من العهد القديم. بالإضافة إلى المسرحيات الدراميّة، انتشرت في العالم بأسره،

أعداد كبيرة من الأقاصيص و «الأشعار»، كان الأبطال فيها قدّيسين وملائكة وكل القوى السماوية تبعاً للرغبات. وعندنا، في أديرتنا، كانت تُترجم وتُنسخ أعمال كثيرة، بل كانت تنظم قصائد من هذا النوع، في بعض الأحيان، حتى في عهد الاحتلال التتاري. هناك، مثلاً، قصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعاً) عنوانها: «نزول العذراء إلى الجحيم» مليئة بلوحات تكاد تبلغ في جرأتها لوحات دانتي. ففي تلك القصيدة، تنزل العذراء إلى الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل في جولتها، فترى الخطأة وأساليب تعذيبهم كما يوجد أيضاً، على وجه الخصوص، فئة عجيبة من الخطأة تتخبط في بحيرة مشتعلة، وبعضهم في تلك البحيرة، لا يرجعون بعد ذلك إلى سطحها أبداً. ويقال: «إنّ الله قد نسيهم» ـ وذلك تعبير زاخر بالقوة والعمق الخارقين. وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية، فسقطت على ركبتيها باكيةً أمام عرش الله تتضرع إليه أن يعفو عن كلّ معذَّبي جهنم، وأن يغفر لهم جميعاً من دون تمييز. إنّ حديثها مع الله ذو أهمية بالغة، فهي تضرع إليه وتلحّ وتأبى أن تنصرف. وإذ أومأ الله إلى قدميْ ويديْ ابنه المثقوبة بالمسامير وسألها: كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين؟ فقادت جميع القديسين والشهداء والملائكة ورؤساء الملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطأة بدون استثناء. وبفضل صلواتها تمكنت أخيراً أن تحصل على أن يتوقف عذاب جهنم كلّ سنة بين يوم الجمعة العظيمة وعيد الخمسين (الثالوث الأقدس). ويسارع خطأة الجحيم عندئذ، إلى أن ينشدوا نشيد الشكر لله: «أنت على حق يا رب، وعادل هو حكمك».

إذن، إنّ قصيدتي القصيرة أنا، كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أنها ظهرت في ذلك العصر. إن الربّ يظهر في قصيدتي: لكنه لا ينطق بكلمة واحدة. فيظهر ويخرج من المسرح. لقد انقضى خمسة عشر قرناً منذ أن وعد

بأن يعود إلى مملكته، ومنذ خمسة عشر قرناً كتب رسوله: «سأعود قريباً»(*).
أما ذلك اليوم فإنّ الابن نفسه لا يعرفه، وإنما يعرفه أبي الذي في السموات.
وكما نطق به، هو نفسه، أثناء مروره على الأرض. ولكن البشرية لا تزال تنتظره
بإيمان واحد وحماسة واحدة بل بإيمان أقوى لأنّ خمسة عشر قرناً قد انقضت
منذ أن كفّت السموات عن بذل ضمانات للأرض.

صدِّق صوت قلبك،

فلن يأتي ضمان من السماء للأرض(**)

والإيمان فقط في كلمة القلب! صحيح أن المعجزات كانت كثيرة في
ذلك العصر. كان ثمة قديسون يبرئون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة. وإذا
صدق ما يُروى في سير بعض الصالحين، فإنّ العذراء قد زارتها شخصياً.
ولكنّ الشيطان يسهر دائماً. وبدأت البشرية تشك في صدق هذه المعجزات.
وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة في شمال ألمانيا فإذا بكوكب هائل «شبيه بشعلة»
(أي الكنيسة) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرَّة»(***). لقد كان أولئك
المجدّفون الهراطقة ينكرون المعجزات. فازداد إيمان المؤمنين واشتدت
حماستهم. وأخذت البشرية ترفع الأعين الدامعة إلى الله منتظرة مجيئه، مُحبّة
إياه بقلب حار، مؤمِّلة فيه، عطشى إلى التألم من أجله والموت في سبيله،
كما حدث في الماضي... «ألله ظهر»(****). إن صلوات البشر ترتفع إلى
السماوات حارة منذ قرون طويلة مع إيمانها وشعلتها مصلّيةً له: «تعال إلينا

(*) سفر الرؤيا III – ٧.

(**) مقتطف من قصيدة لشيللر «الرغبة»، في الترجمة الروسية لفاسيلي جوكوفسكي.

(***) استشهاد من سفر الرؤيا، ليس دقيقاً، VIII، ١١ – ١٠.

(****) الترجمة الفرنسية لهذا المقطع من المزمور ٢٤، مذكرة في اللاهوت الأرثوذكسي، تطرح مشكلة لا حل لها، لأن إيفان في الأصل الروسي يذكر النصّ وفيه خطأ لغوي جعله غير مفهوم.

يا رب»، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة أن يعود إلى أولئك الذين يضرعون إليه. فنزل وزار بعض الصالحين والشهداء وبعض القديسين النساك على الأرض، كما هو مكتوب في سير حياتهم. وعندنا، تغنَّى الشاعر تيوتشيف به في هذه الأبيات، وكان يؤمن إيماناً عميقاً بما يقول:

أجتاز كل السماوات،

كل أصقاعك، أيتها الأم

الأرض، ومباركاً ترابك،

منحنياً، لمتسول(*)

تحت عبء صليبه

ولكي يحصل هذا الأمر على هذا النحو، قرّر الرب أن يظهر، ولو لدقيقة واحدة، للشعب، لشعبه المعذب المتألم المتعفّن في خطاياه، لكنه يكنّ له حب الأطفال في قصيدتي. تجري الأحداث في قصيدتي، في إسبانيا، في مدينة إشبيلية، في أحلك عهود التفتيش، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لإحراق المتَّهمين كل يوم في جميع أرجاء إسبانيا تمجيداً لله:

كان الهراطقة يُحرقون

في نار رائعة(**)

طبعاً، لم يكن يقصد لحظة عودته إلى الأرض كما وعدنا، في آخر الدهور، بكل مجده السماوي تلك اللحظة التي تظهر فجأة «كبرقٍ يسطع من

(*) المقطع الأخير من القصيدة لأحد الشعراء الكبار الرومنسيين الروس في العام ١٨٥٥، فيودور ثيوتشيف (١٨٠٣ - ١٨٧٣) يكنّ له دوستويفسكي إعجاباً كبيراً. وهذا المقطع الأخير مذكور في الجزء الأخير من «خُطب حول بوشكين» (حزيران/ يونيو ١٨٨٠).

(**) استشهاد لكورلويون، قصيدة رومنسية لأسكندر بوليجاييف (١٨٠٤ - ١٨٣٨).

المشرق إلى المغيب». لا، بالنسبة إلي، إنه يشعر برغبةٍ، ولو للحظة واحدة، أن في زيارة أبنائه في المكان المحدَّد الذي تزفر فيه النيران الموقدة لإحراق الهراطقة. وبالرحمة اللامتناهية التي عرف بها يمرُّ مرة أخرى بين الناس بالصورة البشرية نفسها التي اتخذها ليسير بين الناس، مدة ثلاث سنوات. قبل ذلك بخمسة عشر قرناً. ينزل إلى الأماكن الملتهبة من تلك المدينة الجنوبية التي تمَّ فيها يوم أمس بأمر من الكاردينال المفتش الكبير، إحراق مئة من الهراطقة، في حضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات وأمام سائر سكان إشبيلية. وقد ظهر الله بهدوء دون أن يلاحظه أحد، ولكن الأمر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه. وها هنا مادة لأجمل مقاطع قصيدتي: لماذا عرفه الناس جميعاً؟ لقد انجذب إليه الجمهور بقوة لا تُقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فمشى هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية لها. كانت شمس المحبة تتَّقد في قلبه، ومن عينيه يشعّ الضياء وتشعّ القوة فينتشران في المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم. وهو، يمدّ ذراعيه نحو الشعب ليباركه. إنّ ملامسته، وحتى ملامسة ثيابه تملك القدرة على شفاء المرضى. فهذا عجوز من الجمهور، أعمى منذ طفولته، يصرخ فجأة قائلاً: «ردَّ إليَّ بصري يا رب لكي أستطيع أن أراك»؛ وما هي إلّا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو يرى الله. فبكى الشعب متأثراً، وأغرق بالقبلات الأرض التي مشى عليها. وراح الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين: «أوشعنا». وتعالت الصيحات من كل صوب تقول في حماسة: «إنه هو، إنه هو، لا يمكن إلّا أن يكون هو». ووقف في الساحة أمام كاتدرائية إشبيلية، في اللحظة التي كان فيها يؤتى إلى الهيكل، بين عبرات الحضور، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان طفلة في السابعة من عمرها هي البنت الوحيدة لأحد أعيان سكان

المدينة. والطفلة الميتة مغطاة بالأزهار. صاح الجمهور يقول للأم الحزينة: «سيُحيي لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قد تقدّم نحو التابوت فبدت عليه الحيرة وقطّب حاجبيه. فأجهشت أمّ الطفلة الميتة باكيةً وارتمت على قدمي المسيح، وضرعت إليه وهي تمدّ نحوه ذراعيها: «إذا كنت أنت هو حقاً فأحيي ابنتي»! توقف الموكب، ووُضع التابوت على البلاطات عند قدميه فألقى على جثمان الطفلة نظرة تفيض بالعطف، وتحركت شفتاه في رفقٍ تقولان مرة أخرى: «انهضي أيتها الطفلة!» فما إن نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت، وجلست مبتسمةً، ونظرت حولها بعينين مدهوشتين واسعتين. تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وُضعت على جثمانها. اضطرب الجمهور وصرخ وبكى. وفي تلك اللحظة عينها، ظهر الكاردينال كبير المفتشين في الساحة أمام الكاتدرائية. إنه عجوز يناهز التسعين من العمر، طويل الجسم، مستقيم القامة، معروق الوجه، غائر العينين، لكنَّ في عينيه شعلة تسطع. لا يرتدي، الآن، ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذي ظهر به أمام الشعب في الليلة البارحة عندما كان يُرمى إلى النيران أعداء الكنيسة الرومانية. يلبس، في هذه المرة، ثوبّ الكاهن المصنوع من الصوف الخشن. ويتبعه معاونوه العابسون وخدمه و «حرسه المقدس». وقف أمام الجمهور وتأمله من بعيد. رأى كل شيء، رأى التابوت عند قدمَي المسيح، ورأى الطفلة تُبعث حيّة، فاكفهرَّ وجهه، وقطّب حاجبيه الكثيفين الأبيضين، ولمع بريق شرير في عينيه. وها هو يشير إلى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه. إنّ هذا الرجل الذي عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لكل إرادته يبلغ من القوة أنّ الجمهور أسرع يبتعد أمام الزبانية، فإذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذي خيَّم فجأة، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه. وسجد الجمهور في طرفة عين أمام المفتش الكبير الذي بارك الجمهور صامتاً ثم تابع مسيره. أخذ

السجين إلى المبنى القديم الذي فيه تُقام الذبيحة الإلهية، وسُجن في زنزانة معتمة ضيّقة مقبّبة. انقضى النهار وهبط الليل. كانت ليلة من ليالي إشبيلية تلك الثقيلة الحالكة الحارة. «الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون»(*). وفجأة، في الظلمة، فُتح الباب فجأة وتقدَّم المفتش العجوز حاملاً بيده شعلة، وقف، لحظة، على عتبة الزنزانة ثم اقترب منه بخطى صامتة، ووضع الشعلة على المنضدة: هذا أنت؟ أنت؟ (وعندما لم يتلقَّ جواباً أضاف): أسكت! لا تجب بشيء! وما عساك تقول لي على كل حال؟ إنني أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لي. وبأيّ حق تريد أن تضيف أيّ شيء إلى ما سبق أن قلته؟ لماذا جئت تزعجنا؟ جئتَ لتبثّ فينا الاضطراب بدون شك، وأنت تعرف ذلك. فهل تعرف ما الذي سيحدث غداً؟ إنني لا أعرف من أنت، ولا أريد أن أعرف. هل أنت هو حقاً أم لست إلّا شبيهه؟ غداً، سأحكم عليك بالإعدام، وسآمر بإحراقك مثلما آمر بإحراق أسوأ الهراطقة. إن هذا الجمهور نفسه الذي كان يقبّل قدميك، منذ بضع ساعات، سيسرع غداً، بإشارة بسيطة مني، فيوري لهيب النار، هل تعلم ذلك؟ أجل، تعرف ذلك. ثم أضاف شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحوّل نظره عن سجينه لحظة واحدة:

ـ أنا لا أفهم ماذا يعني ذلك يا إيفان؟ قال أليوشا مبتسماً وهو يصغي إلى أخيه صامتاً. أهذه تهاويل مضطربة من خيالك أم أنه لا أدري أي خطأ صدر عن العجوز أو خدعة مربكة.

ـ لنسلّم بأن هناك لبْساً ما. قال إيفان ضاحكاً، ما دامت واقعية هذا العصر قد دفعتك أنت أيضاً إلى حدّ لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة. لنفرض أنّ ثمة لبْساً ما، إذا كنت حريصاً على ذلك.

(*) استشهدان من مقطع «ضيف بطرس» لبوشكين.

ـ صحيح، وعاد إيفان يضحك مرة أخرى، إن هذا العجوز هو في التسعين من عمره، ومن الجائز أنه قد جُنّ، منذ زمن طويل، في عزلته المستعلية. ولعلّ منظر السجين قد أدهشه، ولعلّ هذا كله لم يكن سوى هذيان رجل عجوز في التسعين قد أهاجه إحراق مئة من الهراطقة في الليلة البارحة، أو أصابته هلوسة من تلك التي تسبق الموت أحياناً. وما هو الفرق بالنسبة إلينا، أنا وأنت، أن نعرف أنها تهاويل خيالية أو لبْس. فهذا العجوز سيقول، في هذه المرة، وهو في التسعين من عمره، ما في قلبه، وما فكّر فيه صامتاً طوال التسعين سنة من حياته.

ـ والسجين، هل سكت؟ وهل نظر إليه دون أن يقول كلمة؟

ـ لكن على كل حال لا يمكن أن تجري الأمور إلا على هذا النحو. قال إيفان وهو مستمر في الضحك. فقام العجوز نفسه بلفت نظره، إلى أنه ليس من حقّه أن يضيف أي شيء إلى ما قاله في الماضي؟ ففي رأيي، هنا تكمن السمة الأساسية للكاثوليكية الرومانية: لقد وضعت كل شيء بين أيدي البابا. اذهب الآن في سبيلك ولا تعد إلى هنا، تزعجنا، إلا في اليوم المحدد هذا على الأقلّ ما يقوله ويكتبه اليسوعيون. لقد قرأت هذا بنفسي في كتب لاهوتييهم. «هل يحق لك أن تكشف لنا ولو سرّاً واحداً من أسرار العالم الذي جئت منه؟» سأله العجوز. ثم لم ينتظر جوابه فأضاف على الفور: «لا، ليس من حقك أن تفعل هذا، ليس لك أن تضيف شيئاً إلى ما سبق أن قلت فيما مضى، حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التي كنت تقدّرها حين عشت على الأرض. إن كل كشف جديد قد تأتي به سيسيء إلى حرية الإيمان لأنه سوف يبدو كمعجزة، وأنت قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الإيمان أمر أساسي. ألم تكن تردد على مسامعهم دائماً: «لقد جئتكم بالحرية؟»». وأضاف العجوز يقول بخبث: «لقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر الأحرار». إنّ هذه الحرية هي من صنعنا،

وقد كلَّفتنا جهوداً لا نهاية لها. أضاف العجوز وهو يحدّق إليه بقساوة. ولكننا أنجزنا عملنا أخيراً باسمك. واضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نتعذب بهذه الحرية، ولكن الأمر انتهى الآن، انتهى تماماً! ألا تعتقد أنه انتهى إلى الأبد؟ إنك تنظر إليَّ بعينين متواضعتين، فلا شك أنك تقدّر أنك أظهرت غضبك؟ لكن، اعلم إذن أن البشر هم في هذا اليوم بعينه أشدّ اقتناعاً منهم في أي وقت مضى، بحريتهم الكاملة. ومع ذلك، فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بذلّ كبير! ذلك هو عملنا. أهذه هي الحرية التي كنت تتمناها لهم؟

ـ مرة أخرى، أصبحت لا أفهم. قاطعه أليوشا. أهو يسخر؟ هل هو يتهكّم؟

ـ أبداً، إنه يتباهى لنفسه ولجماعته، بأنهم أوقفوا نموَّ الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس بذلك سعداء. ذلك أننا الآن، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للإنسانية بالسعادة (إنه يتكلم طبعاً عن محاكم التفتيش). لقد وُلد الإنسان متمرداً. هل يمكن للمتمردين أن يكونوا سعداء؟ لقد نبهت إلى هذا ولم تعوزك التحذيرات لكنك لم تشأ أن تحسب حساباً ونبذت الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن تقود البشر إلى السعادة، ومن حسن الحظ، أنك حين تركت هذه الأرض عهدت إلينا بالمهمّة كلها. أعطيتنا وعدك، وأقمت سلطتنا على كلمتك، ووهبت لنا حق العقد والحل، وطبعاً لم تستطع أن تنتزع منّا هذا الحق بعد الآن. إذن، لماذا جئت تزعجنا؟

ـ ماذا كان يعني بقوله: لم تعوزه النصائح والتحذيرات؟ سأل أليوشا.

ـ ذلك هو الأساسيّ الذي كان العجوز يريد أن يعبّر عنه.

إنّ الروح الرهيب والكثير الحكمة، روح تدمير الذات والعدم، تابع العجوز، الروح الرهيب قد خاطبك في الصحراء. وتقول لنا الكتب المقدسة إنه «أغواك»، فهل هذا صحيح؟ هل نستطيع في الواقع أن نتصوَّر حقائق أكبر

من تلك التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة التي رفضتها أنت، والكتب المقدسة تصفها بأنها «تجارب». ومع ذلك، إذا شهدت على هذه الأرض، في يوم من الأيام، معجزة كبرى، معجزة صادقة، فإن تلك المعجزة قد تحققت في ذلك اليوم نفسه وفي تلك «التجارب» الثلاث. لقد كانت تلك الأسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت. لنتصوّر، افتراضاً، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها إلى النصوص المقدسة؛ ولتحقيق هذا الهدف يجب جمع كل حكماء الأرض ـ الحكام وكبار الكهنة والعلماء والفلاسفة والشعراء ـ وتحديد مهمتهم، وقلنا لهم: «أوجدوا لنا، تصوَّروا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تلخص بالإضافة إلى ذلك، في ثلاث جمل إنسانية بسيطة، كل تاريخ العالم والبشرية». فهل تظن أن كل حكمة الأرض المجتمعة في هؤلاء الرجال يمكنها أن تتخيل، ولو من بعيد، شيئاً يشبه بقوَّته وعمقه تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي الحكيم؟ إن تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة، أعني كون الأسئلة قد طرحت، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل بشري عادي، بل أمر فكر خالد مطلق، لأنها تضمّ في ذاتها، كل التاريخ المقبل للبشرية، وتقدّم رموزاً ثلاثة تنحلّ فيها كل تناقضات الطبيعة البشرية التي لا سبيل إلى حلّها. إن تلك الحقائق لم تكن ظاهرة يومئذ بشكل واضح لأنّ التطور الذي أصاب العالم بعدئذ لم يكن معروفاً. أما الآن، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً، فإننا نرى أنّ كل شيء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسئلة الثلاثة، وأنّها قد تحققت بشكل أننا لن نستطيع أن نضيف إليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم.

فاحكم، إذن، بنفسك، من كان على حقّ: أأنت أم سائلك؟ تذكر السؤال

الأول من تلك الأسئلة الثلاثة، لا نصَّه بل معناه العام: «تريد أن تمضي إلى العالم خالي اليدين تبشر الناس بحريّة لا يستطيعون، بحكم ما فُطروا عليه من بساطة أن يدركوها، عدا أنهم، يخشونها ويخافون منها لأنه ليس هناك، ولم يكن هناك، في يوم من الأيام، حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحريّة. هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة المحرقة؟ حوّلها إلى خبزٍ تسرع إليك البشرية كقطيع جائع، وتصبح شاكرة لك مطيعة إياك، ولكنها ستبقى ترتجف خوفاً من أن تسحب يديك أو تُحرم هي من الخبز». لكنك لم تشأ أن تحرم الإنسان من الحرية فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقد أجبت بقولك: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. لكنك تعرف أنّ روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه وأنه سيقاتلك وينتصر عليك، وأنّ الجمهور سيسرع عندئذٍ نحوه قائلاً: «من الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الغبي الذي وهب لنا نار السماء؟» هل تعرف أنه سوف تنقضي قرون، فيأتي يوم تنادي فيه الحكمة البشرية وينادي فيه العلم البشري بأن لا وجود للشر، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها، مؤكدين أنّ هناك جائعين فحسب. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!». بهذه الصيحة سيرفعون الراية ضدك وسيهدمون هيكلك، وسيقيمون في مكانه مبنى آخر هو برج بابل مهدِّد. صحيح أن البناء لن يتمّ، كما في المرة الأولى، ولكن، كان في وسعك، مع ذلك، أن توفّر على البشرية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة. لأنّ البشر سيتَّجهون إلينا نحن بعد أن يجهدوا في بناء برجهم مدة عشرة قرون! ورغم كل شيء، سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي نكون قد لجأنا إليها (لأننا سنُضطهد وسنعذَّب ونستشهد)، سيجيئون شاكين: «أطعمونا، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا». وسننهي عندئذ بناء البرج، لأن الذين سيطعمون البشر

يستطيعون وحدهم أن ينجزوا هذا العمل حتى النهاية. وسوف نطعمهم، سوف نطعمهم نحن، ولا أحد سوانا، وسوف نفعل ذلك باسمك كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك. ولن يستطيعوا بدوننا أن يأكلوا في هذا العالم! لن يعطيهم العلم خبزاً ما داموا أحراراً، ولكنهم سينتهون إلى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين: «عاملونا كعبيد ولكن أعطونا خبزاً». سيدركون هم أنفسهم أنّ الحرّية لا تتفق وخبز الأرض، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته لأنهم لن يتوصلوا إلى اقتسامه بالعدل في يوم من الأيام. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحراراً لأنهم ضعفاء فاسدون صغار النفوس سريعون إلى العصيان. لقد وعدتهم بخبز السموات ولكنني أسألك مرة أخرى: هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر الكثرة التي ستبقى إلى الأبد فاسدة عاقّةً؟ إذا كانت ألوف من الناس أو عشرات الألوف مستعدة لأن تتبعك في سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تشعر بأنها قادرة على أن تتخلّى عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء؟ أتراك لا تعطف إلا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية، وهل يتوجب على ملايين البشر، هل يتوجب على الجموع التي لا نهاية لعددها، كرمل البحر، هل يتوجب على هؤلاء الذين هم ضعفاء ولكنهم يحبونك أيضاً، أن لا يكونوا إلا مادة مسخّرة للكبار والأقوياء؟ نحن، نرى غير هذا الرأي، والضعفاء عزيزون على قلوبنا؛ إنهم شريرون عصاة، ولكنهم أنفسهم هم الذين يصبحون، في نهاية المطاف، أكثر الناس طاعة وخضوعاً. سوف يعجبون بنا ويتخذوننا آلهة لأننا نكون قد وافقنا، حين أصبحنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم، فإلى هذا الحدّ ستكون حريتهم قد أصبحت كريهة في نظرهم في النهاية. وسوف نوهمهم، مع ذلك، بأنهم يطيعونك أنت وبأننا أسيادهم باسمك. سوف نخدعهم لأننا لن نسمح لك أنت بأن تتدخل

في شؤوننا.. وسيكون هذا الكذب عذابنا لأننا سنكون مرغمين على الكذب. ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول في الصحراء، ولقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التي جعلتها في أعلى منزلة. مع ذلك، كان ذلك السؤال يخفي أكبر سرّ في هذا العالم. فلو قبلت أن تعطي «الخبز» إذن، لَلَبَّيْتَ ما تنتظره البشرية انتظاراً أبدياً منذ عهود سحيقة، ولهدّأت القلق الذي يعذب الفرد والجماعة كليهما. وهذا هو القلق: «مَن نستطيع؟ فلا همَّ أقوى عذاباً لدى الإنسان الذي أصبح حراً من همّ العثور على سيّد يحكم بأقصى سرعة، وهو الذي نطيعه. لكن الإنسان يتطلع إلى الخضوع لحقيقة مؤكدة، حقيقة يقبلها كل الناس برضى إجماعي. فحاجة هذه المخلوقات البائسة ليست إلى اكتشاف قوة يمكن أن يعطيها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد بل إلى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع، ويمكن أن ينحني لها الجميع. فهذه الحاجة إلى «الاحترام المشترك» هي بعينها العذاب الأساسي الذي يعذب كل فرد ويعذب البشرية بمجملها، منذ أقدم عهود التاريخ. فباسم هذا التطلع إلى العبادة المشتركة أفنت الشعوب بعضها بعضاً. كانت تخلق آلهةً ثم تتشاتم: «اتركوا آلهتكم وانحنوا أمام آلهتنا، وإلّا ـ فالموت لكم ولآلهتكم!». وسوف يبقى الحال على هذا النحو إلى نهاية العالم؛ وحتى بعد زوال الآلهة، سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة. ولقد كنت تعرف هذا السرّ الأساسيّ من أسرار الطبيعة البشرية، فلا يمكن أن تجهل هذا السرّ ولكنك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوة جذبٍ مطلق، والتي قدِّمت لك لكي ينحني جميع البشر أمامك بدون تردد ـ أعني راية الخبز الأرضي. رفضت هذه الراية باسم الحرية وباسم الخبز السماوي. فانظر الآن ماذا فعلت، ودائماً باسم الحرية؟ أعود فأقول لك أن لا قلق أرسخ في قلب الإنسان من قلب الحاجة إلى العثور على من يستطيع أن يضحي له سريعاً بالحرية التي وُهبت له، هو المخلوق البائس منذ وُلادته.

ولكن لا سبيل إلى التصرف في حريّة البشر إلّا بتهدئة ضميرهم. كان في وسعك أن تتخذ الخبز راية «لا تخطىء. أطعم الإنسان يطعْك، فلا شيء في هذا العالم أعزّ على الجحود من الحاجة إلى الأكل. ولكن إذا استولى غيرك على ضمير الشرّ تركوك وتخلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذي يكون قد أخضع ضميرهم. في ذلك كان رأيك صحيحاً، لأنّ سرَّ الحياة البشرية ليس فقط في إرادة الحياة بل في الحاجة إلى معرفة لماذا يعيش. فالإنسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، يرفض أن يعيش، لا يقبل أن يؤثر في العالم بل يؤْثِر أن يدمّر نفسه ولو ملك الخبز وافراً. ولكن، ما هي النتيجة؟ بدلاً من أن تسيطر على الحرية البشرية أردت لها مزيداً من النموّ. فهل نسيت إذن أن الإنسان يؤثر هدوء نفسه بل يؤثر الموت على أن تكون له ملكة حريّة الاختيار في معرفة الخير والشرّ؟ لا شيء يخلب العقل أكثر من حريّة الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يعذب الإنسان أكثر مما تعذبه حرية الضمير. فبدلاً من أن تحمل للبشرية الأسس الراسخة المتينة الباقية للهدوء النفسي والطمأنينة الروحية، وبدلاً من أن توفر لها الأسس إلى الأبد، عرضت عليها ما في هذا العالم من أمور سريّة غامضة خارقة تفوق طاقة قواها، وكنت في عملك هذا كأنك لا تحب البشر، أنت الذي جئت مع ذلك لتهب لهم الحياة! فبدلاً من أن تسيطر على الحرية الإنسانية وسَّعتها، وبذلك ضاعفت، إلى غير نهاية، الآلام التي تولّدها هذه الحرية في نفوس البشر. أردت من البشر أن يمنحوك حبَّهم أحراراً، وأن يتبعوك بإرادتهم مفتونين بشخصك، ألغيت القانون القديم الذي كان صارماً فأصبح على الإنسان أن يميّز الخير من الشرّ بنفسه مستلهماً حكم قلبه مسترشداً بصورتك. أفلم تتنبأ إذن بأن البشر سينوؤون تحت هذا العبء الرهيب، عبء حرية الإرادة، فإذا هم، آخر الأمر، ينبذون صورتك ويشكّون في تعاليمك؟ سوف ينادون، في النهاية، بأن الحقيقة لم تكن فيك، فمن المستحيل إلقاؤهم

إلى اضطراب أشدّ وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم إليهما حين تركت لهم كل هذه الأنـواع من القلق، وكل هذا العدد من المشكلات التي لا سبيل إلى حلِّها. لقد أعطيتهم، أنت بنفسك، الأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك الخاصة، فليس لك أن تتَّهم أحداً بتدميرها. فهل هذا ما عُرض عليك؟ ليس على الأرض إلّا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلّب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعفاء وأن تخضعهم في سبيل سعادته نفسها، وهذه القوى هي: المعجزة والسرّ والسلطة. لقد رفضت هذه القوى، الأولى والثانية والثالثة، وعلّمت البشر أن يحتقروها. وعندما نقلك الروح الرهيب (إبليس) إلى سطح الهيكل وقال لك: «إذا أردت أن تتأكد أنك ابن الله فألقِ بنفسك في الفضاء، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم. وعندئذ، تعلم أنك ابن الله، وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك»، وأنت استمعت، لكنك رفضت هذا العرض، ولم تقع في التجربة ولم تقفز. صحيح أنك تصرّفت في تلك اللحظة كتصرّف إله، ولكن هل تتصور أن البشر، وهم جنس ضعيف متمرد، يملكون من القوة الروحية ما تملكه الآلهة؟ لقد تأكدت في تلك اللحظة أن حركة بسيطة هي أن تهمّ بإلقاء نفسك في الفضاء ستعني إغراء الخالق، فلو قمت بها، لكنت بطلب المعجزة تبرهن على ضعف إيمانك، فإذا حُرمت من الإيمان تهشَّمت صورتك على الأرض التي جئت لتخلّصها وتنقذها، وتهلل الروح المحتال (إبليس) فرحاً. لكنني أكرر: هل أمثالك كثيرون في هذا العالم؟ توهَّمت، لحظة واحدة، أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضاً فوق تجربة من هذا النوع؟ هل وُجدت الطبيعة البشرية لترفض المعجزة في الساعات العصيبة من الحياة، أم أن المشكلات الروحية والأساسية الرهيبة والمؤلمة قادرة على أن تحكم القلب؟ كنت تعرف أن انتصارك سينتقل عبر الكتب المقدسة إلى آخر العصور وآخر حدود الأرض، وكنت تأمل أن يقتدي

البشر بك فيقبلوا أن يظلّوا وحيدين مع الله بدون حاجة إلى معجزة. ولكنك لم تعرف أنّ الإنسان متى رفض المعجزة يرفض فوراً الله لأنه يسعى إلى المعجزات لا إلى الله. ولكون الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير المعجزات سيخلق بنفسه معجزات جديدة، فيهوي، ولو كان متمرداً وكافراً وملحداً، إلى خرافات سخيفة، تنطلي عليه أباطيل الساحرات العجائز. إنك لم تنزل عن الصليب عندما دعاك الجمهور إلى ذلك صائحاً من باب السخرية: «إنزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت». لم تنزل لأنك، مرة أخرى، لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة بل أردت أن يأتوا إليك بدافع الإيمان لا بتأثير المعجزات. أردت أن يهبوا لك محبّتهم أحراراً لا أن يطيعوك عبيداً أذهلتهم قوّتك. هنا أيضاً بالغت في تقدير البشر، وأنزلتهم منزلة أرفع من منزلتهم، ذلك أن البشر عبيد رغم أنهم مفطورون على العصيان. انظر فيما حولك واحكم أنت بنفسك! ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرناً؟ هيّا، انظر إليهم؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم إلى مستواك؟ أقسم لك إن الإنسان خُلق أضعف وأسوأ مما ظننت! هل يستطيع هو الوضيع، قل لي، أن يحقق ما حققته أنت؟ إنك حين احترمته إلى هذا الحدّ قد تصرَّفت كمن فقد عطفه عليه، لأنك طلبت منه فوق ما يطيق، أنت الذي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنك قدَّرته أقلّ مما قدّرته إذن لطلبت منه أقلّ مما طلبت، ولكان موقفك عندئذ أقرب إلى المحبة، لأنّ العبء عليه عندئذ يكون أقلّ ثقلاً. إن الإنسان ضعيف وحقير. وما أهمية أن يكون الآن قد ثار في كل مكان على سلطتنا وأنه يفتخر بأنه متمرد؟

ذلك غرور طفل أو تلميذ مدرسة. إن البشر أولاد صغار ثاروا في صفوفهم وطردوا معلّميهم. لكن فرحة هؤلاء الأولاد لن تدوم وسوف تكلّفهم غالياً. سوف يهدمون الهياكل، ويجرون الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدرك عندئذ، هؤلاء الأولاد الأغبياء أنهم إن خُلقوا عصاة فلا يتيح لهم ضعفهم

أن يقضوا زمناً طويلاً في العصيان. وسيعترفون وهم يذرفون دموعاً باطلة أن الذي وهب لهم روح التمرد قد غرَّر بهم وسخر منهم. سيقولون هذا بيأس وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أكثر شقاءً أيضاً لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل التجديف ولا بدَّ أن تثأر لنفسها منه في آخر الأمر. وكذلك القلق والاضطراب والشقاء، ذلك هو المصير الذي كُتب على البشر الآن، بعد أن تألمت أنت من أجل أن تجعلهم أحراراً! إن رسولك الكبير يروي أنه رأى، في رؤيا، جميع المشتركين في القيامة الأولى، فرأى اثني عشر ألفاً من كل سبط. وكانوا، مهما يكثر عددهم، أقرب إلى آلهة منهم إلى بشر: قاسوا صليبك، وتحملوا عشرات السنين في الصحراء الجرداء، وأنهكهم الجوع، وأكلوا الجراد والجذور. وأنت، بالتأكيد، في وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الأولاد الذين وهبوا لك محبَّتهم أحراراً، وارتضوا أن يضحّوا في سبيلك بأنفسهم في سورة رائعة. مع ذلك، تذكَّر أن هؤلاء ليسوا إلا بضعة آلاف وأنهم أشبه بآلهة منهم ببشر ـ والآخرون؟ ما ذنب الآخرين إن هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من مصائب؟ هل تأثم النفس الضعيفة عندما لا تعرف كيف قسموا إلى فضائل مرعبة إلى هذا الحدّ؟ أتراك جئت من أجل هذه النخبة وحدها؟ ألا تفكر أنت إلّا فيها، ولا يخطر ببالك من عداها؟ إذا كان الأمر كذلك، فهو سرّ يفوق ما نملك من قدرة على الادراك. ومن حقنا في هذه الحالة، نحن أيضاً، أن نلجأ إلى السرّ وأن نعلّم الجماهير أنّ الأمر الأساسي ليس هو الحب بل السرّ، ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً، بل هو الخضوع الأعمى لما لا إمكانية لمعرفته، وأن يطيعونا ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. أصلحنا خطأك وأقمناه على «المعجزة والسرّ والسلطة». وابتهج الناس إذ رأوا أنفسهم يقادون مجدداً كما يقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشؤومة التي أعطيتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها. قل لي:

هل كنا على حقّ حين فعلنا ذلك وعلَّمناه؟ هل تعتقد أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحب البشرية حباً كافياً، بينما نحن اعترفنا بضعفها في كثير من الإذعان، وخفَّفنا عنها العبء في كثير من الحب حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعفها الروحي، شرط أن تستأذننا في ذلك كل مرة؟ لماذا، إذن، جئت اليوم تزعجنا؟ لماذا تحدِّق إليَّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين دون أن تقول شيئاً؟ إنني لا أريد محبتك، لأنني أنا نفسي لا أحبك. وماذا لديَّ أن أخفيه عنك؟ ولا أعرف مع من أتكلَّم؟ وكلّ ما لديّ لأقوله، أنت عالم به، وأنا أقرأ ذلك في عينيك. أين يمكنني أن أخبىء عنك سرَّنا؟ إن سرّنا لن يخفى عنك، فلعلّ ما تريده إذن هو أن تسمع هذا السرّ في فمي؟ ليكن لك ما تشاء، واعلم أننا لسنا معك بل معه «هو»، وتحيّزنا له «هو». فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشير لك إلى ممالك الأرض: لقد أعطانا روما وسيف قيصر. ونحن أصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين وأسياده، رغم أننا لم ننجز إلى الآن عملنا نهائياً. وخطأ منْ هذا؟ إن هذا المشروع لا يزال في بدايته ولكنه بُدىء. ولا بدّ من الانتظار طويلاً قبل أن نصل به إلى هدفه، ولا بد من آلام كثيرة في هذه الحياة الدنيا، لكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح قيصر. وعندئذ، نفكر في سعادة مشتركة تنعم بها البشرية. لقد كان بإمكانك أن تأخذ السيف من قيصر في الماضي فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التي نصحك بها الروح القوي اذن لكنت حققت كل ما تتمناه البشرية، وهو أن تعرف: من تطيع، وإلى من تعهد بضميرها، وبأيّ أسلحة توحّد جميع البشر في مجتمع كمجتمع النمل، واحد كبير منظم، لأنّ الحاجة إلى الوحدة الشاملة هي ثالث هموم النفس البشرية، وهي، في الوقت نفسه، أقوى هذه الهموم كلّها. لقد حاولت البشرية في كل الأزمنة أن تنظم نفسها على أساس شامل. إنّ ثمة

أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكن شقاءها كان كبيراً على قدر نبلها لأنها شعرت أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة إلى توحيد النوع البشري. فالغزاة الكبار من أمثال تيمورلنك وجنكيزخان الذين مرّوا على الأرض كإعصار مخرب، وعاصفة مدمرة، كانوا يتوقون إلى أن يصبحوا أسياد العالم بأسره، ولكن شوقاً عميقاً واحداً إلى توحيد الشعوب كلها، كان يحرّكهم دون أن يشعروا بذلك. فلو ارتضيت بقانون القياصرة ومقامهم، لكان بإمكانك أن تقيم المملكة الشاملة وتوطد السلام الشامل. ومنْ يحكم البشر إن لم يكن أولئك الذين يحكمون النفوس، منذ الآن، ويملكون الخبز؟ لقد أخذنا، إذن، السيف من قيصر، وإذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه «هو». ستنقضي قرون في فوضى التحلل الفكري والعلم الباطل وأكل لحوم البشر لأنهم ما داموا قد بدأوا بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً إلى أكل لحوم البشر. لكن «الوحش» سيأتي إلينا زاحفاً، وسوف يلعق أقدامنا التي سيبلّلها بدموعه المدمَّاة. وسوف نركب هذا الحيوان ونرفع كأساً حُفرت عليها كلمة واحدة: «السرّ». ويومئذ، ستتوطد مملكة السلام والسعادة للبشرية. إنك فخور بنخبتك المختارة، ولكن النخبة وحدها معك، أما نحن، فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة إلى كل نفس. وحتى بين أبناء هؤلاء المختارين، حتى بين الأقوياء، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون إلى خدمتك، فعبثاً انتظروك، ثم سئموا هذا الانتظار الطويل الذي لا جدوى له، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضية بحتة، وانتهى بهم الأمر إلى رفع راية حريتهم عليك! وهذه الراية أنت منْ رفعها. أما نحن الذين نهشّ على البشر بعصانا، فإن البشر سيكونون سعداء معنا، وسيتخلّون عن التمرد علينا. سوف نعرف كيف نقنعهم بأنهم لن يكونوا أحراراً إلا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا عودة عنه. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب؟ لن يلبثوا أن

يدركوا أنه الحقيقة لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التي قادتهم إليها حريتك. إن الحرية، حرية الفكر والعلم، وكل ذلك سيؤدّي بهم إلى طريق مسدود، لأنه سيلقيهم في اضطراب لا مخرج منه مليء بالألفاظ التي لا حلَّ لها، يزخر بالمعجزات المحيّرة وبالأسرار المبهمة. والعصاة العنيفون والمتوحشون منهم سيدمّرون أنفسهم؛ وأما العصاة الضعفاء فسيقتل بعضهم بعضاً؛ والذين سيبقون هم الضعفاء والتعساء، وهم أشقى من أن يتمردوا فسيزحفوا عند أقدامنا قائلين لنا: «أجل، أنتم على حقّ لأنكم وحدكم تملكون سرّه. نحن نعود إليكم فأنقذونا من أنفسنا!» وعندما سيتلقون الخبر من أيدينا سيرون أنهم هم الذين أنتجوه بعملهم، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بدون أي معجزة. سيدركون أننا لم نقلب حجارةً إلى خبز، ولكنهم سيفرحون بأنه طُعموا، وسيفرحون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا: لن ينسوا أبداً أن الخبز الذي صنعوه كان، بدوننا، يتحول في أيديهم إلى حجارة، حتى إذا رجعوا إلينا تحوَّلت الحجارة خبزاً لهم. وسيعرفون كيف يقدّرون قيمة الخضوع النهائي! لم يكن ممكناً أن تكون حياتهم سوى شقاء، ما ظلّوا يجهلون ذلك. فمن الذي ساهم أكثر من غيره في عدم الفهم الذي أعماهم؟ قل لي: من الذي خرَّب تلاحم القطيع وشتَّته في طرق مجهولة؟ لكن القطيع سيتجمع مجدداً، وسيعود إلى طواعيته إلى الأبد هذه المرة. وسوف نَهَب، عندئذ، إلى هذه المخلوقات الضعيفة سعادةً متواضعة هادئة هي السعادة الوحيدة التي تلائمهم. سنعلّمهم أخيراً ألّا يتبجحوا بأنفسهم لأنك رفعتهم فجعلتهم متكبرين. سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم، وأنهم أطفال مساكين، ولكن سعادة الأطفال هذه هي أعذب سعادة. سوف يصبحون خائفين، وسوف ينظرون إلينا نظرتهم إلى حماة، ويتراصون حولنا كما أفراخ الدجاجة حول أمها. سوف ندهشهم ونرعبهم عندما يرون قوتنا، فخورين بأن لهم سادة أقوياء

وأذكياء، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع من العصاة. سوف يرتعدون خوفاً أمام غضبنا، سوف تتخدر عقولهم، وتدمع عيونهم كالنساء والأطفال، لكنهم، بإشارة منا، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة إلى الضحك والمرح والغبطة، ضاحكين بهناءة، مغنّين كالأطفال الصغار. وسوف نرغمهم على العمل طبعاً، ولكننا سنهيئ لهم في ساعات فراغهم حياة أشبه بلعب الأطفال فيها أغانٍ طفولية وجوقات ورقصات بريئة. أوه. وسنسمح لهم أيضاً بأن يأثموا ما داموا ضعفاء وبدون قوة، وسوف يحبوننا مثل الأطفال بسبب منحهم اقتراف الخطايا. سنقول لهم إن كل خطيئة يمكن التكفير عنها إذا هي ارتكبت بموافقتنا. وإذا سمحنا لهم أن يأثموا فلأننا نحبهم، أما القصاص فسنأخذه على عاتقنا. سوف يحبوننا لأننا مخلِّصون لهم، لأننا نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم أمام الله. ولن يكتموا عنا أيّ سرّ. سنسمح لهم أو نحظر عليهم، تبعاً لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم أو عشيقاتهم، وأن ينجبوا أولاداً، أو لا ينجبوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا بفرح وسرور. سيفضون إلينا بأخفى ما يعانون من آلام، وأخفى ما يضطرم في ضميرهم من أنواع العذاب، وسوف نفصل في جميع الحالات، وسوف يرتضون حلولنا فرحين، لأنها ستحررهم من القلق الذي يعانيه المرء متى توجّب عليه أن يتخذ قراراً حراً. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر باستثناء بضع مئات من الألوف الذين ستقودهم: سنكون وحدنا أشقياء نحن الذين نملك السرّ. سيكون في هذا العالم مئات الملايين من المخلوقات السعداء، لن يكون فيه إلا مئة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمّل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشر. وسوف يموت أولئك موتاً هادئاً ينطفئون باسمك وادعين مسالمين فلا يجدون في المقابر إلا الموت. ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بالسرّ، ومن أجل سعادتهم سنلألىء أمام أعينهم جمال المكافآت

السماوية والأبدية. وإن كانت توجد حياة أخرى بعد الموت فلا شك أن هؤلاء الضعفاء ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى. يُقال، وتزعم النبوءات أنك ستعود، ذات يوم، لتحقق نصراً جديداً على الشرّ، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من ذوي النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم. لكننا سنقول عندئذ، بأن هؤلاء قد أنقذوا أنفسهم وحدها. أما نحن فقد جئنا بالخلاص لكل الناس. يقال إن الزانية الدنيئة التي تركب «الوحش» وتحمل السرّ، سيجلّلها العار، ذات يوم، وإن الضعفاء سيتحررون مرة أخرى فيمزقون رداءها الديني الكاذب ويعرُّون جسدها «النجس». لكنني أنا، سأنهض، عندئذ، وأُريك ألوف الملايين من الأطفال السعداء، الذين عاشوا وهم يجهلون الخطيئة. ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم، سوف نمثُل أمامك ونقول لك: «احكم علينا إذا كنت تستطيع، إذا كنت تجرؤ!» واعلم أنني لا أخشاك، واعلم أنني عشت أنا أيضاً في الصحراء أقتات بالجراد والجذور، وأبارك الحرية التي كنت تبارك بها البشر. وأنا أيضاً، كنت أتهيأ لأن أكون واحداً من صفوتك المختارة، واحداً من الأقوياء والمقتدرين الذين يتحرقون شوقاً إلى «إكمال العدد». ولكنني فتحت عينيَّ ورفضت أن أخدم الجنون. لقد عدت وانضممت إلى صفوف أولئك الذين أصلحوا ما صنعت. أجل، تركت المتكبرين وانضممت إلى المستضعفين لأحقق سعادتهم. إن ما أقوله لك سيتحقق، وإن مملكتنا سوف تُبنى في هذا العالم. وأكرر لك: سترى قطيعاً مطيعاً يسرع بإشارة مني إلى إضرام ألسنة اللهب التي ستُحرق بها. وسآمر بحرقك لأنك جئت تزعجنا. وإذا وجد واحد يستحق الهلاك في النار أكثر من الآخرين فهو أنت. غداً سأحرقك. انتهى كلامي».

توقَّف إيفان. كان قد تحمس وهو يتكلم. وختم قصته باندفاع. وعندما انتهى من حديثه ظهرت، فجأة، على شفتيه ابتسامة.

وأليوشا الذي أصغى إليه صامتاً، حاول، أخيراً، عدة مرات، أن يقاطع خطاب أخيه. ومع ذلك، كبح جماح نفسه حتى النهاية. وها هو الآن يتكلم، وكأنه مدفوع إلى الكلام؛

ـ ولكن... هذا سخيف. صاح وقد احمرّ وجهه. إنّ قصيدتك مديح للمسيح، في الواقع، وليست نقداً كما أردت. من الذي يصدّق ما قلت عن الحرية؟ أهي كذلك أم هكذا يجب أن تُفهم؟ إن الكنيسة الأورثوذكسية لا تتصور الحرية على طريقتك هذه... إنها روما... روما كلّها، أليس ذلك صحيحاً؟ إنه تصوّر أشرار الكاثوليكية، هم المفتشون واليسوعيون... إن صاحبك كبير المفتشين لا صلة له بالواقع بل هو شخصية خيالية غير موجودة. ما هي خطايا البشر التي يدّعي أنه اتخذها على عاتقه؟ أين رأيت حملة السرّ هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا، لست أدري أيّ لعنة، من أجل سعادة البشر؟ متى وُجد هؤلاء؟ إننا نعرف اليسوعيين وقد قيل فيهم سوء كثير، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التي رسمتها لهم؟ إنهم ليسوا كذلك أبداً... إنهم جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا في المستقبل أمبراطورية الأرض التي سيرأسها حبر روما برتبة أمبراطور... ذلك هو مثلهم الأعلى، وهو لا يشتمل على سرّ ولا على ذلك الحزن النبيل... إنه الرغبة في السيطرة فقط، إنه شهوة الاستئثار بخيرات الأرض الحقيرة، إنه استعباد الناس... إنهم يحلمون بالعودة إلى نوع من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين... ذلك هو طموحهم كله! وهم لا يؤمنون حتى بالله. ليس صاحبك المفتش ولا عذابه النبيل إلا وهماً فقط...

ـ مهلاً، مهلاً! قال إيفان ضاحكاً. لماذا تتحمّس؟ إنها ثمرة خيالي، تقول لي. أنا لا أعارض في هذا! طبعاً، ذلك كله خيال. ولكن، مهلاً، أرجو أن تسمح لي بهذا السؤال: هل تعتقد حقاً بأن كل الحركة الكاثوليكية، في القرون

الأخيرة، لم تكن إلا رغبة في السلطة وفي الخيرات الحقيرة؟ لا شك أن الأب بابيسي هو الذي ملأ رأسك بهذا الكلام؟

ـ لا، لا. بالعكس! قال الأب بابيسي ذات يوم كلاماً يشبه كلامك... ولكنه استدرك فجأة:

ـ لكنه، طبعاً لم يقل ما قلته أنت بعينه أبداً.

ـ معلومة ثمينة، رغم قولك «ليس ما قلته أبداً». أنا أسألك، بالضبط، لماذا أصحابك اليسوعيون والمفتشون اتحدوا معاً لامتلاك الخيرات المادية الحقيرة؟ لماذا من المستحيل أن نجد بينهم إنساناً واحداً يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب البشرية؟ افرض أنه قد وُجد في عداد هؤلاء الناس الباحثين في المباهج المادية والدنيئة، رجل واحد شبيه بصاحبي كبير المفتشين، عاش في الصحراء مثله واقتات بالجراد والجذور، وناضل ضدّ الشيطان مهلكاً جسده ليكون حراً وكاملاً. وقد أحبَّ البشرية طوال حياته، واقتنع فجأة بأن السعادة النفسية التي يقال إن السموّ الروحي يحققها، إنما هي وهم ما دام ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الله مثله، لا يزالون غارقين في أقذار الفحش، وأن حريتهم المزعومة ليست إلا سخرية لاذعة مرة، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا عمالقة قادرين على إكمال بناء البرج وأنهم لن يصلوا أبداً إلى حريتهم، وأن حلم الانسجام المثالي الكبير لم يخلق لهذا النوع من الإوزّ! تصوَّر أنّ هذا الرجل قد أدرك ذلك فعاد إلى صوابه وانضمّ إلى الحكماء... أهذا، في رأيك، لم يحصل أبداً؟

ـ إلى من انضم، ومن هم هؤلاء الحكماء؟ قال أليوشا غاضباً. لا توجد أيّ حكمة في هذا الشأن، وليس لديهم سرّ ولا ما يشبه السرّ! هؤلاء ملحدون... هذا هو السرّ كله. وصاحبك المفتش لا يؤمن بالله، وهذا هو سرّه!

ـ لنسلّم بهذا! لقد عرفت أخيراً. صحيح أن السرّ يكمن ها هنا. ولكن

أليس هذا عذاباً بالنسبة إلى رجل مثله أفسد مستقبله بحياة التقشف في الصحراء ولم يستطع أن يتحرّر من حبّه البشرية؟ لقد رأى، بوضوح، في أواخر أيامه، أن النصائح التي قدَّمها الروح الرهيب الكبير يمكنها وحدها أن تنظم، بشكل مقبول، حياة العصاة الضعفاء، حياة هذه «المخلوقات الناقصة التي كانت تجربةً للخالق، وظفرت بالحياة سهواً». فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب سلوك الطريق الذي نصح به الروح العميق، الروح الرهيب، روح الموت والعدم. ولأنه منطقي مع نفسه فقد أقرَّ ضرورة الكذب على البشر وتضليلهم وخداعهم لكي يسير بهم إلى الموت وإلى العدم سيراً واعياً ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق لكي لا يكتشفوا إلى أين هم سائرون. فبهذه الطريقة يتمكن العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء. لاحظْ، إنه مضطر إلى هذا الكذب باسم ذلك العجوز الذي آمن به بشغف طوال حياته. أفليس هذا شقاء؟ وإذا وُجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع، على رأس هذا «الجيش المتعطش إلى السيطرة وإلى اللذائذ المادية الرخيصة»، أليس مثل هذا كافياً لأن يخلق مأساة! وأكثر من ذلك: يكفي أن يوجد واحد من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجِّهة في فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها، فكرة سامية. أقول لك بصراحة، أنا على يقين من أنّ رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا في كل الأزمنة بين قادة الكاثوليكية الرومانية، وربّما وُجد منهم بين البابوات الرومانيين! ومن يدري، فإن ذلك العجوز اللعين الذي يصرّ على محبة البشرية على طريقته، يمكن أن يوجد في أيامنا هذه، مع عدد من أمثاله، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله

نتيجة صدفة، بل ثمرة تفاهم واتفاق، وأن يكون نوعاً من جمعية سرّية أنشئت منذ زمن بعيد للمحافظة على السرّ وإخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء وتأمين سعادتهم بذلك. لا بدّ أن يكون الأمر كذلك حتماً. ويبدو لي، من جهة أخرى، أن الماسونيين لا بدّ أن يكون لهم هم أيضاً سرّ من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم وهذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وحقد، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون إلى وحدة الفكرة، بينما يجب ألّا يكون هناك إلا قطيع واحد وراعٍ واحد... ولكنني ألاحظ أنني في دفاعي عن فكرتي أبدو كمؤلِّف عاجز عن احتمال نقدك. كفى هذا.

ـ تُرى هل أنت نفسك من الماسونيين؟ سأله أليوشا فجأة، ثم أضاف: أنت لا تؤمن بالله! لكنه قال بلهجة فيها حزن عميق في هذه المرة، وقد بدا له أن أخاه ينظر إليه بسخرية.

ـ وكيف تنتهي قصيدتك؟ سأله وهو ينظر إلى الأرض. أم أنها انتهت؟

ـ خطر ببالي أن أنهي قصيدتي على هذا النحو: عندما سكت كبير المفتشين انتظر من سجينه رداً. لكن صمت السجين قد ثقل عليه، رأى أسيره يستمع إليه طوال فترة كلامه ويحدِّق إليه بنظرة رقيقة نافذة موجّهة مباشرة إلى عينيه مصمماً على ألّا يدخل معه في مناقشة. كان العجوز يفضّل أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة. ولكن السجين لم يتفوّه بكلمة واحدة. وفجأة اقترب من العجوز فطبع قبلة على شفتيه الشاحبتين. كان ذلك كلّ جوابه. ارتعش العجوز، واختلج شيء ما في طرفَي شفتيه، ثم اتجه نحو الباب ففتحه وقال: «اذهب الآن... ولا ترجع بعد اليوم أبداً، لا ترجع بعد اليوم أبداً... وتركه يذهب إلى «الأماكن المظلمة من المدينة». وانصرف السجين.

ـ والعجوز؟

ـ حرقت القبلة قلبه، لكنه بقي متمسكاً بفكرته.

ـ التي هي فكرتك أنت أيضاً، أليس كذلك؟ قال أليوشا بألم. وانفجر إيفان ضاحكاً.

ـ لكن ذلك كلّه سخافات، يا أليوشا. إنها قصيدة سخيفة نظمها طالب لم يكتب طوال حياته بيتين من الشعر. فلماذا تهتمّ بها هذا الاهتمام؟ ولماذا تعطيها هذا الاهتمام كله؟ هل تظنّ أنني ذاهب إلى هناك لأنضمَّ إلى اليسوعيين ولأنخرط في صفوف أولئك الذين يدعون «إصلاح ما قام به المسيح»؟ يا إلهي، ماذا يعنيني هذا كله؟ لقد قلت لك: إن كل ما يعنيني هو أن أصل إلى الثلاثين من العمر، ثم أحطّم كأسي على الأرض!

ـ والوريقات الصغيرة الغضّة؟ والقبور العزيزة عليك، والسماء الزرقاء، والمرأة المحبوبة! كيف ستعيش إذن لكي تحبّهم، كيف ستفعل؟ قال أليوشا بألم. إنك بهذه الأفكار الجهنمية في رأسك وفي صدرك لن تستطيع ذلك؟ بلى، صحيح، إنك ذاهب لتنضمّ إليهم... وإلا فستقتل نفسك هناك، لن تصمد!

ـ في نفسي قوة ستتحمّل كل شيء! قال إيفان متهكماً.

ـ أيّ قوة؟

ـ قوة آل كارامازوف... قوة الخسة الكارامازوفية.

ـ تريد أن تغرق في الفجور، وأن تقتل نفسك في حضيض الجسد؟ أجل، أجل.

ـ نعم، يمكن القول... لكنني سأعرف كيف أتجنّبه حتى الثلاثين من العمر. وبعدئذ...

ـ كيف ستتجنَّبه؟ بماذا ستتجنّبه؟ هذا مستحيل مع أفكارك هذه!

ـ وهنا أيضاً على الطريقة الكارامازوفية.

ـ هنا أيضاً على الطريقة الكارامازوفية. أيكون ذلك بأن «كلّ شيء مشروع»؟

متى كان كلّ شيء مباحاً؟

قطّب إيفان حاجبيه وشحب لونه فجأة.

ـ آه! أنت تعيد الفكرة التي أساءت بالأمس إلى ميوسوف... تلك الفكرة التي تلقّفها أخونا ديمتري بشكل ساذج؟ أضاف إيفان وعلى شفتيه ابتسامة متكلّفة... ليكن! هو كذلك! «كل شيء مباح». لأن الجملة قيلت فأنا لا أنكرها. قلت ذلك ولن أنقضه. أما جملة ميتيا فليست سيئة هي الأخرى.

نظر إليه أليوشا دون أن يتفوه بكلمة.

ـ كنت أحدّث نفسي، يا أخي العزيز، بأنني سأحتفظ عندما أسافر بإنسان واحد يحبني؛ واستأنف إيفان كلامه بانفعال غير منتظر. لكنني ألاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي الناسك. أنا لن أنكر فكرتي القائلة بأن «كل شيء مباح». ولكنك أنت ستنكرني بسبب هذه الفكرة، إذا صدق ظني، أليس كذلك؟

نهض أليوشا واقترب منه وطبع على شفتيه قبلة رقيقة دون أن يتكلم.

ـ هذه سرقة أدبية! صاح إيفان بحماسة. لقد سرقت أنت الفكرة من قصيدتي. شكراً! إنهض يا أليوشا. فلننصرف. يجب أن ننصرف أنا وأنت.

خرجا ولكنهما توقفا أمام درج الكاباريه.

ـ إسمع يا أليوشا. قال إيفان بصوت جازم. إذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحب الوريقات الصغيرة النديّات فسيكون هذا بفضل ذكراك. سيكفيني في ساعات اليأس أن أتذكر أنك ما تزال تعيش في مكان ما حتى أسترجع حبّ الحياة فوراً. هل يرضيك هذا؟ عده تصريح حبٍ إن شئت. والآن، ستتجه أنت يمنةً وأنا يسرةً ـ كفانا ثرثرة، هل فهمت، كفى. وحتى

وإن لم أسافر غداً (وأنا متأكد أنني سأسافر) والتقينا مرة أخرى، فلا تعد إلى هذه المواضيع التي ناقشناها اليوم، أرجوك. حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع! ولا تكلّمني أيضاً عن أخينا ديمتري في المستقبل، أنا أطلب منك هذا بجزم. ومن المفضّل ألّا تكلمني بعد الآن أبداً. (أضاف قائلاً بعصبية مفاجئة) لقد انتهى الحديث، فكل شيء قد قيل. أليس هذا جيداً؟ وأنا، من جهتي، سأقطع لك هذا الوعد: عندما سأقرر في الثلاثين من عمري أن «أرمي الكأس على الأرض»،فسوف أجيء لأراك للمرة الأخيرة... ولو كنت أعيش في أميركا، سأجيء إليك فنتناقش مرة أخرى... في وسعك أن تعوّل على هذا. سأقوم برحلة خاصة لهذه الغاية. سيشوقني أن أراك عندئذ، وأن أعرف ما صرت إليه. هذا وعد أقطعه على نفسي. قد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنوات أو عشر. حسناً، اذهب الآن إلى صاحبك «الأب سيرافيكوس» لأنه يحتضر. فإذا مات في غيابك ستحقد عليّ لأنني أخَّرتك. إلى اللقاء. قبّلني مرة أخرى، والآن، فاذهب...

تركه إيفان فجأة وسار في طريقه دون أن يلتفت. إن هذا الانصراف المباغت يشبه الطريقة التي ترك بها أخوه ديمتري، أليوشا بالأمس، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض. مسَّ هذا التشابه الغريب فكر أليوشا بشكل خاطف، فشعر فجأة بحزن وإرهاق. انتظر بعض الوقت يتابع بنظره أخاه الذي كان يبتعد. لاحظ دون أن يعرف في تلك اللحظة أن مشية إيفان كانت متمايلة وأن كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف اليسرى. ولم يلاحظ هذا من قبل. أخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً. كان الظلام قد هبط. شعر بخوف غامض يجتاحه. لقد نبت في نفسه إحساس لم يستطع معرفة طبيعته. هبَّت الريح كما في الليلة البارحة. وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المئة من عمرها، غمرته بحفيف حزين حين دخل غابة المنسك. كان

يركض تقريباً. «الأب سيرافيكوس» ـ أين تراه وجد هذا الاسم؟ تساءل أليوشا بسرعة خاطفة. إيفان، مسكين إيفان، متى أراك... هذا هو المنسك! يا إلهي! نعم، نعم، سوف ينقذني «الأب سيرافيكوس»... سوف ينقذني منه إلى الأبد.

سوف يتذكر أليوشا، مراراً، أثناء حياته، في دهشة عميقة، كيف استطاع في ذلك اليوم بعد أن ترك إيفان، أن ينسى أخاه ديمتري، مع أنه كان قد صمّم قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلَّف الثمن، ولو اضطر، في سبيل ذلك، أن يعدل عن الذهاب إلى الدير في تلك الليلة.

VI

ليس واضحاً أبداً حتى الآن

أما بالنسبة إلى إيفان فيودوروفتش، وبعد أن ودَّع ألكسي، رجع إلى المنزل، منزل فيودور بافلوفتش. ولكن الأمر الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يحتمل، وكان قلقه يزداد كلما اقترب خطوة من المنزل. والغرابة ليست في القلق الذي كان يشعر به هو بل بكونه لا يستطيع أن يحدّد له سبباً. لقد سبق له أن أحسَّ بنوبات قلق، ولا غرابة في أن يكون حزيناً في هذه اللحظة التي يستعد فيها للسفر بعد أن كان قطع صلته بكل ما يربطه بهذه المدينة. والتي سيكون وحيداً هنا أيضاً كما كان من قبل، مع آمال كثيرة، لكن غير واضحة، مع توقعات كثيرة، لكن دون أن يحدد ما هي هذه الأشياء وما هي رغباته. ورغم كل شيء، حتى لو كان القلق من الجديد ومن المجهول حاضراً في نفسه. فإن ما كان يقلقه هو الآخر. وتساءل: أليس هو الاشمئزاز من منزل الوالد؟ يمكن الاعتقاد أن هذا المنزل رغم معرفتي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة... ولكن لا، ليس هذا هو السبب. أهو إذن وداع أليوشا والحديث الذي جرى بيني وبينه؟ «لقد سكتُّ سنوات طويلة، أمام كل الناس، ولم أتفوه بكلمة أمام أي إنسان، ثم ها أنا أخرج من كل تلك السخافات دفعةً واحدةً. صحيح أنه من الجائز أن

يشعر لقلَّة تجربته وشدة غروره بشيء من الأسف لأنه لم يستطع أن يعبّر عن نفسه أمام إنسان مثل أليوشا ينتظر منه في قرارة نفسه أشياء كثيرة. لا شك أن في نفسه الآن شيئاً من الأسف، ولكن ليس هذا ما يزعجه الآن. هناك شيء آخر؟ «إنّ قلقاً يملأ نفسي حتى ليكاد يثير غثياني ولم أصل إلى معرفة ما أريد... أو أن لا أفكر في هذا الأمر...».

حاول إيفان فيودوروفتش أن «لا يفكّر»، ولكنه لم يفلح. فالقلق الذي يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أنّ مصدره علّة خارجية طارئة. إنه يحسّ ذلك بشكل واضح. إن الأمر يتعلق بشيء أو بشخص ـ لا يعرف إيفان على وجه الدقة ـ لا يحتمل وجوده في نظر إيفان. يشعر إيفان بضيق شبيه بالضيق الذي يثيره في النفس أحياناً، أثناء العمل أو أثناء حديث حار، وجود شيء مزعج لم يره المرء بشكل واعٍ، ولكنه يغتاظ منه، يحاصره ويسدّ عليه الأبواب إلى أن يخطر بباله أخيراً أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذي غالباً ما يكون سبباً تافهاً: شيئاً ليس في موضعه، منديلاً ساقطاً على الأرض، كتاباً نُسي وضعه في المكتبة، الخ. بلغ إيفان منزل والده أخيراً، معتكر المزاج، مهتاج الأعصاب. وعندما وصل إلى مسافة خمس عشرة خطوة من الباب الحديدي، ألقى نظرة على المدخل فأدرك، فجأة، ما كان يقلقه ويعذبه إلى هذا الحدّ.

كان الخادم سمردياكوف جالساً على مقعد قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة المساء، وأدرك إيفان فيودوروفتش أن من أول نظرة إليه كان الخادم سمردياكوف جالساً أيضاً داخل ذاته. وكان هذا الرجل بالضبط الذي لا تستطيع نفسه أن تتحمله. لقد اتضح كل شيء، فعندما كان أليوشا يحدثه، في الكاباريه عن اجتماعه بالخادم، شعر إيفان بانزعاج شديد ونفوذ حادّ لم يلبثا أن تحوَّلا إلى غضب. وتوقف عن التفكير في سمردياكوف أثناء الحديث الذي تلا ذلك، إلا أن حقداً ثقيلاً بقي في قلبه. فعندما ترك إيفان فيودوروفتش،

أليوشا، واتجه إلى المنزل، استيقظ فيه ذلك الشعور بالانزعاج دون أن يتمكن من الاهتداء إلى مصدره. «كيف يمكن أن يقلقني هذا الحقير الغبي؟» تساءل إيفان بغضب لا يحتمل.

وبالطبع إن إيفان فيودوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن بعيد، ولا سيما في الأيام الأخيرة. وقد بدأ يعرف هو نفسه أن ثمة حقداً تجاه هذا الرجل لا ينفك يتزايد .ولعل هذا الحقد قد تفاقم إلى هذا الحد لأنه، في البدء، في الأيام الأولى لقدوم إيفان فيودوروفتش قد شعر تجاهه بشيء مختلف. لقد أظهر إيفان فيودوروفتش في ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام بالخادم حتى لقد اعتبره امرأً طريفاً، وشجَّعه على أن يتحدث إليه دون أن يفوته ما كان في أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك والقلق. وكان إيفان يتساءل: ما الذي يهزّ فكر هذا «المتأمل» على هذا الشكل بقوة وبدون انقطاع؟ لقد تحدثا في مسائل فلسفية، وناقشا مسألة الضياء، من أين جاء في أول يوم من أيام خلق العالم مادامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق إلا في اليوم الرابع؟ كان واضحاً أن ما يشغل باله هو غير هذا تماماً. وشيئاً فشيئاً، ظهرت أنانيته التي لا حدود لها. فهذه الأشياء لم تعجب إيفان فيودوروفتش، وبدأ ينزعج منه. وعندما بدأت المشكلات العائلية المعقدة بظهور غروشنكا ونشوب المنازعات بين ديمتري ووالده، تسنّى لإيفان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع سمردياكوف، فكان يستحيل عليه، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً باضطراب بالغ، أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول. وما الذي يبحث عنه. كان سمردياكوف يستوضح باستمرار ويلقي بعض الأسئلة مواربأ، لغايةٍ في نفسه ـ ولكن دون أن يوضحها، ويسكت فجأة أو ينتقل إلى موضوع آخر في مجرى الحديث. ولكن إيفان فيودوروفتش أصبح حاقداً عليه خاصة أنه أخذ يرفع الكلفة بينهما، فيخاطبه بدون تحرّج ويمعن في ذلك يوماً

بعد يوم. لقد ولَّد هذا الموقف في نفس إيفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة. ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يسمح لنفسه أن لا يكون مهذباً مع إيفان. بالعكس: كان يصطنع في مخاطبته كثيراً من الاحترام. ومع ذلك، انتهت الأمور بالخادم إلى حيث اعتقد، والله وحده يعلم ذلك، أنه متضامن مع إيفان. فهو يتحدث إليه بطريقة خاصة كأن بين الرجلين تفاهماً سرّياً، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما. وبقي إيفان فيودورفتش مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقي الذي يثير اشمئزازه المتزايد، ثم لم يدركه إلا منذ بضعة أيام. فأراد إيفان، وقد تملَّكه الاشمئزاز والغضب، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف، ولكن هذا الأخير نهض عن مقعده فأدرك إيفان على الفور من وضعه أنه يريد أن يحدّثه حديثاً خاصاً. نظر إليه إيفان وتوقف. كان ينوي، منذ لحظات قليلة، أن يمرَّ دون توقف. شعر بغضب! وبدأ ينظر بحقد واشمئزاز إلى هذا الوجه الذي يشبه وجوه الخصيان وإلى هذا الشعر المصفَّف بكثير من العناية على الصدغين وإلى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس. وكانت عين سمردياكوف اليسرى التي تغضَّن حاجبها، تغمز بمكر، كأنه أراد أن يقول له: «قف، لن أدعك تمرّ. ألا ترى أن هناك حديثاً يجب أن نتبادله نحن رجال الفكر؟».

ـ «امضِ أيها النذل! ما لي ولصحبتك أيها الأبله؟». فما كان أشدّ دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة.

ـ ووالدي أهو نائم أم مستيقظ؟ سأله بصوت عذب ومتواضع. وعلى هذا النحو نفسه الذي لم يكن متوقعاً أيضاً رأى نفسه يجلس على المقعد. وتذكّر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه في اللحظة الأولى. كان سمردياكوف واقفاً أمامه ويداه وراء ظهره، ينظر إليه نظرة فيها ثقة لا بل قسوة.

ـ إنه ما يزال يرتاح. قال دون تعجّل.

قال إيفان يخاطب نفسه: «أنت من يتكلم وليس أنا».

وأردف سمردياكوف، بعد لحظة صمت، خافضاً عينيه في تصنُّع، ويقدم رجله اليمنى، ويهزّ رأس حذائه الملمَّع.

ـ هل تعرف أنك تدهشني يا سيدي؟

ـ ما الذي يدهشك؟ أجاب إيفان فيودوروفتش بلهجة جافَّة وقاسية محاولاً أن يسيطر على نفسه. لكنه شعر، في الوقت نفسه، باشمئزاز وأنَّ في نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه.

ـ لماذا لم تسافر يا سيدي إلى تشرماشنيا؟ قال سمردياكوف وهو يرفع عينيه ويبتسم ابتسامة ألفة.

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول: «ما دمت ذكياً إلى هذا الحدّ فيجب أن تفهم سبب ابتسامتي».

ـ لماذا أذهب إلى تشرماشنيا؟ أجاب إيفان فيودوروفتش متعجباً.

لاحظ سمردياكوف صمتاً جديداً.

ـ لقد رجاك السيّد نفسه أن تذهب إليها.

تمتم سمردياكوف ببطء كأنه لا يولي جوابه هذا أيّ اهتمام: إنني أجيبك بأي شيء، بأول جواب يخطر ببالي، لا لغاية إلا أن أقول شيئاً ما.

ـ كنْ أكثر وضوحاً عندما تتكلم؟ ماذا تريد؟ صاح إيفان فيودوروفتش غاضباً منتقلاً من اللطف إلى الغضب.

ردَّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى، ونصب قامته، لكنه استمر في النظر إليه بالهدوء نفسه والابتسامة عينها.

ـ ليس ثمة أيّ شيء هام. تكلمت بدون غاية.

وساد صمت. سكتا كلاهما ما يقارب الدقيقة. أدرك إيفان فيودوروفتش أنّ عليه أن ينهض وأن يغضب. لكن سمردياكوف وقف أمامه وقد بدا على

وجهه كأنه يقول له: «سوف أرى الآن إن كنت تغضب أم لا؟». ذاك ما شعر به إيفان فيودوروفتش على الأقل. وهمَّ، أخيراً، أن ينهض. ففتح، عندئذ، سمرדياكوف فمه كأنه قد انتظر هذه اللحظة لكي يتكلم.

ـ إنني في وضع رهيب يا إيفان فيودوروفتش. ولست أدري كيف يمكنني الخروج من هذا المأزق. تمتم فجأة بصوت جازم وحادّ. ثم تنهد طويلاً. فجلس إيفان فيودوروفتش فوراً.

ـ كأنهما فقدا كلاهما العقل. استأنف سمرדياكوف كلامه. إنهما يتصرفان كما الأطفال الصغار. إنني أتكلم عن والدك وأخيك ديمتري فيودوروفتش. سوف يستيقظ فيودور بافلوفتش ويعذبني بأسئلته، سوف يسألني في كل لحظة: «لماذا جاءت؟ لماذا لم تأتِ؟». وسوف تستمر هذه الأسئلة حتى منتصف الليل وإلى ما بعد منتصف الليل. وإذا لم تأتِ أغرافينا ألكسندرفنا (وفي رأيي أنها لا تنوي أن تأتي أبداً)، فسوف يتابع أسئلته غداً: «لماذا لم تأتِ؟ متى تأتي؟». كأنني أنا المذنب. والقصة هي نفسها في الجانب الآخر. فمتى هبط الليل بل وقبل هبوطه، يأخذ أخوك ديمتري بالاستعداد، في الجوار، والسلاح في يده: «انتبه أيها الوغد، حذار أيها الوغد! فإذا تركتها تدخل دون أن تعلمني فسأقتلك أنت أول من أقتل!». حتى إذا انقضى الليل عاد يعذبني بأسئلته مثل فيودور بافلوفتش: «لماذا لم تأتِ؟ هل ستأتي قريباً؟». كأنه يعتبرني، هو أيضاً، مسؤولاً عن سلوك هذه السيدة. إن الأمور تسير من سيِّئ إلى أسوأ، وغضبهما كليهما يزداد من ساعة إلى ساعة. ويحاصرني الخوف حتى أنني أفكر في قتل نفسي. إنني لا أتوقع منهما أيّ خير، يا سيدي!

ـ ولماذا حشرت نفسك في هذا الأمر! قال إيفان فيودوروفتش منزعجاً. لماذا ارتضيت أن تكون مخبراً لديمتري فيودوروفتش؟

ـ وهل يمكنني أن أبقى بعيداً؟ أنا لم أحشر نفسي في الأمر، إذا أردت

أن تعرف ذلك. كنت أسكت ولا أجرؤ أن أردّ، منذ البداية، ولكن أخاك ألحَّ وأجبرني على أن أكون له خادماً في هذه المسألة. وهو، مذ ذاك، ما ينفك يردد على مسمعي قوله: «سأقتلك أيها الوغد، سأقتلك إذا تركتها تمرّ!». أنا متأكد أنني سأصاب غداً بنوبة صرع طويلة.

ـ أيّ نوبة صرع؟

ـ نوبة صرع طويلة جداً. ربما استمرت بضع ساعات، وربما يوماً أو يومين. لقد أُصبت، ذات مرة، بنوبة استمرت ثلاثة أيام. سقطت من الشونة وبقيت ثلاثة أيام في الإغماء. يحدث لي هذا فجأة. وفي تلك المرة استدعى فيودور بافلوفتش الطبيب هرزنستوب، طبيب المنطقة، فوصف لي ثلجاً على الجبهة ودواء آخر... وكدت أموت.

ـ يقال إن نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها، وفي أيّ ساعة تحدث. فكيف تقول إنك ستصاب بها غداً؟ سأله إيفان فيودوروفتش باستطلاع ممزوج بالغضب.

ـ صحيح... لا يمكن التنبؤ بها. ففي تلك النوبة الطويلة كنت قد سقطت من الشونة.

ـ أنا أصعد إلى الشونة يومياً، ومن الجائز جداً أن أسقط منها غداً أيضاً. وإذا لم أسقط من الشونة فقد أسقط في القبو، نعم في القبو، لأنني أذهب إلى القبو يومياً للقيام بالخدمة.

نظر إليه إيفان طويلاً.

ـ يبدو أنك تدبّر شيئاً ما. ما الذي تريد أن تصل إليه؟ قال بصوت خافت مع شيء من التهديد. هل ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام أو ماذا؟

كان سمردياكوف قد خفض عينيه، وعاد يهز طرف رجله اليمنى. يُرجع قدمه اليسرى ويقدّم اليمنى، ويرفع رأسه، ويقول بعد ضحكة استهزاء.

ـ هبْني دبَّرت مقلباً من هذا النوع، فثمة أسباب تدفعني إلى ذلك. ما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع إذا كانت لديه تجربة، فسيكون من حقي أن ألجأ إلى هذه الوسيلة لأنقذ حياتي من الموت. فإذا حدث أن قررت أغرافينا ألكسندروفنا أن تأتي إلى والدك فلن يتمكن أخوك ديمتري، السيد ديمتري أن يسأل رجلاً مريضاً: «لماذا لم تبلغني؟» سوف يخجل هو نفسه أن يفعل ذلك. صاح إيفان فيودوروفتش وقد تقبض وجهه غضباً:

ـ تباً لك! لماذا تخاف دائماً على حياتك؟ ليست تهديدات أخي ديمتري إلّا كلاماً فارغاً ولا شيء آخر. لن يقتلك. ربما يقتل أحداً، ولكنه لن يقتلك أنت!

ـ سيقتلني كذبابة، وسأكون أول من يقتل! مع ذلك، هناك شيء أخاف منه أكثر من هذا أيضاً: هو أن أُتهم بالتواطؤ معه إذا هو ارتكب عملاً طائشاً في حق والده.

ـ علام تُتَّهم في هذه الحالة؟

ـ سيُعتقد أنني شريك لأنني أطلعته على تلك الإشارات السرّية.

ـ أيّ إشارات، ولمن؟ سحقاً لك! تكلَّم بوضوح.

ـ يجب أن أعترف بصراحة، أجاب سمردياكوف بصوت فاتر ممزوج بالادعاء، أن هناك سرّاً كبيراً جداً بيني وبين فيودور بافلوفتش. فمنذ بضعة أيام، كما تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال)، اعتاد فيودور بافلوفتش أن يقفل الباب بالمفتاح من الداخل مذ يهبط الليل، أو عند المساء. إنك، في الفترة الأخيرة تصعد إلى جناحك في ساعة مبكرة، وأمس مثلاً لم تخرج أبداً، لذلك، فلعلَّك لم تلاحظ مدى الجهود التي يبذلها السيد لكي يبقى في غرفته. فهو لا يفتح الباب حتى لغريغوري فاسيليفتش إذا هو لم يتعرف إلى صوته. ولكن غريغوري فاسيليفتش لا يأتي، لذلك فأنا وحدي أخدمه في غرفته. هذا ما

قرره منذ اندفع في تلك المغامرة مع أغرافينا ألكسندروفنا. وتنفيذاً لأوامره، فأنا أترك المنزل متى حلَّ الظلام وأقضي الليل في الملحقات مجبراً على السهر حتى منتصف الليل، وأخرج إلى الفناء من حين إلى آخر بغية أن أرى أغرافينا ألكسندروفنا حين تجيء. ذلك أنه بانتظارها منذ بضعة أيام بإلحاح هو الجنون. إنه يفكر على النحو التالي: لا شك أنها تخاف منه، من ديمتري فيودوروفتش، (وهو يسمّيه ميتكا)، لذلك ستفضّل أن تأتي في الليل مجتازة الفناء. وأنا، إذن، مكلف بانتظارها كل مساء حتى منتصف الليل وإلى ما بعد منتصف الليل. قال لي: متى ظهرت عليك أن تسرع إليّ فتطرق بابي أو نافذة الحديقة مرتين اثنتين أولاً، قرعتين غير قويتين جداً، ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً، طق، طق، طق. فأعرف عندئذ أنها جاءت، فأفتح الباب على مهل. ثم شرح لي السيد، بعد ذلك، إشارة أخرى أستعملها عندما يحدث شيء استثنائي: أقرع أول الأمر، قرعتين متقاربتين: طق، طق، وبعد برهة قرعة ثالثة أقوى، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجىء وأنني أريد أن أكلمه، فيفتح لي الباب، فأروي له ما حدث. هذا إذا لم تأتِ أغرافينا ألكسندروفنا وإنما بعثت رسولاً، أو إذا ظهر ديمتري فيودوروفتش بالقرب من المنزل، فبإمكاني إبلاغه الأمر فوراً. إنه يخاف ديمتري فيودوروفتش خوفاً عظيماً وقد أمرني بأنّ عليّ، إذا كانت أغرافينا إيفانوفنا في المنزل مختلية به وظهر ديمتري فيودوروفتش بالقرب من المنزل، أن أُعلمه بذلك على الفور بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات. إذن، علَّمني إشارتين: الأولى تتألف من خمس قرعات ومعناها أن أغرافينا ألكسندروفنا قد جاءت، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أنني أريد أن أكلّمه فوراً. وقد جرَّب هاتين الإشارتين أمامي مراراً ولا أحد في العالم يعرف هاتين الإشارتين إلا أنا وهو؛ فمتى سمع الإشارة يفتح الباب فوراً

بدون تردد وبدون سؤال (يخاف السيد أن يُسمع صوته). والمشكلة الآن هي أنّ ديمتري فيودورفتش أصبح يعرف هاتين الإشارتين.

ـ من أين عرفهما؟ هل أخبرته عنهما؟ كيف تجرأت أن تفعل؟

ـ لأنني كنت خائفاً. وهل من سبيل إلى السكوت معه؟ كان ديمتري فيودوروفتش لا ينفكّ يردّد على مسمعي في كل يوم قوله: «أنت تكذب! أنت تخفي عني شيئاً، سأحطم ساقيك!». عندئذ، أطلعته على هاتين الإشارتين السرّيتين ليعرف على الأقل أنني أطيعه وأن ليس عليه بعد الآن أن يتصور أنني أخفي عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بكل ما أعرف.

ـ إذا كنت تفكّر أنه ينوي أن يستخدم هذه الإشارة لكي يدخل فليس عليك إلّا أن تمنعه من الدخول.

ـ لكن، إذا كنت في تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيي بسبب نوبة صرع فكيف أستطيع أن أمنعه من الدخول، هذا إذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه في تلك الحالة من عنف.

ـ تباً لك! كيف تأكدت أنّ نوبة صرع ستصيبك غداً؟ هل تسخر مني؟ تباً لك!

ـ وهل أجرؤ أن أسخر منك؟ هل تظن أنّ بي رغبةً في السخرية وأنا في مثل هذا الخوف؟ إن الخوف هو الذي سيسبّب لي هذه النوبة.

ـ إذا كنت أنت نائماً فسيتولّى الحراسة غريغوري، وسوف يمنعه هو من الدخول.

ـ لكنني ممنوع عليَّ اطلاع غريغوري فاسيليفتش على هذه الإشارات إلا بإذن من السيد. أما عن إمكان أن يسمع غريغوري مجيئه ويمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك إن غريغوري مريض منذ يوم أمس وإن مارفا إينياتيفنا تريد أن تداويه غداً. على هذا اتفقا. وإن لها في مداواة زوجها طريقة غريبة جداً:

تعرف مزيجاً من العقاقير تحتفظ به في منزلها لمثل هذه الحالات، وهو سائل قويّ جداً تعرف سرّه، كما يبدو، وتصنعه من أعشاب تغليها في الماء وتداوي بها زوجها ثلاث مرات في السنة، عندما يلحّ عليه ألم القطَن (اللمباغو) ويصبح شبه مشلول. إنها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش وتدلك بها ظهره على طوله خلال نصف ساعة إلى أن ينتفخ الجلد ويحمرّ، وعندما تنتهي من ذلك تسقيه ما تبقّى في الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو صلاة معيَّنة. وتبقي لنفسها من السائل مقداراً قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة. ويجب أن أقول لك أيضاً إنهما، بسبب عدم تعوّدهما الشراب، ما يكادان يشربان هذا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث يكونان فيناما نوماً عميقاً مدة طويلة.. وإذا استيقظا شعر غريغوري فاسيليفتش، كل مرة، بأنه شفي من مرضه، أما مارفا اينياتيفنا فيصيبها صداع. فإذا نفذا في الغد عزمهما على استعمال هذا الدواء فإنهما لم يسمعا شيئاً ولن يمنعا ديمتري فيودوروفتش من دخول المنزل لأنهما سيناماني.

ـ ما هذا الهذيان! كأنّ كل شيء يحدث في آن واحد فجأة وعمداً ـ أنت تُصاب بنوبة الصرع وهما يقعان في الكوما. صاح إيفان فيودوروفتش، ثم أضاف مهدداً مقطباً حاجبيه:

ـ أتراك رتَّبت كل هذه المصادفات؟

ـ كيف يمكنني أن أرتّب... لا شأن لي في كل ما يحدث! كل شيء مرتبط بديمتري فيودورفتش وحده وبما يقرره... فإذا كان السيّد ينوي أن تقع مصيبة، فالسيّد سيفعل، وإذا لم يكن ينوي فلست أنا من سيجره عمداً ليدفعه إلى ذلك، إلى منزل والده. أليس كذلك؟

ـ ولماذا سيأتي إلى منزل والده خفية، إذا كانت أغرافينا ألكسندروفنا لا تفكر في المجيء كما قلت هذا بنفسك. أردف إيفان فيودوروفتش وقد اصفرَّ

وجهه غضباً. لقد أكدت لي أنت هذا، منذ لحظة، وكنت أنا على يقين، منذ وصلت إلى هذا المنزل، أن العجوز تراوده أوهام، لأنّ هذه المخلوقة لن تأتي إليه في يوم من الأيام. فهل قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يتسلل ديمتري إلى هنا في سبيلها، والحالة هذه؟ تكلّم! أريد أن أعرف حقيقة ما يدور في رأسك.

ـ إنك تعرف هذه الغاية جيداً، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها أبداً. سوف يقتحم أخوك منزل والده حباً بالشرّ فقط أو من فرط سوء الظن. سوف يتساءل عما يحدث في المنزل وسيحبّ لنفاد صبره أن يفتش جميع الغرف، كما فعل أمس، ليتأكد أنها ليست مختبئة في إحداها. ويعرف السيد ديمتري فيودوروفتش جيداً أن فيودور بافلوفتش قد هيّأ ظرفاً كبيراً يحوي ثلاثة آلاف روبل، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود وكتب عليه بخط يده: «إلى ملاكي غروشنكا، إذا هي رضيت أن تأتي»، وأضاف إلى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام: «إلى حبيبتي الصغيرة». من هنا لديَّ هذا الشك.

ـ هذا سخف! صرخ إيفان فيودوروفتش وقد خرج عن طوره. لن يأتي ديمتري ليسرق مالاً ولن يقتل والده أيضاً. كان يمكن أن يقتله أمس، كمجنون مهتاج، بسبب غروشنكا، ولكنه لن يأتي إلى هنا ليسرقه!

ـ إنه الآن في حاجة ملحة إلى المال، إنه في ضيق شديد، صدّقني يا إيفان فيودوروفتش. أنت تعرف مدى رغبته في الحصول على مال ـ هكذا شرح سمردياكوف بصوت هادىء ومميّز ـ إنه يعتبر هذه الآلاف الثلاثة حقاً له، ولقد أكد لي ذلك يوم أمس، قال: «إن والدي قال لي إنه ما يزال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل تماماً». ويجب ألّا تنسى يا إيفان فيودوروفتش، لأن هذه هي الحقيقة بعينها، أن أغرافينا ألكسندروفنا تستطيع أن تجبره على زواجها متى شاءت. لقد تسرَّعتُ حين أكدت أنها لن تأتي إلى هنا، مع أنها قادرة جداً

على أن تسدّد إلى هدف بعيد وأن تراوغ لكي تصبح سيّدة بحقّ. لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف، وأنا أعرف ذلك من مصدر موثوق به، قال لها بصراحة تامة إن هذا سيكون لها حلاً ذكياً، وكان يضحك وهو يتكلم. ليست غروشنكا امرأة غبيَّة! لن تصل بها الحماقة إلى أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل ديمتري فيودوروفتش، إذا أصبحت أغرافينا ألكسندروفينا زوجة والده، لن ينال روبلاً واحداً من إرث والده بعد وفاته، لا هو ولا أنت ولا أخوك ألكسي فيودوروفتش، لأنّ أغرافينا ألكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج إلا لكي تنقل إلى اسمها كل ثروة والدك وجميع أملاكه العقارية ورؤوس أمواله. أما إذا حدث مكروه لوالدك فمات قبل أن يتم هذا الزواج فإنّ كلاً منكم سينال فوراً أربعين ألف روبل، حتى إن ديمتري سينال هذا المبلغ رغم أن والده يكرهه... لأن فيودور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته... وكل هذه التفاصيل يعرفها ديمتري فيودوروفتش...

تقلص وجه إيفان فيودوروفتش واختلج واحمرّ فجأة.

ـ قل لي. قال مقاطعاً سمردياكوف. لماذا كنت تريد أن تراني مسافراً إلى تشرماشنيا؟ ماذا كنت تقصد؟ سوف أذهب، وهذا ما سيحدث في هذا المنزل.

ـ هذا صحيح تماماً. أجاب سمردياكوف بلهجة هادئة متروية وهو يحدّق إلى إيفان فيودوروفتش بنظرة ثاقبة.

ـ ما معنى صحيح تماماً؟ سأل إيفان فيودوروفتش وهو يبذل جهداً كبيراً ليكظم غيظه وعيناه تلمعان تهديداً.

ـ قلت هذا الكلام لأنني أشفق عليك. لو كنت مكانك لتخلَّيت عن كل شيء... على أن أقحم نفسي في مسألة من هذا النوع... أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها أثر من حرج دون أن يحوّل نظره عن إيفان فيودوروفتش الذي كانت عيناه تقدحان شرراً. وسكت الرجلان.

ـ أعتقد أنك أبله كبير... أضف إلى ذلك... أنك وغد رهيب. قال إيفان وهو ينهض فجأة عن مقعده.

وأراد أن يجتاز الباب الحديدي لكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف. كان قد حدث شيء رهيب: عضّ إيفان فيودوروفتش على شفته، وقبض يديه، وكأنه يريد أن يهجم على سمردياكوف. فأدرك هذا الأخير ذلك فوراً، فارتجف، وتراجع خطوة إلى الوراء. ومضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى. واتجه إيفان فيودوروفتش نحو الباب الحديدي.

ـ سأسافر غداً إلى موسكو، إذا كنت تريد أن تعرف ذلك. هذا كل شيء. قال بغضب بصوت قويّ حادّ مقطّعاً كلماته. وقد أدهشه فيما بعد أن يكون شعر في ذلك الوقت بالحاجة إلى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر.

ـ هذه فكرة عظيمة. أجاب سمردياكوف وكأنه كان يتوقع أن يفضي إليه إيفان بهذا السرّ. ولكنك ستبقى معرَّضاً للاستدعاء من موسكو بواسطة برقية إذا حدث هنا شيء من هذا النوع.

فتوقف إيفان فيودوروفتش مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف، فإذا بوضع سمردياكوف يتغيَّر فجأة. وتبدّدت الألفة التي كان يصطنعها والإهمال الذي أظهره، كما يتبدد السحر. وعبَّر وجهه عن انتباه شديد وانتظار ذليل وكأنَّ عينيه اللتين تحدّقان إلى إيفان فيودوروفتش بإلحاح غريب تسألانه: «ألن تقول شيئاً آخر؟ ألن تضيف كلمة واحدة؟».

ـ إذا حدث شيء من هذا القبيل فيمكن أن أستدعى من تشرماشنيا أيضاً؟ صاح فجأة إيفان فيودوروفتش دون أن يعرف هو نفسه لماذا؛ وارتفع صوته بشكل رهيب.

تمتم سمردياكوف بما يشبه الهمس، وكأنه شارد الفكر، لكنه لم ينقطع عن التحديق مباشرة في عينيّ إيفان فيودوروفتش.

ـ من تشرماشنيا أيضاً... أليس كذلك... فسوف تستدعى...

ـ الفرق الوحيد هو أنّ موسكو بعيدة أما تشرماشنيا فهي قريبة من هنا. هل تقلقك النفقات التي لا داعي إليها أم أنك تريد أن توفّر عليَّ رحلة طويلة؟

ـ هو هذا تماماً. تمتم سمردياكوف بصوت مرتعش، في هذه المرة، مع ابتسامة خبيثة وكان مستعداً للتراجع إلى الوراء. فدُهش عندما رأى إيفان فيودوروفتش ينفجر ضاحكاً ويتّجه بسرعة نحو الباب الحديدي وهو ما يزال يضحك. ولو رأى أيّ امرىء وجهه لاستنتج، بدون شك، أنه لم يضحك لأن هناك ما يفرحه. ثم إنه هو نفسه، ما كان ليستطيع أن يفسِّر هذا الضحك في تلك اللحظة. فتقدَّم ومشى كأنه مصاب باختلاج.

VII

يلذّ للمرء أحياناً التحدث مع رجل ذكي

وكان يتكلم على هذا النحو. ما إن دخل المنزل حتى رأى فيودور بافلوفتش في صالة الاستقبال فصاح من بعيد وهو يلوِّح بذراعيه: «أنا صاعد إلى غرفتي وليس إلى غرفتك، إلى اللقاء». ومرَّ بسرعة أمامه محاولاً أن لا ينظر إلى والده. لعلَّ منظر العجوز كان في نظره، إذ ذاك، لا يطاق، ولكن إظهاره هذه الكراهية بدون حرج قد أدهش حتى فيودور بافلوفتش عينه. والحال أن العجوز أسرع ما يمكن خرج لاستقباله في صالة الاستقبال. ولكن بعد الكلمات التي سمعها من ابنه توقّف حيث كان دون أن يقول كلمة واحدة، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلّم ويغيب عن نظره.

ـ ماذا أصابه؟ سأل العجوز بتأثر عميق سمردياكوف الذي دخل مباشرة بعد إيفان فيودوروفتش.

ـ إنه غاضب. من يدري؟ تمتم سمردياكوف متهرباً.

ـ إلى الجحيم! فليغضب ما يشاء. هيّئ السماور وانصرف، أسرع! هل من جديد حتى الآن؟

وهنا بدأت أسئلة مثل التي كان سمردياكوف قد اشتكى منها لإيفان فيودوروفتش منذ قليل. أي عن الزائرة التي ينتظرها، ولا داعي لتكرار هذه الأسئلة هنا. وبعد نصف ساعة، كان المنزل قد أُحكم إقفاله بالمفتاح، وخلا العجوز الصغير إلى جنونه، فراح يسير في غرفته طولاً وعرضاً منتظراً أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين إلى آخر، فلا يرى في الخارج إلا الليل.

كان الوقت متأخراً، ولكن إيفان فيودوروفتش لم ينم بعد. محاولاً أن يفكّر. لقد ذهب إلى فراشه متأخراً تلك الليلة إلا حوالى الساعة الثانية صباحاً. نحن لن نحلل مجرى الخواطر التي دارت في رأسه لأن قراءة ما كان يختلج في نفسه لم يحن وقتها وسيأتي دورها لاحقاً. ثم إنّ وصف ما كان يجيش في أعماق قلبه ليس بالأمر السهل لأنّ خواطره كانت مبهمة ومسرفة في الاضطراب بوجه خاص. وكان يشعر هو نفسه بأنه فقدَ السيطرة على فكره. وكانت رغبات غريبة تغذّيه في بعض اللحظات. وعند منتصف الليل شعر فجأة برغبة قوية في أن ينزل ويخرج ويذهب إلى الملحقات لكي يضرب سمردياكوف بعنف. لماذا؟ لو سألته هذا السؤال لما عرف بماذا يجيب، على وجه الدقة، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً، كما لو أنه قد ناله بأفدح الأذى. وخلال تلك الليلة، انتابته نوبات خوف وذل لا تفسير لها، بلغ من إدخال الاضطراب إلى نفسه أنه أحسَّ بشلل مفاجىء في قواه الجسدية. وكان رأسه يلتهب ويدور. وسيطر عليه حقد غامض في أعماق نفسه، كما استولت عليه حاجة إلى الانتقام. فهو يشعر بعداوة حتى تجاه أليوشا، حين يتذكر الحديث الذي جرى بينهما خلال النهار. وكان يبدو له في أحايين أخرى أنه يكره ذاته نفسها. أما كاترينا إيفانوفنا فكأنه نسيها، فلم تخطر على باله في تلك الليلة. وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد، لاسيّما وأنه كان

في الصباح، عندما أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر في الغد إلى موسكو، قد سمع صوتاً يتمتم في أعماق نفسه (إنه يتذكر تلك الليلة بشكل واضح) لقد ظلّ يتذكر بوضوح كيف نهض عن كنبته مراراً ففتح الباب بدون ضجة كأنه يخشى أن يُسمع، وخرج إلى فسحة السلَّم، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيودور بافلوفتش الذي كان يتمشّى في غرف الطابق الأرضي. كان يتنصّت على حركاته بفضول غريب منحبس الأنفاس ولا يدري لأيّ سبب يصيخ بسمعه إليه مدة خمس دقائق. بقي طوال حياته، بعد ذلك، يصف سلوكه ذاك في تلك الليلة بأنه «سلوك حقير» معتقداً في أعماق نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذي كان يحركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر إليها في حياته. كان لا يشعر في تلك اللحظات بأيّ عداوة شخصية تجاه فيودور بافلوفتش نفسه. كان يريد أن يعرف ما يفعله فقط، محاولاً أن يتصور بفضول قويّ، كيف يمشي والده في غرفته محموماً من نفاد الصبر وكيف يقترب من النوافذ المعتمة لينظر إلى الخارج، وكيف يتوقف بعد ذلك في وسط الغرفة منتظراً على أحرّ من الجمر أن يسمع الإشارة المتفق عليها. لقد خرج إيفان فيودوروفتش إلى فسحة السلَّم على هذا النحو مرتين. وعندما عاد الهدوء يخيّم على كل شيء، فأوى فيودور بافلوفتش إلى فراشه، حوالى الساعة الثانية صباحاً، قرّر أن ينام هو أيضاً عازماً على أن ينام بأقصى سرعة كونه كان يشعر بأنه منهار القوى. وسرعان ما غرق فعلاً في نوم عميق لم تتخلله أحلام لكنه استيقظ في الصباح مبكراً، حوالى الساعة السابعة وكان النهار قد طلع. فما إن فتح عينيه حتى أحسَّ في نفسه بسيلٍ خارق من القوة فأدهشه ذلك كثيراً. وما هي إلا لحظة حتى نهض عن سريره بوثبة واحدة وارتدى ملابسه وأخرج حقيبته، وراح يجمع أمتعته دون أن يضيّع لحظة واحدة. وكانت الغسَّالة قد جاءته بغسيله يوم أمس. ابتسم إيفان فيودوروفتش راضياً عندما رأى أن كل شيء يسير على ما يرام،

وأن سفره المفاجىء لا يصطدم بأي عقبة غير متوقعة. كان هذا السفر مفاجئاً حقاً. فرغم أنه قد أعلنه يوم أمس لكاترينا إيفانوفنا ولأليوشا وسمردياكوف، فإنه لم يفكر فيه أبداً حين نام على سريره، وهو يتذكر ذلك الآن، ولم يكن يتنبأ بأنّ أول حركة سيقوم بها عندما يستيقظ في الصباح هي أن يجمع أمتعته استعداداً للسفر. وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر. وعندما أزفت الساعة التاسعة، جاءته مارفا إينياتيفنا تلقي عليه سؤالها اليومي: «أين يريد السيد أن يتناول الشاي، أهنا أم تحت؟» فنزل إيفان فيودوروفتش إلى الطابق الأرضي. كان يبدو عليه أنه يكاد يكون مسروراً رغم أن شيئاً من الاستعجال العصبي كان ظاهراً في حركاته وفي كلامه. وبعد أن صافح والده متودداً، حتى لقد سأله عن صحته خاصة، أعلن، قبل أن يجيبه والده عن سؤاله، أنه مسافر إلى موسكو بعد ساعة، ورجا أن يُعطى الأمر بتهيئة الخيل. سمع العجوز هذا الخبر دون أن يفاجأ متناسياً بشكل غير لائق أن يظهر بمظهر الحزين على سفر ابنه: بل بالعكس، لم يفته أن ينتفض فجأة ويتذكر أحد أموره الخاصة، التي كانت معلقة.

ـ أنت، لا! كان يجب أن تبلغني يوم أمس... لا بأس، سنحلّ هذه المسألة. أرجو أن تقدم لي هذه الخدمة يا بنيّ: توقّف في تشر ماشينا عابراً. لن يكون عليك، حين وصولك إلى محطة فولوفيا، إلا أن تذهب شمالاً مسافة اثني عشر فرسخاً، في أكثر تقدير، فإذا أنت في تشرماشنيا.

ـ لكنني لا أستطيع. إن المسافة من هنا إلى محطة القطار ثمانون فرسخاً؛ وينطلق القطار إلى موسكو في الساعة السابعة مساءً ـ فلا يكاد يتسع الوقت للوصول.

ـ سنصل غداً أو بعد غد. أما اليوم فاذهب إلى تشرماشنيا. ماذا يكلفك أن تقدّم خدمة لوالدك! لو لم أكن مضطراً للقيام بأمر ما، لأن القصة، هناك، هي

أمر طارئ. أترى، لدي هذه الغابة، هناك، قطعتان من الأرض، في بيغيتشيفو ودياتشكينو. والتاجران ماسلوف العجوز وابنه يعرضان عليَّ ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدَّة للقطع، بينما هناك مشترٍ آخر كان مستعداً في العام الماضي أن يدفع لي اثني عشر ألف روبل بكل سرور. لم يكن ذلك المشتري من هذه المنطقة، وهذا هو تفسير الأمر، فما من سبيل إلى العثور على مشترٍ من أهل المنطقة: لأن آل ماسلوف ـ الأب والابن ـ اللذين يملكان مئات ألوف الروبلات يسيطران على المقاطعة ويفرضان عليها قانونهما. وهما يحددان الأسعار، وما من أحد يجرؤ أن يقف في وجههما. لكن الكاهن إيلنسكي كتب لي يوم الخميس الفائت يقول إن رجلاً اسمه غورستكين قد جاء يعرض شراء الأشجار. والرجل هو تاجر أيضاً، وأنا أعرفه. إنه من مدينة بوغريبونو، وهو لا يخشى آل ماسلوف لأنه ليس من سكان المنطقة. إنه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدَّة للقطع. هل فهمت؟ وقد ذكر لي الكاهن أنه الآن في تشرماشنيا إلى حين، وأنه سيغادرها بعد أسبوع. عليك أن تذهب إليه لتناقش الأمر معه...

ـ إذن، أكتب إلى الكاهن وهو سيوافق.

ـ لكنه غير قادر وهنا المشكلة هذا الكاهن لا يفهم الأمور كما هي. إنه شخص طيب، وأنا مستعد أن أعطيه فوراً عشرين ألف روبل بدون إيصال. ولكنه قصير النظر حتى قد يخدعه اللصوص. إنه ليس رجلاً. وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا؟ إن هيئة غورستكين هذا، هي هيئة فلاح، وهو يرتدي قميصاً أزرق، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً: إنه يكذب. هو المشكلة. حتى إنه يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لغايةٍ إلا لذة الكذب! لقد روى منذ سنتين أن زوجته ماتت، وأنه تزوج أخرى. تصوَّر أنه كان يكذب: لم تمت زوجته، وهي لا تزال حيَّة ولا تزال تضربه مرة كل ثلاثة أيام. يجب

أن تعرف أولاً، هل كان صادقاً أم كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار.

ـ ولكن، أنا أيضاً لا أفهم في هذه الأمور شيئاً.

ـ لحظة، انتظر. يمكنك أن تقوم بالعمل لأنني سأطلعك على كل الإشارات الضرورية. إنني أعرف غورستكين منذ زمن بعيد. يجب أن تنظر إلى لحيته: له لحية صغيرة صهباء مبعثرة. فإذا ما ارتعشت هذه اللحية وإذا تكلم وهو غاضب فاعلم أنه يقول الحقيقة ويجب أن ننجز الصفقة. أما إذا رأيته يداعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم فاعلم أنه يراوغ ويحاول أن يغشّنا. لا تنظر في عينيه، فهما لا تقولان شيئاً. إنه وغد وما عيناه إلا ماء عكر ـ يجب أن تنظر إلى لحيته ـ سوف أعطيك رسالة وما عليك إلا أن تسلّمه إيّاها. وليس اسمه الحقيقي غورستكين وإنما هو في الواقع لياغافي. إنه كلب التربص، ولكن إياك أن تخاطبه باسم لياغافي وإلا سوف يغضب، ومتى تمَّ الاتفاق معه ورأيت الأمور تجري بشكل جيد، فأبلغني فوراً. يكفي أن تكتب إليّ: «لا بأس، إنه لا يكذب». حاول أن تصرّ على الثمن الذي ذكرته لك وهو أحد عشر ألف روبل، ويمكنك أن تتنازل عن ألف روبل إذا لزم الأمر، ولكن لا تتنازل عن أكثر. من أحد عشر إلى ثمانية يعني بفارق ثلاثة آلاف روبل، وهذه الآلاف الثلاثة هي بمثابة كنز، لأن المشترين نادرون. وأنا في حاجة ماسة إلى هذا المبلغ ـ إنك لا تستطيع أن تتصور مدى حاجتي الماسّة إليه، فمتى أبلغتني أنّ الأمر جدٌّ، وثبتُ إلى هناك لأنجز الصفقة أنا بنفسي. سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت. فماذا يفيدني أن أذهب إلى هناك إذا كان الكاهن قد استرسل مع خياله. حسناً. اتفقنا؟ هل تذهب أم لا؟

ـ لا يتسع وقتي فلا تحرجني!

ـ أرجوك، قم بهذه الخدمة لوالدك! سأذكرها لك مدى الحياة! أأنتم إذن

جميعاً بدون قلب! ما قيمة يوم أو يومين؟ إلى أين تنوي أن تسافر الآن؟ إلى البندقية؟ إن البندقية لن تغرق في البحر خلال هذين اليومين! كان بالإمكان أن أرسل أليوشكا، ولكن أليوشكا لا يفهم في هذه الأمور شيئاً؟ ولئن توجهت اليك فلأنك ذكي، أنا أعرف ذلك، أنت لا تتاجر بالغابات ولكنك ترى الأمور بوضوح، المطلوب هو أن تعرف هل هذا الرجل جادّ؟ أكرر لك أن تنظر إلى لحيته: فإذا ارتعشت كان يقول صدقاً.

ـ لماذا تدفعني إلى الذهاب إلى تشرماشنيا هذه الملعونة. صاح إيفان فيودوروفتش وهو يضحك بغضب.

لم يلاحظ فيودور بافلوفتش الغضب، أو لم يرد أن يلاحظه ولكنه تشبَّث بالصيحة.

ـ إذن ستذهب، ستذهب إلى تشرماشنيا. سأكتب لك الرسالة فوراً.

ـ لست أدري إن كنت سأذهب إليها. سأقرر ذلك أثناء الطريق.

ـ لماذا أثناء الطريق؟ قرّر حالاً! إذا سوِّي الأمر وتمَّت الصفقة، تكتب إليّ سطرين تودعهما الكاهن فيبادر إلى إرسالهما إليّ بدون إبطاء. ولك بعد ذلك أن تسافر إلى البندقية فلن أمنعك. وسوف يعيدك الكاهن إلى محطة فولوفيا بوسائله الخاصة...

تحمّس العجوز وأسرع يكتب الرسالة القصيرة. ثم أمر بتجهيز العربة. وقدموا للرجلين وجبة طعام خفيفة باردة، وكأساً من الكو، تبدو عليه بوادر السعادة. كان يبدو، في هذه المرة، أنه يحاول السيطرة على نفسه. وقد تجنَّب أيضاً أن يأتي على ذكر ديمتري فيودوروفتش. ولم يكن يبدو عليه أنه متأثر لفراق ابنه، وكان صامتاً كأنه لا يجد ما يقوله. فوجىء إيفان بذلك، وقال في نفسه: «لا شك أن وجودي يزعجه منذ زمن». ومع ذلك، فإن العجوز عندما ودَّع ابنه أمام الباب بدا متأثراً، وتظاهر بأنه يريد أن يقبّله. لكن إيفان

فيودوروفتش أسرع بمدّ يده إليه راغباً في تجنّب القبلات بشكل لا يخفى على الناظر. أدرك العجوز ذلك فوراً ولم يقبّله.

ـ حسناً. فليكن الله برعايتك، فليكن الله برعايتك. ردَّد من على درجات السلَّم. سوف تأتي لرؤيتي في يوم من الأيام، أليس كذلك؟ أهلاً بك في منزلي دائماً. إذهب وليكن المسيح معك!

ـ في أمان الله يا إيفان. لا تؤاخذ والدك! صاح والده مرة أخيرة.

خرج جميع الخدم للوداع: سمردياكوف ومارفا وغريغوري. أعطى إيفان فيودوروفتش كلاً منهم عشرة روبلات. وعندما استقر في العربة أسرع سمردياكوف يرتّب الأغطية.

ـ أرأيت.. ها أنذا ذاهب إلى تشرماشنيا. قال له إيفان فيودوروفتش وهو يضحك. وكما حدث بالأمس، لقد سافر وحده مع ضحكة قصيرة عصبية. وظلّ يتذكر هذا الأمر فترة طويلة.

ـ صحيح إذن، كما يقال، إنه يلذّ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي. قال سمردياكوف بصوت جازم وهو ينظر إلى إيفان فيودوروفتش نظرة نافذة.

وانطلقت العربة بسرعة. كان المسافر في البداية في حالة نفسية مضطربة وكان ينظر إلى ما حوله بشراهة متأملاً الحقول والهضاب والأشجار وسرباً من الإوزّ البري مرَّ فوقه محلّقاً في السماء الصافية، وفجأة شعر بالسعادة، فحاول أن يخاطب الحوذي واهتمّ بجوابه ومع ذلك رأى بعد لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه، وأنه لم يدرك ما أراد هذا الفلاح أن يقول له. فلزم الصمت. كان الهواء نقياً رطباً والسماء صافية. وخطر بباله أليوشا وكاترينا إيفانوفنا. لكنه ابتسم ابتسامة رقيقة، وتنهَّد على الطيفين العزيزين اللذين غابا وقال في نفسه: «سوف يأتي وقتهما». ولم يلبث أن وصل إلى المحطة. فأُبدلت خيوله واستأنف طريقه إلى فولوفيا. وسأل إيفان فيودوروفتش نفسه فجأة:

«لماذا قال لي إنه يلذّ للمرء أحياناً التحدث مع رجل ذكي؟ ماذا كان يعني بذلك؟». (واستغرق هذا السؤال فكره بشكل كامل). «ثم ما كانت حاجتي إلى إبلاغه أنني ذاهب إلى تشرماشنيا؟». ووصلت العربة أخيراً إلى فولوفيا. فنزل إيفان فيودوروفتش من العربة. فأسرع إليه أصحاب العربات فساومهم وانتهى إلى تحديد أجر إيصاله بخيول ممتازة إلى تشرماشنيا التي تبعد مسافة اثني عشر فرسخاً في طريق ضيق. أمر بأن تُربط الخيول. ثم دخل إلى المحطة وألقى نظرة على القاعة، وفجأة خرج يقف على درجات الباب:

ـ لن أذهب إلى تشرماشنيا. قولوا لي يا شباب، لست متأخراً، هل يمكنني أن أدرك قطار الساعة السابعة؟

ـ سوف تدركه. هل نربط الخيل؟

ـ فوراً. هل سيذهب أحد منكم إلى المدينة غداً؟

ـ طبعاً. متري سيذهب إليها.

ـ هل تستطيع أن تقدّم إليّ خدمة يا متري؟ إذهب إلى والدي فيودور بافلوفتش كارامازوف وقل له إنني لم أذهب إلى تشرماشنيا. هل يمكنك أن تقوم بذلك؟

ـ لم لا أستطيع؟ إنني أعرف فيودور بافلوفتش منذ زمن طويل.

ـ خذ هذه المكافأة. لأنه لن يعطيك شيئاً. قال إيفان فيودوروفتش ذلك وهو يضحك مسروراً.

ـ صحيح أن السيد لن يعطيني شيئاً. أجابه متري ضاحكاً بدوره. شكراً يا سيدي. سأذهب إليه حتماً.

في الساعة السابعة مساءً استقرَّ إيفان فيودوروفتش في حافلة القطار وانطلق بسرعة إلى موسكو. «فليبتعد عني الماضي! لقد قطعت صلتي نهائياً بالعالم الذي عشت فيه، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره! فليختفِ هذا الماضي

في نفسي! فلينقطع عن الوصول إلى مسمعي أيّ نداء من الحياة التي أبارحها! إنني أسافر لا ألوي على شيء ولا ألتفت إلى الوراء! هيا إلى عالم جديد، إلى أمكنة جديدة، وبدون عودة!». بهذا كان إيفان فيودوروفتش يحدث نفسه. لكنه بدل أن يشعر بالحماسة أحسَّ بمضضٍ شديد يقبض صدره، وامتلأ قلبه بحزن مؤلم لم يشعر بمثله من قبل. بقي طوال الليل يفكر وسط قرقعة حافلة القطار الذي كان ينطلق بسرعة قصوى، وعند الفجر، بينما كان القطار يقترب من موسكو، استعاد وعيه فجأة:

ـ أنا إنسان تعيس! تمتم في سرّه.

أما فيودور بافلوفتش، بعد أن واكب ابنه، شعر بفرح كبير، وبقي خلال ساعتين في حالة من الغبطة، يفرغ في جوفه الكونياك. غير أن حادثاً مؤلماً وقع في المنزل فبدَّل الحالة النفسيَّة التي كان عليها العجوز وأغرقه في اضطراب شديد: كان قد ذهب سمردياكوف إلى القبو، والله يعلم لماذا، وسقط من على الدرجة الأولى. ومن حسن الحظ أن مارفا إينياتيفنا كانت في الفناء حينذاك وعرفت في الوقت المناسب. إنها لم تر السقوط لكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التي تعرفها منذ زمن بعيد: صرخة المريض بالصرع الذي تعرّض لنوبة. تعرَّض سمردياكوف لتلك النوبة في اللحظة التي نزل فيها السلَّم ما أدى إلى أن يتدحرج إلى آخر الدرجات لأنه أغمي عليه، أم بسبب السقوط والارتجاج وهذا ما لا يمكن معرفته. المهم، على كل حال، أن سمردياكوف وُجد في قاع القبو تهزّه تشنجات قوية ويخرج الزبد من فمه، وقد ظُنَّ في بادىء الأمر، أنه قد جُرح حين سقط، وأن ساقه أو ذراعه قد كُسرت ولكن تبيَّن أنّ «الله قد سلَّمه»، كما قالت مارفا إينياتيفنا، ومع ذلك كان نقله من القبو إلى الهواء الطلق صعباً. وأُمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذين أسرعوا للمساعدة. وحضر فيودور بافلوفتش مهمة النقل بل ساعد في حمل

المريض وهو يشعر بقلق شديد. وبقي المريض فاقداً وعيه. وكانت التشنجات تنقطع أحياناً ولكنها لا تلبث أن تعود بعد قليل. وأجمع الرأي على أنّ الأمور ستجري، في هذه المرة، كما في السنة الماضية عندما سقط من طابق الشونة. وتذكروا أن الطبيب هرزنستوب قد وصف له حينذاك ثلجاً يوضع على جبينه وعلى قمة رأسه. وكان لا يزال في القبو بعض الثلج فتولّت مارفا إينياتيفنا أمر العناية بالمريض. حتى إذا حلَّ المساء استدعى فيودور بافلوفتش الطبيب هرزنستوب فوصل على الفور، وبعد أن فحص المريض بدقّة (وكان أكثر أطباء المنطقة دقةً وأشدهم عناية كما كان من أحقّ الناس بالاحترام وقد طعن في السنّ كثيراً)، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن «تعرّض الحياة للخطر»، وأضاف هرزنستوب أنه لم يفهم الحالة جيداً بعد، ولكنه سيرجع في الغد ويصف دواءً جديداً إذا تبيَّن أن الإجراءات السابقة لم تجدِ المريض نفعاً. وأُرقد المريض في الملحق في غرفة صغيرة متاخمة لغرفة غريغوري ومارفا إينياتيفنا. وفي أثناء ذلك النهار، عرف فيودور بافلوفتش سلسلة متواصلة غير منقطعة من المكدرات، أولها وجبة الطعام التي أعدَّتها مارفا إينياتيفنا، والتي كان حساؤها، إذا ما قيس بحساء سمردياكوف، لا يفضل كثيراً «ماء الغسيل»، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه. وعندما لام ربّ المنزل مارفا إينياتيفنا على ذلك، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز. كما أنها هي، مارفا لم تأخذ دروساً في الطبخ، وفي المساء، حلَّ بفيودور بافلوفتش همّ جديد: أُبلغ أن غريغوري، وهو مريض منذ يومين، قد لزم سريره وأنّ مرض اللمباغو الذي يعاني منه قد جمَّده تماماً. وأسرع فيودور بافلوفتش يحتسي شايه، وسجن نفسه في المنزل وحيداً وكان في حالة ترقّب مهموم. فهو يعتقد أن غروشنكا ستأتي في هذا المساء نفسه، وهو يكاد يكون متيقناً من ذلك، لأن سمردياكوف قد أكد له في ساعة مبكرة من الصباح «أن السيدة

وعدت بالمجيء بدون شك في هذه المرة». وكان قلب العجوز الفاسق يخفق قلقاً وهو يمشي بدون توقف في غرفه الفارغة مصيخاً بسمعه، ذلك أن عليه أن يكون يقظاً: لأنّ من الجائز أن يرقب ديمتري فيودوروفتش مرور المرأة الشابة. فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكد لفيودور بافلوفتش، منذ يومين، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يفتح الأبواب بأقصى سرعة ممكنة ولا يجعلها تنتظر في الرواق لأنها تخاف من الظلام فتهرب، لا سمح الله! كان فيودور بافلوفتش قلقاً جداً ولكن قلبه لم يهدهده، في يوم من الأيام، أمل أعذب من هذا الأمل: يمكن القول، والتأكيد تقريباً، أنها ستأتي في هذه المرة...

الكتاب السادس

ناسك روسي

I

المرشد العجوز زوسّيما وزائروه

عندما دخل أليوشا غرفةِ الناسك العجوز والقلق والألم يملآن قلبه، توقف أمام الغرفة مندهشاً: فبدل أن يرى مريضاً يحتضر أو غاب في الكوما كما كان يخشى أن يراه، رآه جالساً في المقعد، وجهه مرهق من التعب ولكنه يقظ وفرح، محاطاً بزائرين كان يحادثهم هادئاً فرحاً. والحقيقة أنه لم ينهض من فراشه إلا قبل وصول أليوشا بربع ساعة. أما الزائرون فكانوا قد تجمعوا في الغرفة قبل ذلك منتظرين نهوضه من النوم، لأن الأب بايسي كان قد أكّد لهم أن «المعلم سينهض، بدون شك، لكي يتحدث آخر مرة إلى أعزاء مقربين إلى قلبه، كما كان قد أعلن ووعد هو نفسه في الصباح». كان الأب بايسي يؤمن بهذا الوعد بإصرار، بلغ من قوة إيمانه أنه لو رآه هامداً لا يتحرك ولا يتنفّس لما صدَّق أنه مات، ما دام قد وعده بأنه سوف ينهض مرة أخرى ليودّعه، أو لتوقَّع أن المحتضر سيستعيد وعيه برًّا بوعده، وقد صرَّح له أنه سينهض في الصباح قبل أن ينام «إنه لن يموت إلا بعد أن يُسعد بالتحدث مرة أخرى، إلى أعزائه وبعد أن يرى تلك الوجوه التي أحبَّها ويفتح قلبه لهؤلاء جميعاً آخر

مرة». والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذي يُعتقد أنه آخر حديث، إنما كانوا أقدم أصدقاء الناسك العجوز وأشدَّهم إخلاصاً له. كانوا أربعة: الراهبان الناسكان يوسيف وباييسي والناسك الأب ميخائيل مدبّر المنسك، وهو رجل ما يزال شاباً، متواضع الأصل، ليس على جانب كبير من العلم، ولكنه صلب النفس قويّ الإيمان وبسيط. ولئن كان قاسي المظهر فإنّ في قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياءً. وكان الزائر الرابع راهباً قصير القامة، طاعناً في السنّ متواضعاً، وقد خرج من عائلة فلاحية مدقعة في الفقر، هو الأخ أنفيم، بالكاد يعرف القراءة والكتابة، صموت هادىء، نادراً ما يكلم أحداً. وهو متواضع بين المتواضعين، وكأنّ عظمة الوجود الرهيبة التي لا يمكن لفكره أن يرقى إليها قد روَّعته إلى الأبد. وكان الناسك العجوز زوسيما يحبه حباً جماً، وقد أظهر له، خلال حياته كلها، احتراماً غير عادي رغم أنه لا يوجد في هذا العالم إلا القليل من الناس كان من الممكن أن يخاطبهم أقلّ مما يخاطب هذا الراهب المتواضع. لقد عاش في صحبته سنين كثيرة لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة. حدث ذلك منذ زمن بعيد، منذ ما يقرب من أربعين عاماً، أيام كان الناسك العجوز زوسيما بدأ حياة الرهبنة في دير معتم غير معروف في مقاطعة كوستروما. وبعد أن دخل ذلك الدير بزمن طويل، كُلِّف بأن يرافق الأخ أنفيم في جولاته لجمع الهبات لهذا الدير الصغير المفلس في كوستروما.

كان جميعهم، سيّد الدار والزائرون جالسين في الغرفة الثانية حيث يوجد سرير الناسك العجوز، وهي غرفة كما أشرنا ضيقة جداً، بحيث أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذي بقي واقفاً) لم يكادوا يجدون فيها متسعاً لكراسيّهم التي جاؤوا بها من الغرفة الأخرى. كان النهار قد أشرف على

نهايته. وكانت تضيء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الإيقونة. فلما رأى الناسك العجوز أليوشا الذي بقي واقفاً عند عتبة الباب ابتسم له ابتسامة فرحة ومدَّ إليه يده.

ـ مساء الخير يا بنيَّ الطيب، مساء الخير يا عزيزي الوديع. جئت إذن؟ كنت أعرف أنك ستأتي!

فاقترب أليوشا منه، وانحنى له حتى كاد يلامس الأرض وانهمرت دموعه. كان شيء ما يتمزق في أعماق قلبه وهو منقبض النفس. فهو يتمنى أن ينفجر باكياً.

ـ ما بك؟ لم يحن وقت البكاء عليَّ بعد. قال الناسك العجوز مبتسماً وهو يضع يده اليمنى على رأسه. ها أنت تراني أتحدَّث في هدوء. ربما أعيش عشرين سنة أخرى كما تمنّت لي ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التي جاءت من فيشيغوريا وكانت تحمل بين ذراعيها طفلتها ليزافيتا. أسأل الله أن يحرس الأم والطفلة! (ورسم الناسك العجوز إشارة الصليب). هل حملت هبتها يا بورفير إلى حيث قلت لك؟

تذكَّر الناسك العجوز الستّين كوبيكاً التي تصدَّقت بها زائرته بفرح، من أجل أن يهبها «لمن هو أفقر منها». إنّ مثل هذه الصدقات إنما يتصدَّق بها أصحابها، عادةً، على أثر نذر، لسبب أو لآخر، وهو مال يكسبونه من عملهم الشخصي. وأمر الناسك العجوز نفسه، في ذلك المساء بأن يأخذ بورفير هذا المبلغ إلى امرأة فقيرة تسكن مدينتنا، وهي أرملة مع أولادها، قد احترق منزلها فأصبحت تستعطي لتعيش. وأسرع بورفير يقول إنه نفذ الأمر فأعطى المبلغ قائلاً إنه من «محسنة لم تشأ ذكر اسمها».

ـ إنهض يا عزيزي لأراك قليلاً. تابع الناسك العجوز زوسيما. هل ذهبت إلى ذويك، وهل رأيت أخاك؟

دُهش أليوشا من سؤال الناسك العجوز عن أحد أخويه بمثل هذا الإلحاح. ولكن أيّ الأخوين يقصد: هل يُستنتج من ذلك أنه بسبب هذا الأخ أرسله إلى العالم أمس واليوم؟

ـ رأيت أحد أخويّ. أجاب أليوشا.

ـ أقصد أخاك الذي جاء بالأمس، أخاك الرهيب المخيف الذي سجدت له حتى لامست الأرض.

ـ ذاك لم أره إلا أمس، ولم أتمكن من رؤيته اليوم أبداً. قال أليوشا.

ـ حاول أن تهتدي إليه بسرعة. عد إلى المدينة من الغد لرؤيته. دع كل شيء وأسرع. ربما هناك متّسع من الوقت لتجنّب مصيبة. لقد انحنيت يوم أمس للآلام الكبرى التي تنتظره.

وسكت الناسك العجوز فجأة وشرد فكره كأنه في حلم. لقد كانت كلماته غريبة. وهذا هو الأب يوسيف الذي شهد بالأمس انحناءة الناسك العجوز له وتبادل نظرة مع الأب بابيسي. ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه:

ـ أبي ومعلّمي، قال وقد استولى عليه انفعال غير عادي. إن ما قلته يبدو غامضاً جداً... ما هو العذاب الذي ينتظره؟

ـ لا تكن فضولياً. لقد شعرت، يوم أمس، أن أمراً رهيباً سيحدث. كما لو أن نظرته، بالأمس، كانت تعبر عن مصيره. لقد كان ينظر بطريقة جعلتني أخشى مما يحضر هذا الرجل نفسه. سبق لي، مرة أو مرتين في حياتي أن لاحظت مثل هذا التعبير على وجه بعض الناس، كما لو أنه كان انعكاساً لمصيرهم المقبل، وتحقق ذلك المصير، مع الأسف! لقد أرسلتك إليه يا ألكسي آملاً أن تستطيع بكلمة أخوية أن تساعده بعض الشيء. ولكن مصيرنا جميعاً هو بين يدي الرب، وكل شيء يصدر عنه. «إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إذا ماتت تأتي بثمار كثيرة». تذكّر دائماً هذه

الحقيقة. أما أنت يا ألكسي، فقد باركتك كثيراً في فكري بسبب تعبير وجهك (أضاف الناسك العجوز مع ابتسامة وديعة). هذا هو رأيي فيك: سوف تترك هذه الجدران وستعيش في العالم كناسك. سيكون لك أعداء كثيرون، ولكن أعداءك سيحبونك هم أيضاً. إن الحياة تخبئ لك آلاماً كثيرة، ولكنك بهذه الآلام ستسعد وستبارك الوجود وستحمل الآخرين على أن يباركوه، وذلك هو الشيء الأهمّ.

ـ يا آبائي ومعلميَّ، ثم التفت الناسك العجوز إلى زائريه يخاطبهم وهو يبتسم بمحبة، إنني لم أقل حتى الآن، لهذا الفتى لماذا تستعذب نفسي وجهه. سأقول ذلك لكم الآن: كنت أرى في قسمات وجهه ذكرى الماضي ونبوءة. ففي فجر حياتي، حين كنت لا أزال طفلاً، كان لي أخ أكبر مات أمام عينيّ في ريعان شبابه ولم يكمل السنة السابعة عشرة من عمره.

ولقد رسخ في اعتقادي خلال حياتي، شيئاً بعد شيء، أن هذا الأخ قد كان له في تحديد مصيري دور حاسم، وكان لي نذيراً وإشارة من الملأ الأعلى. ويقيني أنني لولاه لما سلكت طريق التنسك ولا اخترت هذا الدرب الثمين. إن هذا التجلي الأول قد حدث في فجر أيامي وها إنني أراه يتكرر في خاتمة المطاف. إنه معجزة، يا آبائي ومعلميّ، إن ألكسي الذي ليس شبيهاً بأخي ذاك بوجهه كثيراً ـ فليس له منه سوى بعض السمات الخارجية ـ قد بدا لي شبيهاً به من الناحية الروحية وطالما اعتبرته ذلك الأخ المراهق عينه الذي كان لي في الماضي وقد رجع إليّ الآن في أواخر أيامي ذكرى من الماضي ونداءً إلى التأمل، حتى لقد أُصبت بالدهشة أنا نفسي، أحياناً، من غرابة هذا الحلم. هل تسمعني يا بورفير؟ (قال مخاطباً الراهب المبتدىء المكلَّف بخدمته). كم من مرة لاحظت في وجهك تعبيراً عن الحزن لأنني أحب ألكسي أكثر مما أحبك. وأنت تعرف سبب ذلك الآن. ولكن اعلم أنني أحبك جداً أنت أيضاً وطالما

أحزنني حزنك. يا زائريَّ الأعزاء، اسمحوا لي أن أحدثكم عن أخي الفتى ذاك، لأنني لم أعرف في حياتي شخصاً أعز منه، ولا أشدّ تأثيراً في نفسي ولا أصدق نبوءة. إن قلبي ممتلىء به لأنني أتأمل حياتي في هذه اللحظة، كأنني أعيشها بكاملها...

هنا يجب أن ألفت إلى أنّ هذا النقاش الأخير الذي أجراه الناسك العجوز مع زائريه في آخر يوم من حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً؛ قد سجَّله ألكسي فيودوروفتش كارامازوف بعد موت الناسك العجوز بقليل. لكن، هل كان ذلك حقاً نص النقاش الأخير للناسك أم أن ألكسي قد أضاف من مفكرته بعض الأمور التي استمدها من أحاديث سابقة مع معلّمه. لا أستطيع أن أقول شيئاً حول ذلك. خاصة وأن خطاب الناسك كله جاء في المفكرة وكأنه خطاب متصل يروي قصة حياته متوجهاً إلى زائريه، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت، في الواقع، بشكل مختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف في ذلك المساء. فالحديث قد كان عاماً، ورغم أن أصدقاءه لم يقاطعوه كثيراً، فقد تدخلوا في الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارات عن حياتهم هم، ثم إنه لم يكن ممكناً أن يتكلم الناسك العجوز بدون توقف لأن أنفاسه كانت تتقطع باستمرار، ولأن صوته كان يضعف فجأة، واضطر مراراً أن يذهب إلى سريره ليستريح عليه مفتوح العينين بينما زائروه في أماكنهم لم يبارحوها. وقد تخللت الحديث، مرة أو مرتين، قراءة من الإنجيل قام بها الأب بابيسي. ويجب أن أذكر أيضاً أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأنه سوف يموت في تلك الليلة عينها ولاسيّما أنه قد بدا عليه، في ذلك المساء الأخير، أنه قد استعاد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار؛ وهذه القوى التي استرجعها على هذا النحو قد شدَّت أزره، وقوت عزيمته طوال الحديث الذي أجراه مع أصدقائه. كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه ولكن

لفترة وجيزة جداً، لأن روحه فاضت دفعةً واحدة فجأة... وعن هذا سوف أتحدث فيما بعد على كل حال. أما الآن، فحسبي أن أقول إنني آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث وأن أقتصر على ما رواه الناسك العجوز، معتمداً على المخطوطة التي خلَّفها ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. فذلك أقرب إلى الإيجاز وأقل إرهاقاً حتى وإن كان أليوشا، كما سبق وقلت، قد ضمَّن ما دوَّنه أشياء كثيرة استمدَّها من أحاديث سابقة له معه.

II

مقتطفات من حياة الناسك المرشد العجوز زوسّيما، الذي توفّاه الله،دوَّنها من أحاديثه ألكسي فيودوروفتش كارامازوف لمحة عن سيرته

أ ـ من الشاب أخ الناسك العجوز زوسّيما

آبائي ومعلميَّ الأحباء! ولدت في مقاطعة نائية في الشمال في مدينة ف. من أبٍ نبيل، ولكن من صغار النبلاء، ليس لديه رتبة عالية في سلّم الدولة. توفي ولم أتجاوز السنة الثانية من عمري، وليس في ذهني أيّ ذكرى عنه. ترك لأمي منزلاً من خشب ورأس مال متواضعاً ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها في منجى من الحاجة. كنّا ولدين عند أمي: أخي الأكبر ماركل وأنا زينوفي. كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام. وكان ذا طبع جامح شديد النزق، لكنه ليس ساخراً أبداً، كثير الصمت إلى حدٍ غريب لاسيَّما مع عائلته، أي معي ومع أمي ومع خدم المنزل. وكان في المدرسة مجتهداً لكنه لا يألف رفاقه كثيراً كما لا يشاجرهم أيضاً. تلك هي، على الأقل، الذكريات التي حفظتها أمي عنه. وقبل

وفاته بستة أشهر وهو في السابعة عشرة من عمره توثقت الصلة بينه وبين رجل كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال، رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً أُجبر على مغادرة موسكو بأمر سامٍ بسبب آرائه الليبرالية. كان هذا المنفي عالماً كبيراً وفيلسوفاً معروفاً في الجامعة. ولست أدري لماذا شعر بالصداقة نحو أخي ماركل فكان يستقبله كثيراً في منزله. كان أخي الشاب يقضي عنده سهرات طويلة على مدى فصل الشتاء كلّه إلى أن استدعي المنفيّ إلى سان بطرسبرغ بطلب منه، ليعهد إليه بمنصب في الدولة لأنه كان ذا صلات عالية. كان هذا في بداية الصوم الكبير، وقد رفض ماركل أن يصوم محتجاً متهكماً، حتى لقد قال: «هذه كلها سخافات فالله غير موجود». دهشت أمي والخدم وأنا، أيضاً، الذي لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري، أصابني الخوف لدى سماعي كلامه. وكان جميع خدمنا، وهم أربعة أشخاص، أقناناً اشتريناهم من رجل من الملّاكين كنا على صلة به. ما زلت أتذكر اليوم الذي باعت فيه أمي إحدى خادماتنا، وهي الطبّاخة العجوز العرجاء أوفيميا، بستين روبلاً ورقاً، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليس من الأقنان. وها هو أخي يصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصوم الكبير، وكان ضعيف البنية يُصاب بالمرض باستمرار، مستعداً للإصابة بالسلّ. إنه قصير القامة نحيل هزيل الجسم ولكنه وسيم المحيا جميل الوجه، تُرى هل أصابه برد؟ المهمّ أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أسرَّ إلى أمي خفيةً أن ماركل مصاب بسلٍ يتفاقم سريعاً ولن يعيش إلى الربيع. فراحت أمي تبكي وطلبت من أخي محاذِرة (حتى لا تروّعه) أن يصوم ويتناول القربان المقدس في عيد الفصح، لأنه في ذلك الوقت كان لا يزال يمشي. فأجابها غاضباً وشتم هيكل الرب ثم أطرق يفكر: لقد عرف خطورة مرضه حين رأى إلحاح أمي عليه أن يذهب إلى الكنيسة ليتناول القربان المقدس ويصوم. كان يعرف منذ زمن بعيد أنه مريض، حتى لقد قال لنا، منذ

ما يقرب من عام، بينما كنا إلى المائدة أنا وهو وأمي: «لن أعيش زمناً طويلاً معكم وقد لا أكون معكم بعد سنة». وكان ذلك يشبه النبوءة. انقضت ثلاثة أيام ودخلنا الأسبوع المقدس. وبدأ أخي يصوم منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي: «إنني أذهب إلى الكنيسة من أجلك أنت يا أمي لكي تطمئني بالاً وتهدئي». فبكت أمي فرحاً في أول الأمر وحزناً أيضاً. وقالت في نفسها: «لا شك أن نهايته اقتربت ما دام قد حدث هذا التحوّل فيه فجأة». ولم يتسنَّ له أن يُكثر من الذهاب إلى الكنيسة لأنه اضطر إلى أن يلازم الفراش فصار يعترف ويتناول في المنزل. وجاء الفصح متأخراً في تلك السنة، فكانت الأيام صافية مضيئة ومعطَّرة. أذكر أنه كان يسعل في كل الليالي، قلّما ينام. ومتى انبلج الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على كنبة مريحة. وفي هذه الصورة أراه الآن: جالساً، متواضعاً، مبتسماً ومريضاً كما هو، لكن وجهه مرح وفرح. فقد تبدَّل روحياً فبدا لي هذا التبدل خارقاً! قالت له الخادمة العجوز التي دخلت غرفته: «إسمح لي يا بنيّ العزيز أن أضيء شمعة أمام الإيقونة». لم يكن يرضى بهذا من قبل، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها. فقال للخادمة: «أشعلي، يا عزيزتي، أشعلي شمعة! لقد كنت شاذاً عندما كنت أمنعك من ذلك. أنت تصلّين أمام الإيقونة عندما تشعلين الشمعة، وأنا أيضاً أصلّي لله حين أتأملك، ونحن كلانا نصلّي إذن للإله نفسه». بدت لنا أقواله غريبة، وكانت أمي لا تنفك تبكي خفيةً وتجفف دموعها قبل أن تقترب منه محاولةً أن تصطنع هيئة فرحة. فيقول لها في بعض الأحيان: «لا تبكي يا أمي، يا ملاكي الصغير، سوف أعيش زمناً طويلاً بعد وسوف أبتهج معكم، فالحياة جميلة، جميلة هي الحياة، ومليئة بالفرح. وكانت أمي تقول له محتجةً: أين السعادة وأنت تصاب بالحمّى في كل ليلة، وتسعل حتى يكاد صدرك ينفجر؟ فيجيب: «لا تبكي يا أمي. فالحياة جنّة نحن فيها جميعاً، لكننا لا نريد أن نعترف بذلك، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت

الحياة جنّة منذ اليوم». أدهشتنا هذه الأقوال، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقول بشكل غريب: كنا نتأثر من هذا الكلام ونبكي. وكان يزورنا بعض الأصدقاء، فيقول لهم: «يا أعزائي، يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت لكي أستحق حبكم؟ كيف يمكنكم أن تحبوا شاباً مثلي؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدّرها؟». ويكرر للخدم الذين يدخلون دائماً: «لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزاء الطيبين؟ ما الذي يجعلني أستحق خدمتكم؟ إذا تكرّم الله عليّ فأبقاني حياً، سوف أخدمكم أنا، لأنّ علينا أن يخدم بعضنا بعضاً». فتهزّ أمي رأسها عندما تسمعه يتكلم، فتقول: «إن المرض هو الذي يوحي إليك بهذه الأفكار يا بنيّ»؛ فيجيبها: «أمي، يا فرحي الكبير! أنا أعرف أن العالم لا يمكن أن يوجد إن لم يكن هناك سادة وخدم ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي، وأن أخدمهم كما يخدمونني، وأودّ أن تعلمي أيضاً أن كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسؤول عن جميع آلامهم. وأنا المذنب الأكبر من بين سائر الناس!». لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها من الضحك حين قال لها هذا الكلام. وكانت تبكي وتضحك في آن. سألته: «كيف تكون أكبر ذنباً من جميع الناس؟ إن العالم مليء باللصوص والقتلة، أما أنت فلم يتّسع لك الوقت حتى لارتكاب ذنب واقتراف إثم»! قال أخي: «أمي، أيتها الغالية عليّ، (كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر ببال أحد)، يا فرحي الكبير، يا حبيبتي اللطيفة! أؤكد لك أن كل إنسان في هذه الحياة يرتكب جميع الذنوب في حق كل الناس! لست أدري كيف أشرح لك هذا الأمر، ولكنني أحسّه إلى حد العذاب. كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بلا انقطاع لا نفهم من الحياة شيئاً؟». وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه حناناً وطفحت نفسه حباً. وكان الطبيب العجوز الألماني أيزنشميدت يعوده أحياناً. فسأله أخي ذات يوم مازحاً: «يا دكتور! هل أعيش هذا النهار في هذا العالم؟» فأجابه الطبيب:

«ستعيش لا إلى الغد فحسب بل أياماً وأشهراً وسنوات؟» إن يوماً واحداً يكفي لكي يعرف الإنسان كل السعادة. يا أحبائي! لماذا نحن نتشاجر ويحقد بعضنا على بعض لإساءة أُصيب بها: فلنخرج إلى الحديقة نتنزّه ونفرح ويحب بعضنا بعضاً! فليعتنِ كل منا بفضائل أخيه، فلنتعانق ونبارك الحياة»! قال الطبيب لأمي حين ودَّعته إلى درج الباب: «لن يعيش ابنك طويلاً. لقد اختلَّ عقله من المرض». وكانت نوافذ غرفته تطل على الحديقة، حديقتنا المليئة بالأشجار العتيقة التي نبتت على فروعها براعم الربيع. وكانت أوائل طيور الربيع التي وصلت منذ زمن قصير تغرد تحت نافذته، فيتأملها طويلاً ويُعجب بها كثيراً، حتى أخذ، ذات يوم، يستغفرها هي أيضاً قائلاً: «أيتها العصافير الصغيرة التي خلقها الله، يا طيور الفرح الصغيرة، سامحيني أنت أيضاً لأنني أخطأت في حقك!» وبدا لنا هذا أمراً يتعذر علينا إدراكه ـ وكان هو، يبكي من الفرح. وقد قال شارحاً: «أجل، لقد كانت عظمة الله أمامي: الطيور والأشجار والحقول والسماوات، إلا أنا فقد كنت وحدي أعيش في الخزي والعار لأنني لم أكن أرى جمال الحياة وسناءها». كانت أمي تقول له باكية: «إنك تتهم نفسك بخطايا كثيرة»، فيجيبها: «يا أمي، يا فرح نفسي، إنني أبكي من الفرح لا من الحزن. أنا أتمنى أن أكون مذنباً أمامهم، لا أستطيع أن أشرح لك هذا، لأنني لا أعرف حتى كيف أحبهم يؤسفني أن أكون مخطئاً أمام الجميع، فكلهم يغفرون لي وتلك هي الجنّة. ألست الآن في الجنَّة؟».

لقد قال أشياء كثيرة أخرى، نسيتها ولا أتذكرها. أتذكّر أنني دخلت، ذات يوم، إلى غرفته وكان وحده. كان ذلك في ساعة متأخرة، والجوّ مضيء، والشمس الغاربة تملأ الغرفة بأشعتها المائلة. ومذ رآني أشار إليَّ أن أقترب، ثم وضع يديه الاثنتين على كتفي وتأملني طويلاً محدّقاً في عينيّ وقد بدا الحب على وجهه. ومرَّت على ذلك دقيقة دون أن يتكلم، ثم قال لي: «هيّا

العب الآن وابتهج! أريد أن تعيش عنّي»! خرجت ورحت ألعب؛ ولكنني كثيراً ما فكَّرت، أثناء حياتي، والدموع في عينيَّ، في هذا الأمر الذي أصدره إليّ وهو أن أحلّ محلّه في هذا العالم. وفي مرات كثيرة بعد ذلك، عبّر عن مشاعر رائعة لم نكن نفهمها في ذلك الوقت. ومات في الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح وهو في كامل وعيه؛ رغم أنه أصبح لا يتكلم في آخر أيامه، فقد ظلَّ على ما كان عليه حتى النهاية، ينظر إلينا سعيداً فرحاً ومبتسماً، ويبحث عنا ويناديناا بعينيه. وقد تكلّم الناس كثيراً عن موته في مدينتنا. وأثّر هذا الحادث في نفسي ولكن بدون إفراط، وإن أكن قد بكيت كثيراً يوم الدفن. كنت صغيراً جداً، كنت طفلاً، ولكن ذكرى هذا الأخ ستبقى في أعماق قلبي. هكذا جرت الأمور فعلاً.

ب ـ أثر الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما

بقينا إذن وحدنا، أنا وأمي. ولم يلبث أصدقاء أعزاء أن قالوا لها: لم يبق لك إلا ابن واحد. وأنتِ لست فقيرة ولديك رأس مال، لماذا لا ترسلين ابنك إلى بطرسبرغ للدراسة كما تفعل أُسر نبيلة أخرى، فإذا بقي هنا تحرمينه من العلم فيتعرض للحرمان من مستقبل زاهر. وأقنعوا أمي، أخيراً، بأن تسجّلني في مدرسة الأحداث في بطرسبرغ لأصبح في المستقبل ضابطاً في الحرس الأمبراطوري. ترددت أمي كثيراً: كيف تنفصل بهذه السهولة عن ابنها الأخير، ولكنها اتخذت قرارها، رغم كل شيء، وهي تبكي، معتقدة أنها بذلك تؤمّن سعادتي. وقادتني إلى بطرسبرغ فألحقتني بمدرسة الاعداد العسكري. ثم لم أرها منذ ذلك الوقت، لأنها ماتت هي أيضاً بعد ثلاث سنوات. وأثناء السنوات الثلاث لم تتوقف عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد، ولا انقطعت عن الخوف قلقاً بشأن مصير ابنها الباقي. وقد احتفظ خيالي بذكريات غالية عن المنزل

الذي أقمت فيه مع أمي، لأنّ أجمل الذكريات لدى الإنسان هي التي يكون قد أحسَّها في عمر الطفولة في منزل أهله. والأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق مسيطرين على حياة العائلة. ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون سعيدة حتى في العائلات الممزقة أيضاً متى كانت النفس قادرة على أن تجني من عناصر الوجود ما هو نبيل وطيّب. ولقد ارتبط التاريخ المقدس بذكريات طفولتي لأنني كنت أهتمّ به في المنزل اهتماماً كبيراً. كان كتاباً يحوي صوراً جميلة عنوانه: «مئة وأربع قصص مستمدة من العهد القديم والعهد الجديد». وفي هذا الكتاب تعلَّمت القراءة. ولا يزال عندي حتى الآن. إنه هناك على الرفّ. أحافظ عليه كذكرى ثمينة. وأتذكّر أن الانفعال الروحي الأول الذي شعرت به كان قبل أن تعلمت القراءة ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري. لقد قادتني أمي وحدي إلى الكنيسة لحضور الذبيحة الإلهية في أسبوع الآلام (لا أتذكر الآن أين كان أخي حينذاك)، وكان ذلك في يوم اثنين الآلام، والنهار صحو، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة، وكأن الأمر قد حدث بالأمس، مازلت أرى دخان البخور يتصاعد من المباخر ببطء نحو القبَّة؛ وفي قبَّة الكنيسة كانت الأشعة الإلهية تدخل من نافذة ضيقة هابطةً نحونا فكان دخان البخور كأنه يندفع لاستقبالها أمواجاً متّسقة ثم تذوب في الضياء الذهبي. كنت أتأمل هذا المشهد بعجب، للمرة الأولى في حياتي، وأحسست أن بذرة الكلمة الإلهية تُغرس في نفسي. وتقدّم شاب إلى وسط الكنيسة يحمل كتاباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الشاب كان ينوء بحمله ووضعه على منضدة الترتيل، وبدأ يقرأ. فهمت في ذلك اليوم، لأول مرة في حياتي، ما يُقرأ في هيكل الرب، كان يعيش في بلاد عوص رجل تقيّ صالح يملك ثروات ضخمة ونوقاً لا عدَّ لها، وقطعان خرافٍ وحمير. وكان أولاده فرحين وهو يحبّهم كثيراً ويصلّي من أجلهم لله؛ هل ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما في فرحهم؟ ذلك أن الشيطان وقف أمام

الله وقال له أن يطوف الأرض كلها وما تحت الأرض. فسأله الله: «هل رأيت خادمي أيوب؟». وتباهى الله أمام الشيطان بقداسة خادمه القديس. لكن الشيطان ضحك من كلام الله وأجاب: «مكِّني منه فترى خادمك يعصيك ويلعن اسمك». فمكَّن الربُ الشيطان من خادمه الصالح الذي كان يحبّه كثيراً. فضرب الشيطان أولاده وقطعانه ودمَّر ثروته وأرسل إليه كل المصائب دفعة واحدة كأن صاعقة قد ضربت منزله. فمزَّق أيوب ثيابه وارتمى على الأرض صائحاً بأعلى صوته: «لقد خرجت من بطن أمي عارياً، وعارياً سأعود إلى الأرض»، والله أعطى والله أخذ. فليتبارك اسم الرب الآن وإلى أبد الآبدين». يا آبائي ومعلميَّ! سامحوا دموعي التي أذرفها اليوم. إن كل طفولتي تنبثق اليوم أمامي، إنني أتنفَّس الآن كما كنت في طفولتي بذلك الصدر الصغير، صدر الطفل الذي لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره، إن ذلك الانفعال عينه الذي أحسست به يومذاك يجتاحني في هذه اللحظة دهشة واضطراباً وفرحاً. لقد أحدثت تلك النوق تأثيراً قوياً في خيالي وقصة الشيطان الذي كلَّم الله، والله الذي تخلَّى عن خادمه وصراخ الخادم مخاطباً ربّه: «تبارك اسمك رغم أنك تعاقبني». ثم تصاعدت في الهيكل ترنيمة رقيقة جداً: «فلتتحقق صلاتي». وارتفع دخان البخور، من مبخرة الكاهن، وركع المصلّون! ومنذ ذلك اليوم، أصبحت غير قادر على قراءة تلك القصة المقدسة ـ وقد حدث لي هذا أمس أيضاً ـ إلا وتنهمر دموعي. أجل، ما أروع العظمة والسرَّ الخارقين اللذين يفيضان من هذا النص! لقد سمعت فيما بعد نقداً ساخراً ومتكبراً لهذا النص. قالوا: «كيف يمكِّن الربُّ الشيطان من قديسه الأحب بين قدّيسيه ويتركه لعبة بيد الشيطان فيخطف أولاده ويرسل إليه الأمراض ويغطي جسمه بالقروح حتى صار يزاح القيح عن قروحه بقطعةٍ من فخار، ولأيِّ هدف؟ من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً: «أنظر ماذا يستطيع أن يتحمله قديس من

أجلي!» ولكن هنا تكمن العظمة كما السرّ!» إن المظاهر العرضية للحياة الأرضية تلامس في هذه القصة الحقيقة الأبدية التي لا ندركها. فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض يتجلّى فعل قوة أبدية تفوق هذا الواقع. إن الخالق يتصرف كما تصرَّف في الأيام الأولى من الخلق عندما قال «إنه أبدع في ما صنع». إنه ينظر إلى أيوب فيبهجه أنه خلقه. وأيوب الذي يمجد الله لا يخدم الله وحده بل الخليقة أيضاً من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل، فذلك هو ما يُسِّر له. ربّاه ما أروعه سفراً وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتاب المقدس وتلك القوة المعجزة التي توقظها في الإنسان! كأنها صورة العالم والبشرية، وكل شيء قد قيل فيها وأُعلن لقرون وقرون، ما أعظم الأسرار التي تكشف عنها وتحلّها: إن الرب أعاد السعادة إلى أيوب، وأعاد له ثروته؛ وتمرُّ أعوام جديدة فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضاً ـ ربّاه! «كيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأُول إلى غير رجعة؟ هل يمكن أن يشعر بالسعادة حقاً بين أولاده الجدد، كما في السابق، مهما يكونوا أحبّةً في قلبه إذا تذكر الذين غابوا إلى الأبد؟». الحق أنه كان يمكن أن يشعر بالسعادة لأنّ الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن، بواسطة سرّ الطبيعة البشرية الكبير وتتحول إلى فرح هادىء وساذجٍ، إن الدم الذي يغلي في عمر الشباب يفسح في المجال لشيخوخة هادئة ومشعَّة: إنني أبارك شروق الشمس اليومي ويفرح قلبي بشروقها كما كان يفرح به في الماضي، ولكنني أفضّل اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعّته الطويلة المائلة التي توقظ في نفسي الذكريات العذبة المتواضعة والهادئة، وتحيي صور الماضي الحبيبة من حياتي الطويلة المباركة. ففوق هذه الذكريات تحلّق الحقيقة الإلهية التي تهدىء وتسامح وتبرىء كل شيء! سوف تنتهي حياتي، أعرف ذلك وأحسّه، ولكنني أحسّ، في كل يوم، بأن حياتي لا تزال توهب لي، وأن حياتي الأرضية تندفع نحو حياة جديدة لا نهاية لها، ومجهولة،

هي منذ الآن قريبة يملأ الإحساس بها نفسي فرحاً، وتجعل قلبي يبكي فرحاً... يا أصدقائي ومعلميَّ! لقد سمعت من يقول، أكثر من مرة، والآن أكثر من أيّ وقت مضى، إن كهنة الله كلهم، ولا سيّما كهنة الأرياف يشكون والدموع في عيونهم من أنّ راتبهم غير كافٍ، ومن أنّ منزلتهم الاجتماعية وضيعة مؤكدين ـ قرأت ذلك بنفسي ـ أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الكتاب المقدس للشعب بسبب قلّة رزقهم. إذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلّوا رعايانا وشتّتوا القطيع، فليفعلوا ذلك، لأننا لا نجني من الرزق ما يكفينا، أيها الرب. وأقول في نفسي، إنني أسأل الرب أن يضاعف راتبهم الذي يحرصون عليه (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكنني أقول ذلك مخلصاً: من المسؤول عن هذا الوضع إن لم نكن نحن المسؤولين عنه إلى حدّ ما! إنني أسلِّم بأنّ الكاهن في الريف مثقل بأعباء العمل، وليس في وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب. وأرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه إلى الحدّ الذي يعجز فيه عن أن يقدّم للرب ولو ساعة من وقته في الأسبوع. ثم إنه لا يعمل طوال السنة. فليجمع الكاهن في داره، مرة في الأسبوع، والأفضل أن يكون ذلك في المساء، فليجمع الأطفال، في بادىء الأمر، فيسمع الآباء، ويبدأ الآباء أيضاً بالمجيء، ولا حاجة إلى أن تكون هناك قصور يُعقد فيها هذا الاجتماع. ليس على الكاهن إلا أن يجمع الناس في منزله المتواضع نفسه. وليس له أن يخاف فلن يفسدوا مسكنه خلال ساعة في الأسبوع؛ فليفتح الكتاب المقدس ويقرأ لهم فيه بدون فصاحة مصطنعة أو كلام بليغ! فليقرأ بصوت هادىء ومتواضع، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه، ممتلئاً بحبّ النص المقدس. وبإمكانه أن يتوقف عن القراءة من حين إلى آخر ليشرح معنى كلمة لا يعرف أبناء الشعب معناها. وليكن متأكداً أنهم سيفهمون بسرعة لأن القلب المسيحي يعرف كل شيء! إقرأ لهم حياة إبراهيم وسارة، وإسحق وربيكا، ويعقوب

الذي ذهب إلى لابان وقال بعد أن اصطرع مع الله في الحلم: «هذا مكان رهيب»؛ ستدخل هذه القصص قدماً إلى القلب النقيّ، قلب الإنسان البسيط. إقرأ لهم، وإلى الأطفال خاصة، قصة الإخوة الذين باعوا أخاهم كعبد، يوسف الحبيب الفتى، مفسِّر الأحلام، والنبيّ الكبير. ثم زعموا لأبيهم أن ذئباً التهم ابنه. وأظهروا أباهم على ثيابه المدماة. واقرأ لهم كيف سافر إخوته، بعد ذلك، إلى مصر التماساً للقمح، وكان يوسف قد أصبح فيها رجلاً عظيماً، ولكنهم لم يعرفوه، فاضطهدهم واتّهمهم، وسجن أخاهم بنيامين الفتى رغم ما يكنّه لهم من حب: «إنني أحبكم، وإنني لأعذبكم وأنا أحبكم». ذلك أنه لم يستطع أن ينسى، طوال حياته، كيف باعه إخوته لأناس من تجار العبيد، في صحراء مقفرة، قرب بئر، بينما كان يتوسل إليهم باكياً ألّا يبيعوه كعبد في أرض غريبة. فعندما رآهم، بعد سنوات طويلة، أحسَّ بحبّه لهم ينبعث في قلبه، ولكنه عذّبهم، وابتعد عنهم، أخيراً، وانصرف لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل العذاب في قلبه هو نفسه. وارتمى على سريره يبكي. ثم مسح دموعه وعاد إليهم هادئاً مشرقاً، وقال لهم: «يا إخوتي، أنا يوسف أخوكم!». وليقرأ الكاهن للناس تتمة القصة: كيف تملّك يعقوب عندما عرف أن ابنه الحبيب ما زال حياً، وكيف سافر إلى مصر هاجراً الأرض التي ولد فيها، ومات على تراب غريب، تاركاً في وصيَّته أكبر وعد سيتحقق للبشرية على مدى العصور، كاشفاً عن السرّ الذي كتمه طوال حياته في قلبه المتواضع، ألا وهو الوعد الذي يبشر البشرية بأنه سيولدفي يوم من الأيام إنسان هو أمل العالم، وهو للبشرية مُخلِّص ووفادٍ. يا آبائي ومعلميَّ! اغفروا لي، ولا تغضبوا، إنني أذكركم، كولد صغير، بأشياء تعرفونها منذ زمن بعيد، وبوسعكم أن تعلّمونيها أنتم بأنفسكم، بأفضل مما أفعل فنّاً وعلماً بألف مرة! إنها الحماسة وحدها التي تجعلني أقول هذا، واغفروا لي دموعي لأنني أحبّ هذا السفر! وإذا استطاع الكاهن أن يبكي هو

أيضاً أثناء القراءة فسوف يرى مدى أثر ذلك في قلوب سامعيه. إن بذرة صغيرة تكفي مهما تكن يسيرة، إذا بُذرت في قلب الإنسان البسيط لا تموت بل تعيش في نفسه طوال حياته نبعاً من ضياء ومن ذكرى كبيرة. لا حاجة إلى شروح مسهبة واستطرادات كثيرة يضيع في شعابها فكر الإنسان. إن أبناء الشعب يدركون الأمور ببساطة كبيرة. أتعتقدون أنهم عاجزون عن ذلك؟ قوموا إذن بهذه التجربة واقرأوا لهم تلك القصة المؤثرة، قصة إستير الجميلة، وفاستي المتكبرة، أو اقرأوا لهم تلك المغامرة المعجزة، مغامرة النبي يونان في جوف الحوت. ولا تنسوا كذلك رموز الرب ولاسيّما رموز إنجيل القديس لوقا (ذلك ما كنت أفعله)، واقرأوا لهم في أعمال الرسل حياة شاوول، وحياة القديس ألكسي رجل الله، وكذلك حياة كبرى الشهيدات حاملة المسيح مريم المصرية. سوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة في قلوبهم، وتكفي ساعة في الأسبوع رغم قلّة الراتب، ساعة واحدة. فإذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لتعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل. سوف يتذكر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة، فإذا هو يهبّ من تلقاء نفسه إلى مساعدته في أعماله في الحقل أو المنزل. سوف يقدّم له احتراماً متزايداً. وهذه المزايا، تساوي زيادة في الدخل، ذلك حلّ يبلغ من السهولة في الواقع أن المرء يخجل أحياناً أن يقترحه مخافة أن يُضحك عليه. ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. إن من لا يؤمن بالله لا يستطيع أن يؤمن بشعبه، لكن الذي يؤمن بشعبه لن يلبث أن تتجلّى له قداسة روح الشعب ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك. إن مثقفينا الملحدين، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التي أنجبتهم، لن ينقذهم ولن يردّهم إلى طريق الرشاد إلا شعبنا الذي ستتأكد قوته الروحية في يوم من الأيام. ما قيمة أقوال المسيح بدون قوة القدوة؟ فالشعب يهلك إن لم تنجده الكلمة الإلهية لأن نفسه عطشى إلى حقيقة دينية وإلى مثل أعلى. في فترة

شبابي، منذ أكثر من أربعين عاماً، طفت أرجاء روسيا برفقة الأب أنفيم، نجمع التبرعات لديرنا. ففي ذات يوم، قضينا الليل على شاطىء نهر كبير من تلك الشواطئ الصالحة للملاحة بين الصيادين، فجلس إلى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح في الثامنة عشرة من عمره كان مستعجلاً للالتحاق بعمله في الغد لأنه قد استؤجر لجرّ سفينة تجارية. كان الفتى ينظر أمامه نظرة صافية حنوناً. والليل ساجٍ وحارّ في شهر تموز. ومن النهر العريض يتصاعد بخار يحمل إلينا طراوة منعشة، وتنبجس سمكة إلى سطح المياه من حين إلى آخر، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفاً. سكتت العصافير، وكل شيء في سلام، كل شيء يعيش في الجمال، كل شيء يصلّي لله. ونحن وحدنا لم ننم، أنا وهذا الفتى، ورحنا نتحدث عن جمال خلق الله وعن سرّه الكبير: عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل المذهَّب، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف طريقها جميعاً في هذا العالم، دون أن يكون لها ذكاء، تشهد بعظمة صنع الخالق، وتساهم، في كل لحظة، بعملها المتواضع في تحقيق الغايات العليا. فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبّب قد تأثر بقوة، وأسرَّ إليّ بأنه يحب الغابات وطيور الغابات، لأنه كان هو نفسه يربّي الطيور ويعرف تغريد كل أنواعها، ويعرف وسائل اجتذابها. قال لي: «لا شيء أروع من الغابة وكل شيء في الطبيعة جميل». فأجبته: «هذا صحيح. وكل شيء في خلق الله رائع لأن كل شيء حق. أنظر إلى الحصان مثلاً، هذا الحيوان الرائع المتعلق بالإنسان، أو انظر إلى الثور الذي يطعمه ويعمل من أجله. ما أجمل هذه الحيوانات الأليفة، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيراً ما يضربونها بدون شفقة، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تظهران على وجوهها. إنه شيء مؤثّر في النفس أن نعرف أنّ هذه الحيوانات هي بلا خطيئة، لأن كل ما في الكون كامل إلا الإنسان. كان المسيح مع الحيوانات قبل أن يأتي ليخلّصنا». فسألني الفتى: «هل تعتقد حقاً

أن المسيح معها أيضاً؟» فأجبته: وكيف لا يكون الأمر كذلك ما دامت الكلمة للجميع، وأن كل مخلوق، حتى أصغر ورقة من أوراق الأشجار، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده. كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ويناديه بدون شعور لأنه يملك هذه الفضيلة السرّية وهي أنه بدون خطيئة. أنظر في الغابة إلى الدبّ المخيف المفترس دون أن يكون مسؤولاً عن ذلك!... قلت له هذا وقصصت عليه أنّ دباً اقترب، ذات يوم، من قديس عظيم كان يعيش معتزلاً في غرفة وسط الغابة. فأشفق الناسك على الوحش الجائع، فهبَّ إلى لقائه بدون خوف، وأعطاه قطعة من الخبز، قائلاً له: «كلْ في سلام، وليكن المسيح معك»، فابتعد الوحش المفترس طائعاً دون أن يلحق بالقديس أيّ أذى. تأثر الفتى كثيراً من أن الدبّ انصرف دون أن يلحق أي أذى بالقديس ومن أن المسيح كان معه. وهتف يقول لي: «ما أروع هذا! ما أروع كل ما يأتي من الله!». هادئاً وعذباً. عرفت أنه فهمني. ثم نام بالقرب مني نوماً خفيفاً وبدون خطيئة. فليبارك الرب الشبيبة! صلّيت من أجله قبل أن أنام أنا أيضاً. ابعث، يا رب السلام والنور إلى جميع مخلوقاتك!

ج ـ ذكريات الناسك الراهب زوسيما عن عمر الصبا والشباب التي عاشها في العالم

المبارزة

بقيت في بطرسبرغ في مدرسة الأحداث مدة طويلة، ما يقرب من ثماني سنوات، ومع تربيتي الجديدة كبتت كثيراً عن مشاعر الطفولة مع إنني لم أنسَ شيئاً. وفي المقابل، اكتسبت عادات وأفكاراً جديدة حولتني إلى إنسان متوحش، إنسان قاسٍ وعبثي. وبتعلُّمي اللغة الفرنسية تحلّيت بآداب المجتمع

وبطلاء من حضارة، بينما الجنود الذين كانوا يخدموننا، فكنّا جميعاً، وأنا أيضاً، نعتبرهم بهائم. ولعلّني كنت أنا أكثر من الآخرين في ذلك، لأنني كنت في كل الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من رفاقي كلّهم. وعندما تخرّجنا ضباطاً، كنا مستعدين لأن نبذل دمنا إذا تلطخ شرف كتيبتنا. لكن أحداً منا لم يكن يعرف ما هو الشرف الحقيقي. وما من أحد منا يملك أيّ فكرة عنه، فلو عرفت ذلك لكنت أول من سخر من ذلك. وكنا نعتزّ بما ننهمك فيه من سكر ومجون ووقاحة ولا أقول إننا كنا أشراراً: كان كل أولئك الشباب أناساً طيبين ولكنهم يتصرفون بشكل سيِّئ وكنت أنا أسوأ من الآخرين. ولسوء الحظ إنني تسلّمت ثروتي فغصت في حياة الملذات على ما تشاء لي نزواتي مندفعاً اندفاع الشباب بدون أيّ تحفظ. لقد أبحرت ناشراً كل أشرعتي. لكن الشيء الغريب هو أنني كنت أقرأ كتباً في كثير من الأحيان وأجد في ذلك لذة كبرى. ومع ذلك، لم أفتح التوراة يوماً، لكنني لم أفارقها وإنما احتفظت بهذا الكتاب قريباً مني دون أن أقرأه «في اليوم والساعة والشهر والسنة». وبعد أربع سنوات من الخدمة، وجدت نفسي في مدينة ك.، التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها. وكان المجتمع في هذه المدينة كبير العدد ومتنوعاً. وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطفاء يعيشون حياة فرح وبهجة، وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يعتبروني ثرياً وذلك أمر يقدّره المجتمع. وهنا وقع لي حادث كان له أثر حاسم في مصيري. فقد أحببت فتاة رائعة الجمال، ذكية، ونبيلة الخلق، يتمتع أهلها باحترام كبير، وكانوا من الأثرياء، ولهم نفوذ وعلاقات عالية، وقد أحسنوا وفادتي وصداقتي. وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة لوجودي، فالتهب قلبي من تلك الفكرة. وأدركت فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً بل كنت مفتتناً بذكائها وسموّ طبعها، وهذا ما أثّر في نفسي، ومنعتني أنانيتي من خطبتها إذ كان صعباً عليّ أن أتنازل في مثل ذلك العمر من ريعان الشباب عما

في حياة العازب الحرة المتحللة من إغراءات. لذلك اقتصرت على بعض التلميحات وأرجأت الخطوة الحاسمة إلى ما بعد. وتلقّيت أمراً عسكرياً بالسفر مدة شهرين إلى مقاطعة أخرى فلما رجعت بعد شهرين، عرفت فجأة أن الفتاة تزوجت رجلاً غنياً من الملّاكين في المقاطعة، وهو يكبرني سناً ولكنه لا يزال شاباً، كما أن له صلات في العاصمة وفي المجتمع الراقي، وذلك ما لا أتمتع به أنا؛ وهورجل لطيف محبَّب جداً ومثقَّف جداً، بينما ثقافتي أنا ناقصة كلياً. وبلغت من الاضطراب لهذا الحادث غير المتوقع ما جعلني أتصوّر أنني فاقد صوابي بسببه. وقد آلمني أنني علمت أن الرجـل الملّاك خطيب الفتاة منذ زمن طويل، وحدث لي أن التقيته فعلاً في منزل أهلها مراراً كثيرة دون أن ألاحظ شيئاً من شدّة ما أعماني غروري. فأغاظني هذا الأمر: كيف، أيعلم ذلك جميع الناس تقريباً إلا أنا؟ وأحسست بغضب شديد. شعرت بالدم يصعد إلى جبهتي عندما تذكرت تصريحات الحب التي كدت أبوح بها مرات عديدة. وهي لم توقفني بل تركتني أتكلّم دون أن تخبرني بأنها مخطوبة، فاستنتجت بالتالي أنها كانت تهزأ مني. وقد عرفت، فيما بعد طبعاً، أن الأمر لم يكن كذلك، وتذكرت أنها، خلافاً لما توهمت، كانت تقاطعني في كل مرة مازحة، وتغيّر موضوع الحديث، لكنني عجزت في ذلك الوقت عن أن أحكم في الأمر بشكل سليم، فكنت أحترق إلى الانتقام. وأنا أتذكّر الآن بدهشة أن ذلك الانتقام والغضب اللذين أحسست بهما كانا شاقَّين على نفسي لأن خفَّة طبعي كانت لا تتيح لي أن أبقى حاقداً على الناس فترة طويلة. فصرت أحرِّض حنقي تحريضاً مصطنعاً إلى أن أصبحت متوحشاً وعبثياً. ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسي، وتمكنت في ذات مساء، بينما كنا في مجتمع غفير، أن أهين خصمي في أمر لا علاقة له ظاهرياً بشخصي، فسخرت من رأيه في موضوع حدثٍ هام كان قد وقع في ذلك الوقت ـ حدث ذلك في العام ١٨٢٦ ـ وكانت سخرياتي،

في رأي الحضور، محكمة وحاذقة وفكهة. ثم طلبت منه أن يصفّي حسابه معي في مبارزة؛ وبلغتُ من الفظاظة، أثناء ذلك، أنه لم يستطع إلا أن يقبل التحدي رغم كل ما بيني وبينه من فروق. فأنا كنت أصغر منه سنّاً وضابطاً برتبة صغيرة. وقد عرفت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه إلى قبول التحدي. وكان هو، في ذلك الوقت، أثناء خطبته قد ساءته ملازمتي لخطيبته، وهو أيضاً يخاف الآن إذا عرفت زوجته بأنه تحمَّل إهاناتي، دون أن يبارزني، أن تحتقره بدون إرادة منها، وأن يتزعزع حبّها له. ولم ألبث أن عثرت على شاهد لي بدون عناء، وهو أحد رفاقي، كان ملازماً في كتيبتنا. وكانت المبارزات رائجة جداً في ذلك العصر رغم أنها محظورة، وهذا يدل على مدى ترسّخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس البشرية. كنا في أواخر شهر حزيران/ يونيو وحُدد الموعد في الغد، في الساعة السابعة صباحاً، على أرض مهجورة خارج المدينة ـ وفي الحقيقة، وقع لي في ذلك المساء حادث مشؤوم. عندما عدت مساءً إلى مسكني مهتاجاً غاضباً، ثرت على الجندي الذي يخدمني، واسمه أفاناسي، وصفعته على وجهه بكل قوتي مرتين، حتى سال الدم من وجهه. وكان يخدمني منذ زمن غير طويل، وسبق لي أن ضربته من قبل، ولكنني لم أضربه بوحشية بهيمية كهذه المرة. صدّقوني يا أصدقائي الأعزاء، إذا قلت لكم إنني ما زلت حتى اليوم، بعد أكثر من أربعين عاماً، لا أستطيع أن أتذكر سلوكي حينذاك إلا وأشعر بعار وألم. وقد تمدَّدت فنمت زهاء ساعتين أو ثلاث. فلما استيقظت كان الصباح قد تنفَّس. فأسرعت أرتدي ملابسي لأنني لا أريد أن أنام، واقتربت من النافذة ففتحتها، وكانت تشرف على الحديقة. ماذا رأيت؟ لقد بدأت الشمس تطلع، والطقس جميل رائع، وراحت العصافير الصغيرة تغرد. فسألت نفسي: لماذا هذا الاحساس الغريب بالخزي والعار؟ هل لأنني سأسفح دماً؟ لا. يبدو أن هذا ليس هو السبب. هل أكون إذن خائفاً من الموت

وأخشى أن أُقتل؟ لا. ليس هو السبب، ليس هو السبب أبداً... وفجأة، أدركت سبب ذلك الضيق الذي كنت أشعر به: كنت أشعر بعذاب في ضميري لأنني ضربت أفاناسي في الليلة البارحة! تراءى لي المشهد بكل تفاصيله، فجأة، وكأنه يستعاد: كان هو واقفاً أمامي، منتصب القامة، مرفوع الرأس، واضعاً يديه على درزة سرواله، وأنا أهوي على وجهه بالصفعة تلو الأخرى بكل ما أوتيت من قوة. وهو يحدّق أمامه كأنه في استعراض عسكري ولا يجرؤ على رفع ذراعه ليحمي وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة. انظروا إلى أية حالة يمكن أن يصل الكائن البشري! كيف يستطيع إنسان أن يضرب أخاه الإنسان! يا لها من جريمة! أحسست بأن إبرة تنفذ في روحي من جهة إلى أخرى. كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً وكانت أشعة الشمس تتلألأ فوق أوراق الأشجار، وعصافير صغيرة، تغرد، تمجّد الرب... خبأت وجهي بيديّ الاثنتين وارتميت على سريري باكياً. وتذكرت، في تلك اللحظة، أخي ماركل وما قاله قبل موته إلى الخدم: «يا أصدقائي الأعزاء، يا أحبائي، ماذا فعلت كيف أستحق أن تخدموني؟ ما الذي يجعلني أهلاً بعاطفتكم؟». وقلت لنفسي: «ما الذي يجعلني أنا أيضاً جديراً بأن يخدمني قريني الإنسان؟». وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة. فرحت أتساءل: «لماذا ينبغي لإنسان شبيه بي، إنسان خُلق مثلي على صورة الله أن يخدمني؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك؟». طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرة في حياتي وكأنه اخترق روحي. «يا أمي، أيتها الغالية، إن كل إنسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس وهم لا يعرفون هذا. فلو عرفوه لأصبحت الأرض جنة منذ الآن! وتساءلت في نفسي من خلال دموعي: «أيجوز حقاً يا إلهي أن أكون مرتكباً جميع الذنوب وأن أكون أكبر الناس إثماً؟ وأنا أسوأ من جميع الناس». وتراءت لي الحقيقة فجأة في ضياء باهر: ما الذي كنت أريد أن أفعله؟ أن أقتل إنساناً طيباً ذكياً شريفاً لم

يلحق بي أذى، وأن أحرم زوجته من السعادة إلى الأبد فأسلّمها للعذاب وأدمّر روحها! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات مستلقياً على سريري، دافناً وجهي في الوسادة، لا أشعر أن الوقت كان يمرّ. وها هو رفيقي الملازم أول يظهر في غرفتي فجأة حاملاً إليّ المسدسات. قال لي: حسناً، لقد نهضت من نومك، آن الأوان، هيّا بنا! وهنا اضطربت وخفت لكنني تبعته. وخرجنا لنستقلّ العربة. عدلت عن الركوب فجأة وقلت لرفيقي: انتظرني لحظة، سأعود إلى المنزل لأجيء بمحفظة نقودي التي تركتها فيه. وأسرعت إلى الغرفة الصغيرة التي يسكنها خادمي أفاناسي. وقلت له: «أفاناسي! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس. سامحني». ارتعد عندما سمع كلامي كأنه خاف. وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافياً، ليس كافياً، وأن بادرتي لا تتناسب والأذى الذي ألحقته به، فإذا بي أخضع فجأة لاندفاعة مفاجئة فأرتمي على قدميه بملابسي الأنيقة حتى كادت تلامس جبهتي الأرض، وقلت له صائحاً: «سامحني» بدا أفاناسي مصعوقاً، وقال: «يا صاحب النبالة، يا معلمي، كيف يمكن أن... أنا لست جديراً بهذا...». وفجأة، راح يبكي هو نفسه كما بكيت أنا منذ قليل وخبأ وجهه بيديه ثم استدار نحو النافذة مرتجفاً من رأسه حتى قدميه غارقاً في دموعه. وأسرعت إلى رفيقي وقفزت إلى العربة، وصحت بالحوذّي: سرْ! وأضفت إلى رفيقي: «هل تريد أن ترى الغالب؟ إنه أمامك!» وكنت أشعر بحماسة شديدة ـ بقيت أضحك أثناء الطريق وأتكلم بدون توقف، ولست أدري ماذا قلت! كان رفيقي ينظر إليّ بارتياح، فقال لي: «أرى أنك شجاع! سوف تشرّف بزّتنا العسكرية». ووصلنا إلى أرض المبارزة حيث كانوا ينتظروننا، ووُضعنا أنا وخصمي على مسافة اثنتي عشرة قدماً. كان عليه هو أن يطلق النار أولاً. فقابلته فرحاً وأنا أنظر إلى عينيه فأشعر أن قلبي يفيض حباً له. لم تطرف عيني. كنت على ثقة بما سأفعله. أطلق النار. خدشت الرصاصة

خدّي خدشاً خفيفاً ولامست أذني قليلاً. فقلت له: «الحمد لله! لأنك لم تقتل أحداً». وتناولت مسدسي فرميته ورائي في اتجاه الغابة. وقلت: «هذا ما أفعله بالمسدس». ثم التفت نحو خصمي وقلت: «سيدي، سامحني لأنني أسأت إليك بدون سبب، لطيشي وخفَّتي، ثم أجبرتك أن تطلق النار عليَّ. إنني أسوأ منك عشر مرات وربما أكثر؛ قل هذا عن لساني للإنسان الذي تقدّره أكثر من أيّ إنسان آخر في هذا العالم. فما إن تفوهت بهذه الكلمات حتى راح الثلاثة يصرخون. قال خصمي (وكان في حالة غضب): «إذا لم تكن تنوي أن تقاتل، فلماذا أزعجتني؟» فأجبته بمرح: «كنت حتى الأمس أحمق، ولكنني اليوم أصبحت عاقلاً». فقال: «أما أنك كنت بالأمس أحمق فهذا أمر أسلِّم به، وأما أنك أصبحت عاقلاً فهذا ما لا يبدو صحيحاً بالنظر إلى سلوكك». قلت وأنا أصفّق بيدي: «وعلى هذا أيضاً أوافقك على ما تقول. لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام!». قال ملحّاً: «هل أنت عازم على أن تطلق النار يا سيدي أم لا؟» فأجبته: «لن أفعل. ولك أن تطلق مرة ثانية إذا كنت تريد ذلك، ولكنك تحسن صنعاً إن أنت لم تطلق». صاح الشاهدان ولا سيما صاحبي: «أنت تلطخ شرف كتيبتنا بالعار؟ أتطلب الصفح وأنت على أرض المبارزة. ليتني تنبأت بهذا!» استدرت نحوهم، في هذه المرة بدون ضحك: «أيها السادة! قلت لهم، أعجيب إلى هذا الحدّ أن يوجد في أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها وأن يعترف بها علناً؟ فصاح صاحبي: «ولكن ليس على أرض القتال». أجبتهم: «أهذا ما يدهشكم إذن؟ كان يجب علي، في الواقع، أن أعتذر إليه منذ وصولي، قبل أن يطلق عليَّ النار لأجنّبه ارتكاب خطيئة مميتة. لكن من المؤسف أننا قد نظَّمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل عليّ أن أفعل ذلك، فإنني ما كنت أستطيع أن أتكلم إلا بعد أن أطلق عليّ النار من على مسافة اثنتي عشرة قدماً؛ وإلا لكان يمكن أن تعتبروني جباناً غير أهلٍ

بأن يُسمع كلامي إذا أنا اعتذرت إليه منذ وصولي قبل أن يطلق النار. (وصحت من أعماق قلبي): «أيها السادة: تأملوا خلق الله من حولكم: السماء الصافية، والهواء النقيّ، والعشب الطري، والعصافير الصغيرة! إن الطبيعة رائعة بدون خطيئة. نحن وحدنا، معشر الأغبياء، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنّة، يكفي أن نريد معرفة ذلك حتى يبدو لنا العالم فوراً بكل جماله. لنتعانق ونبكِ...» كنت أريد أن أتابع ولكنني توقفت عن الكلام وقد انقطعت أنفاسي وشعرت بانفعال شديد، وكان قلبي يفيض سعادة لم أعرف مثلها في حياتي كلها. فقال لي خصمي: «كلامك فيه تقوى وشرف، لا شك أنك إنسان طريف جداً». فأجبته ضاحكاً: «إضحك، (وأنا سأضحك أيضاً) ولكنك ستطريني بعد ذلك». قال: «بل أنا مستعد بأن أمدحك منذ الآن. إسمح لي أن أمدَّ إليك يدي لأنك، فيما يبدو لي رجل صادق». قلت: «لا... لا تمدَّ لي يدك الآن، بل تمدّها لي فيما بعد، بعدما أُصلح نفسي وأستحق تقديرك، يومئذ سوف تصافحني وتكون على حق». وعدنا إلى المنزل وشاهدي لا ينفك يوبّخني وأنا أقبّله. وفوراً عرف الرفاق جميعاً بما جرى فاجتمعوا ليحكموا عليَّ في اليوم نفسه. قال أحدهم: «لقد لطخ شرف بزَّتنا العسكرية بالعار، فعليه أن يستقيل». ودافع بعضهم عني: «لكنه صمد أمام إطلاق النار عليه دون أن يختلج». فقال الآخرون: «لكنه جبُن وخاف استئناف إطلاق الرصاص فاعتذر على ساحة المبارزة». فأجاب المدافعون عني: «لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتذر، أما وأنه رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل على أن الأمر ليس كذلك بل شيء آخر غير عادي». كنت أصغي إليهم فأشعر أنني مبتهج لرؤيتهم، ثم قلت لهم: «اسمعوا، يا أصدقائي ورفاقي، لا يقلقكم أمر استقالتي، لقد فات الأوان، قدَّمت استقالتي اليوم في المكتب، ومتى قُبلت، سأدخل إلى الدير. ولهذا السبب استقلت». فما إن قلت هذا الكلام حتى

انفجروا بالضحك. «كان ينبغي أن تقول هذا من قبل. الآن اتضح كل شيء. لا يحاكم راهب». كانوا يضحكون ولكن بغير سخرية، ولا يستطيعون التوقف، يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف. ومنذ تلك اللحظة، أصبحوا جميعاً يظهرون لي المودة، حتى أقساهم حكماً عليّ. واحتفلوا بي في الكتيبة كبطل طوال الشهر الذي انقضى بين تقديمي الاستقالة وإحالتي على التقاعد. وكانوا يقولون: «أيَّ راهب». وصار كل واحد منهم يكلمني بأقوال لطيفة محاولاً أن يصرفني عما صمّمت عليه بل ومشفقاً عليّ. «لماذا تفسد حياتك»؟ و «لا بل إنه شجاع. لقد جابه طلقة الرصاص وكان في وسعه أن يردّ ولكن لا شك أنه رأى حلماً أثناء الليلة التي سبقت المبارزة فقرر أن يصبح راهباً. وكذلك كان الأمر في مجتمع المدينة أيضاً. كان الناس فيما مضى يحسنون استقبالي فقط. وبعد الحادث أصبحوا يهتمون بي جميعاً ويدعونني إلى ولائم يقيمونها لأجلي. صحيح أنهم يسخرون قليلاً مني ولكنهم يحبونني. ولاحظت أن السلطات أغمضت عينيها عن حادث المبارزة رغم أنها أصبحت مدار حديث الناس جميعاً لأنّ خصمي هو أحد أقارب جنرالنا، ولأنَّ ما من دمٍ قد سفح، واعتبرت المبارزة أشبه بمزاح. وتجرأت فقررت أن أعبّر عن آرائي بدون حرج رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن خبيثة، والحق يقال، إنها كانت سخريات بريئة. وكانت تلك الأحاديث تجري في المساء بحضور السيدات لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال، فكان يحلو لهن أن يصغين إلى كلامي وكنَّ يجبرن رجالهنّ على أن يصغوا إليَّ كما يصغين هنَّ. وكنت أُسأل بلهجة ساخرة: «كيف يمكن أن أكون مرتكباً جميع الذنوب في حق جميع الناس؟ هل أنا الذي أقترف أخطاءك مثلاً؟ كيف تستطيعون أن تعرفوا ذلك، كنت أجيبهم، بينما العالم كله قد سار منذ زمن طويل في طريق خطأ فرفع إلى مصاف الحقائق ضلالات مشؤومة، وطلب من

أعضائه تبنّي هذه الأحكام. أنا مثلاً؛ أردت مرة في حياتي أن أتصرف بصدق فإذا بي أصبح في نظركم نوعاً من ساذج القرية. ومهما تحبوني، قلت لهم، فإنكم تسخرون مني. «كيف يمكن أن لا نحبك؟» قالت سيدة المنزل ضاحكة. وفجأة، ماذا رأيت؟ تلك المرأة الشابة بسببها دعوت إلى تلك المبارزة التي كنت لا أزال أعتقد، حتى فترة قريبة أنها ستكون خطيبتي. فيما لم ألاحظ حتى وجودها. وها هي تنهض وتقترب مني وتمدّ إليَّ يدها، وتقول لي: «اسمح لي أن أؤكد لك أنني، أنا أول من لا يمكن أن أسخر منك، بالعكس، أنا أعرب لك عن شكري دامعة العينين وأعبّر لك عن كامل تقديري لسلوكك». وجاء إليَّ زوجها أيضاً، وتبعه سائر المدعوين وكادوا يقبّلونني جميعاً. اجتاحني الفرح. ولاحظت، بصورة خاصة، بين الأشخاص الذين أظهروا لي عاطفتهم، سيداً طاعناً في السنّ، اقترب هو أيضاً مني، وكنت أعرف اسمه لكنني لم ألتقه أبداً، وقبل ذلك المساء لم أتبادل وإياه كلمة واحدة.

د ـ الزائر الخفيّ

كان موظفاً في مدينتنا يشغل وظيفة جيدة، ويحترمه الجميع. كان غنياً اشتهر بأعمال الخير، وقدّم مساعدة لمأوى الأيتام. وكما كان، يساعد الفقراء سرّاً، ولم يُعرف ذلك إلا بعد موته. كان في الخمسين من العمر، قليل الكلام، قاسي المظهر؛ متزوجاً منذ عشر سنوات، وما تزال امرأته شابة وله منها ثلاثة أولاد صغار. مساء ذلك اليوم الذي جرى فيه الحديث، كنت في منزلي فإذا بالباب يُفتح فجأة لأرى الرجل يدخل عليّ.

تذكرت أنني قد غيَّرت مسكني الأول. واستأجرت غرفة في منزل امرأة عجوز، أرملة أحد الموظفين، كانت خادمتها تقوم بخدمتي. تركت منزلي القديم يوم المبارزة بالذات، وما إن عدت في الصباح، حتى صرفت

أفاناسي وأرسلته إلى الثكنة لأنني أصبحت أشعر بالخجل وأنا أنظر إليه بعد الذي حدث بيننا. إن هذا الرجل يمكن أن يحمرَّ خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها احتراماً.

قال لي الرجل الذي دخل الآن: «أنا أستمع إليك منذ عدة أيام في منازل عديدة، باهتمام بالغ، وإنني أودّ أن أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل. فهل تتكرّم عليّ، يا سيدي العزيز، بهذه الخدمة الكبيرة؟» طبعاً. أجبته. «ذلك يسرني كثيراً وأعتبره شرفاً كبيراً لي». قلت له ذلك وشعرت بشيء من الخوف. لقد أوحى إليّ هذا الرجل خوفاً شديداً. صحيح أنني كنت قد اعتدت أن يكون لي مستمعون كثيرون، وأن هؤلاء المستمعين كانوا، في غالب الأحيان، يستمعون إلى كلامي باهتمام، ولكن ما من أحد منهم واجهني، حتى ذلك الوقت، بهيئة من الجدّ. أضف إلى ذلك، أن الرجل قد جاء إلى منزلي بنفسه. وجلس. قال لي: «لقد تبيّنت فيك قوة خلقية كبيرة لأنك لم تخشَ أن تخدم الحقيقة في ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع». فأجبته: «ربّما تقدرني فوق قدري في هذه المسألة». فأجاب: «لا. إن القيام بعمل كهذا أصعب مما تظن». وتابع يقول: «وهذا ما أثَّر في نفسي تأثيراً قوياً، ودفعني إلى زيارتك. أودّ أن أسألك أن تصف لي ـ إن لم تر ذلك فضولاً مني ـ ما شعرت به لحظة قررت أن تعتذر إليه على أرض المبارزة إذا كنت تتذكر مشاعرك. أرجو ألّا تعتبر سؤالي هذا طيشاً مني، فهناك أسباب خفية تدفعني إلى طرح هذا السؤال عليك، وسوف أشرح لك الأسباب، إذا أراد الله أن يقرب بيننا.

كنت وهو يتكلم، أنظر إليه مباشرة في أعماق عينيه، بانتباه شديد، فأحسست فجأة باطمئنان إليه وثقة به مطلقة؛ ربما لأنني شعرت أن في حياته سراً.

ـ قبل أن أصف شعوري أثناء اعتذاري إلى خصمي، أعتقد سأروي لك

كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية، وهذا ما لم أخبره لأحد. وأخبرته كيف ركعت أمام أفاناسي، وقلت: «بإمكانك أن تعرف بعد هذا سهولة موقفي في لحظة المبارزة، لأن الإحساس بالحقيقة وأنا في منزلي، دفعني إلى أن أتابع هذا الطريق. وسلوكي بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفني أيّ عناء فحسب، بل كان مصحوباً بإحساس من السعادة والفرح». أصغى الرجل إلى كلامي بمودة كبيرة وحب كبير. قال:

ـ «هذا الأمر شائق جداً. وسنتحدث مجدداً بهذا الموضوع».

ومنذ ذلك الوقت، أصبح يأتي إليّ كل مساء تقريباً. لكن الصداقة بيننا لم تتوثق لأنه لم يُفضِ إليَّ بشيء عن حياته بل كان يسألني فقط عن حياتي أنا. ومع ذلك، أحببته جداً، وفتحت له قلبي، قائلاً لنفسي إنني لست في حاجة أبداً إلى معرفة سرّه، وحسبي أن أعلم أنه رجل صادق. وأرضاني أن أرى رجلاً أكبر مني سناً، لا يحتقر شاباً مثلي، بل يأتي إليه في منزله... وتعلّمت منه أشياء مفيدة كثيرة، لأنه كان رجلاً يتمتع بكثير من الذكاء.

ـ «أما أنّ الحياة جنّة فذاك ما أفكّر فيه منذ زمن طويل». قال لي فجأة ذات يوم. وأضاف: «أنا لا أفكر إلا في هذا الأمر». ونظر إليَّ وابتسم. «حتى إنني أكثر اقتناعاً منك بذلك لأسباب سوف تعرفها فيما بعد». وقدَّرت وأنا أستمع إليه أنه ربما كان يريد أن يفضي إليَّ ببعض أسراره. واستأنف كلامه: «كلّ منا يحمل في نفسه جنّة مدفونة، وهذه الجنة قائمة في نفسي وإن تكن مخفية. حسبي أن أريد حتى أجعلها تنبجس منذ الغد فأحتفظ بها طوال حياتي». نظرت إليه. كان يتكلم بحماسة، وفي نظرته إليَّ ما يشبه أن يكون سؤالاً عجيباً. ثم تابع يقول: «صحيح أن كل إنسان يرتكب كل الذنوب في حق كل الناس، هذا عدا خطاياه الشخصية؛ تلك حقيقة عبَّرت عنها، ولا يسعني إلا أن أندهش أنك استطعت أن تكشفها كاملة، ودفعة واحدة. ومن

المحقق أن ملكوت السماوات سيكون واقعاً لا حلماً فحسب في اليوم الذي يُدرك الناس هذه الحقيقة». فقلت بمرارة: «متى سيحدث هذا؟ هل سيأتي ذلك اليوم حقاً؟ أليس ذلك حلماً؟ أنت لا تؤمن بهذا إذن؟ أتبشّر بالحقيقة ولا تؤمن بها؟ إعلم أن ما تسمّيه أملاً سوف يتحقق بدون شك. كن واثقاً. لكن هذا لن يتحقق اليوم لأن لكل فعل توقيته في الزمن بحكم قوانينه. لا بدَّ أن تتغير البشرية نفسياً وأخلاقياً. لن يكون ممكناً أن يتغيَّر العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة ويتجهوا في طريق جديد. لن يكون في العالم أخوَّة ما لم يشعر البشر بأنهم إخوة حقاً. لن يستطيع البشر، في يوم من الأيام، أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل إذا لم يستوحوا إلا مصالحهم. سيجد كل واحد منهم نصيبه أصغر مما يستحق. وسوف يسود الحسد والحقد فيدفعان البشر إلى أن يفني بعضهم بعضاً. تسألني متى يتحقق ملكوت السماوات على الأرض، أعرف أنه ذات يوم، ولكن ليس قبل انتهاء «عهد العزلة».

ـ عن أيّ عزلة تتكلم؟ سألته.

ـ العزلة التي نراها في جميع الميادين، لا سيما في عصرنا هذا، فعهدها لم ينته بعد، ولم يصل إلى ذروته لأن كل إنسان يجهد لكي يتذوق الحياة كاملةً، ساعياً إلى السعادة الفردية. ولكن هذه الجهود لن تؤدي إلى تذوق الحياة كاملة، ولا إلى فناء النفس بشكل كامل، ولا تؤدي إلا إلى نوع من الانتحار الروحي بعزلة خانقة. لقد أصبح المجتمع أفراداً يعيش كل منهم في جحره كوحش ويهرب بعضهم من بعض، لكي يخبئوا ثرواتهم بعضهم بعضاً. وهذا يؤدي إلى أن يكره بعضهم بعضاً، وإلى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضاً. فالإنسان يكدس الخيرات في العزلة، ويعتقد أن القوة تضمن الحياة. إنه لا يرى، لحماقته، أنه كلما أوغل في التكديس كان يغوص في عجز مميت. ذلك أنه يعتاد ألّا يعتمد إلا على نفسه، ويفقد إيمانه بالتعاون وينسى في عزلته

القوانين التي تحكم البشرية فعلاً، وينتهي إلى أن يرتعد كل يوم خشيةً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء. لقد غاب عن البشر كلياً، في أيامنا هذه، أن الأمن الحقيقي في الحياة لا يتحقق بالعزلة بل باتحاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية. سينتهي حتماً عهد العزلة الرهيب في يوم من الأيام، وسيدرك البشر، فجأة، مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية وسوف تهبّ على البشرية نفحة جديدة فتتساءل مدهوشة يومئذ كيف تمكنت أن تعيش طوال هذه المدة في الظلمات لا ترى النور؟ عندئذ سوف تظهر إشارة ابن الإنسان في السماوات(*)... إنما المهمّ أن نحافظ على شعلته إلى أن يأتي ذلك الحين، وأن نحاول، ولو بالقدوة الفردية، أن نخلّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون الخوف من اتهامنا بالغباء، لكي لا ندع هذا الأمل العظيم يموت...».

هكذا كنا نقضي مساءاتنا، في أحاديث حماسية من هذا النوع. وأهملتُ العلاقات الاجتماعية ولم أعد ألبّي الدعوات إلا نادراً. وبدأت الحماسة لنفسي تتراجع. لقد بطلت موضتي، والموضة تلعب في المجتمع دوراً كبيراً. أما زائري العجيب فقد أصبحت أكنّ له، مع مرور الزمن، إعجاباً حقيقياً، وكنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية، وأشعر أنه يحضّر مشروعاً سرّياً أو يتهيأ لعمل روحي كبير. ولعلّه قدَّر فيَّ أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولاً في سرّه، فإنني لم أحاول، لا بشكل مباشر أو غير مباشر، أن أستدرجه إلى حيث يبوح إليَّ بشيء من أمره. ولكنني لاحظت أخيراً أن سرَّه يثقل صدره، ويحترق شوقاً إلى أن يفتح لي قلبه، أو ذلك ما شعرت به بوضوح بعد شهر. وقد سألني، ذات يوم، بعد بدء زيارته: «هل تعرف أن الناس في المدينة كلها يثرثرون

(*) متى، I، ٢٤ – ٣٠.

كثيراً عنا ويدهشون لزياراتي المتكررة لك؟ لا بأس. سيتضح كل شيء عما قريب». وكان يتفق له أحياناً أن ينتابه فجأة اضطراب شديد، وكان في مثل تلك الحالات ينهض غالباً لينصرف. وفي مناسبات أخرى يطيل التحديق إليَّ ويلقي عليّ نظرات نافذة، فأقول لنفسي عندئذ: «سيقول لي شيئاً ما». لكنه يغيّر الحديث فجأة ويتطرق إلى مواضيع بدون قيمة أو يقول أشياء معادة. وكان قد بدأ يشكو من صداع غالب الأحيان. وذات يوم، بعد أن تكلم بكثير من الحماسة رأيته يصفرّ، فجأة، ويتقلّص وجهه، وينظر إليّ متفرساً. قلت له قلقاً:

ـ ماذا بك؟ هل أنت مريض؟ لأنه كان قد شكا من صداع. فقال؟

ـ أنا... هل تعلم... لقد قتلت إنساناً.

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة، لكن وجهه كان قد اصطبغ بزرقة تميل إلى سواد. «لماذا يبتسم؟». لمع هذا السؤال في ذهني ونفذ إلى قلبي قبل أن يتسع وقتي لأجيب. ولكن وجهي أيضاً شحب لونه.

ـ ماذا تعني؟ سألته.

ـ ها أنت ترى كم كلّفني هذا الاعتراف الأول من عناء! أجابني وهو يتبسم ابتسامة ذابلة. لقد تمَّ الاعتراف الآن وستكون متابعته أسهل... أريد أن أتابع...

بقيت مدة طويلة لا أصدق ما كان يقوله لي. ولم أستطع أن أصدق إلا شيئاً قليلاً، بعد أن رجع إليّ ثلاثة أيام متتالية، وروى لي القصة بجميع تفاصيلها، ظننته، في أول الأمر مجنوناً ثم عرفت الحقيقة أخيراً بألم ودهشة كبيرة. لقد ارتكب، بالفعل، جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاماً: قتل امرأة شابة غنية وجميلة جداً، أرملة رجل من الملّاكين العقاريين. وكانت تملك في مدينتنا قصراً خاصاً تقيم فيه. افتتن بها افتتاناً شديداً، وصارحها، ذات يوم، بحبّه وطلب خطبتها. لكنها كانت تحب رجلاً آخر، ضابطاً في الجيش ذا رتبة عالية، وواسع الشهرة، كان يومذاك في الريف وعليها أن تلحق به قريباً.

لذلك رفضت هذا العرض ورجت ألّا يزورها بعد ذلك اليوم. وعندما صرفته بهذه الخشونة، وأصبح متعذراً أن يزورها، تسلل ذات ليلة إلى منزلها الذي كان يعرف ترتيبه، ماراً بالحديقة والسطح بجرأة مدهشة، معرضاً نفسه لأن يُكتشف، كما يحدث غالباً في الجرائم الجريئة، فدخل إلى منزلها من كوة في الشونة ونزل السلَّم الذي يؤدي من الشونة إلى شقة السيدة. كان يعرف أن الباب الذي يوجد في أسفل السلَّم يبقى غير مقفل، غالب الأحيان، بسبب الإهمال. وعلى هذا كان يعوّل، وكان الباب مفتوحاً. دخل إلى الشقة واتجه في العتمة إلى غرفة النوم التي كان يشتعل فيها سراج. وشاءت الصدفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء دون أن تستأذناها لحضور حفلة صغيرة تقيمها لهما صديقة لهما بمناسبة عيد ميلادها وتسكن بالقرب من المنزل. أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون في الملحقات في الحديقة أو في المطبخ في الطابق الأسفل. وعندما رأى المرأة الشابة نائمة استعر حبّه، فإذا بغيرة حانقة عطشى إلى الانتقام تشبّ في قلبه فاقترب من السيدة كالسكران، وأغمد في قلبها خنجراً وهو لا يدرك ماذا يفعل؛ ولم يتسع لها الوقت لإطلاق صرخة. ثم رتَّب أموره بدهاء إجرامي لكي تقع كل الشبهات على الخدم: لم يأخذ المحفظة، بل فتح أدراج صندوقها مستعيناً بمفاتيح وجدها تحت وسادتها. فاختار من محتويات الأدراج أشياء هي ما يمكن أن يسرقه خادم غبي. لم يمدّ يده إلى السندات والأوراق التي لها قيمة كبيرة بل سرق المال والحلى الذهبية كبيرة الحجم، متخلياً عن التحف التي يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية عشر مرات. وسرق كذلك بعض الأشياء التذكارية التي سنتحدث عنها فيما بعد. ولما أنجز جريمته على هذا الشكل، خرج من المنزل كما دخل. ولم يخطر ببال أحد إطلاقاً، لا في الغد حين اكتشفت الجريمة ولا في أيّ لحظة من حياته أن يكون هو المجرم. لم يكن أحد على علم بحبّه لأنه

كان سكوتاً وقليل الكلام ولم يكن له صديق يفتح له قلبه. كان الناس يعتبرونه صديقاً للضحية، حتى أنهم لا يعتبرونه صديقاً حميماً لأنهم لم يروه في منزلها خلال الأسابيع الأخيرة. وانصبّت الشبهات على خادم قنّ اسمه بيوتر وكانت جميع الدلائل تشير إليه وتتّهمه لأن هذا الخادم يعرف أن مولاته ـ التي لم تكن تخفي ما عقدت نيتها عليه ـ تريد أن تضعه في قائمة الفلاحين الذين ستقدّمهم للجيش، أولاً لأنه عازب وثانياً لأنه ذو سلوك سيِّئ. وقد سمعه الناس في إحدى الخمارات وهو سكران من الغضب، يهددها بالقتل. وقبل موتها بيومين هرب وعاش مختبئاً في المدينة، ووُجد على الطريق خارج المدينة فاقد الوعي من فرط السكر وفي جيبه سكين وراحة يده اليمنى ملطخة بالدم. وقد أكد بأنه نزف من أنفه، ولكن أحداً لم يصدقه. واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً، واعترفتا بأنهما تركتا باب المدخل مفتوحاً عن سهوٍ. وجاءت دلائل أخرى تؤيد قرائن الاتهام هذه، فاعتُقل الخادم البريء، وأودع السجن. لكن إصابته بحمى حارة، أعفته من المثول أمام القضاء لأنه مات في المستشفى قبل أن يستعيد وعيه. وأُغلق التحقيق ولم يبق إلا تسليم الأمر لله. وظلّ جميع الناس ـ القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع في المدينة ـ مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى. وعندئذ بدأ العقاب.

وقد أسرَّ إليّ زائري الخفيّ بعد أن أصبح صديقي، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الفترة الأولى. لكنه تألم زمناً طويلاً، وكان ألمه حسرة على أنه قتل المرأة التي يحبها. وكانت نار الحب لا تزال تستعر في دمه. أما أنه سفح دماً وقتل إنساناً فذلك أمر لم يزعجه كثيراً. كان إذا تصوّر أن تلك المرأة يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصوّر. ولهذا السبب كان متأكداً أنه يستحيل عليه أن يتصرف بشكل آخر. وقد هزَّه اعتقال الخادم في أول

الأمر، ولكن مرض المتّهم ووفاته لم يلبثا أن ردّا إليه هدوءه وطمأنينته، إذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية بل مات بسبب المرض الذي أصابه أثناء هروبه، عندما قضى نهاراً كاملاً على الأرض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أما المال والأشياء المسروقة فلم يأبه لها أبداً لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً للشكوك. ثم إن قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً، وسرعان ما تبرع لمأوى الفقراء الذي أنشىء في المدينة في الفترة الأخيرة بمبلغ يساوي قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً، وقد فعل ذلك ليهدىء ضميره في موضوع السرقة. ومن الغريب أنه تمكن أن يهدئه بالفعل خلال مدة طويلة من الزمن كما قال لي هو ذلك. وراح يزاول نشاط مهنته باندفاع قوي فغرق في هذا النشاط واستطاع أن يحصل على أن يُعهد إليه بمهمة صعبة ومتعبة شغلته مدة سنتين. ولما كان رجلاً نشيطاً فقد تمكّن أن ينسى ما حدث بشكل شبه كامل. وإذا راودته ذكراها يبادر إلى طرد هذه الذكرى. وانصرف أيضاً إلى أعمال الإحسان فدعم وأنشأ أعمالاً خيرية في مدينتنا وذاعت شهرته في العواصم فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية في موسكو وسان بطرسبرغ. ولكن، رغم كل شيء، بدأ يتساءل بألم لا يحتمل. وتعرَّف في تلك الفترة إلى امرأة شابة جميلة وذكية فتزوجها آملاً أن يستطيع بزواجه أن يطرد كآبته ويبدد قلقه. وكان يقول لنفسه إنه إذا دخل حياة جديدة وقام بنشاط بواجباته نحو زوجته وأولاده الذين سوف ينجبهم منها، فإنه سيتمكن من التخلّص من شبح الماضي الذي يحاصره. لكن ما كان يتوقعه لم يتحقق بل تحقق نقيضه. فمنذ الشهر الأول على زواجه شعر بهذه الفكرة تعذّبه وتقضّ مضجعه: «صحيح أن زوجتي تحبني، ولكن، ماذا لو عرفت الحقيقة؟». وعندما أسرّت إليه، للمرة الأولى، أنها ستصبح أمّاً اضطرب وقال لنفسه: «أأهب الحياة أنا الذي قتلت؟».

ثم لما كبر أولاده، صارت تلازمه أسئلة أخرى: «كيف أجرؤ أن أحبَّهم وأربيهم وأنشئهم وكيف يمكنني أن أكلمهم عن الفضيلة وأنا ارتكبت جريمة قتل؟». كان أولاده رائعين فإذا اشتهى أن يقبّلهم يقول لنفسه: «أنا لا أستطيع أن أتأمل وجوههم المضيئة البريئة. أنا لست جديراً بذلك». وأخيراً ظهر أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها، ظهر وعيداً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب به إلى الانتقام! وأصبحت توافيه في الليل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة. واستطاع بفضل قوة طبعه أن يحتمل هذا العذاب مدة طويلة قائلاً لنفسه إنه «سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته». لكن أمله هذا ذهب سدى. فالقلق الداخلي استمر يتفاقم. والناس في المجتمع يحترمونه تقديراً لأعماله الخيرية، مع تهيبهم قسوة طبعه وانكماش نفسه. لكنه كان يزداد شعوراً بالإرهاق كلما ازداد شعوراً باحترام الناس له. واعترف لي بأنه فكَّر في الانتحار. لكن قراراً آخر بدأ ينضج في نفسه. بدا في أول الأمر حلماً ولكنه ما زال يستولي على وجدانه ويترسخ في ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره. كان يحلم بأنه: «يجب أن يسلّم نفسه للقضاء ويعترف بجريمته، يجب أن يتَّهم نفسه أمام جميع الناس بأنه قاتل». وبقي ثلاث سنوات يحمل في خياله هذا الحلم، هذه الرؤيا التي تعاوده في أشكال مختلفة. وانتهى إلى الاقتناع بأنه سيشفي روحه ويسترد أمنه الداخلي إلى الأبد إذا هو اعترف بجريمته. لكن ما إن تأصَّل هذا الاقتناع لديه حتى اجتاح الرعب قلبه، فصار يقول لنفسه: «كيف أفعل مثل هذا؟» وفي ذلك الوقت وقعت المبارزة. «عندما نظرت إليك وجدت في نفسي القوة على أن أتخذ قراري. نظرت إليه.

وصحت وأنا أرفع ذراعيَّ إلى السماء: «هل يمكن أن يكون حادث بسيط كهذا الحادث قد ولَّد في نفسك مثل هذا القرار؟».

فأجابني: «إن قراري قد نضج في رأسي خلال ثلاث سنوات، ساعدت

مبارزتك على إخراجه إلى النور. فقد خجلت من ضعفي وحسدتك. قال بلهجة شبه قاسية. فقلت:

ـ لكن أحداً لن يصدّقك بعد أربعة عشر عاماً.

ـ لديَّ براهين، براهين رهيبة.

هنا بكيت وعانقته.

ـ إشرح لي سؤالاً، سؤالاً واحداً! قال لي. (وكأن كل شيء يتعلق بي أنا). ما الذي سيحدث لزوجتي وأولادي! قد تموت زوجتي من الحزن، وأولادي لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم، ولكنهم سيظلون أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة. وأيّ ذكرى، أيّ ذكرى سأتركها في قلوبهم!

سكت.

ـ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم إلى الأبد!

لم أجب بشيء، وكنت أتلو صلاة خرساء، وأخيراً، نهضت وقد اجتاحني الخوف.

ـ ماذا؟ قال وهو ينظر إليّ.

قلت.

ـ إذهب وبلّغ جميع الناس! كل شيء سيزول وتبقى الحقيقة وحدها. وسيعرف أولادك عندما يكبرون مدى ما احتجت إليه من شجاعة في سبيل اتخاذ قرارك.

تركني في ذلك اليوم وكأنه قرر أن يعترف حقاً. ولكن بقي خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك، يأتي إليَّ كل مساء تقريباً، ويستعد دائماً لتحقيق قراره، ومتى أقبل الغد جبُن في آخر لحظة عن تحقيق عزمه. وكان، أحياناً، يجيئني ثابت العزيمة، ويقول لي بحنان:

ـ أنا أعرف أنني سأدرك الجنة متى اعترفت بجريمتي. لقد عشت أربعة عشر عاماً في الجحيم. أريد أن أتألم. سأقبل المحنة وأستأنف العيش. فالكذب لا يؤدي إلا إلى الظلمات وهو يسدّ الطريق نحو النور إلى الأبد. أنا الآن لا أجرؤ أن أحب حتى أولادي فكيف بالآخرين، سيفهم أولادي، يا إلهي! سيفهمون ما عانيت من عذاب ولن يدينوني. وليس الرب في القوة بل في العدل.

ـ سيفهم الجميع القرار الذي اتخذته. قلت له. سوف يستحسنونه جميعاً، إن لم يكن في الحال ففي المستقبل حتماً. إنك بهذا العمل تخدم العدالة، التي هي أسمى من الواقع الأرضيّ...

انصرف وقد رضيت نفسه. لكنني رأيته في الغد عائداً إليَّ فجأة، غاضباً، مصفرّ الوجه وقال لي بسخرية:

ـ كلما دخلت عليك أحسست أنك تحدِّق إلي كمن يقول لنفسه: «لم يقرر بعد». صبرك ولا تتسرّع في احتقاري. إن الأمر أصعب مما تعتقد. ومن يدري؟ فقد أتخلى عنه أخيراً! أعتقد أنك لن تشي بي!

وأنا لم أكن أحدق إليه مستطلعاً بفضولية، فكنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر إليه. كانت هذه المأساة تضنيني، وكانت نفسي حزينة حتى إنني لم أنم الليل أبداً.

قال ذات يوم عندما وصل إليَّ:

ـ جئت من عند زوجتي. هل تعرف ما معنى زوجة؟ لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل: «وداعاً، عد بسرعة يا بابا لنقرأ معاً في كتاب الأطفال». لا. لا تستطيع أن تفهم هذا! إن شقاء الآخرين لا يعلّم.

وسطعت عيناه وارتجفت شفتاه ثم ضرب الطاولة فجأة بقبضة يده ضربة

بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها كادت تقع. للمرة الأولى يحدث له هذا الأمر هو الرجل الوديع.

ـ هل هذا ضروري فعلاً؟ قال. هل هو ضروري؟ لِمَ هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحد بسبب جريمتي، ولم يرسل بريء إلى السجن بدلاً مني، وقد مات ذلك الخادم. أما الدم الذي سفحته فأنا أكفّر عنه بآلامي. ثم إنهم لن يصدّقوني، ولن يصدّقوا الأدلة التي يمكن أن أقدمها. هل يجب أن أصرّح بذلك؟ إنني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من ذلك الدم المسفوح، لكن لن أجرّ زوجتي وأولادي معي إلى الشقاء. هل من العدل أن أضيعهم معي؟ ألا ترى أننا قد ضللنا الطريق الصحيح؟ أين الحقيقة؟ هل هؤلاء الناس جميعاً يعرفون الحقيقة ويقدرونها كما ينبغي أن تُقدّر؟

قلت في نفسي: «يا إلهي! إنه مهتمّ بالناس في مثل هذه اللحظة!» وشعرت، إذ ذاك، بشفقة شديدة عليه جعلتني مستعداً لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف من عذابه. لقد تغيَّرت هيئته بشكل رهيب. وما كان أشدَّ دهشتي عندما أدركت، ليس بعقلي في هذه المرة، بل بروحي وقلبي، ما كلَّفه مثل هذا القرار.

ـ قرّرْ مصيري. صاح بي مجدداً.

ـ سلّم نفسك للقضاء! أجبته بهمس. وكان صوتي خفيفاً لكنني كنت حازماً. ثم تناولت الإنجيل ـ في ترجمته الروسية ـ وأشرت إلى هذه الفقرة من إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٢، الآية ٢٤:

«الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إن لم تقع حبّة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت فتأتي بثمار كثيرة». وكنت قد قرأت هذه الآية قبل زيارته.

قرأها:

ـ هذه هي الحقيقة، قال لي، ولكن مع ابتسامة مرة ثم أضاف بعد لحظة صمت: «رهيب ما يجد المرء في هذه الكتب! ما أسهل أن يوضع تحت أنفك مثل هذا الكلام! من الذي كتب هذا كلّه؟ هل يمكن أن يكونوا بشراً؟

ـ نعم. كتبوه بوحي من الروح القدس. قلت له.

ـ من السهل عليك أن تتكلم. قال لي هذه المرة فيما يشبه الحقد. فتناولت الكتاب وفتحته على موضع آخر، وأريته الآية ٣١ من الاصحاح ١٠ «رسالة إلى العبرانيين». فقرأ: «مخيف هو الوقوع بين يديْ الله الحيّ».

قرأ، ثم رمى الكتاب. وبدأ جسمه كله يرتجف.

ـ هذه آية رهيبة. قال لي. أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها. ونهض عن كرسيّه.

ـ حسناً، الوداع، ربما لن أعود أبداً... سنلتقي في الجنة. إذن، «وقعت بين يديّ الرب الحيّ» مدة أربعة عشر عاماً. يبدو أن عليّ أن أسمّي هذه الأربعة عشر عاماً هكذا. غداً سأتوسل إلى تينك اليدين أن تحرراني...

اجتاحتني رغبة في تقبيله، ولكنني لم أجرؤ ـ كان وجهه منقبضاً ونظرته ثقيلة. وتساءلت: «يا إلهي، أين يذهب الآن!» وارتميت راكعاً أمام الإيقونة. صلّيت باكياً لأمّ الله التي تسرع إلى الحماية. انقضى نصف ساعة دون أن أتوقف عن الصلاة والبكاء. أوشك الليل أن ينتصف، وإذ باب الغرفة يُفتح، فجأة، وهذا صاحبي يدخل من جديد. أذهلتني رؤيته.

ـ من أين جئت؟ سألته.

ـ أنا... قال لي. أظن أنني نسيت عندك شيئاً... هو منديل في أغلب الظنّ... وإن لم أنسَ شيئاً، ناولني كرسياً...

جلس وبقيت أنا واقفاً بالقرب منه.

ـ اجلس أنت أيضاً. قال لي. جلست وبقينا على هذه الحال دقيقتين.

كان يحدّق إليّ، وفجأة ضحك ضحكة قصيرة، أتذكَّر ذلك جيداً، ثم نهض وضمّني بين ذراعيه بقوة وقبّلني...

ـ تذكّر أنني جئت إليك للمرة الثانية. قال لي. هل تسمعني، هل تذكر ذلك!

للمرة الأولى يخاطبني بصيغة «المفرد» ثم خرج. قلت لنفسي: «غداً». هذا ما حدث. كنت أجهل في ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده. أنا لا أخرج منذ فترة إلا نادراً فلم يذكر لي أحد ذلك. كان يقيم في كل سنة حفلة كبيرة في منزله يدعو إليها كل أبناء المجتمع الراقي من أهل المدينة، وفي هذه المرة أيضاً. وبعد العشاء، تقدَّم إلى وسط الصالة ممسكاً بيده ورقة ـ كتب عليها تصريحاً رسمياً موجهاً إلى رؤسائه. كان رؤساؤه حاضرين. قرأ تصريحه بصوت عال ذاكراً كل تفاصيل جريمته. وختم قراءته قائلاً:

ـ وكمثل وحشٍ قررت أن أسلخ نفسي من المجتمع. لقد زارني الله. أريد أن أتألم. ثم وضع على المنضدة كل الأدلة المتعلقة بجريمته التي احتفظ بها خلال أربعة عشر عاماً: الحلى الذهبيّة التي سرقها تمويهاً للشبهات، والصليب والميدالية التي تضم صورة خطيبها، ودفتراً ورسالتين: رسالة من خطيبها يبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ عما قريب، والثانية، رسالة هي جواب لم تتمّ كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله إلى البريد في الغد، لماذا أخذ هاتين الرسالتين؟ ماذا كان الدافع الذي جعله يحتفظ بهما خلال أربعة عشر عاماً بهذه الأدلّة التي تتّهمه وتعرّضه للخطر بدلاً من أن يتلفها؟ إليكم ما حدث: ذُهل الحاضرون من اعترافاته، واعتراهم ذعر، ولكنهم رفضوا أن يصدّقوا هذه الاعترافات. صحيح أنهم استمعوا إليه بكثير من الانتباه والاستطلاع، ولكنهم كانوا كمن يستمع إلى إنسان مريض، وبعد بضعة أيام، أجمعت المدينة كلها على أن المسكين أصبح مجنوناً. ولم يكن في وسع رؤسائه ورجال السلطة ألّا يتابعوا

الأمر، فقد رأوا أن لا مجال لتحريك القضاء. ذلك أن الرسالتين والأشياء التي قدمها إن كانت تبعث على التفكير فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام حتى ولو ثبت أنها للضحية. فمن المحتمل أن تكون الضحية قد عهدت إليه بها كصديق. وعرفت فيما بعد، أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرّفوا على هذه الأشياء فلم يبق حول ذلك شك. لكن القضية لم تُحرّك رغم هذا، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قد أصيب بمرض وأن حياته في خطر. لا أستطيع أن أشرح ماذا كان مرضه. وتحدَّث الناس عن اضطرابات في القلب. ومهما يكن من أمر، فقد عاين الأطباء حالته العقلية أيضاً وذلك بطلب من زوجته، فانتهوا إلى أنه مصاب ببداية جنون. ولم أكشف أنا عن اعترافاته لي طبعاً، رغم أن الجميع قد حاصروني بالأسئلة. وعندما أردت أن أزوره منعوني وخاصة زوجته. قالت لي: «أنت الذي أدخلت الاضطراب والاختلال إلى عقله! كان دائماً قاتم المزاج. وأصبح اضطرابه النفسي وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ سنة، وجئت أنت فأجهزت على عقله! أنت الذي ملأت رأسه بهذه الأفكار! لا يكاد يخرج من عندك منذ شهر كامل».

ولم يكن هذا شأن زوجته وحدها، بل المدينة كلها هاجمتني، وقالوا: «حدث كل هذا بسببك».

وكنت أسكت فلا أجيب، وكنت سعيداً في أعماق نفسي. ذاك أنني أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي دان نفسه وأراد أن ينال جزاءه. إلا أنني ما كنت أصدّق جنونه. وسمحوا لي أخيراً أن أراه لأنه طلب هو ذلك لكي يودّعني. وحينما دخلت عليه أدركت، منذ اللحظة الأولى، أن ساعاته لا أيامه فقط أصبحت معدودة. كان منهكاً، أصفر الوجه، مرتجف اليدين، يتنفَّس بصعوبة، لكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء.

ـ انتصرت الحقيقة! إنني بانتظارك منذ مدة طويلة، لماذا تأخرت في المجيء؟ أخفيت عنه أنني مُنعت من رؤيته.

ـ لقد أشفق الله عليَّ فناداني إليه. أنا أعرف أنني سأموت لكنني عرفت السعادة والسلام منذ سنين طويلة، ولأول مرة. لقد وجدت الجنّة في نفسي فجأة منذ ما أنجزت ما يتوجب. والآن لا أخاف أن أحبّ أولادي وأقبّلهم. إنهم لا يصدقونني. ما من أحد صدّقني، حتى ولا زوجتي ولا قضاتي. وأولادي لا يصدّقون هذا هم أيضاً. أرى في هذا رحمة إلهية لأولادي. سوف أموت، ولكن اسمي لن يكون مدنساً بالنسبة إليهم. إنني أشعر بالله الآن وقلبي مبتهج كأنني في الجنة... لقد أنجزت واجبي...

لم يستطع أن يتابع حديثه فقد انتابه ضيق في التنفس، فشدَّ على يدي بحرارة ونظر إليّ وعيناه تلتهبان. لم نتكلم طويلاً لأن زوجته كانت تطل باستمرار إلى الغرفة. واتسع وقته، مع ذلك، لأن يتمتم:

ـ هل تتذكر عندما جئت لأراك في ذلك المساء للمرة الثانية، عند منتصف الليل؟ لقد طلبت عندئذ بأن تتذكر ذلك. فهل تعلم لماذا رجعت إليك؟ كان هدفي أن أقتلك!

ارتعشت.

ـ بعد أن تركتك في تلك الليلة، طفت في الشوارع أصارع نفسي فإذا بي أشعر فجأة بكرهٍ لك بلغ من القوة أنني أحسست أن قلبي يكاد ينفجر. قلت لنفسي: «بسببه وحده أنا مضطر إلى الاعتراف الآن. لقد أصبح قاضيَّ. ولن أستطيع أن أتخلّص من العقاب غداً لأنه يعرف كل شيء». ليس معنى هذا أنني كنت أخاف أن تشي بي (لم أفكر في هذا أبداً)، ولكنني كنت أقول لنفسي: «كيف أستطيع أن أنظر إليه بعد ذلك إذا أنا لم أسلّم نفسي للسلطات». وسيّان أن تكون في هذه المدينة أو في أقصى الأرض. أصبحت لا أستطيع أن

أتصوَّر أنك تعيش في مكان ما عالماً بأمري حاكماً عليّ مديناً إياي، فأخذت أكرهك كما لو كنت سبب كل شيء. ورجعت إليك في تلك الليلة متذكراً أن عندك على مكتبك خنجراً. وجلست. وطلبت منك أن تجلس، وفكّرت دقيقة بكاملها. بديهي أن حياتي كانت ستتحطم على أيّ حال لو قتلتك، وأنني كنت سأنتهي نهاية شقية سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لا. لكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة. كنت أكرهك وأريد أن أنتقم منك بكل قواي، لكل ما كنت قد قاسيت. وانتصر الله على الشيطان في قلبي. أعلم أن الموت لم يقترب منك في يوم من الأيام كما اقترب منك في تلك الليلة.

ومات بعد أسبوع. وشيَّعته المدينة كلها إلى القبر، وألقى الكاهن كلمات مؤثرة. وبكى الناس المرض الذي أماته. وقفت المدينة كلها ضدي، وما عادوا يستقبلوني في منازلهم. لكن عدداً منهم، وقد كانوا قلة في بادىء الأمر، ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك، قد اقتنعوا بصدق اعترافاته، فبدأوا يأتون إليّ يزعجونني بأسئلتهم عنه، ويسألون عنه بفضول وفرح، لأن الإنسان يحب أن يرى رجلاً صالحاً يتلطخ شرفه. لكنني رفضت أن أتكلَّم بعد ذلك، ثم لم ألبث أن غادرت تلك المدينة نهائياً. وبعد خمسة أشهر أنعم عليَّ الله فوجَّهني في طريق اليقين والنور. بوركت اليد الخفية التي قادتني إلى الدرب الصحيح. أما صاحبي ذاك، ميخائيل، خادم الله، فما زلت أذكره بصلاتي حتى اليوم.

III

مقتطفات من تعاليم الناسك الراهب زوسيما وأحاديثه

هـ ـ الراهب الروسيّ ودوره الممكن

يا آبائي ومعلميَّ، من هو الراهب؟ في الأوساط المثقفة ينطق بعض الناس بهذه الكلمة ساخرين، فيما البعض الآخر يعتبرها شتيمة. وكلما مرَّ الوقت ازداد هــذا الانطباع رسوخــاً. إن بين الرهبان - يجب أن أعترف بهذه الحقيقة ـ كسالى وفاجرين وفاسقين. والمثقفون من أبناء المجتمع يقولونه لهم: «أنتم كسالى لا نفع منكم تعيشون على حساب الآخرين كمتسولين لا شرف لهم». لكن ما أكثر الرهبان المتواضعين الوادعين بيننا الذين لا همّ لهم إلا الصلاة لربهم في عزلتهم الصامتة. والناس لا يكترثون لهم حتى إنهم لا يتكلمون عنهم أبداً. ويتعجب المشنّعون هؤلاء عندما يتصورون أن روسيا المقدسة سينقذها، هؤلاء الرهبان المتواضعون المتعطشون إلى العزلة والصلاة! والذين يستعدون بالصمت «لمواجهة اليوم والساعة والشهر والسنة». وحتى حلول ذلك، يحافظون في عزلتهم على صورة المسيح الجميلة، لا المشوَّهة،

في نقاوة الحقيقة الإلهية، المنقولة إليهم من آباء الكنيسة أظهروها أمام حقيقة هذا العالم المترنح. إن هذه الفكرة عظيمة. وهذه النجمة سوف تسطع ذات يوم في الشرق.

هذا هو رأيي في الراهب. فهل هذه فكرة كاذبة أو متكبرة وهذا العالم الذي يرتفع فوق شعب الرب، ألم يشوه صورة وعدالة الله. يملكون العلم، ولكن العلم يخضع إلى ما تدركه الحواس. أما العالم الروحي، العنصر الأسمى في الكائن البشري، فقد رفضوه كلياً ونبذوه شاعرين بنوع من الانتصار بل بنوع من البغض. أعلن العالم الحرية، لاسيما في أيامنا هذه، ولكن ما الذي تؤدي إليه هذه الحرية وما الذي نراه يتأكد باسمها: لا شيء إلا العبودية والانتحار! يقول الناس: «إن لك حاجات فاسعَ إلى إرضائها لأنَّ لك حقوقاً لا تقلّ عن حقوق الأغنياء والكبار. لا تخش رغباتك بل أكثر عددها». تلك هي العقيدة الحالية لهذا العالم. وفي هذا يتصور الناس الحرية. فما الذي يؤدي إليه هذا الحق المزعوم في مضاعفة المرء لرغباته؟ يؤدي لدى الأغنياء إلى العزلة والانتحار النفسي، ولدى الفقراء إلى الحسد والقتل. ذلك أن الناس قد أُعطوا حقوقاً ولكنهم لم يُعلَّموا بعد وسائل تحقيق اكتسابها ووسائل إرضاء حاجاتهم. يقول البعض إن التطور الطبيعي يقود البشرية نحو مزيد من الاتحاد؛ فإلغاء المسافات بالاكتشافات الحديثة وانتشار الفكر ينمّيان الاحساس بالأخوّة. لا تدعوا هذه الأوهام تخدعكم! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع. إذا تصوّرنا الحرية على أنها قدرة الفرد على زيادة حاجاته وإرضائها بسرعة، فإننا نشوّه طبيعة الإنسان ونثير فيه حاجات لا سبيل إلى تحقيقها، ونخلق له عادات حمقاء تافهة وأحلاماً مجنونة. لا يعيش الناس اليوم إلا في الحسد إشباعاً لشهواتهم أو إرضاءً لغرورهم. فإقامة الحفلات والخروج في النزهات، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفخمة، والظهور بالمظاهر

الخلابة وامتلاك الخدم والأقنان، كل ذلك يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها، وحاجة يضحون في سبيلها بحياتهم وشرفهم حتى ليؤثروا الانتحار على أن يتنازلوا عنها. وهذا ينطبق أيضاً على من ليسوا أغنياء. أما الفقراء فيخنقونها بالإدمان. لكن سيأتي يوم وهو قريب، يشربون فيه دماً لا خمراً. فإلى هذا يُدفعون. إني أطرح عليكم هذا السؤال: «هل مثل هذا الرجل حرّ؟ لقد عرفت في الماضي مثقفاً كان «يناضل في سبيل فكرة». وقد أخبرني هو نفسه، ذات يوم، أنه عندما منع من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون «فكرته» في سبيل التدخين. وكان هذا الرجل يقول، «سوف أناضل من أجل البشرية». هل نصدّق أن رجلاً مثل هذا يمكن أن يذهب بعيداً في بذل الجهد؟ إنه عاجز إلا عن اندفاعات موقتة وعمل مباشر أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما. فهل غريب بعد هذا أن البشر بعد أن يجدوا الحرية يقعون في العبودية، وبدلاًمن أن يخدموا الأخوَّة واتحاد البشرية يقعون في «العزلة» وفي الوحدة، كما قال لي في شبابي زائري الخفيّ وصديقي. لهذا نرى العالم اليوم في سبيل أن يفقد حسّ الاخلاص للبشرية وحسّ الوحدة البشرية والأخوّة البشرية، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير إلا السخرية. كيف يمكن للإنسان أن يتخلى عن عاداته، وماذا يمكن أن يصير إليه هذا الأسير الذي استعبدته حاجاته إذا كنا قد علَّمناه أن يرضي الحاجات التي اخترعها هو نفسه؟ وهل تعنيه الجماعة في هذه الحالة؟ ذلك ما وصل إليه البشر: كلما تكدّست الثروات كلما زال الفرح. وليس كذلك هو طريق الرهبنة. كثيراً ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة بينما هي في الواقع السبيل الوحيد إلى بلوغ الحرية الحقيقية والصحيحة. إنني عندما أتخلّى عن حاجاتي الزائدة وغير المفيدة وعندما أسيطر بالطاعة على إرادتي المزهوة والمتكبرة أرتفع، بعون الله، إلى الحرية

الروحية التي توفِّر لي الفرح الروحي! من هو الأجدر بأن يحمل هذه «الفكرة» العظيمة ويخدمها ـ الغنيّ الذي يعيش في عزلته أم هذا الإنسان الذي «تحرر» من استبداد العادات والحاجات المادية؟ إن بعض الناس يأخذون على الراهب عزلته. فهم يقولون له: «لقد اعتزلت لكي تضمن خلاصك وراء جدران الدير ونسيت الخدمة الأخوية البشرية». سوف نرى من الذي سيخدم أكثر قضية الأخوّة. إلا أنهم هم الذين يعيشون في العزلة لا نحن، ولكنهم لا يدركون ذلك. ومن صفوفنا خرج، منذ زمن بعيد، أولئك المصلحون، فلماذا لا يكون الأمر على هذا النحو اليوم؟ سوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الهادئون الذين يلتزمون الصيام والصمت، كيف يهبّون للقيام بأعمالهم العظيمة. من الشعب سيأتي خلاص روسيا. والدير الروسيّ كان إلى جانب الشعب في كل زمان. إذا كان الشعب منعزلاً فنحن أيضاً معزولون. فالشعب يؤمن كما نؤمن نحن. والمصلح الملحد عندنا في روسيا لن يعمل شيئاً أبداً، حتى ولو كان صادقاً في قلبه وكان عبقرياً. تذكروا هذا. يكتشف الملحدين ويقاتلهم. ولن يبقى عندئذ إلا روسيا متحدة وأورثوذكسية. فاحفظوا هذا الشعب إذن، وصونوا قلبه. ربُّوه في الصمت. هذه هي رسالتكم الرهبانية لأن هذا الشعب يحمل الله في نفسه.

و ـ عن الأسياد والخدم، هل يمكن أن يصبح الأسياد والخدم إخوة في الروح؟

يا إلهي! من يقول العكس، فالخطيئة موجودة أيضاً عند الشعب. وشعلة الانحلال تتوسع حتى بشكل ملحوظ ساعة بعد ساعة ومصدرها الطبقات العليا. فإذا بالصغار والفقراء يقعون في العزلة هم أيضاً. إننا نشهد ظهور

المحتكرين والمستغلين. فالتاجر يسعى، أكثر فأكثر، إلى مظاهر المجد، ويرغب أن يُعتبر مثقفاً مع أنه لا يملك أيّ ثقافة في الواقع، فيحتقر من أجل ذلك عاداته القديمة وصولاً إلى الخجل من إيمان آبائه. يعاشر الأمراء بينما هو ليس إلا فلاحاً فاسقاً. لقد أهلك إدمان الخمر الشعب الذي لا يستطيع التحرر منه. ما أشدّ قسوة حياة المرأة وحتى حياة الأطفال في العائلات الفقيرة! إن الإسراف في شرب الخمرة هو سبب ذلك. رأيت أطفالاً يعملون في المصانع وهم في العاشرة من عمرهم: هزيلون، ضعفاء، مقوَّسو الظهور، قد فسدت أخلاقهم. القاعات الخانقة الموبوء هواؤها، ضجة الآلات، العمل طوال النهار، الأحاديث البذيئة التي يسمعها الطفل، الكحول، أهذا ما يجب أن يعيشه طفل صغير؟ إنه في حاجة إلى الشمس واللعب والقدوة الحسنة وحدّ أدنى من الحب! يجب أن تنتهي هذه الحالة أيها الرهبان، وأن يتخلّص الأطفال من العذاب! اذهبوا إلى الناس وبشّروهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة. ولكن الله سوف ينقذ روسيا. لأن ابن الشعب إذا تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة فإنه يعرف، على الأقل، أن سوء سلوكه هذا يلعنه الله، وأنه يخطىء إذ ينقاد للشر. إن شعبنا لم يفقد إيمانه بالخير. إنه يؤمن بالعدالة وبالله، وهو يبكي ندماً على خطاياه. وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقي. فهؤلاء يريدون إقامة العدالة بواسطة العلم، مستلهمين العلم، مستغنين عن المسيح. حتى لقد أعلنوا، منذ الآن، بأن لا وجود للجريمة ولا للخطيئة أيضاً. إنهم من وجهة نظرهم على حق: فإذا لم يكن هنالك إله، فماذا تكون إذن الجريمة؟ في أوروبا، يثور الشعب على الأغنياء، في هذه الأيام، ويريد مواجهتهم بالقوة؛ ويقوده قادته، في كل مكان، إلى إراقة الدماء قائلين له إن غضبه عدل. لكن «غضبه ملعون لأنه قاسٍ». سوف ينقذ الله روسيا كما أنقذها مراراً في الماضي. ومن الشعب سوف يأتي الخلاص، من

إيمانه وتواضعه. فيا آبائي ومعلميَّ، صونوا روح الشعب، وهذا ليس حلماً: طالما دُهشت، أثناء حياتي كلها، مما يتمتع به شعبنا العظيم من كرامة صادقة ونبل عظيم. رأيت هذا بنفسي، وأستطيع أن أشهد عليه، لقد رأيت ودُهشت، رغم الخطايا الكثيرة والبؤس الشديد الذي يعيشه الشعب. والشعب ليس عبداً في بلادنا، بعد مئتي عام من العبودية. إنه حرّ دون أيّ شعور بالإهانة. وهو ليس حسوداً ولا حقوداً: «أنت غنيّ وأنت في مرتبة عالية وأنت ذكي وأنت صاحب موهبة ـ نعمَّ ذلك، فالله يباركك! إنني أحترمك، وإذا احترمتك دون أن أحسدك فإنني أؤكد أمامك كرامتي الإنسانية». لئن كان لا يقول هذا الكلام صراحة (لأنه لا يجيد التعبير في القول) فإن هذا الموقف النفسي يتجلّى في سلوكه. رأيت ذلك بنفسي وعانيته من خلال التجربة. صدقوني: كلما كان الإنسان الروسيّ فقيراً وصغيراً كلما رأينا فيه الحقيقة الرائعة. لأنّ الذين اغتنوا قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن، وهذا أمر نُسأل عنه نحن أنفسنا بسبب إهمالنا وضعف نشاطنا. ولكن الله سينقذ شعبه، لأن روسيا عظيمة بتواضعها. إنني أحلم بمستقبلنا فيبدو لي أحياناً أنني أراه: سيأتي يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا بالخجل من ثرواته أمام الفقير، وسيبرهن الفقير يومذاك، بعد أن يرى ندم الغنيّ ومذلّته، على حسن الفهم هو أيضاً، فيترك له خيراته فرحاً مستجيباً بالحب لهذا الخجل. صدّقوني إن هذا ما سيكون: لأن هذا ما يقودنا إليه التطور. لن تكون ثمة مساواة إلا في الشعور بكرامة الإنسان الروحية، وهذا لا نراه إلا في بلادنا. سوف تسود الأخوَّة متى أصبح البشر إخوة،لأنه لا أخوّة من دون قسمة عادلة. فلنحتفظ بصورة المسيح حتى تسطع على العالم بأسره درةً تشع ضياء... آمين، آمين.

يا آبائي ومعلميّ، عانيت ذات يوم تجربة مؤثرة. عندما كنت أجوب البلاد، التقيت في مدينة كه، خادمي الجندي أفاناسي الذي لم أكن قد رأيته بعد

أن طردته منذ ثماني سنوات.. رآني صدفةً في السوق فعرفني فهرع إليّ وقد كان مسروراً. أهذا أنت يا سيدي، هذا أنت؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت؟ واصطحبني إلى منزله. كان يعيش مع زوجته من تجارة صغيرة على بسطةٍ في السوق. إن مسكنه ضيق فقير ولكنه نظيف وملؤه الفرح. فلما أجلسني، حضَّر السماور واستدعى زوجته كأن زيارتي عيد له، وقدَّم إليّ ولديه قائلاً: «باركهما يا أبتي». فأجبته: «أأنا من يباركهما؟ أنا راهب متواضع وبسيط. سأصلّي إلى الله من أجلهما، ومن أجلك أنت يا أفاناسي بافلوفتش، فإني ما توقفت عن الصلاة لك، منذ ذلك الحادث الذي وقع بيننا، لأن كل شيء قد بدأ يومذاك». وشرحت له ما هو الإنسان: لم يستطع أن يصدق أن سيّده القديم، الضابط، موجود الآن أمامه في مثل هذه الحالة وفي هذا الثوب. فأخذ يبكي. فسألته: «لماذا تبكي يا من لم أنسه أبداً؟ الأفضل أن تفرح لأن الطريق الذي اخترته لنفسي طريق جميل ومضيء».

لم يتكلم بل تنهَّد وهزّ رأسه وهو ينظر إليَّ بعطف. وسألني: «أين هي ثروتك؟» فأجبته: «وهبتها للدير الذي نعيش فيه حياة مشتركة».

بعد أن شربنا الشاي، أردت الانصراف، فإذا به يعطيني نصف روبل هبة للدير ويدسّ في يدي خلسةً نصف روبل آخر، ويقول لي: «هذا لك أنت، لأنك تجوب البلاد فقد ينفعك في الطريق، يا أبتي».

قبلت نصف الروبل وحييته هو وزوجته وانصرفت فرحاً، أحدّث نفسي وأنا في الطريق: «إنه مثلي، بدون شك، في هذه اللحظة، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى، هازاً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا مجدداً». ولم أره منذ ذلك اليوم. كنت سيّده وكان خادمي، ولكننا عندما تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان روحيّ أعدنا إقامة اتحاد إنسانيّ كبير فيما بيننا: «لماذا لا يكون من الممكن أن

يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة عينها في يوم ما متى آن الأوان؟» أعتقد أن هذا الاتحاد سوف يتمّ وأن تحقيقه لقريب.

وإني أضيف ما يلي في موضوع الخدم: كنت في السابق، وأنا شاب، أغضب على الخدم: «سكبت الطباخة الحساء ساخناً، لم ينظف الخادم ثيابي». وقد تأثرت فجأة من فكرة أخي الحبيب، التي سمعتها في طفولتي: «هل أستحق بأن يخدمني إنسان؟ وهل يحق لي أن أعتبره أدنى مني لأنه فقير وجاهل؟». وقد أدهشني ألا تعرض الأفكار البسيطة جداً والواضحة لعقولنا إلا ببطء. إن الحياة، مستحيلة من دون سادة وخدم. وأقلّ ما علينا هو أن نشعر خدمنا بأن خدمتهم إيانا لا تنقص حرّيتهم. لماذا لا أخدم خادمي؟ ولماذا أتكبر عليه؟ لماذا لا يستطيع خادمي أن يكون قريباً لي، ولا أستقبله في عائلتي وأن أكون سعيداً بذلك؟ يمكن اتخاذ هذا الموقف منذ الآن، ويمكن أن يكون قاعدة للاتحاد العظيم الذي سوف يتحقق بين الناس في المستقبل، يوم يشعر الإنسان أنه ليس في حاجة إلى خدم ويحاول أن لا يصبح أقرانه البشر خدماً كما يفعل اليوم، بل بالعكس، يجهد بكل قواه إلى أن يكون خادماً لجميع الناس وفقاً للإنجيل. إنه ليس حلماً أن نرى الإنسان أخيراً ينشد لذته في السموّ وممارسة المحبة وليس في الملذات المتوحشة كما هي الحالة اليوم ـ في النهم والفجور وحبّ الظهور والتكبر وفي ذلك الظمأ الحاسد إلى الارتفاع فوق الآخر؟ وأنَّ هذا الزمن أصبح وشيكاً. يسخرون ويسألون: «متى يأتي إذن هذا الزمن، وهل ثمة شيء يحمل على الاعتقاد بأنه سوف يأتي؟». إنني أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم مع المسيح. ما أكثر الأفكار التي بدت في تاريخ الناس مستحيلة التحقيق، والتي اعتُبرت قبل عشر سنوات أفكاراً حمقاء، ثم انتصرت، فجأة، على الأرض كلها؟ لأنّ ساعة تحقُّقها قد دقّت وكانت خافية! ذلك ما سيحصل في بلادنا، وسيشرق نور شعبنا على

العالم كله، وسيهتف جميع البشر قائلين: «إن الحجر الذي رماه البناؤون قد أصبح حجر الزاوية». أما الذين يسخرون، فإننا نستطيع أن نسألهم: «إذا كانت جميع أشواقنا حلماً فهل قلتم لنا متى تشيدون بناءكم وتنظمون أنفسكم على العدل بواسطة فكركم وحده وبدون المسيح؟» قد يؤكدون أنهم هم الذين سوف يقيمون الوحدة، ولكن السذَّج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام حتى ليمكن أن يُدهش المرء من سذاجتهم. في الحقيقة، إن تصوُّر حلمهم هو أقوى من تصوّرنا. هم يفكرون في إقامة العدل، لكنهم، وقد رفضوا المسيح، سوف ينتهي الأمر بهم إلى إغراق العالم في الدم، لأنّ الدم يستدعي الدم، ومن شهر السيف بالسيف يُهلك. إذا لم نؤمن بوعد المسيح سيبيد البشر بعضهم بعضاً إلى آخر إنسان ولا يبقى إلا اثنان على الأرض. وحتى هذان الاثنان الأخيران سيكونان عاجزين من غطرستهما عن ضبط نفسيهما، فإذا بالأخير يقتل قبل الأخير، ثم يقتل نفسه. ذلك ما سيحدث بدون وعد المسيح بوقف المذبحة باسم بالمتواضعين والأنقياء. عندما كنت ضابطاً، وبعد المبارزة، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم، فكانوا يُدهشون من كلامي كما أذكر: «ماذا يتوجب علينا أن نفعل؟ أن ندعو الخدم إلى الجلوس على أريكة، ونقدم إليهم الشاي؟» وقد أجبت: «ولمَ لا، ولو من حين إلى آخر».

سخر الجميع مني. كان سؤالهم يدل على الخفّة. ولم يكن جوابي واضحاً جداً، ولكنني أعتقد أنه كان على جانب كبير من الحقيقة.

ز ـ عن الصلاة والحب والاتصال بالعوالم الأخرى

أيها الشاب، لا تنسَ صلواتك. في كل مرة، في صلاتك، شرط أن تكون صادقة، سينبثق شعور جديد يحمل معه فكرة جديدة لم تكن تعرفها

وستمنحك القوة مجدداً. عندئذ، ستدرك أن الصلاة مدرسة. تذكّر أيضاً: أن تردد في نفسك، كل يوم، وكلما استطعت: «أشفق يا رب على كل الذين يَمْثُلون أمامك». فالألوف من البشر يغادرون الأرض في كل ساعة، في كل لحظة، وتمْثُل أرواحهم أمام الرب. وما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم في العزلة، دون معرفة أحد، في الحزن وفي القلق، ودون أن يكون هناك من يأسف على رحيلهم، ولا يعلم غداً حتى أنهم قد عاشوا أم لا؛ فإذا بصلاتك تصعد فجأة إلى الرب من الطرف الأقصى من العالم تدعو لراحتهم رغم أنك لم تعرفهم أبداً ولا هم يعرفونك أيضاً. سوف تتأثر هذه الروح بقوة عندما تمثل، في الخوف، أمام الرب. سوف تعرف أن أحداً يصلّي من أجلها وأنّ على الأرض إنساناً واحداً، على الأقل، يحبّها. سوف ينظر الرب إليك بمزيد من الرأفة لأنك قد أشفقت عليها، وسيكون الرب أكثر رحمة بها لأنّ حبّه أكبر من حبك وأكثر رحمة وأكثر حباً منك. سيغفر لها حباً بك.

يا إخوتي، لا تخافوا من خطيئة البشر، أحبّوا الإنسان حتى في خطيئته، فبذلك تعرفون الحب الإلهي ومجد الحب على الأرض. أحبّوا كل خلق الله، وكل ذرة في الرمل. أحبّوا كل ورقة شجرة وكل شعاع ضوء من الله! أحبّوا الحيوانات، أحبّوا النباتات، أحبّوا كل شيء. سوف تحبون كل شيء وستشعرون بسرّ الله في الأشياء، ثم ما تنفكّون تكبرون في كل يوم، فيملأ حبّكم العالم بأسره ويصبح كاملاً وشاملاً. أحبّوا البهائم: لأنّ الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع في قلبها فرحاً بريئاً. لا تعكروا هناءها، ولا تعذبوها ولا تحرموها من الفرح؛ لا تخالفوا فكرة الله. أيها الإنسان، لا تتعالَ على الحيوانات: إنها بدون خطيئة، أما أنت فإنك مع عظمتك تدنّس الأرض بوجودك وتترك أثراً نجساً حيث تمرّ ـ ذلك شأننا جميعاً، مع الأسف! أحبّوا الأطفال بصورة خاصة لأنهم بدون خطيئة، لأنهم أشبه بالملائكة، إنهم

يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا كقدوة مضيئة إلى جانبنا. ويل لمن يؤذي طفلاً! لقد علَّمني الأب أنفيم أن أحبّ الأولاد: كان هذا الراهب المتواضع، اللطيف والصموت، يشتري بالكوبيكات التي توهب لنا أثناء طوافنا، حلوى وسكاكر يوزعها على الأطفال: كان لا يستطيع أن يمرَّ أمام الأولاد دون أن تهتز نفسه. كذلك كان هذا الإنسان.

نتوقف مشدوهين أمام بعض الأفكار لاسيّما حين نرى خطيئة الناس، فنتساءل: «أيجب محاسبتهم أم نتوجّه إليهم بالحب المتواضع»؟ أجب دائماً: «سأردّ بالحب المتواضع». وعند هذا الجواب يمكنك أن تسيطر على العالم بأسره. إن الحبّ المتواضع قوة مرعبة، أقوى من كل القوى. راقب سلوكك، في كل يوم، وفي كل ساعة وفي كل لحظة، واحرص على أن تكون صورتك جميلة. قد تمرّ مثلاً أمام طفل وقد اجتاحك الغضب فتنطلق من لسانك كلمة مسيئة: ربما لم تلاحظ وجود الطفل، ولكن الطفل رآك، والصورة الخبيثة البخسة التي خلَّفتها له ستبقى في عمق ذهنه البريء. أنت لم يخطر ببالك شيء، ولكنك قد زرعت بذرة الشرّ فيه، وهذه البذرة السيئة ستنمو يوماً فتجلب له الشقاء، لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل، ولأنك توانيت في الحب اليقظ الفعال في نفسك. يا إخوتي، الحب مدرسة تُكتسب بجهد كبير وبعمل دؤوب، ذلك أن المقصود ليس أن تحب موقتاً بل أن تحب حباً مستمراً. إن كل إنسان، حتى المجرم، يمكن أن يحب بالصدفة. كان أخي الشاب يستغفر العصافير: قد يبدو هذا سخيفاً من أول نظرة، ومع ذلك، كان أخي على حق لأن كل شيء أشبه بمحيط تختلط فيه الأمواج وتتمازج - ويترجَّع الصدى إلى الطرف الآخر من العالم. هل من الحماقة أن نستغفر العصافير؟ لو كنتَ أفضل مما أنت عليه الآن لشعر العصفور بمزيد من الطمأنينة، وكذلك الأولاد، وأيّ حيوان، إذا توافرت في قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة. كل شيء

يشبه المحيط، أقول لك؛ فمتى عرفت هذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضاً. إذا عرفت هذه الحقيقة تملكك حب يملأ قلبك وجداً، فإذا أنت تسأل العصافير أن تغفر لك خطيئتك. فتعهَّد هذا الوجد دون أن تخشى أن تعتبر مجنوناً في نظر الناس.

يا أصدقائي، اسألوا الله أن يعطيكم الفرح. كونوا فرحين كالأطفال، كعصافير السماء. لا تدعوا خطيئة البشر تعكر نشاطكم، ولا أن تصرفكم خطيئة البشر عن جهودكم؛ ولا تخافوا من ضلالاتهم أن تمحو عملكم وتمنعه من الاكتمال. لا تقولوا: «إن الخطيئة قوية، والعار قوي، وقوية البيئة المنحرفة، بينما نحن معزولون لا قوة لنا، وبدون قوة، ستدمرنا القوة المنحرفة قبل أن نتمكن من القيام بعمل صالح». لا تدعوا هذا اليأس يستولي عليكم! ليس هناك إلا خلاص واحد: اعتبر نفسك مسؤولاً عن كل الخطايا. يا صديقي، تلك هي الحقيقة. فمتى اعترفت بأنك مسؤول عن كل شيء تجاه جميع الناس أدركت أن الأمر هو كذلك حقاً، وأن ذنبك ليس وهماً صوَّره لك الخيال. أما إذا ألقيت على عاتق غيرك ما هو في الواقع نتيجة كسلك وعجزك وضعفك، انتهيت إلى السقوط في تكبّر شيطاني، وأخذت تثرثر على الله. سأقول لك رأيي في هذا التكبّر: من الصعب علينا أن ننفذ إلى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية ونحن لهذا ميّالون بطبيعتنا إلى الوقوع في الخطأ، فإذا نحن نتكبَّر معتقدين أننا ننجز عملاً رائعاً.

إن المعنى الحقيقي لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا، يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال. فلا تستسلم للتجربة ولا تظن أن الجهل يمكن أن يكون لك مسوِّغاً لأن القاضي الأبدي سيحاسبك عما كان في وسعك أن تعرف لا عمّا يفوق عقلك، وسوف تعرف هذا في حينه، وسوف تكفّ عن المناقشة بحضور الحقيقة التي ستعرفها.

لقد كُتب علينا أن نهيم في الأرض، وبدون صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، سنهلك جميعاً كما هلك النوع البشري أثناء الطوفان. ثمة أشياء كثيرة لا نعرفها في هذا العالم، ولكننا، في مقابل ذلك، قد أُوتينا الحسّ السرّي والخفيّ لصلتنا الحية التي تربطنا بعالم آخر أعلى وأسمى. والجذور العميقة لأفكارنا وعواطفنا تمتد في العوالم الأخرى وليس هنا في الأرض. لذلك يعلّم الفلاسفة أن جوهر الأشياء لا يمكن إدراكه في هذه الحياة على الأرض. لقد أخذ الرب بذوراً من العوالم الأخرى فنثرها على الأرض ليزرع حديقته، فنبت كل ما هو ممكن أن ينبت، ولكن الموجودات التي نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية إلا بحسّ الصلة التي تربطها بالعوالم الأخرى السرّية. حتى إذا ضعُف هذا الحس أو زال، مات عندئذ ما يكون قد نبت فيها، فلا تكترث بعد ذلك للحياة أو هي تكره الحياة. هذا هو رأيي.

ح ـ هل يمكن للمرء أن يكون حكَماً على أقرانه؟
من الإيمان حتى النهاية

تذكّر خاصة أنك لا تستطيع أن تكون حكماً على أحد. لأنه ما من قاضٍ يستطيع أن يحكم على مجرم قبل أن يدرك هذا القاضي بالذات، أنه مجرم يشبه المجرم الماثل أمامه، وأنه ربّما كان هو المسؤول الأول عن الجرم الذي ارتكبه هذا المذنب. وعندما يدرك ذلك يستطيع أن يكون قاضياً.مهما بدا هذا الأمر جنونياً، هذه هي الحقيقة. فلو استطعت أنا أن أكون عادلاً لكان من الجائز أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته. فإذا استطعت أن تلقي على عاتقك جريمة المجرم الماثل أمامك، وأن تجعل حكمك في قلبك، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه. دعه ينصرف دون أن توجِّه إليه لوماً. استلهم هذه القاعدة في السلوك ما استطعت ولو جعلك القانون قاضياً له، لأن المذنب

سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه إدانة أقسى من إدانتك إياه. وإذا ظهر لك أنه يبتعد عن رفقك به، وإذا ردَّ عليك بالسخرية فلا تغضب من موقفه. ويدل هذا الموقف على أن وقته لم يحن بعد، وأنه سيأتي في المستقبل. وهبْ أن ساعته لن تأتي أبداً فلا تهتمّ بذلك، لأن شخصاً آخر سيعترف ذات يوم بذنبه وسيتألم منه، وسيدركه، وسيدين نفسه بنفسه، فإذا بالعدالة تتحقق رغم كل شيء. صدِّق ذلك، صدِّقه بدون شك، لأنّ هذا هو الأساس الذي يقوم عليه الأمل وكل إيمان القديسين.

اعمل بدون كلل. فإذا تذكّرت، أثناء الليل، بعد أن رقدت في سريرك لتنام، أنك «لم تنجز ما كان يجب أن تنجزه»، فانهض فوراً وأنجزه. وإذا رأيت نفسك محاطاً بأناسٍ حاقدين ولا يحسّون، ويرفضون أن يسمعوا لك، فارتمِ على ركبتَيك أمامهم واستغفرهم، لأنك، في الحقيقة، أنت الذي تحمل ذنب عنادهم. وإذا لم تستطع أن تخاطب هؤلاء الناس بالحسنى، فاخدمهم بالصمت دون أن تفقد الأمل. وإذا هجرك جميع الناس وطردوك بالقوة فاركع على الأرض عندما تصبح وحيداً وقبِّلها واسقها بدموعك، فتحمل الأرض ثمرة دموعك، ولو لم يرك أو يسمعك أحد في عزلتك. حافظ على إيمانك حتى النهاية ولو كان عليك أن تكون الإنسان الوحيد الذي يحافظ عليه. إذا تنكّر كل الناس لعقيدتهم فاستمر أنت في المضيّ في طريق التضحية واستمرّ في تمجيد الله، أنت المؤمن الأخير، فقد يلقاك مؤمن آخر فتصبحان اثنين، وهذا كافٍ ليعود العالم حياً بالحب: سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة، وسوف تسبّحان الرب، فإذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما إلا اثنين.

إذا أنت ارتكبت خطيئة، وشعرت فجأة بالحزن حتى الموت على ارتكابك الخطيئة أو الخطايا، فليبهجك أن تتذكر أن هناك إنساناً صالحاً لم

يرتكب إثماً، وقل لنفسك مسروراً سعيداً: لئن وقعت أنا في الشر فإنّ ثمة إنساناً غيري قد بقي بدون خطيئة.

وإذا ملأك خبث الناس استياءً وحزناً عميقاً حتى أصبحت تتمنّى الثأر من الأشرار، ابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسؤول عن خبث هؤلاء الناس. اقبل هذه الآلام وتحمّلها، فيهدأ قلبك، وسوف تعرف أنك آثم فعلاً لأنك كنت تستطيع أن تهدّىء هؤلاء الناس بالقدوة، ولو كان عليك أن تبقى الوحيد الذي يعيش بدون خطيئة ثم لم تفعل. فلو أنك اتبعت طريق النور هذا في حياتك، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك، واستطاع الإنسان الذي تتّهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفاً وطاهراً. قد يحدث مع ذلك، أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذي يأتيهم من نورك، فلا يهتز إيمانك حينذاك، ولا يراودك شك في أن الحقيقة السماوية منتصرة لا محالة. واعلم أن البشر سوف ينقَذون غداً إن لم يكن إنقاذهم اليوم. وإذا لم ينقذوا أثناء حياتهم فسوف يُنقذ أولادهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مغادرتك هذا العالم. قد يزول الإنسان الصالح ولكن نوره يبقى ولا يزول. ثم إن الناس لا يقبلون الخلاص إلا أن يموت الذي أراد أن يخلّصهم. لا يعترف البشر بأنبيائهم بل يقتلونهم، ولكن البشر، في مقابل ذلك، يحبّون شهداءهم ويقدّسون الذين استشهدوا بأيديهم. ففي المستقبل، وفي البشرية كلها إنما يجب أن تفكّر حين تبذل من جهودك ولا تنتظر ثواباً على الخير الذي تفعل، لأن نصيبك في هذا العالم كبير: سوف تعرف نفسُك الفرحَ الحقيقي الذي لا يُعطى إلا للصالحين. لا تخفْ من الأقوياء والعظماء. كن حكيماً كريماً على نفسك في كل مناسبة، والتزم القصد والاعتدال. اعلم أن ثمة آجالاً تفرض نفسها على تشوقنا إلى العمل وتقيّد بها. قم بالصلاة في العزلة. تعلَّم كيف تقبِّل الأرض. قبّل الأرض بدون كلل. وأحبَّها حباً دائماً.

أنشر حبك على كل ما هو موجود. اندفع في الحب واسعَ إلى حماسة القلب. اسقِ الأرض بدموع فرحك، وأحبّ هذه الدموع التي تذرفها. لا تخجل من وجدك. قدِّر هذا الوجد لأنه هبة من الله، هبة عظيمة لا تُعطى إلى عدد كبير بل إلى المختارين.

ط ـ عن الجحيم ونار الجحيم

تأمل صوفيّ

يا آبائي ومعلميَّ، أتساءل: «ما هو الجحيم». وإليكم ما أقول لنفسي: «إنها العذاب من أن يصبح المرء لا يستطيع أن يحب». في الوجود اللانهائي، الذي لا يمكن قياسه في المكان ولا الزمان، مُنح كائن روحي بظهوره على الأرض إمكانية أن يقول لنفسه: «أنا موجود وأنا أحبّ». مرة واحدة، مرة واحدة فقط مُنح هذا الكائن لحظة حب نشيط، حي، ولهذه الغاية وُهبت له الحياة على الأرض ومعها الزمان والآجال. رفض هذا الكائن هذه النعمة التي لا تقدر بثمن، ولم يقدّرها حق قدرها، بل استخفّ بها وآثر أن يبقى بدون إحساس. وهذا الكائن رأى ابراهيم بعد أن غادر الأرض، ويتحدث معه، كما ورد في قصة الرجل الغنيّ ولازار. يتأمل الجنّة ويمكنه أن يسمو نحو الرب؛ لكن عذابه يكمن في أنه سيمثُل أمام الرب دون أن يحبَّ، فمن احتقر الحب سيلتقي الذين سيحبون. فهو، الآن، يراهم بوضوح فيقول لنفسه: «أنا الآن أعلم، ورغم أنني متعطش إلى الحب، فلن يكون لحبّي قيمة روحية ولا تضحية، لأنّ حياتي الأرضية تكون قد انتهت، ولن يأتي إبراهيم فيهدّىء بقطرة من ماء الحياة (أي بإعطائي حياة أرضية جديدة فعالة شبيهة بالسابقة) ظمأى إلى الحب الروحي الذي يحرقني الآن بعد أن احتقرته على الأرض: لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم زمن! سأكون سعيداً بأن أبذل حياتي في سبيل الآخرين، ولكن

فات الأوان، لأن الحياة التي كان ممكناً أن أضحّي بها قد انقضت إلى غير رجعة، والهوَّة الآن تفصل بيني وبينها إلى الأبد». يتكلم الناس عن نار الجحيم المادية: أنا لا أريد أن أبحث في هذا السرّ ولكنني أقول لو أن هذه النار المادية موجودة لابتهج بها المعذبون لأن الألم الجسدي يتيح لهم أن ينسوا، ولو لحظةً قصيرة، العذاب الروحي الرهيب. ثم إن تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل، لأنه عذاب داخليّ فيهم وليس خارجياً. وافترض أننا استطعنا أن نجردهم من هذا العذاب، فسوف يزداد شقاؤهم، كما أتصوَّر. وإذا غفر لهم العادلون في السماء حين تأملوا آلامهم، ونادوهم بحبّ لا نهائي، فسيضاعفون بذلك آلامهم لأنهم سوف يوقظون فيهم مزيداً من العطش الحار إلى الحبّ المتبادل الفعال النبيل، وهذا الآن مستحيل؛ إنني أتخيل في خشوع قلبي أن إحساسهم بهذا العجز سيخفف عنهم، في نهاية المطاف؛ وإليكم كيف يكون ذلك: عندما يقبلون حبّ الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردُّوه بمثله، سيجدون في التسليم بهذا التفاوت بينهم، وفي الوضع الذي سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون في ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذي احتقروه على الأرض، وسيصبحون قادرين، عندئذ، على فعلٍ يذكِّر بفعل النفس المحبَّة... يؤسفني، يا إخوتي وأصدقائي، أن لا أستطيع التعبير عن ذلك بوضوح أكثر. ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم، ويل للمنتحرين! أعتقد أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاءً! يقال لنا إنه خطيئة أن نصلّي لله لمن قتل نفسه بإرادته، وواضح أن الكنيسة تطرد الذي قتل نفسه بإرادته. لكنني أشعر مع ذلك، في أعماق نفسي، أنه يجوز أن نصلّي لهم، لأنّ المسيح لن يسوءه إفراط في الحب. لقد صلّيت طوال حياتي لهؤلاء الناس، أعترف لكم بهذا الآن، يا آبائي ومعلميّ، وما زلت أصلّي لهم كل يوم.

لا شك أن في الجحيم أيضاً أناساً أصرُّوا على كبريائهم وشراستهم،

واستمروا لا يتأثرون بالعدالة رغم أنهم يعرفونها ويرونها بوضوح. إن بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا كلياً بالشيطان، وانضموا إلى عصيانه. إنهم يقبلون الجحيم بفرح. أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا. هم لعنوا أنفسهم بأنفسهم إذ لعنوا الله والحياة. إنهم يقتاتون بحقدهم المتكبر مثل جائع يمتصّ دمه من عروق جسده. لكن الذين لن يكتفوا لن يشفى غليلهم أبداً، يرفضون حتى المغفرة، يلعنون الله الذي يناديهم. لا يستطيعون أن ينظروا إليه إلا بعين حقد، ويصرّون على عدم وجود الله الحي القيُّوم وعلى أنه هو الذي يجب أن يغنى مع كل خلقه. وسوف يظلون يحترقون إلى الأبد بنار حقدهم طالبين الموت والعدم. ولكن لن يحصلوا أبداً على الموت...

هنا تنتهي مخطوطة ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. وأكرر: هي عمل غير مكتمل، ومجتزأ. فالمعلومات التي تتصل بحياة الناسك مثلاً، لا تتناول إلا المرحلة الأولى من شبابه. فتعاليمه وآراؤه التي أطلقها في عهود مختلفة ومناسبات عدة، قد تمَّ جمعها هنا، وصُهرت، في عمل واحد. والأقوال التي نطق بها، في ساعاته الأخيرة من حياته لم تحدد بدقة ولم يعرض منها سوى فكرة عن طابع وروح ذلك الحديث خاصة إذا ما قورنت بالمخطوطة التي عرضها ألكسي فيودوروفتش عن تعاليم مرشده السابقة. وقد وافت المنيّة الناسك الراهب على نحوٍ لم يكن في الحسبان حقاً. لأن جميع الذين تحلَّقوا حوله، في ذلك المساء، أدركوا أن وفاته وشيكة، ولم يتنبأ أحد منهم بأنها ستوافيه على هذا الشكل المفاجىء. وبالعكس، فإن أصدقاءه اعتقدوا، كما سبق وذكرت، حين رأوا ما رأوه من شجاعته وحبّه للكلام، طوال تلك الليلة، أن صحته ستتحسَّن بشكل ملحوظ وإن يكن موقتاً. ولا شيء كان يسمح لأحد، إلى ما قبل وفاته بخمس دقائق، كما رويَ هذا بدهشةٍ فيما بعد، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة. ولكن بدا عليه فجأة أنه يشعر بألم شديد في صدره، واصفرّ

وجهه، وشدَّ يديه بقوة على قلبه. نهض جميع الحاضرين وأسرعوا إليه، واستمرّ هو رغم الألم ينظر إليهم مبتسماً. وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيّه، ثم ركع، وسجد جاعلاً وجهه على الأرض، وبسط ذراعيه وكأنه في حالة وجد وفرح، وقبَّل الأرض، ولفظ روحه (كما أورد هو نفسه في تعاليمه) معيداً بفرح وعذوبة روحه إلى الله. انتشر نبأ وفاته فوراً في المنسك ووصل إلى الدير. وقام أقرباؤه والأشخاص المختصون بغسل جثته حسب الطقوس القديمة، ثم اجتمع كل أعضاء الرهبنة في الكنيسة. وقد عُرف موت الراهب الناسك في المدينة قبل طلوع الفجر. وانتشر نبأ موته، في كل مكان، منذ الساعات الأولى من الصباح، وتدفَّق إلى الدير جمع غفير من المواطنين. سنعود إلى الكلام على هذا الموضوع في الكتاب التالي، وحسبنا أن نكتفي الآن بأن نضيف مسبقاً أنه وقع، قبل مرور نهار على موت الناسك، حادث لم يكن يتوقعه أحد، ونظراً إلى الأثر الذي تركه في الدير، بدا من الغرابة والقلق والضياع بحيث أنه لا تزال ذكراه حية في مدينتنا حتى الآن، بعد كل هذه السنين، ذلك اليوم المضطرب...

القسم الثالث

الكتاب السابع

إيليوشا

I

رائحة التحلُّل

تمَّ تحضير جثمان الأب زوسّيما، الراهب الذي لا يحق له الخروج من الدير، للتكفين وفقاً للطقس المتبع. وكما تعلمون، لا يُغسل رفات الرهبان والنساك الموتى؛ «عندما يمثل الراهب أمام الرب (كما جاء في كتاب الطقوس)، فعلى الراهب المكلَّف أن يمسح جسمه بماء فاتر بعد أن يرسم إشارة الصليب بإسفنجة على جبين المتوفَّى وصدره ويديه وقدميه وركبتيه، لا أكثر». لقد قام الأب باييسي بنفسه بتنفيذ كل ذلك على المتوفى. فلما انتهى من كل ذلك ألبسه ثوب الرهبنة وكفَّنه جبّة بعد أن شقَّها قليلاً، كما هي العادة. ثم وضع على رأسه طاقية الرهبنة التي ينتمي إليها المتوفى، وهي صليب ذو فروع ثمانية. ترك الطاقية مفتوحة عن الوجه، مغطياً وجه المتوفَّى ببرقع أسود؛ ووضع إيقونة المخلّص بين يديّ المتوفَّى. وسُجّي عند الصباح، في تابوته (تابوت محضَّر منذ مدة طويلة). أما التابوت، فقد كان ثمة نية أن يُترك، طوال النهار، في الغرفة (الغرفة الكبيرة نفسها التي اعتاد الراهب المرشد المتوفَّى أن يستقبل فيها الرهبان والزائرين العلمانيين). وبما أن المتوفَّى كان ناسكاً،

فقد كان على رهبان السلك وعلى الشمامسة أن يقرأوا قرب سريره الإنجيل لا المزامير. فشرع الأب يوسّيف في القراءة فوراً بعد جنازة الموتى. أما الأب بابيسي الذي حلَّ محلّه، بإصرار منه، خلال كل النهار وكل الليل، فقد انشغل جداً (مثلما كان الأب رئيس المنسك)، بالاضطراب الشديد، المشوب بنوع من انتظار محموم، الذي سيطر على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التي هرعت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير، والذي كان يزداد قوة وبروزاً، ما اضطره مع الأب الرئيس إلى بذل كل جهودهما لكي يهدّئا الناس المهتاجين ما أمكنهما. وعندما طلع النهار، بدأ يفد من المدينة أناس يصطحبون ذويهم المرضى، وبصورة خاصة الأطفال، آملين أن يشهدوا في تلك اللحظة ظهور معجزة الشفاء التي لا بدَّ، في اعتقادهم، من أن تصدر عن جثمانه. فبرز، في تلك اللحظة مدى تعدُّد الناس على اعتبار الراهب المرشد، حتى أثناء حياته، قديساً صادقاً. ولم يكن جميع المؤمنين القادمين من المدينة ينتمون إلى الأوساط الشعبية. وتبين للأب بابيسي أن توقّع المؤمنين الذي يتجلى بهذا القدْر الالحاح فيه ونفاد الصبر وكأنه طلب ملحّ، شيء من التجربة؛ رغم أنه قد تنبأ منذ زمن طويل. لكن القوة التي تجلى بها الآن قد تخطت كل تصوراته. فتوجه إلى الرهبان المتدافعين قائلاً: «إن انتظار معجزة كبيرة مباشرة هي عواطف طائشة تصدر عن علمانيين ولا تليق بنا نحن». إلا أنه لاحظ بقلق أنهم لا يصغون إليه. ومع هذا، كان الأب بابيسي هو نفسه (تلك حقيقة يجب الاعتراف بها إذا توخينا الصدق)، رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه كان هو نفسه يشعر في قرارة نفسه، بهذا الانتظار عينه ولا بدّ أن يكون قد اعترف بذلك في قرارة نفسه. لكن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته جداً لأن حضورهم قد أيقظ في نفسه ريبة عميقة لم تنشأ، إلّا من إحساس غامض؛

فشعر بنفور داخلي شديد، سرعان ما لام نفسه عليه، عندما رأى بين الجمهور المحتشد في غرفة الراهب المرشد، راكيتين وراهب أوبدورسك الذي طالت إقامته في الدير. وكان هذان الرجلان مشتبهاً فيهما في نظر الأب باييسي، رغم أن ثمة أشخاصاً آخرين كانوا يشبهونهم أيضاً. وكان راهب أوبدورسك يتميز بكثرة ذهابه وإيابه. كان يُرى في كل مكان يستطلع سائلاً أو مصغياً أو متمتماً بشكل سرّي. وكان وجهه يعبّر عن نفاد صبره ويكاد أن يتحول أحياناً إلى اهتياج وغضب، لأنّ الحادث الذي يتوقَّع الناس في كثيرمن الحماسة والاندفاع أن يحدث قد تأخّر. وقد عُلم فيما بعد، أن راكيتين إن جاء إلى المنسك في ساعة مبكرة فلأنّ السيدة خوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك صراحة. وقد أحسّت هذه المرأة اللطيفة التي تفتقد إلى قوة الطبع، بفضول قوي حين وصلها النبأ عند استيقاظها من النوم، وبلغت من الفضول أنها لمعرفتها بأن مجيئها إلى المنسك لن يكون مقبولاً قد أسرعت ترسل راكيتين موصية إياه بأن يراقب كل شيء ويعلمها به فوراً في تقارير خطية يرسلها إليها كل نصف ساعة «بكل ما يحدث». وكانت تعتبر راكيتين شاباً شديد التّقى راسخ الإيمان ـ إلى هذا الحدّ كان راكيتين بارعاً في الخطوة؛ برضى الناس حاذقاً في اتخاذ المظاهر التي تنسجم مع رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحة له. وكان النهار مضيئاً ومشعاً، وازدحم الحجاج الذين وصلوا إلى الدير حول مقابر المنسك، ولكن بعضاً منهم قد تفرقوا في جوار الدير. وعندما جال الأب باييسي في المناسك، تذكر فجأة إيليوشا، وتذكّر أنه لم يره منذ زمن طويل، منذ الليلة الماضية تقريباً. فما إن تذكَّره حتى لمحه في زاوية بعيدة عن المنسك، قرب السياج، يجلس على حجر قبر راهب مات منذ مدة طويلة وعُرف أثناء حياته بتأمله الروحي. كان يدير ظهره للمنسك وكأنه يختبىء وراء المقبرة. وعندما اقترب الأب باييسي،

رآه قد وضع وجهه بين يديه وراح يبكي بكاءً مراً وإن يكن صامتاً. بقي الأب بابيسي واقفاً قربه بضع لحظات:

ـ هدّىء روعك يا صغيري. ما بك؟ قال له متأثراً. افرح بدل أن تبكي. فإن هذا اليوم هو أعظم من كل أيامه؟ أين هو في هذه اللحظة!

رفع إيليوشا عينيه باتجاهه، كان وجهه محتقناً بالدموع مثل طفل، ثم دون أن يتفوّه بكلمة، استدار وأخفى وجهه بين راحتَي يديه مجدداً.

ـ ربما تكون على حق مع ذلك. قال الأب بابيسي مفكراً. إبكِ إذا شئت لأن المسيح هو الذي يرسل إليك هذه الدموع. فدموعك المؤثرة ليست سوى تهدئة روحية ستحيي البهجة قوية في قلبك. أضاف هذه المرة كأنه يخاطب نفسه.

وابتعد عن إيليوشا وهو ينظر إليه بحب. ثم انصرف بسرعة لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن يغرق في دموعه وهو ينظر إليه. مرَّ الوقت. وقداديس الموتى في الدير تتعاقب وفقاً لنظام الرهبنة. وأخذ الأب بابيسي محلَّ الأب يوسّيف قرب التابوت، وبدأ بقراءة الإنجيل. وفي تمام الساعة الثالثة بعد الظهر وقع الحادث الذي أشرت إليه في خاتمة الكتاب السابق. وجاء هذا الحادث مخالفاً لتوقعات الناس وآمالهم، ما أدى إلى أن تبقى ذكراه وذكرى التفاصيل التافهة التي رافقته حية في مدينتنا وفي المنطقة المجاورة إلى أيامنا هذه. وأودّ أن أضيف هنا، في هذه المرة، ملاحظة خاصة بي: يشقّ عليّ أن أتذكر هذا الحادث المقلق الذي لا بدّ أن يحرك النفوس رغم أنه في الواقع أمر طبيعي ويمكن فهمه جيداً. كان في وسعي أن أسكت عنه حتماً لولا أنه قد أحدث تأثيراً قوياً جداً ـ في اتجاه محدد بوضوح ـ في قلب البطل الرئيسي وفي نفسه ـ وإن يكن البطل المقبل ـ الذي تدور عليه أحداث هذه الرواية، أعني به إيليوشا

الذي أحدث في نفسه اضطراباً رهيباً لأن عقله الذي أوشك أن يهزه الحادث، قد خرج من الأزمة منتصراً متجهاً نحو الهدف المنشود.

إذن، إلى الوقائع: كُفِّن جثمان الراهب المرشد ووُضع في تابوت قبيل الفجر، ثم سجي في الغرفة الأولى وهي غرفة الاستقبال، سأل أحد الأشخاص الحاضرين: أليس من الأفضل فتح نوافذ الغرفة؟ بقي هذا السؤال العابر بدون جواب ولم يكد يلاحظه أحد. والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تحلّل من جثمانٍ ميت هي سخيفة ولا تستحق، أكثر من هزة كتف (أو ابتسامة ساخرة) تجاه قلة إيمان من يمكن أن تخطر له مثل هذه الفكرة، لأن ما كان يُنتظر هو نقيض هذا تماماً. ولكن الذي حدث هو أن الذين دخلوا الغرفة أخذوا يلاحظون أشياء كتموها، في بادىء الأمر، عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم خشية أن ينقلوا إلى الآخرين شعوراً لا يكادون يصدقونه؛ بيد أن الظاهرة التي أُدركت، بشكل غامض، في البداية، قد تأكدت في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبح يستحيل الشك فيها. فإذا الخبر ينتشر في المنسك على الفور بين الحجاج والزائرين، ويصل إلى الدير فوراً، فيعتري الرهبان دهشة كبيرة تصل إلى المدينة وتحدث اضطراباً في الناس المؤمنين منهم وغير المؤمنين. ابتهج الملحدون. وأما المؤمنون، فمنهم من كان فرحه أشدَّ من فرح غير المؤمنين، لأن الناس «يودون أن يروا سقوط الرجل الصالح وتلطُّخه بالعار»، كما قال الراهب المرشد المتوفَّى في أحد أحاديثه. وما حدث هو رائحة تحلُّل صدرت عن التابوت، شيئاً فشيئاً في أول الأمر، ثم اشتدت أكثر فأكثر. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أصبحت واضحة ثم اشتدت بعد ذلك. عبثاً حاولوا أن يجدوا في تاريخ ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذي استولى حتى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث. وبعد سنين عديدة ظلَّ حتى بعض رهباننا المتنورين يشعرون بدهشة رهيبة حين

يتذكرون أقل التفاصيل. وغالباً ما حدث في الماضي أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها، أنّ رجالاً يحترمهم جميع الناس ويخافون الله، قد ماتوا أتقياء ثم لوحظت مع ذلك حول نعوشهم المتواضعة بعض الافرازات ورائحة التحلّل كما يحدث لجميع الموتى لأيّ جثة. ولكن الحدث لم يصدم أحداً بل ولم يدهش أحداً. صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضاً بذكرى رهبان متوفَّين منذ زمن بعيد، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أيّ علامة من علامات التحلل، ما أحدث أثراً بالغاً في نفوس الرهبان فكانوا يتحدثون عنه معجبين، ويحرصون على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التي تشهد بالقداسة. وكانوا يقدّرون أن مجداً عظيماً سوف يتحقق في المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين في الساعة التي يشاء فيها الله ذلك. ومن بينهم كان شأن القديس أيوب مثلاً الذي عاش مئة وخمس سنوات، وكان ناسكاً شهيراً عُرف بالصمت والصيام. وقد مات منذ زمن بعيد، في السنين الأولى من هذا القرن وأصبح قبره الآن مكان تعظيم خاص وغير عاديّ. فسكان الدير يقودون الحجاج إلى زيارته مشيرين بكلام يحمل معاني السرّ والإعجاب إلى الآمال الكبيرة المعقودة على قبره ـ على ذلك القبر، وجد الأب باييسي في الصباح إيليوشا ـ وعدا ذلك الراهب الذي مات منذ سنين عديدة، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد، وترك في الدير ذكرى مثل هذه الذكرى. إنه العجوز الكبير فارسونوف الذي خلفه الراهب زوسّيما، والذي كان يعتبره الحجاج إلى الدير كساذج من القرية. وتقول الرواية عن كل من هذين الراهبين إن الناظر إليهما في تابوتهما لا يشعر إلّا بأنّهما نائمان، وقد دُفنا دون أن يفسد جثمانهما، بل وإن نوراً كان يشع من وجهيهما، وتفوح من جثتهما رائحة عطرة. ومع ذلك، رغم هذه الذكريات المؤثرة فمن الصعب على المرء أن يعرف السبب الذي دفع الرهبان، في ذلك اليوم، إلى أن يقفوا بهذه الخفّة

والسخف والحماقة إزاء تابوت الراهب المرشد زوسّيما. أما أنا شخصياً فأعتقد أن الأسباب كثيرة ولكنها تعمل في اتجاه واحد. ومن المفيد أن نذكر، من بين هذه الأسباب، المعاداة الشديدة لمؤسسة الرهبان النسَّاك التي كانت تُعدّ بدعة مشؤومة مخفية في الدير، ترسخت عميقة في نفوس عدد كبير من النساك. وهناك سبب آخر هو الحسد الذي كان يثيره رسوخ قداسة المتوفَّى التي كان ممنوعاً الشك فيها. فلئن أيقظ الراهب المرشد المتوفَّى تعلقاً عميقاً به، عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقّة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له فقد خلق من حوله، رغم ذلك، حسَّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألدّاء، يخفي بعضهم هذه العداوة وبعضهم يعلنها. كان له أعداء كثيرون من العلمانيين أكثر مما بين رهبان الدير. فهو لم يسئ يوماً إلى أحد، وكان الناس يتساءلون: «لماذا يُعتبر قديساً؟». وكان هذا السؤال كافياً بتردده المستمر كي يخلق من حوله ضغينة كبرى. ذلك، في رأيي، هو السبب الذي جعل عدداً كبيراً من الناس يبتهجون عندما عرفوا أن جسمه يصدر رائحة تفسُّخ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر بسرعة عن الجسم ـ لأنه لم ينقضِ على موته يوم واحد ـ أما الرهبان المخلصون للراهب المرشد الذين ظلوا يحترمونه إلى ذلك الوقت، فقد أحسّوا برائحة التفسخ هذه نوعاً من إساءة نالتهم هم أنفسهم. وقد جرت الأمور على النحو التالي: ما إن بدأت تظهر أولى إشارات التحلل حتى صار من السهل على المرء أن يعرف من وجوه الرهبان الذين كانوا يدخلون غرفة المتوفَّى ولماذا. كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يخرجون ليؤكدوا النبأ للآخرين الذين كانوا يزدحمون خارج الباب؛ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن، وبعضهم لا يكلفون أنفسهم حتى عناء إخفاء الفرح الذي يسطع في نظراتهم الحاقدة. ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم، ولم يرتفع صوت واحد مدافعاً، وذلك أمر مثير للدهشة، في

الواقع، لأن المخلصين للراهب المرشد كانوا الأكثرية. ولكن يبدو أن الرب قد قرر في هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار على الأغلبية إلى حين. ولم يلبث أن توافد إلى الغرفة بعض العلمانيين المنتمين إلى الأوساط المثقفة. أما أبناء الشعب فقد ابتعدوا، رغم أن عدداً كبيراً منهم قد تدافع على باب المنسك. ومهما يكن من أمر، فإن سيل الزائرين العلمانيين قد ازداد بشكل هائل بعد الساعة الثالثة بعد الظهر على أثر شيوع النبأ الفاضح. وهناك أشخاص لم يكن يتوقع حضورهم في ذلك اليوم أسرعوا إلى الدير مع ذلك ولا هدف لهم إلّا التحقق من النبأ، ومن بينهم موظفون كبار في الدولة. يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين الفضوليين لم يعكّر جوَّ الاحترام صراحة حتى ذلك الوقت، فما زال الأب بايسي يستطيع أن يقرأ في الإنجيل جهراً بلهجة ثابتة ووجه قاسٍ دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئاً غير عادي قد حدث. ولكن ها هي الوشوشات بدأت تصل إلى مسمعه. إن أصحابها يبدونها خجولة بادئ الأمر، فيهمسون بها همساً، غير أنها لا تنفك تلحّ، فإذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح: «يجب الاعتقاد بأن حكم الله لا يؤيد حكم البشر!». إن الذي جازف فقال هذه الكلمات هو رجل علماني متقدم في السنّ، موظف في المدينة، يُعتبر على جانب كبير من التقوى. لكنه كرر جهراً ما كان الرهبان، يسرّ به بعضهم إلى بعض همساً منذ مدة طويلة. ولم ينتظر هؤلاء، طويلاً لكي يجاهروا بهذه الفكرة اليائسة، والأنكى من ذلك، كانوا يتناولون هذه الفكرة وقد بدت على وجوههم أمارات النصر في كل لحظة. وسرعان ما زالت مراعاة اللباقة فكأن الجميع أصبحوا يشعرون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً. «كيف أُمكن أن يحدث شيء كهذا؟» كان يقول بعض الرهبان وهم يصطنعون في باديء الأمر هيئة الأسف، ويسارع آخرون إلى الجواب فيقولون: «كان جسمه جافاً، هزيلاً ومعروقاً، جلداً على عظم،

فمن أين يمكن أن تصدر هذه الرائحة» ـ «إذن، أراد الله أن يبرهن عن شيء ما». وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بدون نقاش لأنه إذا كانت هذه الرائحة ظاهرة طبيعية تحدث دائماً بعد وفاة خاطىء، فإنها لا تحدث، عادةً، إلّا بعد يومٍ على الأقل، وهنا فقد «تخطّت الطبيعة»، إذن هذا ما يريده الله، إنها إشارة من الله. وذلك برهان كان مفحماً. حاول الناسك الأب يوسّيف اللطيف، أمين المكتبة، المحبوب من المتوفَّى، أن يسوق بعض الحجج على تلك الأقوال المسيئة، قال: «لا يؤخذ بهذه الآراء على هذا النحو، وإن ما يقال من أنّ أجساد الصالحين لا تتفسَّخ ليس من صلب الكنيسة الأورثوذكسية بل هو مجرد رأي. ففي البلدان الأورثوذكسية الصافية مثل جبل آثوس لا يعتمدون على التحلل أو عدمه لإثبات مجد القديس إنما على لون العظام بعد أن تثوي الأجساد سنوات طويلة في الأرض وبعد أن تنفسخ في التراب، فإذا أصبحت العظام، مع مرور الزمن، صفراء مثل الشمع كان ذلك دليلاً أساسياً على أن الله قد مجَّد المتوفَّى، أما إذا أصبحت سوداء فذلك يعني أنه لا يستحق ذلك المجد. هذا ما يحصل في جبل آثوس، وهو مكان مقدس حافظت فيه الأورثوذكسية، في كل الأزمان، على نقائها». بذلك ختم الأب يوسّيف كلامه. لكن أقوال الأب المتواضع بقيت دون أيّ تأثير وأثارت ملاحظات ساخرة. فقال بعض الرهبان: «تلك بدع أصحاب العلم والتحديث لا فائدة من الاستماع إليها». وأضاف آخرون: «سوف نبقى كما في الزمن الماضي، والابداعات كثيرة في أيامنا هذه إذا أردنا أن نقلّدها كلها». وقال بعض آخر: «نحن عندنا قديسون أكثر مما عندهم. وهم خاضعون للسيطرة التركية وقد نسوا كل شيء. وفسدت الأورثوذكسية عندهم منذ زمن بعيد، ولا يوجد عندهم حتى الأجراس». وابتعد الأب يوسّيف حزيناً، ولم يعبّر عن رأيه بكثير من الحزم، بل كان متردداً كأنه ليس مقتنعاً به هو نفسه. لكنه أدرك بقلق بأن شيئاً بشعاً قد بدأ يحصل وأن

رفض الخضوع بذاته يرفع الرأس. وبعد كلام الأب يوسّيف، سكتت جميع الأصوات الرزينة. ولم يعرف أحد كيف أن الذين كانوا قد أحبوا الراهب المرشد زوسّيما المتوفَّى، وقبلوا بكل طاعة إقامة هذه المؤسسة الرهبانية، ذُعروا فجأة، وأصبحوا لا يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى. أما خصوم هذه المؤسسة الذين يصفونه بدعة فقد رفعوا رؤوسهم متباهين بفخر: «عند موت الناسك فارسونوف لم تلاحظ علامات تحلّل فقط بل كانت جثته تفوح منها روائح عطرة. لكنه لم يستحق نعَمه كناسك بل لأنه كان رجلاً صالحاً». وبعد ذلك، انطلقت الألسن تنتقد الراهب العجوز المتوفَّى بل وتتَّهمه أيضاً: «كانت تعاليمه خاطئة. كان يعلِّم أن الحياة فرح عظيم وليس ينبوع دموع». كان يقول بعض الأغبياء. ويقول آخرون بمزيد من الغباء: «كان رجلاً عصرياً، لا يؤمن بنار الجحيم المادية». ويضيف آخرون: «لم يكن يمارس الصوم بشكل دقيق. وكان يسمح لنفسه بأكل الحلوى، ويتناول مع الشاي مربَّى الكرز، وهل يليق بناسك أن يشرب شاياً؟». وهؤلاء أسوأ الرهبان قصداً يقولون حانقين: «كان متكبراً، يعتبر نفسه قديساً، وكان الناس يركعون أمامه وهو يرضى هذا كواجب». ويقولون بصوت خفيض حاقد: «كان يمتهن سرّ الاعتراف». إن أكثر هؤلاء الأعداء الألدّاء لنظام الرهبان العجائز، بين الرهبان، أكبرهم سناً وأشدّهم تقشفاً وأكثرهم تقيداً بكفارات الصوم والصمت. لقد لزموا الصمت أثناء حياة الراهب المرشد ولكنهم، الآن، يطلقون لأحقادهم العنان مما يثير كثيراً من القلق لأنّ لآرائهم تأثيراً قوياً في الرهبان الشباب والمترددين. كان زائر أوبدورسك، راهب سان سيلفستر قصير القامة، يستمع بانتباه إلى كل ذلك متنهداً بعمق، خافضاً رأسه، قائلاً لنفسه: «حقاً، إن الأب فيرابونت كان على حق يوم أمس». وفي هذه اللحظة ظهر الأب فيرابونت فجأة كأنما ليزيد من وقع الصدمة.

سبق أن قلت إنه نادراً ما كان يغادر غرفته الصغيرة الخشبية الواقعة وراء قفير النحل وكان باستطاعته ألا يظهر في الكنيسة لفترات طويلة، وكانوا يسمحون له بذلك ولا يلزمونه باتباع القواعد المشتركة. وفي الحقيقة، ما كانوا يعتبرون ذلك ضرورياً لأنه من غير المفيد أن يطلب من ناسك كبير وصائم ملتزم، يصلي ليلاً نهاراً وينام وهو راكع، أن يحترم النظام العام، إذا هو لم يرغب في ذلك. فلو أراد أحد أن يزعجه لقال الرهبان: «إنه أكثر قداسةً من الجميع وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيراً مما نلزم به أنفسنا فإذا لم يأتِ إلى الكنيسة فلا شك أن هناك أسباباً تدفعه إلى ذلك. إن له فرائضه الخاصة». لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تجنباً لاحتجاجات الرهبان وثرثرتهم. وكان جميع الناس يعرفون أن الأب فيرابونت يحقد على الراهب العجوز زوسّيما. ولم تلبث الشائعة التي تقول: «إن حكم الله ليس هو حكم البشر»، دائماً وإنه قد «سبق الطبيعة» في تحلّل الجثة، وسرعان ما وصلت هذه الشائعة إلى غرفته النائية، وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذي زاره عشية البارحة وخرج من عنده مذعوراً كان من أوائل الذين حملوا إليه النبأ. وقد قلت أيضاً إن الأب باييسي الذي استمرّ يتابع قراءة الإنجيل أمام التابوت، ثابت الجنان بغير اضطراب والذي كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه ما يحدث خارج الغرفة، قد عرف مع ذلك في قرارة نفسه، الشيء الأساسي مما كان يجري لأنه يعرف تماماً الروح المسيطرة على محيطه. وما من شيء يجعله يضطرب، فانتظر ما سيحدث دون خوف، متنبئاً بعواقب هذه الحركة بما له من بصيرة نافذة وفكر سديد، إلّا أن ضجة غير عادية آتية من الممرّ، قد لفتت انتباهه فجأة، وهي ضجة لا يخفى غير لائقة إطلاقاً. انفتح الباب على مصراعيه ووقف الأب فيرابونت عند العتبة. كان عدد كبير من الرهبان، بينهم بعض العلمانيين، يسيرون وراءه ولكنهم آثروا أن يتوقفوا في

أسفل درجات المدخل وهم يُرون من داخل الغرفة بوضوح. قرروا ألّا يدخلوا الغرفة وفضّلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب فيرابونت وما سيفعله. ذلك أنهم كانوا يشعرون بأنه لم يأتِ عبثاً وأنهم يشعرون بشيء من الخوف رغم جرأتهم. توقف الأب فيرابونت في العتبة ورفع ذراعيه نحو السماء فظهرت من تحت ذراعه اليمنى العينان الحادتان المستطلعتان، لزائر أوبدورسك الذي لم يستطع مقاومة الإغراء، فاندفع على درجات المدخل وراء الأب فيرابونت ليروي فضوله الجامح، بينما تراجع الآخرون قليلاً عندما انفتح الباب مقرقعاً. فرفع الأب فيرابونت ذراعيه إلى السماء وراح يصرخ:

ـ اخرجوا من هنا أيها الشياطين! وأخذ يرسم إشارات الصليب على جدران الغرفة الأربعة، الواحد بعد الآخر، وأمام كل زاوية من زوايا الغرفة الأربع. فعرف الذين تبعوا الأب فيرابونت دلالة هذه الحركة؛ لأنهم كانوا يعرفون أنه يقوم بهذا العمل دائماً في أيّ مكان يذهب إليه ولا يقبل أن يقول كلمة أو أن يجلس قبل أن يطرد الشيطان.

ـ ابتعد أيها الشيطان! أخرج من هنا يا شيطان! كان يردد كلما رسم إشارة الصليب. أخرجوا من هنا يا شياطين! هكذا كان يصرخ. وكان يرتدي ثوباً خشناً يزنّره حبل وصدره الرمادي الشعر يظهر من شقّ قميصه المصنوع من الخيش. وقدماه فكانتا حافيتين. وعندما يحرِّك ذراعيه يسمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التي تطوق جسمه. توقف الأب بابيسي عن القراءة وتقدم خطوة إلى الأمام ووقف أمامه ينتظر:

ـ لماذا أتيت إلى هنا، أيها الأب المحترم؟ لماذا لا تحترم الطقس؟ لماذا جئت تزرع البلبلة في نفوس الرعيَّة المتواضعة؟ تمتم وهو ينظر إليه بصرامة.

ـ لماذا جئت؟ تريد أن تعرف لماذا؟ أين إيمانك؟ صاح الأب فيرابونت

يمثل دور الساذج. جئت أطرد زائري هذا المكان، الشياطين الملعونة! أنظر كم يصبح عددهم عندما أدير ظهري. سأطردهم جميعاً بسوطي.

ـ إنك تطرد الشيطان مع أنك كنت تخدمه. قال الأب بابيسي بدون وجل. من الذي يستطيع أن يقول عن نفسه «إنه قديس؟» أنت أيها الأب!

ـ أنا رجل دنس وليس قديساً! لا أجلس على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أجعل الناس تعبدني كصنم. قال الأب فيرابونت مرعداً. إن بين الناس مَن يقتلون الإيمان المقدس. إن المتوفَّى، قديسكم. وأضاف ملتفتاً نحو الرهبان المتجمهرين عند المدخل مشيراً بإصبعه إلى تابوت الراهب المرشد؛ كان لا يؤمن بوجود الشياطين. كان يصف لمن مسَّتهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء. فهل من عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم كما العنكبوت في الزوايا؟ والآن قديسك يتحلل، وتلك في نظرنا إشارة من الرب.

لقد وقعت في حياة الأب زوسّيما حادثة من هذا النوع. قال أحد الرهبان إنه رأى الشيطان في الحلم وراحت هذه الرؤى تحاصره في اليقظة أيضاً. وعندما أصابه خوف عظيم فاتح الراهب المرشد بذلك، فنصحه هذا الأخير بأن يستمر في الصلاة والصيام بشكل متواصل. فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواءً دون أن ينقطع عن الصلاة والصيام. وقد أُصيب عدد كبير من الرهبان بالدهشة وراحوا يتحدثون فيما بينهم مستائين، وبصورة خاصة الأب فيرابونت. فأسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الراهب المرشد من أمر يُعدّ «خارقاً» في حالة من هذا النوع.

ـ أخرج من هنا أيها الأب! قال الأب بابيسي بلهجة صارمة. ليس الإنسان هو الحكَم بل الله. وإن «الإشارة» يمكن أن يكون لها معنى لا يدركه عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أنا ولا أحد هنا أن يجازف فيؤولها. أخرج أيها الأب ولا تزعج الرعية! كرر القول بإلحاح.

ـ لم يكن يحترم فرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته. ذلك هو معنى «الإشارة»، هذا واضح، ومن الإثم إنكاره. استأنف الراهب المتحمس يقول وقد فقدَ السيطرة على نفسه. كان يتلذذ بالحلوى التي كانت تمتلىء بها جيوب السيدات اللواتي يزرنه. كان يتلذذ بالشاي. وكانت الكبرياء تملأ روحه... لذلك استحق هذا العار...

ـ أقوالك طائشة، أيها الأب! أجاب الأب باييسي بصوت صارخٍ هو أيضاً. أنا معجب بصيامك وصلاتك، لكن كلماتك طائشة تطلقها بدون رويّة كشاب علماني يفتقر إلى النضج والقوة. أخرج من هنا، أيها الأب، إني آمرك بذلك. ختم الأب باييسي بصوت مرعد مهدِّد.

ـ أنا، أخرج! قال الأب فيرابونت مرتبكاً بعض الشيء ولكن دون أن يتخلى عن غضبه. أنتم العلماء! أنتم بعقلكم هذا المتكبر ترتفعون فوق بساطتي. لقد جئت إلى هنا أمياً. وهنا، نسيت كل ما كنت أعرفه في ما مضى. إن الله نفسه يصونني أنا الضعيف من علمكم...

بقي الأب باييسي هادئاً ينتظر بثبات.

سكت الأب فيرابونت لحظة ثم، فجأة، انقبض وجهه حزناً، فوضع يده اليمنى على خدّه، وقال بصوت ضعيف وهو يحدق إلى تابوت الراهب المرشد المتوفَّى:

ـ غداً ينشدون له النشيد النبيل «ربنا هَبّ لنا عوناً واحمِنا». أما عندما سأموت أنا فسوف يقولون: «عاش حياة وادعة». تابع بصوت آسفٍ تخالطه الدموع. ثم صاح كالمجنون يقول والدموع في عينيه: ضيَّعتكم الكبرياء! فليتحوّل هذا المكان إلى قفر! واستدار ونزل درج المدخل بسرعة. ظهر التردد على الجمهور الذي كان ينتظره تحت، ثم تبعه بعضهم فوراً، وتوقف آخرون عندما رأوا أن باب الغرفة لا يزال مفتوحاً، وأن الأب باييسي الذي يسير

وراء الأب فيرابونت إلى درجات المدخل، كان ينظر إليهم بصمت مطبق. لكن العجوز المندفع لم يكن قد أفرغ كل ما في جعبته، فتوقف بعد أن سار عشرين خطوة، والتفت نحو الشمس الغاربة رافعاً يديه إلى السماء ـ كأن أحداً قد حصده ـ ثم تهاوى على الأرض صارخاً بقوة: انتصر ربي! انتصر المسيح عند غياب الشمس! صاح بصوت مسعور وهو يرفع ذراعيه باتجاه الشمس، معفّراً وجهه بالأرض، وبدأ يبكي بكاء طفل مهتزّ الجسم، باسطاً ذراعيه على الأرض. أسرع الجميع إليه وسُمع صراخ وبكاء عطفٍ فكأن حميَّاه قد انتقلت إلى الجمهور، وسيطر على كل واحد نوع من الجنون:

ـ هذا هو القديس الحقيقي. هذا هو الصالح!

وأضاف آخرون بدون خوف: هذا هو الذي يجب أن يكون مرشداً.

ـ لا يريد أن يكون مرشداً... سيرفض... لن يرضى الالتحاق بهذه البدعة الملعونة. لن يقلد هذه السخافات. بادرت أصوات أخرى تقول على الفور. لا يدري أحد كيف كان يمكن أن ينتهي هذا كله لو أن الجرس لم تدوِّ أصواته في تلك اللحظة، منادية الرهبان إلى الذبيحة الإلهية. رسم الجميع إشارة الصليب ثم وقف الأب فيرابونت ورسم إشارة الصليب هو أيضاً ليحمي نفسه من الشرّ الخفيّ، واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة. لحق به بعض الرهبان ولكن أكثرهم تفرقوا مسرعين إلى القداس. وعهد الأب باييسي إلى الأب يوسّيف بإتمام القراءة، ونزل إلى درج المدخل. لم تستطع الصرخات المحمومة التي أطلقها المتعصبون أن تنال منه، لكنه أحسَّ بكآبة تملأ قلبه فجأة فذُهش ووقف متسائلاً: «من أين جاء هذا الحزن الذي يرهقني». واستغرب عندما عرف فوراً أن سبب ذلك الحزن هو حادث يبدو في الظاهر تافهاً لا قيمة له: فبين صفوف الجمهور المجتمع أمام درج المدخل، لاحظ الأب باييسي بين الرهبان وجود إيليوشا الذي بدا مضطرباً جداً، فشعر بما يشبه

الألم في قلبه. تساءل الأب بابيسي مدهوشاً فجأة: «هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشاب قد سيطر على كل هذا المكان في نفسي؟». وبينما هو يتساءل، مرَّ إيليوشا من أمامه مسرعاً متّجهاً نحو الكنيسة. التقت نظراتهما فأشاح إيليوشا عينيه بسرعة وخفضهما نحو الأرض، فأدرك الراهب العجوز من النظر إلى هيئة الفتى ما كان يحصل في تلك اللحظة في نفسه من تبدُّل.

ـ أنت أيضاً جعلت نفسك تقع في التجربة، أنت أيضاً؟ قال فجأة الأب بابيسي سائلاً. أنت أيضاً انضممت إلى صف الذين هم ضعيفو الإيمان؟ أضاف بألم.

توقف إيليوشا، وألقى على الأب بابيسي نظرة تحمل بعضاً من التردد ثم فوراً أشاح عينيه بسرعة، ونظر إلى الأرض. وقف موارباً ليتجنَّب نظرة محدّثه. وكان الأب بابيسي يراقبه بانتباه.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ دقت ساعة القداس. سأل مجدداً. ولكن إيليوشا لم يجب.

ـ ألعلّك تترك المنسك؟ وبدون أن تعلمنا، وبدون أن تتلقى البركة؟

أجاب إيليوشا فجأة بضحكة قصيرة غريبة متصنّعة، وشخص بنظره إلى الأب الذي كان يسأله، إلى الذي عهد به إليه وهو يحتضر، مديره السابق، معلّم قلبه وروحه، مرشده المحبوب. وفجأة، دون أن يجيب، قام بإشارة تعبّر عن أنه أصبح لا يهتم كثيراً بالاحترام. وبخطى واثقة اتجه نحو بوابة المنسك الخارجية.

تمتم الأب بابيسي وهو ينظر إليه يبتعد مدهوشاً دهشة مؤلمة:

سوف تعود مجدداً! همس الأب بابيسي، وهو ينظر إليه باستغراب مؤلم.

II

دقيقة كهذه

لم يخطىء الأب بابيسي طبعاً عندما استنتج أن «ابنه العزيز» سيعود؛ حتى ربما قد فهم (وإن لم يكن بوضوح) الحالة النفسيّة التي كان عليها إيليوشا. ورغم ذلك، أعترف بأنني أجد صعوبة في شرح معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من حياة بطل روايتي الذي أحبّه كثيراً والذي لا يزال شاباً وردّاً على السؤال المؤلم الذي طرحه عليه الأب بابيسي «هل أصبحت أنت أيضاً مع الذين هم قليلو الإيمان؟»، أجيب، طبعاً: «لا، ليس مع الذين هم قليلو الإيمان». وأكثر من ذلك، على نقيض هذا تماماً: فإن هو أحسَّ بقلق فذلك لأن إيمانه كان كبيراً. فالقلق يكمن هنا، وبلغ قلقه من الإيلام أنه بقي بعد سنين طويلة يعتبر ذلك اليوم المشؤوم أزخر أيام حياته بالألم. ولو سئلت مباشرة: «هل يمكنه بالفعل أن يشعر بكل ذلك الغمّ والقلق لا لشيء إلّا لأن جثمان الراهب المرشد قد تحلَّل قبل الأوان بدلاً من أن تقوم معجزات شفاء؟». لأجبت بدون تردد: «نعم، ذلك بعينه هو السبب». لكنني أتمنّى على القارىء، مع ذلك، أن لا يتسرّع كثيراً فيستهزىء بنقاء قلب هذا الشاب. أنا من جهتي، لست أميل إلى أن ألتمس له سماحة القارىء أو أن أنتحل لإيمانه الساذج عذراً

من شبابه أو نقص دراسته أو قلة ما حصَّل من تقدّم في الدروس الخ،... بل أقف الموقف المضاد بدون تردد، وأؤكد: إنني أشعر تجاه بساطته باحترام كبير. وبدون شك، إن شاباً غيره أكثر حذراً في اندفاعاته ولديه مثل هذا الحب الحار بدون هوى، ومتعقل بالنسبة إلى عمره (وهو تبعاً لذلك سهل) إن شاباً مثله كان يمكن أن يتجنب الاضطراب الذي وقع فيه شابّي أنا. لكن، أن ينساق المرء أحياناً مع اندفاع قد يكون طائشاً ولكنه مستلهم من حب كبير، فذلك في رأيي أنبل وأكرم من أن يكون عاجزاً عن الشعور بمثل هذه العواطف. وهذا ما يصدق خاصة على الشباب، لأن الشباب الذي يفرط في التروي ليس جديراً بالثقة ولا قيمة له. ذلك هو رأيي أنا! لكن ربَّ أناس رصينين يعترضون قائلين: إلى أين المصير إذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء؟ وليس صاحبك بمن تضرب به مثلاً للآخرين. وإني لأجيب هؤلاء بالقول: «نعم، كان إيليوشا يؤمن بحماسة إيماناً مقدساً لا يتزعزع، ولكن ليس يخطر ببالي أن ألتمس له بسبب ذلك أعذاراً».

على الرغم من ذلك، لقد أعلنت سابقاً (وربما بشكل متسرع جداً) أنني لن أحاول أن أبرر سلوك بطلي أو أن ألتمس له الأعذار لكنني مضطر، رغم كل شيء، إلى أن أقدّم بعض الإيضاحات تسهيلاً لفهم روايتي. لذلك أقول: لم يكن ذلك مسألة معجزات، ولا مسألة نفاد صبر طائش في انتظار المعجزات. لم يكن إيليوشا في حاجة إلى ذلك لإثبات إيمانه الراسخ (لا هذا إطلاقاً) ولا ليتاح لفكرة من الماضي أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأيٍ يعارضها: إن ما كان يعنيه في هذا الأمر، قبل كل شيء آخر، بل ودون كل شيء آخر، هو الوجه الذي كان أمامه والوجه فقط ـ وجه الراهب المرشد الذي كان يحبّه جداً، وجه الرجل الصالح الذي كان يحترمه حتى العبادة. فالمشكلة تكمن هنا: إن ما في قلبه الفتيّ والنقيّ من قدرة على الحبّ، وإن ما يحس به إزاء «كل الأشياء

وكل الناس»، قد تركز في تلك الفترة، أعني أثناء السنة السابقة، على إنسان واحد هو مرشده المحبوب الذي مات. لقد أصبح هذا الإنسان المثل الأعلى الذي يجتذب أعمق عواطفه. صحيح أنه استمرّ يجسّد في نظره أرفع مثل أعلى خلال مدة طويلة وأن قوى طبيعته لا بدَّ أن تتجه إلى هذا المثل الأعلى، حتى لتنسيه، في بعض الأحيان، «كل الأشياء وكل الناس» (سوف يتذكر إيليوشا، فيما بعد، أنه في ذلك اليوم الحزين قد نسي، بشكل تام، أخاه ديمتري الذي كان يرغب عشية أمس في رؤيته بقلق وغمّ)، نسي أن يردَّ المائتي روبل إلى والد إيليوشا الصغير. لكنني أكرر فأقول: ليست المعجزات هي ما كان في حاجة إليه بل هو في حاجة إلى «عدالة سامية» وهذه قد أُصيبت بأذى بالغ حسب معتقداته. هذا هو ما كان يؤلم قلبه بشكل قاسٍ وغير متوقع. ليس بالأمر المهمّ أن تكون هذه «العدالة» قد ترجمت في انتظارات إيليوشا بتأثير مجرى الأحداث واتخذت شكل معجزات متوقعة فوراً من رماد جثمان هذا القائد القديم الذي كان يحترمه حتى العبادة. وكان جميع الذين في الدير يفكرون وينتظرون الشيء نفسه، وفي طليعتهم أولئك الذين كان إيليوشا يعترف بتفوقهم العقلي عليه، كالأب بابيسي مثلاً. لذلك لم يتردد إيليوشا في أن يعبّر عن أمله كما كانوا يعبّرون، دون أن يقع في بلبلة من الشك والتأملات. وقد نضج هذا التوقع في نفسه منذ مدة طويلة، خلال سنة كاملة عاشها في الدير حتى أصبحت طبيعية وكأنها عادة. ولكن ظمأه كان إلى العدالة التي ينتظرها، وليس إلى معجزات! وهذا هو الإنسان الذي كان في عاطفته فوق كل البشر في العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط في الخزي بدلاً من أن يحظى بالمجد الذي يستحقه! لماذا؟ من هو القاضي الذي اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم؟ من الذي يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقاً؟ تلك هي الأسئلة التي داهمت نفسه البريئة التي تعوزها الخبرة وراحت تسومها سوء العذاب.

كان لا يطيق، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يغضب، أن يرى أفضل الصالحين فريسة سخرية شريرة وتهكّم خبيث يصبّه عليه جمهور طائش هو دونه بكثير. كان بالإمكان أن يقبل عدم حدوث هذه المعجزة ولا أيّ شيء خارق للطبيعة كما يتوقع جميع الناس. ولكن لماذا يجلَّل بالعار، لماذا هذا التحلل المتسرع الذي «يسبق الطبيعة»، كما كان يقول الرهبان الحاقدون؟ لماذا هذه «الإشارة» التي كانوا يتفاخرون بها بشكل انتصاري مع الأب فيرابونت؟ ولماذا يمكنهم أن يعتقدوا بأنهم حصلوا على الحق بأن يستخرجوا هذه النتائج؟ أين هي إذن العناية الإلهية ويدها اليمنى؟ لماذا امتنعت عن التدخل «في اللحظة التي كان فيها تدخّلها ضرورياً» (كان يقول في سرّه)، ولماذا أرادت هي نفسها أن تستسلم أمام قوى الطبيعة العمياء الخرساء التي لا ترحم؟

لهذا السبب، كان قلب إيليوشا يبكي دماً. طبعاً، كما سبق أن قلت، لا يفكّر إلّا في ذلك الوجه الذي هو أحب وجه إلى قلبه في العالم والذي مُرِّغ بالعار الآن، و «أهين»! أنا آسف إذا كان ما قاله الشاب طائشاً وغير عقلاني، ولكنني أعود فأقول للمرة الثالثة (ولتتهموني بخفّة العقل أيضاً إذا أردتم): يسعدني أن إيليوشا قد اتصف بالاعتدال في تلك اللحظة من حياته، لأن ساعة العقل تأتي دائماً لدى الإنسان غير الغبي، فإذا لم يكن قلب الفتى ملئ بالحب في مثل هذه اللحظة، فمتى عساه يأتي هذا العقل؟ لا أستطيع السكوت عن عاطفة أخرى غامضة ومضطربة قد مسَّت نفس إيليوشا في تلك الدقيقة المؤلمة من حياته. ربما كلمة «عاطفة» ليست الكلمة المناسبة. هو «شيء» كان يندبه، هو شعور مرتبط بذكرى الحديث الذي جرى أمس بينه وبين أخيه إيڤان، والذي يعاود فكره في هذه اللحظة الحرجة. لست أعني أن عناصر إيمانه الحقيقية الأساسية، قد أصابها أيّ تزعزع... لا. إنه يحب إلهه الآن كما من قبل ولايزال يؤمن به وإن كان يبدي تذمراً في بعض اللحظات. لكن ذلك الإحساس المقلق

الذي شعر به بعد ذلك الحديث فوراً قد استيقظ الآن في نفسه مجدداً، وراح يحاول الخروج إلى سطح شعوره بقوة تتزايد باستمرار. وهبط المساء أثناء ذلك، وخيَّم الظلام، وهذا راكيتين الذي كان يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من المنسك إلى الدير، يرى إيليوشا، فجأة، مستلقياً تحت شجرة، وقد وضع وجهه على الأرض، ساكناً لا يتحرك وكأنه نائم. اقترب منه وناداه:

ـ أنت هنا يا ألكسي؟ أيمكن أن... قال راكيتين مدهوشاً ولكنه توقف فجأة عن الكلام قبل أن يكمل جملته. كان يريد أن يقول: «أيعقل أن يصل بك الأمر إلى هذا الحدّ»؟

لم يرفع إيليوشا عينيه نحوه، لكن راكيتين أدرك من حركة صغيرة أن إيليوشا قد سمعه وفهمه.

استأنف يقول وقد تحولت الدهشة في وجهه إلى ابتسامة ساخرة شيئاً فشيئاً: «ماذا أصابك؟ اسمع، إنني أفتش عنك منذ ساعتين. ماذا تفعل هنا؟ ما هي هذه الحماقات المقدسة؟ أنظر إليّ على الأقل عندما أتكلم.

رفع إيليوشا رأسه، وجلس مسنداً ظهره إلى جذع شجرة. لم يكن يبكي ولكن كان الألم يظهر على تقاطيع وجهه، وفي عينيه غضب. لم يكن ينظر إلى راكيتين بل يحدّق إلى شيء في جانبه.

قال راكيتين:

ـ هل تعلم أن وجهك قد تغيّر كلياً؟ لم يبق فيه أثر من ذلك الألم الذي كنت فيه، هل أنت غاضب من أحد؟ هل أساء إليك أحد؟

تمتم إيليوشا فجأة دون أن ينظر إليه وذلك بإشارة تعبّر عن التململ:

ـ إليك عني!

ـ أوه. أهكذا أصبحنا الآن إذن؟ نصرخ مثل كل الناس! عجيب! هل يصدَّق أن يصدر مثل هذا الصراخ عن ملاك؟ حسناً، يا إيليوشا، في وسعك أن

تفخر بأنك أدهشتني. أقول لك هذا بكل صدق. لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أُدهش من شيء هنا. أنا من كنت أظنك إنساناً مثقفاً...

أخيراً، رفع إيليوشا إليه عينيه لكن بذهول كأنه لم يفهم جيداً ما قاله.

ـ لن تجعلني أعتقد أن صاحبك المرشد العجوز قد مات؟ هل كنت تعتقد حقاً أنه كان سيحقق لك معجزات؟ قال راكيتين مشدوهاً.

ـ كنت أظن، وما زلت أظن وأريد أن أظن وسأظل! ماذا تريد بعد؟ صرخ إيليوشا بصوت حانق.

ـ أنا لا أريد شيئاً يا عزيزي! أمر عجيب! إن تلميذاً في الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور. كما تريد، على كل حال. ها أنت إذن غاضب من الله! مثل موظف مستاء من أنه نُسي أن يرقّي أو حُرم من وسام في احتفاله؟ أنت إذن!

نظر إيليوشا إلى راكيتين طويلاً وهو مغمض العينين نصف إغماضة وبشكل غريب، وومض في عينيه شيء ما... ولكن ليس غيظاً من راكيتين.

ـ لست ثائراً على إلهي ولكنني «أرفض قبول عالمه». ذلك كل شيء. قال وهو يجهد على الابتسام.

ـ ماذا تعني بأنك ترفض عالمه. قال راكيتين بعد أن فكَّر قليلاً. ما هذا الكلام الملتبس؟

لم يجب إيليوشا.

ـ حسناً. كفانا حماقات. لننتقل الآن إلى الأمور الأساسية: هل أكلت اليوم؟

ـ لا أعرف... يبدو أنني أكلت. نعم.

ـ يجب أن تستردّ قواك، هذا ما يبدو على وجهك. إن منظرك يثير الشفقة. قيل لي إنك لم تنم طوال الليل. يظهر أنكم قد عقدتم اجتماعاً هناك. ثم حدث

ذلك الهرج وتلك الطقوس... إن في جيبي بعض النقانق، حملته احتياطاً عندما جئت إلى هنا. ولكن، أعتقد أنك لا تأكل النقانق، أليس كذلك؟

ـ هات النقانق.

ـ هيه، هذا أمر جديد، هذه ثورة بمتاريس! ليس هذا قليلاً. هيا نذهب إلى منزلي... أنا أيضاً في حاجة إلى قليل من الفودكا. إنني مرهق حتى الموت. أراهن أنك لن تتجرأ على تناول الفودكا... أو نعم.

ـ سأشرب الفودكا.

ـ هذا كثير يا صاحبي! قال راكيتين وهو ينظر إليه بدهشة. حسناً، هل تريد فودكا أم نقانق؟ هذه مغامرة. يجب ألّا تضيِّع الفرصة. اتبعني!

نهض إيليوشا عن الأرض دون أن يتفوه بكلمة، وتبع راكيتين.

ـ لو علم أخوك فانتشكا بهذا لتملكته الدهشة. بالمناسبة: لقد سافر أخوك، إيڤأن فيودوروفتش إلى موسكو هذا الصباح. هل كنت على علم بذلك؟

ـ كنت أعرف ذلك. أجاب إيليوشا بدون اكتراث. وظهرت صورة أخيه ديمتري فجأة في خياله ولكنها لم تلبث فيه سوى لحظة قصيرة. لقد أحسّ، بشكل غامض، بوجود أمر مستعجل، هو إلزام أخلاقي، هو واجب يجب أن يقوم به، ولكن هذه الذكرى لم تخرجه من خدره، لم تبلغ قلبه ثم سرعان ما بارحت ذاكرته. ومع ذلك، فإن هذه الذكرى ستعاود ذاكرة إيليوشا كثيراً فيما بعد.

ـ لقد نعتني أخوك فانتشكا اللطيف، ذات يوم، بأنني «تافه ليبرالي». أما أنت فقد أسمعتني، في يوم من الأيام، أنني بدون «استقامة». حسناً. سنرى عما قريب ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين هامساً كأنه يحدّث نفسه) ثم أضاف بصوت عالٍ: لنتجنّب المرور بالدير ولنتّجه مباشرة إلى المدينة بواسطة الدرب الضيق... همْ! سأمرّ لحظة قصيرة إلى منزل السيدة

خوخلاكوفا. هل تتصوّر: لقد رويت لها بالتفصيل كل ما جرى هنا. فإذا هي تجيبني، منذ قليل، في بطاقة كتبت عليها بالقلم (هذه السيدة تعشق كتابة البطاقات) «أنها ما كان لها أن تتوقع من مرشد عجوز محترم كالأب زوسّيما، أن يصدر عنه مثل هذا السلوك»! هذا ما كتبته: «السلوك»! هي أيضاً حاقدة عليه شخصياً بسبب ما حدث. ـ هذا أنتم! قال راكيتين ثم صاح فجأة وقد توقّف عن السير وأمسك إيليوشا من كتفه، وحدَّق إليه بعينين متفرستين: «هل تعلم يا أليوشكا». واستبدت براكيتين في تلك اللحظة فكرة جديدة برزت في ذهنه. وكان واضحاً رغم سحنته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبّر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدّق ما كان عليه إيليوشا من حالة نفسيّة هي في نظر راكيتين خارقة وغير متوقعة. وأخيراً قال بصوت خجول غير مطمئن:

ـ إيليوشا، عزيزي! هل تعرف إلى أين يتوجب علينا أن نذهب أولاً؟

ـ إلى حيث تشاء.

ـ لنذهب إلى غروشنكا! هل توافق؟ قال راكيتين وهو يرتعش لهفة.

ـ هيا نذهب إلى غروشنكا إذا أردت! أجاب إيليوشا بهدوء وبدون تردد. كاد راكيتين أن يقع إلى الوراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة السريعة مستغربة. فقال مذهولاً:

ـ هكذا؟ عظيم!

لكنه ما لبث أن ثاب إلى نفسه، فأمسك إيليوشا من ذراعه، وأسرع يدفع الشاب نحو الدرب الضيق خشية أن يتراجع عن رأيه.

وسارا صامتين، لأن راكيتين يتجنّب الآن أن يفتح فمه، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلاً:

ـ كم ستكون مسرورة، كم ستكون سعيدة... لكنه سرعان ما لزم الصمت. ولم يحاول راكيتين أن يصحب إيليوشا إلى منزل غروشنكا ليسرّها. فراكيتين

رجل جاد، لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه فائدة له. وكان في تلك اللحظة يخضع لباعثين اثنين: الأول، هو لكي ينتقم: يريد أن يشهد «تدنّس الرجل الصالح» و «سقوط» إيليوشا من «القداسة إلى الإثم». وذلك أمر كان يتلذذ به منذ الآن. وأما الهدف الثاني فهو مادي سيحقق له كسباً كبيراً. وسنأتي على ذكره لاحقاً.

قال راكيتين في سرّه وهو يشعر بفرح وحقد في آن: «إذن، إنه أمر من هذا النوع، وهم يغضون الطرف عنه، في هذه اللحظة، لأن ذلك هو حقاً خبر مبارك».

III

البصلة الصغيرة

تسكن غروشنكا في المكان الأشد صخباً في المدينة بالقرب من ساحة الكاتدرائية، في منزل أرملة التاجر موروزوف، التي استأجرت عندها جناحاً صغيراً مبنياً من خشب في فناء منزلها. ومنزل موروزوفا من حجر، وهو واسع له طابق فوق الطابق الأرضي، لكنه متسخ وقديم، وصاحبته تعيش فيه وحيدة مع عجوز وابنتَي شقيقتها المسنتين العانستين. ولم تكن في حاجة لتؤجر جناح الفناء لكي تعيش. لكن الناس جميعاً في المدينة يعرفون أنها لم تقبل أن تقيم غروشنكا في منزلها (منذ أربع سنوات) إلّا لكي ترضي قريبها التاجر سامسونوف الذي يميل إلى غروشنكا ويحميها. ويؤكد الناس في المدينة أن العجوز الغيور فكر في أول الأمر حين أسكن «محظيته» في منزل موروزوفا أن يجعلها تحت إشراف العجوز اليقظة لكي تراقب سلوكها. ولكن سرعان ما ظهر أن هذه العجوز آخر الأمر لم تكن تلتقي غروشنكا إلّا نادراً ولم تكن تزعجها بأي مراقبة؛ وانقضت، الآن، أربع سنوات على اليوم الذي جاء فيه العجوز إلى هذا المنزل بالفتاة الخجول التي لا يزيد عمرها على الثمانية عشر ربيعاً، والتي وجدها في مركز الإقليم، وقد كانت نحيلة الجسم هزيلة البنية

حزينة واجمة. ومنذ ذلك الوقت فإن مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور. وكان الناس، في مدينتنا، كما قيل، لا يعرفون إلّا أشياء قليلة وغامضة عن حياة الفتاة الماضية، وكان ما يتداولونه من أخبار عنها بحاجة إلى الدقة والوضوح. ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيراً، حتى في المرحلة التي أصبح فيها أمر «الجميلة بين الجميلات»، أغرافينا ألكسندروفنا، يهمّ عدداً كبيراً من الناس عندنا خلال أربع سنوات، كان يقال إن ضابطاً مجهولاً أغواها ثم هجرها وسافر وتزوج بأخرى، فتُركت غروشنكا للعار والشقاء. وكان يزعم أيضاً أن غروشنكا، رغم أن التاجر العجوز يعيلها، تنتمي إلى عائلة محترمة من رجال الدين، وأنها ابنة كاهن كان محالاً على الاستيداع، وكانت تقال أمور كثيرة من هذا النوع. المهمّ أن اليتيمة المذلَّة قد استحالت خلال أربع سنوات، إلى حسناء روسية بضة الجسم زاهية اللون، نشيطة، امرأة جريئة لا تخلو من الوقاحة، حاذقة في شؤون الأعمال، نهمة إلى المال، امرأة بخيلة وحذرة في آن. وكان يقال أيضاً إنها تمكنت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيراً بوسائل شريفة أو غير شريفة، لكنها أمينة دائماً. ولم يقتنع الناس إلّا بشيء واحد: هو أن غروشنكا امرأة يستحيل نيلها، فما من رجل باستثناء العجوز حاميها، استطاع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء خلال تلك السنوات الأربع. والأمر صحيح لا شك فيه، لأن رجالاً كثراً قد سعوا إلى الحظوة بنعمها، ولا سيما في السنتين الأخيرتين، فلم ينل أحد منهم شيئاً، وفشلت كل محاولاتهم، حتى إن بعضاً منهم قد اضطر إلى الانسحاب وهو موضع هزء وسخرية بسبب ما تتصف به السيدة الشابة من عزيمة صلبة وروح ساخرة. وقد عُرف أيضاً أن هذه السيدة الشابة أصبحت تهتم بالأعمال ولاسيّما منذ سنة، وأنها تبذل فيها مقدرات ضخمة وتبرهن على كفاءات غير عادية، حتى إن كثيراً من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية». ليس معنى هذا أنها

كانت تقرض المال بالربا ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشتري بالاشتراك مع فيودور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بسعر بخس، بعِشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك إلى تحصيل قيمتها كاملة أي تتقاضى مبالغ تساوي عشرة أضعاف ما دفعت، والعجوز سامسونوف الذي تورمت ساقاه فأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ سنة، كان رجلاً أرمل يضطهد أولاده، لكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات. ومع ما هو معروف به من بخل وقسوة فقد وقع تحت تأثير الفتاة التي كان لا يعطيها في بادىء الأمر إلّا بما «يسدّ الرمق»، على حد تعبير الساخرين. لكن غروشنكا استطاعت أن تتحرر بفضل ما أوحته إليه من ثقة كبيرة بإخلاصها له. إن هذا العجوز، وهو واحد من كبار رجال الأعمال، (توفي منذ زمن طويل) كان ذا طبع خاص من أهمّ صفاته البخل والقسوة العنيفة. ورغم ما كان لغروشنكا من تأثير كبير فيه ـ حتى أصبح لا يستطيع العيش بدونها ـ فإنه لم يترك لها مالاً كثيراً حتى ولو هددته غروشنكا بالهجرة لما كان يتزحزح عن موقفه في هذا المجال. لكنه أعطاها أثناء حياته مبلغاً غير كبير من المال، فلما عرف الناس في المدينة بذلك أصيبوا بالدهشة جميعاً. قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل: «أنت امرأة ذكية سوف تعرفين كيف تستثمرين هذا المبلغ. ولكن اعلمي أنني، عدا ما أنفقه عليك لإعالتك التي سوف أستمر في تأمينها، لن أعطيك شيئاً أثناء حياتي، ولن أوصي لك بشيء بعد مماتي». وقد تمسك بقوله: مات تاركاً كل ثروته لأولاده الذين عاملهم أثناء حياته، هم وزوجاتهم وأولادهم، معاملة الخدم. أما غروشنكا فقد رفض حتى أن يأتي على ذكرها في وصيته. لقد عُرفت كل هذه التفاصيل فيما بعد. لكن الرجل قد ساعد غروشنكا في مقابل ذلك بنصائحه في استثمار «رأس مالها الشخصي»، ودلّها مراراً على «أعمال» مكسبة جداً. وعندما تولّه فيودور بافلوفتش كارامازوف بحب غروشنكا التي تعرَّف إليها بمناسبة

صفقة طارئة، ولما انتهى به الأمر على نحوٍ لم يكن في حسبانه هو نفسه، إلى الهيام بها بشكل أفقده عقله تقريباً، فإن العجوز سامسونوف الذي كان مريضاً جداً ويشارف نهايته، فلم يزد أن ضحك من ذلك. ومن الأمور البارزة أن غروشنكا كانت صريحة مع العجوز طوال فترة العلاقة بينهما. ويبدو أن العجوز كان الإنسان الوحيد الذي عاملته غروشنكا بصراحة تامة. لكن عندما تولَّه ديمتري فيودوروفتش هو أيضاً بها توقَّف حاميها العجوز عن الضحك. بل اعتقد أن من واجبه أن يحذِّر المرأة الشابة ناصحاً: فقال لغروشنكا بلهجة جادَّة وحاسمة: «إذا كان عليك أن تختاري بين الاثنين، الأب وابنه، فاختاري الأب، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يحدد لك مبلغاً مناسباً منذ البداية. أما الكابتن، فدعيه وشأنه، لن يفيدك بشيء.» هكذا تكلم العجوز المحب للملذات غروشنكا بينما كان يشعر بدنوّ أجَله، ولقد مات، فعلاً، بعد ذلك بخمسة أشهرٍ. ولنذكر، مروراً، أن أحداً من الناس، عندنا في المدينة، لم يكن يعرف بدقة ماذا كان موقف غروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن، رغم أن أناساً كثيرين كانوا في ذلك الوقت على علمٍ بالمنافسة الشديدة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة. أما خادمتا غروشنكا فقد شهدتا في الدعوى (بعد الكارثة التي سأتحدث عنها فيما بعد) أن أغرافينا ألكسندروفنا لم تكن تستقبل ديمتري فيودوروفتش إلّا خوفاً منه، لأنه «هدَّد بقتلها». ولغروشنكا خادمتان: الأولى طباخة عجوز كانت فيما مضى تخدم أسرتها وهي الآن مريضة، وتكاد تكون صمَّاء، والثانية فتاة لطيفة كانت بمثابة وصيفة لها وهي حفيدة الطباخة العجوز. وكانت غروشنكا تعيش حياة بائسة في مسكن بسيط متواضع جداً. إنها تشغل في الجناح ثلاث غرف، أثاثها من خشب الأكاجو، استأجرته غروشنكا من مالكة المنزل وهو من طراز أثاث ١٨٢٠. وحين وصل راكيتين وإيليوشا إلى مسكن غروشنكا كان الظلام قد

خيَّم ولكن الغرف لم تُشعل الأضواء فيها بعد. كانت غروشنكا في غرفة الاستقبال مستلقية على كنبة طويلة وغير مريحة وقاسية لها مسند من خشب الأكاجو، قد غُطّيت بجلد صلب، مهترئة منذ مدة طويلة ومثقوبة. كانت تسند رأسها إلى وسادتين بيضاوين أخذتهما من سريرها وكانت مستلقية على ظهرها، ساكنة واضعة يديها وراء رأسها، ترتدي ثوباً من حرير أسود ـ كأنها تنتظر زيارة أحد ـ ملفّعة شعرها بقبعة رائعة من تخريم ملائمة كثيراً لها، ألقت على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضاً قد ثبتته بدبوس كبير من ذهب. أجل، إنها كانت تنتظر أحداً لأن وضعها كان يدل على نفاد الصبر والقلق. وكان وجهها شاحباً وعيناها حمراوين وشفتاها أيضاً، فيما كان طرف قدمها يلطم ذراع الكنبة. فما إن دخل إيليوشا وراكيتين حتى تملكهما اضطراب مريع: سمعاها وهما في الممشى تثب بسرعة عن كنبتها وتصرخ فجأة بصوت مذعور:

ـ من هنا؟

لكن الزائرينِ استقبلتهما الخادمة الشابة التي أجابت سيدتها على الفور قائلة:

ـ ليس السيد. إنهما شخصان آخران.

ـ ماذا يجري؟ تمتم راكيتين وهو يمسك إيليوشا من ذراعيه ليقوده إلى غرفة الاستقبال، كانت غروشنكا تقف قرب الكنبة وهي ما تزال مذعورة. وقد خرجت ضفيرة طويلة من شعرها الكستنائي الداكن من تحت قبعتها وتهدَّلت على كتفها اليمنى ولكنها لم تنتبه إليها ولم ترفعها إلّا بعد أن حدَّقت إلى الزائرين وعرفتهما.

ـ أهذا أنت يا راكيتكا؟ لقد أخفتني! ومن هذا الذي تصحبه؟ يا إلهي! يا لها من مفاجأة، صاحت غروشنكا عندما عرفت إيليوشا.

قال راكيتين مصطنعاً هيئة منطلقة حرة، هيئة رجل يشعر أن بينه وبينها صداقة حميمة ما يسمح له أن يصدر الأوامر نيابة عنها، هلّا أشعلت الشموع!

ـ الشموع... طبعاً، الشموع... فينيا إئته بشمعة... لقد اخترت الوقت المناسب لتجيئني به! صاحت غروشنكا مرة أخرى وهي تومىء برأسها إلى إيليوشا. ثم التفتت نحو المرآة فتناولت بسرعة الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها، وكان يبدو عليها أنها غير راضية.

ـ لعلني جئت في غير الوقت المناسب؟ سأل راكيتين مستاءً.

ـ لكنك أخفتِني يا راكيتكا، هذا كل شيء. واستدارت نحو إيليوشا وقالت مبتسمة. لا تخف مني يا عزيزي الطيب إيليوشا. ليتك تعرف كم أنا سعيدة بلقائك، أنا التي لم أكن أتوقع زيارتك. أما أنت يا راكيتكا فقد أرعبتني. لأنني ظننت أن ميتيا هو الذي كان يريد أن يقتحم بابي. لقد خدعته في ذلك اليوم وأجبرته على أن يقسم بأنه يصدّقني، بينما كنت أكذب عليه. زعمت له أنني سأقضي السهرة كلها عند كوزما كوزميتش العجوز أساعده في الحسابات المالية حتى ساعة متأخرة من الليل، إنني أذهب، مرة كل أسبوع لتنظيم حساباته. نغلق باب الغرفة، فيأخذ هو بإجراء عمليات الجمع بواسطة عدّاد، وأقوم أنا بتسجيل ما يمليه عليَّ من أرقام لأنني الشخص الوحيد الذي يثق به. يعتقد ميتيا بأنني الآن عند العجوز بينما أنا مستلقية هنا أنتظر رسالة. كيف سمحت لكما فينيا بالدخول! فينيا، فينيا! أسرعي إلى الباب الكبير وافتحيه وألقي نظرة على الخارج وتأكدي هل يحوم الكابتن حول المنزل؟ من المحتمل أن يكون قد اختبأ في مكان ما ليتجسس عليّ. إنني أخاف منه خوفاً قاتلاً!

ـ لا يوجد أحد يا أغرافينا ألكسندروفنا، فلقد راقبت كل ما حول المنزل منذ لحظة، وأنا أنظر من شق الباب طوال الوقت لأنني أرتعد خوفاً أنا أيضاً.

ـ هل درفات النوافذ مغلقة يا فينيا؟ يجب إسدال الستارة (وأسدلت

الستارة السميكة) حتى لا يدخل النور منها، إنني خائفة من ميتيا أخيك في هذا اليوم يا إيليوشا. كانت غروشنكا تتكلم بصوت عال رغم قلقها وفيها شيء من حماسة.

ـ لماذا تخافين ميتينكا إلى هذا الحدّ اليوم؟ سألها راكيتين. كنت أعتقد أنك لا تخافين منه بل تسيّرينه بعصاك.

ـ قلت لك إنني أنتظر رسالة، رسالة، فيجب ألّا يأتي ميتينكا الآن، ثم إنه لم يصدقني حين قلت له إنني ذاهبة إلى كوزما كوزميتش، لقد أحسست بذلك. أراهن أنه اختبأ في مكان ما وراء حديقة فيودور بافلوفتش ليراقبني. هذا أفضل! فهو في هذه الحالة لن يأتي إلى هنا. أما كوزما كوزميتش، فقد ذهبت إليه فعلاً، ورافقني ميتيا حتى باب منزله، وزعمت له أنني سأبقى هناك حتى منتصف الليل ورجوته بإلحاح أن يأتي ليصحبني في العودة إلى منزلي. عندئذ تركني، فبقيت عند العجوز عشر دقائق ثم رجعت، آه. ما أشدّ ما كنت أخشى أن ألقاه في الطريق!

ـ لماذا تزيّنت كل هذه الزينة؟ وما هذه القبعة الرائعة التي أرى؟

ـ غريب أمرك يا راكيتكا! قلت لك إنني أنتظر رسالة، فمتى وصلت الرسالة أسرعت للخروج من هنا. لهذا السبب ارتديت ملابسي لأكون جاهزة.

ـ إلى أين تذهبين؟

ـ تحب أن تعرف؟ الإكثار من العلم ضرر يا عزيزي!

ـ إذن! أنت مسرورة جداً. ما رأيتك على هذه الحال في يوم من الأيام. لقد ارتدت ملابسها وكأنها ذاهبة إلى حفلة راقصة! قال راكيتين وهو يتفحصها بنظره.

ـ ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص؟

ـ وأنت؟ هل تعرفين عنها أكثر مني؟

ـ أنا حضرت حفلة راقصة مرة واحدة. حدث ذلك منذ سنتين عندما زوَّج كوزما كوزميتش ابنه. كنت أشاهدها وأنا على الشرفة. لماذا أضيع وقتي في الحديث معك يا راكيتكا بينما عندي أمير بحقّ يزورني! يا إيليوشا، يا ملاكي الصغير، أنا لا أصدق عينيّ! كيف أمكن أن تأتي إلى منزلي؟ في الحقيقة إنني لم أتوقع ولو كنت أحلم أن أراك تجيء إلى منزلي! لم أصدق في يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئني، أعترف لك بذلك! إنك لم تختر الوقت المناسب ومع ذلك فأنا مسرورة جداً برؤيتك! اجلس على هذه الكنبة هنا، يا عزيزي الجميل! إنني مدهوشة، ليتك يا راكيتكا قد جئتني به يوم أمس، أو أمس الأول!... لا بأس، هكذا أفضل. أنا سعيدة رغم كل شيء. بل ربما مجيئه اليوم، في مثل هذا الوقت، خير من المجيء قبل أمس...

جلست غروشنكا على الكنبة قرب إيليوشا بحيوية وراحت تنظر إليه في نشوة وحماسة. كانت تشعر، بالفعل، بسعادة لرؤيته، ولم تكذب عندما أكدت له ذلك. كانت عيناها تسطعان بريقاً وشفتاها تضحكان بمرح فيه كثير من اللطف والبساطة. لم يتوقع إيليوشا أن يرى في وجهها مثل هذا التعبير عن هذا اللطف... إنه لم يرَ غروشنكا، حتى الآن، إلّا نادراً، قبل نهار البارحة، وكان رأيها فيه ممتازاً. وبالأمس، كانت ثورتها المؤذية على كاترينا إيڤانوفنا قد قلبت نفسه رأساً على عقب، لذلك أدهشه أن يرى فيها إنساناً مختلفاً كلياً. كانت حركاتها قد تغيَّرت عما كانت عليه بالأمس، وتحسنت بشكل ملحوظ: لم يعد في صوتها الآن تلك النبرات الرخوة التي أصبحت الآن سريعة واضحة ومباشرة، وهي الآن تنطلق على سجيتها واثقة رغم ما كانت عليه من اضطراب.

ـ يا إلهي! يا للمغامرات التي تحققت اليوم! قالت مدمدمة. لماذا يا إيليوشا أنا سعيدة برؤيتك، أتساءل في نفسي؟ أؤكد لك أنني أجهل أنا نفسي سبب هذه السعادة!

ـ أأنت تجهلين إلى هذا الحد مما أنت سعيدة؟ قال راكيتين متبسماً. لا شك في أنك لم تلحّي طوال هذه المدة في طلب المجيء به دون باعث يدفعك إلى ذلك. لقد ثقبت أذنيَّ من كثرة ما سألتني: جئني به، جئني به؛ فلا بدَّ أن يكون لك في ذلك هدف.

ـ في الماضي، كان لي هدف آخر ولكن الآن لم يبقَ لي أيّ هدف. فات الأوان. والآن ماذا أقدّم إليكما؟ أصبحت الآن لطيفة يا راكيتكا؟ هلّا جلست يا راكيتكا. لماذا تبقى واقفاً؟ هلَّا جلست إذن؟ لا خوف على راكيتوشكا أراهن أنه لن ينسى نفسه! أنظر! ها هو يتخذ له مكاناً قبالتنا يا إيليوشا، وهو مستاء من أنني لم أدعه إلى الجلوس قبل أن دعوتك. إنه سريع التأذي، عزيزي راكيتكا، (قالت غروشنكا ضاحكة). لا تغضب يا راكيتكا! أنا اليوم لطيفة. وأنت يا صغيري إيليوشا، لماذا تبدو حزيناً هكذا؟ هل تخاف مني؟ قالت له ذلك ونظرت مباشرة في عينيه وهي تبتسم بسخرية.

ـ إنه كئيب لأنه رفض في الترقيات. قال راكيتين بصوت خفيض.

ـ أي ترقيات؟

ـ فاحت من جسد راهبه المرشد رائحة تحلُّل.

ـ رائحة تحلل؟ ما هذه الحماقات التي تقولها؟ لا شك أنك تريد أن تغمز منه. أنا أعرفك! أسكت أيها الأبله!

ـ هل تسمح لي يا إيليوشا بأن أجلس على ركبتيك... هكذا؟

قالت ذلك وجلست على ركبتيه بوثبة واحدة، وهي تضحك، وتلامسه برقَّة مثل قطة صغيرة. ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى بحنان. وأردفت قائلة: سوف أعرف كيف أدخل البهجة إلى قلبك يا فتاي الصغير التقيّ. هل تسمح لي بأن أبقى على ركبتيك؟ ألا تغضب؟ إذا شئت سأنهض!

بقي إيليوشا صامتاً. لم يجرؤ على القيام بأيّ حركة. لقد سمع كلماتها:

«إذا شئتَ قمتُ»، لكنه لم يجب، فكأنه مشلول. ولكن ما كان يربكه، هو غير ما كان يمكن أن يتوقعه أو يمكن أن يتصوره، مثلاً راكيتين الذي كان يتأمله بتلهف من مكانه. إن الألم العميق الذي يملأ روحه قد جمَّد أحاسيسه كلها، ولو كان بإمكانه أن يرى ما بنفسه بوضوح لأدرك أنه كان في تلك اللحظة محصّناً بقوة من جميع التجارب أو الإغراءات. رغم ذلك، رغم ذهوله عن حاله والألم الذي كان يرهق جسده، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت في قلبه: وهو أن هذه المرأة، هذه المرأة «الرهيبة» لم تعد تخيفه الآن كما في السابق، ولا تبعث في نفسه ذلك الخوف الذي كان يشعر به حتى ذلك الحين عندما خطرت بباله المرأة في المناسبات النادرة التي كان يمكن أن تخطر المرأة بباله. بل إن ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماماً: إن هذه المرأة الشابة التي كان يخشاها أكثر من سائر النساء، والتي تطوقه بذراعيها جالسة على ركبتيه، توقظ في داخله شعوراً مختلفاً، شعوراً فريداً غير متوقع، شعوراً هو استطلاع قويّ يحسن إلى حالته الروحية حقاً. فهو لا يشعر بأي خوف، لا يشعر بأي أثر من آثار خوفه السابق، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه.

ـ توقفي عن هذه الحماقات. صاح راكيتين. من الأفضل أن تسقينا شيئاً من الشمبانيا. لقد وعدتني، هل تتذكرين؟

ـ صحيح. وعدتك بذلك. قطعت له على نفسي عهداً يا إيليوشا بأن أقدّم له شمبانيا يوم يجيئني بك. هيّا بنا. سأشرب أنا أيضاً الشمبانيا. فينيا، فينيا، اجلبي لنا زجاجة الشمبانيا التي تركها ميتيا، أسرعي! سوف أسقيكما شمبانيا مهما أكن بخيلة! ليس من أجلك يا راكيتكا، فأنت لست سوى خيارة فاسدة، بل من أجله هو، إنه أميري! سأشرب معكما. أريد أن أقصف.

ـ ماذا حدث لك في هذه اللحظة؟ ما هذه «الرسالة» التي تنتظرينها؟ هل

هي سرّ؟ سألها راكيتين بفضولية وهو يبذل جهداً كبيراً لكي لا يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التي تنهال عليه.

ـ ليس الأمر سراً، إنك على علم به. قالت غروشنكا بقلق. وأدارت وجهها نحو راكيتين، وابتعدت قليلاً عن إيليوشا مع بقائها جالسة على ركبتيه وهي تحيط عنقه بذراعها وقالت: سيصل الضابط يا راكيتين، ضابطي الجميل!

ـ أعرف أنه سيصل، وهل هو قريب من هنا؟

ـ إنه الآن في موكرويه. وسيبعث إليّ رسولاً. ذكر لي ذلك في رسالة تسلمتها أمس. وأنا هنا أنتظر رسوله.

ـ غريب! لماذا في موكرويه؟

ـ شرح هذا الأمر يطول. يكفيك الآن ما سمعت.

ـ إنني أتصوَّر ميتيكا الآن. هل هو على علم بالأمر؟

ـ إنه لا يعرف طبعاً. أبداً. لو علم سيقتلني. لكنني لم أعد أخشاه الآن. ولا أخاف من سكينه. أسكت يا راكيتكا. لا تحدثني بعد الآن عن ديمتري فيودوروفتش. لقد أساء إليّ كثيراً. لا أحب أن أفكر في شيء الآن. أريد أن أفكر في عزيزي، في إيليوشا. إنني أتأمل عزيزي إيليوشا... هلّا ابتسمت قليلاً يا ملاكي. كن أكثر فرحاً، شاركني سعادتي، اهزأ بسخافاتي... آه، لقد ابتسم لي. لقد ابتسم! ما أروع نظرته الوديعة. هل تعلم يا إيليوشا؟ كنت أخاف أن تغضب مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة. لقد تصرَّفت معها بخبث... هذا صحيح لكنني سعيدة رغم كل ما جرى. كان ذلك سيئاً من جهة وحسناً من جهة ثانية. أضافت ضاحكة ثم عبست فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة. قال لي ميتيا كيف صرخت بعد انصرافي قائلة: «هذه البنت تستحق الجلد!» لقد أرادت أن تعرفني آملةً في أن تسيطر عليّ... كانت تعتقد أنها ستحطمني وستفتنني بفنجان من الشوكولا... لقد أحسنتُ

صنعاً إذ تصرفت على هذا النحو، قالت مع ابتسامتها نفسها. كل ما أخشاه هو أن تكون قد غضبت مني...

ـ صحيح، ما همّ! قال فجأة راكيتين بدهشة كبيرة. إنها تخشى رأيك حقاً يا إيليوشا! تخاف منك، من دجاجة مثلك...

ـ هو في نظرك دجاجة لأنك... بدون حياء. أما أنا فأحبه بكل جوارحي، هل تصدّق؟ هل تصدقني يا إيليوشا إذا قلت لك إنني أحبك من كل قلبي.

ـ إنها لم تنزعج! هذا تصريح بحبٍ يا ألكسي!

ـ أجل أنا أحبّه.

ـ والضابط؟ والرسالة القادمة من موكرويه؟

ـ هذان أمران مختلفان.

ـ ذلك ما تقوله النساء في مثل هذه الحالة.

ـ لا تغضبني يا راكيتكا. أجابت غروشنكا بحدة. هذان أمران مختلفان. أنا أحب إيليوشا حباً آخر. صحيح أنني قد وضعت خطة شريرة ضدك يا إيليوشا فيما مضى، لأنني منحطة، لأنني قاسية. ولكن في لحظات أخرى أعتبرك بمثابة ضمير لي، وطالما حدَّثت نفسي قائلة: «لا بدّ أنه يحتقرني بسبب سلوكي». وقلت لتفسير هذا الكلام أمس الأول عندما عدت من منزل الآنسة. لقد لاحظتك من زمن بعيد يا إيليوشا، وميتيا يعرف هذا. لقد قلته له. وهو يفهمني. هل تصدق يا إيليوشا أنني، أحياناً، حين أنظر إليك أشعر بالخجل فجأة، بالخجل من نفسي... كيف تمكنت أن تدخل إلى قلبي على هذا المنوال؟ ومنذ متى، لا أدري، لا أتذكر أبداً...

دخلت فينيا ووضعت على الطاولة صينية عليها زجاجة مفتوحة وثلاث كؤوس ملأى.

ـ وصلت الشمبانيا! صاح راكيتين. أنت مهتاجة جداً يا أغرافينا

ألكسندروفنا حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك. ومتى شربت كأساً واحدة سوف ترقصين. لكنني أرى أن الشمبانيا لم تقدَّم وفقاً للأصول. الشمبانيا فاترة، والسدادة منزوعة، والخادمة ملأت الكؤوس في المطبخ. لا بأس... سنشربها على كل حال.

واقترب من الطاولة فتناول كأساً وأفرغها في فمه دفعة واحدة ثم ملأها مرة ثانية.

ـ لا يتمتع المرء بالشمبانيا في كل يوم. تمتم وهو يمرّر لسانه على شفتيه. جاء دورك يا إيليوشا. فلنرَ مقدرتك! نخب مَن نشرب؟ نخب أبواب الجنة؟ تناولي كأساً يا غروشنكا أنت أيضاً واشربي معنا نخب أبواب الجنة!

ـ أبواب الجنة؟

وتناولت كأساً. وكذلك إيليوشا، فشرب جرعة ووضع الكأس.

ـ أفضّل أن لا أشرب! قال بابتسامة عذبة.

ـ ولماذا كنت تتباهى إذن؟ صاح راكيتين.

ـ أنا إذن، لن أشرب. قالت غروشنكا. هذا لا يعني لي شيئاً. بإمكانك أن تشرب الزجاجة بمفردك يا راكيتكا. أما إذا قرر إيليوشا أن يشرب فسأشرب أنا أيضاً.

ـ يا للعواطف الرقيقة! قال راكيتين ساخراً. إنها تركع. هو له عذره على الأقل، أما أنت فأيّ عذر لك؟ لقد تمرَّد على الله، وأراد أن يأكل نقانق...

ـ كيف حصل هذا؟

ـ مات مرشده الراهب اليوم... الراهب زوسّيما القديس.

ـ مات الراهب زوسّيما؟ صاحت غروشنكا. يا إلهي! لم أكن أعرف ذلك! ورسمت إشارة الصليب بتقى. يا إلهي! وتابعت منفعلة فجأة كالمذعورة،

وقفزت عن ركبتيه. ومضت تجلس على الكنبة. نظر إليها إيليوشا نظرة طويلة دهِشة، وانفرجت أسارير وجهه. وقال مخاطباً راكيتين بصوت حاد وحازم.

ـ لا تحاول أن تزعجني يا راكيتين، بموضوع ثورتي المزعومة على الله. لا أريد أن أغضب منك أنت أيضاً، ومن أجل هذا، كن أقلّ أذية. لقد فقدتُ كنزاً لم تملكه أنت طوال حياتك لذلك لن تستطيع أن تفهمني. من الأفضل لك أن تقتدي بها. هل رأيت كم تجنبتني؟ لقد جئت إلى هنا لأقابل مخلوقة شريرة، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسي، لأنني كنت في تلك اللحظة سخيفاً شريراً. فوجدت أختاً صادقة، كنزاً، نفساً محبَّة... عنك أتكلم يا أغرافينا ألكسندروفنا. لقد منحتني الشجاعة لكي أعيش.

وارتعشت شفتا إيليوشا، وسكت مختنقاً، فتوقَّف.

ـ لكنها أنقذتك. قال راكيتين وهو يقهقه بسخرية. كانت تنوي أن تبتلعك، هل تعرف ذلك؟

ـ كفى يا راكيتين! قالت غروشنكا مندفعة فجأة. واسكتا كلاكما. أسكت يا إيليوشا! لأنّ كلماتك تشعرني بالعار. لأنني سيئة ولست طيبة، هكذا أنا... أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك كذاب. جائز أنني نويت في السابق تلك النيّة الجبانة وهي أن أبلعه، ولكنك الآن تكذب، لأن هذا قد مضى الآن... ولا أريد أن أسمع كلمة واحدة منك يا راكيتا! قالت غروشنكا مضطربة بشكل غير عادي.

ـ لقد فقدا كلاهما العقل. قال راكيتين وهو ينظر إليهما مدهوشاً. كأنهما مجنونان. هل أنا في مستشفى للمجانين؟ أصبحا عاطفيين، وسيبدآن بالبكاء!

ـ نعم، سوف أبكي، نعم سوف أبكي. رددت غروشنكا. لقد دعاني «أخته» لن أنسى هذا أبداً! اعلم يا راكيتا أنني مهما أكن شريرة، وبالرغم من كل شيء، فقد وهبته بصلتي الصغيرة.

ـ بصلتك الصغيرة؟ حقاً لقد فقدا العقل.

استغرب راكيتين اندفاعاتهما الحماسية، وكان يشعر بالإهانة رغم أنه كان بالإمكان أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الإنسانين بشكل من شأنه أن يبثّ في نفسيهما الاضطراب. لكن راكيتين، السريع جداً إلى إدراك كل ما يمسّه، يجد عناءً في فهم مشاعر الآخرين وأحاسيسهم، أولاً لأنه عديم الخبرة بحكم شبابه، وثانياً لأنه مسرف في أنانيته.

ـ لقد رأيت يا إيليوشا أنني تباهيت أمام راكيتا بأنني قدَّمت بصلة صغيرة. قالت غروشنكا متوجهة إلى إيليوشا وهي تضحك بعصبيّة. ولكنني سأتكلم معك بغير تبجّح. الأمر يتعلق بأسطورة: إنها قصة جميلة حفظتها على ظهر قلب، روتها لي في طفولتي ماترينا التي تعمل اليوم طباخة عندي. تقول القصة: «كانت، فيما مضى، امرأة عجوز شريرة جداً. وعندما ماتت وهي لا تملك أيّ فضيلة يمكن أن تشفع لها في يوم الحساب، أمسكتها الشياطين ورمتها في بحيرة من نار، عندئذ، أخذ ملاكها الحارس يفكّر: «ماذا يمكنني أن أكتشف لها فضيلة قامت بها أذكرها عنها للرب؟» فإذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة في حياتها، فقال للرب: «لقد انتزعت من حديقتها بصلة صغيرة، ذات يوم، وأعطتها لمتسوِّلة». فقال الله للملاك الحارس: «خذ هذه البصلة ومدَّها إلى هذه المرأة في بحيرة النار، وقل لها أن تتمسك بها ثم شدَّها لتخرجها من اللهب. فإذا استطعت أن تخرجها ذهبت إلى الجنة، أما إذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هي». أسرع الملاك الحارس إلى المرأة ومدَّ إليها البصلة، وقال لها: «تمسكي بهذه البصلة فأخرجك من النار». وراح يشدّ بكل قواه، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النار حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل إنقاذها، فتمسكوا بها لكي يخرجوا من البحيرة معها. لكن العجوز كانت شريرة جداً فركلتهم بقدميها وهي تصيح: «إنه يريد إنقاذي أنا لا إنقاذكم أنتم. هذه

البصلة بصلتي أنا لا بصلتكم أنتم». فما إن نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة فسقطت العجوز في البحيرة مجدداً. وما تزال تحترق في النار حتى الآن. أما الملاك فانصرف باكياً(*). إنني أحفظ هذه الأسطورة على ظهر قلب. احتفظت بها لأن هذه المرأة العجوز الشريرة هي أنا. وقد تبجّحت أمام راكيتا بأنني أعطيت بصلة. أما لك أنت فأقول بتواضع إنني إن كنت قد أعطيت بصلة مرة في حياتي فذلك كل ما فعلته ولا تتجاوز طيبتي هذه الحدود. إذن، لا تمدحني يا إيليوشا ولا تعتقد أنني طيبة. أنا شريرة، شريرة جداً، وأشعر بالعار عندما تمدحني. وها أنا أعترف لك بكل شيء يا إيليوشا: لقد بلغت من فرط الرغبة في أن أراك عندي أنني كنت لا أعرف ماذا أفعل لأحضّ راكيتين على أن يجيئني بك. وأخيراً، وعدته بأن سأعطيه خمسة وعشرين روبلاً إذا هو جاء بك إلى منزلي. لحظةً يا راكيتا! وأسرعت غروشنكا تقترب من المنضدة، ثم فتحت درجاً وتناولت محفظة نقودها، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً.

ـ ما هذه السخافات، ما هذه السخافات! صاح راكيتين مرتبكاً.

ـ اقبض أجرك يا راكيتا! أراهن أنك لن ترفضه! لقد ألحت عليّ لكي أعطيك هذا المبلغ. ورمت إليه الورقة.

ـ وهل يمكنني أن أرفض؟ قال راكيتين بصوت أجش محاولاً أن يخفي اضطرابه وخجله. لقد وجد الأغبياء في هذا العالم لمصلحة الناس الأذكياء.

ـ والآن، اسكت يا راكيتكا! قالت غروشنكا. إن ما سأقوله الآن غير صالح لك. اجلس هناك في الزاوية واسكت، ولا تقل شيئاً. أنت لا تحبنا فما عليك إلّا أن تسكت.

(*) كتب دوستويفسكي في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٨٧٩ أنه سمع هذه الأسطورة من إحدى الفلاحات. وهناك أسطورة مشابهة لم يكن يعرفها وهي موجودة في كتاب أساطير للفلكلوري أفناساييف منشورة في العام ١٨٥٩.

ـ ولماذا أحبكما؟ قال راكيتين دون أن يخفي غضبه الشرير. ودسَّ ورقة الخمسة والعشرين روبلاً في جيبه. ولكن تملكه الخجل أمام إيليوشا. كان يعتقد أنه سيتقاضى مكافأته فيما بعد، على غير علمٍ منه، فإذا بالعار الذي يشعر به الآن يجعله شرساً. كان قد رأى أن من الحذق أن لا يستفز غروشنكا، ولكنه بدأ يغضب الآن:

ـ لا يحبّ المرء بدون باعث على الحب، فما الذي يجعلكما تستحقان أنتما حبي؟

ـ إذن، أحبَّ أنت بدون سبب مثل إيليوشا!

ـ من قال لك إن إيليوشا يحبك؟ ماذا فعل من أجلك لكي تصبحي مجنونة؟

كانت غروشنكا في وسط الغرفة، تتكلم متحمسة، وكانت تُسمع عبر صوتها نبرات هستيرية خفيفة.

ـ اسكت يا راكيتكا! أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً. ولا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بيني وبينك وتخاطبني بصيغة «المفرد». لا أسمح لك أن تفعل هذا لاحقاً. من أين جاءتك هذه الجرأة؟ ابقَ في زاويتك واسكت لأنني أعتبرك بمثابة خادم لي. والآن يا إيليوشا، سأقول لك الحقيقة كاملة لكي تعرف أنني مخلوقة شريرة. إنني أعترف لك وليس لراكيتا! لقد أردت ضياعك يا إيليوشا، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها! لقد صممت على هذا الأمر وكنت حريصة عليه أنني حرَّضت راكيتا بالمال على أن يجيئني بك. وما الذي دفعني إلى أن أضيّعك؟ إنك لم تلاحظ شيئاً يا إيليوشا، ولم يخطر ببالك شيء، وكنت تشيح بوجهك عني. كنت تغض طرفك. أما أنا فقد نظرت إليك أكثر من مئة مرة، وسألت كل أصدقائي عنك. انطبعت ملامح وجهك في قلبي. كنت أقول لنفسي: «إنه يحتقرني». إنه يرفض أن ينظر إليّ، وشعرت بغضب إلى درجة

أنني دُهشت أنا نفسي. فقلت: «لماذا أخاف من هذا الشاب؟ سوف أبلعه لقمة واحدة، وبعد ذلك أضحك ملء فمي». واضطرم في نفسي نوع من الغضب. هل تصدق؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ عليّ شيئاً في هذه المدينة، لن يجرؤ أحد أن يشتبه في أغرافينا ألكسندروفنا ويسيء فيها الظن إن هي استقبلت رجلاً في منزلها. لا يوجد في حياتي إلّا ذلك العجوز الذي ارتبطت به وبعته نفسي. لقد جمع الشيطان بيننا. ذلك العجوز وحده من حظِيَ بي. ومع ذلك، كنت مستعدة لأن أكون شاذة عن هذه القاعدة من أجلك. كنت أتحضَّر لكي أبلعك لكي أستطيع أن أضحك ما شئت بعد ذلك. فانظر إلى مدى ما أنا عليه من دهاء وشرّ، أنا التي دعوتني «أختك»! وهذا صاحبي الذي أغواني يبلغني أنه قادم وأنا بانتظار أخبار منه. هل تعلم ماذا كان هذا الرجل في حياتي؟ لقد جاء بي كوزما إلى هنا منذ خمس سنوات. كنت، في بادىء الأمر، أعيش هاربةً من الناس أخاف أن يراني أحد أويسمعني أحد. كنت ضعيفة، غبيّة، ولا أكفّ عن البكاء ليلاً نهاراً. كنت أبقى مؤرقة ليالي بكاملها، أحدّث نفسي قائلة: «أين هو في هذه الساعة الرجل الذي أغواني؟ لا شك أنه يضحك عليَّ ويسخر مني مع امرأة أخرى. آه... لو أستطيع أن ألقاه يوماً! سوف يدفع ثمن ما جنت يداه!». وكنت أبكي على وسادتي في الظلمة وأحلم بالثأر. كنت أستثير ألمي عمداً لأملأ نفسي حقداً. كنت أخرج في الليل قائلة: «سوف يرى! سوف يرى! سوف يندم على ما فعل بي!». ثم أدركت فجأة عجزي. وأصبحت إذا تخيَّلت أنه يسخر مني أو أنه قد نسيني تماماً ـ وهذا أنكى ـ أسقط عن سريري على الأرض وأتدحرج باكية مرتجفة بكل جسدي حتى انبلاج الفجر. ومتى أشرق الصباح نهضت وأنا أشدّ شراسة من كلب، نهضت وأنا مستعدة لأن أؤذي أول إنسانٍ ألتقيه. وانقضت السنون، ورحت أجمع المال، وأصبحت بدون شفقة، وسمنت. ماذا تعتقد؟ هل تعتقد أنني أصبحت بذلك أهدأ بالاً وأكثر تعقلاً؟

لا، ما من أحد يرى ما أقاسي، ما من أحد في العالم كله يتصوّر ما أقاسي: مايزال يحدث لي حتى اليوم كما كان يحدث لي منذ خمس سنوات حين كنت صبيَّة، أن أشدّ على أسناني في سريري ليلاً وأستمر في البكاء حتى الصباح، مرددة: «سوف يدفع ثمن ما جنت يداه!». هل تسمعني؟ فاحكم الآن عليّ: لقد وصلتني منذ شهر رسالة أولى يبلغني فيها أنه أصبح أرمل ويريد أن يراني ويأمل أن يصل عما قريب. صُعقت في الوهلة الأولى وحطّمني الانفعال. ثم قلت لنفسي: «سوف يعود ولن يكون عليه إلّا أن يصفّر حتى أركض إليه مثل كلب، مجلّلة بالعار، مطعونة القلب، طالبة الغفران!». وعندئذ، تساءلت: «هل أكون وضيعة إلى هذا الحدّ؟ هل أرضى أن أذلّ نفسي إلى هذا الحدّ؟». واستبدّ بي الغضب على نفسي طوال هذا الشهر، وكان أسوأ مما حصل معي منذ خمس سنوات. هل أدركت يا إيليوشا ما تتصف به نفسي من سوء وشرّ وعنف؟ إنني أقول لك الحقيقة كاملة. لقد اتخذت ديمتري سلوى لنفسي حتى لا أركض إلى لقاء الآخر. أسكت يا راكيتا! ليس أنت الذي يحكم عليّ! ولست أنت من أتحدث إليه! كنت قبل قدومك يا إيليوشا مستلقية على الكنبة أتحضَّر لمواجهة قدَري، ولن تعرف أبداً ما كان يجري في قلبي. قلْ لآنستك يا إيليوشا أن لا تحقد عليّ بسبب ما حدث أمس الأول!... ما من أحد يستطيع أن يتخيَّل ما أشعر به الآن، لا أحد باستطاعته أن يعرف... لذلك، هل أحمل سكيناً معي في هذا المساء لأذهب إلى الموعد، لم أقرر بعد...

بعد أن قالت غروشنكا هذا الكلام الذي «يرثى له» لم تستطع أن تتمالك نفسها، فتوقفت عن الكلام، وغطت وجهها بيديها وتهالكت على الكنبة تنتحب على الوسادة مثل طفل صغير. فنهض إيليوشا من مكانه واقترب من راكيتين:

ـ هوِّن عليك يا ميشا. قال. لقد أهانتك ولكن لا تغضب منها. هل سمعت

ما قالته؟ على المرء أن يعامل الطبيعة البشرية بالتسامح وأن يشارك الناس آلامهم...

قال إيليوشا هذا الكلام بانفعال من قلبه لا يقاوم. كان يشعر بحاجة إلى إطلاق انفعاله. ولئن خاطب راكيتين بهذا الكلام فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيداً لو لم يكن راكيتين هناك. لكن هذا الأخير نظر إليه بسخرية فتوقف إيليوشا عن الكلام فجأة.

ـ إن راهبك المرشد هو من ملأ رأسك بهذه الأفكار وتريد أنت أن تقدّمها إليّ الآن يا إيليوشا، يا رجل الله الطيب. ردد راكيتين بابتسامة حاقدة.

ـ لا تستهزىء يا راكيتين، لا تسخر ولا تقل شيئاً عن الراهب العجوز الراحل: إنه أرقى من جميع الذين عاشوا على هذه الأرض!

صاح إيليوشا والدموع في صوته. فأنا لا أتكلم معك كقاضٍ دائماً، أنا بالذات كآخر من يحاكم. فمن أنا أمام هذه المرأة؟ اذهب إلى منزلها بهدف الضياع، قائلاً لنفسي «لا بأس... لا بأس...»، وذلك بسبب جبني، وهي بعد خمس سنوات من العذاب، تغفر كل شيء، وتنسى كل شيء، وتبكي، إذا ما قيل لها كلمة صادقة من أي رجل مجهول! إن الرجل الذي أساء إليها وألحق بها كل ذلك الأذى قد عاد وأومأ إليها، فإذا بها تغفر له فوراً فرحة سعيدة. أما السكين فكن على ثقة أنها لن تحمله! لا، لن تحمله. لست أدري يا ميشا هل أنت مثلها طيب ونبيل! هذا درس تعلمته اليوم... هذه المرأة أعظم منا بالحب... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن؟ لم تكن تعرفه حتماً، وإلّا لعرفت كل شيء منذ زمن بعيد... وتلك الأخرى التي أساءت إليها أمس الأول، يجب أن تغفر لها هي أيضاً! سوف تغفر لها متى عرفت... وستعلم... أن هذه النفس لم تستردّ هدوءها بعد. لعلَّ في هذه النفس كنوزاً...

سكت إيليوشا لأنه كان منقطع الأنفاس. وكان راكيتين يحدق إليه مدهوشاً رغم غضبه. لم يكن يتوقع مثل هذا الكلام من إيليوشا الهادىء.

ـ يا لك من محامٍ بارع! أتراك وقعت في حبها؟ أغرافينا ألكسندروفنا، لقد تولَّه صديقنا الصائم بحبك، هنيئاً لك بالنصر! صاح راكيتين ضاحكاً بوقاحة.

رفعت غروشنكا رأسها عن الوسادة، وألقت على إيليوشا نظرة حنوناً أشرقت وجهها المحتقن بالدمع.

ـ لا تأبه له يا إيليوشا، يا ملاكي. أنت ترى من هو، فلا داعي إلى مناقشته. كنت أنوي يا ميشيل أوسيبوفيتش أن أعتذر إليك عن الكلام الجارح الذي قلته لك، ولكنني أعدل الآن عن ذلك. وعادت تكلم إيليوشا قائلة له وملء وجهها الفرح: إيليوشا، اجلس هنا، تعال إلى جانبي، هكذا، قريباً مني. قل لي يا إيليوشا (أمسكت يده ونظرت إلى عينيه مبتسمة)، قل لي: أما زلت أحب الآخر؟ أم أنني لا أحبّه؟ أقصد الرجل الذي أغواني. أحبّه أم لا، أجب؟ كنت قبل قدومك أتساءل في الليل أحاول أن أقرأ في أعماق قلبي: أما زلت أحبه؟ أضئ طريقي يا إيليوشا. هذه ساعة اتخاذ القرار. أنا أَكِل أمري إليك. هل يتوجب عليَّ أن أسامحه؟

ـ لقد سامحته وانتهى الأمر! أجاب إيليوشا مبتسماً.

ـ صحيح، لقد سامحته. قالت غروشنكا مفكرة. ما أجبن قلبي. ثم صاحت: إنني أشرب نخب هذا الجبان الكبير، قلبي. وتناولت من الطاولة كأس شمبانيا، وأفرغتها في فمها دفعة واحدة ثم رمتها على الأرض. تحطمت الكأس محدثة ضجة قوية. ومرة أخرى، ظهر في طرفي فمها شيء من القسوة. ثم قالت بصوت أجش مثقلاً بتهديد غامض، وهي تخفض ناظريها كأنها تخاطب نفسها:

ـ ربّما لم أسامحه بعد. إن قلبي يستعد للتسامح وسأحاول أن أقاومه. آه يا إيليوشا! ما كان أجمل تلذذي بالدموع التي ذرفتها طوال السنوات الخمس. إن عذابي هو ما أُحِبّ. إنني أحب ألمي، ولا أحبه هو!

ـ لا أتمنَّى أن أكون هو! قال راكيتين بتهكم.

ـ لن تكون إياه أبداً يا راكيتكا، أبداً... اعلم هذا. أنت سوف تنظف حذائي. ذلك ما تصلح له في أكثر تقدير. فالنساء اللواتي هنّ من صنفي لم يخلقن لك أنت، ولا له أيضاً، على كل حال...

ـ ولا له أيضاً؟ ولمن تزينت إذن؟

ـ لا تأخذ عليّ ملابسي يا راكيتا! فأنت لا تعرف كل ما في قلبي! سأمزق ثوبي وأنزع زينتي إذا فكَّرتُ في هذا. سأرميهما على الفور، هل تفهمني؟ صرخت بصوت حادّ. أنت لا تعرف يا راكيتكا الهدف الذي تزينت من أجله، من يدري؟ ربما ذهبت إليه فقلت له:

ـ أنظر! انظر، هل رأيتني هكذا، نعم أم لا؟ لقد تركتني هنا وأنا في السابعة عشرة من العمر نحيلة منتحبة. سأجلس بقربه وأغويه وأضرم نار الحب في قلبه. «أرأيت كيف أصبحتُ اليوم؟ أأنت تعجب بي الآن؟ اكتفِ إذن بالإعجاب يا عزيزي، كل شيء يبقى على شاربيك ولا شيء في فمك!». لعل هذا هو السبب في أنني تزينت يا راكيتا؛ بهذا أنهت غروشنكا حديثها لراكيتين وهي تضحك بخبث. أنا عنيفة يا إيليوشا، أنا شريرة. سأخلع ثوبي وأشوّه نفسي وأحرق وجهي وأجرحه بضربات سكّين لأشوّه جمالي ثم أذهب أتسوّل. لا يتوقف الأمر إلّا عليَّ أنا، أن أبقى هنا في هذا المساء، فلا أذهب لا إلى هذا ولا إلى ذاك. وإذا أردت أرجعت منذ الغد إلى كوزما كوزميتش كل الهدايا التي قدَّمها لي، وكل المال الذي أعطانيه، ثم أمضي أعمل طوال حياتي

خادمة لأكسب عيشي... هل تعتقد أنني لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتكا؟ هل تعتقد أنني لن أجرؤ على ذلك؟ سأفعله، سأفعله، لا تثرني وإلّا فعلته فوراً... أما الآخر، فسوف أطرده وأستهزىء به وأنسلّ من بين أصابعه!

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب هستيري ثم لم تتمالك نفسها فإذا بها تخبىء وجهها بين يديها وترتمي على الوسادة باكية ترتعش بكل جسدها. فنهض راكيتين فجأة وقال:

ـ آن الوقت للانصراف! لقد تأخرنا. سوف يمنعوننا من دخول الدير.

فانتفضت غروشنكا من مكانها قائلة:

ـ لن تذهب الآن يا إيليوشا! هل تعبث أنت بي؟ لقد أثرت الاضطراب في نفسي ثم تتركني وحيدة، كما كنت من قبل، في هذا الليل!

ـ لن يقضي الليل عندك على كل حال قال راكيتين ساخراً. إلّا إذا كان راغباً في ذلك. سأعرف كيف أرجع وحدي.

ـ أسكت أنت أيها النفس الشريرة! صرخت غروشنكا. لم تعرف أبداً كيف تكلمني كما فعل هو اليوم.

ـ ماذا قال لك؟ سألها راكيتين غاضباً.

ـ لا أعرف، لا أتذكر كلامه، ولكن كلماته دخلت إلى رأسي وهزّت قلبي بقوة... لقد أخذته بي شفقة، فكأنه أول إنسان يرثي لحالي، كان الإنسان الوحيد الذي رثى لحالي! لماذا لم تأتِ من قبل يا ملاكي؟ سألت إيليوشا وهي تركع أمامه فيما يشبه الوجد. لقد انتظرتك طوال حياتي. كنت أعرف، كنت أشعر أنني سألتقي ذات يوم إنساناً مثلك يعرف كيف يسامحني. كنت واثقةً أن أحداً سيحبني لغاية أخرى غير عاري...

ـ ماذا فعلت لكي أستحق هذا كله؟ سألها إيليوشا مبتسماً بحنان، ومال

عليها وأمسك يدها. أنا، قدمت إليك بصلة، بصلة صغيرة، هذا كل شيء، هذا كل شيء!...

توقف إيليوشا عن الكلام وراح يبكي. وفي تلك اللحظة سُمعت ضجة في المدخل. لقد دخل أحدهم إلى المنزل. نهضت غروشنكا مذعورة. وأسرعت فينيا إلى الغرفة تصرخ فرحاً:

ـ آنستي، عزيزتي، آنستي الطيبة، وصل الرسول! لقد أُرسلت من موكرويه عربة تستقلينها، وراح الحوذي تيموفي يبدِّل الخيول. توجد رسالة لك يا آنستي، رسالة، رسالة... هذه هي الرسالة!

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوّح بها وهي تتكلم. انتزعت غروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة. كانت بطاقة قصيرة للغاية تحوي بضعة أسطر قرأتها غروشنكا بلمحة بصر، ثم صاحت وقد شحب وجهها بشدة وتقبّض بابتسامة مؤلمة:

ـ لقد صفّر لي. لقد صفّر لي. إزحف يا كلبي الصغير!

بقيت مترددة برهة قصيرة، ثم ازدحم الدم في وجنتيها فاحمرتا، وصاحت:

ـ سأذهب! انتهت تلك السنوات الخمس من حياتي. وداعاً، وداعاً، وداعاً لك أنت أيضاً يا إيليوشا. ها قد تقرر مصيري... اذهبوا، انصرفوا الآن جميعكم، واغربوا عن عينيّ إلى الأبد... ستبدأ غروشنكا حياة جديدة. وأنت يا راكيتا لا تحقد عليّ. من يدري؟ ربما أكون ذاهبة إلى الموت! أشعر أنني سكرى!

تركتهما وركضت إلى غرفة نومها.

ـ لقد طردتنا. غمغم راكيتين. فلننصرف. ضقت ذرعاً بهذا الصراخ تطلقه امرأة هستيرية. فلنذهب قبل أن يعود الصراخ... والدموع...

انقاد إيليوشا بشكل آلي. كانت العربة في فناء المنزل. خيول تُحلُّ وأناس منهمكون على ضوء قنديل. وأمام الباب خيول ثلاثة جديدة. وما إن نزل كلّ من إيليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فُتحت نافذة غرفة النوم وصاحت غروشنكا بصوت رنان:

ـ عزيزي إيليوشا، أبلغ أخاك ميتينكا سلامي، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة التي هي أنا. كرر على مسمعه ما سأقول: «وهبتْ غروشنكا نفسها لرجل بائس وليس لك أنت النبيل». قل له أيضاً إنني أحببته ساعة، ساعة واحدة، وليتذكر تلك الساعة مدى الحياة، إن غروشنكا هي التي تطلب منه...

أنهت كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة.

ـ إنها تغمد سكيناً في قلب أخيك ميتيا ثم تريد أن يتذكرها مدى الحياة. يا لَلسّاديّة!

لم يجب إيليوشا بشيء. كأنه لم يسمع. إنه يسير إلى جانب راكيتين بخطىً حثيثة. كان في الواقع مذهولاً يسير كآلة. شعر راكيتين بألم عميق كأن أحداً قد غرز إصبعهُ في جرح له لم يلتئم بعد. ليست هذه هي الخاتمة التي كان يأملها للقاء بين إيليوشا وغروشنكا. لقد حدث كل شيء على غير ما كان يتوقع. قال وهو يحاول أن يسيطر على مزاجه:

ـ إنه بولندي، صاحبها الضابط. لكنه الآن ليس ضابطاً. لقد عمل في إدارة الجمارك في سيبيريا على الحدود الصينية. إنه طرحٌ حقير. قيل إنه طُرد من وظيفته. والأرجح أنه عرف أن غروشنكا قد جمعت بعض المال، فها هو يعود، وهذه هي المعجزة بكاملها!

ما يزال إيليوشا صامتاً. ولم يطق راكيتين صبراً. فقال وهو يضحك بسخرية وخبث:

ـ إيه! هلّا أوضحت لها الحقيقة، هذه الخاطئة؟ هل رددتَ المرأة

المومس إلى طريق الصواب؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها؟ هذه هي المعجزة التي طالما انتظرها الناس منذ هذا الصباح.

ـ اسكت يا راكيتين! أجاب إيليوشا متألماً.

ـ أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين تحتقرني الآن؟ لقد بعت صديقاً لي؟ لكن لست أنت المسيح، فيما أعلم، وأنا يهوذا.

ـ أؤكد لك أنني لم أكن أفكر في هذا الأمر. أنت الذي تذكّرني به الآن.

قال إيليوشا، فغضب راكيتين بشدة وصاح قائلاً:

ـ فليأخذكم الشيطان جمعاً وفرادى! ولم، يا إلهي، ارتبطت بك! لا أريد أن أعرفك بعد الآن! اذهب في سبيلك وحدك، فهناك ستكون الأفضل!

وسار فجأة في شارع آخر تاركاً إيليوشا وحده في الليل. فخرج هذا الأخير من المدينة وعاد إلى الدير عبر الحقول.

IV

قانا الجليل

كان الوقت متأخراً عندما وصل إيليوشا إلى المنسك بالنسبة إلى الأنظمة المتَّبعة في الدير. ولأنه وصل بعد الوقت المسموح به، سمح له البواب بالدخول من ممرّ جانبي. كانت قد دقت الساعة التاسعة، ساعة الاستراحة العامة والنوم بعد نهار مضطرب بالنسبة إلى الجميع. فتح إيليوشا الباب بوجل ودخل إلى الغرفة التي سُجّي فيها تابوت الراهب العجوز. ما كان يوجد فيها سوى الأب باييسي الذي كان يقرأ الإنجيل أمام نعش المتوفَّى، والراهب المبتدىء بروفير الذي أنهكه حديث الليلة السابقة وأتعبته انفعالات النهار، والذي كان ينام على الأرض في الغرفة المجاورة نوماً عميقاً يتيحه له شبابه. ولم يُدر الأب باييسي رأسه رغم أنه سمع دخول إيليوشا. اتجه هذا الأخير إلى الزاوية التي على يمين الباب، وركع وشرع يصلّي. طافحةً كانت نفسه لكن بشكل مضطرب ولم يصدر عنه أي إحساس من خلال التعبير عن نفسه بقوة بل على العكس، كان يطرد أحدها الآخر في نوع من الدوار الهادئ والمطمئن. لكن إيليوشا قد أحسَّ بعذوبة في قلبه. والعجيب أنه لم يستغرب ذلك. كان يرى أمامه مجدداً هذا التابوت الذي يحوي جثمان الراحل المحبوب، لكنه

لم يعد يشعر في نفسه بتلك الشفقة النحيبية المتأوهة والمعذبة التي كان يشعر بها في الصباح. عندما وصل ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل مقدس لكن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه. كانت إحدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، وكان الهواء لطيفاً وبارداً بعض الشيء. قال إيليوشا يحدث نفسه: «لا بدَّ أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة». لكن فكرة رائحة التحلُّل التي أثارت في نفسه، عند الصباح، ذلك الاضطراب والتمرد، أصبحت الآن لا تشعره بشيء من الحرج، راح إيليوشا يصلّي بصمت، وقد لاحظ بعد لحظة أنه يردد صلاة بشكل آليّ. إن نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه وتومض في خياله كشرارات ثم لا تلبث أن تنطفىء ليحلّ غيرها محلها. وقد راح، في بعض اللحظات، يصلّي بحرارة وحماسة شاعراً بحاجة جامحة إلى أن يشكر وأن يحبّ... ولا يلبث فكره أن ينتقل إلى شيء آخر، فإذا به يغوص في أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة والتأمل الذي قطع الصلاة. أصاخ بسمعه في لحظة من اللحظات إلى قراءة الأب بابيسي، ثم تملكه التعب، فإذا به ينحدر شيئاً فشيئاً إلى وسنٍ هادىء...

«وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك مدعوة إلى العرس مع تلامذته».

العرس...؟ ما هو العرس...؟ وثارت في فكر إيليوشا عاصفة من الخواطر... هي أيضاً سعيدة... ذهبت إلى احتفال... لم تحمل السكّين... لم يكن ذلك منها إلّا كلاماً طائشاً... حسناً... يجب أن تغفر الأقوال الطائشة لأنها تهدّىء النفس... وبدونها يصبح الألم أشدّ على القلب من أن يحتمل. غاب راكيتين في شارع صغير... سوف يغيب في الشارع الصغير... طالما يفكر في الإهانات التي تلحق به... والطريق... إنها عريضة مستقيمة مشرقة مشعة... نقية كالبلور، والشمس تسطع في نهايتها... ماذا يقرأ؟».

«ولما فرغت الخمرة قالت أم يسوع له: ليس لديهم خمرة...».

«صحيح، لم أتابع القراءة، مع أنني كنت لا أودّ أن تفوتني هذه الفقرة، إنني أحبها كثيراً: عرس قانا الجليل، المعجزة الأولى... تلك المعجزة، المعجزة، ما أروع هذه المعجزة! لم يأتِ يسوع للحزن بل للفرح... أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الأولى... «الذي يحبّ البشر يحب فرحهم أيضاً...». ذلك ما ردَّده الراهب المرشد المتوفَّى بدون انقطاع... لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون فرح، كذلك يقول ميتيا... نعم يا ميتيا... كل ما هو صحيح وعظيم وجميل يشيع منه التسامح الشامل ـ هو الذي كان يقول هذا أيضاً...».

« ... قال يسوع:

قال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد. قالت أمه للخدم: إفعلوا ما يقوله لكم».

«افرحوا... فرح الفقراء، فرح أي كان، فرح الفقراء جداً جداً... لا شك أنهم كانوا فقراء جداً ما دامت الخمرة قد أعوزتهم حتى لعرس... يكتب المؤرخون أن الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبريا، وفي المناطق المجاورة لها كانوا أفقر الناس الذين يمكن أن نتخيلهم في هذا العالم... هذه امرأة عظيمة كانت في العرس، هي أمّه، تشعر في قلبها بأنه لم ينزل إلى الأرض إلّا لهدف وحيد هو أن يقوم بمهمّته الهائلة، وأن نفسه قادرة على أن تشارك في الفرح البسيط الساذج الذي يشعر به هؤلاء المتواضعون المبرأون من المكر، الذين دَعَوه بمحبة إلى حضور عرسهم الذي لا تألق فيه. قال لها يسوع وهو يبتسم بعذوبة: «لم تأتِ ساعتي بعد» (لا شك أنه ابتسم في تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لعذوبتها)... هل صحيح أنه جاء إلى الأرض ليزيد الخمرة في أعراس الفقراء؟ ومع ذلك لم يتردد، وقال نعم، ولبّى طلبها... وعاد ليقرأ».

«قال لهم يسوع املأوا الأجران ماءً، فملأوها إلى فوق.

ثم قال لهم استقوا الآن وقدّموا إلى رئيس السقاة، فقدّموا.

فلما ذاق رئيس السقاة الماء الذي تحوّل خمرة ولم يكن يعرف من أين هي، بينما الخدم الذين كانوا قد استقوا الماء عرفوا، دعا العريس.

وقال له: كل امرىء يضع الخمرة الجيدة أولاً فمتى سكروا وضع الرديئة، أما أنت فقد أبقيت الخمرة الجيدة إلى الآن».

ولكن ما هذا؟ ما معنى هذا؟ لماذا تتسع الغرفة... صحيح... هو الزواج... العرس... طبعاً. هؤلاء هم المدعوون، وهذان هما العريسان، والجمهور المبتهج و... أين هو ذلك الساقي الحكيم جداً؟ ومن هذا؟ نعم؟ ها هي الغرفة تتسع مجدداً... من ذاك الذي ينهض عند الطاولة الكبيرة هناك؟ كيف؟ هو أيضاً هنا؟ لكنه في التابوت... إنه هنا هو ذاته في الوقت نفسه... وقف ورآني... ها هو يجيء إليّ... أيها الرب!».

نعم، اقترب منه، اقترب منه، لقد وصل العجوز نحيل الجسم بتجاعيد وجهه الدقيقة، فرحاً ضاحكاً بعذوبة. لقد اختفى التابوت. وهو يرتدي الملابس التي كان يرتديها يوم أمس خلال ذلك الحديث الأخير مع زائريه؛ وجهه مشرق وعيناه براقتان. «كيف أمكن أن يكون هنا في هذه الحفلة؟ هل دُعي إذن إلى عرس قانا الجليل...» كذلك تساءل إيليوشا.

ـ نعم يا عزيزي، لقد دُعيت أنا أيضاً، دعيت ونوديت. قال الصوت الناعم له من فوقه. لماذا تختبىء هنا؟ تعال، وكن منا...

هو صوته، صوت الراهب المرشد زوسّيما... لا شك أنه هو، ما دام يناديه. ومدَّ الراهب المرشد يده إلى إيليوشا فنهض إيليوشا.

ـ فلنفرح! تابع العجوز الصغير. فلنشرب الخمرة الجديدة، إنها خمرة الفرح الجديد، الفرح العظيم... هل ترى كل هؤلاء المدعوين؟ هذا هو

الخطيب، وهذه هي الخطيبة، وهذا هو الساقي الحكيم جداً يتذوق الخمرة الجديدة. لماذا تنظر إليّ مدهوشاً؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت في هذه الحفلة، وها أنا هنا. كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا بصلة، بصلة صغيرة وحيدة... كيف الأحوال عندنا؟ أنت أيضاً يا ولدي اللطيف لا بدَّ أنك أعطيت بصلة، في هذا اليوم، لجائعة مسكينة. ابدأ مهمتك، واجه عملك، يا صغيري اللطيف... هل ترى شمسنا؟ هو، هل تراه هو؟

ـ أنا خائف لا أجرؤ أن أنظر. تمتم إيليوشا.

ـ لا تخف منه. إنه رهيب بعظمته التي ترفعه فوقنا، هو مخيف بسموه ولكن رحمته لا نهاية لها. لقد جعل نفسه شبيهاً بنا، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا في فرحنا، وحوَّل الماء خمراً حتى لا يتوقف فرح الضيوف، وهو ينتظر مدعوّين آخرين، وما ينفك يدعو منهم المزيد إلى أبد الآبدين. أنظر، ها هم يأتون بالخمرة الجديدة، ها هم يحملون الجرار...

شيء ما كان يحترق في قلب إيليوشا، شيء ملأه فرحاً شديداً حتى الألم، وانبجست دموع حماسة من روحه... ومدَّ ذراعيه، وأطلق صرخة، واستيقظ...

لا يزال التابوت في مكانه، والنافذة مفتوحة، وقراءة الإنجيل الرصينة الوقورة. ولكن إيليوشا لم يصغِ إلى ما كان يُقرأ. كان قد رقد وهو راكع. والغريب أنه الآن واقف على قدميه. وها هو يتقدم فجأة، بخطى سريعة وثابتة ويصبح قرب التابوت، لقد لامس كتف الأب بابيسي دون أن يلحظ ذلك. رفع هذا الأخير عينيه عن كتابه وألقى على إيليوشا نظرة سريعة، لكنه سرعان ما تابع قراءته إذ أدرك أن الفتى كان في حالة غريبة. نظر إيليوشا إلى التابوت نصف دقيقة: تأمل التابوت، تأملَ المتوفَّى الساكن الذي غُطي وجهه ببرقع، ووُضِعت على صدره إيقونة، ولُفّع رأسه بقبعة يزيّنها صليب ذو ثمانية فروع.

لقد سمع إيليوشا صوته قبل بضع لحظات، وما يزال هذا الصوت يتردّد في أذنيه. إنه ينتظر ويصغي... وفجأة استدار وخرج من الغرفة.

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها بسرعة. كانت نفسه التي تطفح حماسة في حاجة إلى فضاء وحرية. القبَّة السماوية تعلوه في جميع الجهات إلى ما لا نهاية، ملأى بنجوم تسطع أشعتها بهدوء. إن المَجَرَّة، التي لا تكاد تُرى بعد، تمتد من السمت إلى الأفق. ويبدو أن ليلة هادئة صامتة ساجية تلفّ الأرض بأكملها. وتشع الأبراج البيضاء والقبب المذهَّبة من الكنيسة في سماء لازوردية. وأزهار الخريف الرائعة تبدو نائمة حتى الفجر في أحواضها المحيطة بالمنزل. إن سكينة الأرض تتحد بسكينة السماء. وإن سرّ الحياة والنجوم... تأمل إيليوشا هذا المنظر، فإذا هو يتهالك فجأة على الأرض كمن خارت قواه.

لم يعرف إيليوشا لماذا قبَّل الأرض، ولماذا أحسّ بمثل هذه الحاجة إلى أن يغمرها بالقبل. كان يقبّلها باكياً فيرويها بدموعه الحرّى وهو يقسم بكثير من الحماسة أن يحبّها على الدوام، إلى دهر الداهرين. «اسقِ الأرض دموع فرحك وأحبَّ دموعك...» سمع هذا الصوت في أعماق نفسه. لماذا يبكي؟ كان يبكي من الحماسة، وكان يبكي لهذه النجوم التي تتأمله من عمق اللانهاية، ولم «يكن يشعر بخجلٍ من هذا الوجد». فالصلات الخفية التي تشده إلى هذه العوالم البعيدة كانت تهتز في قلبه، وكان يحلّق فرحاً من شعوره بنشوء «هذا الاتصال بينه وبين العوالم الأخرى» في نفسه. كان يريد أن يغفر كل شيء لكل الناس، وأن يستغفر أيضاً لا لنفسه وحدها بل لكل الناس وعن كل شيء. وسمع، مجدداً، صوتاً في أعماق نفسه: «إن آخرين سيطلبون لي اللطف». وشعر في الوقت نفسه بإحساس واضح جداً، إحساس يشبه أن يكون جسدياً، أن نفحة قوية خالدة كانت تهبط من القبة السماوية وتجتاح كيانه كلّه شيئاً

فشيئاً، كفكرة تبزغ في روحه لتحكمها إلى دهر الداهرين. كان قد سقط على الأرض كشاب مسكين، ولكنه نهض طوال حياته كمناضل حاسم وهو يعي ذلك جيداً، وشعر بذلك فوراً وفي لحظة جيدة بالذات. ولم يستطع إيليوشا أبداً أن ينسى فيما بعد وطوال حياته، تلك اللحظة. وظلّ يؤكد بعد ذلك، بقناعة عميقة «أنّ أحداً قد دخل نفسه في تلك اللحظة».

بعد ثلاثة أيام، غادر الدير وفقاً لوصية الراهب المرشد المتوفَّى الذي أمره «أن يبقى في العالم».

الإخوة كارامازوف



هناك الأب، فيدور باڤلوڤيتش، ثريّ، مخادع وفاسق، ومعه أولاده الشرعيون الثلاثة: ميتيا المندفع المتعجرف والمتوحش؛ إيڤان، المثقف، المرهف والعنيد؛ آليوشا، الصادق، التقي والبسيط. ثم هناك الابن غير الشرعي، سميرديكوف، الفاجر والساخر الذي يعيش في كنف أبيه كخادم. أحدهما سيكون قاتلاً.

رواية *الإخوة كارامازوف* كاملة وهّاجة، تجمع حبكة بوليصية، وعدة قصص حب، واستعراضات لاهوتية وميتافيزيقية باهرة، وشخصيات لا تنسى تمزقهم صراعاتهم الداخلية. إنها بلا شك رائعة دوستويفسكي. بهذا الإصدار يكتمل المشروع الضخم لإعادة ترجمة روايات دوستويفسكي الذي أطلقه أندريه ماركوفيتش منذ عدة سنوات.

ولد فيدور ميخايلوفيتش دوستويفسكي في موسكو، في الثلاثين من تشرين الثاني/ أكتوبر ١٨٢١، ودخل معترك الأدب في كانون الثاني/ يناير من العام ١٨٤٦ بنشر عمله الأول الذي حمل عنوان: القوم البسطاء. وقد وافته المنية في سان بيترسبورغ في ٢٨ كانون الثاني/ يناير عام ١٨٨١.

